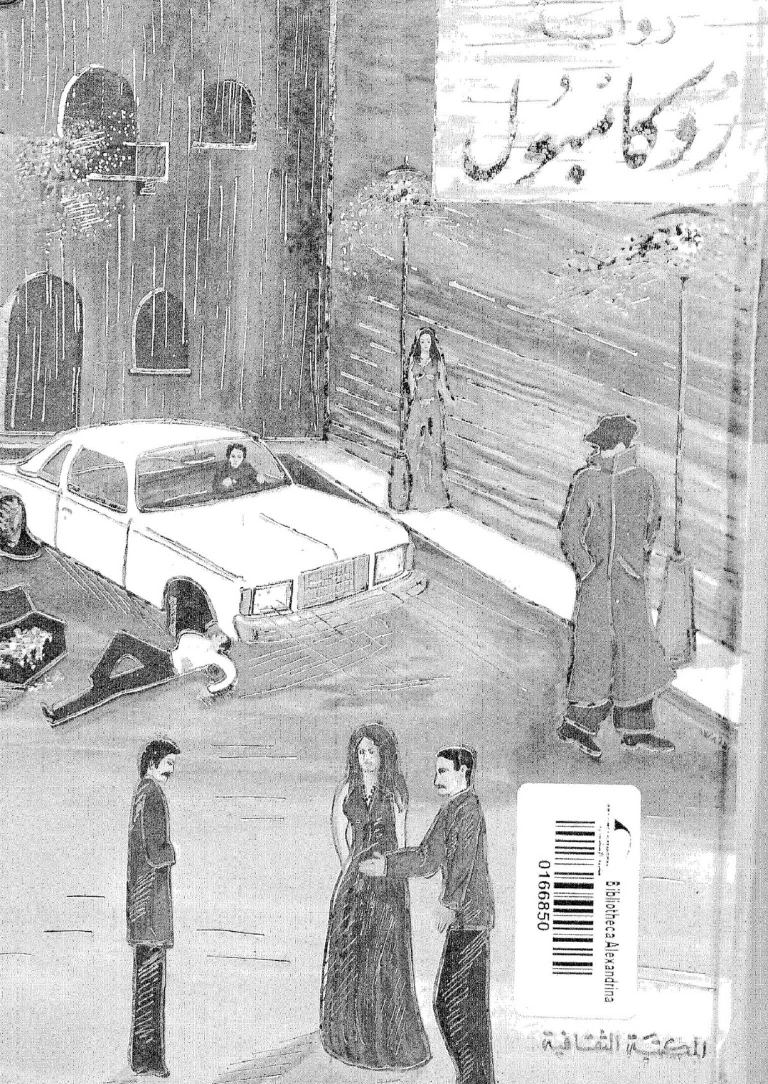

رواية
روكامبول
المكتبة الثقافية

روكامبول

المجلد الرابع والأخير

رواية

روكامبول

المجلد الرابع

يحتوي هذا المجلد على :

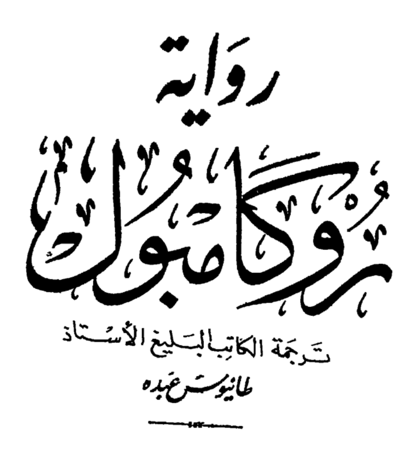
قلب المرأة

تلميذ روكامبول

روكامبول في السجن

مذكرة مجنون

خاتمة روكامبول



ترجمة الكاتب البليغ الأستاذ

طانيوس عبده

الجزء الثالث عشر

قلب المرأة

المكتبة الثقافية
بيروت - لبنان

قلب المرأة

- ١ -

عرف القراء ، من رواية ابن ارلندا ، كيف فاز الرجل العبوس بانقاذ ذلك الغلام الذي كانت ارلندا يحملتها عاقدة آمالها عليه . وكيف أن اللورد بالمير ، عم هذا الفتى ، ومس الن ، إبنة ذلك اللورد ، يبذلان ما يسعهما من الجهد في سبيل الاستيلاء على هذا الفتى طمعاً بثروته وابتغاء تشتيت شمل الارلنديين بعد فقد زعيمهم .

ونحن نبسط للقراء في هذه الرواية ما جرى من الحوادث الغريبة بين الرجل العبوس وبين تلك الفتاة إبنة اللورد ، التي أقسمت على التنكيل بالرجل العبوس منقذ زعيم الارلنديين وساعدهم الأيمن في المهمات .

وكان آخر عهدنا بالرجل العبوس انه صعد بالفتى من فسحة السجن إلى تلك الغرفة المشرفة عليها حيث كانت والدة الفتى وشوكنج وانه حاول إنقاذ جوهان كولدن فلم يفز لانقطاع الحبل به .

فلما دفع الغلام الى أمه كان مشهداً مؤثراً لا يحيط به وصف .

وكان الرجل العبوس أعد مركبة تنتظر على باب المنزل فقال للارلندية: كفى يا ابنتي وهلم بنا إلى الفرار لأننا غير آمنين في هذا المنزل وإذا بقينا به هنيهة فقد يقبضون علينا ونساق جميعنا إلى السجن .

ثم خرج بها وبالفتى وبشوكنج فركبوا تلك المركبة وسارت بهم فأخذ الرجل العبوس يد الارلندية وقال لها : إني قد رددت اليك ابنك ولكنه محكوم عليه بالسجن خمسة أعوام، وقد ارتكب فوق جناية الفرار من سجنه وقتل بسببه أحد حراس السجن .

وأريد بذلك ان ابنك ليس لك الآن ، بل هو للبوليس ويجب ان نبالغ في الحرص عليه .

فطوقت الارلندية ولدها بذراعيها كأنما الخطر قد تمثل لها حقيقة وقالت : إني أحميه .

فابتسم الرجل العبوس وقال : ولكن الأفضل أن نحذر من البوليس .

– كيف ذلك ؟

– ذلك ما أتعهد به إذا كنت تثقين بي .

فأجفلت الارلندية وقالت : العلك تريد أن تفصلني عن ولدي أيضاً ؟

– كلا ولكني سأجد طريقة تستطيعين ان تريه بها كل يوم بل كل ساعة . ألم تسمعي بمدرسة أبناء المسيح ؟

فنظرت اليه نظرة انذهال وقالت : كلا .

– إنها مدرسة إذا دخل اليها الفتى وتزيا بزي تلامذتها لا تستطيع الحكومة القبض عليه لما لها من الامتيازات ، لأن ابنك قد بات الآن بين خطرين ، أحدهما خطر الحكومة التي حكمت عليه ، ولا بد لها من البحث عنه بعد فراره .

والثاني وهو الخطر الأشد ، اللورد بالمير ، قاتل أخيه زوجك وعم ولدك ،

فهو لا يفتأ يبحث عنه مع فتاته .

ولذلك فقد وجب ان نغير اسم ولدك وندخله في هذه المدرسة بحيث يبيت فيها آمناً كل خطر .

وإني سأفعل جميع ذلك غير اني أحتاج إلى مهلة يومين يجب ان أحذر بها عليكما كل الحذر ولا أستطيع ذلك إلا اذا أطعتني طاعة لا حد لها .

— ومتى عصيتك يا سيدي في أمر منذ عرفتك الى الآن ؟

فلم يجبها الرجل العبوس وجعل ينظر إلى مياه التميس مفكراً والمركبة تسير على ضفته إلى ان وقف السائق بها حيث أمر .

فقال لها العبوس : لقد وصلنا يا ابنتي فانزلي .

ثم وثب من المركبة الى الأرض وأنزل الفتى ثم خرجت الارلندية من المركبة ونظرت إلى ما حولها فرأت خلاء متسعاً ليس فيه غير بعض بيوت صغيرة متفرقة وفي وسط هذا الخلاء كنيسة كاثوليكية تحيط بها مقبرة متسعة وهي كنيسة سانت جورج الكاتدرائية .

فقال العبوس عند ذلك لشوكنج : إذهب الآن في شأنك ، وعند الصباح تذهب إلى سانت جيل فترى الأب صموئيل وتقول له ان الأمور قد جرت على ما تمنيناه وان الغلام قد نجا .

فذهب شوكنج بالمركبة وعاد الرجل العبوس إلى الارلندية فقال لها : إننا سنكون بأمن هنا من رجال الحكومة إذ لا يوجد في جميع لندرا بوليس يجسر على أن يبحث عنا في المقابر .

ثم سار بها وبالفتى في تلك المقبرة التي كانت قبورها البيضاء تظهر للعين على شدة الظلام حتى وصلوا إلى الكنيسة ، فقرع الرجل العبوس بابها ففتح الباب على الفور وظهر رجل يحمل بيده مصباحاً فقال له العبوس : إننا نحن الذين تنتظرهم .

قال له الرجل : من أرسلكم ؟

– أرسلنا ذلك الذي نخضع له كلنا ، إلى ان يبلغ الزعيم رشده ، ويغدو رجلاً .
– إذاً أدخلوا .

– ٢ –

وكان هذا الرجل شيخاً أحنت ظهره الأيام وبيضت شعره السنون وطالت لحيته حتى بلغت صدره .

فلما دخلوا أقفل الباب وسار أمامهم بمصباحه ، فاجتاز إلى الكنيسة ، ثم صعد بهم سلماً يؤدي إلى جرس الكنيسة ، وهناك غرفة تحت قبة الجرس دخلوا اليها .

فقال الرجل العبوس للارلندية : هوذا المكان الذي تختبئين فيه مع ولدك وإني استحلفك بأبيك وباسم ارلندا أن لا تبرحي هذا المكان إلا حين أعود اليك بنفسي .

وأنت هنا في مأمن مع ولدك حتى ولو وشوا بك إلى البوليس فإنه لا يجسر على الدخول اليه ، ولكنه إذا علم بوجودك مع ولدك في هذه الكنيسة طوقها بالرقباء إلى أن تخرجي منها فيطول سجنك في الغرفة .
– لا أبالي بالسجن مهما طال عهده إذا كان ولدي معي .
– إذاً اقسمي لي انك لا تبرحين الحجرة .
– أقسم لك بتربة زوجي الشهيد .
– وأنا سأعود اليك بعد يومين .

ثم قبل الفتى وودعها وانصرف .
ولما خرج من الحجرة لقي الشيخ حارس الكنيسة ينتظره فسأله : أحقيقة

ما قلته لي أنه في كل يوم تأتي امرأة بملابس السواد عند الفجر تبكي وتصلي فوق أحد القبور ؟

– نعم يا سيدي فإني أفتح باب المقبرة في الساعة السادسة من صباح كل يوم فأجدها على الباب .

– إذاً تقفل الباب في كل ليلة ؟

– نعم وإنما أبقيته مفتوحاً الليلة من أجلك .

– وبعد ذلك ماذا تصنع تلك المرأة ؟

– تدخل الى المقبرة . ولم أر وجهها إلى الآن لأنها تتبرقع بنقاب كثيف وتذهب إلى القبور .

– أما رأيتها عند أي قبر تقف ؟

– نعم .

– إذاً سر أمامي ودلني عليه .

فسار الشيخ أمامه وهو يبسط أشعة مصباحه على القبور كي يهتدي إلى القبر . وكان الرجل العبوس يقول في نفسه : إذا كانت هذه المرأة هي التي أظنها فقد أصبح اللورد بالمير في قبضتي وبت قادراً على قتال مبس الن مقاتلة الأكفاء للأكفاء .

وبعد هنيهة وقف الشيخ أمام قبر ، فأخذ العبوس المصباح من يده وأدناه من الضريح فرأى مكتوباً عليه :

« هذا ضريح ديك هارمون ، مات في العشرين من عمره ، شهيد الغرام» .

فقال للشيخ : أهنا تقف المرأة وتبكي ؟

– نعم .

ولم يكن يوجد تاريخ تحت الكتابة ، غير أن ظاهر الضريح كان يدل على انه حديث البناء ، فقال الرجل العبوس للشيخ : أتعلم متى دفن

هذا الشاب ؟

– كلا ولكني أشاهد تلك المرأة من عهد قريب كل يوم دون انقطاع وقد أخبرت الأب صموئيل بما رأيته .

– حسناً فقد عرفت ما كنت أريد ان أعرفه .

ثم أقفل راجعاً ولكنه لم يخرج من باب المقبرة بل عاد إلى الكنيسة فدهش الشيخ وقال له : الملك تريد مقابلة الارلندية أيضاً ؟

– كلا ولكني أريد ان أنتظر في الكنيسة إلى ان تحين الساعة التي تحضر فيها المرأة .

ثم تركه ومضى الى مكان الاعتراف ودخل اليه .

أما الشيخ فإنه كان يعلم أن الرجل العبوس من كبار زعماء الارلنديين فلم يعترضه بشيء ، بل انحنى أمامه وقال : متى تريد يا سيدي ، أن أوقظك ؟

– متى فتحت باب المقبرة .

فانصرف الشيخ والتف العبوس بردائه ونام نوماً هادئاً .

وعند الصباح أقبل الشيخ لايقاظه ، فوجده مستيقظاً ، فقال له : أفتحت الباب ؟

– نعم .

– أأتت المرأة ؟

– كلا ولكنها ستحضر قريباً .

فتركه العبوس وذهب إلى ذلك الضريح الذي رآه في الليل ، واختبأ وراء ضريح يشرف عليه .

ولم تمر هنيهة حتى رأى المرأة مقبلة وهي مقنعة بقناع كثيف ، فمشت تواً إلى الضريح حتى إذا وصلت اليه ركعت أمامه وجعلت تبكي وتنتحب وتقول أقوالاً تقطع القلوب من الاشفاق ، فكان مما قالته وسمعه العبوس . أين

أنت يا ولدي ؟ أحق ان الأموات لا يرجعون ؟ وما بالك لا تجيب نداء أمك ولا ترثي لنحيبها ؟ ألم تكن بي براً رحوماً .. فما للعهد غير فيك يا ولدي .. وكيف أنا عائشة بعدك .. إنهم قتلوك حباً ولكنهم قتلوني دونك فإنما الميت ميت الأحياء .

ثم تشهق وتنتحب وتـذرف الدمع السخين ، وتنادي ولدهـا بأشجى النداء ، كأنما هي ترجو أن يجيب نداءها ، حتى إذا ثاب اليها رشدها ورأت أنها تخاطب ميتاً حبست دمعها المنسكب وانصرفت الى الصلاة عن نفس فقيدها الحبيب .

ثم نهضت نهوض القانطين ، وذعرت حـين رأت الشمس مرتفعة كأنها خشيت أن يفاجئها أحد وهي في هذا الموقف . فأسرعت الى ضريح ولدها وقبلت ذلك الحجر المنقوش عليه اسمه قبلة الخاشع ، وعادت مسرعة من حيث أتت .

وعند ذلك سار الرجل العبوس في أثرها ، وهي لا تراه حتى انتهت الى منزلها وهو في زقاق ضيق . وحاولت ان تدخـل ، فأسرع العبوس ووضع يده على كتفهافالتفتت اليه مرتعبة وهمت أن تصيح ولكنه بادرها باشارة سرية من أشائر الارلنديين وذهب اضطرابها وجعلت تنظر اليه بدهش ، فقال لها : الست والدة ديك ؟

فجزعت تلك الأم عند سماع أسم ولدها الميت وقالت له : بالله لا تذكر هذا الاسم أمامي وأشفق علي .

— إني كنت صديق ديك وأنت أمه .

— قلت لك لا تذكر هذا الاسم فإنهم يقتلوني أيضاً إذا عرفوا إني في قيد الحياة لأنهم يعتقدون اني ميتة كولدي ، ولم يبق لي غـير عزاء واحد في هـذه الحياة التعيسة وهو اني أذهب عند مطلع كل فجر فأبكي على ضريحه فاذا علم الذين قتلوه اني في قيد الحياة كان الخطر عظيماً علي .

ـ لقد كان الخطر عظيماً أمس أما اليوم فقد زال كل خطر .

ـ لماذا ؟

ـ ذلك لأني سأحميك فإني كنت صديق ولدك وأنا ألد أعداء مس الن بالمير التي مات ابنك ضحية هواها .

فصاحت المرأة عند ذلك صيحة خرجت معها مكنونات صدرها .

فقال لها الرجل العبوس : لا تفوهي بحرف هنا ، وادخلي بي الى منزلك ، إذ يجب أن أعرف كل شيء ، كي أستطيع ان أنتقم لابنك الحبيب .

- ٣ -

ثم أخذ العبوس بيدها ودخل بها الى منزلها فذهبت تلك الأم المنكودة الى غرفة ففتحتها وقالت : هنا مات ولدي .

ثم انطرحت على مقعد في تلك الغرفة ، وهي واهية القوى ، وقالت للرجل العبوس : تقول انك عرفت ولدي ، وكنت صديقاً له ، فأين كنت تراه ؟

ـ في ويت هال .

ـ لا أعرف ذاك المكان الذي تذكره ، ولكني كنت أعلم ان ولدي كان يبرح المنزل كل ليلة ، فما كنت أعترضه ، إذ كنت أراه يكاد يجن من يأسه .

فقال العبوس : إني غادرت لندرا مدة ثم عدت اليها فأخبروني ان ابنك قد مات شهيد الغرام ولم أجد بين إخوانه من يخبرني حقيقة أمره ولذلك أردت أن أعلم منك كل شيء بالتفصيل .

فوثقت تلك الأم منه لما رأته من دلائل الصدق والوفاء بين عينيه ولا سيما أنه قد أشار لها تلك الاشارة الدالة على انه مثلها من الارلنديين ، فحكت له حكايتها كما يأتي :

– إني امرأة ارلندية كان زوجي إنكليزياً ، وهو من جنود البحارة فرآني يوماً في أحد موانيء ارلندا ، وتزوج بي على اختلاف مذهبينا فتبعته الى لندرا .

وبعد سنة من زواجنا غادرني وسافر في دارعة ، فولدت غلاماً بعد شهر من سفره وما رأيته بعد ذلك العهد لأن تلك الدارعة غرقت وما نجا أحد من بحارتها فعينت لي الحكومة راتباً صغيراً .

وقد خطر لي عند ذلك ان أعود الى أهلي في ارلندا غير ان مستقبل ولدي أثناني عن السفر فاستخدمت في محل تجاري فكان راتبي منه وما أقبضه من الحكومة يساعداني على تربية ولدي وتعليمه .

ولما بلغ السادسة عشرة من عمره ترك المدرسة واستخدم في أحد المصارف براتب كان يكفينا فمنعني عن العمل وأقمنا في هذا المنزل الذي تراه .

ودام ذلك عامين كنت في خلالهما أسعد أم وأسعد إمرأة إلى أن جاءنا يوماً صاحب المنزل الذي نقيم فيه فقال لولدي : ان أرض هذا المنزل للورد من اعظم نبلاء انكلترا ، وان هذا اللورد محتاج إلى سكرتير فهل تريد أن تكون في خدمته فأسعى لك بهذا السعي فانك تكسب منه ضعف ما تكسبه الآن .

فما ترددنا في قبول هذا الاقتراح ، وفي اليوم التالي ذهب بولدي إلى اللورد فأعجب بذكائه وعينه سكرتيراً له ، فكان في كل يوم يذهب إلى منزله فيكتب له باملائه جميع رسائله .

ومضى على ذلك شهران وانا أحسب نفسي سعيدة بسعادة ولدي ، وقد تغيرت عوائده تغيراً فجائياً لم أفطن له في ذلك العهد ، مع أن عيون الأمهات تنفذ إلى أعماق قلوب أبنائهن فلا تخفاهن خافية من أسرارها .

فقد كان من عادته قبل دخوله في خدمة اللورد ان لا يكترث للبهرجة والزينة وكانت ملابسه على أتم البساطة ، لكن عاداته تغيرت بعد ذلك ، فأصبح شديد التأنق كثير البهرجة ، ثم تبدلت أخلاقه من الزهو الى الانقباض بالتدريج فما مر به عهد طويل حتى تجهم وجهه ، ولم يعد يلقى إلا مقطب الجبين ، فما شككت أن الغرام قد نفذ الى قلبه .

وقد اتى لي يوماً قائلاً . إن اللورد بالمير كثرت أشغاله في هذه الأيام لانعقاد جلسات البرلمان ، وإنه مضطر الى الاشتغال معه في الليل . فصدقته وبقي شهران يخرج كل ليلة بعد العشاء ، ومن ذلك العهد بدأت حياته السرية ، وبدأ عذابه وعذابي ، فكنت يوماً أرى وجهه مقتماً بظلمات اليأس فينقبض قلبي ، ويوماً أراه مشرقاً بنور البشر فأفرح لفرحه ، لكنه لم يكن يبوح لي بشيء من مكنونات صدره .

وما زلت معه بين اليأس والرجاء إلى أن جاءني يوماً وعلائم السرور بادية بين عينيه فقال: لقد حان لي أن أبوح لك بسري فإني أحب ابنة اللورد بالمير.
فذعرت لهول هذا الخبر وقلت : ويحك ايها التعس كيف تحبها وبينكما هذا التباين في المقام ؟
— ولكنها تحبني .

فجعلت أبكي وأتوسل اليه أن يرجع عن هذا الجنون وأن يعتزل خدمة اللورد ، لكنه أبى لاعتقاده أنها تحبه ، وانها راضية بزواجه فاضطررت مكرهة إلى الامتثال ، لأني رأيت السهم قد نفذ ولم يبق سبيل لرده عن هذا الغرام الجائر .

ولا أدري ما جرى بينه وبين هذه الفتاة الهائلة ، ولكني رأيت اليأس قد دب إلى قلبه بعد زمن قريب ، فلم يعد يلين بكلامي ولم يعد يتحدث بغير الموت .
إلى أن أصيب بحمى عقبها هذيان ، فلم يكن يتكلم إلا عن مس الن ولم

أكن أفارقه لحظة ثم خفت وطأة الحمى وزال الهذيان بعد اسبوع ، وكان ذلك اليوم يوم أحد فسول لي القدر المحتوم أن أذهب إلى الكنيسة ، فلما عدت منها رأيته شديد الاصفرار ، فصحت بالرغم عني صيحة ذعر ، أمـا هو فابتسم وقال أسألك العفو يا أماه لما ترينه مني من نكران الجميل فاني قد نسيت أمي الحنون ولم أفتكر إلا بشقائي والخلاص منه .

وعند ذلك رفع عنه الغطاء فصحت صيحة هائلة ذلك اني رأيت الفراش مصبوغاً بدمه الزكي .

وهنا انقطعت عن الحديث وجعلت تبكي بكاء شديداً .

فأخذ الرجل العبوس بيدها وجعل يعزيها بأرق الألفاظ إلى أن حبست دمعها وعادت إلى الحديث فقالت :

– ٤ –

أن القنوط تمكن من صدر ولدي المنكود وطعن نفسه بخنجر ثلاث طعنات

ولما رأيت هذا المنظر الهائل جعلت أصيح مستنجدة فأسرع إلي صاحب البيت ، أما ولدي فإنه قال لي وهو يبتسم : لا فائدة من الاستغاثة يا أماه فقد دنت الساعة .

ولم يكن مخطئاً واأسفاه فإن كل جرح من جراحه الثلاثة كان قاتلاً ولكنه غالب بشبابه الموت ستة وثلاثين ساعة لم يكن يفتر في خلالها عن طلب الغفران مني عما جناه علي ، وعن ترديد إسم الن .

ولما بدأ دور النزاع نظر إلي نظرة الحزين وقال لي : إني أريد يا أمـاه أن أدفن في مقبرة كاثوليكية ، وان تدفن معي هذه المحفظة المختومة فتجعلينها وسادة لرأسي ، فإن هذه المحفظة تحوي الرسائل التي كانت تبعثهـا إلي

تلك الظالمة .

ثم قضى نحبه على صدري فدعوت كاهناً ارلندياً فأخبرته بكل ما حدث وهو الكاهن صموئيل فذهب وعاد بأربعة من الارلنديين وكنت قد وضعت المحفظة بيدي تحت رأسه فأقفلوا التابوت وساروا بذلك الابن الحبيب الذي طالما تمنيت أن أفديه .

وهنا عادت إلى البكاء الأليم حتى لم يبق في جفنيها دمع فقال لها الرجل العبوس . الملك رأيت مس الن ؟

فاضطربت المرأة واتقدت عيناها حين سمعت إسم قاتلة ابنها وقالت : نعم رأيتها مرة واحدة وعلمت أن ولدي قد أحبها لفرط جمالها وأنها قتلته لما رأيت في عينيها من دلائل المكر والشر .

– أين رأيتيها يا سيدتي ؟

– رأيتها هنا فقد زارتني بعد وفاة ولدي بيوم واحد وكنت وحدي لا أنيس لي غير اليأس ، فرأيت الباب قد فتح ورأيت فتاة دخلت منه فحسبت حين رأيتها أنها من ملائكة السماء إلى أن كلمتني فعلمت أنها من أبالسة جهنم واليك ما قالته بلهجة السيادة والاستكبار .

أيتها المرأة اني ابنة اللورد ماليير ، وأن ولدك عشقني عشقاً لم أدفعه اليه وقد علمت وعلم ابي أنه لم يخلف لك شيئاً من المال ، ولذلك أتيت اليك كي أعطيك ما في هذه المحفظة من الأوراق المالية فانهاتعينك على العيش وفي مقابل ذلك ان تعطيني جميع أوراق ولدك .

فعلمت انها تريد ان تشتري مني رسائلها اليه ، فدفعت لها محفظتها باحتقار وقلت لها : إن كل اثر لولدي مقدس لا تمسه يدك الدنسة . فخرجت وقد نظرت إلي نظرة ملؤها الضغينة والحقد .

ومر على ذلك ثلاثة أيام وبينما أنا جالسة في الليلة الثالثة أندب ولدي ، رأيت زجاج النافذة قد كسر فجأة ودخل منها رجلان متنكران مقنعان

فهجما علي ووضعا كامة في فمي ، ثم جملا يبحثان في المنزل فعلمت انهما يبحثان عن رسائل مس الن ، ولكنهما ذهبا دون أن يظفرا بشيء لأن الرسائل كانت في الضريح .

وفي اليوم التالي جاء صاحب المنزل وكان من المشفقين علي فقال لي : إن حياتك هنا معرضة للخطر ، فذهبت إلى أقفر شارع في لندرا فاختبأت بـه شهرين وأذاع صاحب المنزل في خلالهما خبر وفاتي ، فلما أيقنت ان خبر وفاتي قد اتصل بمس الن عدت إلى المنزل الذي مات فيه ولدي وأنا لا أخرج منه إلا مرة كل يوم عند الفجر كي أزور الضريح .

وهنا انتهت حكايتها وعادت إلى البكاء ، فوقف الرجل العبوس وقال لها : إذاً قد وضعت رسائل مس الن في الضريح ؟

- نعم .

ـ ألا يعلم بوجودها فيه ؟

ـ لا يعلم بأمرها سواك ، واني لم أبح لك بسرها إلا حين رأيت إشارتك الرئيسية الارلندية التي يجب أن يخضع لها كل الارلنديين .

- وأنا لا أبوح بما اؤتمن عليه من الأسرار فثقي إن دم ولدك لا يذهب هدراً والآن أخبريني كيف تعيشين .

ـ إني أعيش بشغل يدي وبفضل صاحب المنزل الذي أنا فيه .

فأخذ من جيبه قبضة من الجنيهات ودفعها اليهـا قائلاً : ان إرلندا لا تهمل أبناءها .

ثم أفلت منها مسرعاً كأنه لا يريد أن يسمع شكر هذه الأم البائسة وسار في الشارع وهو يقول : لقد أصبحت ابنة بالمير في قبضة يدي .

* * *

وبعد حين كان مع الأب صموئيل يتباحثان عن ابن إرلندا فقال له الكاهن

أرى أن الغلام لا يزال معرضاً للأخطار .

– لا خطر عليه ما زال مختبئاً مع أمه في كنيسة المقبرة .

– ولكن لا يمكن أن يقيا فيها مدة طويلة حذراً من افتضاح أمرهما .

– هو ما تقول لذلك سأذهب الآن واخرجهما إذ قد وجدت مكان ليقيم الغلام فيه ولا يستطيع أحد إخراجه منه .

– أين ؟

– في مدرسة أبناء المسيح ، وهي المدرسة التي بناهـــا إدورد السادس فجعلها تحت رعاية محافظ العاصمة ، وجعل من امتيازاتها ان كل تلميـذ يلبس ملابسها الرسمية لا يستطيع أحد مسه بسوء ولو كان من القاتلين . فلنفرض ان رالف دخل الى هذه المدرسة ولقيه يوماً أحد حراس سجن الطاحون فإنه ينحني أمامه ولا يجسر على القبض عليه .

– إني أعرف جميع ما ذكرته عن امتيازات هـذه المدرسة ، لكني اعلم ايضاً ان إدخال الغلمان في سلك تلامذتها من أصعب الأمور .

– ولكني وجدت طريقة ميسورة ، ألا تذكر انه حين وصول الفتى إلى لندرا مع أمه سرقته إمرأة تدعى مسز فانوشن ؟

– نعم اذكر ، لكني لا أدري ما كانت تريد من سرقته .

– لكني أنا أعلم فإنها أرادت أن تستعيض به عن غلام قتلته وكان أهله عهدوا اليها بتربيته وهذا الغلام إذا كان في قيد الحياة يحق له الدخول إلى هذه المدرسة لأن أباه من الضباط ولذلك سأعيد رالف إلى مسز فانوشن .

فأجفل الكاهن وقال : كيف ذلك ؟

أما الرجل العبوس فانه ابتسم وقـال : أرجوك أن تثق بي ألم تجربني في المهمات ؟

ونظر اليه الكاهن نظرة إعجاب وقال : ولكن من أنت فـاني على طول عهدي بك لم أعرفك إلى الآن ؟

فأطرق العبوس برأسه إلى الأرض وقال : لقد قلت لك اني رجل ارتكب اعظم الآثام وهو يرجو عفو الله بأعظم توبة .

ثم نهض يحاول الذهاب فقال له الكاهن : إلى أين ؟

– إلى مسز فانوش .

ثم ودع الكاهن وخرج من الكنيسة فلقي عند بابها شوكنج ينتظره فقال له : إن فانوش لم تعد إلى منزلها في لندرا وهي لا تزال في همبستاد .

– إذاً هلم بنا اليها .

– ٥ –

لقد تركنا مسز فانوش في الجزء الأول من هذه الحلقة في منزلها في همبستاد وكانت ترسل خادمتها كل يوم إلى لندرا لأنها لم تكن تجسر على الذهاب اليها فقد كانت تخشى ثلاثة أمور ، اولها ان يشكوها اللورد بالمير فتحقق الحكومة في امرها والثاني ان يعود اولئك الرجال الذين بحثوا عن رالف ولم يجدوه والثالث انها كانت تخشى مس اميلي وزوجها ان يطالبانها بولدهما .

وقد مرت العشرة ايام ولم يعد اليها الرجل العبوس واعوانه ولم يأتها أحد من قبل اللورد بالمير .

وفي اليوم العاشر ارسلت خادمتها إلى لنـــدرا كي تبحث لها عن رسائل واقامت تنتظر وهي خائفة وكأنها تتوقع حدوث مصاب ، إلى أن عادت الخادمة تحمل اليها كتاباً ، أخذته وفضته بيـد ترتجف ونظرت الى التوقيـع فاضطرب فؤادها ثم قرأت الكتاب فكان متضمناً هذه الكلمات الوجيزة :

« غداً أحضر مع امرأتي ونرى ولدنا العزيز » ..

وكان هذا الكتاب من الماجور وارلي زوج مسز اميلي ، وضعت فانوش

رأسها بين يديها وقالت : ماذا أعمل الآن ؟ اني قتلت ولدهما منذ عشرة اعوام، أي حين عهد به إلي تخلصاً من نفقاته ، ولم اخبرهما بموتــه كي يواصلا ارسال النفقات وسرقت ابن الأرلندية حين علمت بعزمهما على الحضور كي أجعله بدلاً من ولدهما فهرب الأرلندي مني . رباه كيف أعمل ؟

وكانت الخادمة تسمع كلامها فقالت لها : لا أجد بأساً عليك فان والد الغلام سيذهب إلى منزلك في لندرا فتقول له العجوز انك مسافرة مع الغلام .

فتنهدت فانوش وقالت : ولكنهـا تبيعني بعشرة جنيهـات ، بل إذا دفع لها أقل من هذا المبلغ ترشده الى منزلي هنا . انسيت كيف خانتني مع اللورد بالمير ؟

– لقد اصبت ، إذا شئت فللسافر حقيقة .

– ولكن الى أين نسافر والماجور قادم غداً ؟

– نسافر الى بلدي في ايكوسيا .

– ولكن الماجور يشكوني الى الحكومة ولا بد البوليس ان يعلم في النهاية أين انا ثم يهتدون الى ولتون الذي كان يميلنا على قتل اولئك الأطفال فيحكم علينا بالاعدام جميعاً .

فلم يظهر على الخادمة شيء من علائم الخوف وقالت : أما الشنق فهو أقل ما نستحقه ، ولكن عزائي ان تلك العجوز الشمطاء ستموت معنا ، فلو لم ترشد اللورد بالمير الى منزلك لما اصبنا بهذه النكبة .

ولم تكد الخادمة تتم حديثها حتى سمعتا وقع خطوات في الحديقة فوقفت المرأتان منذعرتين وكان الليل قد ارخى سدوله فلم تريا أحداً ولكنهما كانتـا تسمعان صوت اقتراب الخطوات .

ولم تمض هنيهة حتى رأتا أن باب الغرفة قد فتح وظهر منه شوكنج فرجعت فانوش منذعرة الى الوراء إذ عرفت انه احد اولئـك الرجـال الذين قيدوا اللورد وطلبوا منها رالف .

ثم رأت بعده الرجل العبوس ولكنه لم يكن يلبس تلك الملابس التي رأته فيها منذ عشرة أيام ، بل كان متنكراً بزي البوليس فما شككت انهما قادمان للقبض عليها .

وكان الاثنان مسلحين فاشهر الرجل العبوس مسدسه ودنا من فانوش وقال لها : انك تعلمين ، كما أعلم ، انه لا يوجد جيران لك في هذا المنزل، اذا استغثت لا يجيبك أحد وفوق ذلك اني بملابس البوليس كما ترين

سقطت فانوش راكعة على ركبتها والتمست العفو منه ، فنظر الى شوكنج وأمره ان يذهب بالخادمة الى المطبخ ولا يدعها تهرب ، فأخذ الخادمة ممتثلا ، وبقي العبوس فقال لها : اول ما ابدأ به اني لست آتياً للقبض عليك اطمأني فاذا كنت لم أقبض عليك على ما لدي من براهين على جرائمك فذلك لأني أريد الاتفاق معك فاني أراك ذكية الفؤاد .

فارتعشت فانوش وجال في خاطرها ان هذا الرجل يريد ان يسهل لها سبيل الفرار مقابل مبلغ من المال فقالت له : إني يا سيدي افعل كل ما تريده مني ولكني لست غنية .

فابتسم العبوس وقال : إنك مخطئة فلست بطالب مال فاصغي الي ودعيني اذكر لك شيئاً من أمرك فانك قتلت الى الآن عشرة اطفال منهم ابن الماجور واترلي ، وسيأتي هذا الماجور غداً يطالبك بولده فلا تستطيعين رده اليه ، فيشكوك وينفضح أمرك ولا يكون عقابك غير الشنق .

وكانت فانوش تضطرب اضطراباً شديداً فقال لها : لكن إنقاذك ممكن من جميع هذه الأخطار فان الفتى الارلندي الذي هرب من منزلك قد وجدناه ويمكنك ان تقدميه للماجور بأنه ولده ، فهو لا يعرف ابنه وقد دفعه اليك وهو في المهد منذ عشرة اعوام ولم يره مرة بعد ذلك العهد .

وسألت فانوش : أين هو الفتى ؟

— عندي .

– اترده الي ؟

– كلا ، لكني أضعه في مكان تذهبين اليه مع مسز اميلي والماجور فتجدونه فيه .

– اني لا افهم شيئاً مما تقول ..

– لا بأس إذا لم تفهمي فستعلمين كل شيء فيما بعد ، اما الآن فانظري من هذه النافذة ، الا تجدين المنزل الأحمر المعتزل ؟

– نعم .. لكنه مقفر لا يسكنه احد في الشتاء .

– بل سيسكنه رجل عجوز يجب ان تذهبي اليه وهو يخبرك بما يجب ان تصنعيه ..

– والغلام ؟

– سيكون هناك .

– أيكون وحده ؟

– كلا مع امة .

فأشكل هذا القول على فانوش وعاد اليها سوء الظن بالرجل العبوس فقالت اني لا اعرف ذلك الرجل حتى اني لا اعرف اسمه .

– إنه يدعى ليرتون فاذا ذهبت اليه يستقبلك في الحال ، لكني أرى من دلائل عينيك انك غير واثقة مني فدعيني الان اهديك نصيحة ، وهي ان تفعلي كل ما اقوله لك دون اعتراض ، وإلا فانك لا تسلمين من العقاب الذي تعرفينه .

فاضطربت فانوش وقالت : سأطيعك في كل ما تريد .

– واني أحذرك ايضاً من الفرار فانك لا تخطين خطوة حتى يقبض عليك الجواسيس ، اما إذا لم تخالفي قولي فانك تبيتين آمنة من كل ما تخشينه .

– لكن بقي امر يا سيدي اظنك تجهله ، وهو ان هذا الغلام الأرلندي وافر الذكاء شديد البأس ، فهو يقول للماجور انه ليس بولده الحقيقي

ويشكوني اليه .

— إنك مخطئة فان الغلام سيعانقك حين يراك ويفعل ويقول كل ما تريدينه والان استودعك الله على ان اراك غداً فاحذري ان تنقصي شيئاً مما قلته لك ولا تنسي المشنقة

ثم تركها وذهب الى شوكنج وقال له : هلم بنا فان لدينا مهمة خطيرة يجب قضاؤها في هذه الليلة ..

ومشى امامه فتبعه حتى وصلا الى منزل صغير فقال له الرجل العبوس : اتدري الى اين نحن ذاهبان ؟ ان ذلك لا يخطر في بالك مهمتنا في هذه الليلة نبش قبر ميت .

فاضطرب شوكنج وقال : العل الميت في هذا المنزل ؟

ولم يجبه الرجل العبوس بل صعد امامه وهو يشيعه ففتح إحدى غرفه بمفتاح كان معه ودخل ثم أقفل باب الغرفة .

ونظر شوكنج في أثاث الغرفة فلم يجد فيها غير كرسي وخزانة ومقعد ولكنه لم يجد قبوراً ولا موتى فابتسم العبوس وقال له إن القبور لا تبنى في المنازل أيها الأبله .

— ولكني أراك في هذا المنزل كأنك صاحبه وأنا أعرف منزلك

— إن لي في لندرا عشرين منزلاً فاطمئني فانك لا تنام في الخلاء ما زلت في خدمتي ، أما دخولي إلى هذا المنزل الآن فلكي أتنكر بغير الزي الذي أنا فيه لأن رجال البوليس لا يحفرون القبور .

ثم خلع ثيابه وارتدى بملابس غيرها وخرج مع شوكنج تواً إلى الكنيسة حيث كانت الارلندية وابنها .

وقرع الباب ففتح له حارس الكنيسة ودخل مع شوكنج وقال له : أحدث أمر جديد ؟

— إن الغلام وأمه لا يزالان في الغرفة وقد حضر في هذا المساء الكاهن

حموثيل فقابلهما وأمرني أن أطيعك في كل امر

وقال العبوس لشوكنج انتظرني خارج الكنيسة إلى أن أعود اليك .

وقال لحارس الكنيسة : أحضر لي معدات الحفر لأني أريد ان أنبش القبر الذي تعهده

ثم تركه وصعد إلى الارلندية المقيمة مع ولدها في قبة الجرس .

أما شوكنج فانه وقف عند باب الكنيسة وجعل ينظر نظرات خوف وذعر ، إلى القبور فيضطرب ويقول في نفسه : إني ما خفت في حياتي من الأحياء أما الأموات فلا طاقة لي على لقائهم .

وجعل المسكين ينتفض من الخوف بالرغم عن ثقته الشديدة بالرجل العبوس حتى انه ترحم على أيام شقائه الماضية ، وكاد يندم لانتظامه في خدمة الرجل العبوس .

ثم أقبل العبوس يحمل معدات الحفر فقال لشوكنج : هلم بنا .

فنظر شوكنج إلى تلك المعدات نظرة ذعر وقال : أحق إذاً إننا سننبش قبراً ؟

— متى كنت ممازحاً أيها الأبله ؟

ثم التفت إلى حارس الكنيسة وقال له : متى تفتح باب المقبرة عادة.

— عند الفجر .

— إنني سأذهب هذه الليلة بالفتى وأمه فمتى ذهبنا تقفل باب المقبرة ولا تفتحه إلا قرب الظهر أتدزي لماذا ؟

— لا . . .

.. ذلك كي لا تستطيع تلك المرأة التي تأتي عند كل فجر الحضور غداً حسب عادتها ، فانها ستنبش القبر هذه الليلة ولكن إطمئن فاننا لا نريد أخذ الميت وفي صباح غد تحضر الحفار وتأمره أن يصلح الضريح بحيث إذا جاءت المرأة لا تعلم انه قد نبش .

ثم تركه ومشى بين القبور أمام شوكنج فكان يتبعه ورجلاه تضطربان من الخوف حتى وصلا إلى ضريح شهيد الغرام فأعطى العبوس المصباح لشوكنج ، وجعل يحفر الضريح حتى انتهى إلى التابوت .

وهنا أخذ العرق ينصب من جبين شوكنج وسقط المصباح من يده وانطفأ وجعلت أسنانه تصطك من الخوف وقال العبوس بصوت يتهـــدج الملك يا سيدي تضطرني إلى حمل الجثة . اني أسألك المعذرة فان ذلك فوق طاقتي .

— تباً لك من أبله اتراني تلميذ طبيب يسرق الجثث لتشريحهـا ، إذهب وانتظرني في الكنيسة فسأقضي هذه المهمة وحدي ، بل قف مكانك فقـد فرغت من هذه المهمة .

ثم فتح التابوت دون أن ينير المصباح وأخرج لفـــافة من الورق كانت موضوعة تحت رأس الميت كما اخبرته امه ، وعاد فأهال التراب كما كان وهو يقول : نم آمناً ايها الحبيب فسأنتقم لك .

وعاد إلى الكنيسة وقال للحارس ·

— أصحا الغلام من رقاده ؟

— نعم .

— إذاً قل لأمه تحضر به فاني انتظرهما .

وبعد هنيهة خرج العبوس وشوكنج والغلام وأمه فأقفل الحارس البـاب وركبوا جميعهم مركبة وسارت تنهب الأرض إلى همبستاد .

وكان الرجل العبوس قد أخبر الارلندية بمشروعه فركبت معه دون أن تسأله سؤالاً ، وكذلك ولدها فقد كان آمناً مطمئناً مع والعبوس .

ولما سمع شوكنج العبوس يأمر السائق بالذهاب إلى همبستاد قال له : العلنا عائدين إلى منزل فانوش ؟

فاضطربت الأم ورالف لذكر هذا الاسم لكنهما لم يخافا .

أما العبوس فانه قال : كلا بل نحن ذاهبون إلى منزلي في البرية .

– الك منزل أيضاً في البرية ؟

– ليس منزلي بل منزلك .

فأختبل شوكنج وقال أنا لي منازل في البرية ؟

– نعم أنت ..

ورأى شوكنج ان علائم الجد بادية بين عيني الرجل العبوس فقال له إني رأيتك يا سيدي تخترع العجائب وكنت أول من آمن بك غير اني ليس لي منازل بل ان الغرفة التي استأجرتها ستنتهي مدة إيجارها غداً وربما بت في الخلاء .

فقال له بلهجة المؤنب : العلك انفقت الجنيهات العشرة التي قبضتهـا من اللورد بالمير ؟

فأطرق برأسه خجلا وقال : إني ما قبضت مثل هذا المبلغ في حيـاتي ولما وصل إلى يدي ظننت انه لا يفني وأسرعت في إنفاقه .

لا بأس فان الأموات لا يحتاجون إلى مال ومنازل .

فابتسم وقال لكني حي يا سيدي اكلمك وتكلمني كما ترى .

– أما أنا فسأبرهن لك انك لست ميتاً فقط بل انه لم يعد يوجـد في الأرض إسم شوكنج .

وضحك شوكنج وقال إنني شديد الأمـانة يا سيدي لكن ليس إلى هذا الحد .

اصبر وسترى ، لكنك قائل في نفسك الآن اني من المجانين .

ولم يجبه شوكنج ، لكنه جعل ينظر اليه وعلائم القلق بادية بين عينيه .

ـ واذا طلبت اليك أن تذهب بي إلى بدلام بـدلاً من أن تتبعني إلى همبستاد .. لا تجزع واصبر وسترى ان كل ما قلته لك حقيقة لا ريب فيها .

واندفع شوكنج مع تيار الهواجس وقد كانت حادثة المقـبرة ضعضعت رشده فأجهز كلام العبوس عليه .

ومما زاد في اضطرابه ان الارلندية كانت تسمع كلام الرجل العبوس فـلم يظهر عليها شيء من علائم الدهشة على غرابة تلك الأقوال .

واستمرت المركبة تسير حتى أوقفها العبوس فنظر شوكنج من بابها وقال: اننا ذاهبون الى منزل فانوش .

ـ اتظن ؟

ـ بل اؤكد ، انظر اليس هذا منزلها ؟

ـ دون شك ولكن أخرج الآن من المركبة وسوف تري .

ثم خرج العبوس والارلندية وغلامها ، وخرج بعدهم شوكنج وهو يعجب كيف ان العبوس يهزأ به على ما عرف به من الجد .

وساروا جميعهم بضع خطوات يتقدمهم العبوس الى ان وقف عند منزل مقابل لمنزل فانوش وطرق بابه فأسرع خادمه وفتح الباب .

وعند ذلك التفت شوكنج الى الرجـل العبوس وقـال : الى اين نحن ذاهبون ؟

لزيارة منزلك في البرية .

ـ الا تزال تهزأ بي يا سيدي ؟

ـ ومتى رأيتني مزحت او كذبت ؟

وعند ذلك فتح الباب فدفع العبوس شوكنج وساروا في أثره واجتازوا مماشي الحديقة : ثم دخلوا فسحة متسعة ارضها من المرمر وفيها كثير من التماثيل ففتح الخادم باباً فظهرت منه غرفة مفروشة بأجمل الرياش وفي وسطها مائدة رصفت عليها صحون الطعام وأنواع الشراب ، فقال شوكنج في نفسه : لا شك اني حالم ، لكنه حلم جميل أرجو ان يطول الى ان اشرب ما على هذه المائدة من الشراب .

فجلس العبوس حول المائدة واقتدوا به فقـال لشوكنج : لا شك انك جائع فاننا ما تعشينا بعد .

– ولكني من الأموات يا سيدي وكيف يأكل المائتون ؟

– ان شوكنج الذي مات ولست انت .

.. الست واحداً انا وشوكنج ؟

– سوف ترى انك مخطىء ولكن من كان مثلك من خيرة النبلاء لا يجلس على المائدة بهذه الملابس .

– لنفرض اني امسيت نبيلاً لكني اين اجد غير هذه الثياب ؟

– ان خادم غرفتك يذهب بك الى غرفة التزين فتلبس ما يروق لك .

فجعل شوكنج يجيل نظره بين العبوس والارلندية ويقول : خادم غرفتي غرفة التزين ! لا شك اني حالم ، لكن هذا الحلم سيذهب بعقلي .

وعند ذلك قرع العبوس جرساً ففتح باب ودخل منه خادم فأسرع الى شوكنج وانحنى امامه بملء الاحترام وقال اتأمرون سعادتكم ان اذهب بكم الى غرفة الملابس ؟

فلما رأى شوكنج هذا الاحترام ، وسمع الخادم يلقبه بالقاب السعادة ، دنا من الرجل العبوس وقال له : اقرص يدي بالله علي استفيق فقد راعني هذا الحلم ..

فدفعه العبوس بيده وقال : إذهب ايها الأبله وكفاك حماقة .

فأيقن شوكنج بعد هذه الصدمة انه حقيقة في يقظة وسار في اثر الخـادم وهو يقول في نفسه : ان الرجل الذي يهزأ بالبوليس وتفتح له ابواب السجون غير كثير عليه ان يهزأ بي .

وخرج الخادم من تلك الغرفة يتبعه شوكنج وسار به من فسحة الى فسحة ومن قاعة إلى قاعة ، وشوكنج ينظر إلى ما حوله من فـاخر الرياش نظرات المجانين حتى دخل به إلى قاعة الحمام وقال : يجدر بسعادتك ان تستحم .

فعاد شوكنج إلى الظن انه حالم ، لكنه وجد الحلم جميلاً فخلع ثيابه الرثـة البالية واستحم ، فلما فرغ من الاستحمام التمس منه الخادم أن يمشطه ويزينه فأذن له ثم خرج من الحمام إلى القاعة التي خلع فيها ثيابه فوجد بدلاً من تلك الثياب الرثة قميصاً من أنعم الكتان ، ورباط رقبة أبيض ، وصدرة أزرارها من النحاس الأصفر ، وأخذ الخادم يلبسه بملء الاحترام .

ولما فرغ من جميع ذلك نظر في المرآة فأعجب بنفسه ورأى انه بات يشبه اللوردية فقال له الخـــادم · والآن يا صاحب السعادة أتريد أن أوصلك إلى قاعة الطعام ؟

ونظر عندها شوكنج إلى الخادم نظرة تأنيب وقال له : والآن أيها الوقح ألا تريد الايضاح ؟

— مر يا سيدي ماذا تريد ؟
— اولاً أريد أن أعلم من أنت ؟
— إني خادم غرفة سعادتكم ..
— أراك تلقبني بالقاب السعادة .
— أما أنت اللورد ويلموت ؟
— أنا اللورد ويلموت !؟
— دون شك يا سيدي ..
— وأين أنا الان ؟

-- في قصرك ..

— ولكن ألا تعلم ايها الأبله من أنا ؟

-- كيف لا أعلم يا سيدي ألم أقل لك انك اللورد ويلموت ؟

— بل اني ادعى شوكنج وليس لي منازل إلا في الحانات .

وعند ذلك سمع صوتاً يقول له عند عتبة الباب : بل انت اللورد ويلموت وهذا القصر قصرك فشوكنج قد مات .

فـــالتفت مذعوراً فرأى الرجل العبوس وقد تردى بتلك الملابس التي كان يلبسها حين كان يدعو نفسه اللورد كورنهيل ، فقال له الرجل العبوس : هلم بنـــا الان إلى العشاء ، وسأخبرك كيف ان شوكنج قد تقمص بجسم اللورد ويلموت .

فمشى شوكنج يريد أن يتبعه ولكن الخادم استوقفه وقال له : لقد نسيت يا سيدي ان تأخذ نقوداً .

فوقع هذا الكلام على شوكنج وقوع المياه الباردة على الرأس وقـال : نقود .. ومن اين تريد ان آخذها ؟

فأجابه العبوس ضاحكاً . إنك تأخذها من خزانتك يا حضرة اللورد .

ثم أراه خزانة جميلة كانت في الغرفة ومفتاحها فيها وقال له إفتحها وخذ منها ما تشاء .

فامتثل وفتح الخزانة بيد ترتجف فقال له : إفتح الان هذا الدرج .

ففتحه واصفر وجهه لما رآه من اكداس الذهب ورجع خطوة الى الوراء وهو يقول ما هذه المناظر إني اكاد اجن .

— إذا كان ذلك فخذ ما تريده من الذهب فينتفع به قبل أن تجن .

فمد شوكنج يده الى المال وهي ترتعش واخذ خمسة جنيهـات وضعها في جيبه ، وإنما اقتصر عليها لأنه ما رأى في حياته مثل هذا القدر من المال ، فراعه منظر الذهب حتى انه لم يستطع اغتنام الفرصة .

أما الرجل العبوس فإنه أخذ بيد شوكنج وقال وهو يبتسم . إنك جائع دون شك .

ـ لا أعلم وكيف تريد ان اعلم إذا كنت جائعاً وانا لا أدري الى الان اذا كنت ميتاً ام حياً ؟

فضحك العبوس وسار به الى المائدة ولم يكن فيها فسأل شوكنج : اين الارلندية وولدها ؟

ـ انهما نائمان ..

ـ أهما نائمان في قصري ؟

ـ نعم ..

فتمعن هنيهة ثم قال له : اني اخدمك يا سيدي منذ عهـــد بعيد ، ألم أخدمك باخلاص ؟

ـ دون شك ..

ـ اذاً اي ذنب جنيته فعاقبتني عنه بالهزء ؟

ـ لست هازئاً بك ولا ريب عندي باخلاصك فاجلس أمـامي واشرب كأساً من الخمر ولنتحدث .

فصب في كأسه وشرب وعند ذلك قام الرجل العبوس الى منضدة صغيرة عليها معدات الكتابة فأدناها من المائدة .

ـ ما هذا ولماذا أدنيت ادوات الكتابة ؟

ـ لتكتب وصيتك .

فصاح شوكنج صيحة منكرة وسقط الكأس من يده وقال : لقد علمت الان سبب قولك لي ان شوكنج قد مات ، فإنك وضعت لي سماً في الخمر التي شربتها ..

- ٧ -

جرى بين الرجل العبوس وشوكنج حديث طويل وفي اليوم التـالي زارت فانوش شوكنج . فلنـدع الآن ما جرى بينهم إلى مقام آخر ولنذهب بتصور القارىء إلى فندق سانت جمس حيث يقيم الماجور واترلي وامرأته مسز اميلي والدا الغلام اللذان أودعاه مسز فانوش .

كانت مسز اميلي قد تزوجت الماجور واترلي بعد موت أبيهـا وهو من الأشراف الأغنيـاء ، ولكنها لم ترث منه شيئاً ، لأن مال الأب لا يرثه غير بكر أبنائه في اصطلاح الانكليز ، وكان زوجها فقيراً فلم يكن لهما غـير راتبه من الجيش .

وقد وصلا إلى لندرا فيانتصاف الليل فذهبا إلى ذلك الفندق وباتا فيه وعند الصباح نهضا باكراً وجعلا يتحدثان ، قالت له امرأته : أأنت واثق من اننـا سنلاقي هذا الولد العزيز بعد الفراق الطويل ؟

— دون شك أيتها العزيزة سأجده حيث تركناه .

— ولكني أشعر بانقباض في نفسي لا أدري له سبباً وأخشى أن يكون اصيب بمكروه ، إننا لم نعلم شيئاً عنه منذ عشرة أعوام .

— اني أؤكد لك انه حي .

فغطت رأسها بين يديها وقالت : أما انا فلا أجسر على تصديق ما تقول .

— ما هذا الجنون أيتها الحبيبة اني أقسم لك بأننا سنجده قوياً جميلاً معافى

— يظهر أن ثقتك شديدة بهذه المرأة التي عهدنا اليها تربيته .

فارتعش الماجور وقال : دون شك .

— مسكين ولدنا ، من يدري كيف يكون مستقبله ؟

— انه لا يكون غنياً ولكنه يخرج جندياً كأبيه .

— ما هذا الظلم الفـادح في شرائعنا ، إن أبي مات عن كثير من

الملايين ورثها أخي البكر . أيكون لأخي مثل تلك الثروة ، ويعيش ولدي فقيراً منكوداً ؟

فسالت دمعة من عين هذا الوالد الحنون وقـال : ليست السعادة بالغنى أيتها الحبيبة ، والآن اني ذاهب إلى منزل تلك المرأة وسأعود اليك قريبـاً بولدنا الحبيب .

– كيف ذلك ألا أذهب معك ؟

– كلا ، إن السفر قد أتعبك ، ثم ان الفرح قد يؤذيك ، فابقى هنـا ، وسأعود بعد ساعة . ثم تركها وركب مركبـة وذهب إلى منزل فانوش في لندرا حتى إذا وصل اليه دق الباب بيد تضطرب ففتحت له الخادمة وقالت : ماذا تريد ؟

– أريد مسز فانوش .

– ان منزلها هنا يا سيدي ، ولكنها ليست في منزلها ، ألست الماجور واترلي ؟

– نعم ، أين ذهبت .

– أنها في منزلها في همبستاد وقد ارسلتني الى هنا كي انتظرك وأذهب بك اليها فانها مع ولدك في البرية .

فصاح الماجور صيحة فرح وقال : أهو بخير ؟

– انه على خير وعافيـة ، فهلم بنـا يا سيدي ، اني أرى دلائل الجزع بادية عليك ..

وسار الاثنان إلى همبستاد وكانت فانوش تنتظر الماجور في غرفتها ، فكان اول سؤال له ، أين ولدي ؟

فابتسمت فانوش وقالت : اني أعلم نفـاد صبرك وشوقك الى لقائه ، غير اني ارجوك ان تصغي إلي ، ان ابنك بخير وعافيـة وهو على مسافة خطوتين من هذا المنزل وسأذهب بك اليه في الحال .

فسكن جأش الماجور وعادت فانوش الى الحديث فقالت : اني عهدت بتربية غلامك الى امرأة ارلندية فربته خير تربية وصار يدعوها بامه فلما ورد كتابك كتبت اليها أن تحضر به .

– ولكن لماذا لم تجيء به إلى هنا ؟

– تفضل يا سيدي وانظر من هذه النافذة ، ألا ترى سور حديقة وانه يوجد وراء هذا السور قصر للورد ارلندي واسع الثروة ، وقد أحب هذا اللورد ولدك حباً شديداً ، وهو يدعى اللورد ويلموت ، فأحب أن يتبناه إذ ليس له أهل ولا بنون ، وانما قلت لك تلك الأقوال كي تعلم السبب لوجوده الآن في قصر اللورد والآن هلم بنا اذا شئت ان تتبعني .

– أأرى ولدي هناك ؟

– دون شك .

وذهب الاثنان الى القصر ، فلما دخلا الحديقة كان رالف يلعب فيها فنظر الى الماجور نظرة انذهال وقالت فانوش له : هوذا ولدك ، فأسرع اليه فحمله بين يديه وصار يضمه الى صدره ويقبله .

وفيما هو على ذلك أقبل خادم وقال له : ان مولاي اللورد ويلموت يعد نفسه سعيداً باستقبال الماجور وابرلي في غرفته فإنه مصاب بداء النقرس ولا يستطيع الخروج لاستقبالك .

فحمل الماجور رالف ، وهو يعتقد انه ولده وذهب إلى ويلموت ، اي إلى صاحبنا شوكنج .

وكانت هذه الرواية قد مثلت مراراً امام مؤلفها الرجل العبوس حتى اتقنوا تمثيلها كل الاتقان .

فلما دخل الماجور رأى إمرأة تذرف الدموع الغزيرة وهي الارلندية فدنت منه قائلة : أتوسل اليك يا سيدي أن لا تفرقني عن ولدي فقد ربيته وغذيته بلبني حتى بت أحبه .

فتأثر لكلامها ووعدها بما طلبت ، ثم سار وراء الخادم إلى غرفة اللورد ويلموت فوجد شيخاً هرماً نائماً في سريره وبالقرب منه شخص لابس ملابس سوداء .

وكان هذا الشيخ اللورد ويلموت ،أي شوكنج والرجل الواقف بالقرب منه العبوس ، فحياهما الماجور وجلس قرب السرير ومعه رالف .

ولما خرج الخادم قال ويلموت للماجور مشيراً إلى الرجل العبوس : انه يا سيدي طبيبي الخاص .

فانحنى أمام الطبيب وعاد ويلموت إلى الحديث فقال · إن لهذا الغلام يا سيدي فضلاً عظيماً علي ، فقد كان عزائي الوحيد في متاعبي وأوجاعي ، وقد كان يأتي الي كل يوم فأذكر حين أراه ولداً وحيداً فقدته لما بينهما من الشبه الغريب .

ــ أفقدت ولدك وهو في هذا العمر ؟

فظهرت على اللورد علائم التأثر وقال : نعم ، انه يشبهه في كل شيء ، وأعلم يا سيدي اني أحببت ولدك كما كنت أحب ولدي وأنا الان مصاب بداء عضال فاذن لي أن أضمن مستقبل هذا الغلام الحبيب .

ثم أشار إشارة الى الطبيب فجاءه بمحفظة فأخذها اللورد وقال يخاطب الماجور : انني لا أقرباء لي وليس لي من يرثني فأحببت أن أجعل ابنك وريثي

وكتبت وصيتي بهذا الشأن بحيث لم يبق إلا ان توقع أنت عليهـا كي يصح اني تبنيته وإني جعلته وريثي ولكني اشترط مقابل ذلك شرطاً واحداً .

– قل يا سيدي اللورد ..

– إن ولدك سيكون بفضل الثروة التي سأمنحه اياها من كبار الناس ، ولذلك يجب ان يتعلم خير تعليم وشرطي الذي اقترحه عليك هو أن يتعلم في مدرسة أبناء المسيح ، وان إدخاله سهل عليك لأنك من ضباط الجيش البري ، وأبناء الضباط يؤثرون على سواهم في دخول هذه المدرسة .

– هو ما تقول يا سيدي فإن قضاء هذه المهمة سهل ميسور علي .

– واني ازيد على شرطي اقتراحاً آخر وهو اني احب تنفيذ الشرط في الحال ، اذ قد اموت قريباً لاستفحال دائي ولا تستغرب هـذا الطلب مني يا سيدي فان ولدي الفقيد كان من تلامذة هذه المدرسة .

– اني اقبل يا سيدي جميع شروطك راضياً مسروراً فانني لا أرى احسن من هذه المدرسة .

فأخذ اللورد عند ذلك عقد التبني وعرضه على المـاجور ، وفي هذا العقد بيان ثروة اللورد ، وهي اموال يبلغ ريعها ثلاثين الف جنيه في العام وأراض كثيرة في ارلندا .

فلما رأى الماجور هذه الثروة العظيمة التي ستكون لولده ورأى انـه هو الذي سيتولى ادارتها اخذ القلم ووقع على العقد في الحال .

وعنـد ذلك تنهد الرجل العبوس تنهد الفرج ، لأن هذا الضابط بات مقيداً بعد توقيعه متعهداً بادخال رالف الذي يعتقد انه ولده إلى مـدرسة ابناء المسيح .

اما الماجور فانه قال للورد ويلموت : ان امرأتي تنتظر عودتي الى الفندق بفارغ الصبر لأنها لا تعلم اذا كان ابنها بين الأحياء او الأموات اتأذن لي ياسيدي ان اذهب الى لندرا واعود بها كي تشاركني في التوقيع على العقد ؟

— دون شك فاذهب يا سيدي بأمن الله .

* * *

وبعد ان ذهب المـــاجور قال الطبيب ، اي الرجل العبوس للمرحوم شوكنج : اني راض عنك يا شوكنج فقد احسنت تمثيل دورك .

— اني فهمت كل ما حدث يا سيدي ما خلا امراً واحداً .

— ما هو !

— هو ان رالف بات ابن الماجور وارلي

— ذلك يكون الى ان اظهر للماجور بالبراهين الناصعة ان رالف هو ابن السير ادمون بالمير ، لكن هذا اليوم لا يزال بعيداً وما زال الغلام في هـذه المدرسة نكون آمنين عليه الى ان يبلغ رشده ويتولى زعامة الارلنديين .

— لقد سلمت في ذلك ، لكن هذه الثروة الطائلة لمن تكون ؟

— للغلام ..

— اهي حقيقة ؟

— دون شك ..

— والأرض ؟

— انها بعض ما خصص للمهمة التي نسعى الى قضائها .

— ووالدة الغلام ماذا نصنع بها ؟

— سندخلها بصفة خادمة للغلام .

فنظر شوكنج الى العبوس نظرة اعجاب وكف عن السؤال .

ولنعد الان الى مس الن عقدة هذه الرواية وعدوة الرجل العبوس اللدودة فانها كانت جالسة مع ابيها اللورد بالمير في غرفة اشغاله يتحدثان عن مقـالة كتبتها صحيفة التيمس عن فرار الغلام الارلندي من سجن الطاحون بساعي احد زعماء الارلنديين يلقب بالرجل العبوس ، وان البوليس اعياه التفتيش عن الغلام ، وعن العبوس الذي قتل احد حراس السجن ونوم الاخرين نوم تخدير حتى انها وضعت جائزة لمن يقبض عليه .

وكان ابوها يقرأ هذه المقالة فلما اتم تلاوتها قالت له لقد اخطأت التيمس يا ابي فإن الرجل العبوس ليس من عامة الارلنديين كما ذكرت ، بل هو زعيمهم الأكبر ، وهو نفس الشخص الذي قيدك في منزل تلك المرأة التي ذهبت اليهـا لاحضار رالف ، وهو نفس الشخص الذي تجاسر على الدخول الى غرفتي عنـد انتصاف الليل ، وقد صدقت التيمس بقولها انه سارق الغلام من السجن وهو الذي اخفاه عن العيون .

- ولكن اين خبأه ؟

– اني اعلم ما لم يعلمه البوليس من امره فـــانه نكر الغلام باسم غريب وادخله مدرسة ابناء المسيح فبات البوليس عاجزاً عنه كما تعلم .

فاحتدم اللورد غيظاً وقال · لكن كيف عرفت جميع هذا ؟

- اصغي الي يا ابي اني لست سوى امرأة ولكني اقسمت يميناً محرجة ان احبط مشروع الارلندي واسحق واضعه .

– اني لا افهم ما تقولين

– ان الارلنديين متى فقدوا زعيمهم تفرقوا وتشتت شملهم وما زعيمهم غير هذا الذي يلقبونه بالرجل العبوس ويحسبونه من عوام الناس .

- اتريدين مخاصمة هذا الشخص الشديد ؟

- نعم واني واثقة من الفوز عليه ، لكن بشرط واحد .

- ما هو ؟

- هو ان لا تسألني عن خطتي وتفعل ما اقول لك دون اعتراض .

فاضطرب اللورد وقال : احب يا ابنتي ان ارضيك في كل شأن ، لكني اراك مقتحمة اخطاراً قد تسوء عاقبتها .

فابتسمت الفتاة وقالت : لا انكر يا ابي اني من النساء ، لكن بين جنبي قلباً يحب الانتقام ، وانا اكره هذا الشخص السري كرهاً عجيباً يسدد عزائمي وينيلني مأربي من اسقاطه لذلك يجب ان تطيعني دون ان تسألني عن شيء .

فأطرق اللورد برأسه الى الأرض وقال : سأفعل يا ابنتي كل ما تريدين .

وعلى ذلك فقد اتفق الاثنان على كره الرجل العبوس والانتقام منه .

وكان كره اللورد له انه انتزع منه الغلام وحرمه من تلك الثروة الطائلة التي كان يطمع فيها، وهي تكرهه لأنه امتهنها ودخل الى غرفتها في منتصف الليل ووقف على سرها ، فانه كان اخبرها بالرسائل التي عثر عليها بالضريح فانه لقيها في اليوم التالي وقال لها اني اعرف مكان تلك الرسائل التي كتبتها الى ديك المنكود الذي مات شهيد غرامك فاصبحت منذ ذلك الحين تخضع له صاغرة وتضمر له في نفسها حقداً لا يطفىء حره الا القتل .

وكان الرجل العبوس قد وعدها حين لقيها آخر مرة ان يزورها في اليوم التالي عند انتصاف الليل ، فمضى الزمن المضروب دون ان يحضر ، ولكنها لقيت على المستوقد رسالة لم تعلم كيف اتت ، ففضتها بيد ترتجف وقرأت ما يأتي .

« مس الن .

« سأغيب بضعة ايام فلا استطيع ان آت في الموعد المعين ، لكن اطمئني فاني شديد الحرص على الرسائل فلا تنالها إلا يدي »

« عدوك اللدود »

فجعلت مس الن منذ ذلك اليوم تنتظر الرجل المحبوس كل ليلة ولكنه لم يحضر فزاد حقدها وعولت على قتله شر قتل لأنه بات مطلعاً على اسرارها الفاضحة ، ورأت ان اباها غير كفؤ لإعانتها ،.فعزمت على ان تستعين على عدوها برئيس الأساقفة الانجليكان لما بين الانجليكان والكاثوليك من العداء الديني الذي لا يقارنه عداء

ولما استقرت على هذا الرأي ركبت مركبة وذهبت إلى منزل الأسقف ، لكنها قبل أن تبلغ اليه ذهبت إلى منزل إمرأة فقيرة كانت تستخدمها في أغراضها ، فأوقفت مركبتها في الشارع ودخلت ماشية في الزقاق المؤدي إلى منزلها فعلمت من تلك المرأة ان زوجها في السجن لدين عليه فدفعت لها قيمة الدين وأمرتها ان ترسله اليها بعد خروجه من السجن

وكانت هذه المرأة مريضة فعلمت منها ان الأب صموئيل يعودها في مرضها وينعم عليها بما يقيها شر الجوع فسرت مس الن بهذا الاتفاق إذ باتت واقفة على أثر هذا الكاهن وذهبت من عندها بعدما حذرتها بوجوب كتمان أمرها عن الكاهن .

- ١٠ -

كان الزقاق الذي تسكن فيه هذه المرأة قذراً كثرت فيه الحانات والسكارى ، فبينما كانت مس الن سائرة فيه إلى الشارع حيث تنتظرها المركبة رأت رجلين يتعقبانها فخافت وأسرعت في سيرها ،لكن أحد الرجلين أدركها فتأبط ذراعها ثم خاصرها وقال : إلى أين انت ذاهبة ايتها الحسناء ؟

فأفلتت منه وهربت ، غير انه جعل يركض في اثرها وقد انضم اليه رفيقه فقبض عليها مرة ثانية وقال لها : لقد عرفتك فانك خليلة فارلن عدوي اللدود

اني ضربته أمس ضربة كسرت أسنانه وسأسلبه اليوم خليلته

وحاولت مس الن أن تفلت منه فلم تستطع فقالت له . دعني لست بخليلة هذا الرجل وما سمعت اسمه قبل الآن .

.. بل أنت كاذبة فقد عرفتك وليس خليلك هنا الآن فيحميك .

فتملصت مس الن وجعلت أيضاً تركض ولكن السكير أدركها وفيما هو ضاغط على خصرها أخرجت خنجراً صغيراً من جيبها وطعنته به طعنة نجلاء في صدره فأفلتها الرجل وسقط يخبط بدمه وأسرعت الفتاة بالعدو حتى كادت تبلغ موقف المركبة .

لكن السكارى خرجوا من تلك الحانات لما سمعوه من صياح الرجل وانطلقوا كلهم في أثر الفتاة فلم تمض هنيهة حتى طوقوها وباتت محصورة بينهم وكان بعضهم يتهمها ويقول إنها من أهل الحي ، وبعضهم يقول هي غريبة سارقة ، وآخرون يقولون بل هي قاتلة سفاكة هلموا إلى القبض عليها وجرها إلى مركز البوليس .

أما مس الن فكانت تقاوم ما أمكنها المقاومة وتحاول الفرار ، وفيما هي تناضل عن نفسها سقط البرقع الكثيف التي كانت مقنعة به فانكشف وجهها وظهر جمالها للعيون ، وكان خير شفيع لدى اولئك السكارى حتى ان أحدهم التمس لها عذراً وقال : حرام أن تموت هذه المليحة شنقاً .

فرد آخر : إن الشنق لا مفر منه إذا كان الجريح بات قتيلاً .

أما مس الن فإنها خافت في البدء خوفاً شديداً ، ثم عادت اليها سكينتها فأجالت نظراً تائهاً بين اولئك المتجمهرين وقالت لهم بلهجة السيادة : لقد رأيتم وجهي فهل يوجد من يعرفني ؟

فقال أحد الحاضرين : اني في هذا الحي منذ ثلاثين عاماً فلم أرها في خلالها مرة واحدة .

وعادت مس الن إلى الحديث فقالت . ان هذا الرجل السكير تعرض لي

بالسوء وطاردني إلى أن قبض علي وأراد بي شراً فطعنته دفاعاً عن نفسي ومن منكم لا يدافع عن نفسه في مواقف الخطر ؟

فقال بعض الحاضرين : إنها مصيبة فيما تقول ولا لوم عليها .

وقال آخرون : بل يجب أن تسلم للشرع وهو يحكم بأمرها .

وقالت صاحبة الخمارة لا تغتروا بجمالها ونعومة يديها فإنها من السارقات.

فتحمست مس الن لهذه التهمة وقالت لها : لقد كذبت أيتهـا المرأة ولو عرفتم من أنا لاطرقتم الرؤوس إجلالاً .

فقهقه بعض الحضور وقال : لنذهب بها إلى البوليس فهو أعلم منا باحترام الأشراف

وهنا اختلف المتجمهرون فكان بعضهم معها وبعضهم عليها غير ان الأكثرية كانوا يريدون الذهاب بها إلى مركز البوليس .

وقد اشتد نضالهم حتى كادوا يتخاصمون وكاد الفريق القاضي عليها يفوز بها ، وفيما هم على ذلك دخل رجل بينهم لم يعلم أحد من أين أتى ولكنه انقض عليهم إنقضاض الصاعقة فجعل يبدد شملهم يمنة ويسرة ويدفع مس الن إلى موقف المركبة ، وكان كلما دفع رجلاً من اولئك السكارى سقط على الأرض من قوة الصدمة .

وما زال يفرق عنها الناس وانصارها منهم يساعدونه حتى بلغ بها المركبة ففتح بابها وأدخلها اليها ثم صعد في أثرها وأقفل الباب وأمر السائق أن يسير إلى شارع أدم ستريت .

وعند ذاك تفرست مس الن في ذلك الرجل الذي حماها وأنقذهـا من الافتضاح فلما رأته صاحت صيحة دهش غريبة قابلها بالابتسام ، فانه كان عدوها الرجل العبوس .

ثم تنهدت جزعاً ونظرت إلى هذا العدو الشديد نظرة الوجل الخائف ، فابتسم الرجل العبوس وقال لها : اعترفي يا سيدتي إني أتيت حين الحاجة إلي فأنقذتك .

وزاد إضطراب الفتاة وقالت : انت ..

- نعم أنا كما ترين .

- ولكن من أنت وكيف أجدك في كل سبيل ؟

- إن ذلك من عوامل الصدفة والاتفاق يا سيدتي .

- لكني لا أرى للصدفة دخلاً في شؤونك .

- بل أقسم لك اني وجدت الليلة اتفاقاً في هـذا الشارع فقدر لي أن انقذك مما كنت فيه من الأخطار ، وإني لا أعلم يا سيدتي كيف أتيت إلى هـذا الشارع ولعلك جئت اليه للبحث عن والدة ديك ..

فاضطربت الفتاة لذكر اسم الفتى الذي قتلته حباً وقالت له : اسكت .

- إذاً اسألك المعذرة يا سيدتي عن جلوسي معك في هذه المركبة فاني مـا فعلت ذلك إلا لأني أحب أن أحادثك في بعض الشؤون .

- قل ما تريد فاني مصغية اليك ، وفي هذا المقام لا يسعني إلا شكرك عن انقـاذي هذه الليلة فانهم لو ساروا بي إلى مركز البوليس لأضطررت إلى إظهار اسمي

وقد قالت هذا القول بصوت أجش دل على انها مكرهة بعامل الأدب على شكره ، لكن عينيها كانتا تدلان على ما يضمره قلبها من الحقد والشر .

ولم يكترث العبوس لظواهر حقدها وقال لها . أبدأ يا سيدتي بالاعتذار عن إخلالي بالموعد الذي عينته لك ثم أخبرك أين توجد الرسائل التي كتبتها إلى ديك .

فاصفر وجه الفتاة وخافت خوفاً شديداً حتى انها اسفت لنجاتها من السكارى .

أما الرجل العبوس فإنه مضى في حديثه فقال : إن جواد مركبتك يا سيدتي سريع الجري فقد وصلنا إلى جسر وستمنستر دون ان نتكلم شيئاً وأخشى ان نبلغ منزلك قبل ان يفرغ الحديث .

فأوقفت المركبة وقالت للسائق . لا تذهب بي تواً الى المنزل بل سر بطريق الدير وعرج على ندوة البرلمان وسر من هذا الطريق حتى تصل إلى شارع ترافلفار ثم نظرت إلى الرجل العبوس وقالت له : تكلم يا سيدي فاني مصغية اليك

فقال لها الرجل العبوس : ان ظواهر أعمالي يا سيدتي تدل على اني لست من أهل المدنية ، لكني في الحقيقة على غير ذلك ، ولا انكر اني أخللت بما وعدتك به من زيارتك عند منتصف الليل ، لكني كنت كثير المشاغل ، فانك تعلمين انهم زجوا ابن ارلندا ، اي ابن عمك العزيز ، في سجن الطاحون ، ثم علمت ما كان من إنقاذه وكفى بذلك شاغلاً يمهد الاعتذار ، لكنك تعلمين ايضاً ان قيامة الحكومة قد قامت علي وعينت جائزة لمن يقبض على الرجل العبوس ميتاً او حياً ، فإذا كان الغلام أمن المخاطر ونجا من السجن فإني في أشد مواقف الأخطار .

فقالت له بلهجة المتهكم : العلك تريد يا سيدي ان أحميك وأخفيك عن الرقباء ؟

– بل اني أريد منك فوق ما تظنين وأتوقع منك أشد من الخطر الذي أنا فيه ..

– كيف ذلك ؟

فقال لها : اني ذلك الرجل الذي انقذت الغلام من السجن ، وانا هو ذاك الرجل المتهم بقتل الحارس ، وقد أخذ البوليس يبحث عني فإذا عثروا بي

حوكمت وشنقت وأنت تكرهينني أليس كذلك
– لا أنكر إني أكرهك وان تكون قد انقذتني منذ هنيهة .

. ومع ذلك فاني صحبتك في مركبتك على معرفتي انك عالمة بأمري ، ونحن الآن في شارع البرلمان على قيد خطوتين من مركز البوليس . انظري تجدي البوليس واقفاً على الرصيف فإذا فتحت نافذة المركبة واشرت اليـه يسرع ويقبض علي فلا يكون مصيري عندها الا الشنق ، أهذا جـــل ما ترغبين ؟

وخفق فؤاد الفتاة خفوقاً شديداً وردت ، هذا أكيد .

. ولكنك ترين اني لم أضطرب لهذا الخطر ولا أزال جالساً بقربك غير خائف منك فإني مسلح .

– وماذا يفيدك السلاح مع رجال البوليس ؟

ولكنه يفيدني معك يا مس الن فليس سلاحي المسدس والخنجر بـل هو ذاك السر الذي تعلمينه .

فارتعشت مس الن ولم تجب ومضى في حديثه وقال : لقـد قلت لك يا سيدتي اني انتظر منك أكثر ما تظنين.

– أحقيقة ما تقول وما عساك تريد مني ؟

– أريد ان تكوني حليفتي فيما انا شارع به من المهام .

فضحكت ضحك الهازىء وردت : لا شك انك مجنون .

فقال لها ببرود اصغي الي يا سيدتي ان أباك قد خان ارلندا .

– ان ابي لم يخنها فهو من الانكليز .

– ليكن ما تقولين فاني لا احب مجادلتك بالألفاظ والذي أريده منك إن تشتركي معي في خدمة ارلندا .

– ان هذا لا يكون وان فعلته فلا افعله الا مكرهة مضطرة .

– من يعلم فقد تضطرين .

ثم نظر اليها تلك النظرة التي طالما فعلت في نفسها فعل الكهربائيـــة ، وأطرقت بنظرها كي يزول تأثير نظراته ثم رفعت رأسها وقالت اني اراك معتمداً على تلك الرسائل التي القتها اليك يد الاتفاق او الجناية او الاثم اليست هذه الرسائل عندك ؟

– نعم يا سيدتي .

– من أين أخذتها ؟

- من ضريح ديك هاريسون .

وتنهدت مس الن وقالت في نفسها : لا شك اني بلهـا إذ كان يجب ان يخطر لي هذا الخاطر .

وقد سكتت ولم تجب وقال لها الرجل العبوس ، لقد اخطأت يا مس الن فاني غير معتمد على هذه الرسائل ولكنني ابقيها عندي سلاحاً ادافع به في آخر ساعة .

- على اي شيء تعتمد في حملي على الاشتراك في خدمة ارلندا ؟

– ان قلبك قد بلغ من كرهي الى أبعد الغايات ولكن لا بـــد لي من الاستيلاء على هذا القلب ولا تعقد هذه المحالفة بيننا غير يد الغرام .

تم فتح باب المركبة وهو يقول الى اللقاء يا سيدتي .. لا تخشي امراً لأن رسائلك في مكان أمين .

ووثب من المركبة مسرعاً وجعل يعدو مبتعداً عنها وهي تنظر اليه باهتة معجبة حتى توارى عن الأنظار .

ثم ثابت إلى رشدها فكاد قلبها يتفطر من الغيظ وقالت : إن هذا الرجل قد غلبني ولكن لا بد لي أن أسحقه كما الأفعى .

وكانت العواصف تثور في نفسها وتقول : من هذا الرجل الذي وقف على سري وكيف عرف كل حقيقة من دقائق حياتي وأنا لا أعلم شيئاً من أمره وإني أراه تارة من النبلاء وتارة من العوام . فبينما هو يتنزه في هايد بارك ممتطياً أكرم جواد إذ هو في وينغ في أقذر الحانات ؟

وما هذه النظرات السحرية التي امتاز بها على أقرانه من الرجال ؟ وما هذه القحة التي يبدو بها ، فقد كلمني كمن له سلطان علي وأنذرني واتهم أبي بالخيانة ؟

ولما وصلت الى هذا التصور شعرت أن كبرياءها قد انسحقت فهاجت منها عوامل الانتقام وقالت . إن هذا لا يطاق ولا بد من عقاب هذا الرجل وليس له غير رئيس الأساقفة فلا يفل الحديد إلا الحديد .

ثم أوقفت السائق وقالت سر بي في الحال الى لونتج هيل .

فامتثل السائق وسار جواده ينهب الأرض .

وكانت مس الن تحدث نفسها خلال سير المركبة فتقول: لا جرم أن الكره الديني أشد من الكره السياسي ، وهذا الأسقف سألجأ اليه فيعينني في انتقامي أكثر من مائة وزير .

وبعد ربع ساعة وصلت المركبة الى منزل الأسقف ، فخرجت مس الن منها ودخلت إلى ذلك المنزل ، فأقامت في قاعة الاستقبال وانتظرت فيها قدوم الأسقف .

ثم جاء الأسقف وهو بملابس السواد الدالة على انه من أساقفة الانجليكان فلما دخل إلى الغرفة ورأى مس الن دهش بجمالها ورجع خطوة إلى الوراء كأنما خشي

تجربة الشيطان .

أما مس الن فإنها ابتسمت وقالت له الست يا سيدي بحضرة الأسقف السير بترس تون ؟

فنظر اليها مقطباً وقال : نعم أنا هو

— ليطمئن بالـك يا سيـدي ، فلست طالبة إحسـان ، ومـا أنا من عامة الناس .

— من أنت يا سيدتي ؟

— أرى انك لم تعرفني .

— هو ما تقولين ولكن يخال لي اني رأيتك .

— وأنا قد رأيتك مرتين عند أبي .

فدهش الأسقف وقال : عند أبيك يا سيدتي ؟

— نعم وقد حضرت بجلسكما فكنتما تتحدثان بأمور خطيرة .

فحدق بها وقـال : إنني ذكرت الان إني رأيتـك ، ولكني أرى انك قد تغيرت .

— لم يتغير بي شيء غير ملابسي على اني لا أريد أن أتعب ذاكرتك ، إني أدعى مس الن إبنة اللورد بالمير .

فكان لذكر اسمهـا تأثير شديـد على الأسقف ، فإنـه وقف وانحنى أمامها باحترام ، ثم قال أسألك المعذرة ، يا سيدتي ، فقد عرفتك الآن حق العرفان .

— إذن إعلم يا سيدي الأسقف إني ما أتيت اليك في الساعة العاشرة إلا لأمر خطير .

فانحنى الأسقف أيضاً وقال : إني مصغ اليك .

— إني قادمة من أجل ارلندا .

فاتقدت عينا الأسقف لذكر ارلنـدا وظهرت منها علائم الحقد ، فسرت

مس الن لهذه الملائم وقالت له: إن ابنة اللورد بالمير يا سيدي مطلعة على دقائق السياسة كما لا يخفاك

— لا ريب عندي في ذلك يا سيدتي فقد ذكرت حضورك حين كنت أحادث أباك بهذه الشؤون واشتراكك معنا بالآراء .

— ذلك لأن أبي ليس له كاتم أسرار سواي فأنا أفتح رسائله وأنا أكاتب باسمه كبار الناس ولأبي نفوذ كبير في المجلس الأعلى كما تعلم .

— ذلك أمر مشهور فإنه أشد اللوردية نفوذاً .

— ثم انه ألد عدو لارلندا ولأولئك الأشقياء الارلنديين الذين تفاقم شرهم في هذه الأيام وجعلوا يحاربون انكلترا بالسر .

فاتقدت عينا الأسقف ببارق الحقد .

وأتمت مس الن حديثها وقالت : غير ان أعداءهم أشد من أعداء أبي وأحزابه

فقطب الأسقف جبينه وقال : من هم هؤلاء الأعداء يا سيدتي ؟

— أنت ورجالك .

— أتظنين ؟

— أؤكد لأن العداء السياسي قد يزول بزوال السبب خلافاً للعداء الديني فإن ناره لا تخمد وان الكاهن الانجليكاني يكره الكاثوليكي . وما مقر اولئك الكاثوليك في بلادنا غير ارلندا .

— هو ما تقولين .

— ولأجل هذا أتيتك لأني أذكر انك عرضت على أبي ان تساعده بذلك الجيش السري الذي تتولى أنت قيادته اليس كذلك ؟

فنظر السير بترس تون الى الفتاة دون ان يجيبها فرآها تبتسم ابتسامة ممزوجة بالثقة والهزء كما يبتسم أهل السياسة .

وعادت إلى الحديث فقالت : إن للمذهب الانجليكاني جمعيات دينية لها

أغراض سياسية ، ولديها جمعيات سرية لها نفوذ عظيم على أساقفة المذهب حتى على أسقف كونتوربوري نفسه . وأنا أعلم يا سيدي إنك الزعيم الأكبر لأعظم هذه الجمعيات السرية ، التي عزمت عزماً أكيداً على إبادة الارلنديين .

– هو ما تقولين .

– ولأجل هذا أتيتك لأن أبي أخطأ برفض ما عرضته عليه من المساعدة ، غير أني لا أرتكب ما ارتكبه من الخطأ .

– العل أباك اللورد أدرك هذا الخطأ .

– كلا لست آتية من قبل أبي .

– إذاً من قبل من ؟

فأجابته ببرود : إني آتية من نفسي .

فنظر الأسقف عند ذلك اليها معجباً ، ثم ارتعش حين التقى نظره بنظرها ورأى ذلك الشعاع الذي ينبعث من عينيها ، فيدل على توقد الذكاء وثبات الارادة ، فوثق لفوره بهذه الفتاة زادتها الطبيعة قوة بما وهبتها من سلاح الجمال ، وقال لها : تكلمي يا سيدتي ، إني مصغ اليك وفي إصغائي دلالة على رضاي بمحالفتك .

– إذاً إعلم يا سيدي ، ولا أزيدك علماً انك ورجالك قد ضربتم ارلندا ضربات رهيبة ، ولكنكم لم تفوزوا الى الآن ، لأن توماس الجن ذاك المرابي الخاضع لكم كل الخضوع ، قد أحبطت مساعيه . فإنه ما لبث ان سجن الكاهن صموئيل ، حتى خرج الكاهن من سجنه وعاد الى زعامة قومه .

– أتعرفين هذا ؟

– بل أعرف أيضاً ان أعداءكم الارلنديين كانوا ينتظرون أربعة زعماء اتفقوا على الاجتماع في صباح الاحد في كنيسة سانت جيل ، مع ذلك الكاهن

الذي ذكرته لك .

- هذا أكيد .

- إن الكاهن خرج من السجن ، ولكن الزعماء الأربعة تاهوا في شوارع لندرا ولم يتمكنوا من الاجتماع في الكنيسة لسجن الكاهن في اليوم المعين وهم لا يعرف بعضهم بعضاً .

- هذا أكيد أيضاً .

- وإن توماس الجن كاد يموت قتيلا ، وخرج الكاهن من السجن واجتمع الزعماء الأربعة بعد تفريقهم . ألا ترى يا سيدي ، إنني واقفة على دقائق هذه الحوادث ؟

- هو ما تقولين . ولكني معجب كيف وقفت على هذه الأسرار ؟

- وسيكون عجبك أشد حين تعلم اني أعرف منها فوق ما تعرف. أتذكر يا سيدي كيف أنهم خطفوا ابن ارلندا من السجن ؟

- نعم ، وقد كان خطفه رجل من عمال الارلنديين ، ويلقب بالرجل العبوس .

- وهذا الذي تجهله يا سيدي لأن هذا الرجل ليس من عمالهم ، بل هو زعيمهم الأكبر أرأيت اني علمت ما لم تعلمه وانت رئيس الجمعية السريةالكبرى وما لم يعلمه ابي وهو أعظم رجل في البرلمان ؟

فحاول السير باترسرتون ان يجيبها ولكنها أوقفته باشارة وقالت . ان الرجل الذي عرفت انه زعيم الارلنديين الأكبر ، والذي عجز عنه بوليس لندرا ، قد عرفته انا ورأيته .

فاضطرب الأسقف وقال ، انت رأيته واين كان ذلك ؟

- اني رأيته مرات كثيرة في منزلي وفي الخارج .

- متى ؟

- لقد جاء الى منزلي منذ ثلاثة أسابيع ، ورأيته ايضاً منذ اسبوع

ومنذ ساعة .

– منذ ساعة ؟

– نعم .. وقد كان جالساً أمامي في المركبة ، يكلمني دون كلفة كما أكلمك .

فتعجب الأسقف وقـــال : ولكن ، من أين أتى ذاك الشخص ؟ وماذا يريد ؟

– ان هذا سر من أسراري . والآن ، أتريـد ان تعلم لمـاذا أتيت اليك ؟

– دون شك .

– اذن اعلم انك مع أصحابك تكرهون ارلندا كرهاً قوياً دعا اليه التعصب الديني ولكني أكره ارلندا لأني اكره الشخص الذي يتولى زعامة الارلنديين ويعد لهم فوزاً قد يكون قريباً .

فامتعض وجه الأسقف وقال : كلا ان ذلك لا يكون .

– بل هو كائن اذا تغافلنا عنه ولكني أقسمت يميناً محرجة ان لا تثبط لي همة ولا تتراخى لي عزيمة قبل ان اسحق ذاك الشخص . وهذا هو السبب الذي أتيتك من أجله

واذا تحـالفنا كنت عوني على زعيم الارلنديين ، وكنت عونـك على تمزيق شملهم .

أتريد ان تكون حليفي ؟

فمد الأسقف يده وصافحها ، وقد اتقدت في عيونها بوارق الانتقام . وبات للرجل العبوس عدوان قديران لا يستهان بهما .

ولنعد الآن الى امرأة بادي وهي تلك المرأة التي زارتها مس الن واعطتها ما على زوجها من الدين كي تخرجه من السجن ، وامرتها ان تبعثه اليها بعد إطلاق سراحه .

وفي اليوم التالي أخرجت المرأة زوجهـا من السجن ، وجاءت به الى المنزل ، فسر سروراً عظيماً ، ثم سألها عن الذي احسن اليها ، فقالت له : مس الن .

فلم تظهر عليه علائم الامتنان ، بل انـه امتعض وقال : لا شك انها محتاجة إلي .

— هو ما تقول . انها تنتظرك الليلة .

— اين ؟

— عند باب حديقة منزلها .

فصمت بادي هنيهة ، ثم قال : ان مس الن نبيلة وغنية ، ولكنها شريرة .

— اني اعلم ما تعلمه عنها ، ولكنها محتاجة الينا ، فهي تدفع لنا اجرة خدماتنا .

— واذا ارادت ان تستخدمنا لأمر سيء ؟

فهزت امرأته كتفيها وقالت : ان من برح به الفقر وبات يخشى على اولاده من الموت جوعاً لا يبالي بالمقاصد

فاضطرب بادي وقال . اني بت نادماً لخروجي من السجن .

.. هذا ما كنت اتوقعه منك ، فقد تعودت الكسل حتى بت عاجزاً عن العمل .

وكأنما هذا التقريع قد اثر بالزوج فقال لها اصغي الي يا امرأتي العزيزة ،

انك تعلمين اني انتهي بعد كل جدال بالاذعان لك والامتثال لما تريدين فاعلمي الآن ان مس الن لم تشفق علينا هذا الاشفاق الا وهي تريد ان تستخدمنا في أسوأ المقاصد ، فاذا شئت كنت آلة في يدها ، ولكني اذا اصبت بمكروه ، وكانت عاقبة خدمتي تلك الفتاة الشنق فان تبعة دمائي تقع عليك ، وانت المسؤولة عن بنينا .

– اني راضية بهذه التبعة وانها لن تقع علي .

– اذا كان ذلك فأنا راض وسأذهب الى مس الن كما تريدين .

وتعشى بادي مع امرأته واولاده ثم خرج من المنزل وقال لامرأته . اني ذاهب لمقابلة الأصحاب .

– ولكن احذر ان تنسى الموعد المعين فانها بانتظارك .

ومضى بادي الى احدى الحانات حيث يجتمع اصدقاؤه فلقي اثنين منهم ، فجلس معهما وجعلوا يتحدثون بالأعمال ومشاقها فكان بادي يشكو ويتململ والرفيقان يتشاوران بالنظر .

الى ان بدرت منهما نظرة تدل على الاتفاق فقال له احدهما : لقد خطر لنا ان نشركك في مهمة عهدت الينا يكون لك منها مال وفير .

– ما هي هذه المهمة ؟

– ان الحكومة عينت جائزة قدرها مائتا جنيه لمن يقبض على الرجل العبوس وقد وقفنا على آثار ذاك الشخص الهائل وعلمنا اين يقيم فهل لك ان تكون معنا فيكون لك ثلث الجائزة ؟ اننا نستفيد من قوة ساعدك وانت تستفيد من وقوفنا على آثاره .

– لا ارفض ولا اقبل وسأرجيء جوابي الى الصباح اذ علي مهمة .

فأجابه احدهما لقد اخطأت فان فوزنا مضمون .

– ولكني تعهدت عهداً لا بد لي من قضائه وقد اقضي مهمتي في ساعة واتبعكما فأين تكونان ؟

– في روتشريت قرب الكنيسة وربما كنا في المقبرة
- في أية ساعة ؟
عند انتصاف الليل
- إذاً سأوافيكما .

ثم شرب كأسه وودعها وانصرف إلى منزل مس الن وهو يقول : لا أدري ما تريد مني تلك الفتاة ، ولكني كنت أؤثر لولا امرأتي أن أكون مع هذين الزميلين وأعينهما على سفالة غايتها ، فإنها أشرف من صدق تلك الفتاة كيف كان

* * *

ولندخل الآن إلى قصر اللورد بالمير من حديقته الى غرفة مشرفة عليها حيث كانت مس الن جالسة وحدها تنتظر . فانها بعد ان تعشت مع أبيها تركها وذهب إلى البرلمان ، ودخلت هي الى مخدعها بعد أن منعت الخدم من الدخول اليها .

وكانت قد أقامت في الليلة السابقة في تلك الغرفة ، فكانت تخرج من حين الى حين إلى الحديقة وتطل من بابها ، عساها تجد بادي الذي كانت تنتظره ولم يحضر .

وفي الليلة التالية دخلت الى الغرفة نفسها ولم تكن وحدها بل كان معها الأسقف بترس تون .

وكان كلاهما يتكلمان بصوت منخفض فكانت مس الن تنهض عند كل فترة من الحديث الى النافذة فتطل منها وتصغي .

فسألها الأسقف : العلك تنتظرين قدوم أحد ؟

نعم إني أنتظر ذلك الرجل الذي أخبرتك عنه . وإني معجبة لإبطائه وقد

دفعت لامرأته ما كان عليه من الدين كي تخرجه من السجن

— لعلها لقيت بعض الموانع وما عسى تريدين منه ؟

- إنه ينفعنا نفعاً كبيراً فقد قلت لك ان امرأته وأولاده كانوا عائشين مدة سجنه من فضل كاهن كاثوليكي .

— العله الأب صموئيل زعيم الارلنديين ؟

— هو نفسه ولكن هذا الكاهن ليس زعيم الارلنديين، بل هو أحد الزعماء وما الزعيم الأكبر إلا الرجل العبوس . ولذلك أرجو باستخدام هذا الشخص الذي أنتظره ان أعرف مركز الأب صموئيل ومتى اقتفينا أثر الأب عرفنا مكان الرجل العبوس .

— لقد أصبت . ولكن هـذه الحرية والمساواة في انكلترا ، تضران بنا ضرراً بليغاً .

ان الحكومة تعلم ان لهذا الكاهن أعظم اتصال بالمصـابات الارلندية السرية ، فلو كان ذلك في غير هذه البلاد لقضت الحكومة عليه في الحـال . ولكنها عندنا لا تقبض عليه إلا متلبساً بالجريمة مهما علمت خفاياه ولولا ذلك لبلغنا منه ما نريد .

— انك ترى إذاً ما أراه وهو انه لا بد من استعمال الحيلة .

— هو ما تقولين . وهذا ما كنت أبحث عنه ، ولعلي أجد حيلة تسهـل لنا المراد .

وعند ذلك سمعت مس الن قرعاً على باب الحديقة فقالت : هوذا الشخص الذي أنتظره قد أتى فاصبر إلى ان افتح له .

ثم خرجت إلى الحديقة وفتحت الباب فكان الطارق بادي فسارت أمامه وأمرته ان يتبعها الى حيث كان الأسقف ينتظرها .

فقـالت له · لا بأس أن تجيبني عما أريد أمـام حضرة الأسقف ، فإنه من أصدقائي . واعـلم إني ما دعوتك إلا لمهـة تضمن لك الخـير

والمستقبل الحسن .

فانحنى بادي امامها وقال لها : هذا ما أرجوه يا سيدتي فقد أبيت الآن قضاء مهمة كان لي منها مال جزيل .

– قل لي ما هي تلك المهمة ؟

– يظهر أن الحكومة وضعت جائزة ، لمن يقبض على شخص يدعى الرجل العبوس .

فارتعش الأسقف والفتاة وقالت له : كيف عرفت ذلك ؟

– عرفته من صديقين لي يقولان انهما يعرفان مكان هذا الرجل وطلبا إلي أن أساعدهما في القبض عليه على ان انال ثلث الجائزة .

فبرقت أسرة الأسقف ، واتقدت عينا الفتاة بأشعة الفرح . ولم يعلم أحد ما حصل بينهما وبين بادي ، غير ان هذا الانسان كان يقول حين خرج من ذلك القصر : ويح لنفسي ! إنني بعتها ببيع السلع لهذين الشيطانين الرجيمين .

وسار ذلك المنكود الى منزله فلقي ولديه نائمين وعليهما دلائل الراحة وأمهما ساهرة بجانبهما فقال لها بلهجة المتهكم: يظهر من نومهما الهادىء انهما تعشيا عشاء طيباً هذه الليلة .

– نعم إن ذلك من فضل مس الن المحسنة البنا الملك رأيتها ؟

– نعم .

– ولكني اراك آنفاً فهل لم تحسن استقبالك ؟

– بل انها قابلتني خير مقابلة .

– إذاً ألم تعهد اليك بمهمة ؟

– بل كلفتني بما كنت أتوقعه منها .

ثم جعل يدخن صامتاً مفكراً ، وامرأته تنظر اليه ، دون ان تجسر على مقاطعته . الى ان قال لها فجأة : في أي يوم يزورك الأب

صموئيل ؟

- غداً إذ تعود ان يزورنا كل أحد .

- إنه من اهل الخير والصلاح اليس كذلك ؟

- دون شك فطالما أحسن الينا ووقى اولادنا شر الجوع .

فابتسم بادي ابتساماً هائلاً وقال : إذاً إعلمي ايتها الأم اننا سنخون هـذا الانسان الذي خلص اولادنا من الجوع .

فارتعشت المرأة ولم تجب وعاد بادي الى الكلام قائلاً : اننا سنخون هذا الانسان عملاً بارادة مس الن ألم تقولي لي ان من برح به الفقر وخشي على اولاده الجوع لا يبالي بالمقاصد ؟

فتنهدت المرأة وقالت : نعم ان هذا معتقدي .

- إذاً سنخون هذا الأب الجليل .

- ولكن كيف ؟

- سوف ترين .

ثم قام يحاول الانصراف فسألته : الى أين ؟

- الى حيث انفذ اوامر مس الن .

وودعها وانصرف ناظراً نظرة حنو الى ولديه

فلما توارى عن امرأته ابتسمت وقالت وما تهمني خيانة هذا الكاهن انه ارلندي وهل تجب الشفقة على الارلنديين .

أما بادي فانه ذهب الى مقبرة كنيسة سانت جورج فالتقى بصديقيه اللذين لقيهما في الخمارة ، وكانا كامنين في تلك المقبرة للرجل العبوس كي يقبضا عليه وينالا جائزة البوليس

- ١٤ -

لقد تركنا السير بترس تون ذلك الأسقف ومس الن تلك الفتـــاة المائلة مختليين في غرفتها فلم يعلم أحد ما دبراه من مكائد السوء .

وبقي الأسقف عندها الى الساعة الثانية بعد نصف الليل فلما انصرف كانت علائم الفرح الأكيد ظاهرة على وجه الفتاة إشارة الى الانتصار فان الحقــد لم يتجسم في قلبها تجسمه في تلك الليلة .

وكان من عادة مس الن ان تدخل الى مخدع ابيها في اي وقت ارادت . فخرجت من الغرفة التي كانت فيها مع الأسقف ، وحاولت الذهاب الى غرفة نومها فرأت ، وهي ســـائرة في الرواق ، نوراً ينبعث من غرفة ابيها ، فقالت في نفسها : ان جلسات البرلمان تعقد ليلاً ، وندر ان تنتهي في مثل هذا الوقت . ثم ان من عادة ابي ان يذهب الى النادي ، بعد انصرافه من البرلمان ، فلا يعود الى المنزل قبل الفجر . فما باله اليوم قـــد غير تلك العادة ؟

وقد شغل بالها على أبيها ، فذهبت تواً الى غرفته وقرعت بابها . ثم والت القرع فلم يجيبها أحد فقالت في نفسهــا . العله نام ونسي أن يطفىء المصباح ؟

وعند ذلك نظرت من ثقب القفل ، فرأت مائــدة كبيرة وضعت عليها الكتب والجرائد ورأت شخصاً جالساً امامه مديراً ظهره للباب وهو غارق في بحار الهواجس والتأملات .

فعلمت من ذلك الثوب الطويل الذي كان متشحاً به انه ثوب أبيها ، ففتحت الباب ودخلت . ولكن هذا الرجل الفكير لم ينهض من مكانه ولم يلتفت اليها .

فابتسمت مس الن وقالت في نفسها . ان ابي يعتقد انه من كبار رجال

السياسة ، فهو يتصور الآن ان العالم بات في قبضة يده .

ثم تقدمت خطوة الى الأمام .

وعند ذلك سقط الرداء فجأةعن ذلك الرجل والتفت الى مس الن فصاحت صيحة رعب وجمد الدم في عروقها وانعقد لسانها عن الكلام . ذلك ان هذا الرجل الذي كان متشحاً برداء اللورد بالمير لم يكن اللورد بالمير بل كان الرجل العبوس .

لما رأى الرجل العبوس ما كان منها وثب مسرعاً الى الباب واقفله كي يحول دون فرارها .

غير ان مس الن لم تكن تستطيع الفرار لاضطراب رجليها ولا تستطيع الاستغاثة لانعقاد لسانها من الرعب فدنا منها الرجل العبوس وقال لها مبتسماً : اني وعدتك يا مس الن بزيارة فوجب علي الوفاء بوعدي .

ثم تقدم منها ووضع يدها بين يديه فتكهرب جسم الفتاة حين لمست يده وعادت اليها كبرياؤها وهيبتها فقالت له بصوت يتهدج من الغضب : ايها الشقي انك لا تخرج من هنا .

ثم وثبت الى الجدار المعلق فيه حبل الجرس ، ولكن العبوس سبقها اليه فحال بينها وبينه وقال لها بصوت منخفض . إطمئني يا سيدتي ، فاني لا أريد قتلك ولا اتجاوز معك حد الاحترام ، بل اقسم لك ، اني لا أقاوم خدمك متى دعوتهم للقبض علي . ولا أمنعك عن دعوتهم ، بعد أن تسمعي كلامي .

فعاد الرعب الى قلبها وقالت أنت ! أنت !

أما العبوس فبقي محافظاً على سكينته وقال لها : اصغي الي يا سيدتي ، وافعلي بعد ذلك ما تشائين . اما الآن فاعلمي ان اباك في النادي يلعب بالورق مع اصحابه وهم اصحابي وسيدوم لعبهم الى الساعة الرابعة بعد نصف الليل فاذا لم أعد الى ذلك النادي في الساعة الرابعة ، تكون حياة ابيك معرضة للخطر .

فان اثنين من رجالي كامنان له عند باب النادي ومستعدان لقتله حين خروجه منه إلا اذا عدت اليها وألغيت هذا الأمر .

أعلمتِ الآن الخطر الذي ينذر أباك اذا قرعت الجرس وقبض علي خدمك اقرعيه اذا كنت تجسرين ؟

فتجلدت مس الن وقاومت نظرات العبوس ، فقال لها : اني أحب منك هذه البسالة فانك عدو شديد من كان مثلي يحسب له حساباً وأن عواطف المرأة لم تتغلب عليك لأنك حويت في صدرك قلب رجل ، فهلم نتحدث إذ لا تزال بيننا ساعة تكفينا للحديث .

ثم أخذ يدها مرة ثانية وأجلسها على المقعد فجلس بقربها وقال لها : انك تكرهيني كثيراً .

ـ نعم اني أكرهك أشد كره ولا أخافك .

ـ لقد علمت انك أقسمت يميناً محرجة على قتلي وان اسعد ايامك سيكون ذلك اليوم الذي أعلق فيه مشنوقاً في سجن نوايت .

ـ انك واقف على الحقيقة وهذا هو قصدي بعينه ، اقتلني اذا شئت فانك قادر على قتلي وأنا لا استطيع دفاعاً .

فابتسم الرجل العبوس وقال : كلا ، اني لا أريد بك شراً ولا اريد لك غير الخير .

ـ ذلك لأنك معتمد على تلك الرسائل التي يفضحني اظهارهـا ولاعتبارك انها خير سلاح ، ولكنك مخطىء يا سيدي ، اعلم أن المرأة إذا اشتد حقدها تضحي بشرفها في سبيل الانتقام .

ففتح الرجل العبوس عنـد ذلك سترته وأخذ من جيبه محفظة أوراق ودفعها اليها وقال لها : ان رسائلك يا سيدتي في هذه المحفظة فخذي افحصيها واطرحيها في النار .

مدت مس الن يداً مضطربة الى المحفظة وقالت له : احذر فانك تجرد

نفسك من السلاح .

فأجاب مبتسماً . اني ألقاك أعزل ولا أخشاك .

فاصفر وجه الفتاة من الغيظ وأخذت الرسائل منه وهي تقول : أتحسب نفسك قوياً الى هذا الحد ؟

فلم يجبها العبوس إلا بالابتسام .

– ١٥ –

فهزت اريحيــة المروءة مس الن وقالت : وأنا ايضاً لا أحارب عـدواً مجرداً من السلاح ، فخذ هذه الرسائل التي كنت تنذرني بها ، فان القتال بيننا يكون أشد .

ابتسم العبوس أيضاً وقال لها : بل دعيها معك وألقيها في النار فلا فائدة لي بها واسمعي أحدثك بأمر آخر ، ألم أقل لك اني أقمت رجلان على باب النادي ليقتلا اباك إذا لم أعد اليهما في الساعة الرابعة ؟

— نعم .

— إذاً فاعلمي اني كنت كاذباً فيما قلته فاني لم أر اباك ولا يكن له أحد وانك ترين اني اصبحت من غير سلاح فان الرسائل معك وان اباك آمن في النادي وما يمنعك من ان تقرعي الجرس وتنــادي الخدم فيقبضوا على الرجل الذي عجز بوليس لندرا عن القبض عليه .

ثم وقف امامها مبتعداً عن الجرس وقـد وضع يديه فوق صدره وجعل ينظر اليها بسكينة واطمئنان .

فكانت عينا الن تتقدان ناراً وجسمها ينتفض فقالت له : انك شديد الجرأة او غير حكيم والا لما بدرت منك هذه الأقوال .

– اذا كنت ترين ذلك لما لا تغتنمين الفرصة ؟
– ألا تعلم اني أقسمت ان اسلمك للقضاء ؟
– دون شك .
– إذاً انت تريد ان تكون أكرم مني فيما فعلت ولكني لا أدعك تفوز على مثل هذا الفوز ، نعم اني اكرهك واريد لك كل شر ، ولكني اذا كنت أريد هلاكك فلا احب ان اناله بالخيانة .

ولقد أحسنت بأنك جردت نفسك امامي من السلاح ، فلا اقاتلك وأنت أعزل ، فخذ رسائلي ان شئت وارحل حراً آمناً ، ان البوليس لا يقبض عليك تحت سقف منزلي .

فكف الرجل العبوس عن الابتسام وتجهم وجهه وقال لها : يا مس الن انت لست المرأة التي اريد ان تكون محط امالي ، غير انك مشيت خطوة إلى قصدي .

فقالت له بلهجة المتهلل : أحق ما تقول ؟
– انت قد اصبحت مخلصة بعدائك .
– ولكنه عداء لا يقف بي عند حد .
– لكن كيف شئت فانه سيخدم مقاصدي في مستقبل الأيام .

فقالت له بلهجة تشف عن الاحتقار العظيم : تقول انك تطمع ان اخدم مقاصدك ، فهل يمكن معرفة هذه المقاصد ؟
- دون شك فاني ما اتيت إلا لهذا .
– إذاً تكلم فاني مصغية اليك .

فقال لها الرجل العبوس وقد تكلف الرقة والدعة : يا مس الن انك صبية حسناء وهبتك الطبيعة خير ما تهب ابناءها من الحمية والذكاء وانت من انبل نساء المملكة ، فاذا ايدت مشروعاً فلا بد له من النجاح .
– هذا ما أرجوه .

– عفوك يا سيدتي ، فقد أخطأت في تأويل كلامي فاني لا أريد بما قلتـه المشروع الذي تخـــدمينه الآن ، بل المشروع الذي ستخدمينه وهو الذي سيفوز ..

– ما هو المشروع ؟

– إرلندا .

فأجابته بضحك يشف عن هزئها واحتقارها .

غير أن الرجل العبوس لم يكترث لظواهر إحتقارها فقال لها : لقـد كان لأبيك أخ ما شهيد ارلنـدا التي تهزئين بها الآن .

– إن هذا الأخ كان من المتمردين العصاة .

– سيأتي يوم يا مس الن لا يكون الخائن المتمرد في عرفك هذا الأخ بل ..

– حسبك لا تتم القول إنك تريد أن تعني أبي فيما أظن .

– إذاً سيأتي يوم وما هو ببعيد توقفين فيه شبابك وجمالك وثروتك وذكاءك لخدمة إرلندا مهد أجدادك .

وكان الرجل العبوس يتكلم بلهجة الواثق المطمئن فـاضطربت مس الن لسكينته وقالت له : إذهب يا سيدي .

- لا أذهب قبل أن أخبرك كيف يكون تغيرك وانتقالك من حزب إلى حزب وهو منحصر بكلمتين يا سيدتي وهما إنك ستحبينني .

فعبق وجهها بالاحمرار وقالت له : كفى ، إذهب في الحال أو أفقد رشادي وأنادي الخدم .

وكان العبوس حين قال لها هذا القول تراجع حتى التصق بالجدار المسدولة فوقه الستائر .

وعادت تأمره بالذهاب وهي تشير بيدها إلى الباب

غير انه لم يخرج من الباب التي كانت تشير اليه بل انه مد يده من تحت الستار ولم يكن غير لحظة حتى رأت انها باتت وحدها في تلك الغرفة .

ذلك إن هذا الرجل الغريب قد توارى عن أنظارها وخرج من منفذ سري لم تعرفه هي ولا أبوها وهو منزلهما فكادت تجن من الهوس لعرفانها انه يستطيع الدخول إلى منزلها والخروج منه دون أن يراه أحد .

ووقفت هنيهة حائرة مضطربة لا تجسر على شيء إلى أن زال خوفها تباعاً فأخذت المصباح ودنت من المكان الذي توارى منه الرجل العبوس فأزاحت الستار وبحثت بحثاً طويلاً في الموضع الذي رأته مد يده فيه ولكنها لم تعثر على شيء .

فجعلت تنقر على الجدار علها تقف من اختلاف الصوت على مكان المنفذ فما اهتدت إلى شيء .

وطال بحثها حتى ادركت عجزها ووضعت مصباحها فوق المستوقد قائلة: ما هذه العجائب التي مرت بي العلي حالمة أو أنا من المجانين ؟

غير ان الرسائل التي تركها الرجل العبوس كانت لا تزال في موضعها تجيبها بأفصح لسان انها ليست مجنونة ولا حالمة .

وأسرعت إلى المحفظة وأخذت منها تلك الرسائل التي كتبتها إلى ذلك الفتى المنكود الذي قتلته حباً ، وجعلت تعدها لأنها كانت تعرف مقدارها فما انتهت من عدها حتى اصفر وجهها إذ رأت انها تنقص رسالة ، ربما كانت هي الرسالة التي أوضحت فيها غرامها كل الايضاح وأغوت بها ذاك الفتى المنكود.

ولما خطر لها هذا الخاطر هاجت هياج اللبوة وقالت : ويح لهذا الشقي انه لا يزال يهزأ بي ، وان ظفرت به مرة أخرى لا يجـــد في قلبي ذرة من الاشفاق والرحمة .

ثم طرحت تلك الرسائل في النار حتى إذا صارت رمـــاداً سمعت صوت إقفال الباب الخارجي وعلمت ان أباها اللورد بالمير قد عاد من النادي .

ووقفت عندها مس الن موقف المترددة بين أن تنتظر أباها في غرفته حيث كانت وبين ان تخرج منها قبل وصوله .

ثم رأت انها لا بد لها من اخبار أبيها لأن الرجل العبوس لو كان قد خرج من الباب لتمكن إنكار أمره عن أبيها ، لكنه خرج من منفذ سري فلم تجد بدأ من مباحثته في شأنه للاشتراك معها في البحث عنه .

وعلى ذلك بقيت في الغرفة تنتظر دخول أباها فانذهل حين رآها وقال : ما تفعلين هنا في مثل هذه الساعة ؟

فقالت له ببرود : إنك تعلم يا أبي شروطي .

— نعم . إني أعلم اني أنا الساعد العامل ، وأنت الرأس المرشد اليس كذلك ؟

— نعم . ولكن يجب أن تكون أيضاً الأب الذي يشير ويعلم ابنته ما تجهله .

— ما تعنين بذلك وما تجهلين ؟

— إسمح لي يا أبي قبل أن أوضح لك السببلوجودي في غرفتك أن أسألك أسئلة أرجو أن لا تدهش منهـا فقل لي هل المنزل الذي نقيم فيه لنا ؟

— دون شك يا ابنتي . فقد اتصل إلي بالارث من ابي ، ولمـا هذا السؤال ؟

— سأخبرك فقل لي ايضاً هل ألواح القاعة الخشبية قديمة العهد ؟

— نعم .

– وهذه القاعة التي نحن فيها لها غير بابين ؟

- كلا وأنت ترينهما .

– إنك مخطىء يا أبي انه يوجد باب ثالث ، ثم أخذت المصباح وقالت له : تعال معي .

فتبعها اللورد بالمير إلى الجدار الذي طالما بحثت فيه عن اللولب السري .

وهناك أشارت إلى مكان فيه وقالت : ان الباب الثالث يجب أن يكون هنا .

فأخذ اللورد المصباح من يدها وجعل يبحث في كل مكان من الجدار ، إلى أن أعياه البحث فقال لها : أين وجدت هذا الباب يا ابنتي اني لا أرى له أقل أثر .

– وأنا أيضاً لا أراه مثلك ولكني واثقة انه موجود .

ثم تابعت بلهجة ثقة زعزعت إعتقاده : اني رأيت بعيني هذا الباب قد فتح واقفل ، وقد خرج منه شخص كان هنا منذ ساعة .

فرجع اللورد منذعراً وقال : من هذا الشخص وكيف يدخل إلى غرفتي ؟

- انه كان فيها وهو متشح بردائك وعلى رأسه قبعتك وكان جالساً حول طاولتك وظهره الى الباب الذي دخلت منه .

فنظر اللورد إلى إبنته نظر الخائف كأنما خشي ان تكون قد فقدت رشادها غير انها أشارت بيدها إلى ردائه وقبعته الذين تركها الرجل العبوس على الكرسي .

فنظر اللورد اليها وقال : ولكن من هو ؟.

– انه هو .

وقد قالت هذه الكلمة بصوت يتهدج من الغضب ويعرب عما في فؤادها من الحقد ، فعلم اللورد انه ذلك الرجل الذي انتزع منه الغلام وبات زعيماً للارلنديين ، اي ذاك الرجل العبوس الذي عبث ببوليس لندرا وتجاسر على

الدخول إلى منزل لورد كي يخلو بابنته ، بل ذاك الرجل الذي قيده وكممه في حديقة منزل فانوش ، فاضطرب لجسارته النادرة والتفت إلى ابنته وقال : اني أريد يا الن أن أسديك نصيحة .

- ما هي ؟
- هي ان تنقطعي عن مناظرة هذا الرجل فلنبرح انكلترا سائحين .
- لماذا يا ابي العلك خفته ؟
- ليس خوفي على نفسي يا ابنتي بل عليك
- لقد كان هذا اليوم يا أبي آخر أيام انتصارات هذا الرجل وسأسحقه سحق الزجاج .

وكانت يد اللورد بالمير لا تزال تبحث في الجدار فقال لها : ولكني لا أجد شيئاً من اثر ذاك الباب، فأما ان يكون هذا الرجل من السحرة او تكون عيناك قد مثلتا لك هذه الأوهام .

ولكنها لم تجبه بل تركته واسرعت الى النافذة وجعلت تصغي فسمعت صوت صفير اصطلاحي .

وقد وصل الصفير الى مسمع ابيها فقال لها . ما هذا ؟

- انتظرني هنا يا ابي

ثم خرجت من الغرفة الى الرواق وهناك سلم نزلت منه إلى الحديقة .

وكانت الساعة قد بلغت الرابعة بعد انتصاف الليل فاجتازت الحديقة غير هيابة وفتحت بابها المشرف على الطريق .

أما الصفير الذي سمعته فقد كان رمزاً اتفقت عليه مع بادي حين كان عندها فإنه وعدها حين خروجه ان يعود اليها بعد اجتماعه برفيقيه الطامعين بالقبض على العبوس .

ولما فتحت الباب رأته واقفاً فقالت له : ماذا حدث ؟

اني عرفت المكان الذي يختبيء به الرجل العبوس ، فإنه يقيم في قبة

جرس كنيسة سانت جورج .

فارتعشت ، اذ ذكرت ان الفتى الذي خدعته وقتلته بغرامها قد دفن في مقبرة الكنيسة .

ثم قالت له : اعلم رفيقاك بهذا الاكتشاف؟

– لقد كانا يحسبان من قبل انه في الكنيسة فلما وثقت أنه في القبة ارجعتها عن تلك الفكرة

– حسناً فعلت فاحرص ان تخبرهما بشيء وتعال معي الآن فإني محتاجة اليك .

فدخل بادي واقفلت باب الحديقة وسارت أمامه فتبعها طائعاً ممتثلاً ، وذهبت به الى غرفة في الحديقة فيها معدات وآلات وأمرته ان يأتي بمطرقة وازميلا ثم قالت له : اتبعني .

فحمل الآلتين وتبعها .

– ١٧ –

ولم يكن بادي يعلم شيئاً مما تريده مس الن ، غير انه عندما باع ارادته للفتاة عول ان يكون آلة صماء في يديها لقضاء اغراضها وفوق ذلك فقد كان يرى نفسه فقيراً معدماً مغلوباً على امره من امرأته وبنيه ، ولم يكن قد تربى تربية صالحة تبعده عن مواقف الزلل ، فرأى انه لا وسيلة له يعيش بها عيشاً شريفاً ورضي ان يخدم مس الن كيف كانت مقاصدها .

اما مس الن فإنها اجتازت به الحديقة الى السلم وصعدت منه الى الرواق ، ثم دخلت منه الى الغرفة وهو يتبعها .

وكان اللورد لا يزال مضطرباً لما سمعه من ابنته فلما رآها عائدة بذلك

الرجل الفقير دهش وقال لها : من هذا ؟
— هو شخص استخدمه .
— وما الالات التي يحملها ؟

— ان عيني لم تمثلا لي الأوهام يا ابي ، كما قلت ولست من اللواتي يمتقدن بالسحر ، فلا بد ان يكون في الجـــدار مخرج سري اريد ان أعرف الى أين ينتهي .

ثم حملت المصباح وعادت الى البحث في الجدار بحثاً مدققاً فلم تقف على اثر لذلك الباب الذي رأته فتح واغلق امامها ، ولكنها كانت تذكر مكانه فدلت بادي عليه وقالت له : افتح لي ثقباً هنا ..

فأخذ بادي مطرقة وازميله وبدأ بالعمل .

غير ان اللورد اعترض ابنته وقال ماذا تفعلين إن صوت المطرقة سيوقظ جميع من في المنزل من الخدم فيسرعون الينا ويقفون على السر .

فقالت له بسكينة : إقفل الباب من الداخل بالمفتاح فلا يدخل الينا أحد ، وعاد بادي إلى العمل فأزال قشرة الجدار وأصاب ازميله جسماً صلباً .

فقال اللورد بالمير : إنه صخر صلب .

— كلا بل صفيحة من الحديد .
— إذاً أزل هذه الصحيفة .

وكانت إزالتها سهلة فإنه جعل يثقب ما حواليها حتى أزال كل مـــا كانت عالقة به من الطين ، فأخرجها من الجدار وانكشف ما تحتها ، وصاحت مس الن صيحة انتصار ، إذ رأت باباً مصبوغاً بلون الحديد لا قفل له ولا زلاج ، لكن به زر من النحاس .

فأدارت الزر ففتح الباب في الحال ودخل منه هواء رطب وظهر رواق ضيق مظلم .

فالتفتت مس الن إلى أبيها وقالت له . يجب أن نعلم إلى أين ينتهي

هذا الدهليز

ـ وأنا من رأيك فاصبري إلى ان أعود

ثم خرج إلى غرفة مجاورة وعاد بمسدسين فدفع واحد لابنته وتسلح بالآخر وقال لها : هلمي بنا الآن .

أما مس الن فإنها أعطت المصباح لبادي وقالت له: سر أمامنا بهذا الدهليز

وسار بادي أمامها يحمل المصباح وهما يتبعانه ، ولم يكن الدهليز طويلاً فانتهوا منه الى سلم وعند ذلك نزل بادي ورفع المصباح إلى ما فوق رأسه كي ينير لهما الطريق .

وكانت درجات السلم كثيرة ولما نزلوا ثلاثين درجة وقف بادي فقالت له : لماذا توقفت ؟

إني أسمع صيحة لا أعلم ما هي .

فأصغت وسمعت صوتاً يشبه امواج البحر يبلغ إلى المسامع من مسافة بعيدة فقالت لبادي : إذا كنت خائفاً هات المصباح فأنا أسير أمامك .

ـ كلا يا سيدتي فاني لست من الذين يخافون .

ثم مشى أمامها وتبعاه ، وكان هواء الدهليز يتغير تباعاً كلما تقدموا في المسير حتى صار بارداً نقياً فعلمت مس الن انهم قد تجاوزوا حدود المنزل وانهم ينزلون في جوف الأرض .

ثم انتهوا من نزول السلم فشعر بادي بأنه يسير فوق ارض رطبة تكاد تكون موحلة .

ورأى الثلاثة على نور المصباح انهم في محل يشبه القبور وفي هذا القبو منفذ الى دهليز عريض .

والتفتت مس الن عند ذلك الى أبيها وقالت له : لم نعلم شيئاً من امر هذا السلم والدهليز فإن كليهما قديم العهد ، انظر إلى حجارة القبة فإنها سوداء تدل على مرور العصور بها .

وكان ذلك الصوت الذي سمعوه آخذاً بالارتفاع فوضع اللورد بالمير يده فوق جبينه وقال : لقد ذكرت فإننا الآن فيا أظن على مسافة قريبة من ويت هال ولا شك ان الدهليز قد حفر في عهد شارل الأول حين كان سجيناً وقد حفره أعوانه لانقاذه وأظن انه متصل بنهر التيمس قرب جسر وستمنستر اما الصوت الذي نسمعه فهو صوت تكسر الأمواج على الصخور .

اذاً فلنسر إلى النهاية .

ثم اخذت المصباح من بادي وسارت امامها في ذلك الدهليز وهي تقول في نفسها : عجباً كيف تيسر للرجل المبوس اكتشاف الدهليز ؟

- ١٨ -

وقد اصاب اللورد بالمير فيا قاله ، لأن الدهليز قد حفره انصار ذلك الملك التعيس شارل الأول كي ينقذوه .

وكانت مس الن وابوها وبادي كلما تقدموا خطوة في الدهليز وجدوا آثار تدل على القدم وقد رأت فوق تلك الأرض الرطبة آثار أقدام فما شككت انها خطوات المبوس صنعت تلك الآثار ، فإن الدهليز لم يدخل اليه إنسان منذ مائتي عام .

ولبثت مس الن تسير في طليعة رفيقيها وصوت الأمواج يزيد ارتفاعاً كلما تقدموا مما يدل على قربهم من التيمس

وفيما هم سائرون نفذت اليهم نسمة شديدة كادت تطفيء المصباح فجعلت مس الن تحميه بيديها وتصونه من الهواء ، الا ان الهواء اشتد فجأة فأطفأ المصباح وباتوا يتخبطون في ظلام دامس .

ولكنها لم تحضر معها كبريتاً وغيره من معدات النور فاضطربت وخشيت

ان لا تهتدي الى الطريق ، الا ان بادي كان لديه علبة من ذلك الكـــبريت الشمعي الذي يستعمل للزينة لاقتباس النور ، فهو لا يحرق لكنه ينير نوراً أحمر هنيهة وجيزة ثم ينطفىء .

وأعطى بادي العلبة الى اللورد فأضاء واحدة منها وقال : ان العلبـــة تكفينا للعودة .

– الى اين نعود ؟

- إلى المنزل .

- هذا محال فلا بد لي من البلوغ الى نهاية الدهليز ولو مشيت في الظلام الحالك ، ثم مشت أمامها دون ان تنتظر جواب أبيها غـــير مسترشدة الا بذلك النور الضعيف .

ومـــا زالت تسير وهي تشعر كلما تقدمت بازدياد رطوبة الأرض حتى شعرت فجأة انها تسير في المياه .

واقترح اللورد مرة ثانية ان يعودوا الى المنزل ولكنها اعترضت ، وعند ذلك ظهر لهم نور احمر ينبعث من بعيد كأنه مصباح معلق بقبة الدهليز .

– لم نعد في حاجة الى النور فان النور المنبعث يرشدنا ..

ولكنها لم تسر بضع خطوات حتى شعرت ان المـــاء قد بلغ الى ركبتيها

وكان اللورد يسير مقتفياً أثرها وبده على مسدسه ومستعد لاطلاقه عند أول خطر تتعرض له ابنته .

وكانوا كلما قربوا ينجلي لهم النور وتزيد اصوات المياه ارتفاعـــاً حتى انتهوا من اجتياز السرداب المظلم ، وعلموا انه مشرف على نهر التيمس، ورأوا ذلك النور فكان مصباحاً من الغاز موضوعاً عند ضفة النهر تنبعث منـــه أشعته الى اول السرداب من ثقب متسع كان محفوراً في جسر النهر على علو مترين من سطح المياه .

وكانت مس الن قد وصلت قبل رفيقيها إلى ذلك الثقب ، فعرفت الطريق التي سلكها الرجل العبوس والثقب الذي دخل منه . ورأت حلقة من الحديد مربوطة في الثقب ، فأيقنت ان العبوس قد أتى الى السرداب بقارب وعاد به كما أتى .

فلما انتهت من جميع أبحاثها قال لها أبوها : ألا تقولين لي الآن عما أسفرت تلك الأبحاث والرحلة الليلية ؟

– إنها أرشدتني الى طريقة سأنهجها .

– ما هي ؟

– ذلك سر من أسراري ، وأنت تعلم شروطي يا أبي . فاسمح لي ان أكتم عنك هذا السر . وهلم نعد الآن على أعقابنا ، فقد عرفنا الطريق .

فعادوا جميعاً والظلمات تكتنفهم ، فكانوا يسترشدون من حين الى حين بكبريت العلبة وهم يسيرون ويتوقون الاصطدام بأيديهم كما يسير العميان حتى وصلوا الى القبو واهتدوا الى السلم .

وبعد ربع ساعة كانوا جميعهم في غرفة اللورد بالمير ، فأخذت مس الن كيساً مملوءاً بالذهب ، ودفعته الى بادي قائلة . خذ هذا المال مقابل كتمانك لما رأيت . واعلم ان هذه الهبة لا دخل لها بما وعدتك به من المكافأة .

فأخذ بادي الكيس دون ان يظهر عليه شيء من علائم السرور وقد أطرق برأسه الى الأرض وقال : لا حاجة يا سيدتي الى ان تدفعي لي الهبات عن كتماني فاني عاهدت نفسي على الاخلاص لك ، منذ رضيت أن أكون من عبيدك وبعتك نفسي .

فهزت مس الن كتفيها دون ان تجيبه ، ونظرت الى أبيها فقالت له : يوجد في لندرا كثير من العمال الماهرين ، فيجب ان يصلحوا هذا الباب

الذي كسرناه ، ويعيدوا الجدار كما كان . وإنما ينبغي إتمام كل ذلك اليوم ، لأن الرجل العبوس قد يعود في المساء ، ولا يجب ان يعلم شيئاً من اكتشافنا .

وعندها أشارت إلى بادي ان يتبعها وخرجت من الغرفة الى الرواق ونزلت الى الحديقة وهو في أثرها حتى بلغت الى الباب .

وكان الفجر قد انبثق ، وبدت اشعته تخترق ذلك الضباب الكثيف الذي يخيم على لندرا ستة أشهر في العام ففتحت مس الن باب الحديقة كي يخرج بادي وقالت له : إن هذا اليوم يوم أحد وهو موعد زيارة الأب صموئيل لامرأتك وأولادك اليس كذلك ؟

– نعم يا سيدتي .

– وأنت تظن ان الرجل العبوس يختبىء في قبة جرس كنيسة سانت جورج ؟

– بل انا واثق .

– إذهب الآن وانتظر في منزلك الى ان يأتي الأب صموئيل فتقول له هذا القول . وهو انه يوجد ثلاثة رجال يفتشون عن الرجل العبوس وقد علموا انه يبيت في قبة الجرس وقد رأوا ان يدخلوا اليها في الليلة التالية ويقبضوا عليه ثم تذكر له أسماء رفاقك الذين يبحثون عنه .

ودهش بادي وقال : ولكن الأب صموئيل ارلندي والعبوس مثله فان أخبرته بذلك يحذره فيهرب .

فابتسمت مس الن وقالت له : إفعل ما قلته لك ، ولا تحاول أن تفهم مقاصدي .

ولنعد الآن الى أحد أشخاص هذه الرواية الذي تركناه منذ زمن بعيد وهو الأب صموئيل ، ذلك الكاهن الرؤوف الذي شغف الفقراء ، وملأ حبه قلوب البؤساء حتى اللصوص .

كان ذلك اليــوم يوم أحد ، والأب صموئيل يحتفل في صباحه بقداس في كنيسة سانت جيل .

وهناك فريق من المصلين راكعين على الأرض الباردة لأن الكنيسة لم يكن فيها شيء من الكراسي والمقاعد لفقرها .

وكان الأب صموئيل واقفاً في باب الهيكل يبــارك الشعب ، بعد انتهاء القداس ، ويرشدهم خير إرشاد . وكان موضع عظته في ذاك اليــوم وجوب الإحسان إلى الفقير ، ومساعدة البائس ، ونصرة الأرامـــل واليتامى . وكان يتدفق كالسيــل ، ويلقي أجزل الكلام ، ويمثل لذة المحسن وأجره أجمل تمثيل .

وبعد ذلك انتقل إلى الكلام عن الجامعة الارلندية ، فبدأ بالكلام عن بني إسرائيل ، وسيرهم في التيه الى الأرض الموعودة ، ثم شبـــه الارلنديين بالاسرائيليين والانكليز بالمصريين من حيث الاضطها ، فكان لكلامه أعظم وقع وأجمل تأثير .

وكان بين الذين يسمعون عظته رجلان لابسان ملابس السواد كانا يصغيان الى أقوال صموئيل كل الاصغاء دون ان ينتبه اليهما أحد

ولما فرغ الأب صموئيل من عظته ، وتقدم الناس لتناول القربان ، انسل الرجلان من بين الحضور وخرجا مسرعين من الكنيسة ، ولم يقفا حتى بلغــا شارع كرافانشامل .

وكان الرجلان متفاوتين في العمر ، أحدهما السير بترس تورن والآخر قسيس

فتى من قسس تلك الطائفة .

فقال القسيس للرئيس : ما رأيك بهذا الأب ؟

– أرى انه لو كان يوجد مثله كثيرون بين كهنة الكاثوليك لجذبوا بسحر بيانهم جميع الانجليكان .

– إذاً نحمد الله انه لا يوجد في لندرا سواه .

– نعم ولكن الأب صموئيل استطاع بدهائه من ضم كثيرين الى مذهبه ، وهو أحد الشخصين الذين نخشاهما وأما الآخر فهو ذاك الشخص الذي عجز بوليس لندرا عن إيجاده وهو الذي يلقبونه بالرجل العبوس .

– ألم يرد اليك رسالة في هذا الصباح من إبنة اللورد بالمير ؟

– نعم ، وقد قالت لي فيها ان هذا الشخص سيكون في قبضة يدنا بعد ثلاثة أيام . ولكني أريد ان أقبض على هذا الزعيم الثاني الذي يدعونه الأب صموئيل .

– واأسفاه انك ترجو المحال يا سيدي فيما أراه ان للمذهب الكاثوليكي مطلق الحرية في ارلندا ، وليس لدينا برهان يثبت اشتراك الأب صموئيل مع الثوار الارلنديين .

– هو ما تقول . ولكني حيث كنت أسمع عظته ، خطر لي ان الأب صموئيل شديد المطامع لتوقد ذكائه . وإننا نستطيع أن ندخله الينا من هذا الباب .

– ولكنك تعلم انه شديد الزهد بالمال ، وانه يفرق كل ما يملكه على الفقراء .

– قد لا يطمع بالمال ، وقد يغره الجاه والرتب فأساعده على نيل كل ما يريد شرط ان أحادثه ساعة ، فقد وضعت خطة أرجو ان تسفر عن الفوز بعد أن أقابله .

– أأنت تطلب ان تراه ؟

– لست أنا بل أنت

فدهش القسيس وقال : أنت يا سيدي على جلال قدرك تقابل مثل هـذا الصعلوك وأنت أعظم رجال كنيستنا بل انت الذي تلقي الأوامر مرأ حتى إلى أسقف كنتربوري .

فأجابه بجفاء : ان الغاية تبرر الواسطة وفوق ذلك فان هـذا الشخص من أصحاب العقول الراجحة وهو في قومه أرفع منزلة مني بين قومي فاصغ الآن الى ما القيه اليك وأعمل بالتدقيق . إعلم انه يوجد في سوتوارك قرب كنيسة سانت جورج زقاق يدعى آدم ستريت .

إني أعرفه .

– وفي هذا الزقاق يوجد ممر يقيم فيه شخص يدعى بادي له امرأة وولدان، وهذه العائلة انجليكانية ولكن الفقر قد برح بها حتى اضطرت الى قبول الصدقات من كاهن كاثوليكي وهذا هو الأب صموئيل ، وقد علمت انه سيذهب اليها اليوم بين الساعة العاشرة والحادية عشرة على هذا الصباح ، فاعمل ان تكون قرب ذلك المنزل في هذا الوقت .

ومتى رأيت الكاهن خرج من المنزل تعرض له في الطريق وقـــل له : « يوجد شخص مشرف على الموت، وهو كاثوليكي المذهب ، ولكنه كان يتظاهر انه انجليكاني حرصاً على مركزه وهو الآن على فراش الموت وقد طلب إلي ان أجيئه بكاهن كاثوليكي » .

– أتظنه يقبل بالحضور إذا قلت له هذا القول ؟

– دون ريب .

– وبعد ذلك ؟

– تأتي به إلى البيت المجاور لمنزلي أي بيت طباخي .

– أيوجد فيه حقيقة شخص يحتضر ؟

– نعم وهو طباخي بعينه .

– ولكنه من الارلنديين يا سيدي وقد طردته حين عرفته .
– هو ما تقول . ولكني أرجعته اليوم ، بعد ان تعهد أن يخدمني بإخلاص .
فانحنى القسيس وانصرف لتنفيذ أوامر سيده .

وبعد ساعة كان واقفاً في زقاق آدم ستريت فرأى بعد هنيهة الأب صموئيل داخلاً إلى منزل بادي فوقف عند الباب ينتظر خروجه .

– ٢٠ –

أما الأب صموئيل فانه لما قرع الباب رد عليه صوت رجل من الداخل ، فسر صموئيل لأنه عرف انه صوت بادي وكان سروره انه خرج من السجن فلما دخل حياه قائلاً : أهذا أنت ؟ أخرجت من السجن ؟
فقبل يده باحترام وهو يضطرب وقال : نعم يا سيدي .
– العلك دفعت دينك أم هربت ؟
– لا هذا ولا ذاك يا سيدي بل دفعوا عني .

فابتسم الأب صموئيل ابتسامة رضى وقال : يسرني انه لا يزال يوجد اهل مروءة في بابل التي يلقبونها بلندرا .
فأطرق بادي مستحيياً وقال : لا تهنئني يا سيدي بخروجي من السجن فانك لو عرفت من أطلق سراحي لما غبطتني .

وهناك أقبلت إمرأته وولداه فقبلوا يد الكاهن. فقال بادي لامرأته بجفاء: إذهبي أيتها المرأة إلى السوق واشتري خبزاً وانتما اذهبا والعبا فاني احب ان أبقى وحدي مع حضرة الأب صموئيل .
فانصرفت المرأة بولديها على الفور ممتثلة .

أما الأب صموئيل فقد أعجب بلهجة بادي ، لما رآه عليه من علائم القنوط . وأما بادي فانه لبث مطرقاً برأسه الى الأرض إلى ان سمع إقفال الباب الخارجي .

وعندها التفت إلى الأب صموئيل وقال له: إني يا سيدي إنكليزي ومذهبي انجليكاني ولكنك ارلندي طالما أحسنت الى عائلتي وحميت ولدي من الموت جوعاً فلا احب ان أسيء الى ارلندا وأنت منها .

إني يا سيدي كنت سجيناً لدين علي قيمته عشرة جنيهات ، وهو مبلغ زهيد لدى الكثير من الناس ، وأما لدينا فهو يعادل جميع كنوز إنكلترا .

وقد كنت ليلة أمس في السجن فسمعنا الجرس يدق ، والأبواب توشك ان تقفل . وإن الانسان يا سيدي شرير بالطبع ، غير ان الشقاء يزيده شراً ويحكم ملكة السوء فيه .

وإني بينا كنت أبكي ذاكراً امرأتي وولدي وما يقاسون من الجوع ، كان المسجونون معي يضحكون علي ويهزأون بي ، فيقولون لي هوذا الجرس قد قرع من أجلك،وهذه امرأتك التي ترثي لشقائها قد أتت لتدفع دينك وتخرجك من السجن .

وقد كانوا يقولون ذلك على سبيل الهزء ، وفيما هم على ذلك جاءني الحارس وقال : تعال فقد أتى من ينقذك .

فظننت انه يهزأ مثلهم ولكني تبعته إلى ان بلغنا الفسحة ، ودهشت حين رأيت نقولا .

فقال الاب صموئيل : من هو نقولا هذا ؟

– إنه شخص محتال سيء السيرة والسريرة ، أكرهني الشقاء مرات إلى مشاركته في بعض المهمات .

أهذا الذي أخرجك من السجن ؟

- نعم يا سيدي . فلما أطلق سراحي وخرجت وإياه من السجن قلت له: العلك أصبحت غنياً وبت قادراً على اقتدائي بعشرة جنيهات ؟

فأجابني : كلا ، ولكني ارجو ان اكون غنياً في حين قريب . اما الآن فقد عهدوا إلي بمهمة خطيرة اذا فزنا بها كان لنا منها خير وفير ودفعوا لي قسماً مقدماً ، فرأيت ان أشركك في قضاء هذه المهمة ، فنغدو أربعة : أنا وانت ومكفرسون وجوهان .

ولم يشأ نقولا ان يزيد شيئاً على ما قال فغادرني عند جسر واترلو قائلاً : إذهب الآن إلى امرأتك وأولادك وسنلتقي هنا عند منتصف الليل .

فقال له الاب صموئيل : انك ذهبت دون ريب إلى هـذا الملتقى فما هي هذه المهمة ؟

— هي ان نقبض على شخص ارلندي محكوم عليـه بالاعدام ، يلقب الرجل العبوس .

— لقد عرفت سبب اضطرابك الآن ولكن ثق انهم لا يجدون هذا الشخص الذي يبحثون عنه .

— إنك مخطىء يا سيدي لان نقولا يعرف انه مختبىء في قبـــة الجرس في كنيسة سانت جورج .

فاصفر وجه الاب صموئيل ولم يقل كلمة .

وأتم بادي كلامه فقال : ان البوليس قـد عرف ايضاً هذا المحل الذي يختبىء فيه فكمن له في الطريق حتى يخرج ، إذ لا يحق للبوليس الدخول الى الكنيسة .

وهنا تنهد بادي تنهد الآسف الحزين ، وركع أمام الاب صموئيل فقال له : إني يا أبي لا أخدع من يحسن إلي ، فأنقذ هذا الشخص قبل أن يقبضوا عليه .

فسر الكاهن من اخلاصه وقال له : انك رجـــل شريف طاهر السريرة

يا بادي وسنكافئك عن هذا الاخلاص فقل كم هي حصتك من جائزة القبض على الرجل العبوس ؟

– مائة جنيه .

– ان ارلندا فقيرة ولكنها على فقرها لا تتقاعس عن مكافأة المخلصين لها فسأحضر لك مائة جنيه يوم الاحد القادم .

ثم أخرج جنيها من جيبه ودفعه لبادي فأبى ان يأخذه وقال : لسنا بحاجة إلى النقود لان نقولا أعطاني مقدماً جنيهين وهما يكفيان لنفقات أسبوعين فادفع هذه الصدقة لمن هو اتعس منا .

فتأثر الكاهن من كلامه ورد المال الى جيبه ثم صافحه مودعاً وهو يقول : انك انسان طيب السريرة وسيجازيك الله عما فعلت .

وبعد ان ذهب الاب صموئيل عادت امرأة بادي فلقيته واضعاً رأسه بين يديه والدمع يترقرق في عينيه فقالت له : ماذا حصل أوثق الكاهن بما قلته له اذاً ستكون مس الن راضية عنا ؟

فغضب بادي على امرأته وتهددها بقبضة يده ثم عاد الى نفسه فقال : ويح لنفسي ما أشقاها .

فأجابته امرأته بضحك قوي ثم قالت له : لا ريب انت ساذج القلب كما أراه من علائم الندم . وعلى ما الندم أعلى ما قبضته من مس الن ؟ ان الفقراء لا يندمون الا على ما يفوتهم . ومن كان مثلنا يجب عليه خدمه من يقيه الشر والعوز .

فلم يجبها بادي بشيء ولكنه برح المنزل فذهب يتنزه على شاطىء النهر تفريجاً لكربته فان خيانته للكاهن نغصت عيشه وكاد يقتله تقريع الضمير .

أما الاب صموئيل فانه خرج من منزل بادي وهو ضيق الصدر مضطرب البال ، لخوفه على الرجل المبوس ، بعد ان وثق ان البوليس قد عرف مكان اختبائه .

غير ان خوفه من الذين اتفقوا على القبض عليه لنيل الجائزة كان أشد من خوفه عليه من البوليس فان كان الانكليزي يطمع بالمال يقدم على جسام الأمور ولا تعترضه الصعاب .

ولذلك كان اول ما خطر له حين خروجه من منزل بادي ان يسرع الى كنيسة سانت جورج لإنذار المبوس .

وكانت الكنيسة قريبة من المنزل الذي خرج منه ، فلما خرج ذهب تواً إلى الكنيسة .

وكان القسيس الذي أرسله بترس تونين ينتظر خروج الأب صموئيل في عطفة الزقاق كما تقدم ، فرآه مصفر الوجه شديد الاضطراب حين خروجه . ثم رآه قد سار في طريق الكنيسة معارضاً الطريق الذي كان ينتظره فيه ، فلم ير من الحكمة ان يناديه .

ولكنه تبعه مقتفياً أثره ، وكان الأب صموئيل يسير مسرعاً غير منتبه إلى القسيس لشدة اضطرابه . حتى وصل إلى الكنيسة فدخل اليها وبقي القسيس منتظراً في الخارج وهو يقول في نفسه : سأنتظر إلى ان يقضي شأنه في الكنيسة فلا بد له من الخروج منها .

أما الأب صموئيل فانه دخل تواً الى الكنيسة ، وكان الناس لا يزالون مزدحمين فيها . فصعد مسرعاً درجات السلم المؤدية إلى قبة الجرس ودخل الى الغرفة التي يبيت فيها المبوس ، فلقيه نائماً نوماً هادئاً ، وظهرت على محياه سيماء البشاشة .

وزاد اضطراب الأب صموئيل لما رآه عليه من ظواهر الدعة والاطمئنان وقال في نفسه : قد يكون نائماً مثل هذا النوم إذا فاجأه أولئك الأشقياء هذه الليلة .

ثم دنا وهز كتفه برفق ، ففتح العبوس عينيه ونظر الى الأب صموئيل مبتسماً فجلس في سريره وقال له : أسألك المعذرة إذ لقيتني نائماً لأني لم أكن أنتظر زيارتك .

ثم تأمل محيا الأب صموئيل فراعه اصفراره فقال له : ماذا حصل ومـا دعاك إلى هذا الاضطراب ؟

فرد صموئيل خائفاً : إنهم عرفوا مكانك

– هذا الذي كنت أتوقعه . فقل لي يا سيدي ماذا حصل ؟ وكيف عرفت ذلك ؟

فقص عليه الأب صموئيل عندها جميع ما سمعه من بادي .

فقال له الرجل العبوس : لقد قلت لك إني كنت أتوقع ذلك ، لأن شوكنج قد وقع اول أمس في قبضـــة اولئك الأشقياء ، ونجا منهم . وكان بينهم بادي . ولكن ألم تقـل لي الآن أن بادي خرج من السجـن ليلة أمس ؟

– هذا ما قال لي .

– ولكنه كاذب فيما قاله لأنه خرج من السجن منذ يومين ولا أدري قصده من كذبه كما إني لا أعلم الآن غايته من خيانة رفاقه بغية انقاذي ولكني سأقف على الحقيقة غداً .

فبهت صموئيل لما رآه من سكينة العبوس وقال له : ولكنك لا تبقى هنا على الأقل .

فابتسم العبوس وقال : بل أبقى هنا اي اني أعود في المساء . اما الآن فأني مضطر إلى الذهاب الى هايدبارك .

ـ لأي غرض ؟
ـ لأقابل مس الن .
ـ لتقابل ابنة اللورد بالمير ألد أعدائك ؟!
ـ نعم اني اريد أن أجعلها من أخلص الخادمين لارلندا .

ثم نزل من سريره ففتح حقيبة ملابس ، كانت في الغرفة ، وقال للاب صموئيل : إنك إذا نزلت الى الكنيسة وأقمت فيها هنيهة أمر بك فتراني ولا تعرفني . وإنما أقول لك هذا كي تطمئن علي ، لأني لا أخاف اولئك الكامنين لي .

فهدأ بال الأب صموئيل لسكينة العبوس ، ونزل الى الكنيسة فركع عند باب الهيكل قرب مدخل السلم المؤدي إلى القبة ، بينما كان العبوس منهمكاً في تغيير زيه .

- ٢٢ -

لبث الاب صموئيل راكعاً عند باب الهيكل وهو ينظر من حين الى حين الى مدخل السلم راجياً ان يرى العبوس . فلم يره حتى انتهت الصلاة وأخذ المصلون يخرجون من الكنيسة .

وعند ذلك رأى شخصاً دنا منه وحياه وركع أمام باب الهيكل فرد الأب تحيته دون ان يكترث به . ورأى انه لا يعرفه .

وكان لابساً ملابس بسيطة ولكن على غاية التأنق وفي خنصره خاتم ثمين من الماس وفي يده كرباج قبضته من الفضة .

وكان أسود الشعر والعينين غير أن هيئته كانت تدل على انه من الانكليز فركع وصلى صلاة قصيرة ، ثم نهض وحيا الكاهن مرة ثانية ومشى إلى الباب

الخارجي ببطء .

وان الشعب الكاثوليكي في لندرا شديد الفقر لأن معظمه من الارلنديين فعجب الأب صموئيل لما رآه من ظواهر غنى هذا الرجـل واخذ يراقبه وهو منذهل أشد الانذهال .

حتى إذا خرج هذا الشخص من الكنيسة الى الفسحة الخارجية رأى خادماً ايكوسياً يمسك بيده لجام فرس كريم فزاد دهش الأب صموئيـــل حين رأى الخادم أسرع بالفرس اليه وقدم له اللجام بكل احترام .

ووثب الرجل الى ظهر الجواد ولكنه لم يسرع بالسير لأن فقراء الارلنديين تجمهروا حوله ومدوا أيديهم له مستعطين ، فأشار الى خادمه ان يوزع عليهم الصدقات بسخاء عظيم .

ثم دنا منه جندي شيخ فقير ، قطعت يديه في المعارك وسأله الاحسان فأعطاه جنيهين ، وقال له ، مشـيراً الى الأب صموئيـل : أتعرف هذا الكاهن ؟

— نعم فهو الأب صموئيل

— إذهب وقل له يدنو مني

وكان الأب صموئيل لا يزال ينظر اليه معجباً بما يراه ، ففهم من الاشارة ما يريده ، وأتى اليه بنفسه . فأخذ الرجل محفظة ملآى بالأوراق المالية من جيبه وقال له · أتـأذن لي يا حضرة الكاهن أن أقدم لك هـذه الهبة للكنيسة ؟

فاشتدت دهشة الأب صموئيل ، ولكن دهشته هذه المرة لم يكن لمـا رآه من سخاء هذا الانسان ، بل لما قد سمعه من صوته ، فقد ذكر أن هذا الصوت صوت الرجل العبوس ، فانه لم يبق من دلائل الشبه به غير هذا الصوت .

ولما رأى الارلنديون الأب صموئيل يحادث هذا الشخص النبيل ، ابتعدوا

عنها احتراماً .

فقال الرجل العبوس للكاهن وهو يبتسم : إذا كنت انت لم تعرفني بعد هذا التنكر فكيف تخاف أن يعرفني البوليس وأولئك الكامنون لي للقبض علي فاطمئن لأني لو أردت لجئتك في هذا المساء شيخاً عجوزاً يلتمس منك صدقة فلا تعرفه .

وعندها حياه وسار بجواده وهو لا يزال ينثر المال على اولئك البؤساء ، فتفرق الناس تباعاً بعد هنيهة وتوارى العبوس عن الأنظـــار ولم يبق في تلك الفسحة غير الأب صموئيل وهو تائه في بوادي الأفكار .

وكان القسيس الذي أرسله بترس تونن الى الأب صموئيل ينتظر منذ ساعة فلما رأى تفرق الناس والكاهن وحده في الكنيسة دخل اليه ودنا منه فذعر الاب صموئيل حين رآه لاستفحال العداء بين قسس الانجليكان وكهنة الكاثوليك في ذلك الوقت .

غير ان القسيس لم يكترث لهذه الظواهر ، فدنا منه وحياه بكل البشاشة والاحترام .

ثم قال له : إننا يا سيدي الكاهن مهما بلغنا من الافتراق ، فإننـــا نأتلف بجامعة الحنان حين يدعونا الواجب المقدس الى مساعدة الانسان .

فرد عليه صموئيل تحيته وقال : لقد أصبت يا سيدي إن افتراق كلمتنا بالمذهب لا يمنع اجتماعنا في المبدأ .

– اني ذهبت في البدء الى كنيسة سانت جيل ، ولما لم القاك فيها أتيتك الى هنا . ولقد اتفق لك كثيراً يا سيـــدي ، فيما نعلم انك كنت تساعد بنقودك واعتنائك كثـيراً من الذين أخنى عليهم الدهر من أهل طائفتنا .

– إن جميع الناس إخوان .

– ونحن ايضاً يا سيدي نجري على مبدأك . ودليل ذلك انه يوجد الآن

بين يدينا شخص تعس كاثوليكي ، وهو في حالة النزع . وقد بذلنا له كل ما يمكن بذله من الجهد والعناية تعزية له عما هو فيه ولكنه حين رأى نفسه مشرفاً على الموت سألنا ان ندعوك اليه ليعترف ولا أظنك تأبى الذهاب معي اليه يا سيدي .

-- كيف أرفض ومن يرفض مساعدة شخص يحتضر ؟

— إذاً هيا معي .

فخرج الاثنان ولقيا مركبة اجرة فركبا بها وسارا .

— ٢٣ —

ولم يكن الاب صموئيل يعلم الى اين يسير به القسيس ، الى ان وصلت بهما المركبة الى الجسر . فأمر القسيس السائق ان يتجه الى كنيسة سانت بول .

فأحفل الاب صموئيل وقال له : كيف يكون ذاك الشخص كاثوليكياً وهو في كنيستكم ؟

— لا أعلم وما انا إلا منفذ لاوامر السير بترس تون فهو الذي أرسلني .

فلم يجبه الاب صموئيل ولكنه غرق في بحار الهواجس ولم يفه بكلمة . حتى وصلت المركبة الى كنيسة الانجليكان . فنزل الكاهنان منها ودخلا الى الكنيسة وكانت أول مرة دخل فيها الاب صموئيل الى كنائس الانجليكان .

وكان للكنيسة سلم يؤدي الى منزل السير بترس تون وهو طويل يبلغ مائة درجة .

فقال له القسيس : ان الشخص المريض يا سيدي في منزل السير بترس تون

فاصعد هذه السلم اليه تجده هناك مع المريض .

فبقي القسيس في الكنيسة وصعد الأب صموئيل حتى إذا انتهى من درجات السلم الطويل لقي السير بترس تون واقفاً عند باب غرفة فأحسن استقباله وقال له : تعال معي فان المريض في هذه الغرفة .

ودخل الأب صموئيل في أثره فلقي سريراً فيه شخص تبدو عليه علائم قرب الموت .

وعند ذلك خرج السير بترس تون وهو يقول للاب صموئيل : ان المسكين يا سيدي يود ان يعترف فاسمح لي إذاً ان أدعكما منفردين وستراني عند انصرافك في انتظارك كما رأيتني حين قدومك .

ثم خرج فأقفل الأب صموئيل الباب وعاد الى ذلك المريض فتأمله وعرفه فقال له · كيف فاجأك المرض وقد كنت معافى وكيف عدت الى خدمة هذا الزعيم بعد ان طردك ؟

فرد الارلندي بصوت منخفض : إصغ إلي يا سيدي فقد امروني ان أمثل هذا الدور كي يحتالوا عليك بالحضور اليهم فلم أجد بداً من الامتثال لأنهم انذروني بالقتل وكنت في قبضتهم .

أما انا فلا اخون الارلنديين ، واعلم ان زعيم الانجليكان انما أرجعني الى خدمته لهذه الحيلة ولا أعلم مايريدون منك ولكن يجب ان تحذر منهم كل الحذر فانهم سقوني شراباً لا ادري ما هو فأصبت بعده بالحمى وأصبحت كما تراني غير اني لم أفقد صوابي ولهذا احرص من هؤلاء الأشرار .

فعجب الأب صموئيل للمكيدة ولم يعلم الغرض منها فأقام نحو نصف ساعة مع الارلندي يسأله أسئلة مختلفة عله يقف على شيء من أسرار هذه الحيلة ، ولم يهتد الى مراد .

وكان السير بترس تون واقفاً عند باب الغرفة ينتظر خروج الأب صموئيل من عند المريض وهو يحسبه يعترف .

فلما عجز الأب صموئيل عن الوقوف على خفايا المكيدة من الأرلندي خرج من عنده مصفر الوجه ولكنه ثابت الجأش مستعد لمقاومة كل ما يتوقعه من الأخطار فلقيه السير بترس تون قرب الباب وقال له : تعال معي يا سيدي إذ يجب أن احدثك في بعض الشؤون فتبعه الأب دون ان يجيبه .

ان كنيسة بول مبنية فوق قمة عالية وهي مرتفعة البناء بحيث ان المطل منها تظهر له لندرا بجملتها لاشرافها عليها من كل جهاتها .

وقد ذهب السير بترس تون بالأب صموئيل إلى سطح الكنيسة كما ذهب الشيطان بالسيد المسيح إلى قمة الجبل لأغوائه ، فقال له : انظر الى ما يمتد اليه بصرك .

فقال له الأب صموئيل : لماذا تريد أن أنظر إلى لندرا ؟

– ان لندرا سيدة العالم ، وهذه الكنيسة التي تقف الآن فوق سطحها سيدة لندرا . انك يا سيدي لا تزال في مقتبل الشباب وأنت متوقد الذهن ، ذكي الفؤاد ، فصيح اللسان ، لما لا تكون عظيماً كما تقتضيه نفسك العظيمة ؟

فبهت الأب صموئيل وقال : اني لا أفهم ما تقول .

– لا أسألك أن تنظر إلى ما تحت قدميك ، بل أنظر هناك ، في الجهة الغربيـــة ، إلى ذلك القصر الشاهق العظيم ، الذي لا يحجبه الضباب عن الأنظار ، ألا تراه ؟

– نعم فهو قصر لمبث بالاس

فقال له السير بلهجة العظمة والكبرياء ان هذا القصر يقيم فيـه رئيس طائفتنا وهو قصر فخيم وشيت جدرانه بالذهب وبنيت سلالمـه بالمرمر . اني أقدم لك هذا القصر ..

فرجع الأب صموئيل خطوة إلى الوراء ونظر اليه كما نظر السيد له المجد الى الشيطان حين قال له اني اهبك مملكة الأرض ، ثم قال له : إلي أنا تريد أن تمنح هذا القصر ؟

وقد قال له هذا القول بلهجة المضطرب فحاول السير تونِ ان يستفيد من اضطرابه وقال . أنظر إلى هذه المدينــة الواسعة التي يدعونهــا لندرا انها عاصمة انـكلترا ، بل عاصمة ثلاث ممالك ، بل هي عاصمة العالم بأسره ، فأنك في أي مكان جلت فيه من المعمورة حتى الصحارى ، وفي أي ماء مخرت فيــه من البحور إلى الغدران والخلجان ، تجد الراية الانكليزية خافقة تشير إلى ما بلغناه من العظمة .

ان لندرا سيدة البلاد تسود عليها سلطتان احداهما سلطــة النبلاء ، والثانية سلطة رجال الدين ، فيتولى رئيس الوزراء احداهما ويتولى اسقف كنتر بوري عامة الأخرى ، أتريد أن تكون يوماً خليفــة هذا الأسقف وتصبح رئيس رجال الدين في بلاد الانكليز ؟ أن توقد ذهنك يدل على أن الله انما خلقك لتكون من قــادة الافكار ورسل الهدى ، فلا بد أن تكون نفساً طامحة الى العلاء فدع هذا المذهب العتيق فقد صدأ لما تعاقب عليه من الدهور وتخل عن هذه الكنيسة القديمة وهلم الينــا تجد عندنا ما تطمع فيه من مجد وهناء .

فاستحال انذهال الـكاهن إلى احتقار ولـكنه لم يفه بـكلمة فحسب السير تونِ انه تمكن من اغوائه فاندفع في حديثه يحاول اتمام الغواية وقال: انك نشئت على المذهب الـكاثوليكي وصرت كاهناً في عهد شبابــك وخدمت مذهبك بملء الغيرة والاخلاص فقل لي ماذا لقيت من الفوائد ؟ فانك تعظ اولئك الارلنديين الفقراء وتعيش فقيراً مثلهم وتخدم مبدأهم الذي لا بد أن يكون نصيبه الفشل. أيروق لك ان تفني شبابك وأنت على ما عرفت به من الذكاء في خدمة مبدأ لا رجاء بفوزه وتنفق العمر معدماً فقيراً ؟

تعال الينا تجد الثروة قد فتحت لك ابوابها والنعم مغدقة عليك من كل صوب والاماني تبتسم لك أين سرت فلا يمر بك عهد قريب حتى تصبح أحد ذينك السائدين على لندرا بل على انكلترا بأسرها .

وهنا لم يسع الأب صموئيل السكوت فقـال له بصوت مختنق إذاً أنت تسألني ان استبدل مذهباً بمذهب ؟

فأجابه السير بملء القحة : بل أريد أن تعتقد إعتقـاداً راسخاً بأفضليـة مذهبنا وتعتنقه باختيار واعتقاد .

وعند ذلك خطا الكاهن إلى السير تون فـأخذ يده وقال له إصغ إلي يا سيدي كما اصغيت اليك .

وقد انقلب الأب صموئيل فجأة من حال إلى حال فاتقدت عيناه بأشعة الغضب وتهدج صوته حتى ان السير بيترس تون اطرق بنظره إلى الأرض كأنه لم يطق ان يتحمل نظراته .

أما صموئيل فإنه مشى بمحدثه خطوة وأراه ايضاً لندرا فقـال له : نعم لقد اصبت فان لكم القصور الباذخة الموشاة جدرانها بالذهب ولكم البحار ومـا فيها من الجواري والمنشآت ولكم السيادة التجـارية في جميع أرجاء العالم .

انك أريتني يا سيدي لمبث بالاس والبرلمان ووستمنستر وأنا أرجوك أن ترسل نظرك إلى أبعد من هذه الأماكن في جهة الشمال وتطلقـه حول تلك المنازل الحقيرة . ألا ترى بينها تلك الكنيسة البسيطة التي تدعوها كنيسة سانت جورج ؟

إن هذه الكنيسة لنا يا سيدي وهي تعـادل كنيسة القديس بطرس في رومه ، وان الهيكل الذي نصلي فيه هو نفس الهيكل الذي كان يصلي فيـه الكهنة المسيحيون الأول منذ ثمانية عشر قرناً .

وبعد فكيف تحدثني بقدم مذهبنا ، ومتى كان طول العهد بالمذهب شأناً له ؟ الا ترى ان شيعتكم قد أسست منذ الأمس ، فما مر بمذهبكم الجديد نصف قرن حتى تشعب إلى طوائف وبتم انتم اخوان تتقاتلون اقتتـال الأعداء ،

يبتدع الزعيم منكم بدعة فيلتف حوله الناس وفي كل يوم لكم بدعة ، أما نحن فليس لنا غير هيكل واحد .

ثم انكم تضعون في كنائسكم صور عظماء رجالكم من القادة والأمراء ، أما نحن فإننا نضع تماثيل زعماء كنيستنا الاقدمين فإنهم لم يبلغوا هذا المبلغ من الاكرام عندنا إلا لثباتهم في الإيمان .

ومهما يكن من امر كنيستنا الارلندية وضعفها فانها تبثت ثبوت الجبل الراسخ مهما هبت عليها العواصف ، ذاك لأن إيماننا خالد أبدي لا يتزعزع .

انك تريني مملكتكم وقصوركم ، وأنا أريك منازلنا الحقيرة المحيطة بكنيستنا الفقيرة ، ولكني أقول لك إننا على فقرنا أغنى منكم على ثروتكم ، ولو خيرنا لما رضينا بغير هذا الفقر ، فإنه مع إيماننا الصادق خير من مجدكم الباطل ..

وكان الأب صموئيل يقول هذا القول بصوت رنان يشبه صوت أوتار الأرغن ، وقد اتقدت عيناه ببارق من الغضب حتى خشي السير بترس تون أن يعترضه ولم يجسر على النظر اليه .

أما الأب صموئيل فإنه وقف في حديثه عند هذا الحد ، وأشار إلى السير تون إشاره ملوءها العظمة والكبرياء ، فابتعد السير تون من طريقه وخرج الأب مرتفع الرأس شامخ الأنف فنزل من سلم المنزل إلى الكنيسة ومنها إلى الشارع .

وكان القسيس الذي اتى به لا يزال واقفاً في مكانه ينتظر أوامر رئيسه ، فلما رأى الأب صموئيل على هذه الحالة أيقن أنه قد حدث بينه وبين رئيسه أمر خطير .

وأسرع إلى سطح الكنيسة فرأى السير تون واقفاً متكئاً على الشرفة ودلائل الاضطراب بادية عليه ، ولم يشعر بقدوم القسيس ، ولم يجسر على مفاتحته بالحديث إلى ان حانت التفاتة من الزعيم ورأى القسيس وقال له بلهجة

الغاضب الحاقد : إن هذا الكاهن بات من الد أعـدائنا فقد فشلت معه ، لكني سأسحقه سحق الاناء ، وسيكون القتال شديداً بيننا .

ثم ضم يديه وأشار بهما إلى كنيسة سانت جورج وقال : الويل لأبناء هـذه الكنيسة ولزعيمهم فسيكون لهم معي شأن تذكره بعدي التواريخ .

٢٤ ·

ولندع الآن الأب صموئيل خارجاً من الكنيسة ، والرجل العبوس ذاهباً إلى هايد بارك على أمل أن يرى مس الن ولنعد إلى جوهـان ونيقولا الذين كانا يحاولان القبض على العبوس .

فإن بادي تربص معهما قسماً من الليل ثم قال لهما : انكـما مخطئان فإن العبوس غير مقيم في القبة .

فقال له نيقولا : أين تظنه مختبئاً ؟

- ذلك سري فلا أبوح به .

- ولكننا الآن شركاء فلا حق لك ان تكتم عنا أمراً إنما اشتركنـا من أجله ..

فقال له بادي : أرجوك أن لا تستاء مني وأن تصغي إلي فإني حـين لقيتكم كنت أنا أيضاً متعهداً بالقبض على الرجل العبوس ولكني لم أكن أعمل لأجلي .

- لأجل من ؟

- لأجل شخص غني قادر أن يدفع أضعاف ما يدفعه البوليس من المكافأة وقد قلت لكم الآن اني أعلم أين يختبيء العبوس

- إذاً لماذا لا ترشدنا إلى مكانه

— لا أستطيع أن أرشدكم اليه قبل أن يأذن لي الذي أخدمه ولا تخشيا خسارة الجائزة فإنكما ستنالان ضعف ما ترجوان .

وكان بادي يتكلم بلهجة تشف عن الصدق والإخلاص فوثق به نيقولا وقال له : متى ترى هذا الشخص الذي تخدمه ؟

— في هذه الليلة وانا ذاهب الآن ..

— ومتى نراك ؟

— حيث تريدان .

فقال له نيقولا : إذاً تجدنا هنا عند صفة النهر فإننا سننام في أحد القوارب .

— وأنا سأوافيكما .

ثم تركهما وانصرف .

وقد عرف القراء ما حدث لبادي فانه تركهما وذهب إلى المس الن ففتح لها الدهليز كما قدمناه .

وقد كان بادي أخبرها بما حدث فأمرته أن يخبر الأب صموئيل بأن البوليس علم مكان الرجل العبوس واطلقت سراحه فغيرت بذلك جميع الخطة التي اتفق عليها مع رفيقيه .

أما جوهان ونيقولا فانهما انتظرا بادي مدة طويلة إلى ان دب النعاس في أجفانهما فناما في القارب واستيقظا بعد نوم طويل فلم يحضر بادي مع أنه عاهدهما على الملتقى .

واستاء جوهان واشتدت ظنونه ببادي وقال لرفيقه : إني أرى غير ما رأيته من هذا الرجل فهو أما يهزأ بنا او انه يخوننا .

فقال له نيقولا : واية فائدة له من خيانتنا ؟

— أنه يخدم الارلنديين ، ألا تعلم اين يقيم ؟

— انه يقيم في زقاق من أزقة ادم ستريت .

ـ إذاً هلم نذهب اليه فنقف على الحقيقة .

فوافقه نيقولا وذهب الاثنان إلى شارع أدم ستريت .

وكانت الساعة التاسعة صباحاً،اي في الوقت الذي اقبل فيه الأب صموئيل لمنزل بادي فرآه جوهان حين ذهابه ، وهز يد رفيقه وقال له : انظر ألا ترى الرجل اللابس السواد أتعلم من هو ؟

ـ إنه الأب صموئيل الارلندي ، بل زعيم الارلنديين ولا شك انه يعرف مقر المبوس فلم لا نتبعه بدلاً من ان نسير إلى منزل بادي .

فوافقه ايضاً وسارا على بعد بضع خطوات من الكاهن يقتفيان أثره .

ثم رأياه قد وقف عند منزل بادي ودخل فاضطربا ونظر جوهان إلى نيقولا وقال له : لم يبق لدي ريب ان بادي يخدعنا ما زال الأب صموئيل قد دخل إلى منزله .

وبعد هنيهة رأيا إمرأة بادي وولديه قد خرجا من المنزل فمر جوهان بالمنزل ونظر نظرة الفاحص من أحد نوافذه فرآه يصافح بيده يد بادي ويهزها وقد ظهرت على وجهه علائم الامتنان .

ونادى رفيقه بالإشارة وقال له : انظر أعندك شك بعد انه من الخائنين ؟

ـ ما زال الأمر كذلك فلا بد من عقابه ، وهنا تحالف الرفيقان واتفقا على قتل بادي .

ثم انصرفا على أن يعودا في المساء فإن القتل أستر في الظلام .

وبعد حين عادت امرأة بادي فجعلت تحادثه بما سيناله من الثروة في خدمة مس الن بينا كان جوهان ونيقولا يتآمران على قتله .

ولنعد الآن إلى الرجل العبوس فقد تركناه خارجاً من كنيسة سانت جورج ممتطياً فرساً كريمة وقد بالغ في التنكر حتى ان الأب صموئيل نفسه لم يعرفه إلا من صوته .

وسار بجواده خبباً إلى وستمنستر واجتاز شارع التلغراف ودخـــل إلى الحديقة الملكية عند الظهر .

والعادة في لندرا ان الأشراف يتنزهون في هايد بارك في اواسط النهـار فإذا بزغت الشمس واخترقت أشعتها ضباب لندرا الكثيف أقبل الفرسان والفارسات الى تلك الحدائق إقبال العطاش على موارد الماء .

وقد صفى الجو في ذلك اليوم بعد الصفاء ، فلما قدم العبوس رأى كثيراً من الناس قد سبقوه الى تلك الحدائق الغناءفجال بينهم واستلفت فرسه انظار الجميع لندور الجياد الأصيلة في بلاد الانـكليز .

وكان جماعة من الفرسان مجتمعين حين مر بهم العبوس فاختلفوا بين أن يكون انكليزياً أو فرنسياً أو أميركياً وكان اختلافهم مؤدياً الى الرهان حسب عادة الانـكليز فلا أحب اليهم من الرهان .

وقد طال خلافهم حتى قال بعضهم : إنه هندي .

وقال آخرون : بل انه برازيلي .

وكان بينهم شاب يدعى البارون إدموند فقال لهم : اني أعرف هـذا الرجل فهو روسي يدعى الكونت ر. وهو عاشق مفتون بالمس الن ابنـة اللورد بالمير .

فاعترضه أحد الحاضرين وقال له : ما هذه القصص التي ترويها يا ادموند .

— اني لا استنبط بل اروي الحقيقة فانـكم تعلمون ان مس الن أجمل فتاةفي بلاد الانكليز ، وقد ردت كل خطابها وليس فيهم غـــير الغني النبيل ، ألا

تذكرون حكاية ابن اللورد س . وكيف انه حاول الانتحار من اجلها في العام الماضي ؟

فرد أحدهم : بل نذكر ايضاً البارون وليم الذي سفك دمه منتحراً في سبيل غرامها .

– إذاً فاعلموا ان مس الن سافرت على اثر هذه الحادثة الى ايطاليا واقامت فيها عامين وهنا يبدأ تاريخها .

وقال الجميع : بالله أروي لنا شيئاً من أخبارها .

– أروي لكم ما تعلق بهذا الرومي فانها أقامت شهراً في موناكوا وهذه المدينة يزورها كثير من الروسيين كما تعلمون وخلبت في هذا الشهر عقل الكونت وأقسمت على أن يتزوجها .

قال أحدهم : اتظن أن هذا الرجل الذي مر بنا هو الكونت الروسي وكيف تؤيد رأيك ؟

– بأمر بسيط وهو ان مس الن لم تأت إلى هايد بارك منذ ثلاثة أشهر ، وهي قد أتت اليوم .

ورد أحدهم : لقد أصبت فقد رأيتها الآن داخلة من ويث هال .

وقال آخر : إن قولك هذا لا يبرهن على شيء .

فاعترض عند ذلك واحد منهم وقال : إنكم تستطيعون عقد الرهان أيها السادة وأنا أراهن مع ادموند وأثبت صحة ما قاله .

وكان المعترض فتى يدعونه المركيز لاكروا فقالوا له . كيف تثبت ذلك ايها المركيز .

– ذلك سهل ميسور لدي فاني أذهب إلى مس الن نفسها وأسألها فإني من أصدقائها

وقال له أحدهم ممازحاً : ولكنك لا تتزوجها فيما أعتقد .

– معاذ الله فإن زوج مس الن لا يكون زوجاً لها بل عبداً .

وعند ذلك تراهن الفريقان على الف جنيه فقال قسم منهم ان العبوس هو الكونت الروسي عاشق مس الن وقال الفريق الآخر انه ليس رومي ولاعاشقاً

ولما تم الاتفاق على الرهان بينهم لكز المركيز بطن جواده وسار مقتفياً أثر مس الن حتىأوشك أن يدركها ، فالتفتت إلى ورائها وعرفته فحيته وهي تحسب أنه سيمر بها دون ان يكلمها ولكنه حين وصل اليهـــا جعل جواده محاذياً لجوادها وقال لها : اني عقدت رهاناً يا مس الن .

– ما هو هذا الرهان ؟

-- هو ان الكونت الروسي في لندرا وانه الآن في هايد بارك وقـــد اتى ليراك .

فابتسمت وقالت : إن هذا الكونت قد هام بي في موناكو ولكنه نسيني الآن دون شك .

-- ولكن ذلك محال يا سيدتي فانه في لندرا ..

– ألا يمكن ان يكون اتى اليها لغير مهمة الغرام ؟

– ومع ذلك فانه الآن معنا في هذه الحدائق .

– العلك تعرفه ؟

-- كلا، ولكننا رأينا فارساً مر بنا لا يعرفه أحد منا غير انالسير إدموند يقول انه الكونت .

– وأين هذا الفارس ؟

– هو الذي أمامك على فرسه الأسود ووراءه خادم .

فنظرت الى حيث اشار فرأت ذلك الفارس اي الرجل العبوس فقالت : اني بعيدة جداً عنه ولا ارى وجهه فلا استطيع أن أعلم إذا كان هو الكونت فهل تريد ان تصحبني لأدركه ؟

- حباً وكرامة يا سيدتي .

ودفعت عند ذلك فرسها وانطلق انطلاق الريح والمركيز يتبعها ، ولكنه

لم يركض بها هنيهة حتى اوقفته فجأة لأنها اقتربت من الرجل العبوس وعرفت فرسه والخادم الذي كان يتبعه .

فانــذهل المركيز وسألها : لماذا أوقفت الجواد ؟

فاصفر وجه الفتاة ولكنها تجلدت وابتسمت إخفاء لاضطرابها ثم قالت : انك تعلم يا حضرة المركيز إني غريبة الأخلاق فأنا أريد منك الآن ان تبقى هنا لماذا ؟

— لأني أريد أن أدنو من هذا الرجل وحدي فاذا كان هو الكونت الروسي او لم يكن عدت اليك فتعلم إذا كنت خسرت الرهان او كنت من الرابحين .

-- ليكن ما تريدين .

فتركته مس الن واقفاً في ظل شجرة وأرخت لجوادها العنان فاندفع في أثر الرجل العبوس

- ٢٦ -

أما العبوس فانه رأى مس الن تتبعه فدفع جواده مسرعاً إلى احد أبواب الحديقة كي تقرب المسافة ويسهل عليه الخروج حين الاقتضاء .

وتبعته مس الن مسرعة ايضاً وهي بين الشك واليقين في امره فانها وثقت انه هو بعينه حين رات الجواد وخادمه ، ولمـــا دنت منه وتبينت وجهه صاحت صيحة دهش وانذهلت ذهولاً شديداً حين رأت انه غـــير العبوس الذي تعرفه .

ولم يتمالك العبوس عن الابتسام ونظر اليها تلك النظرات المكهربة فغضت بصرها وهي تقول في نفسها : لا شك انه هو بعينه فاذا كان قد غير وجهه فانه لم يغير عينيه .

وكان العبوس عند ذلك دنا منها بجواده وحياها بصوت رخيم كشف النقاب عن تنكره إذ عرفته ايضاً من صوته فقال لها : أسألك العفو يا مس الن فاني اضطررت الى هذا التنكر .

فقالت له معجبة : اهذا انت ايضاً ؟

— نعم وستريني كل يوم إلى أن تحبيني .

ثم سار بجواده بازاء جوادها والخادم يسير في اثرهما على مسافة بعيدة .

واخذ يحادثها من غير كلفة فيقول : ما أجمل هذا اليوم ، انه يشبه ايام الربيع ، وما أرق أحاديث الغرام فيه اليس كذلك ؟

ونظرت اليه نظرة احتقار وقالت له بلهجة المتهكم : ألا تزال على ما كنت فيه من الجنون .

— ربما ..

— إنك أمس مثلت دور السحرة وأراك اليوم تمثل دور الدون جوان وتحاول استغواء القلوب .

— يعجبني منك هذا التهكم فانه يدل على البغض ، وان البغض مقدمة الحب لدى من يعرفون خفايا القلوب .

فهزت كتفيها احتقاراً وقالت : انك كنت أمس تحت سقف منزلي فاحترمت حقوق الضيافة ، أما الآن فاننا في محل عمومي ويوجد بالقرب منا نحو عشرين نبيلاً يعتقد بعضهم انك كونت رومي وان هذا الكونت ايضاً من عشاقي ..

— ماذا تعنين بذلك يا مس الن ؟

— اعني اني إذا أشرت إشارة إلى هؤلاء النبلاء اسرعوا الي ولا يبقى علي الا أن أقول لهم ان هذا الرجل الذي لا تعرفونه والذي حسبتمونه نبيلاً ..

فقاطعها الرجل العبوس وقال لها مبتسماً : انه من أشقياء الناس ، وانه زعيم اولئك الأشرار الذين يتآمرون على انكلترا ، وانه ذلك اللص الذي

أنقذ الغلام الارلندي من سجن الطاحون ، اليس هذا الذي تريدين ان تقوليه يا مس الن ؟

– نعم فاني استطيع ان أناديهم واقول لهم هذا القول .

واجابها بسكينة : وانهم من النبلاء كما تقولين ولكل نبيل الحق بأن يكون بوليساً عند الاقتضاء فلا يحتاجون إلى بوليس للقبض علي ، اذاً اصدري أمرك اليهم فاني لا اتزحزح من مكاني ولا أحاول الفرار .

– انك تنذرني كما أرى ، ولكن احذر .

فقال لها بلهجة المتهكم : وانت يا سيدتي ألا تحذرين من أن يقال عنك بأنك ذات علائق مع اللصوص .

– اني لا أبالي بما يكون من سمعتي اذا بلغت غايتي من الانتقام .

– اذاً نادي هذا المركيز الذي ينتظرك في ظل الشجرة .

– كلا ، بل أريد اليوم أن أكون كريمة أيضاً كما كنت أمس وفوق ذلك فان هذا اليوم يوم أحد تعقد فيه المهادنات .

– وماذا تخشين مني يا مس الن بعد ان ارجعت اليك الرسائل التي كتبتها الى ذلك الفتى المنكود .

وقطبت جبينها واتقدت عيناها ببارق الغضب وقالت له . اتجسر ايضاً ان تباحثني في هذه الرسائل بعد ان حجزت واحدة منها عندك .

فاضطرب المبوس فجأة وقال :إن هذا محال يا سيدتي فقد عددت الرسائل التي اعطيتك اياها فهي سبع عشرة رسالة .

– وأنا كتبت ثماني عشرة .

فقال لها بلهجة تشف على الصدق الأكيد : اني أقسم لك يا مس الن اني ما وجدت في الضريح غير سبع عشرة رسالة ، واني لا اعلم شيئاً من امر الرسالة المفقودة ، لكني اقسم لك ايضاً اني سأقف على حقيقتها فاذا كانت موجودة رددتها اليك .

ثم حياها مودعاً وابتعد عنها يعدو خبباً بجواده فوقفت مس الن تنظر اليه حتى توارى عن الأنظار .

فقالت في نفسها . ان هذا العدو عدو شريف وانا واثقة ان الرسالة ليست عنده ولكن اين هي ؟

وبعد ان توارى العبوس عن انظارها عادت الى المركيز الذي كان لا يزال ينتظرها فقالت له مبتسمة . يسوؤني انك خسرت الرهان يا سيدي المركيز لأن الشخص ليس الكونت الرومي فادفع الرهان ولا تعد لمثله .

ثم تركته ضاحكة وذهبت في طريق آخر .



وبقيت تتنزه في الحدائق الى الساعة الثانية بعد الظهر فلما عـادت الى منزلها أعطاها الخادم رسالة باسمها ففضتها ولم تكد تقف على مـــا فيها حتى اضطرب قلبها فانها كانت تحتوي على الرسالة المفقودة ، ورسالة من الرجـــل العبوس هذا نصها .

« ان والدة الفتى حفظت تلك الرسالة على سبيل التذكار فأرجعتها اليك مع تقديم واجب الاحترام فأقبليه من ذاك الذي لا بد ان تحبيه »

« الرجل العبوس »

فهاجت احقاد مس الن هياج البراكين النارية فمزقت الرسالتين وقالت : أما الان وقد بت لا أخشاك فسوف ترى ما يكون مني ، ان الحرب قد بدأت الان وسأسحقك سحق الزجاج .

إن يوم الأحد في لندرا أقبح أيام الأسبوع ، لما يعتري الانسان فيه من الملل ، فإن جميع المخازن والأندية تقفل أبوابها وتعطل الأعمال بجملتها . وتسود السكينة فيها . فلا تجد في شوارعها غير شراذم من النـاس يسيرون الهوينا سكوتاً وجوماً بعضهم قبيل التدين احتراماً لذلك اليوم وبعضهم على سبيل العادة .

ولذلك يعدون هذا اليوم كليلة العاشق لا نهاية لها .

حتى إذا توارت الشمس في الحجاب ، واتقدت مصابيح الغاز في الشوارع وفتحت الحانات أبوابها ، تنفس الناس الصعداء وخرجوا متهللين مستبشرين فغصت الطرقات ، وعادت الأعمـال إلى مجاريها . فكانوا كلهم كأنهم في حفلة عيد .

وأخص ما يكون الزحام في شوارع الفقراء ، فان الحـانات فيها تفتح أبوابها في الساعة الثامنة ، فتغص بالسكارى ويعربدون على قـدر سكرهم . ولكن البوليس يتساهل معهم في تلك الليلة تساهلا عظيماً فلا يقبض على سكير ولا يؤنب معربداً كي لا ينغص على الناس سرورهم بعد ضجرهم العظيم في ذلك اليوم الطويل .

وكان بادي مقيماً في منزله مع إمرأته وولديه في ذلك اليوم ، فلما أقبـل المساء حنت نفسه إلى الشراب وقال لامرأته : إني ذاهب أتنزه قليلا فاني مصاب بصداع خفيف .

— ولكن البرد يزيد صداعك لأنه قارس .

— إني أزرر ثوبي فأتقيه .

- أؤثر ان تبقى في المنزل ولا أدري لماذا ؟

– أقول لك الحق اني كنت مصاباً بصداع ولا أريد التنزه بل أريد أن أشرب كأساً مع الاخوان .

– يوجد عندنا إبريق ملآن من البيرا السوداء ، فاشرب منه ما تشاء .

– إن الشرب في المنزل لا يلذ كالشرب في الحانات .

فتنهدت امرأته وقالت: وقد صدق من قال فيكم معشر الرجال انكم فطرتم على العناد .

فتغلبت عواطف الجفاء من بادي على عواطف السلام وقال لها مغضباً : لماذا تودين ان أبقى في البيت ولم هذا الاستبداد ؟

– قلت لك لا اعلم .

– أيكفي هذا البرهان السخيف لحملي على الامتثال لك أم تحسبين إننا خلقنا لإرضاءكن ولنكون لكن عبيداً ؟

– إن قلبي يحدثني بحلول مصيبة وقد ظهر لي من الأب صموئيل انه غير واثق بك .

ثم لا أعلم ما كانت غاية مس الن من أمرها لك ان تحذر صموئيل من الكامنين للرجل العبوس

– وأنا لا أعلم ايضاً ولا أزال أعد امرها من الألغاز .

– إنها مثل أبيها تكره الارلنديين أشد الكره ، فكيف تسعى إلى إنقاذ هذا الارلندي .

– قلت لك لا أفهم شيئاً من مقاصدها ، حتى إني لا أريد أن أبحث في أوامرها الغامضة وإني عولت على الخضوع لها منذ بعتها نفسي بيع السلع .

ثم تركها وخطا خطوة إلى الباب ، ولكنها أمسكت ذراعه وأوقفته وقالت له · إصغ إلي ، فلقد قلت لك انه خيل لي أن الأب صموئيل غير

أمين معك .

– ماذا تريدين بذلك ؟

– أريد ان تبقى في المنزل لأني أخاف عليك من الارلنديين

فهز بادي كتفيه استخفافاً وقال : إذا كان لا بد من الخوف لا يكون خوفي من الارلنديين .

– ممن إذاً ؟

– من نيقولا وجوهان .

– لماذا ؟

– لأني وعدتهم ان أوافيهم في الليلة السابقة غير ان مس الن منعتني من رؤيتهم .

ولكني لا أقابلهما في هذه الليلة فاني ذاهب إلى الحانة التي بجوارنا وهما لا يزالان كامنين قرب الكنيسة .

فقالت له بصوت مضطرب : إذاً لا بد لك من الذهاب .

– دون شك فقد قتلني الضجر وسيحييني الشراب .

– بادي أرجوك ان تبقى

وقد قالت له هذا القول بلهجة دلال ، فخشي بادي ان يؤثر عليه دلالها ، فتكلف الغضب وقال : لقد لقيت من الضجر منك أكثر ما لقيه النـاس من هذا اليوم الثقيل فدعيني أذهب إلى حيث أشاء فقد سجنت شهراً كاملاً أتريدين ان تسجنيني انت ايضاً ؟

ثم أبعدها بجفاء وخرج من المنزل .

فلم يبتعد عنه مسافة قريبة حتى لقيه جوهان وقال له : إلى أين أنت ذاهب ؟

– إلى خمارة اليزابت أشرب كأساً من البيرا .

– إذاً هلم بنا ، إني رفيقك .

ثم تأبط ذراعه وسار به فلم ير الناس ، بعد ذلك العهد ، بادي المنكود حياً .

- ٢٨ -

لقد رأينا كيف كانت امرأة بادي تلح على زوجها بالبقاء في المنزل ، وتنتقل معه من التحذير الى الضغط الى الاستعطاف والالتماس دون ان تفوز بمراد . فان النساء مهما بلغ من سلطتهن على الرجل لا يبلغن منه مراداً متى أصر على قضاء بغيته ولا سيا إذا كانت بغية السكر او المقامرة .

فلما خرج بادي من المنزل غير مكترث لامرأته وتوسلها أنامت المرأة ولديها وجعلت تقرأ في التوراة منتظرة عودة زوجها وهي تنظر إلى ولديها النائمين من حين إلى آخر .

ولبثت تقرأ ، حتى انقطعت أصوات الناس من الخارج ، إشارة إلى تقدم الليل ، فزاد اضطراب تلك الزوجة ، واشتدت هواجسها . فأقفلت توراتها ، وقامت إلى الباب الخارجي ، فوقفت على العتبة تنتظر على أحر من الجمر

وكانت كلما رأت شخصاً قادماً حسبته زوجها ، حتى إذا مر بها ، واستمر في سيره ، زادت هواجسها وتمكنت منها المخاوف فان قلبها كان ينذرها بمصاب الیم .

ولما طال انتظارها دون ان يعود عولت على أن تبحث عنه في الخمارات التي يختلف اليها .

فدخلت الى المنزل فتفقدت ولديها ثم خرجت فأقفت الباب وسارت في تلك الخمارات تبحث عنه فلم تجده .

وكانت تسأل عنه السكارى وكلهم يعرفونه ، فقال لها أحدهم : إني رأيته ذاهباً في جهة التميس .

فأيقنت المرأة انه ذاهب إلى خمارة اليزابيث لأن جيبه كان مفعماً بالنقود فأثر هذه الخمارة لغلاء المشروبات فيها .

فذهبت إلى تلك الخمارة فلم تجده ولم تجد أحداً يعرفه ، ولكنها سألت الحاضرين إذا كان بينهم من يعرفه أو رآه .

فأجابها أحدهم . إني رأيته منذ ساعة ذاهباً إلى كنيسة سانت جورج وهو يتمايل في مشيته كالسكران

— أكان وحده ؟

— كلا بل كان مع شخصين أظنهما إرلنديين .

وكان هذا الشخص الذي يحدثها جوهن ، الذي لقي بادي حين خروجه من منزله .

فاضطربت المرأة اضطراباً شديداً حين سمعت ذكر الارلنديين وخرجت مسرعة عائدة إلى منزلها ، وهي تحسب انها تجد زوجها فيه ، وتقول في نفسها : إن الساعة كانت قد بلغت الرابعة صباحاً ؛ فاذا هو لم يعود فقد أصيب بنكبة لا محالة .

وكانت كلما اقتربت من المنزل شعرت باضطراب في ساقيها وخفوق في قلبها . حتى إذا وصلت إلى مدخل الزقاق الذي يقيمون فيه رأت جماعة من الرجال يتحدثون وعليهم علائم الاهتمام كأنهم يتحدثون بأمر خطير فدنت منهم مضطربة دون ان ينتبه لها أحد فرأت الزقاق غاصاً بالناس ورأت بينهم نحو عشرة من أفراد البوليس .

وكان البوليس والجماعة واقفين أمام منزلها ، فدنت خطوة أيضاً ، ثم وقفت منذعرة وقد رعبت رعباً قوياً ، ذلك انها رأت باب المنزل مفتوحاً ورأت بعض الناس فيه ، ثم سمعت صوتاً لا يمكن ان تنخدع فيه وهو

صوت ولدها .

وقبل أن تخطو أتت اليها إحدى جاراتها فصافحتها وهي تقول : ما هذه النكبة أيتها العزيزة انها لا تقبل العزاء .

ولم تكن قد عرفت شيئاً بعد ولكنها علمت كل شيء بعد صراخ ولديها ، وكلام جارتها .

فدخلت الى المنزل وقد اصفر وجهها واحمرت عيناها فلقيت فيه زوجها بادي ولكنها لقيته ميتاً لا حراك فيه .

وقد رأته منطرحاً على الأرض وولداها حول الجثة يصيحان صياحاً يقطع القلوب وكان منظر الجثة هائلا فإنها كانت مطعونة أربع طعنات إثنتين في بطنه واثنتين في الكف والوجه

غير ان بادي لم يقتل بهذه الجراح إذ لم يكن بينها جرح قاتل ولكنه مات مخنوقاً فان أثر ضغط الأيدي كانت بادية في العنق

ثم أن ملابس الميت كانت تدل على انه دافع دفاع اليأس قبل ان يموت فإنها مقطعة ممزقة كما ان آثار الضغط والجراح الأربعة كانت تشير إلى ان قاتله لم يكن واحد بل جماعة .

وكان البوليس الطواف قد عثر حين طوافه ببادي ملقياً في أحد الأزقة ، وهو مضرج بدمه فعرفه واحد منهم وقال : إني لا أعرف اسم القتيل ولكني أعرف أين يقيم .

ولذلك أتوا به بدلاً من أن يرسلوه الى المحل المعين لعرض القتلى

وكان الناس قد تجمهروا عليهم حين ذهابهم به ، فعرفه كثيرون . ولم تمض هنيهة حتى انتشر الخبر في ذلك الشارع ، وأقبل الناس من كل صوب الى المنزل .

وكان رئيس البوليس قد حضر في ذلك الحين وباشر التحقيق .

أما إمرأة بادي فقد أصيبت بذهول عظيم حين فوجئت بهذه النكبة فأرادت

أن تبكي فحبس دمعها وحاولت أن تعول فانعقد لسانها .

وأخذ رئيس الشرطة يسأل من كان حوله من الناس عما يعلمون من أمر ذاك القتل الذريع فلم يجد بينهم من يجيبه .

ولكن إمرأة بادي لم تلبث أن سمعت ســؤال الرئيس حتى حلت عقدة لسانها فدنت من الرئيس وقالت له بصوت مختنق يتهدج : إن قاتله هو الكاهن فلم يكن لزوجي أعداء .

فقال لها الرئيس وقد حسب انه وقف على سر الجناية : أي كاهن تعنين يا سيدتي ؟

— الكاهن الكاثوليكي .

— أتظنين انه قاتل زوجك ؟

فاتقدت عيناها من نار وظهرت على وجهها علائم الانتقام الوحشي فقالت : إذا لم يكن الكاهن قد قتله فهو الآمر بالقتل دون ريب وان رجاله الذين قتلوا زوجي المسكين

— أوضحي يا سيدتي كل ما تقولينه بالتفصيل فان في بلادنا الحرة لا يسلم مجرم من العقاب مهما ارتفع مقامه وعظم منصبه .

فاختنق صوت المرأة وقالت : إن هذا الكاهن الكاثوليكي الذي أتهمه إرلندي وقد أحسن الينا مرات كثيرة ، فاضطررنا إلى قبول إحسانه مكرهين لشدة فقرنا .

فتعجب الرئيس وقال لها : إذا كان ذاك الكاهن قد أحسن اليكم ، كما تقولين ، فكيف يسيء بعد ذلك الاحسان ؟ وأية فائدة له من قتل زوجك ؟

— إن زوجي كان مشتركاً مع اثنين بغية القبض على الرجل العبوس ونيل الجائزة من الحكومة . وقد علم الكاهن بذلك ، ولما كان إرلندياً وكان الشخص الذي سيقبضون عليه ارلندياً فقد حقد الكاهن على زوجي وأمر

أتباعه بقتله فقتلوه .

وكان يوجد كثير من الناس في البيت يسمعون إقرار المرأة ، واتهامها الكاهن الارلندي بالقتل . فصادفت التهمة هوى من نفوسهم ووافقوا المرأة على أقوالها .

وكان بين أولئك الناس رجلاً لابساً ملابس السواد وكان واقفاً بينهم دون أن ينتبه اليه أحد فلما سمع التهمة اتقدت عيناه بأشعة الفرح فانسل من بين الجماعة وبرح المكان مسرعاً وعليه علائم الاهتمام .

أما ذلك الرجل فقد كان السير بترس تورين ألد أعداء الأب صموئيل .

أما رئيس البوليس فإنه لما رأى ان التهمة عظيمة ، وإنها لاحقة بأحد رجال الدين ، أمر بتفريق الناس وإخراجهم من البيت استيفاء للتحقيق مع المرأة .

فأخرجوا جميعهم ووقفوا جماعات متفرقة في الشارع وجعلوا يتحدثون بهذه التهمة ، ويذكرون الأب صموئيل ، فيختلفون فيه بين مصدق للتهمة وبين منكر لها ،لأنه كان مشهوراً بالخير ولا سيا بين الطبقة السفلى فلم يعدم أنصاراً بين أولئك المتجمهرين .

وإنهم على أحاديثهم تلك إذ امتزج بينهم شخص لم يعرفه أحد من قبل ، فجعل يسأل الناس عن سبب تجمهرهم حتى وقف على الحقيقة فذهب إلى منزل بادي وقال للبوليس الواقف على الباب ألا يوجد جثة قتيل في المنزل والرئيس يحقق في أمره ؟

— نعم يا سيدي وما شأنك في ذلك ؟

-- أرجوك ان تبلغ الرئيس بأن لدي تعليمات عن هذه الجناية يجب أن أبلغه إياها .

فدخل البوليس إلى المنزل وأخبر رئيسه بما سمعه من ذلك الرجل فأمر بإدخاله على الفور .

ودخل الرجل فسأله الرئيس : من أنت يا سيدي ؟

- اني طبيب ألماني .

— ماذا تسمى ؟

— كونار هوزر .

— تقول ان لديك تعليمات عن الجناية فقل ما تعلمه .

— اني أستطيع ان أظهر لك القاتل .

فارتعشت امرأة بادي وقالت انك اذا فعلت هذا تبارك نفسي وتبارك عظام زوجي تحت الثرى .

وقال له رئيس البوليس : إذاً أنت تعرف القاتل فقل لنا ما اسمه .

— اني لا أعرف اسمه ياسيدي ولا أعرفه ايضاً ولكن اذا أمر سيدي باجراء ما أطلبه اليه أظهرت صورة القاتل لجميع الناس .

فاستغرب الرئيس كلامه وقال : اني لا أفهم ما تقول .

— لقد قلت لك يا سيدي اني طبيب ، وأنا أشتغل منذ عشرين عاماً في مسألة طبية خطيرة ، توفقت لاكتشافها ، وهي التي لمحت لك عنها الآن .

وكان يتكلم بسكينة ورزانة ، تشف عن اعتقاد متين ، وتشير على أنه من العلماء الخبيرين . غير ان الرئيس لم يتمالك عن فحصه اذ خشي أن يكون مجنوناً .

فقال له الطبيب مبتسماً : لا تطل فحصي يا سيدي ، فان ما قلته لك حقيقة راهنة عندي ، وسأكشف لك القاتل ، وأمثل رسمه لجميع الناس ، وأنا لا أسألك أن توقف سير التحقيق أو تمتنع عن القبض على المتهمين بالجناية .

— إذاً ماذا تطلب ؟

— أطلب أمراً بسيطاً .. وهو ان ترسل هذه الجثة إلى مستشفى

القديس بورتولمايو ، أو تبقى هنا . ولكن بشرط أن لا يمسها أحـد إلى صباح غد .

وبعد الصباح ؟

– أظهر لكم القاتل دون شك .

ثم أخذ من جيبه محفظة وأخرج منها أوراقاً مالية قيمتها خمسون جنيهاً وقال إن العادة يا سيدي ان يدفع من يريد المداخلة في تحقيق جريمة ، تأميناً مالياً يدل على سلامة قصده فتفضل وخذ مني التأمين .

فأبى الرئيس أخذها وقال : لا حاجة اليها ، أما الجثة فستبقى هنا مكانها بحراسة اثنين من البوليس وغداً تفعل ما قلت عنه وأما الحكومة فإنها بالطبع لا توقف تحقيقها بانتظار نتائج أبحاثك .

فانحنى الرجل شاكراً وانصرف فماسار بضع خطوات في ذلك الزقاق حتى لقي شخصاً ينتظره فتأبط ذراعه وسار وإياه .

– ٢٩ –

أما هذا الشخص الذي كان ينتظره فقـد كان شوكنج ، وقد عرف القراء دون شك ان ذاك الألماني لم يكن غير الرجل العبوس الذي تجاسر على المثول أمام رئيس البوليس ، والبوليس يبحث عنه في كل مكان وقد عين جائزة لمن يقبض عليه .

وكان السبب في قدوم العبوس الى الزقاق انه كان يسير مع شوكنج مستطلعاً أخبار بادي للوقوف على خديعته للكاهن .

فلما وصل قرب منزله رأى احتشاد الناس ، وسمع لغطهم وترديدهم اسم الأب صموئيل ، فأمر شوكنج بانتظاره وامتزج بين الناس وعلم منهم تلك التهمة

المائلة التي يتهمونه بها .

وقد عرف القراء كيف دخل إلى منزل بادي وكيف خرج منه مزوداً باذن رئيس البوليس ان يجري امتحاناته العلمية بالجثة .

فلما مشي مع شوكنج لم يجسر شوكنج على مباحثته لما رأى عليه من علائم الانشغال حتى إذا وصلا إلى جسر وستمنستر قال له شوكنج : أتريد يا سيدي ان تجتاز للضفة الثانية ؟

– نعم إذ يجب ان نذهب إلى سانت جيل لأرى الأب صموئيل ألم تسمع ما كان يقول الناس ؟

– نعم سمعتهم يتهمونه بقتل بادي ولكني مطمئن الخاطر عليه فانه ليس من أهل الاثم .

– أما أنا فلست مطمئناً . فاصغ إلي الآن ، إنهم قتلوا بادي واتهموا الأب صموئيل بقتله ، وهي تهمة تتلقاها الحكومة بملء الارتياح لأنها تعلم ان الأب صموئيل زعيم الارلنديين ، وهي تقبض عليه بأضعف من تلك التهمة .

– هو ما تقول ولكنه يثبت براءته .

– ليس هو الذي يستطيع إثباتها بل أنا فاني سأظهر لهم القاتل

– وعندها يطلقون سراحه .

– كلا ، فان الحكومة إذا أرادت التسويف في أمر بلغت منه ما تبتغي ، فهي تبقي الأب صموئيل في الحبس الى ان تقبض على القاتل ، ولكن البوليس لا يقبض على القاتل ، بل يسهل له سبل الفرار كي يبقيه في الحبس .

– إذاً ماذا نعمل ؟

– إن رئيس البوليس لم يصدر أمره بعد بالقاء القبض عليه فيجب أن ننذره كي لا يخرج من الكنيسة قبل ظهور الحقيقة .

– ولكنهم يقبضون عليه في الكنيسة .

– يسوءني منك يا شوكنج انك تجهل قوانين بلادك واني احتاج ان أعلمك اياها وانا غريب عنها .

فاعلم ان البوليس في بلاد الانكليز يحق له ان يقبض على أي شخص في قارعة الطريق ويذهب به إلى المركز ولا يحق له القبض عليه في منزله إلا بأمر خاص . وأما الكهنة ولو كانوا من الارلنديين ، فلا يحق له القبض عليهم في كنائسهم ، مهما عظمت الجريمة ، إلا بأمر خاص من وزير العدلية ولا يستطيع الوزير إصدار الأمر إلا بعد مصادقة البرلمان فينبغي لذلك يومين على الأقل .

– وفي هذين اليومين ؟

– اذا لم يقبض البوليس على المجرم الحقيقي قبضت عليه انا .

– إذاً أنت تعرفه .

– كلا ..

فقال شوكنج بملء السذاجة : اني رأيتك يا سيدي تفعل أموراً غريبة اما ما تقوله الآن فوق حد تصوري .

فابتسم العبوس وقال : سترى أعظم من هذا

ثم استمرا في سيرهما حتى وصلا الى سانت جيل وكانت الساعة الخامسة صباحاً فلقيا الكاهن مستيقظاً يصلي صلاة الفجر .

فدخل اليه العبوس وبقي حتى أتم صلاته فقال : يجب يا سيدي ان تنزل الى الكنيسة فلا تخرج منها أبداً .

فدهش وقال : لماذا ؟

– انك تعرف المدعو بادي .

– دون شك ، فانه هو الذي أخبرني انهم كامنون لك قرب كنيسة سانت جورج

ـ اذاً اعلم ان بادي مات قتلاً وانهم يتهمونك بقتله .

فتراجع الكاهن مندهشاً ، وقد بدت عليه علامات الانفة والاشمئزاز وقال : أنا !

وعند ذلك سمعوا وقع اقدام عند باب الكاهن فارتعب شوكنج وقال . انهم قدموا للقبض عليه .

أما العبوس فانه استل خنجره ووقف بين الكاهن وبين الباب يحاول الدفاع عنه الى آخر نسمة من حياته

ـ ٣٠ ـ

ثم سمعوا صوت وقوع الأقدام على السلم ، فتطلع العبوس الى الاب صموئيل فرآه يضطرب فقال له إنهم لا يبلغون اليك الا بعد أن يمشوا على جثتي .

فأجاب : رد خنجرك الى غمده يا بني ومعاذ الله ان أرضى ان تسفك نقطة دم لأجلي .

وعندها طرق الباب فأسرع الأب وقال : من الطارق ؟

فأجابه صوت من الخارج باللغة الارلندية إننا شخصان محتاجان الى كاهن .

فقطب الرجل العبوس حاجبيه ، وأسرع الاب صموئيل ففتح الباب ودخل شخصان عرف الاب صموئيل أحدهما فقال له : أهذا انت ؟ وماذا تريد ؟

فرد الارلندي باكياً ان امرأتي ولدت منذ أسبوع فمات المولود وهي الآن مشرفة على الموت وليس لي مال لاحضار طبيب ولا استطيع ان أحضر لها غداء

ولا أحب ان تموت دون اعتراف .

فرق الاب لشكواه وقال : اصبر فاني أذهب معك .

ثم دخل الى غرفته وتناول ما كان في خزانته من المال اليسير لانفاقه عليها حين الاقتضاء وهم بالخروج .

فاعترضه العبوس قائلاً : أستحلفك بالله ان تصغي إلي

فدهش الاب وقال : ماذا تريد ؟

– أريد ان أذهب مكانك لاغاثةتلك المرأة وانت تعلم ان لي إلماماًبالطب فاذا رأيتها مشرفة حقيقة على الموت ، عدت اليـك وذهبت بك اليها غير مكترث بالاخطار .

. كلا يجب علي الذهاب حيث يدعوني الواجب .

– غير ان قلبي يحدثني بأنها مكيدة نصبت لك وان أعـداءنا قد رشوا ذينك الرجلين .

– ذاك محال فاني اعرف احدهما حق المعرفة ، ومهما يكون الامر يجب علي الذهاب

ثم أفلت منه وقال للرجلين : سيرا امامي فاني في اثركما .

فقال العبوس : ونحن ايضاً نسير معكم .

ثم أشار الى شوكنج ان يتبعه فخرج الاب والرجـــلان ، وسار العبوس وشوكنج في اثرهما على قيد بضع خطوات .

وفيما هما سائران قـــال العبوس لشوكنج : أظننتني مخطئاً باسترسالي الى المخاوف . فان رئيس البوليس لم يتمم تحقيقـــه بعد ، ومتى ذهب الى منزله ينام ، فلا يصدر الامر بإلقاء القبض على الاب صموئيل ، الا قرب الظهر .

. أتظنه يستطيع الرجوع الى الكنيسة قبل صدور الامر ؟

– نعم وهو بعيد عن الخطر الا اذا حدث ما ليس في الحسبان .

وفيما هما سائران ضغط الرجل على يد شوكنج وقال له بصوت منخفض: ما هذا ؟ أنظر إلى الرصيف .

— إني أرى ثلاثة رجال من أفراد البوليس يتحدثون همساً ، ولكن تلك الأمور مألوفة .

— ولكني أرى غير رأيك فقد رابني اجتماعهم .

وكان الأب صموئيل يسير مستعجلاً والرجلان يتقدمانه . فلما وصلوا الى حيث كان أفراد البوليس اعترضهم الجنود ودنا أحدهم من الكاهن فقال له : من أنت ؟

— أنا الأب صموئيل .

— أأنت كاهن كنيسة سانت جيل ؟

— نعم .

— إذن ، سألقي القبض عليك باسم الشرع ، وبـــأمر ناظر العدلية ، فتفضل واتبعنا .

وهنا وجف قلب شوكنج وصاح صيحة ذعر ، فضغط الرجل العبوس على يده وقال له. لا تفه بكلمة إذ يجب علينا إنقاذه ولا يفيد العنف في هذه الأحوال بل ان الغنيمة بالفرار .

ثم أخذ بيد شوكنج ودخل به زقاقاً ضيقاً وتواريا عن الأنظار .

- ٣١ -

وقد أشكل على العبوس صـــدور الأمر الى البوليس بالقبض على الأب صموئيل في حين ان التحقيق في مقتل بادي لم يكد يتم على اننا نوضح للقراء كيف كان ذلك وكيف كان العبوس مصيباً بمخاوفه على الكاهن فحذره من

الارلنديين اللذين قدما في طلبه .

يذكر القراء انه حين كان الناس متجمهرون في منزل بادي يتهم معظمهم الأب صموئيل بقتله كان بينهم بترس تون وانه لم ينتبه اليه احد منهم على جلالة قدره وعلو مكانته بين الانكليز .

ويذكر القراء ان مس الن أخبرت السير بترس تون حليفها ، بما قاله لها بادي ان الرجل العبوس مختبىء في كنيسة سانت جورج ، وأنه يبيت في قبة جرسها .

ولم يكن ذاك الزعيم القوي ناقماً على الرجل العبوس بل على الأب صموئيل فسر للخبر وقال في نفسه : إن الأب صموئيل لا بد ان يزور الرجل العبوس لما بينهما من العلائق ولذلك يجب تعيين الرقباء قرب تلك الكنيسة كي أعرف مواعيد زياراته .

فلما عين الرقباء ذهب قبل انسدال الظلام إلى وكيل العدلية فاستقبله الوكيل خير استقبال .

وعند ذلك قال له بترس تون : إني أستطيع ان أسلمكم الشخص الذي تبحث عنه الحكومة ولكني أشترط لذلك ان تعطيني أمراً بالقبض وتدع فراغاً في محل اسم الشخص الذي يقبض عليه .

فاعترضه الوكيل قائلاً . إن الشرائع الانكليزية ، لا تجيز مثل تلك الأمور .

فقال له بترس : اننا لا نستطيع القبض على الرجل العبوس إلا اذا قبضنا على شريكه .

— من هو شريكه ؟

— كاهن كاثوليكي يدعى الأب صموئيل .

— كيف تثبت اشتراكه مع العبوس ؟

— إنك تعلم ان من كان مثلي لا يستخف بالشرائع ولا يقدم على مثل هذه

الأمور إلا بعد التثبيت إذا كنت اسألك أمراً بالقبض فما ذلك إلا بعد وثوقي من عدالة المطلب وانه قانوني لا اعتراض عليه .

فقال الوكيل : ولكن هناك أمراً لا يمكن مخالفته وهو اننا لا نستطيع القبض على كاهن في منزله إلا بأمر ناظر العدلية .

-- ولكن لا أقبض عليه في منزله ولا في كنيسته بل في الشارع وليس في ذلك ما يمنعه القانون .

وما زال الاثنان يتجادلان حتى أفحم الوكيل فكتب الأمر ووقع عليه وأعطاه اياه فأخذه بترس تون وخرج به يحسب انه ملك الدنيا لفرط حقده على الأب صموئيل .

ثم سار الى الجهة التي أقام فيها المراقبين لتفقدهم ، مر بجهة منزل بادي ولقي الناس محتشدين وسمع منهم ان بادي قد قتل وأن امرأته تتهم الأب صموئيل فغير كل مشروعاته السابقة وانسحب من بين الجمع وذهب إلى أحقر شارع يقيم فيه أفقر الأرلنديين وهناك لقي ذينك الرجلين الارلنديين فأغواهما بالمال وأرسلهما إلى الأب صموئيل وأبلغ البوليس صورة الأمر بالقبض عليه فامتثل وكمن له كما وصفناه .

أما الأب صموئيل حين رأى البوليس قد تعرض له أيقن بصدق ظن الرجل العبوس ، ولكن بعد فوات الأوان ، قال للبوليس القابض عليه : لماذا قبضتم علي وبماذا اتهمتوني ؟

– بجناية قتل .

فأطرق برأسه إلى الأرض وقال : اني بريء مما أنا متهم به ولكني اتبعكم إلى حيث تريدان ، إلى أين تذهبان بي ؟

- إلى حبس نوايت .

فنظر الأب الى حواليه باحثاً عن العبوس وشوكنج ولكنه لم يرهما فانهما تواريا عن الأنظار

وسار الجنود بالأب صموئيل إلى الحبس الخاص بالذين يرتكبون الجنايات الكبرى فدهش مدير الحبس حين رآه لأنه كان يعرفه لا سيما حين عرف انهم يتهمونه بالقتل فايقن انه بريء وان في الأمر خديعة او سوء ظن غير انه فحص الأمر بالقبض عليه فوجده صريحاً لا يحتمل التأويل بحيث انه لم يجد بدأً من سجنه ، فسجنه في خير غرفة من غرف الحبس واعتنى به كل الاعتناء .

أما الأب صموئيل فانه كان راضخاً لاحكام القدر وكان يعتقد أن براءته لا بد أن تظهر فيرتاح باله ، ثم يتذكر ان له عدواً قوياً قادراً يدعى بيترس تون ، فيخاف .

ولم يكن خوفه على نفسه بل على اولئك البؤساء اللذين كان يعولهم بما يجمعه لهم من أهل البر والاحسان .

وأقام في ذلك الحبس ثلاث ساعات ، ثم فتح باب سجنه ودخل اليه المدير وصافحه بيده وقال له مبتسماً : لقد ارسلوا إلي اوراق التحقيق بأمرك ، ووقفت على تفاصيل التهمة ، فسرني انك ستخرج بريئاً بأذن الله ، فانهم يتهمونك بقتل انسان يدعى بادي والذي يتهمك امرأة القتيل دون سواها ، وليس لديها شيء من البراهين ، لا بد من تبرئتك .

— هذا ما أرجوه ، ان من كان مثلي لا يرتكب جرائم القتل .

وسيذهبون بك الآن الى القاضي ويوقفونك أمام جثة القتيل والمرجح لدي انهم سيطلبون اليك ضمانة مالية ويطلقون سراحك .

فهز الأب رأسه أسفاً وقال ان مقدار الضمانة في مثل هذه المواقف يكون عظيماً وهيهات أن أظفر به فلا بد لي في الحالين من البقاء في الحبس .

— المروؤة لا تعدم ابناؤها فستجد من يدفع عنك المال .

ثم أخرجوه من الحبس فوضعوه في مركبة وساروا به الى منزل بادي

حيث كان رئيس البوليس .

وكانت الجثة لا تزال في موضعها فإن الرئيس قد وفى بما وعد به الرجل العبوس .

وكان كثير من الناس محتشدين عند باب المنزل فلما أنزل الكاهن من المركبة استقبله بعض الأجلاف بالشتم واللعن واستقبله آخرون بالهتاف فاختلطت الأصوات حتى لم يعرف القادح من المادح .

أما الأب فإنه دخل إلى المنزل غير مكترث بما لقيه فكان ثابت الجأش بادي السكينة ، ولما رأته إمرأة بادي زأرت زئير الوحوش وهمت بالانقضاض عليه وهي تقول : تباً لك من قاتل سفاك .

إلا أن البوليس حال بينها وبينه وأعادها إلى موقفها فكانت تنظر اليه ولهيب الانتقام يتقد في عينيها .

أما الكاهن فنظر اليها نظرة المؤنب وقال لها · أتحسبين اني أنا سفكت دم الرجل الذي كنت أساعد امرأته وابنته ؟

فأطرقت المرأة رأسها إلى الأرض إتقاء لنظراته ثم قالت · إنك إذا لم تكن أنت القاتل فقد قتله أحد رجالك بأمرك .

— إنك منخدعة يا سيدتي .

— ان زوجي لم يكن له أعداء فمن يكون قاتله غير أحد الارلنديين .

وكان البوليس يحول دون دخول الناس إلى المنزل غير انه لما اتى القاضي وكان النظام بأن تكون المحاكمة علنية أمر بادخال الناس ، فدخلوا أفواجاً ، وكان بينهم رجل دنا من المرأة وقال لها : إطمئني يا سيدتي سأظهر لك القاتل في أقرب حين .

وعرف رئيس البوليس هذا الرجل الذي أوهمه انه طبيب الماني وما هو إلا العبوس كما قدمناه .

وكان يصحب العبوس شخصان يحملان آلة مغطاة بجوخ أخضر فقال له

الرئيس : ما هذا .؟

– هي الآلة التي أخبرتك اني سأكتشف بها القاتل .

ولما سمع الكاهن صوته عرفه فارتعش ، أما العبوس فإنه عاد إلى محادثة رئيس البوليس فقال : إنك سترى يا سيدي دون شك من لهجة الكاهن انه بعيد عن مواقف التهم ، وان هذه التهمة باطلة ، ألا ترى أن تطلق سراحه بضمانة حسب المعتاد ؟

سنفعل ذلك متى أظهرت لنا القاتل كما وعدت .

وعند ذلك دخل إلى المنزل اثنان احدهما فتاة مرتدية بملابس بسيطة يحسبها الناظر اليها لأول وهلة ، أنها من عوام الناس ، والآخر متشحاً بملابس سوداء لم يكد الكاهن يراه حتى علم انه السير بترس تورن ، فتأكد انه هو الذي نصب له هذه المكيدة لما بينهما من الأحقاد .

أما الفتاة فقد عرفتها إمرأة بادي ، إذ كانت مس الن نفسها فانذهلت وحاولت أن تكلمها ، ولكنها وضعت سبابتها على فمها بغية اسكاتها ، وحولت نظرها عنها إلى ذلك الطبيب الالماني ، ولم تكد تراه حتى بدت على وجهها آثار الاضطراب ، وكان الرجل العبوس قد رأى هذا الاضطراب منها فقال في نفسه انها عرفتني .

ولكنه لم يكترث لها ودنا من الآلة فأزاح عنها غطاءها الأخضر ، فانكشفت آلة تصوير شمسي فانذهل الحضور وجعلوا يتساءلون ما عساه أن يصنع بهذه الآلة .

ولقد قلنا ان الرجل المبوس لم يكترث لمس الن ، حين تأكد أنها عرفته ، والحقيقة انه تظاهر بعدم الاكتراث ، إلا ان قلبه كان يخفق خفوقاً شديداً ، فإن هذه الفتاة كانت تستطيع بعد أن عرفه ، ان تخطو خطوة إلى القاضي وتهمس كلمة في اذنه فيقبض عليه .

غير انها لم تفعل شيئاً من ذلك حتى انها لم تكلم السير باترس توين بشأنه ولا ندري ان كان ذلك مروءة منها ، أم انها كانت تريد أن تصبر إلى النهاية كي تعلم ما يريد ان يصنعه بالآلة .

ولم يكن خوف المبوس على نفسه بل على الأب صموئيل فانه إذا لم يكشف القاتل وقعت التهمة على الكاهن وأعيد إلى سجن توايت .

ولذلك تلبس بلباس الصبر فطرد الخوف من نفسه وأسرع إلى القاضي فقال له : أرجوك يا سيدي أن تأمر بايقاف الجثة وإسنادها إلى الجدار بحيث يكون وجه القتيل إلى جهة الآلة .

فقال له : ماذا تريد أن تصنع ؟

- إني ضعيف التعبير باللغة الانكليزية يا سيدي وسيظهر لك من فعلي اكثر ما يظهر من قولي .

فأمر القاضي جنديين أن يفعلا ما سأله الطبيب ففعلا .

فأخذ الرجل المبوس عند ذلك زجاجة من جيبه تحتوي على سائل لا لون له كالماء .

وسأله القاضي ما هذا .

- سائل البيلادونا وسوف ترى ما أصنع بها .

ثم دنا من بادي ففتح عينيه ، اللتين أغمضهما الموت وصب فيهما بضع نقط منها .

وكان السكوت سائداً بين الناس يكادون يحبسون أنفاسهم حتى إن إمرأة بادي نفسها أوشكت تنسي أحزانها لانذهالها مما كانت تراه .

والتفت العبوس إلى مس الن فرأى وجهها قد اصفر ورأى انها مهتمة اكثر من جميع الحاضرين بما يفعله فنظر اليها تلك النظرة السحرية فغضت بصرها ولم تستطع مقاومة نظراته

وربما كانت هذه النظرات قد أثرت عليها في ذلك الحين فإنها كانت قادرة ان تزج هذا الرجل في أعماق الحبس بكلمة واحدة تصدر من فمها .

وفيما هم على ذلك دخل رجل ظهرت عليه علائم الاهتمام اكثر من سواه ، فقالت إمرأة بادي حين رأته : هذا هو جوهـان وقد رأى زوجي في ذات الليلة التي قتل فيها .

فتطاولت الأعناق الى جوهان وقال : نعم اني رأيت هذا المنكود ذاهباً إلى الخمارة ولو توقعت له مثل هذه النكبة لما فارقته لحظة فقد كان من أخلص اخواني ثم مسح دمعة سالت فوق خده .

أما الرجل العبوس فإنه بعد أن قطر من ذلك السائل في عيـني بادي عادتا إلى الانطباق فوقف أمام الجثة يراقبها وهو بعيد عنها والناس كلهم ينظرون .

وعند ذلك صاحت امرأة بادي صيحة دهش عجيبة وقالت : رباه مـاذا أرى العل زوجي قد قام من الموت ؟

ذلك ان العينين قد فتحتا من تلقاء نفسها فذهل جميع الحـاضرين نفس ذهول امرأة بادي وحسبوا ذلك من خوارق العجائب .

وهمت امرأة بادي ان تدنو من الجثة فاعترضها العبوس قبل أن تصل اليها وقال لها متلطفاً : إن الأموات لا يحيون يا سيدتي ولا يرد اليهم الحياة غير الله ، والذي ظهر من عيني زوجك إنما كان من تأثير البيلادونا فيها فإن هـذا السائل إذا قطر في العينين اتسعت الحدقة حتى يضيق عنهما الجفن فأرجوك ان

تبقي في مكانك ولا تعرقلي عملي .

فامتثلت المرأة وأخذ الرجل العبوس الآلة التصويرية ووضعها بازاء الجثة وأخرج الرجلان اللذان كانا يصحبانه قناني محتوية على سوائل يستعملها المصورون .

وكان قرب تلك الغرفة التي كانوا فيها غرفة مظلمة فأمر العبوس الرجلين ان يدخلا الصندوق والزجاجات إلى تلك الغرفة ، ثم بسط الغطاء فوق الالة وصوبها الى وجه بادي وغطى رأسه بالوشاح وبعد عشر ثوان أزاح الوشاح عن رأسه وأخرج من الآلة قنينة دخل بها مسرعاً إلى الغرفة المظلمة واحتجب عن انظار الناس .

وهنا زاد عجب الناس ولم يكن بينهم من يعلم مراده حتى ان القاضي نفسه كانت تظهر عليه علائم الانذهال .

وبعد حين خرج العبوس فرآه الناس مضطرباً والعهد به انه هادىء ، فمشى إلى رئيس البوليس وقال : اسألك يا سيدي ان تأمر باقفال باب المنزل ولا تدع أحداً من الحضور يخرج منه .

وزاد اضطراب الناس لهذا القول وأمر الرئيس ان يقفل الباب فاصفر وجه مس الن ونظرت نظرة قلق إلى السير بترس تون ، وكان عدد الموجودين في المنزل يبلغ ثلاثين بينهم جوهان .

- ٣٤ -

وكان البوليس قد احكم اقفال باب المنزل فلم يستطع أحد الخروج منه وقد ظهرت علائم القلق على الجميع ما خلا العبوس ، فإن السكينة قد عادت اليه فالتفت إلى القاضي وقال اني اسألكم المعذرة يا سيدي فقد اطلت انتظارك ،

ولكني فزت فوزاً ببهمتي أتى اعظم مما كنت اتوقعه فإنني لم اكتشف القاتل فقط بل اني اثبت انه موجوداً هنا بيننا .

وكان لهذه الكلمات وقع شديد على الجمهور حتى ان واحداً بينهم رجع من الصف الذي كان فيه إلى الصف الذي كان وراءه .

وعاد العبوس إلى مخاطبة القاضي فقال : ان هـذا القتيل المنكود كانت آخر نظرانه إلى قاتله فانطبعت صورته في انسان عينه كما انطبعت الحادثة كلها بتفاصيلها الأخيرة .

وقد صورت عيني المغدور فظهرت على الزجاجة صورة المجرم والحادثة والمكان الذي حدثت فيه الجناية .

فاندهش القاضي وقال : أهذا من الممكنات ؟

- ليتفضل سيدي القاضي وليأتي معي إلى هذه الغرفة المظلمة يجد كل ما قلته له اكيد لا ريب فيه .

فوافقه القاضي ودخل الاثنان إلى تلك الغرفة فساد السكون على الجمهور وكان حزنهم لا يوصف .

أما العبوس فانه اغلق باب الغرفة ، وصب على الزجاجة بعض السوائل وعرضها على القاضي ، وحدق بها القاضي وهو يوشك أن لا يصدق عينيه ، إذ رأى رسم عيني بادي وقد طبع على العين اليمنى شخص قابض على عنق شخص وكان المجرم واقفاً مشهراً خنجراً يقطر من دم ذلك المنكود وهو ينظر إلى جثته نظر الفائز المنصور .

فقال العبوس للقاضي : كيف رأيت يا سيدي ؟

— أرى انك أفدتنا فائدة جليلة بهذا الاكتشاف .

— انك رأيت رسم المجرم يا سيدي في هذه الصورة فاذا اظهرته لك امام الجمع أتعرفه ؟

- دون شك فان الصورة ظاهرة تماماً .

وخرج الاثنان من الغرفة المظلمة الى الغرفة المجتمع فيها الناس فجلس القاضي في مجلسه .

وأجال العبوس نظره بين الحضور فرأى مس الن لا تزال في موقفها وهي وحدها التي عرفته بين الجمع فقال في نفسه : انها لم تفضح امري بعد .

وهو لا يعرف السير باترس تون ولكنه عرف انه العدو الألد للارلنديين فلم يكاترث لهما ومشى خطوةالى الأمام وهو يقول : إن المجرم بينكم . ثم وثب وقبض على شخص وقال : هذا هو .

وكان هذا الشخص جوهان فصاح صيحة منكرة وحاول أن يتخلص من العبوس ، غير ان العبوس انتزعه من بين الجمع ودفعه دفعة شديدة فانقلب تحت قدمي القاضي .

أما القاضي فانه تطلع تطلع المشمئز الانف المستنكروتأمل وجهه فوجدانه ينطبق على الرسم الذي رآه فوق الزجاجة منطبعاً في عيني بادي .

وأما إمرأة بادي فانها اضطربت حين رأته وقالت : نعم نعم لا بد ان يكون هو القاتل .

وهنا صاح رشاد جوهان لأن غرابة اكتشاف الجريمة ضعضعت صوابه ، بحيث لم يقو على الانكار فقال : نعم انا هو القاتل ... ان بادي قد خاننا فانتقمت منه .

ثم قص على القاضي كل الجريمة بتفاصيلها وكيف انه خدعهم حتى اضطر إلى قتله ، وكيف سار به إلى زقاق مقفر وطعنه بخنجره ثم قضى عليه خنقا .

وكان قد تحمس لذكر الانتقام فأراد أن يزيد الجريمة إثباتاً فجرد خنجره ، وهو لا يزال مصبوغاً بدم بادي والقاه على الأرض أمام القاضي وهو يقول : هذا هو الخنجر الذي طعنته به فافعلوا بي ما تشاؤون .

فأمر القاضي الجنود بالقبض عليه والتفت إلى الأب صموئيل فقال : ان براءتك قد ظهرت يا سيدي فأنت الان حر .

فشكره وهم بالخروج ولكنه قبلُ ان ينصرف رأى السير بارس تون قد دنا من القاضي وقال . انك تتجاوز حد سلطتك يا حضرة القاضي .

فاندهش القاضي وقال : كيف ذاك ؟

— لأن الأمر بالقبض على هذا الكاهن موقع عليه من دار العدلية ولا يحق لك نقضه .

— لقد أصبت ولكنني استطيع إطلاق سراحه بضمانة الى ان يحاكم المجرم وعندها يحضر الى المحكمة ويثبت براءته فانها جلية واضحة كما رأيت لاسيما وان المجرم الحقيقي لا يعرفه كما هو ظاهر ، وهذا ما يدل على المجرم المعترف لا شريك له بالجريمة .

وقال جوهان مؤيداً كلام القاضي : كلا ليس لي شريك في الجريمة ولا اعرف هذا الكاهن .

— وانا أيضاً اؤيد ما قلته من وجوب اطلاق سراحه بضمانة مالية .

فدنا الأب صموئيل عند ذلك من القاضي وقال : اني يا سيدي شديد الفقر لا أستطيع ان أدفع لك شيئاً .

فكثر الهرج بين الناس لهذا القول وعند ذلك خرج من بينهم عبد اسود ابيض الشعر فدنا من القاضي وقال : اني يا سيدي مستعد لأن ادفع عن هذا المحترم اية ضمانة .

أما هذا العبد فقد كان لابساً خير الملابس فحسبه الناس سفيراً لاحدى الجمهوريات الأميركية .

- ٣٥

أما هذا العبد فلم يكن إلا شوكنج فلنبسط للقراء الان كيف وجد في منزل بادي مستعداً لدفع المال عائدين إلى الوقت الذي قبض فيه على الأب صموئيل ، فهرب الرجل العبوس وشوكنج وذهب الاثنان إلى شارع ليستر ثم عطفا منه على شارع جيرارد وهو شارع يقيم فيه كثير من الفرنسيين .

وكانت الساعة الخامسة صباحاً ولا يزال الناس نياماً فقال العبوس لشوكنج هلم معي الى هذا المنزل فإنه أحد منازلي الكثيرة التي أخبرتك عنها .

ثم أخذ مفتاحاً من جيبه ففتح باب منزل في الشارع ودخل يتبعه شوكنج وصعدا الى الدور الثالث .

ووقف عند باب مكتوب عليه هذه الكتـــابة « ساجون فرنز مصور شمسي » وقرع الباب.

وبعد هنيهة سمع صوت من الداخل يقول : من القادم ؟

فأجابه الرجل العبوس من الخارج : إن أشعة الشمس خير مساعد للمصورين ؟

وكانت هذه الكلمة رمزاً اصطلاحياً بين الارلنديين دون شك فإن الباب فتح في الحال وظهر منه رجل في مقتبل الشباب وعيناه تدلان على ان النعاس لا يزال متمكناً فيه .

فقال له العبوس باللغة الفرنسية : اني لم أزرك منذ عهد بعيد وقد زرتك اليوم مبكراً .

ففرك المصور عينيه وقال : كل التبكير ، كم الساعة الان ؟

الساعة الخامسة ..

— إنك خير قادم في أية ساعة اتيت ولاسيما في هذه الأيام .

— العلك تريد ان تقول إن المال قليل لديك ؟

– بل غير موجود .

– لا بأس فخذ الان هذه الجنيهات العشرة فيسر بها امرك واني اطلب منك ان تعيرني آلة التصوير التي عندك لبضع ساعات

– اتصور بها قبل ان تشرق الشمس ؟

– كلا فاني محتاج اليها في الساعة العاشرة .

– اين تريد ان ارسلها ؟

- الى خمارة شونت في شارع سوتوارك .

– إذاً أذهب بها بنفسي .

- لا حاجة إلى أن تحضر أنت فارسل بها اثنين من عمالك والان عد إلى فراشك فاني منصرف .

ثم تركه وخرج مع شوكنج فاستوقف مركبة وأمر سائقها ان يذهب بها إلى همبستاد .

فتنهد شوكنج وذكر تلك الليلة التي جعله فيها العبوس لورداً عظيماً فمرت مرور الأحلام .

وأدرك العبوس سر تنهده وقال مبتسماً :سأرد لك مجدك السابق وأجعلك أعظم من اللورد .

وما زالت المركبة سائرة بهما حتى وقفت عند منزل في همبستاد فدخلا اليه وخلا الرجل العبوس بشوكنج في غرفة فخمة وقال له : اتعلم ما أنا صانع بك الان ؟

– كلا ، ولكني لا أبالي فقد تعودت عجائبك

– إني أريد ان أجعلك عبداً اسود واصبغ وجهك ويديك وكل ما يظهر للعيون من جلدك بلون الأبنوس .

فصرخ شوكنج قائلاً : أأنا أكون من العبيد ؟

فلم يحفل به وقام الى خزانة ، فأخرج منهـا بضعة وسامات تبهر الأنظار وقال : سأضع فوق صدرك أيضاً هذه النياشين .

فخف وقر السواد على شوكنج ، وجعل ينظر إلى هذه النياشين نظرة المتعجب .

فقال العبوس : ولكن أتعلم ماذا يكون اسمك ؟

– كلا ولكني أريد اسماً ينطبق على هذه الوسامات الكثيرة .

– بل هو أعظم منها فانك تدعى « دون كريستوفور ايمتدز ايكوردوفا ابستنافيا ايبوغوتا » .

فضحك شوكنج وقال : ما هذا الاسم الطويل ، أيمكن أن يكون من أسماء البشر ؟

– إنه اسم رجل من نبلاء أهل البرازيل ، وأنت الآن من كبـار موظفي حكومة الارجنتين فاحفظ اسمك واحذر أن تنساه .

فجعل شوكنج يكرر هـذا الاسم الغريب ، وخرج الرجل العبوس هنيهة ، ثم عاد بإناء فيـه صباغ أسود واسفنجـة . وصبغ بها وجـه شوكنج ويديه وعنقـه ، والبسه ملابس البرازيليـين ، وزين صدره بتلك الوسامات اللامعة .

فأخذ ينظر إلى المرآة معجباً بشكله ، وقد تعزى بلقبه الجديد عن لقب اللوردية القديم .

أما العبوس فإنه تركه أمام مرآته وذهب الى الخزانة فأخذ منها محفظة تكدست فيها الأوراق المالية ودفعها اليه .

فبهت وقال له ما هذا ؟

– هي أوراق مـالية ، تبلغ قيمتهـا الفي جنيه . أريـد ان تضعها في جيبك .

– لأية غاية ؟

– سأخبرك بغايتي فاجلس الآن واصغي إلي .

فجلس ممتثلاً ولكنه احتال كي يكون مجلسه أمام المرآة فلا يحرم التطلع الى تلك النياشين التي يزدان بها صدره .

- ٣٦ -

فلم يتمالك العبوس عن الضحك لما رآه من غرور شوكنج وخيلائه فقال له : لا بد ان تكون علمت يقيناً اني لم البسك هذه النياشين ، ولم أمنحك اللقب الرنان كي تعجب بمشاهدتها في مرآتك .

فخجل وقال : دون شك وانا أنتظر أوامرك .

– لقد قلت لك اني سأكتشف قاتل بادي . ولكن تذكر ما قلته لك منذ ساعتين وهو انهم إذا قبضوا على الأب صموئيل فإنهم قد يبقونه في الحبس ولو تأكدوا من براءته وقد رأيت كيف أنه لم يكترث للأخطار وخاطر بما نبهته منه في سبيل الواجب ، فسقط في الفخ الذي نصب له . ولذلك فقد وجب علينا إنقاذه .

– وهو ما أرجوه وفي اعتقادي إنك قادر على كل شيء

– إذاً ، خذ هذه المحفظة المالية واتبعني ، فقد يتفق انهم يبرأون ساحة الكاهن في الموضع الذي نحن ذاهبون اليه . غير انه قد يصعب إيجاد المجرم في الحال ولذلك إما يرجعونه إلى الحبس ، وإما يطلقون سراحه وقتياً بضمانة .

وهنا يبدأ دورك ، لأن الكاهن لا يستطيع دفع الضمانة . فمتى سمعته يتكلم عن الضمانة تلبث صامتاً مختلطاً بالجمع دون ان تفوه بكلمة الى ان يتكلم الكاهن ويظهر عجزه عن دفع الضمانة .

- وعند ذلك أدفع المال ؟

- دون شك ، وسأخبرك في المركبة كيف تتصرف لضيق المقام الآن . فهلم بنا .

ثم خرج العبوس وشوكنج إلى المركبة التي كانت تنتظرهما فسارت بهما إلى الحارة التي كان ينتظر فيها آلة التصوير فأخذها وسار بها مع شوكنج الى منزل بادي .

وقد عرف القراء كيف ان شوكنج دنا من القاضي وعرض عليه دفع الضمانة عن الكاهن ، وكيف ان الناس قد انذهلوا من منظر هذا العبد ، وعجبوا لما أبداه من المروءة .

أما القاضي فانه تفحصه بنظره وقال : من أنت ؟

فأجابه : إني أدعى دون كريستوفور ايكوذوفا ذيمندس ابستافيا ايبوغوتا .

وقد قال ذلك بلهجة اسبانية على ريق لم يبلعه ، ونفس لم يقطعه ثم ظهرت عليه علائم كأنه يعتز بهذا النسب الطويل وقال : إني كاثوليكي المذهب ، وان ديني يقضي علي أن أساعد الكاهن الكاثوليكي ، وأفرج كربته .

ثم أخذ من جيبه محفظة الأوراق المالية وأفرغ ما فيها أمام القاضي دون اكتراث وهو يقول . قل يا سيدي مقدار الضمانة التي تريدها .

- ألفا جنيه .

- هي أمامك فخذها .

فاصفر وجه السير بترس تون ، ونظر القاضي الى الأب صموئيل وقال : إنك يا حضرة الكاهن مطلق السراح ، بشرط أن تحضر الى المحكمة يوم محاكمة هذا المجرم .

فشكره الأب صموئيل وخرج من بين الجمهور ، وكان الناس يحنون له

الرؤوس احتراماً .

أما العبوس فانه كان قد دنا في ذلك الحين من مس الن فنظر اليها تلك النظرة الجاذبة وقال لها : إنك عرفتني اليس كذلك ؟

فأجابته بصوت مضطرب : نعم .

— ولماذا لم تسلميني إلى البوليس ؟

فارتعشت الفتاة وقالت له أخرج معي أخبرك عن السبب .

وعند ذلك أمر القاضي بفض الجلسة . فشكره العبوس لخدمته الجليلة ، وبرح المنزل .

فخرج الناس ، وكان أول المنصرفين الرجل العبوس ، فتبعته مس الن على الأثر وتأبطت ذراعه دون كلفة ، حتى لقد توهم الناس أنها من أهله وأنها جاءت معه .

فلما ابتعدا قليلاً من المنزل قال لها : إني معجب لأمرك فان كلمة واحدة منك كانت كافية لزجي في الحبس .

— ولكني لم أقل هذه الكلمة .

— لماذا ؟

— هذا سري .

— ولكني عرفت هذا السر .

— ما هو ؟

— هو أن ساعة حبك قد دنت .

فنزعت يدها منه وقالت له : لقد تسرعت بالحكم علي .

فأجابها ضاحكاً ضحك الواثق المطمئن .

وذهب هو مواصلاً سيره ، وبقيت هي واقفة تنظر اليه إلى أن توارى عن أنظارها ، فعضت شفتها من الغيظ وقالت : نعم ، نعم .. لقد دنت الساعة ، ولكنها ليست الساعة التي أتدانى فيها إلى حبك ، بل الساعة التي

أسحقك فيها تحت قدمي سحق الزجاج .

وهنا ذكرت السير بترس تون فرأت أن تعود اليه .

- ٣٧ -

وعادت لفورها إلى منزل بادي فوجـدت الناس يتفرقون ، والبوليس قبضوا على جوهـان ، وساروا به الى الحبس ، ولم يبق هناك أثر يـدل على الجريمة .

وقد ذهب الناس وكلهم راضون عن حكم القاضي وإطلاق سراح الكاهن ما خلا السير بترس تون ، فإنه كان لا يزال واقفاً في الزقاق يسير ذهاباً وإياباً وهو يرغي ويزبد من الغيظ ويقول في نفسه : لقد أساء إلي هذا القاضي إساءة لا تغتفر ، وسيكون لي معه شأن فاني أخبرته همساً من أنا وقلت له ان ناظر العدلية يريد أن يبقى الأب صموئيل في الحبس ولكنه تظاهر أنه لم يفهم ما قلته ولا بد لي من عزله .

وفيما هو يناجي نفسه في هذه الشرور ويمهد سبل الانتقام من القاضي النزيه شعر بيد وضعت على كتفه فالتفت فرأى مس الن فقال لها : أين كنت فاني بحثت عنك كثيراً ؟

— إني رافقت الطبيب الألماني الى آخر الزقاق لشدة إعجابي بما فعله

فقال لها متهكماً : العلك استحسنت عمله ؟

— دون شك فان اكتشافه لم يسبقه اليه أحد .

فعاد الى تهكمه وقال : إذاً لماذا لا توصي أباك اللورد ليعرض مكافأته على البرلمان .

فابتسمت مس الن وقالت الحق انه كان يستحق المكافأة فإنه كان السبب

في إطلاق سراح كاهن ارلندي

-- وهذا العبد الذي تبرع بتقديم الضمانة ؟

فابتسمت ابتساماً مما يدل أنها تعرفه أيضاً .

فغضب السير وقال: أرى أنك كنت تعرفين هذا الطبيب من قبل فصحبته حين خروجه .

- دون شك فاني أعرفه وأعرف العبد أيضاً فإنه شريكه .

فاشتد غضبه حتى كاد يتميز من الغيظ وقال · إن هؤلاء الأشرار قد اتفقوا على إنقاذ الكاهن .

فابتسمت مس الن وقالت: إني أريد ان أخبرك بأمور خطيرة ولكن يجب من أجل ذلك ان تكون رابط الجأش وقبل كل شيء يجب أن تبرح هذا الزقاق فقد استلفت وقوفنا فيه أنظار الناس .

إلى أين تريدين ان نذهب ؟

- نركب مركبة ونذهب بها إلى منزلك .

- ليكن ما تريدين فلنذهب .

ولما سارت بهما المركبة قالت له المس الن . لقد قلت لك اني أعرف الطبيب والعبد ، والآن أقول أنهما والأب صموئيل من الارلنديين المعادين للانكليز .

- إن الأب صموئيل مشهور أمره ، فهل الطبيب والعبد من جمعيته السرية ؟

- إني لا أؤكد ذلك كل التأكيد ولكني رأيت حين التحقيق ان الطبيب قد تبادل مع العبد نظرة سرية فأيقنت أنهما شريكان .

- ولكن من هو هذا الطبيب الألماني ؟

- إن هذا الرجل ليس ألمانياً ولا طبيباً ولا أظنه إنكليزياً أيضاً بل ربما كان من الفرنسيين ولكني لا برهان لي على ذلك .

ـ كيف ذلك ألم تقولي إنك تعرفينه ؟

ـ دون شك ولكني أعجب بك كيف لم تدرك هذا السر على ما عرفت به من الحذق والذكاء. فإن هذا الرجل الذي يتلبس كل يوم بألف وجه ويتخلق بألف خلق وعجز بوليس لندرا عن القبض عليه ان هذا الطبيب الألماني ياسيدي هو الرجل العبوس .

فاختبل السير تون وقال لها : ماذا تقولين أهذا هو الرجل العبوس ؟

ـ هو بعينه .

ـ وقد عرفتيه حين انعقاد الجلسة .

ـ بل عرفته حين دخل .

فضحك ضحكاً عصبياً وقال : لا شك إنك مجنونة يا مس الن .

ـ لماذا ؟

ـ لأنك كنت تستطيعين إيقافه بكلمة واحدة تقولينها للقاضي .

فقالت له ببرود : هو الحق ما تقول ، ولكن لم أكن أريد ان يقبض عليه في ذلك الوقت .

وكانت المركبة قد وصلت إلى منزل السير بترس تون ، فلم ينتبه إلى وقوفها لفرط اضطرابه ، فنزلت مس الن وقالت له . هلم معي الآن ، فسأوضح لك كل شيء في غرفتك .

ثم دخلا إلى المنزل .

- ٣٨ -

وكان في غرفة السير بترس تون قسيس شاب ينتظر عودة رئيسه . فلما رآه داخلاً مع مس الن حاول الخروج ، فاستوقفته الفتاة وقالت : إنك

تستطيع البقاء معنا ، فإني اعلم أنك مساعد رئيسك الأمين فلا أخشى أن أتكلم أمامك .

وكانت هيئة بترس تون قد خرجت عن حد الانسانية لفرط غضبه واضطرابه فقد احمر وجهه حتى كاد الدم يخرج منه وظهر الزبد على شفتيه كالجمال الهائجة واحمرت حدقتاه حتى بات كالحيوان المفترس بعد معركة . خلافاً لمس الن فإنها كانت ساكنة هادئة مبتسمة فتطلعت الى ذلك الزعيم الهائج وقالت : اجلس يا سيدي واصغ لما أقول .

فامتثل وهو لا يعي وبدأت الفتاة حديثها وقالت : أتذكر يا سيدي حين زرتك أول مرة ماذا قلت لك ؟ قلت لك يوجد رجل أكرهه كرهاً لا تصفه الأقلام لأنه قد أهانني أتريد ان تشترك معي بالانتقام منه . فأجبتني بالرضى . اليس كذلك يا سيدي ؟

— دون شك .

— إذاً فاعلم اني إذا كنت لم أقبض على هذا الرجل اليوم ، واذا كنت قد خرجت معه دون كلفة ، فما ذلك إلا لأن ثمرة انتقامي لم تنضج بعد . وانه لدينا مهمة خطيرة يجب علينا أن نهتم بها ، قبل القبض على هذا الرجل .

- إني لا أفهم ما تقولين .

— اني موضحة لك الأمر فاصغ إلي إنك تعلم ان للارلنديين زعيماً أكبر وهو غلام لا يتجاوز عمره عشرة أعوام وان الارلنديين بجملتهم ينتظرون بفارغ الصبر أن يبلغ أشده كي ينضموا تحت لوائه .

وقد كنا استولينا على ذاك الغلام أنا وأبي ووضعناه في منزلنا ولكنهم اختطفوه منا .

— وهل فقدتم أثره ؟

— كلا فاني أعلم أين هو الآن فإنهم قد خطفوه أيضاً من حبس الطاحونة

وكان خاطفه الرجل العبوس

– إني أعلم تلك التفاصيل ، ولكني لا أعلم ما حدث بعد ذلك الغلام .

– إنهم أدخلوه مدرسة أبناء المسيح

فاضطرب وقال ان ذاك محال .

قد يكون مستحيلاً ولكني واثقة من صحته وأنا أجهل كيف أدخلوه الى تلك المدرسة ولكنه مقيم فيها وهو بحماية اللورد الحافظ كما ان المدرسة لا تسري عليها القوانين .

– إذاً لا بد أن يكون قد انتحلوا له اسماً آخر ، ولا بد لنا من إظهار اسمه الأصلي .

فابتسمت مس الن وقالت . أرأيت كيف يجب ان نضع العبوس في المقام الثاني فانك تعلم ضرورة القبض على الغلام .

– دون شك .

– هذه هي المهمة الخطيرة التي يجب ان تفرغ جهدك في إتمامها .

– ولكنها مهمة صعبة فان هذه المدرسة لا تسري عليها القوانين ولا يؤثر فيها النظام .

– ولكن الحيلة أبلغ من النفوذ في قضاء الحاجات ، وان لنا مساعداً عظيماً يدعونه مسز فانوش ، وهي التي حبس عندها الغلام أول مرة وسأجد تلك المرأة .

ثم نهضت تهم بالذهاب فقال لها السير بانرس تورن : أراك ذاهبة يا سيدتي ، العلك نسيت ما وعدتني به من الايضاح ؟

– لقد أصبت فانك تريد أن تعرف كيف اني اكتشفت أمر الرجل العبوس فاعلم انهذا الرجل قد خطر له خاطر غريب جعله نصب عينيه وهو ان كرهي له سيستحيل الى حب .

ثم قالت ، وقد ابتسمت ابتسامة هائلة : وأنا أيضاً قد خطر لي نفس ما خطر له .

- كيف ذلك ؟ الملك تريدين أن تحمليه على حبك ؟ وما هو قصدك ؟

— نعم ، إني أريد ان يهواني ، وعند ذلك يبدأ انتقامي . إنك قد لا تفهم كلامي . ولكن لا بأس ، فستصلك أخباري غداً . والآن أستودعك الله .

ثم تركته وانصرفت ، فلبث الكاهنان ساكتين إلى أن سمعا إقفال الباب الخارجي من ورائها .

ثم قال السير بترس تونِ للكاهن الشاب لقد بدأت أخاف من هذه الفتاة إذ لا بد لها أن تخوننا .

فدهش الفتى وقال : لماذا ؟

— إذ لا يوجد بين البغض والحب غير خطوة ولكني سأراقبها فلا يفوز علينا هؤلاء الارلنديون .

- ٣٩ -

يوجد في لندرا مكان أطلق عليه اسم جهنم ، تديره امرأة تدعى مسز بيرتون .

وليس في هذا المحل ما ينطبق على مسماه من نار حرها لا يطفى ، وأبالسة سلاحهم الفؤوس بل أن فيه ما ينطبق على معنى هذا المسمى كما ستراه .

إن الداخل الى هذا المحل يجد على يساره محل لبيع التبغ وعلى يمينه فندق فرنسي يتولى إدارته الألمان .

وكانت صاحبة محل التبغ إمرأة لا هي عجوز ولا فتاة، لا هي قبيحة ولا حسناء ، وكانت تتقن اللغة الفرنسية ولمحلها كثير من الزبائن .

ولم يكن يظهر في هذا المحل الملقب بجهنم نور ولا نار ولا يسمع له حس من الخارج في حين ان بابه كان يفتح ويغلق كل حين .

وكانت المركبات تصل اليه وتقف ، فيخرج منها تارة رجل نبيل وتارة إمرأة متأنقة ، فيفتح الباب لهؤلاء الزائرين ثم يقفل ، فتعـــود المركبات مسرعة من حيث أتت .

وحيث لو كان الدخول الى هذا الجحيم ممنوعاً لما تمكن البوليس من رؤية الداخلين لإسراعهم في الدخول ، على ان مسز بيرتون كانت تدفع رسماً فلا يعارضها البوليس .

ففي الليلة التي نقص فيها هذا الحديث كان رجلان عليهما مظاهر النبـــل يسيران مشياً على الأقدام الى هذا المنزل السري .

وكانت الساعة الأولى بعد نصف الليل فتنهد أحدهما وقال لرفيقه إن لندرا قد تغيرت تغيراً عظيماً منذ سبعة أعوام .

فأجابه رفيقه : هو ما تقول ولكنها على تغيرها لا تزال عاصمة العالم ولا يزال الذهب الحاكم المطلق فيها وهو رسول إلى الملذات .

- إني كنت أتوقع منك هـــذا الجواب أيها البارون ، فإني حين برحت إنكلترا إلى الهند كان لي مـــا لك من العمر ، ولكن قلبي لم يكن يتسع إلا لغرامي السري .

- إني أعلم غرامك القديم بالمس اميلي ولكني علمت ان هذا الغرام أسفر عن الزواج وانك من أسعد الأزواج .

فتنهد الرجل وقال : واأسفاه .

إن هذا الرجل كان الماجور واترلي ، وهو الرجـــل الذي دفع ولده الى مسز فانوش كما تقدم في الجزء السابق ، وقد أوهموه أن ابن ارلنـــدا ولده ،

ووافق على إدخاله بمدرسة أبناء المسيح ، على أن يكون وريثاً للورد ويلموت أي شوكنج .

فأجابه رفيقه : إني أعجب لتنهدك حين ذكر سعادتك ، وهل يتنهد السعداء ؟

– نعم أيها البارون متى كانت سعادتهم لم تتم .

– الملك سلوت مس اميلي ؟

– بل لا أزال أعبدها .

– إذاً ماذا ينقصك بعد ذلك ؟

– إني ولعت بعادة صعبة المراس حين كنت في الهند ، ومن أجل هذا رجوتك أن تعرفني بالمسز بيرتون .

– ولكني ما فهمت شيئاً بعد مما تعنيه .

– إذاً فاعلم إني مولع بشرب الأفيون ولا يوجد في جميع لندرا محل صالح لدخول الأشراف اليه فإن جميع المحلات التي يشربون فيها الأفيون يكثر تردد العامة اليها ولا يليق بأمثالنا انتيابها .

فابتسم رفيقه وكان يدعى البارون متشل وقال : إذاً اطمئن .

– أيشربون الأفيون عند مسز بيرتون ؟

– نعم ، ولكنهم يتعاطونه بالسر ، ولا يقبلون في هذا المكان إلا من كان مشهوداً له بالظرف والرزانة والكتمان ، وموصى به خير توصية .

– أتظن أن مسز بيرتون تقبلني في عداد زبائنها ؟

– دون شك ما زلت أنا الموصي بك فإنها لا ترفض لي طلباً ، ولكن محل شرب الأفيون منفصل في ذلك المكان عن محل اللعب وأنا أدخلك اليه بشرط ان لا تحكم علي بمرافقتك .

ليكن ما تريد .

وعندها وصلا الى باب جهنم فطرق البارون متشل الباب ففتح على الفور ودخل الاثنان .

- ٤٠

وقد دخل الاثنان فأقفل الباب وراءهما ، ومشيا في رواق يكاد يكون مظلماً لضعف النور فيه ، إذ لم يكن فيه غير مصباح صغير معلق في قبة الرواق .

فدهش الماجور وقال : إذا كان مدخل هذا المكان دليلاً عليه فقد أخطأنا في المجيء اليه .

— سوف ترى .

ثم سارا في ذلك الرواق حتى انتهيا إلى آخر فوجدا باباً مقفـــلاً فطرقه البارون متشل طرقتين خفيفتين وصبر هنيهة فطرقه طرقة ثالثة قوية كأنما هذا النوع من الطرق مصطلح عليه .

ففتح الباب ودخل الزائران إلى قاعة فسيحة كثرت فيها الأنوار ولكن لم يكن فيها شيء من أدوات الزينة والبهرجة .

وكان يوجد فيها مستوقد ومحل الشاي ، وفي وسط القاعـة طاولة بسيطة كانت جالسة أمامها إمرأة بيضاء الشعر وعليها كثير من الحلى وفي أصابعهـا كثير من الخواتم الثمينة .

على أنها على بياض شعرها كانت حـــادة البصر ، وعليها مسحة من جمال قديم .

فحياها البارون متشل تحية تدل على الصداقة فردت تحيته بمثلها ونظرت الى الماجور واترلي ، فأخذ البارون بيده ودنا منهـا وقال : أقدم لك يا سيدتي

الماجور واترلي فإنه من النبلاء وهو خير أصدقائي .

فانحنت العجوز أمامهما وقالت لهما : لا مانع من دخولكما يا ولديّ ، فادخـلا .

فاندهش الماجور واترلي من قولها لأنه لم يجد في تلك القاعة غير الباب الذي دخل منه .

ولكن متشل أخذ بيده وسار به الى الجدار فأدار لولباً ففتح باب على الفور ودخل منه الزائران .

وقد رأى الماجور أنه بات في رواق آخر يشبه الرواق الأول ولكنه أعرض من الأول وأكثر نوراً ، ورأى في الأرض بسطاً ممددة وعلى الجـدران رسوم تمثل الطيور والأزهار .

وكان كلما سار خطوة يجد مصابيح متلألئة ، موضوعة فوق أعمـدة من الرخام .

فلم يسيرا بضع خطوات حتى سمعا أصوات من الداخل فقال متشل : إنهم يرقصون ولا شك ان المدموازيل أولمب تعزف على البيانو .

– من هي المدموازيل أولمب ؟

– إنها فتاة فرنسية بارعة الجمال جاءت إلى لندرا فلقيت نجاحاً باهراً وهي تتردد دائماً على محل مستر بيرتون .

فقاطعه الماجور قائلاً : إني أيها الصديق جندي قدمت حديثاً من الهند فلا أعلم عوائد النبلاء ومصطلحاتهم فهل تأذن لي أن ألقي عليك سؤالاً ؟

– إسأل ما تشاء أيها الصديق .

– اننا دخلنا الى منزل يقامرون فيه ويرقصون ويشربون الأفيون فاذا كان ذلك كما رأيت فلماذا جعلوا له هذا المدخل ولماذا هذا التكتم والتحفظ العله من البيوت المنوع الدخول اليها ؟

– كلا .

– اذاً ما هذه الألغاز ؟

– يدهشني منك أيها الصديق انك تتكلم ببساطة أولئك الأقوام الذين يعيشون تحت سماء خط الاستواء ، فإنك تجهل الشرائع الانكليزية على كونك من الانكليز .

ألا تعلم أن شرائعنا تبيح لكل انسان أن يفعل كل ما يشاء ، على أن لا يضر سواه .

وهذا منزل مسز بيرتون معد للقمار والرقص والسكر بالأفيون كل الليل ، فلو كان على قارعة الطريق وكانت نوافذه مشرفة على الشارع ، ألا يؤذي ضجيج الرقص وعربدة السكارى من يجاور هذا المنزل من الناس ويؤرقهم عند نومهم ؟

– لقد علمت الآن ولكن هذه المرأة التي استقبلتنا في القاعة أهي مسز بيرتون أم هي جدتها أم أمها ؟

– لا هذا ولا ذاك بل هي مراقبة المنزل فلا يدخل أحد اليه الا اذا عرفته ولا يمكن أن يدخله أحد الا اذا كان من الأشراف والآن سيخبرونها بقدومنا وسأقدمك لصاحبة المنزل .

وكانا قد وصلا عند ذلك الى آخر الرواق فوجدا حارسين لابسين ملابس حريرية مزركشة بخطوط الذهب . وفتح أحدهما مصراعي الباب ، فانفتح عن قاعة عظيمة كان فيها كثير من الأعيان ، وكثيرات من الحسان وحفلة الرقص دائرة .

ودخل الزائران وقال البارون لرفيقه الماجور : اصبر الى أن ينتهي الرقص فأقدمك لصاحبة المنزل .

ثم انتهى الرقص وذهب الرجال بالنساء الى مجالسهن فأخذ البارون متشل بيد الماجور واترلي وذهب به الى امرأة بين العمرين ولكنها أقرب الى الكهولة وهي متأنقه وفي عنقها عقد من اللؤلؤ الثمين .

وكانت على كهولتها لا تزال حسناء وهي المسز بيرتون صاحبة المنزل .

فدنا منها البارون متشل فلثم يدها وقدم لها صديقه الماجور فصافحته بيدها وقالت : ان هذا المنزل منزلك منذ الليلة يا سيدي .

وجرت بينهما المجاملات المألوفة ثم افترقا . فذهبت الى باب المنزل لاستقبال زائر جديد وبقي الماجور مع رفيقه البارون، وقال له البارون : أرأيت كيف أن هذا المنزل يشبه منازل النبلاء في كل شيء ؟

- هو ما تقول ، ولكني لم أعلم الى الآن أين يشربون الأفيون فيه .

فابتسم البارون وقال : انك كثير التسرع أيها الصديق وما بعد العجلة الا الندامة .

فانقطع الماجور عن سؤاله وهو يجيل نظراً حائراً بين الراقصين والراقصات فلا يقع بصره الا على فتاة حسناء وفتى نبيل .

ثم قال له البارون : هلم بنا الآن الى قاعة المقامرة .

فامتثل الماجور منقاداً له انقياد الأعمى وذهبا الى منضدة كان عليها بعض اللاعبين وبينهم أحد النبلاء ويدعى السير روبرت هاتون فعرفه البارون بالماجور وابتسم ابتسامة معنوية

وأدرك السير روبرت معنى ابتسامته وقال للماجور : يبدو يا سيدي أنك مثلنا من شرّاب الافيون ، فصبراً اننا ذاهبون الى قاعة التدخين متى دنت الساعة .

فدهش الماجور وقال العل الافيون له ساعة معينة ؟

- نعم وهي الساعة الرابعة بعد نصف الليـل أي حين ينصرف اللاعبون والراقصون ولا يبقى في تلك القاعات غير اولئك الأذكياء الذين يؤثرون ملاذ الروح على ملاذ الجسد .

فصادق البارون متشل على هذا القول من قبيل المجاملة وشكر السير روبرت ضاحكاً ، فأجابه السير معتذراً وقال : لقد نسيت انك لا تشرب الأفيون، على اني لا أزال أنتقد عليك، انك تجهل ملذات شربه التي لا حد لها.

هز البارون كتفيه دون أن يجيب .

غير ان السير روبرت أبى إلا ان ينتصر للأفيون وأحزابه فقـــال · انكم أيها المجانين لا تكرهون الأفيون إلا لجهلكم ملاذه ، على انكم لو اندمجتم في سلك شرابه لعلمتم انكم في ضلال ، واني أقول لك ذلك بشكل خاص ، انك من أهل الخيـــال ، ولا ارى الا أن تصحبنا ليلة فتصبح بعدها من أشد انصارنا .

— أما ان تكون هذه اللذة الروحيـــة على ما وصفته لي ، فان ذلك من الممكنات وأما أن تغويني على الاقتـــداء بك فلا ولكني أرجوك أن تصف لي القاعة التي تدخنون فيها .

-- هي قاعة صغيرة غطيت جدرانها بالأقمشة الشرقيـــة ويوجد فيها مقعد طويل يمتد من اول القاعة الى آخرها فيتربـع فوقه المدخنون وفي يد كل منهم غليون يضع فيه التبـغ وحبة من الأفيون فيولعه ويدخن .

حتى إذا انتهى من تدخين الحبـــة الأولى أمحت مظاهر تلك القاعة كلها وزالت جدرانها وانكشفت لعينيه السماء الزرقاء وتألقت منها الشمس الساطعة وبرزت الحواري الحسان ففتنت عقله بابتسامتها .

فضحك البارون متشل وقال : أهذا الذي تدعوه ملذة لا حد لها ؟ اني أؤثر الف مرة أن ألثم أنامل مدموازيل أولمب ، تلك الفتـــاة الحسناء الجالسة هناك قرب المستوقد ، على تلك اللذة الروحيـــة التي لا حد لها كما تقول وأؤثر

ابتسامتها الحلوة الصحيحة على ابتسامة الحورية الوهمية التي يمثلها لكم الأفيون فينتهي بكم الى الخمول .

نظر السير روبرت إلى الماجور واترلي وقال له وهو يبتسم ابتسام المشفق عليه لهذا الاعتقاد ، لا سبيل إلى جداله .

— دون شك ولا سبيل إلى مجادلتـه في الأفيون ، انه لا يدرك شيئاً من امراره إلا بالسماع .

فقال البارون متشل : قد تكون مصيباً ، ان الجدال في هذا الشأن محال ولكن عاقبة الحشيش والأفيون لا يجهلها أحد وكفى بذلك برهاناً ان أوله خوف وآخره ضعف .

فتنهد الماجور وقال : هي الحقيقة بعينها ، ولكن بينها ساعة لا تباع بالملك ، وقد ظهرت عليه علائم الشوق الشديد ، فقال للسير روبرت : ألم يحن بعد الزمن ؟

فضحك السير روبرت وقال : لا يزال امامنا ساعة وسأعرفك الآن بهذه الفتاة الاشورية .

أجابه الماجور دون اكتراث : من هي هذه الفتاة ؟

انها فتـــاة حسناء يكسف أشعة حسنها جمال الحوريات التي يمثلها لكم الأفيون .

تبودلت بين السير روبرت والماجور نظرة اشفـاق على البارون متشل وقال له البارون : أحكم علي بما تشاء على أن تأذن لي بأن أعرفك بالأشورية فقد وعدتها بذلك فأوشكت أن تجن من سرورها ، لا سيما حين علمت انك قادم من الهند

سأمتثل لك فيما تريد ولكنك تعلم اني أعبد امرأتي عبادة ، لا يؤثر علي جمال النساء .

سوف ترى فيما طالما قال الأزواج قبلك هذه الأقوال .

وبعد أن انتهى من اللعب ذهب البارون متشل بالماجور واترلي إلى قاعة كان فيها كثير من النساء ، وهناك فتاة طلعت بينهن مطلع القمر بين النجوم ، وهي بسامة الثغر سوداء الشعر براقة العينين فلم يكد يراها الماجور حتى ارتعش ونسي انه قادم إلى منزل مسز بيرتون لشرب الأفيون .

- ٤٢ -

كان لهذه الفتاة التي يلقبونها بالأشورية إسم آخر دون شك ولكن هذا اللقب تغلب على اسمها حين قدمت إلى لندرا ونالت فيها شهرتها البعيدة

وكانت بارعة في جمالها وقد اشتهرت ايضاً في باريس وفينا وفلورنسا ، الا ان شهرتها في لندرا كانت اعظم إذ راقت في عيون الانكليز لسواد شعرها وندور سواد الشعر بين الايكوسيات والارلنديات .

ولم يكن أحد يعلم من أين أتت ، بل لا أحد يعلم حقيقة اصلها ، فإنها كانت تتكلم أكثر اللغات الشائعة كأبنائها ، وقد عثرت بها مسز بيرتون فجعلتها زينة منزلها وأزدحم الناس في ذاك المنزل بعد قدومها ، وكان ذلك منذ شهرين .

ثم امتدت شهرتها وانتشرت في جميع لندرا ، لاسيا بعد تزاحم العشاق عليها واقتتالهم في سبيل هواها ، فقد حدثوا عنها أن اللورد هـ. هام في هواها وهو في مقتبل الشباب ، ولما لم يرق في عينها انتحر عند باب منزلها ، ورووا كثيراً من هذه الحوادث المفجعة حدثت في سبيل هواها فكانت من ادعى أسباب شهرتها .

أما الماجور واترلي الذي كان يدعي انه يعبد إمرأته فإنه لم يكد يراها حتى اختلج وارتعش وأحس ان لهذه الحسناء سلطاناً خفياً عليه .

أما الفتاة فإنها أشارت إلى كرسي بقربها وسألته أن يجلس بجانبها ، فامتثل ونسي منذ تلك الساعة الغاية التي اتى من اجلها إلى منزل مسز بيرتون ، وهي شرب الأفيون ذلك أنه لقي من سكر عينيها ما لا يذكر معه سكر الأفيون بشيء .

وأما البارون متشل الذي كان واسطة التعارف بين صديقه الماجور وبين الأشورية ، فإنه بعد ان قضى هذه المهمة ترك صديقه وشأنه ، وجال في القاعة بين الحاضرين باحثاً كأنه يفتش على شخص واعده على الملتقى فلم يجد ضالته وقال : أظن ان صديقي ارثير يهزأ بي .

ولكنه لم يتم جملته حتى فتح باب القاعة ودخل منه رجل في مقتبل الشباب فأسرع اليه البارون متشل وقال ، لقد طال انتظاري حتى كدت اقنط من حضورك ..

و كان هذا الرجل نفس ذلك المركيز الشاب الذي تبع مس الن في هايد بارك حين كان رفاقه يتراهنون على الرجل العبوس وقد حسبوه الكونت الرومي ، فقال له المركيز : ها قد اتيت فماذا حدث ؟

وقال له البارون : حدث كل ما أردته فإن الماجور قد حضر

– أهو هنا ؟

– نعم وهو يحادث الآن الأشورية .

– إذاً إن الأمور سائرة على محور النجاح .

– سيذهبون به قريباً إلى قاعة تدخين الأفيون إذا اقتضى الأمر ولكني أظن ان عيني الأشورية تقضيان الحاجة وتفعلان به اكثر من الأفيون أنظر اليه أيها الصديق تر ان روحه باتت بين شفتي هذه الفتانة .

ونظر المركيز إلى الماجور ورأى أن الأشورية قد فتنته بدلالها وأنه شاخص الطرف لا ينظر إلا جمالها ولا يسمع غير أقوالها .

وهنا انقطع الصديقان هنيهة عن الحديث ، ثم أخذ البارون متشل بيد

الماجور وسار به إلى مكان خال من الناس في القـــاعة وقال له : أتريد أن نتحدث قليلا أيها الصديق ؟

– ليكن ما تريد .

– لقد ادهشتني بأعمالك حتى بت في حاجة إلى طلب الإيضاح منك .

فابتسم المركيز وقال : إني لا أنكر عليك انذهالك من إهمالي ، فأنا نفسي مندهش منها أكثر منك .

– إني لا أفهم شيئاً مما تقوله إلا إذا كنت تريد الهزء بي .

– معاذ الله أن أهزأ بأصدقائي .

– إذاً أوضح لي ما أسألك عنه .

سل ما تشاء .

– اجتمعنا أول أمس في النادي فاقترحت علي أن ألاعبك بالورق ووضعت شرطاً غريباً في بابه وهو اني إذا كنت أنا الرابح تدفع لي الف جنيه ، وإذا كنت أنت الرابح أصنع مدة ثلاثة أيام كل ما تطلبه الي على شرط أن لا تسألني إجراء ما يمس بالشرف .

واصبر فاني لم انته بعد فانك حين غلبتني سألتني إذا كنت أعرف الماجور واترلي فأجبتك بالايجاب وقلت لي اني أريد ان تدخله إلى منزل مسز بيرتون ثم قلت لي يجب أن تعرفه بالأشورية وتسكره بغرامها وإذا لم يؤثر عليه جمالها يجب أن يسكر بالأفيون .

– نعم فقد قلت لك كل هذا ..

وقـال البارون وأنا قد فعلت كل مـا طلبته الي وجئت به كي يشرب الأفيون ، ففعلت به عينا الأشورية ما لا يفعله ذاك السم .

– حسناً فعلت لقد وفيت بعهودك .

– نعم ولكني أريد أن أعلم غايتك من سكر الماجور أو غرامه

– ليس لي غاية .

وأظهر البارون عجبه وقال : كيف يكون هذا ممكناً ؟
– هي الحقيقة بعينها أيها الصديق وأنا أمتثل لسواك كما أنت تمتثل لي .
– العلك لعبت مثلي على مثل هذا الشرط وخسرت ؟

. كلا ولكني أنا أيضاً قد فتنت بالأشورية كما فتن الماجور، ولكن الأشورية التي فتنت بها لا تدخل إلى مثل هذه المنازل وهي التي أمرتني لسبب لا أعلمه أن أجمع بين الأشورية والماجور واترلي .

– أيمكن أن تذكر لي اسم الفتاة التي تهواها .
– نعم فانها تدعى مسن الن بالمير .
ودهش البارون وقال . ما هذه الألغاز اني لا أفهم شيئاً منها .
– لا يروعك ذلك فاني أنا أيضاً لا أفهم شيئاً منها .
وكان الناس قد بدأوا في ذاك الحين ينصرفون لأن ساعة شرب الأفيون قد حانت .

– ٤٣ –

في الليلة نفسها في الساعة الخامسة صباحاً كانت مركبة واقفة في زاوية من شارع بالتين .
وكان وقوفها منذ ساعة كأنما السائق كان ينتظر خروج أسياده من أحد منازل الشارع ، حتى كان يحسب الناظر أنها خالية لا أحد فيها ، لو لم يكن يرتفع سجفها من حين إلى حين ويبرز منه رأس إمرأة كانت تطل وتنظر نظر الفاحص .

وكانت واقفة قرب باب جهنم أمام منزل مسز بيرتون ، وكان باب المنزل يفتح كل ربع ساعة ويخرج منه أحد الزائرين .

وكانت السيدة المقيمة في المركبة تراقب كل خارج من المنزل حتى إذا رأته أرخت السجف ، إلى أن خرج المركيز الذي تقدم لنا وصفه ، وأبقت السجف مرفوعاً حتى دنا منها فقالت له . ادخل .

ودخل المركيز إلى المركبة وأقفل بابها ثم حيى تلك السيدة تحية الهائمين ، لأنها كانت مس الن .

وسارت بهما المركبة فسألته مس الن : أخبرني الان ماذا حدث

- حدث كل ما أردته فانه أشبه بالمجانين .

— العله شرب الأفيون ؟

— كلا ، إذ لا حاجة اليه ، ومع ذلك فإنه أتى خصيصاً لشربه ، لأن له به ولعاً غريباً ، كما يظهر ، غير ان نظرات الأشورية أنسته الأفيون ، حتى إنهم جاءوا يخبرونه بافتتاح قاعة التدخين لم يجبهم لانصرافه إلى الأشورية .

العله باق معها ؟

— نعم ، ولكنه سينصرف قريباً لأن مسز بيرتون أرسلت أحد خدامها لاحضار مركبة لها . انظري فهذه مركبة قد وقفت عند باب جهنم .

— أتظنه يسير معها ؟

- بل أؤكد فإنه كان ينظر اليها نظرات المفتون .

وأمرت مس الن سائقها أن يتقدم إلى باب جهنم وأن يقف أمام المركبة المنتظرة ثم قالت للمركيز : اني اريد أن أتحقق الأمر بنفسي

وبعد هنيهة فتح باب جهنم الخارجي ورأت مس الن إمرأة خرجت منه وهي متشحة بشال من الكشمير فعلمت أنها الأشورية.

وكانت متوكأة على ذراع رجل رآه المركيز همساً لمس الن : هــذا هو الماجور واترلي .

ثم رأت مس الن أن الأشورية صعدت إلى المركبة وسمعتها تقول للماجور :

إصعد بجانبي .

فصعد ممتثلاً وسارت بهما المركبة .

وعند ذلك قالت مس الن للمركيز لقد اطمأن بالي الآن فأشكرك لاخلاصك .

وقال لها المركيز : أتعلمين يا سيدتي اني لم أفهم شيئاً إلى الآن من كل ما يجري

– ذلك لأني أريد أن نفهم ، أنسيت شروطنا يا حضرة المركـــيز ، ألم تسألني أن آذن لك بمرافقتي مرتين في الأسبوع في هايد بارك واشترطت عليك أن تخدمني مقابل ذلك دون أن تحاول الاطلاع على أسراري وقدوفيت بوعدي فوجب عليك أن تفي بوعدك .

وهذه الأسرار أتبقى غامضة علي الى الأبد ؟

وضحكت مس الن قائلة : إني لا أقول هذا القول فإذا كنت كتوماً طائعاً فقد أطلعك على بعض الأسرار وإني مستعجلة فأستودعك الله

– كيف ذلك أتتركينني وحدي ؟

– أتريد أن أوصلك إلى منزلك ؟

- حبذا يا سيدتي .

وأمرت السائق أن يذهب الى نمرة ٢٤ في شارع بال مـال ، حتى إذا وصل بهما الى ذلك المنزل لثم المركيز يدها وقال لها : أين أنت ذاهبة الآن يا سيدتي ؟

- هذا أيضاً سر لا يجب أن تعلمه الآن .

وخرج المركيز من المركبة وهو يعجب بأمر هذه الفتاة أما مس الن فإنها أمرت السائق ان يسير بها الى همبستاد نمرة ١٨ .

فامتثل السائق واتكأت مس الن في مركبتها .

وبعد نصف ساعة وقفت المركبة عند باب منزل مسز فانوش ، تلك

المرأة التي اختطفت ابن ارلنــدا ، والتي وجد اللورد بالمير في حديقتها مكبلاً مكوماً .

- ٤٤ -

ولندخل الآن الى منزل مسز فانوش التي عرف القراء أمرها مع ابن ارلندا فنقول انها رجعت عن مهنتها السابقة وهي تربية الأطفال ، وتخلصت من تلك العجوز التي كانت تضرب الأطفال ذلك الضرب الموجع بعد أن خانتهــا كما تقدم .

ويذكر القراء ما حدث بينها وبين الرجل العبوس فانها بعد أن هرب رالف ابن ارلنــدا من منزلها في همبستاد عادت الى لندرا فرأت منزلها خاويــاً خالياً لا عجوز فيه ولا أطفال

أما العجوز فقد كانت سافرت الى حيث أرسلها اللورد بالمــير بعد أن أرشدته الى منزل مسز فانوش ، وأما الأطفال فقد كان الرجل العبوس نقلهم الى محل أمين يتربون فيه .

ولم تأسف مسز فانوش لفراق الأطفال والعجوز ، وعــادت الى همبستاد وباتت في منزلها مطمئنة الى أن جاءها الرجل العبوس فخافت خوفاً عظيمــاً لاعتقادها أنه سينتقم منها ويعذبها شر عذاب ، غير انها اطمأنت حين علمت انه يريد استخدامها في إيهام الماجور واترلي ان ابن إرلندا ولده بغية إدخاله مدرسة أبناء المسيح .

وكان العبوس قد دفع لها مقابل ذلك مبلغاً عظيماً من المــال فعاشت به عيشة السكينة ولم تعد تخاف غير العبوس الذي تجــاسر على ان يعبث بلورد نبيل من اعظم رجال البرلمان نفوذاً .

وكانت لا تزال محتفظة بخادمتها الايكوسية ، وكانت ترسلها لاستطلاع الأخبار إذ لم تكن تجسر على الخروج من منزلها ، وعلمت ان الحكومة تتهم الرجل العبوس بجريمة تستوجب الإعدام ، وانه لم يعد الى منزل شوكنج منذ عهد بعيد واطمأن بالها لإعتقادها انه سجين ، وان العقاب لا بد أن ينفذ فيه .

وفيما هي جالسة ذات ليلة تشرب الشاي سمعت طرق باب منزلها الخارجي وأرسلت خادمتها كي ترى من الطارق وعادت اليها برسالة لم يجيء بها عامل البريد بل رجل لم تتبين وجهه لأنه كان ملثماً

واضطربت مسز فانوش كأنما قلبها قد أنذرها بمصاب وفتحت الرسالة بيد ترتجف ، وأسرعت بنظرها إلى موضع التوقيع فلم تجد توقيعاً ، أما الرسالة فكانت كما يأتي :

« يطلب إلى مسز فانوش ان تنتظر في هذه الليلة زيارة شخص يريد أن يحادثها بأمور خطيرة .

« فإذا لم تفتح لهذا الزائر عرضت نفسها لأخطار لا تستطيع تفاديها

« وإذا خطر لها أن تلتجيء إلى البوليس وتعرض عليه هذه الرسالة ، أو ائتمنت سواها على هذا السر عرضت نفسها لغضب شخص قوي قادر » .

وسقطت الرسالة من يدها لما أصابها من الرعب ونادت خادمتها وقالت لها بصوت يتلجلج : لقد خدعوك لأن الرجل العبوس ليس في السجن

ولبثت مسز فانوش منذ ذاك الحين على أشد حالة من الرعب والجنون ولكنها امتثلت لما ورد في الرسالة فلم تطلع عليها البوليس ، ولم تبح بسرها لخادمتها ، بل أمرتها ان تذهب إلى مضجعها ، وذهبت هي إلى تلك الغرفة المطلة على الحديقة ، وهي الغرفة التي دخل منها قبلاً الرجل العبوس وشوكنج فجأة كما تقدم فجعلت تراقب باب الحديقة وتنتظر زيارة الشخص السري وهي ترتعش رعباً لأقل حركة تسمعها .

ومرت الساعة الثانية والثالثة والرابعة بعد انتصاف الليل دون ان يحضر أحد ، وحسبت ان الرسالة مزورة .

وارتاحت بعض الارتياح غير ان اطمئنانها لم يطل فإنه لم تحن الساعة الخامسة حتى سمعت طرق الباب فانتفض جسمها واضطرب قلبها حتى شعرت انها لا تستطيع القيام .

ولكنها تجلدت وخرجت من الغرفة إلى الحديقة فمشت بأقدام مضطربة إلى الباب ، ولما فتحت البـــاب تنهدت تنهد المنفرج بعد ضيق إذ رأت إمرأة تصدت لها قائلة : أأنت هي مسز فانوش ؟

- نعم يا سيدتي .

- أنا هو الشخص الذي تنتظرينه وأنا أدعى مس الن ابنة اللورد بالمير فسيري أمامي إلى منزلك .

٤٥

وامتثلت مسز فانوش وتبعتها مس الن إلى الغرفة التي كانت تنتظر فيهـا منـذ حين .

وقد اطمأنت فانوش انها لقيت امرأة مثلها وانها حلوة رقيقة الحديث ، وقالت في نفسها : لا بد ان تكون رقيقة الطباع لاسيا وهي ابنة لورد نبيل .

ولكنها حين وصلت إلى الغرفة ورأت مس الن أزاحت النقـاب ونظرت اليها بعينيها البراقتين لم يسعها إلا الارتعاش .

وقالت لها مس الن : إن الوقت أضيق من أن تنفقه بالاسهاب الممل وسأوضح لك سبب زيارتي بأوجز كلام فقولي ألم تكوني مربية أطفال ؟

- نعم ..

– ألم تتعودي خنق اولئك الأطفال حين لا تجدين فائدة من أهلهم ؟

فاصفر وجه مسز فانوش وقالت : إنها أراجيف يا سيدتي أشاعها عني بعض أهل الشر .

بل رواها رجل يدعى ويلتون وهو الآن في السجن .

واضطربت فانوش حتى لم تعد تعلم بما تجيب فهزت مسس الن كتفيهـا وقالت لها : لقد قلت لك ايتها السيدة ان ضيق الوقت يمنعني عن الاسهـاب ، فاعلمي الآن اني أتيت لأخيرك بين أمرين ، وهما اما السجن والحكم بالاعدام ، واما التبرئة ومكافأتك باربعة آلاف جنيه ، وهي ثروة تعيشين من ريعهـا مدى الحياة .

وحاولت فانوش ان تتكلم فقاطعتها مسس الن بجفاء وقالت : إصغي الي تعلمي اني عالمة بكل شيء فانه منذ بضعة أشهر كتب اليك ضابط عائد من الهند يدعى الماجور واترلي يطلب اليك إرجاع ولده الذي إئتمنك عليه .

وصاحت مسز فانوش قائلة : هوذا يا سيدتي برهان على براءتي مما يتهمونني به فإني أرجعت هذا الغلام الى أبيه الماجور والبرهان انه اليوم في مـدرسة أبناء المسيح .

فابتسمت مسس الن وقالت : اني أعرف كل ما تقولينه ، وأعرف أيضاً ان هذا الغلام ليس هو ابن الماجور ، بل هو غلام ارلندي يدعى رالف وانت التي سرقته .

وأطرقت فانوش برأسها الى الأرض حين رأت مسس الن واقفـة على حقيقة امرها .

وعادت مسس الن الى الحديث فقالت : ان الغلام قد هرب وسقط بأيدي عصابة من اللصوص ادت به إلى السجن في سجن الطاحون فأنقذه رجل يدعونه الرجل العبوس كي تقدميه للماجور واترلي بصفته ولداً له .

واصفر وجه فانوش عند ذكر الرجل العبوس وقالت : ان هـذا الرجل

قوي شديد وقد أمرني ولم أجد بدأ من الامتثال .

وأجابتها مس الن ببرود : إذاً إعلمي اني أنا عدوة هذا الرجل الشديد والحرب ناشبة بيني وبينه .

– أأنت تجسرين على معاداة الرجل العبوس ؟

وقالت الفتاة بلهجة الواثق مما يقول : اني على وشك الظفر به الآن وسأسحقه قريباً سحق الزجاج غير اني محتاجة إلى مساعد لأضربه الضربة القاضية وهذا المساعد هو انت .

فارتعشت فانوش من الخوف وقالت : كلا يا سيدتي .. لا أجسر على معاداته .

فمدت مس الن يدها الى جيبها واخرجت منها ورقة عرضتها عليها .

ووجف قلب فانوش وقالت : ان هذا أمر بالقبض علي .

– نعم وهو موقع عليه من ناظر الحقانية .

– رباه ، اذاً هلكت .

– هو ما تقولين فاني استطيع ، حين أريد ، اعطاء هذا الأمر الى اثنين من رجال البوليس فيذهبان بك الى السجن ، ولا يكون جزاؤك غير الشنق بعد اسبوع ، ولكني اؤثر أن أجازيك بما وعدتك به من المال اذا كنت تخدمينني .

– ولكن اذا خدمتك يقتلني الرجل العبوس ..

– واذا لم تخدميني تشنقين فاختاري اهون الوبائين .

– ويلاه ... وأية فائدة من الاختيار بين الشرين اذا كان الموت يحول بينهما ؟

– لا تقنطي واصغي الي تري ان هذه الأخطار يمكن اتقاءها فإني حين استخدمك القضاء قضاء مبرماً على الرجل العبوس يشنق هذا الرجل في اليوم نفسه ولا يستطيع الانتقام منك ..

- ماذا يجب أن اصنع ؟

- يجب ان تبادري بالكتابة لناظر الحقانية ان الولد الذي رد الى الماجور واترلي ليس ولده وأنه ارلندي اسمه رالف وانه نفس الغلام الذي هرب من سجن الطاحونة .

- ولكني اذا كتبت هذه الكتابة اكون قد اعترفت بجنايتي .

- دون شك ويجب ان تعترفي أيضاً انك دفعت ولد الماجور واترلي الحقيقي الى حليف لك يدعى ويلتون فأغرقه في النهر .

- اذاً يحكمون علي بالشنق .

- هو ما تقولين ولكنك تنالين عفو الملكة .

- من يضمن لي نيل هذا العفو ؟

وقالت لها مس الن ببرود وبلهجة دلت على الاخلاص الأكيد : يضمنه لك ابنة اللورد بالمير واللورد بالمير نفسه .

- ٤٦ -

طلع النهار كما يطلع عادة في لندرا ، أي ان الضباب يحمر ويرق حتى ترى الأشجار من خلاله .

وقد نفذت اشعته الى الغرفة التي كانت فيها ابنة اللورد فقـــالت لمسز فانوش : هوذا الصباح قد بزغ ولم أعد أستطيع البقاء ، فإذا كنت لا تزالين خائفة من العبوس هلمي معي أذهب بك الى موضع امـــين لا يصلك فيه شر المعتدين .

- الى أين تذهبين بي ؟

- الى منزل الأسقف بترس تون أعظم رجال لندرا نفوذاً .

ــ اني لم اسمع أبداً بهذا الاسم .

فــــابتسمت مس الن وقالت : ولكنك سمعت بأسقف كنتربوري دون شك ، فاعلمي ان هذا الأسقف العظيم يتلقى من السير بترس توين اوامر سرية .

وعلمت فانوش انه لم يعد بد لها من الانقياد الى ابنة اللورد لأنها كانت تحمل الأمر بالقاء القبض عليها فقالت لها : اني مستعدة للذهاب معك الى حيث تشائين .

واتشحت مس الن بردائها وأرخت النقاب على وجهها وخرجت بفانوش من ذلك المنزل الى مركبتها ، وأمرت السائق ان يذهب بها الى منزل الاسقف بترس توين .

وكأنما هذا الأسقف كان ينتظر زيارة مس الن فإنه بقي ساهراً الى هــذه الساعة ، ولما وصلت المركبة الى منزله دخلت مس الن اليه مع فانوش وعرفته بها قائلة : هذه هي المرأة التي حدثتك عنها .

فأدخل الأسقف الاثنين الى قاعة الاستقبال واخذ ينظر الى فــــانوش نظرات الفاحص ، فأشارت له مس الن اشارة سرية أدرك قصدهــا وذهب الى غرفة اخرى فتبعته مس الن تاركة فانوش وحدها في القاعة .

ولما خلا الاثنان قال لها الأسقف : أرضيت بما اتفقنا عليه ؟

ــ انها رضيت بكل شيء فهل أبلغت ناظر الحقانية .

ــ دون شك ، الم ارسل لك الأمر بالقبض عليهــا ولكني ارى صعوبــة جديدة لم نكن نتوقعها فان هــذه المرأة ستكتب حكايتهــا بيدهــا ثم تؤيد باعترافها الشفاهي امام البوليس ما كتبته بيدها

ــ ولكني وعدتها بالعفو .

ــ ذلك صعب ... لأنها ستحاكم علناً وتنشر الجرائد أخبارها وتحول دون العفو .

– ولكن لا سبيل إلى محاكمتها ، إذ يمكن إطلاق سراحهـا بضمانة فتبرح إنكلترا قبل المحاكمة .

– ولكنك ربما تجهلين نظام مدرسة أبناء المسيح وما تتمتع به من الامتيازات منذ عهد ادورد السادس منشئها .

- سوف ترى إني لا أجهل شيئاً فإن كل تلميذ من تلامذة هذه المدرسة ، يلبس الوشاح الأزرق والجرابات الصفر لا يمكن القبض عليـه إلا إذا ارتكب جريمة في الطريق خارج المدرسة .

وأنا أعلم أنه لو قيل للبوليس ان هذا الغـلام متنكر باسم سواه وانه من المجرمين المحكوم عليهم فإما يصدق او ينكر . وفي الحالين لا يجسر أن يقبض عليه .

وحتى لو تمكنا من إغراء أحد رجال الشرطة وقبض عليه وذهب به إلى سجن الطاحون وعرفه جميع الحراس ، فإن اللورد المحافظ يسرع في الحال إلى طلبه وإخراجه .

فقال لها الأسقف : أرأيت إذاً كيف ان مساعينا تحبط أمام الامتيازات الممنوحة لهذه المدرسة ؟

– ولكن الحيلة تعيننا على هذه الامتيازات فان الشرطة ستقبض على الغلام بغير زيه المدرسي .

ألم أقل لك اني اتفقت مع إمرأة تدعى الأشورية على أن تغري الماجور واترلى ؟ إذاً فاعلم ان دور الغواية قـد بدأ ، وأنه لا تمضي ثمانية أيام حتى يصبح هذا الماجور آلة بيد تلك الحسناء تعبث به كما تشاء ولا تعود تخطر امرأته له في بال . ثم اني احتلت أيضاً على إبعاد إمرأته كي يخلو الجو للأشورية فإنها الآن خارج لندرا .

– ماذا فعلت ؟

- إني احتلت حيلة بسيطة . وهي انه بعـد ان خرج زوجها من منزله

ذاهباً إلى قاعة جهنم كي يشرب الأفيون ، وامرأته تحسب انه ذهب الى النادي حسب العادة ، زورت تلغرافاً وأرسلته اليها . وخلاصة هذا التلغراف أن أخاها في إيكوسيا ، أصيب فجأة بمرض شديد ، وانه لا بد من حضورها .

فلما وصلها هذا التلغراف الملفق بحثت عن زوجها في كل مكان ، فلم تجده لأنه كان عند مسز بيرتون . فتركت له كتاباً في المنزل وفي النادي وسافرت في الحال الى ايكوسيا، وهي ستجد أخاها معافى عند وصولها . فتعلم ان التلغراف مزور .

ولو افترضنا أنها عادت تواً يقتضي لذلك أسبوع ، وهو كاف لإتمام مهمتنا وذلك ان الماجور واترلي سيصير في خلاله عبد للاشورية كا هو عبد للافيون . ومن عادته ان يحضر ابنه مرة في الأسبوع ، من مدرسة أبناء المسيح ، ويجيء به الى المنزل . ولكنه سيجيء به هذه المرة إلى منزل الأشورية لغياب إمرأته .

— ولكننا لا نزال حيث كنا من الصعوبة ، فإن كل أب ينقل ولده إلى هذه المدرسة ، يتعهد ان ينزع ملابسه ، إلا بعد أن تنتهي مدة تعليمه .

— إني أعرف كل ذلك . ولكن الماجور لا يخل بتعهده ، بل ان الأشورية تسكره بالأفيون حتى يضيع رشاده وعند ذلك تغوي الغلام وتلبسه ملابس أجمل من ملابسه وأكثر لمعاناً .

— وعند ذلك تحضر الشرطة ؟

— هنا ينتهي عملي ويبدأ عملك

— ولكنك تعلمين أن القبض على الناس في المنازل يحرمه الشرع

— ولكنه غير محرم في هايد بارك فان الأشورية تغتنم فرصة انشغال الماجور بسكره الأفيوني وتذهب بالغلام بغية التنزه بالحدائق .

وبينما كان الأسقف ينظر الى مس الن نظر المعجب، بذكائها وتوقد ذهنها سمع قرع الباب الخارجي ثم رأى ان باب الغرفة قد فتح ودخل منه سكرتيره وقال: إن رئيس البوليس قد حضر يا سيدي .

ـ أدخله الى قاعة الاستقبال .

ثم ذهب بنفسه الى تلك القاعة التي كانت تنتظر فيها فانوش على أحر من الجمر ، وهي لا تعلم ما يكون مصيرها فقال لها : لقد حان وقت اعترافك يا سيدتي بكل شيء .

وعند ذلك فتح الباب ودخل رئيس البوليس ، فجعل العرق البارد ينصب من جبينها ، وقد اشتد رعبها لمنظر البوليس ، حتى خيل لها أن المشنقة قد نصبت أمامها ، وان الجلاد يقول لها لقد جاء دورك الآن فاصعدي

- ٤٧ -

ولندخل الآن الى منزل الأشورية فان هذه الحسناء التي كان الناس يقتتلون عليها والتي كانت عيناها تفعل فعل السحر بالباب الرجال، كان لها منزل عظيم في بورتلاند بالاس يشبه القصور الفخمة .

وذلك ان السير أرثر ، ذلك النبيل المنكود الذي انتحر في سبيل هواها، بنى لها القصر وأهداها إياه من خلال ضريحه . فانه كان قد شيد هذا القصر من أجلها ، فاستعان على بنائه ونقوشه بخير المهندسين والمصورين والنقاشين ، وأنشأ فيه حديقة غناء ، وضع فيها التماثيل الجميلة . فبات أشبه بهيكل بناه لمعبوده .

غير أن معبوده أبى أن يقيم فيه ذلك العهد فلما قنط السير أرثر من

حينما انتحر ، فوجدوا في وصيته انه يهب هـــذا القصر فيه من الرياش بما
للاشورية . فاستولت عليه غنيمة باردة وأقامت فيه دون ان يزجرها ضميرها
كأنها اشترته بمالها .

ففي الساعة العاشرة من صباح ذلك اليـــوم الذي جاءت فيه مس الن
بفانوش إلى منزل الأسقف كانت الأشورية جالسة عند نافذة غرفتها المطلة على
الحديقة ، تستنشق نسيم الصباح ، وتتـــدفأ بأشعة الشمس التي فـــازت على
الضباب وبددته .

وكانت تنظر من حين إلى حين الى رجل كان نائماً في غرفتها على مقعد طويل
وهو الماجور وارلي نفسه .

وكان نائماً بملابسه وهي مختلة النظام وهو منفوش الشعر نوماً عميقاً يدل على
أنه أفرط في شرب الخمر والأفيون .

وكان في زاوية الغرفة مائدة عليها بقايا الطعام والشراب وفي قربها نارجيلة
ذات أنبوب طويل .

وكانت الأشورية تنظر اليه من حين الى حـــين نظرات الفاحص ، ثم
تعود الى الحـــديقة وتنظر الى بابهـــا نظرات الجزع ، كأنها كانت تنتظر
قدوم زائر .

ثم سمعت صوت مركبة وقفت عند بابها فقالت في نفسها سوف تراه نائماً
وتعلم اني وفيت بوعدي .

وعند ذلك خرجت امرأة من تلك المركبة ، كانت تدل خطواتها أنها
في عهد الصبى ، وكانت مقنعة بقناع كثيف يستحيـــل معرفة وجهها من
خلاله . ولكن الرجل العبوس لو لقيها وأرسل نظراته من النافذة الى ذلك
القناع لاخترقه وعلم أنها مس الن . فإنها هي نفسها كانت تلك الزائرة التي
تتوقعها الأشورية .

وكانت عائدة من منزل الاسقف بترس بوين حيث جرى كل شيء فيه طبق

رغائبها ، فإن مسز فانوش غرها المال وأخافها العقاب فاعترفت لرئيس الشرطة بان ابن الماجور واترلي قد أماته خادمها غرقاً ، وأنها قدمت له بدلاً منه الغلام الارلندي وأوهمته انه ولدها .

وبعد ان كتبت اعترافها اتفق الأسقف مع رئيس الشرطة على إطلاق سراحها بضمانة قدرها الف جنيه فدفعت مس الن المال وأقامت فانوش في منزل الاسقف آمنة انتقام الرجل العبوس .

أما مس الن فقد كان ظمأها إلى الانتقام من العبوس شديداً ، فأرادت قبل ان ترسله إلى المشنقة أن تنزع من نفسه كل رجاء ، فتقضي على حليفته فانوش ، وتعيد ابن ارلندا إلى سجن الطاحونة ، وتضرب الارلنديين الضربة القاضية .

وبعد ان ذهب رئيس البوليس قالت لبترس تون : يجب الآن ان تهتم بايجاد رجل ثقة خبير من خير رجال الشرطة فان مثل هذه المهمة لا يجب أن تعهد لغير الأكفاء .

وعند ذلك افترق الاثنان فذهب الأسقف الى إدارة الشرطة العمومية وذهبت مس الن الى منزل الأشورية

فلما وصلت ورأت الماجور واترلي نائماً ، وقربه نارجيلة الأفيون ، ظهرت عليها علائم السرور ، ونزعت برقعها وظهرت للاشورية بجمالها وعلائم كبريائها ، فغضت بصرها وشعرت انها لا تستطيع إلا ان تكون خاضعة لهذه الفتاة .

أما مس الن فانها جلست وقالت لها : ماذا حدث ؟

وبقيت الأشورية واقفة احتراماً وقالت : لقد أتيت به منذ الساعة الرابعة بعد أن كاد يفتتن بي وأقسم لي انه يتبعني إلى حيث أريد . فتعشينا وشرب مقداراً كبيراً من الخمر وكثيراً من الأفيون حتى غاب عن الصواب ولكنه استيقظ من الصباح وعاد اليه شيء من صوابه فذكر امرأته وقال مسكينة انها

الآن على أسوأ حال لغيابي .

فأطلعته على كتابها اليه وهو الكتاب الذي تخبره به عن أخيها ومرضه الفجائي واضطرارها الى السفر الى ايكوسيا ثم أخبرته ان امرأته أرسلت هذا الكتاب اليه في الناري فأرسلوه من النادي إلي .

فقرأ الكتاب وتأثر تأثيراً أطار سكرته فأخذت يده بين يدي وقلت له : اذا كانت امرأتك قد سافرت فما تخاف ؟

فرأيت أن جسمه قد تكهرب لنظراتي فناديت خادمتي وأمرتها أن تعد النارجيلة ، وأخرجت من درج حبة من الافيون . فلما رآها أشرق وجهه ونسي كل ما فيه ، وأقبل على أنبوب النارجيلة . فما تركه حتى نام وبات كما ترينه الآن .

فقالت مس الن : لقد أحسنت ولكن يجب إيقاظه بعد ساعة او ساعتين فليدعك صدغيه وأعصابه بهذا الماء .

ثم أعطت الاشورية قنينة فيها سـائل أحمر ، وقالت لها : انك اذا فركت صدغيه بهذا السائل استفاق ويبقى خامل الذهن ، ولكنه يفهم ما تقولين له .

– ماذا تريدين ان أقول له ؟

وقالت لها مس الن بلهجة السيدة الآمرة التي تعودت ان تطاع : إصغي الي تعلمي ما أريد .

- ٤٨ -

قد يعجب القراء من خضوع الاشورية لمس الن على ما مثلت به هذه المرأة من الشهرة والدلال على عشاقها، وتألق أهل الشبيبة من حولها ومن كان في منزلتها

لا يخضع التماساً للمال ولا يرهب علو المقام

غير ان هذه الحسناء ، على وفرة جمـــالها وسلطان دلالها ، كانت مقيدة بماضيها الذي يجهـله جميع سكان لنـدرا ، ما خلا السـير بترس تونن ، ومس الن .

وقد اتفق أن مس الن كانت محتاجة ، لتنفيـذ أغراضها الخفية ، الى امرأة جميلة مدنية تستطيع أن تقودها بلجام ذنوبها الماضية ، وتعهـد اليها اغواء رجل فتطيع . فكاشفت بأمرهـا السير بترس تونن ، فأرشدها الى الاشورية .

وقد كان هذا الاسقف معروفاً بنفوذه ، وانتشار بوليسه السري في سائر أنحاء لندرا فلم تكن تخفاه خافية من كل ما يجري فيها . واذا أراد نكاية أحد من كبار القوم عمد الى الدسائس مستعيناً عليها بما لديه من الاسرار ، فأنزله الى الحضيض

وحكاية هذه الاشورية أنها كانت انكليزية وقد سرقت سرقات كثيرة وهي في الخامسة عشرة من عمرها . وكانت تدعى في ذلك العهد اينا بيتلام وهي اسرائيلية .

وقد حكم عليها بالسجن عشرة أعوام عقاباً على جرائمها العديدة . فساعدها أحد عشاقها على الفرار من السجن .

وبرحت انكلترا وذهبت الى فرنسا ثم الى ايطاليا ، فشفع جمالها بغموض ماضيها وأقامت في دار الغربة عشرة أعوام الى ان وثقت من نسيان أمرها في لندرا فحنت الى الوطن وعادت الى لندرا منذ عام فلقيت من احتفاء الشباب بها ما جعلها في مقام الاميرات .

وبقيت وهذا دأبها الى أن اكتشف بوليس هذا الاسقف أمرها. فلما طلبت اليه مس الن امرأة حسناء مجرمة أرشدها الى الاشورية وحكى لها كل مـا عرفه عن ماضيها .

ففي الليلة نفسها تنكرت مس الن وذهبت الى منزل الاشورية وكان اول ما فاجأتها به انها حيتها باسمها القديم اي اينا بيتلام فاصفر وجهها وعلمت أن امرها قد انفضح ولم تكن الا في غرور .

فاغتنمت مس الن فرصة اضطرابها وقالت لها انك الآن مهددة بالعودة الى السجن الا إذا خدمتني خدمة صادقة في ما أريد وانا لا أطلب اليك ما يستحيل إجراؤه بل أسألك قضاء امر تفعلين مثله في كل ليلة وفوق ذلك أكافئك خير مكافأة .

فرضخت الاشورية لمطالبها وباتت عبدة لها منذ ذلك الحين ، ففعلت كل ما طلبته اليها .

فلما فاجأتها أخيراً ورأت الماجور نائماً كما قدمناه ، قالت لها : إصغي إلي الآن ، فإنك تعلمين الدور الذي يجب أن تمثليه ، حين يصبح الغلام في منزلك .

وقد كنت أمس مترددة في تعيين اليوم الذي يجب فيه الاجراء ، لاني كنت أجهل تأثيرك بالماجور . أما وقد وثقت من حسن هذا التأثير ، فقد حان وقت العمل .

إعلمي الآن ان هذا الماجور حين يستفيق من سكره قد يخطر على باله عزيزان وهما امرأته وولده فإذا صحا تأمري خادمك ان يذهب الى منزل الماجور فيعود منه بهذه الرسالة البرقية المزورة المختومة وهذه الرسالة من امرأته اليه وهي تحتوي على ما يأتي .

« زوجي العزيز

« إن أخي بات آمناً من الخطر وانا سأقيم بين العائلة أربعة ايام وفي اليوم الخامس اكون في لندرا » .

ثم أعطتها الرسالة قائلة : ان الماجور حين يطمئن على امرأته ويعلم انها ستغيب خمسة ايام يعد نفسه سعيداً بالإقامة عندك في هذه المدة .

غير انه يذكر ان هذا اليوم يوم الخميس ، اي يوم الاجازة في مدرسة ابناء المسيح ، وانه تعود ان يذهب بولده الى النزهة في مثل هذا اليوم من كل اسبوع فاذا كان ذكر امامك ، وهو لا بد ان يذكره ، فأظهري شوقك الى رؤية ابنه وعلي الباقي أعلمت ما اريد منك ؟

- نعم .

- ان الغلام يتغدى عندك وفي خلال الغداء اسقي الماجور من قناني الخمر التي جئت بها اليك ، فان فيها مخدراً اذا شربه نام على الاثر ، وعند ذلك تظهرين للغلام هذه الملابس الجميلة التي احضرتها لك ايضاً وتلبسيه اياها بدلاً من ملابسه .

- وفي اية ساعة تريدين ان اذهب ؟

في الساعة الثامنة بعد الظهر فتدخلين به من باب بال مال وتذهبين به ماشية الى ضفاف الغدير فأمر بك ممتطية جواداً واشير اليك اشارة خفية أعين لك فيها المكان المقيم فيه البوليس السري .

فوعدتها الاشورية بالامتثال لرغائبها ، فأرخت مس الن نقابها الكثيف على وجهها وذهبت الى مركبتها فعادت توا الى المنزل .

وكان ابوها قد عاد من النادي فنام وهو يحسب ان ابنته نائمة حسب عادتها فلما وصلت مس الن الى المنزل رأت عند الباب رجلاً ينتظرها ، وهو رجل نحيف الجسم واضعاً على عينيه نظارات زرقاء فأعطاها رسالة وقال لها : انها من السير بترس تونن .

ففضتها وقرأت فيها ما يأتي :

« اني مرسل اليك رجلاً من رجال البوليس السري وهو ثابت الارادة شديد العزيمة فسيقبض على الغلام بمهارة بحيث لا يستلفت اليه الابصار غير انه لما كنا نخشى تيقظ الارلنديين ومراقبتهم لهذا الغلام الذي يعتبرونه سيدهم الاعلى اعطتني ادارة البوليس كثيراً من الجنود السرية يخفرون البوليس الذي سيقبض على

الغلام ويحولون دون هجوم الارلنديون »

فلما اتمت مس الن تلاوة الرسالة ، نظرت الى هــــذا الرجل فأعجبتها سكينته الواضحة وقالت . اتعلم اني قد عينت جائزة قدرها الف جنيه لمن يقبض على الغلام .

اشكرك يا سيدتي ولكني لا اعرفه .

اذهب في الساعة الثامنة بعد الظهر الى الحدائق وقف عند مدخلها من جهة بال مال اظهره لك .

فانحني الرجل مسلماً عليها بملء الاحترام وانصرف .

- ٤٩ -

في هذا اليوم نفسه قبل ان تشرق الشمس وقبل ان يتبدد الضباب المخيم على لندرا كان نور ينبعث من نافذة غرفة في مدرسة ابناء المسيح وأشعته تضطرب من وراء الستائر .

وكانت هذه الغرفة غرفــة امرأة صبية ، هي احدى الغــاسلات في تلك المدرسة .

وكانت المرأة تنقطع عن العمل من حين الى حين وتطل من النافذة فتزيح الستارة وتتطلع الى الشارع .

على انها لم تكن تتوقع دخول احد اليها من الخارج ، فان هذه المدرسة لا يدخل اليها غريب عنها، ولكنها كانت تطل كي تراقب الفجر وتعلم الساعة التي هي فيها فإنها كانت تنظر دنو الساعة السابعة بفارغ الصبر فلما دقت الساعة دق الجرس فبدت على وجه المرأة علائم السرور .

وكان هذا الجرس جرس المدرسة المؤذن باستيقاظ التلامذة ، وهذه المرأة

والدة ابن ارلندا التي أدخلها العبوس الى المدرسة بصفة عاملة كي ترى ابنها كل يوم إذ لم تكن تطيق فراقه .

فبعد أن دق الجرس بعشر دقائق قرع باب غرفة الارلنـدية ودخل ولدها رالف فأكب على عنقها يقطعه تقبيلاً ويقول : ما أطول الليل يا اماه ، فاني لم أرك منذ أمس .

— أسكت ولا تناديني بأمك فأنت تعلم اني في عيونهم مربيتك واذا عرفوا حقيقة أمرنا كان جزاؤنا الشنق .

فرعب رالف وقال : انهم يرجعونني الى سجن الطاحونة أليس كذلك ؟

— نعم يا بني واأسفاه ، وكفى انهم أذنوا لي أن أراك في صباح كل يوم ، ثم ضمته الى صدرها وجعلت تقبله قبـلات حنو لا يدرك حقائق اسرارها غير الامهات وقالت له : أتعلم ان هذا اليوم يوم خميس أي يوم الاجازة المدرسية ؟

— نعم ، وسيـأتي هذا الرجل الذي أدعوه بأبي فيذهب بي إلى النزهة وانه كثير الرأفـة بي ، وهذه المرأة التي أغضب حين اضطر إلى ان أدعوها بامي تقبلني حين تراني وتذرف الدمع السخين فلا يسعني عند ذلك إلا البكاء لأني أفتكر بك .

— كلا يا رالف اني لا أريد أن تبكي بل أريد أن تحب هذه المرأة والآن افتكر يا بني انك ستراني اليوم مرتين .

فصفق الغلام بيديه مسروراً وقال : كيف ذلك ؟

— ذلك لأني أنا أيضاً سأخرج اليـــوم من المدرسة ، فان هذا اليوم من الأعياد ومدير المدرسة يعلم اني كاثوليكية فأذن لي بالذهاب إلى كنيسة سانت جيل مرتين في الأسبوع ، والآن قل لي متى يأتي الماجور واتولي عادة للذهاب بك الى النزهة ؟

— في الساعة العاشرة صباحاً .

— إذن سأذهب الى الكنيسة قبل هذه الساعة ثم لا بد من أن أعود الى المدرسة توا فاقف عند الباب وانتظر خروجك فأراك مرتين .

وهنا دق جرس المدرسة مرة ثانيــة مؤذناً بدخول التلامذة إلى قاعات التدريس فودع رالف امه باكياً وانضم الى التلامذة .

وبعد ذلك بساعة كانت الارلندية داخلة الى كنيسة سانت جيل وكان رجلا واقفاً عند الباب وهو خادم الكنيسة فلما رآها دنا منها وقال لها : ان الأب صموئيل امرني ان انتظرك هنا لأخبرك انه يجب ان يراك .

فقلقت الارلندية لهذه الدعوة ، وافتكرت بابنها وحسبت الف حساب وجعلت تقول في نفسها : ما عسى ان يريد مني الكاهن ، لا شك انه يوجد خطر جديد .

ولما انتهت الصلاة أسرعت الى الكاهن وقالت له : ماذا حدث وأي خطر ينذر ولدي ؟

- انهم يريدون اختطافه من مدرسة أبناء المسيح .

فاصفر وجه الارلندية اصفراراً شديداً وعقد لسانها ، فلم تستطع ان تنطق بحرف .

فقال لها الكاهن لقد وردني أمس من الرجل العبوس هذه الرسالة وهذه هي فاقرأيها .

فتناولتها تلك ام المنكودة بيد تضطرب وقرأت ما يأتي :

« يوجد خطر جديد يتهدد الغلام ولم أعرف حقيقة امره بعد ولكني سأعرفه قريباً وأما الذي علمته الآن فهو انهم يحاولون اختطاف الغلام من مدرسة ابناء المسيح ولذلك يجب الحذر الشديد ، فاذا رأيت أم الغلام قل لها ان تقف في مواقف الحذر » .

فصاحت الارلندية : رباه ما عساهم يفعلون بولدي بعد كل ما فعلوه ؟

فطيب الكاهن خاطرها وقال لها : لا تخشي امراً فان الله يحمينا ، لكن

عودي الآن في الحال الى مدرسة ابناء المسيح فراقبي ولدك كل المراقبة .

– لكن اليوم يوم الإجازة المدرسية وسيحضر الماجور واترلي فيذهب به إلى النزهة حسب عادته كل يوم خميس .

– إذن اجتهدي أن تريه قبل ذهابه وقولي له أن لا يخلع وشاحه الأحمر ولا جراباته الصفراء مهما حدث له ، فإنه ما زال متشحاً بهذه الملابس لا يستطيع أحد أن يقبض عليه .

وغادرته الارلندية وذهبت وهي تفتكر كيف تستطيع أن ترى ولدها قبل ذهابه إلا إذا انتظرته في الطريق .

ولما استقرت على هذا الراي قررت أن تنتظره عند باب المدرسة .

وكان يوجد قرب هذا الباب دكان بائع حلوى فدخلت وجلست في مكان مشرف على الطريق ، وطلبت شراباً وحلوى كي يحق لها الإقامة والانتظار .

ولم يطل انتظارها فإنها رأت بعد حين مركبة وقفت عند باب المدرسة وخرج منها الماجور واترلي ، فأسرعت اليه قبل أن يقرع الباب ، لأنها لا تستطيع محادثة ولدها إلا بواسطة الماجور ، وكان الماجور غائر العينين ، أصفر الوجه مستدلي الشفة كما يكون عادة شرّاب الحشيش والأفيون حين يستيقظون .

وقد حدث كل شيء وفقاً لرغائب مس الن ، فان الماجور واترلي حين استفاق من سكره ، ورأى الأشورية أمامه لم يذكر شيئاً مما مضى وقال : أين أنا ؟

ثم عادت اليه الذكرى وصاح صيحة الوجل ، وذكر إسم إمرأته فأعطته الأشورية ذلك التلغراف المزور ، وعلم منه ان إمرأته في إيكوسيا ، وانها لا تعود إلا بعد اسبوع ، واطمأن باله ونظر نظرة المفتون إلى الأشورية ، وذكر انطلاق حريته بغياب إمرأته ، ولم يعد يذكر غير تلك الحسناء ، حتى أنه

نسي ولده

غير ان الأشورية لم يرق لديها هذا النسان وقالت له : الملك نسيت أيها الحبيب ان اليوم يوم خميس ، أم انك لا تحب أن تذهب بابنك إلى الحدائق ؟

ـ كلا ، ولكن جمالك أنساني كل شيء حتى هذا اليوم .

ـ أما أنا فلا أنساه لأني أحب أن أرى ولدك ، لقد أحببته لأنه إبنك . ثم طوقت عنقه بذراعيها وقالت له : ألا تأذن لي بأن أراه أيها الحبيب وأن يتغدى معنا اليوم على مائدتي ؟

ـ دون شك وها أنا ذاهب الآن لفوري .

ثم قام وهو يتعثر من سكره وأصلح ثيابه وخرج من عند الأشورية إلى مدرسة أبناء المسيح ، وهو لا يزال خامد الذهن لإفراطه في شرب الأفيون ، حتى أنه حين دنت منه الارلندية عند باب المدرسة وحيته ، نظر اليها منذهلاً ولم يعرفها فقال لها : من أنت وماذا تريدين ؟

أما الارلندية فانها اضطربت وقالت له بصوت يتلجلج . إني مرضع ولدك وأحب أن أراه .

وتذكرها الماجور عند ذلك وقال حسناً سترينه حين أخرج به من المدرسة .

فتركها ودخل .

وكانت الارلندية قد رأت هذا الماجور مراراً ولم تعهد به غير الدعة وحلاوة اللسان ، وراعها ما رأته من الانقلاب وخشيت أن يكون ذلك من صنع الذين يريدون اختطاف ولدها .

وبعد نصف ساعة خرج الماجور بالغلام ولما رأى أمه أسرع اليها وأخذ يقبلها ، وكان الماجور ينظر اليها نظرات خامدة ساهية كنظرات شراب الحشيش

أما الارلندية فانها أومت الماجور انها تقبل ولدها وهمست في أذنه قائلة باللغة الارلندية : اوصيك يا ولدي أن لا تخلع هذه الملابس عنك مهما اختلقوا لك من الحجج ، اتعدني بذلك يا بني ؟

- دون شك ، إني لا أخالف لك أمراً .

وعند ذلك أخذ الماجور رالف من يديه وصعد به إلى المركبة وأمر السائق أن يسير .

وسارت المركبة ووقفت الارلندية تشيعها باكية حتى توارت عن الأنظار .

وعند ذلك همت بالدخول إلى المدرسة ففاجأها عبد أسود لم تكن تراه وناداها ، وأجفلت لمنظره وقالت له من أنت وكيف تعرفني ؟

– انا شوكنج يا سيدتي ، لا تدخلي المدرسة بل إتبعيني ولا تخافي لأن الرجل العبوس ساهر على ولدك وأنا آت اليك من قبله .

وعرفته الارلندية من صوته وسارت معه وهي تنظر إلى سواد لونه منذهلة لهذه الاستحالة .

- ٥٠ -

أما الماجور واترلي فانه سار برالف إلى منزل الأشورية ولم يكن الغلام قد أدرك القصد من تحذير أمه أن لا يخلع ملابسه ، غير أنه قرر أن يطيعها ، لقد كان على حداثته وافر العقل ، وعلم أن أمه لم تحذره هذا التحذير عبثاً .

وكان الماجور واترلي قد عوده أن يذهب به كل يوم خميس إلى منزله ، ولما رأى المركبة وقفت عند باب منزل لا يعرفه انكر ذلك وسأله : لماذا اتيت بي إلى هذا المنزل ؟

فانتبه من خموله وقال له : ان أمك سافرت إلى إيكوسيا لبعض

الشؤون وهذا المنزل لقريبة لي تريد أن تراك .

وكانت الأشورية تتنزه عند ذلك في الحديقة وقد أعياها الانتظار، ولما رأت الماجور داخلاً برالف أسرعت إلى الفتى وأخذت تقبله قبلات تدل على الحنو وتكلمه الطف كلام ، ثم صعدت به إلى المنزل وتبعها الماجور ، فجلسوا جميعهم على مائدة وضع عليها أفخر أنواع الطعام فأكلوا وصبت المدام في الكؤوس ، وهي المدام التي أرسلتها مس الن فسكر الماجور وتخدر جسمه بما وضع في الخمر من المواد .

أما رالف فان الأشورية كانت تسقيه من الخمر لاعتقادها انه لا يمانع في تغيير ملابسه فلا فائدة من تخديره .

وكان الغلام قد تعود هذه النزهة الأسبوعية في الحدائق وكان ينتظرها بفارغ الصبر كل يوم خميس ، ولما رأى ان الماجور قد تخدر ونام نظر اليه نظرة الحزين وقال لم يبق سبيل لذهابنا اليوم إلى الحدائق .

فضمته الأشورية إلى صدرها بملء الحنو وقالت : سأذهب بك أنا يا بني .

— أنت يا سيدتي !

— نعم أنا أنظر يا بني من النافذة ألا ترى المركبة معدة ؟

فأطل رالف من النافذة ورأى مركبة جميلة يدهش رواءها الأبصار فقال : أنسير في هذه المركبة ؟

— دون شك ..

وعند ذلك قرعت الاشورية جرساً أمامها ، فأقبلت خادمة ووضعت على المقعد قبعة حمراء وضع عليها ريش أخضر ولباس أزرق وسترة مخملية بلون العناب عليها شرائط جميلة ، وسر الغلام بهذه الملابس وقال لها ما هذا يا سيدتي ؟

— هذه ملابسك الجديدة أعدها لك أبوك كي تخرج بها إلى النزهة فتصبح بها أجمل أقرانك ، أما هي جميلة يا رالف ؟

وتنهد الغلام وقال : لا أنكر انها جميلة يا سيدتي غير اني لا استطيع ان أخلع ملابسي فان امي منعتني .

– ولكن امك مسافرة فكيف رأيتها ؟

واضطرب رالف وقال : لا أريد بها امي تلك ، بل أريد بها مرضعتي لأني اسميها أمي .

إذاً ألا تريد أن تلبس هذه الملابس ؟

– كلا يا سيدتي .

ورأت الأشورية من تصميمه أنه ثابت الارادة وانه يستحيل إغواء إلا بالحيلة وعزمت على إستخدام الشراب الذي احضرته مس الن فصبت في كأسه قليلاً من الخمر من زجاجة كان ينظر اليها رالف وهما على المائدة فلا يجسر ان يطلب الشرب منها ..

وشرب الغلام دون احتراس ، وجعلت الأشورية تلاعبه وتداعبه وهو فرح بها ، معجب بلطفها ولم يمض على ذلك بضع دقائق حتى أثر الشراب فيه تأثيره العجيب ، فإنه لم يشعر بدوار ولم ينم ولم يحدث له شيء من أعراض التخدر ، ولكنه استحال بعد إنقباضه وتحرسه إلى سرور غريب ، وصار ينظر إلى الماجور واترلي وهو نائم على المقعد فيضحك ضحكاً شديداً حتى تسيل دموعه

وكان النبيذ الذي شربه ممزوجاً بمخدر هندي يستخلصه الهنديون من نبات إذا شرب المرء عصيره يفقد الذاكرة إلى حين ، وقد أحضرته مس الن للأشورية كي تسقيه للغلام إذا عاند واصر على عدم تغيير ملابسه ، ففقد رالف ذاكرته فجأة حين شربه ونظر إلى الماجور وضحك عليه ولم يعرفه ثم نظر الى المرأة فأنكر وشاحه وقال : ما أقبح هذه الملابس .

فقالت له الأشورية ولكنك لا تريد أن تغيرها .

– بل أريد فإني لا أطيق النظر اليها

- ولكن ألم تقل لي أن أمك حذرتك من تغيير ملابسك .

وأمعن رالف الفكرة هنيهة عند ذكر امه فلم يخطر في باله شيء ودنا من الأشورية وجعل يقبلها ويقول : أنت هي أمي .

وباتت الأشورية منذ ذلك الحين الحاكمة على الغلام ونادت الخادمة فاسرعت اليها بتلك الملابس الجديدة التي أعدتها لرالف ، ثم جردته من ثيابه القديمة والبسته الثياب الجديدة ، فسر بها سروراً لا يوصف ، وكان سرور الأشورية أشد من سروره فأخذت بيده وقالت : هلم بنا الآن إلى النزهة .

وبعد حين كانت الأشورية والغلام داخلين إلى حدائق هايد بارك من بال مال حيث كانت مس الن قد واعدت البوليس الذي تعهد بالقبض على رالف أن يوافيها إلى هذا المكان .

وقد كان البوليس ومس الن واقفين في المكان المعين ينتظران ، وكانت مس الن ممتطية جواداً ، وكان البوليس متنكراً بملابس الأشراف ، وهي بعيدة عنه قدر عشر خطوات ، وكان كلما مرت مركبة فيها غلام نظر اليها نظر السائل فتشير له إشارة سلبية برأسها إلى ان مرت مركبة الأشورية ودخلت إلى الحدائق وحيت مس الن ، وأسرعت مس الن الى البوليس وقالت : هذا هو الغلام

- حسناً لقد عرفته وسأجمع رجالي فانهم متفرقون .

- لا اظن انك تحتاج اليهم فان الغلام قد شرب مخدراً يحول دون مقاومته وأما الارلنديون فلا أظنهم عالمون بأمرنا ولا خطر علينا منهم .

ثم تركته وأدركت بجوادها مركبة الأشورية وأشارت لها إشارة أوقفت بعدها المركبة ونزلت مع الغلام وأخذت بيده وسارت تتنزه به عند ضفة الغدير ووقفت في مكان معين بينما كانت مس الن واقفة على بعد منها تراقب ما يجري .

وعند ذلك دنا مس الن من الأشورية فقالت له الفتاة : ماذا تريد ؟

– أنا هو الذي تنتظرينه فاتبعيني فاني سأركب معك في مركبتك ونخرج من الحدائق فلا نستلفت الينا الأنظار .

وأمتثلت الأشورية وعادت بالغلام الى المركبة وصعد البوليس السري ، فجلس بجانبها وأمر السائق ان يسير الى حديقة ترافلغار ، وانطلقت المركبة وتبعتها مس الن حتى إذا وصلت إلى تلك الحديقة أوقفها ذلك البوليس السري ذو الشعور البيضاء عند تمثال شارل الأول .

وكان هناك مركبة تنتظر امام منزل البوليس فحمل الغلام بيده ونقله بعنف إلى المركبة الأخرى وامر السائق ان يذهب به الى سجن الطاحونة .

فلما ابتعدت عن الأبصار دنت مس الن من الأشورية فقالت : لقد احسنت الطاعة فستكونين مطمئنة بعد الآن وستنالين الجزاء .

فشكرتها الأشورية وعادت الى الحدائق ، اما مس الن فقد كانت علائم الفرح بادية بين عينيها فقالت : لقد انتصرت الانتصار الأول على الرجل العبوس ولكنه نصر مبين .

– ٥١ –

عرف القراء انه ليست مس الن وحدها التي قبضت على الغلام فقد اشترك معها في ذلك السير بترس تون ، وكانت له اليد الطولى فهو الذي تحصل على الأمر بالقبض عليه ، وهو الذي ارسل ذلك البوليس الحازم الذي قبض على الغلام وهو الذي ارشد مس الن الى الأشورية ، وعلى الجملة فقد كانت ابنة اللورد اشبه بالقائد الذي يضع خطة القتال وكان الأسقف أشبه بقلم الاستعلامات .

وكان الاسقف قد ذهب ايضاً الى الحدائق في الموعد المعين للقبض على

الغلام فانه كان شديد القلق وكان يخشى أن يعترض الارلنديون البوليس فاما يختطفون الغلام أو تهرق الدماء بين الفريقين

غير ان الأمور جرت على غير ما توقع فلما وثقت مس الن من القبض على ابن عمها وسمعت البوليس يأمر السائق ان يذهب به الى سجن الطاحونة عادت يتبعها خادمها الى الحدائق حيث لقيت فيها السير بترس تونن جالساً في مركبته ينتظر معرفة النتيجة على احر من الجمر .

ونزلت عن الجواد واعطته للخادم وصعدت الى مركبة الاسقف فقالت له بلهجة الفائز : كيف ترى ؟

ـ أظن ان الأمر قد انقضى وقد ارسلت كاتم سري الى سجن الطاحونة كي يرى بعينه دخول الفتى الى السجن .

فابتسمت الفتاة ابتسام الساخر وقالت : العلك نسيت يا سيدي الاسقف ان هذا الفتى الذي تشمت به هذه الشماتة هو ابن عمي ؟

فنظر اليها الاسقف نظر الحذر وقال : لا اظن انك تريدين حمايته بعد ذلك ..

ـ بل سأحميه فان لي مآرب لا تعلمها

ثم نظرت في ساعتها وقالت : لقد وعدنا البوليس بجائزة الف جنيه فهل يقبضها من منزلك او من منزلي ؟

ـ من منزلك ..

ولكنه لا يأتي قبل ساعة الى ان تتم إجراآت ادخال الغلام الى السجن فقل لسائق مركبتك ان يذهب بطريق سانت جمس الى منزلي إطالة للزمن فأحدثك بشأن هذا الغلام

وامر الاسقف السائق بما أرادت وعاد الى الاصغاء اليها فقالت : ان ابي اراد التنكيل مراراً بأولئك الارلنديين فما فاز مرة بشيء من مشروعاته ، وان هذا الغلام الذي جعله الارلنديون رئيسهم الاعظم هو ابن عمي ، اي ابن

السير ادمون الذي مات شنقاً في دبلين وضبطت انكلترا ثروته ، امـا غاية ابي فهي ان يضع عنده والدة الفتى ويربي ولدها على كره ارلندا حتى اذا بلغ سن الشباب ازوجني به واسترد ثروة ابيه المضبوطة .

فقال لها الاسقف : ولكن ذلك محال فان الغلام محكوم عليـه ولا يمكن إطلاق سراحه .

ولكنك نسيت ان ابي من اشد اعضاء البرلمان نفوذاً وانـه لا يصعب عليه ان ينال عفو الملكة عن الغلام متى طلب ان يرد اليه

لقد اصبت ولكن اتمتقدين انه قد تأسس على حب بلاده ؟

ـ إننا حين نفرقه عن امه وحين يشنق الرجل العبوس ونأمن شر اولئك الزعانف نربيه على ما نشاء .

فلم يعترضها الاسقف وقال لها : يجب ان نسرح الى منزلك فقـد واعدت كاتم سري على ان يوافيني اليه ليخبرني بما جرى للغلام .

ـ اذاً مر السائق بالاسراع .

وبعد حين كان الاثنان في غرفة مس الن المشرفة على الحـــديقة ، فمرت بهما ساعتـــان ، ثم ثلاث دون ان يعود كاتم سر الاسقف ، فشغل بال الاسقف ، وكذلك مس الن فانها انكرت بطء البوليس في العودة لقبض الجائزة .

وفيا هما على هذا الاضطراب ، قرع باب الحديقة فقام الاسقف لفتحه وتبعته مس الن فوجد الاسقف ان الطارق كان كاتم سره فقـــال له : ماذا حدث ؟

ـ ان مدير السجن ينتظر قدوم الغلام منذ ثلاث ساعات ولكنه لم يحضر إلى الآن وعنده ان الغلام لم يقبض عليه بعد .

فالتفت الأسقف إلى مس الن وقال أيمكن ذلك ؟

ـ ذلك محال فقد حضرت ساعة القبض عليه .

لعل البوليس ذهب به الى سجن نوايت .

— وذلك محـال أيضاً ، فقد سمعته باذني يأمر السائق أن يسير به إلى سجن الطاحونة .

فقال كاتم السر : إذن لا بد أن يكون الأرلنديون ظفروا به واختطفوه فاتقدت عينا الأسقف ببـارق الغضب وخرج من باب الحديقة مهرولاً ، فقالت له مس الن : إلى أين أنت ذاهب ؟

— إلى السجن لأرى ماذا حدث .

ثم ذهب فتبعـه كاتم سره ، وبقيت مس الن وحدها خائفة وجلة وهي تقول : إذا كانوا قد أنقذوه ، فما أنقـذه غير هذا الشيطان المريد الملقب بالرجل العبوس .

- ٥٢ -

وقد اضطرب حواس مس الن في البـــدء ، فجعلت تمشي تحت الاشجار بخطوات غير موزونة وعيناها متقدتان بلهب من النار كاللبوة تدور في محبسها فلا تجد مخرجاً .

وفيما هي على ذلك قرع باب الحديقة أيضاً فأسرعت اليه وفتحته فوجدت أمامها ذلك البوليس الذي قبض على الغلام في الحدائق ، فحياها مبتسماً بملء الاحترام وقال لها أسألك عفواً يا سيـدتي عن تأخري ، فقد اضطررت اليه مكرهاً .

وكانت سكينة هذا الرجل ولهجته الدالة على الفوز قد اطمأنت اليه وقالت له : إذن لم يحدث لك حادث ؟

فتظاهر الرجل بالانذهال وقال لم أفهم ما تريدين .

ـ اني أكلمك عن الغلام .

لقد قبضت عليه وكنت أنت معي في هايد بارك ورأيتني ذهبت به وبالاشورية وقد اقتفيت أثرنا الى ترافلغار كما أظن ورأيتني أخذت الغلام الى مركبة أخرى .

ـ نعم وسمعتك تأمر السائق أن يذهب بكما إلى سجن الطاحونة غير أن كاتم أسرار الاسقف بترس تورين كان في ذلك السجن فلم يرك ولم ير الغلام

ـ لأني لم أذهب بالغلام الى السجن .

ـ كيف .. ألعل الارلنديين أختطفوه ؟

ـ كلا ، وهو لا يزال في قبضة يدي .

ـ إذاً لماذا لم تذهب به الى السجن على الأثر ؟

فابتسم الرجل وقال لها : يوجد لذلك سببان يا سيدتي ، لا يقالان في هذا المكان .

ـ هلم معي الى المنزل ، وتقدمته الى غرفتها المشرفة على الحديقة حتى اذا جلسا فيها أقفلت الباب وقالت له : قل لي الآن ماذا دعاك الى عدم الذهاب به الى السجن .

ـ لأني خشيت أن أمر بشارع الارلنديين فغيرت الطريق وذهبت الى التيمس فوضعت الغلام في سفينة .

ـ أتريد أنك وضعته في إحدى تلك السجون التي يستخدمها البوليس لتكون سجوناً موقتة ؟

ـ بل وضعته في سفينة سترفع مراسيها هذه الليلة وتسافر الى فرنسا .

فذعرت مس الن ذعراً شديداً ونظرت الى هذا الرجل نظر الحيرة دون أن تجيب فلبث الرجل يبتسم وقال لها ببرود هذا هو السبب الاول يا سيدتي أتريدين معرفة السبب الثاني ..

فضربت الأرض برجلها وقالت : كيف لا أريد . تكلم .

ـ ان السبب الثاني يا سيدتي هو انه يجب أن يكون الغلام في أمان .
ـ ألملك اخترت سفينة تبرح انكلترا بعد بضع ساعات .
ـ لقد خدعتك يا سيدتي بما قلته لك فان السفينة قد سافرت بالغلام وأمه.

فصاحت صيحة منكرة وحدث عند ذلك ما يشبه العجائب ، فان هذا الرجل ذا الشعر الابيض سقط شعره فجأة عن رأسه وسقطت أيضاً نظاراته الزرقاء التي كانت تحجب عينيه فوقف أمامها وجعل يضحك ويقول : أما عرفتيني يا مس الن ؟

فرجعت مذعورة الى الوراء وقالت بصوت يتلجلج: من أنت ماذا أرى... الرجل العبوس ؟!

ـ كان يجب ان تعرفيني من قبل . فاعترفي اذك خسرت هذه المعركة أيضاً ، واستعدي للمعارك القادمة ان كان لديك سلاح .

فنظرت اليه نظرة تشف عما داخل فؤادها من العجز والحقد وقالت : أنت .. أنت ..

نعم أنا هو .. وسوف ترينني في كل حين يا مس الن الى ان تحبينني ، ثم تجاسر على الركوع أمامها وأخذ يدها ولثمها وهي ترتجف ارتجاف الحمامة أدركها البازي .

غير ان براكين الانتقام هاجت في صدرها فافلتت منه ووثبت الى المستوقد فأخذت خنجراً كان عليه وهجمت به على الرجل العبوس وهي تقول : اني أكرهك كرهاً لا حد له فحاول العبوس ان يخلو من خنجرها ولكنه أصابه في ساعده فجرحه وأسال دماءه وعندها هجم عليها فقبض على يدها الجميلة المسلحة وقال لها . ان سلاح عينيك أمضى من سلاح يدك ، ثم ضحك وقال : ليس بعد هذا البغض الشديد غير الحب الأكيد .

وعند ذلك جردها بلطف من خنجرها وقال لها الى اللقاء يا سيدتي .

ثم وثب من النافذة الى الحديقة وسقطت مس الن على مقعد واهية القوى وقد اصفر وجهها حتى خشي عليها من الموت .

- ٥٣ -

وإيضاحاً لهذه الحادثة العجيبة التي لم تدرك مس الن غير نتيجتها لا بـد لنا ان نعود الى حيث تركنا شوكنج قد لقي الارلندية والدة رالف عند باب المدرسة فعرفها بنفسه وسألها ان تتبعه

ولم تجد بداً من الامتثال وتبعته فاستوقف مركبة وصعد بهـا اليهـا وامر السائق ان يذهب الى شارع عينه لهفوجف قلب تلك الوالدة المنكودة وقالت له ، لقد بت خائفة على ولدي .

– يحق لك أن تخافي يا سيدتي فإنك ام ، امـا انا فاني مطمئن فان الرجل العبوس وعد بانقاذه من الخطر ومتى وعد وفى لا محالة .

-- رباه ما هذا الخطر الذي ينذره . ثم قالت له ببساطة : وما هذا السواد الذي صبغت به ومن صبغك ؟

. لقد صبغني الرجل العبوس وقاية لي من اعدائي ، واني اخشى ان يبقيني بهذا اللون الى آخر العمر ، ولكن اتعلمين ماذا ادعى الآن .

– شوكنج او اللورد ويلموت

– لا هذا ولا ذاك ، لقد استبدلت اللوردية بالمركيزية ، وانا أدعى الآن دونكر بستوفورو ايكوردوفا ايميندس ريستتـاقي ايبورغورا ، واحمـل من الأوسمة وسام الليل الابيض والنسر الاصفر والافعى الزرقاء ، الا ترين علائم الشرف على صدري إن في هذه الاوسمة والالقاب خـير تعزية يا سيدتي عن لون بياضي .

ولم تتمالك الارلندية عن الابتسام بالرغم عما هي فيه من الاضطراب .

وبعد حين وصلت المركبة الى الشارع الذي عينه فأطلق شوكنج سراحها وذهب بالارلندية الى النهر فأراها سفينة بخارية راسية فيه وقال لها اني ذاهب بك الى هذه السفينة .

فاضطربت الارلندية وقالت : اتريد ان ابرح انكلترا دون ولدي .

- كلا بل ان ولدك سيحضر اليها ايضاً فنسافر كلنا ، إن الرجل العبوس قد وعد ، وهو سيفي دون شك بما وعد .

وضمت الارلندية يديها وقالت . سيان عندي إذا برحت إنكلترا وبرحت وطني ما زال ولدي معي .

ثم ركبت قارباً صغيراً مع شوكنج وذهب الاثنان الى الباخرة فاستقبل ربان السفينة شوكنج بملء الإجلال والاحترام ، وسألت الارلندية شوكنج الى أين تسافر الباخرة .

- لا أعلم فان لدي أوامر مختومة لا يحق لي أن أفتحها إلا في عرض البحر اما الربان فان لديه اوامر بمغادرة التاميز وان يسير في جهة هولندا .

واقامت الإرلندية في تلك الباخرة عرضة للقلق والاضطراب مدة اربع ساعات لشدة إشفاقها على ولدها الى ان رأوا قارباً يدنو من الباخرة ولم يكد يبلغ اليها حتى صاحت الارلندية صيحة فرح فانها رأت رجلاً صعد من القارب الى السفينة يحمل غلاماً وعرفت ان الفتى ولدها ، ولكنها لم تعرف ذلك الرجل فهمس شوكنج في اذنها قائلاً : هذا هو الرجل العبوس .

وكان العبوس قد سقى رالف شراباً ازال تأثير الشراب الذي سقته إياه الاشورية فعادت اليه ذاكرته ودهش حين رأى نفسه مع رجل لا يعرفه .

فقال له العبوس : الم تعرفني يا رالف ؟

- إن لك يا سيدي صوت الرجل العبوس ولكن ؟

- تريد انه ليس لي وجهه فهل انت خائف مني ؟

– كلا فان هيئتك تحمل على الاحترام .

– إذاً اصغ الي يا بني ثم قص عليه جميع مـا جرى له عنـد الاشورية واخبره بالخطر الذي كان محدقاً به .

– ولكن الى اين انت ذاهب بي الآن ؟

– الى باخرة تلقى فيها أمك .

فاطمأن خاطر رالف وكان لقاؤه مع أمه مؤثراً عليه أشد تأثير فتركهما الرجل العبوس يتعانقان ، ونادى الربان وشوكنج وأحد الارلنديين فقال لهم مشيراً بيده إلى جهة الجنوب الغربي: إنكم ستبيتون بعد بضع ساعات بعيدين في عرض البحر عن مرامي المدينة الانكليزية ، وستجدون بين زبد الأمواج صخراً يتعاظم كلما دنوتم منه حتى تروه مدينة عظيمة ، وهي مدينة كاليس اي بدء البلاد الفرنسية حيث يجد ابن إرلندا إخواناً في البلاد التي يستطيع الكاثوليكيون ان يدخلوا فيها آمنين إلى كنائسهم ، إنكم ذاهبون إلى هذه البلاد ..

فصاح شوكنج قائلا · لتحيى فرنسا .

ووجه الرجل العبوس عند ذلك كلامه إلى شوكنج فقال له ، أما أنت فانك لا تذهب الآن إلى كاليس بل تسير مع ركب الباخرة إلى أن تجتاز قصر دوفر ، وهناك تلقى دون شك باخرة البريد فتستوقفها وتعود بهـا فإني محتاج اليك .

وقالت الارلندية : ونحن ألا نعود أبداً إلى بلادنا ؟

– إنكم تعودون متى أزفت ساعة النصر ومتى أصبح ولدك رجلا قادراً أن يقود إخوانه إلى ساحة الحرب .

ثم ودع الارلندية وعانق الغلام وقال لشوكنج وهو نازل من الباخرة : أعط الربان تلك الأوامر المختومة التي أعطيتك إياهـا متى سرتم في عرض البحر فيعلم منها ماذا يجب ان يصنع بالغلام وأمه ، أما أنت فارجع الي حتى

أرجع لك لونك القديم .

فبهت شوكنج وقال . لكن أعدائي يعرفونني فكيف تريد لي القتل .

– ليس لك أعداء غير جوهان وهو سيشنق قريباً ولا يبقى إلا أسفك لخسارة لقب المركيز ولكني أعيد اليك لقبك القديم وهو اللورد ويلموت ، فاطمئن في الحالين

– ليكن ما تريد يا سيدي والآن أية مهمة بقيت علينا ؟

. بقي علينا مهمات اخبرك بواحدة منها وهي انه يجب ان نشنق مس فانوش فانها تستحق الشنق .

ثم ودعه ونزل إلى قارب سار به إلى الشاطىء .

وعند ذلك صفرت السفينة وأقلعت تشق أمواج التيمس السوداء .

ولبث الرجل العبوس واقفاً ينظر اليها حتى اختفت وراء الأحواض.

فابتسم وقال : لقد بات ابن إرلندا الآن في أمان يا مس الن وقد كان كرهك لي عظيماً وسيكون حبك أعظم .

– ٥٤ –

كان الرجل العبوس قد أتى إلى منزل مس الن بعد سفر الباخرة بالغلام وامه ويذكر القراء ما جرى بينه وبين تلك الفتاة وكيف انه وثب من نافذة غرفتها إلى الحديقة .

وقد خرج من باب تلك الحديقة فألفى الجو مقتماً وقد بدأت عجائب الضباب تظهر في سماء لندرا .

ولهذا الضباب تأثير في تلك العاصمة فإنه يبدأ من الفجر الى الساعة العاشرة فتبدده الشمس ، حتى إذا حانت الساعة الرابعة بعد الظهر عاد إلى ما كان

عليه ، وذلك في اغلب أيام الشتاء ، فيسود وجه السماء ، وتظلم تلك العاصمة حتى لا يهتدي المارة إلى سبيلهم ، وتنار المنازل والمخــازن والطرق ويقف البوليس وبأيديه المشاعل كي يهدي من يضل سبيله من المارة وحتى لا يتمطل سير المركبات فتدخل جيادها إلى الاصطبلات إلى أن ينقشع الضباب .

وقد كان الضباب في بدئه حين خرج الرجــل العبوس هــارباً من منزل مس الن فلقي مركبة واقفة فصعد اليها ، وسار به السائق شوطاً بعيداً حتى إذا استفحل أمر الضباب واشتد حلك الظلام أوقف السائق مركبة وقــال للرجل العبوس أسألك العفو يا سيدي فاني لا أستطيع المسير .

. لا بأس فاني أسير ماشياً .

ثم نقده أجرته وتطلع إلى ما حوله وعلم انه بات في شارع بعيد عن منزل مس الن بحيث لم يعد يخشى ان يدركه لاحقوه

وعند ذلك ذهب وهو يخترق الضباب دون تردد إلى شارع سانت جيــل وتطلع إلى منزل هناك فرأى في إحدى نوافذه مصباحاً ، وهي علامــة متفق عليها دون شك ، فوضع إصبعه في فمه وصفر فأريل النور من موضعه في الحال ونزل رجل إلى الباب الخارجي فقال : من الطارق ؟

هو الذي تنتظره .

ففتح الباب ودخل العبوس .

وكان هذا الرجل باردل ، رئيس حراس سجن الطاحونة ، الذي كانت له اليد الطولى في إنقاذ رالف كما تقدم في الرواية السابقة .

فقال له الرجل العبوس : أنت هنا منذ عهد طويل ؟

ــ كلا فقد برحت السجن منذ ربع ساعة .

ــ ماذا حدث ؟

ــ حدث ما كنا نتوقعه فإن حاكم السجن مل الانتظار ولكن ثقته كانت قوية بالبوليس سيمونز الذي أرسله للقبض على الغلام .

فضحك الرجل العبوس وقال : أنا هو سيمونز .

فعجب باردل وقال : كيف ذلك ؟

– إن سيمونز من جمعيتنا وهو في خدمة البوليس الانكليزي منذ عهد طويل فلما عهد اليه مدير البوليس الأكبر القبض على الغلام أخبرني بما جرى وتوليت عنه قضاء هذه المهمة والغريب أنهم عهدوا اليه أيضاً القبض على الرجل العبوس .

فقهقه باردل ضاحكاً وقال : ماذا يكون مصيره بعد هذه الخدعة ؟

– لا خوف عليه فقد دبرت أمره خير تدبير والآن أخبرني عما رأيته من حاكم السجن .

– لقد قلت لك إنه سئم الانتظار ولكنه لم يقنط خلافاً للكاهن الذي أرسله الأسقف بترس تون ، فإنه أيقن ان في الأمر سراً فأسرع إلى اخبار سيده .

– وماذا فعل الأسقف ؟

– إنه أسرع إلى السجن ، وهو يرغي ويزبد ، فطمأنه الحاكم بقوله ان ثقته شديدة بالبوليس سيمونز ، وانه إذا لم يعد بالغلام تواً الى السجن ، فما ذلك الا لأنه يخشى هجوم الارلنديين عليه ، فهو يترقب فرصة موافقة للحضور به .

– هو قال ذلك وماذا أجاب الأسقف ؟

– انه عول على الانتظار وهو الآن في سجن الطاحونة .

– اذاً هلموا بنا الى ناحية السجن ، وقد خطر لي خاطر جميل سأنفذه بفضل الضباب .

– ماذا عزمت ان تفعل ؟

– سوف ترى .

ثم تأبط ذراعه وخرج به يخترق ظلمة الضباب حتى وصلا الى الحارة المجاورة

للسجن فدخل العبوس به اليها وقال : اني أريد أن اكتب رسالة اعهد اليك بايصالها الى السجن . ثم نزع ورقة من دفتر وكتب عليها ما يأتي :

« ان الغلام في قبضتي فلا خوف عليه ولكن يستحيل احضاره الى السجن فإن الارلنديون يرودون حوله وهم على أتم التأهب . »

« سيمونز »

وبعد ان اتم كتابتها دفعها الى باردل وقال له : اذهب بها الى مدير السجن وقل له ان أحد الشيالين جاء بها .

فامتثل باردل وانصرف فناداه الرجل العبوس قبل أن يبتعد وقال له : اذا اتفق ان الأسقف خرج من السجن وهو محال فاختلق حجة للخروج من السجن واسرع الي واخبرني .

وعاد العبوس الى الخمارة وطلب كأساً من الشراب وكانت الخمارة خالية لا يوجد فيها غير شخص واحد من ساقة المركبات كان واقفاً يشرب فيحدث صاحب الخمارة ويشكو له شقاءه في مهنته ولاسيا في أيام الشتاء فيقول . ان هذا الضباب قد ضيق علينا سبل الرزق فاني اضطر الى دفع أجرة المركبة ١٠ شلنات لصاحبها واضطر الى نفقات علف الجواد ، ثم أكره على الإقامة في الخمارة بسبب هذا الضباب الثقيل .

وكان صاحب الخمارة يعزيه فيقول : ان هذا الضباب سوف ينقشع .

فأجابه السائق متأوهاً : ولكنه ينقشع بعد انقشاع الزبائن .

وكان العبوس مصغياً الى الحديث ، فنادى السائق وسأله أن يشرب معه كأساً فعد السائق ذلك نعمة وتنازل لأن ملابس العبوس كانت تدل على أنه من الأعيان .

ولما جلس على مائدته قال له العبوس : يبدو انك غير مسرور .

— كيف يأتيني السرور وانا مضطر أن أدفع غداً ثمانية عشر شلناً لصاحب العربة ولم اشتغل كل يومي إلا بشلنين .

- اني عارض عليك أمراً يكون فيه اصلاح حالك فخذ اول هذا الجنيه كي تطمئن نفسك ، ثم اعلم اني قد عقدت رهاناً غريباً وهو أن اتنكر بزي سائق مركبة وأقودها في هذا الضباب الكثيف الى همبستـاد دون ان اضل الطريق مرة .

فقال له السائق : ان هذا محال يا سيدي فإن السواق انفسهم لا يهتدون .

فأجابه ببرود عرف به الانكليز : اذاً اخسر الرهان ولكن اسمع الآن ما اقترحه عليك اني سأدفع الىصاحب هذه الحانة مائة جنيه رهناً على مركبتك وجوادك فأين هما الآن ؟

- بجوار الخمارة .

حسناً وسأعطيك أنت عشرة جنيهات مقابل ثوبك وقبعتك .

- هذا فوق الزيادة وقد رضيت بهذا الاقتراح .

وعند ذاك فتح باب الخمارة ودخل باردل فدنا من الرجلالعبوس وقال له باللغة الارلندية الاصطلاحية : ان الأسقف لا يزال في السجن وقد سر من تلاوة الرسالة ولكنه سيبرح السجن الآن . فقد قال للحاكم أنه غادر في منزله امرأة مقيمة وحدها ووعده أن يعود في الغد .

فقال له الرجل العبوس : الم يطلب مركبة يعود بها إلى المنزل ؟

- نعم وقد أرسلني لهذا الغرض ، ولكني غير واثق من إيجـاد مركبة فإن الضباب شديد .

- إنتظرني خارج السجن ولا تبحث عن المركبة فسأتولى أنا البحث عنها .

فامتثل باردل وأخرج الرجل العبوس محفظة من جيبه وأخذ منها أوراقاً قيمتها ماية جنيه دفعها لصاحب الحانة وقال له إذا لم أرجع ظهر غد المركبة والجواد لهذا السائق تدفع له هذا المال .

ثم دفع عشرة جنيهات للسائق وقال : هات الآن ثوبك وقبعتك .

فخلع السائق ثوبه وقبعته وهو يعجب لغرابة أطوار هذا الرجل فلبسها

المحبوس وذهب مع السائق حيث كانت المركبة فاستلمها منه وعاد إلى باردل فقال له : إذهب الآن إلى السجن وقل للأسقف إنك أحضرت له المركبة وانها واقفة عند الباب .

- ٥٥ -

وكان الأسقف قد اطمأن قلبه لرسالة البوليس ، فإن السبب الذي اختلقه الرجل المحبوس فيها ، وهو خوفه من الارلنديين كان سبباً معقولاً لم يدع للأسقف أقل مجال للشك .

وكان ذلك رأي حاكم السجن أيضاً فلما أنس الأسقف بموافقة الحاكم قال : لم يبق لدي الآن عمل هنا .

فقال له الحاكم : ولكن كيف تذهب يا سيدي ؟

فعجب الأسقف لقوله لأنه اتى الى السجن قبل انتشار الضباب ، اي قبل أن ينقطع سير المركبات ، وكان باردل يسمع الحديث فأخبره بالضباب وبتعذر إيجاد المركبات فأمره أن يبحث عن مركبة فخرج باردل مسروراً لأنه وجد فرصة لمقابلة الرجل المحبوس .

وقد عرف القراء ما جرى في الخمارة وبعد عشر دقائق خرج الأسقف من السجن وركب تلك المركبة التي كان يقودها الرجل المحبوس وأمره أن يذهب به إلى منزل في شارع كرسنت فدفع المحبوس الجياد وانطلقت العربة تسير في ذلك الظلام الدامس ، وكان مسرور الأسقف عظيماً بفوزه فلم ينتبه للطريق التي كانت تسير فيها العربة ، لاسيما وان الظلام كان حالكاً وشوارع لندرا كلها متشابهة ، غير انه انتبه بعد ربع ساعة حين وصلت العربة إلى ساحة كثرت فيها الأنوار فنادى السائق وقال له ألا ترى إنك مخطىء فاني أظن أننا في

ليستر وهي الجهة المناقضة لجهة منزلي ؟

فقال العبوس : كلا يا سيدي فاني لم أخطء فاننا في سيسكس .

إذا كان ذلك فواصل السير .

واجتازت العربة تلك الساحة المنورة وعادت إلى الظلام وجعل الرجل العبوس يسير بها في الشوارع الضيقة إلى أن أوقفها عند خمارة فأنكر الأسقف وقوفه وسأله عن السبب فقال : إني أريد شراء شمعتين .

ثم نزل من العربة ودخل إلى تلك الخمارة .

وبعد هنيهة عاد منها إلى كرسيه فلم ينتبه الأسقف إلى ان رجلين قد خرجا معه وتعلقا بين دواليب العربة .

ثم استأنفت العربة السير إلى ان وقفت ايضاً فأطل منها الأسقف ورأى انها وسط سهل فأنكر وقوفها في هذا المكان ونادى السائق مغضباً وقال : إلى أين أنت ذاهب بي ؟

– لقد وصلنا يا سيدي

ويحك كيف وصلنا .

ثم فتح باب العربة ووثب منها الى الأرض فاشتد خوفه إذ رأى بقربه رجلين ونظر الى ما حواليه فلم يجد اثراً للمنازل وسمع صوت اضطراب الأمواج فأيقن انه عند جسر من جسور لندرا وقال للسائق ألم أقل لك ايها الرجل انك ضللت الطريق ؟

فقهقه العبوس ضاحكاً ثم قال : كلا يا سيدي وسوف ترى اني لم أخطىء .

ثم وضع اصبعه في فمه وصفر فأسرع في الحال قارب في النهر الى الدنو من الشاطىء .

وعند ذلك دنا العبوس من الأسقف وقال : إنني اعترف يا سيدي بأني حدت بك عن الطريق ولكني لم أفعل ذلك إلا في سبيل خدمتك فقد علمت انك تريد ان ترى رجلاً طالما تحدث الناس به وقالوا إنك تريد أن تشنقه

فاضطرب الأسقف لهذا الكلمات وتراجع منذعراً ، أما العبوس فانه قال ضاحكاً : اتشرف يا سيدي بأن أقدم لك الرجل العبوس الذي طالما بحثت عنه وها هو في حضرتك بزي سواق المركبات .

فأن الأسقف أنين الموجع وحاول أن يرجع ويهرب ، لكن الرجلين حالا دون فراره ووضعا ايديهما على كتفه فقال له الرجل العبوس إنك الآن أسيرنا يا حضرة الاسقف .

وكان القارب قد وصل في هذا الحين الى الشاطىء فعلم هذا الاسقف انه بات في قبضة العبوس ونظر نظراً تائهاً الى ما حوله فلم ير غير أعدائه فقال في نفسه : اني لو قبضت على هذا الرجل لعاملته دون اشفاق وهو سيعاملني دون شك بما أضمرته له من الشر . فكان رعبه شديداً .

اما الرجل العبوس فانه قال بلهجة المتهكم : اسأل يا مولاي المعذرة فاني مضطر ان اتخذ معه بعض الوسائل . ثم أخذ حبلاً من الحرير فعقده على عنقه وقيد يديه ، فما شكك انهم سيخنقونه ، ثم قيدوا ايضاً رجليه وانزلوه الى القارب . فقال الاسقف في نفسه : إنهم لو ارادوا قتلي لخنقوني والقوني في النهر ولكنهم يريدون سجني لا محالة لغرض خفي .

وعند ذلك أمر العبوس أحد الرجلين أن يعود بالعربة الى صاحبها ثم أمر أحد النوتية ان يسير بالقارب وقال للأسقف : انه لا بد ان يكون في جيبك يا سيدي أوامر خطيرة قد ينفعني الاستيلاء عليها .

ثم أمر احد النوتية أن يفتش جيوبه وجرد خنجره وتهدد به الاسقف بالقتل إذا استغاث ، وبعد حين أخرج النوتي محفظة من جيب الاسقف ودفعها للرجل العبوس فأخذها وقال : سنفحصها متى وصلنا .

٥٦

وكان النوتية أنفسهم لا يعلمون الى أين يسيرون بالاسير الى ان همس الرجل العبوس في أذن أحدهم فأرشده الى الطريق .

ولا بد ان يكون قد أشكل على القراء كيف ان الرجل العبوس قد ظفر بهؤلاء الاعوان ، ولم يكن متأهباً من قبل للقبض على الاسقف وبياناً لذلك نقول :

ان العبوس كان مقتصراً منذ عرف الاب صموئيل على مساعدة بعض الاعوان كشوكنج وغيره من الارلنديين ، ولكنه كان يعلم انه يوجد في لندرا مئتا الف من الارلنديين موزعين في كل أنحائها وانهم جميعهم يخضعون لمن يظهر لهم الاشائر الارلندية السرية

فلما كان سائراً بالاسقف في العربة ووصل الى الخمارة أوقفها بحجة حاجته الى شراء شمع ، وكان يعلم انه لا بد من وجود ارلنديين في تلك الخمارة ، فدخل اليها ولم ينتبه اليه أحد حين دخوله ، غير انه طلب كأس شراب بلهجة ارلندية محضة ، ورأى ان بعض الانظار قد تحولت اليه فرسم علامة الصليب بالرمز الاصطلاحي ، فأجابه بعض الحضور برسم مثلها ، فأظهر الإشارة الدالة على رئاسته ، فدنا عند ذلك اثنان منه وقالا له : مر أيها السيد بما تريد ، فقال لهما باللهجة الارلندية الاصطلاحية اني محتاج الى رجلين شديدين فماذا تدعى أنت ؟

فأجابه المسؤول : هاريس .

– وأنت ، مشيراً الى الاخر .

مشيل .

– إذاً أخرجا معي تجدا مركبة أنا أسوقها فاختبئا بين دواليبها من الوراء واعلما اني في هذه المركبة الد أعداء ارلندا .

أما وجود القارب في النهر وإسراعه الى إجابه الرجل العبوس حين صفر ان العبوس كان يقيم في هذا القارب كل ليلة مع اثنين من الارلنديين منذ جعل يسير الى منزل مس الن من ذلك النفق السري الذي تقدم لنا وصفه فكان هذان الرجلان ينتظران قدوم الرجل العبوس كل ليلة تحت الجسر ولا يبرحان موقفهما .

وكان القبض على الاسقف قد جال فجأة في خاطره فلم يعين المكان الذي يجب ان يسجنه فيه ، ولكنه خطر له والقارب يسير أن يسجنه مؤقتاً في عنبر إحدى تلك السفن الضخمة التي ينقلون عليها الخيول من التيمس الى الخارج .

ولما وصل القارب اليها التفت الى هاريس وقال له : أني معهد اليك الان بمهمة خطيرة وهي حراسة هذا الرجل فانه اشد ايذاء للارلنديين من البرلمان نفسه فاصعد الان به الى السفينة .

فصعد به وامر العبوس أن ينزل به الى العنبر ، ففعل وكان الظلام حالكاً فأنار العبوس شمعته فاستنار المكان ونظر الاسقف ذلك الرجل فانطبع رسمه في ذهنه وقال في نفسه : اني سأنتقم اذا قدرت لي النجاة انتقاماً هائلاً واعذبه عذاباً لا تذكر معه فظاعة الاقدمين .

وعند ذلك طاف العبوس بشمعته فاستوثق من أنه لا يوجد منفذ في عنبر السفينة ، فألقى الاسقف على قفاه وربط منديلاً على فمه كي يمنعه من الاستغاثة ثم صعد مع الارلندي الى ظهر السفينة بعد أن اقفل باب العنبر وقال له : يجب ان تبقى هنا لحراسة هذا الرجل الى أن أعود وسأرسل اليك الطعام بعد ساعة فاحذر أن تغادر السفينة وأنا أوصيك بالحرص على الاسير باسم ارلندا ثم يجب الاحتياط لكل أمر فان من عادة بعض المتشردين ان يناموا في أمثال هذه السفن فاحذر أن تدع أحداً منهم يدخل .

فقال هاريس : ولكن قد يتفق ايضاً ان يمر البوليس البحري لمراقبة

أولئك اللصوص المتشردين في تلك السفن فاذا ارادوا الصعود الى هذه السفينة فماذا أصنع ؟

– إذا رأيت البوليس دنا من السفينة بغية الصعود اليها فاخنق الرجل المسجون بالعنبر .

– حسناً سأفعل كل ما قلته

فتركه الرجل العبوس وعاد الى البر مع أحد الارلنديين فنظر في ساعته فاذا الساعة العاشرة فقال في نفسه : ان الباخرة التي سافرت بالغلام وامه وشوكنج اقلعت من التيمس في الساعة الثالثة بعد الظهر فيقتضي لها اربع ساعات كي تخرج من التيمس فتلاقي بعد ساعة باخرة البريد فيوقفها شوكنج ويبلغ بها الشاطيء في الساعة التاسعة .

ويركب القطار القادم الى لندرا ويعود اليها في فالافيه في هذه الليلة في الساعة الحادية عشر .

وعند ذلك ذهب مع الارلندي فاشترى طعاماً وارسله معه الى هاريس وذهب تواً الى المحطة كي ينتظر شوكنج .

فلما وصل القطار كان شوكنج أول النازلين منه فاستقبله العبوس وقال له أاعطيت تعليماتي للربان ؟

– نعم ..

– لقد إطمأن بالي الان على الغلام وامه ، فلننظر الان في شأن مسز فانوش .

– ماذا يجب ان نصنع بها ؟

– نقبض عليها بموجب أمر يقضي بالقبض على هذه المرأة موقع عليه من ناظر العدلية غير اني مضطر الى تغيير زيي ، وانت جائع دون شك فادخل الى هذا المطعم وانتظرني فيه وحذار ان تفرط بالشراب .

– وانت الى اين ذاهب يا سيدي ؟

ان لي غرفة في كل شارع وغرفتي في هذا الشارع على قيد خطوتين من المطعم .

ثم افترقا فدخل شوكنج الى المطعم وبعد ربع ساعة عاد اليه العبوس وهو بثياب الشرطة فخرج به الى عربة وامر السائق ان يذهب به الى منزل السير بترس تون فاضطرب شوكنج وقال : كيف نذهب الى هذا الرجل ؟

فابتسم العبوس قائلاً ذلك لانه ليس في منزله

- ٥٧ -

يذكر القراء ان مسز فانوش اعترفت بجميع جرائمها لرئيس الشرطة وان مس الن دفعت ضمانة مالية فبقيت في منزل الاسقف .

ولما انصرف رئيس الشرطة قال لها بترس تون : ان تهمتك خطيرة جداً ، ولا بد من محاكمتك بعد اسبوع وليس بعد المحاكمة غير الحكم بالإعدام ولكني سأسهل لك سبل الفرار الى البلاد الاميركية قبل محاكمتك فابقي في منزلي مع خادم غرفتي الى ان اعود .

ثم تركها وذهب الى الحدائق فمنزل اللورد بالمير فسجن الطاحون الى ان وقع اسيراً في قبضة العبوس فسجنه في عنبر السفينة كما قدمناه .

اما العبوس فانه ذهب مع شوكنج الى منزل الاسقف وكان متنكراً بثياب الشرطة ولديه محفظة اوراق الاسقف وهي تحتوي على أموال كثيرة وبينها الامر بالقبض على فانوش فلما وصل اليه استقبله الخادم فأخبره انه آت من قبل الاسقف للقبض على المرأة باسم الشرع .

فسأله الخادم إذا كان يحمل رسالة من الاسقف .

فقال له : بل أتيتك بخير من الرسالة فانه اعطاني محفظة اوراقه المالية

وفيها نحو خمسة آلاف جنيه وأمرني ان أدفعها اليك فتكون خير علامة .

فأخذ الخادم المحفظة فعلم انها لسيده وعد ما فيها من الأوراق فوثق أن القبض على فانوش كان يرضي مولاه فلم يعترض وأدخل الرجل العبوس وشوكنج إلى غرفة فانوش .

أما فانوش فإنها حين علمت حقيقة مصيرها تمكن منهـــا اليأس فسقطت مغمياً عليها ، فأمر الرجل العبوس شوكنج أن يحملها وخرجا بها إلى مركبة فسارت بهما إلى منزل قاضي التحقيق . وهنــــاك خرج العبوس من المركبة ودخل الى منزل القاضي ، فسأله باسم الأسقف ان يعيـــد اليه أوراق التحقيق في قضية مسز فانوش ' كي يرسلهـــا الى سجن نوايت حذراً من فرارها . فدفعها اليه وعــاد بها إلى المركبة وأمر ســائقها أن يذهب إلى سجن نوايت .

وكانت فانوش لا تزال مغمياً عليها ولكنها استفاقت في الطريق وذعرت وقالت : أين أنا ؟

فضحك الرجل العبوس وقال : إنــك أيتها العزيزة ، بين بوليســين ، يذهبــان بك الى سجن نوايــت ، ولا تخرجــين منه إلا يوم تنفيــذ الاعـــدام .

فارتعشت فانوس وقالت رباه إني سمعت هذا الصوت من قبل .

فعاد العبوس الى الضحك وقال لها إن هــذا المصير يعلمك عاقبة خيانــة الرجل العبوس .

فصاحت فانوش صيحة منكرة حين علمت انها باتت في قبضة هذا الداهية وعادت إلى الاغماء .

وبعد هنيهة أقفلت أبواب ذلك السجن الرهيب على تلك المرأة التي لم ترحم الأطفال فلم يرحمها القضاء .

وعاد الرجــل العبوس إلى المركبــة ، فقال له شــوكنج : إلى أين

نذهب الآن ؟

- إلى همبستاد فقد حان لي ان أفي بما وعدتك به الآن ، وان أرد لك لونك القديم .

فسر شوكنج وسارت بهما المركبة فقال له شوكنج وهما على الطريق: إنك يا سيدي قد أنقذت الغلام وأمه وأرسلتهما الى باريس ، فبت في مأمن عليهما ولكن أنت ؟

فابتسم العبوس وقال : أما أنا فإن مهمتي لم تنتهي بعد ولا يحق لي ان أبرح ارلندا فان الارلنديين ينتظرون ان يبلغ زعيمهم الأكبر مبلغ الشباب فيقودهم الى النصر. ولكن هذا الجيش السري يحتاج الآن إلى قائد حازم نشيط ورجل نبيل يدبر هذه المؤامرة التي اكتنفت انكلترا بأسرها وان الأب حموئيل يحتاج إلى شخص مثلي .

فهز شوكنج رأسه وقال: كل ذلك رائع ولكن يوجد عدوان شديدان عولا على إهلاكك وهما السير بترس تون ومس الن .

- أما الأول فلا أخشاه وأما الثانية فسأخافها إلى ان تحبني .

- ألا تزال طامعاً بقلب الفتاة ؟

- نعم .

وقد قال هذا القول بلهجة الواثق غير ان شوكنج لم يثق بفوزه وقال لهبعد سكوت قصير . إني أعجب كيف تميل إلى غرام هذه الفتاة وهي ليس لها من الانسانية غير ظواهرها .

- ولكنها تصبح يوم تحبني عبـدة لي ، فأستخدمها كما أشاء لخدمـة الارلنديين .

فهز شوكنج رأسه أيضاً وقال لا أنكر عليك عنادك فانك من النوابغ ولكل نابغة هوس .

ووصل الاثنان الى همبستاد وكان الفجر أوشك ان ينبثق، فركب العبوس

مزيجاً ودفعه لشوكنج وقال له : اطل بهذا المزيج ما اسود من جسمك وادخل الى الحمام واغتسل يذهب عنك السواد .

وبينما كان شوكنج في الحمام كان العبوس في غرفة يغير زيه وقد خلع عنه لباس البوليس وانتزع شعوره البيضاء وأزال آثار الغضون والتجعيد عن وجهه فأصبح شاباً جميلاً تشوق رؤيته الأبصار ثم ودع شوكنج وقال إني ذاهب لأعد سجناً موافقاً لحضرة الأسقف يليق بمقامه .

وخرج من المنزل وعـاد إلى لندرا وأعد ذلك السجن ، ثم ذهب إلى شاطىء التميس وصفر فأسرع قارب إلى الشاطىء وفيه ذلك الارلندي .

فقال له العبوس الملك فعلت ما أوصيتك به ؟

– نعم إني أخذت الزاد إلى هاريس .

– وكيف حال الأسير ؟

– إنه لا يزال مسجوناً في العنبر .

– إذاً سر بي اليه إني أحب ان أراه

فدفع الارلندي إلى المكان التي كانت السفينة راسية فيه حتى اذا وصل اليه صاح العبوس صيحة دهش وحذر لأنه لم يجد أثراً للسفينة وقد اختفت فاختفى معها الأسقف دون شك .

– ٥٨

ولا بد لنا لمعرفة السبب في اختفاء السفينة مع الأسقف ، أن نرجع بضع ساعات قبل وصول الرجل العبوس إلى خمارة قرب الشاطىء التي كانت راسية عنده السفينة .

كان في هذه الخمارة طائفة من الطبقة السفلى يعاقرون المدام وقد انتصف

الليل ، فخفت منهم العقول وتثاقلت الأجسام وإن بينهم ثلاثة يشربون على مهل وحذر ، خلافاً لسائر الحضور ، وقد انفردوا حول المائدة وجعلوا يشربون ويتباحثون

وبينما هم كذلك دخل عليهم رجل دلت ملابسه على الفقر المدقع ، وهو نيقولا الذي عرف القراء عنه انه كان شريك جوهان في التربص للرجل العبوس بغية القبض عليه ونيل الجائزة ، فجلس بينهم وسألهم ان يطلبوا له كأس شراب لحسابهم .

فقال له أحدهم : أرى إنك أصبحت فارغ الوطاب باد الانقاض.

– بل إني بت ليلة أمس على الطوى ولم يتيسر لي الاحتيال على الطعام فأنا أحتال على الشراب .

– كيف ذلك العلك تركت العمل في الأحواض ؟

- لقد مللت هذه المهنة الشاقة ، ويئست من رزقها الضيق فما ضيقت إلا على نفسي .

- أتريد أن تشترك معنا في مهمة ، يضمن لك فيها الطعام والشراب أسبوعاً . ثم يكون لك بعد ذلك خمسون شلناً ، تنفقها على ما تريد من أغراضك .

– ما هي هذه المهمة ؟

– هي ان المستر مانتاج تاجر الخيل الشهير عهد الينا بارسال بعض جياد إلى بولونيا بطريق التميس ونحن في حاجة الى رابع .

– إذاً سأكون رابعكم فقد تعودت خوض البحار .

وأقام الأربعة في تلك الخمارة إلى الساعة الأولى بعد نصف الليل ثم ذهبوا جميعهم الى تلك السفينة التي كان الأسقف سجيناً فيها .

وكان هاريس لا يزال فيها يحرس الأسقف. فلما تقادم الليل اضطجع وهو بملابسه فوق باب العنبر .

واستيقظ حين سمع أصوات الأربعة ، وصعد الى ظهر السفينة ، فأدرك لفوره انه لا يستطيع لقاء أربعة ،وانه لا سبيل معهم إلا بالحيلة فقال لهم بلهجة مستاء : ماذا تريدون ؟

فأجابه زعيمهم إننا نريد ان نستخدمك ، ولا أخالك ترفض خمسين شلناً

- إن ذلك يتعلق بالمهمة التي تعهدون بها إلي .

فقال له الزعيم : ماذا تعمل في هذه السفينة ؟

- وأنتم ما تريدون بالقدوم اليها ؟

قال الزعيم : أتشرف بإخبارك اني ربان هذه السفينة التي شرفتها الليلة بزيارتك .

- إذاً ، أسألك المعذرة يا سيدي ، فإني لم أجد محلاً أبيت فيه ، فأويت اليها .

لا بأس ولكني أخبرك الآن بين أمرين، وهما إما ان تغادر السفينة فتتم بقية ليلتك في غير هذا المكان ، أو تسافر معنا إلى حيث نحن مسافرون ان كنت تعرف مهنة البحرية .

- أما هذه المهنة فاني من أكفائها فقد اشتغلت فيها عشرة أعوام بوظيفة مرشد للسفن .

- إذاً نعهد اليك بالدفة .

فسر هاريس لذلك إذ خطر له خاطر سريع ، وذلك ان الاسقف لا يفوه بحرف حين يشعر بسفر السفينة ، لاعتقاده ان جميع من فيها من الارلنديين فاذا سارت السفينة وكانت دفعها بيدي دفعتها الى الصخور فتحطمت وغرق الاسقف لانه مقيد اليدين والرجلين أما أنا فأسلم لاني أجيد السباحة . واما غرق الاسقف فهو جل ما يتمناه رئيسنا فأكون قد أقمت بما تعهدت به لاني لا أستطيع لقاء أربعة .

ولما خطر له هذا الخاطر رضي ان يسافر مع الجماعة ، فصعدوا جميعهم الى السفينة ورفعوا الصواري وأعدوا القلوع ، وأقاموا ينتظرون ورود الجياد الى أن وردت الساعة الخامسة ، فأصعدوها إلى السفينة وأقلعت من مرساها تشق عباب التميس .

ولما سارت السفينة وفرغ نيقولا من مهمته وهي نقل الجياد ، وحاول أن ينام . وخطر له النوم في العنبر اتقاء للبرد . ففتح بابه ونزل اليه وهو في ظلام دامس .

ولم يكد يستقر فيه حتى سمع أنيناً ضعيفاً ، فأخذ علبة كبريت من جيبه وأثار أحد عيدانها ونظر الى مصدر الانين فرأى رجلا ممدداً على الارض مقيد اليدين والرجلين مكموم الفم فأسرع اليه ونزع الكمامة عن فمه .

فقال له : من أنت ؟

فأيقن الاسقف ان هذا الرجل لم يكن عارفاً بأمره .

فقال له : إني رجل غني اذا أنقذتني مما أنا فيه كافأتك بمائتي جنيه فقل لي أنت من أنت ؟

– إني رجل من فقراء الانكليز اتيت هذه السفينة عاملا فيها وهي تشحن جياداً إلى بولونيا .

– إذاً أنت لست من الارلنديين ؟

– كلا .

– وماذا جرى للرجل الذي كان في السفينة ؟

– إنه لا يزال فيها وهو يدير دفتها .

– أتستطيع إنقاذي ؟

– دون شك يا سيدي فإني أخبر الربان بأمرك فيعود بالسفينة الى البر وتخرج منها حراً آمناً .

– كلا فاني لا أحب ان يعلم أحد بأمري .

- إذاً يوجد طريقة أخرى لإنقاذك وهي أن أفتح إحدى النوافذ والقيك منها الى النهر فلا يشعر بسقوطك أحد .

- إنها طريقة صالحة ولكني لا أعرف السباحة .

- أما أنا فإني أجيدها وسألقي نفسي الى المياه في أثرك ونحن على مسافة قريبة من البر فأبلغ بك اليه سالماً باذن الله .

- بل تلقي نفسك قبلي فاني أخاف الغرق .

- كما تشاء .

- إذاً إبدأ بفك قيودي فقد وافقت على هذه الطريقة .

ففك نيقولا قيده ، ثم فتح إحدى نوافذ السفينة وتدلى منها الى المياه ، فاقتدىٰ به الاسقف ، واستمرت السفينة في سيرها دون ان يشعر أحـــد بفرار الاثنين .

- ٥٩ -

مضى على ذلك أسبوعان جرى في خلالهما كثير من الحوادث ، فان شوكنج عاد الى لون البياض وصدر الحكم بالإعدام على قاتل بادي فأعدم شنقاً ، وصدر الحكم أيضاً على فانوش بالإعدام فتعين موعد تنفيذه هذا اليوم الذي سنجد فيه الرجل المعبوس وشوكنج .

في الساعة السادسة من صباح ذلك اليوم، أي قبل أن تشرق الشمس ، كان الناس يتقاطرون أفواجاً الى جهة سجن نوايت ليشاهدوا شنق مسز فانوش ، تلك المرأة العاتية التي قتلت كثيراً من الاطفال فصح فيها قول الكتاب: أنذر القاتل بالقتل ولو بعد حين .

وكانت جميع المحلات العمومية المشرفة على السجن قد أجرت نوافذها للراغبين

بمشاهدة قضاء الانسان على الانسان وارتكاب القضاء تلك الجريمة نفسها التي يعاقب الناس عليها أي جريمة القتل .

والعادة في بلاد الانكليز ان الناس يقبلون على هذه المشاهد ، إقبال الفرنسيين في بلادهم على ملاعب الروايات . ولذلك لم تبق نافذة في تلك المحلات دون تأجير .

وكان بين أولئك المتفرجين ، ومعظمهم من أهل المقامات ، فتاة مبرقعة بنقاب كثيف ومعها وصيفة لها وقد استأجرتا نافذتين وجاءتا قبل جميع الناس لشوقهما الى مشاهدة هذا المنظر الكريه .

وكان جميع المستأجرين حضروا وجلسوا في نوافذهم المعينة ما خلا نافذة واحدة لم يكن فيها أحد ، ولكن كان عليها كتابة تدل على انها مأجورة كي لا يقيم فيها غير صاحبها .

وكانت هذه الفتاة تنظر من نافذتها الى ساحة الاعدام فترى أعوان الجلاد ينصبون المشنقة ثم تعود الى تلك النافذة الخالية فتنظر اليها لتعلم اذا كان قد أتى صاحبها ولتعرف من هو .

وبعد حين أقبل رجلان وهما بملابس تدل على الفقر ، فجلس أحدهما في تلك النافذة . فعجب الناس لظواهر فقره واستئجاره هذه النافذة بالمال الكثير ولكنهم قالوا انه قد تنكر بهذا الزي لغرض من الاغراض او ليكون حراً بالفرجة كما يشاء دون ان يتقيد بعادات الاغنياء وأدابهم المألوفة وكان هذان القادمان العبوس وشوكنج .

أما الرجل العبوس فإنه أطلق نظره بين الحاضرين ، حتى أصاب تلك الفتاة ذات النقاب ، فارتعش وتمتم قائلاً : لقد قدر لي أن أراك هنا وهذا ما كنت أتوقعه .

ثم ترك شوكنج ومشى اليها بين ازدحام الناس فوقف أمامها وقفة الاحتشام وقال لها : الست يا سيدتي بحضرة مس الن بالمير ؟

فاضطربت الفتاة وقد عرفته وقالت له بصوت يتهدج : ادن مني نتحدث فاني لم أرك منذ عهد طويل .

فدنا العبوس وكان الجلاد قد أعد المشنقة فانشغل الناس عنها بتلك المناظر وبدأ الرجل العبوس الحديث ، فقال :لقد كنت واثقاً يا مس الن اني سأجدك في هذا المكان .

– الملك تشكك يا سيدي باني أحب أن أرى نتيجة التصارك فإنك أنت سبب إعدام هذه المنكودة .

فابتسم العبوس وقال : إذا كان الله قد ولاني الانتصار للمظلومين ألا يجب علي الانتصار للحق والقضاء على الظالمين ؟

ألم تستحق هذه المرأة ما تلاقيه من عقاب القتل بعد أن قتلت كثيراً من الأطفال الضعفاء ؟

ثم غير مجرى الحديث وعاد إلى الابتسام وقال إني منذ أسبوعين لم أتشرف بلقائك يا مس الن فهل لا تزالين على كرهي ؟

– بل إن هذا الكره قد زاد حتى لم يعد له حد .

فأخذ العبوس يدها بيده فشعر انها تضطرب اضطراباً خفيفاً وقال. أحقاً إنك تبغضينني ؟

– ليس بعد هذا البغض بغض .

– هو ما تقولين فقد دنت الساعة .

– أية ساعة ؟

– ساعة يستحيل هذا الكره إلى حب أكيد ، يعادل ذلك البغض الشديد .

فلم تجب مس الن بشيء ، ولكنها تنهدت تنهداً خفيفاً ، لم يكد يظهر لاجتهادها في إخفائه . ثم نظرت في ساعتها كأنها تريد إشغال نفسها ، إخفاء لتأثيرها ، وقالت : لم يبق لدي من الوقت غير عشر دقائق ، فهل

تأذن لي بسؤال ؟

– سلي يا سيدتي ما تشاءين .

– إنك وضعت ابن عمي العزيز في محل أمين اليس كذلك ؟

– دون شك وإذا شئت أخبرتك بتفاصيل أمره . فهو الآن مقيم في فرنسا يتربى في إحدى مدارسها العالية إلى أن يصبح رجلاً ، وسترين يا مس الن حين تدنو الساعة ، ويتولى زعامة الارلنديين ما يكون من أمره ، فإنه خلق للزعامة .

وكانت يدها لا تزال في يده فشعر انها تزيد اضطراباً ولكنها أخفت ما بها وقالت : أشكرك عما أخبرتني عنه ، فهل لك أيضاً أن تخبرني عما فعلته بالسير بترس تومن ؟

فارتعش الرجل العبوس لهذا السؤال ونظر اليها نظرة حاول أن يخترق بها أعماق قلبها ، ويكتشف مخبآت أسرارها . ثم قال لها : ألا تعلمين ما حدث له ؟

فأجابته بلهجة تشف عن الصدق : إني لم أره منذ أتيتني متنكراً بثياب البوليس .

فخدع الرجل العبوس بظواهر صدقها ، وتوهم أنها تقول الحق . وقال لها إعلمي يا مس الن اني اختطفت هذا الاسقف كما اختطفت الغلام ، وذلك في الليلة نفسها . وسجنته في سفينة بحراسة رجل إرلندي ، يدعى هاريس .

واتفق لنكد الطالع أنهم احتاجوا إلى هذه السفينة ، لنقل جياد عليها من فرنسا . فاضطر هاريس أن يكون فيها ، بوظيفة مدير الدفة ، احتفاظاً بالأسير .

فمخرت في التميس وانتشر الضباب بعد حين ، وكان خير مساعد له في تحقيق مشروعه غير انه سمع سقوط جسمين في المياه فظن أن أحد البحارة قد

أنقذ الأسقف السجين في العنبر ولم يستطع أن يتحقق هذا الأمر إذ لم يكن يستطيع ترك الدفة فلم يجد بدأ من تنفيذ مشروعه وقد نفذه .

— ما هذا المشروع ؟

هو أنه دفع السفينة الى الصخور فتحطمت ، ونجا هاريس سباحة دون ان يعلم ما حدث السجين لكثافة الضباب . ولكننا نرجو أن يكون الأسقف ...

وهنا توقف العبوس عن الكلام ، لما سمعه من ضجيج الناس . فإن الجلاد أحضر مسز فانوش إلى المشنقة وهي تصيح وتستغيث وتبكي وتحاول الإفلات من أيدي الجنود .

ولكن الجلاد أسرع إلى الباسها القبعة السوداء ، وأوقفها في موقف الإعدام ثم وضع الحبل مسرعاً في عنقها وأدار لولباً فهوت تلك الجانية وجعلت رجلاها ترقصان في الفضاء .

وعند ذلك خرج الرجل العبوس بمس الن ، وقال لها : كيف رأيت يا سيدتي ؟

وقالت له بلهجة مؤثرة ، خفقت لها جوانحه : رأيت يا سيدي أنك شخص هائل فأنا أكرهك ولكني أعجب بك .

ثم حاولت التخلص منه ، فمنعها وقال لها : إني أحب أن أراك ، فعيني لي موعداً .

— أتجسر أيضاً أن تجيء إلى منزلي ؟

نعم لأنك ستحبينني ، إذا لم تكوني قد أحببتني .

. إذا كانت لك الجرأة فاحضر إلي من ذلك الدهليز الذي كنت تأتي إلي منه من قبل .

— متى ؟

— غداً عند نصف الليل .

ـ سأكون عندك في الساعة المعينة .
ثم حياها وأشار لشوكنج أن يتبعه .

- ٦٠ -

وفي اليوم التالي لهذه الحادثة كان قارب يخترق مياه التميش قبل انتصاف الليل بحين وجيز وفي هذا القارب رجلان أحدهما شوكنج وهو يجدف والآخر الرجل العبوس وهو واقف في مؤخر القارب حاسر الرأس متشح بردائه تائه في مهامه التفكير .

وكان الضباب كثيفاً حتى أن أنوار الغاز كانت تظهر ضئيلة ، فتشبه النور خلل الرماد .

وكان شوكنج يسير بالقارب وهو يتنهد من حين الى آخر فلا يلتبه اليه العبوس الى أن دنا من جسر وستمنستر .

وقال لمولاه : أحقاً يا سيدي انك ذاهب الى الموعد ؟

فانقطع خيط تصور الرجل العبـوس ، لكلام شوكنج ، وقال له دون ريب .

فتنهد شوكنج ايضـاً وقال له : إني لو كنت في مكانك لفعلت غـير ما تفعل .

ـ ماذا كنت تفعل ؟

ـ كنت أرجع عن هذا الفكر

ـ لماذا ؟

ـ لأني أخشى ان يكون في الأمر مكيدة .

فابتسم العبوس دون أن يجيب ولكن شوكنج لم يعتـبر نفسه مغلوباً ،

وقال : ربما كنت مصيباً في هزئك بي يا سيدي . ولكني لا أستطيع مقاومة ما يحدثني به قلبي .

– وبماذا يحدثك قلبك ؟

– بأنك إذا ذهبت إلى الموعد أصبت بمكروه .

فهز العبوس كتفيه ونظر في ساعته على نور سيكارته .

– لم يبق لدينا غير ربع ساعة فأسرع في التجذيف إذ لا يجمل بي أن أدع هذه الحسناء تنتظر .

– إذاً أنت واثق من حب هذه الحية الرقطاء .

– كل الوثوق .

ورفع شوكنج عينيه الى السماء ، كأنه يلتمس عفو الله لهذا الشخص الذي أضله الغرام ، فانه ليست مس الن التي تهواه ، بل هو الذي فتن بهواها .

وكأنما العبوس قد أدرك أفكاره فقال له بجفاء : أسرع الى التجذيف قبل فوات الأوان .

فامتثل شوكنج مكرهاً ، وعاد العبوس الى تصوراته الى ان وصل القارب إلى مدخل الدهليز . وربط شوكنج حبلاً بحلقة حديدية كانت في الجدار ، وربط بطرفه الأخير القارب . فقال له الرجل العبوس : إنتظرني هنا الى ان أعود .

غير ان شوكنج حاول أن يجادله أيضاً على رجاء إقناعه وقال : انك اذاً لا تصدق حديث قلبي ؟

– كلا .

– ولا تزال تظن ان الفتاة تهواك ؟

– سأتوثق من حبها بعد ساعة .

ورفع عينيه أيضاً الى السماء كأنه يستشهد الله على جنون مولاه ، ثم قال :

ألديك مسدسك وخنجرك ؟

ــ كلا .

فلم يتمالك شوكنج من اظهار غضبه وقال : ليس بعد هذا الجنون جنون ، أتعرض بنفسك لهذه الأخطار ثم لا يكون معك سلاح ؟

فضحك العبوس وقال له : ويحك أيها الأبله ومتى كان العشاق يذهبون الى مواعيد الغرام مدججين بالسلاح ؟

ثم تعلق بالحلقة ، فوثب منها الى مدخل الدهليز ، قائلاً لشوكنج : انتظرني الى أن أعود ، فاذا طلع الصباح ولم أعد ، فاذهب الى كاليس ، حيث ينتظرك الغلام وأمه ، وخذ الأوراق من الربان ، واعمل بما تراه مكتوباً فيها .

ثم توارى عن الانظار .

فلما بقي شوكنج وحده قال : رباه لقد خفت ، ان حديث قلبي صادق لا ريب فيه .

وانما كان خوف شوكنج على العبوس لا على نفسه ، انه انتشله من وهدة الفقر المدقع إلى قمة النعيم فبات وهو المتسول الشحاد آمناً طوارق الأيام لا يخاف الفقر ممتعاً بالالقاب والوسامات لا تفرغ جيوبه من المال في حين انه لم يكن يرى الدينار إلا في احلامه ، فهاله ما رآه من تهور العبوس لأنه لم يكن يعتقد بصدق حب النساء وكان يعتبر أن المرأة لا هم لها إلا خديعة الرجل ، ولا شاغل لها غير العبث به من الصباح إلى المساء .

لما بقي وحده في القارب جعل يتأوه ويتنهد ويقول : لا شك أن لكل نابغة ضرباً من الهوس والجنون وأن العبوس من النوابغ ولكنه اصيب بهوس الحب والقى بنفسه إلى الفخ الذي نصب له ولولا اعتقادي برجحان عقله سيجد مخرجاً لقتلت نفسي قانطاً .

وكان شوكنج على اعتقاده بوجود المكيدة قوي الثقة بذكاء سيده ومقدرته

على النجاة فمثلت له الوحدة والمخاوف اموراً لم تكن تجري إلا في مخيلته فتوهم في البدء أنهم يقتلون العبوس وانه يسمع صوت نزعه ، ثم توهم ان الدهليز ملؤه براميل البارود لا تلبث أن تنسفها أيدي المعتدين فيقتل العبوس شر قتل غير انه لم يجر شيء من ذلك إلا في مخيلة شوكنج لاشتداد مخاوفه فقدكانت السكينة سائدة ولم يصدر أقل صوت من الدهليز .

ولكن شوكنج سمع فجأة صوتاً خارجاً من النهر لا من الدهليز وكان الصوت صوت مجازيف تعمل في المياه بانتظام تام فقال في نفسه اما أن يكون هؤلاء من الصيادين او يكونوا من البوليس وفي كل حال فانهم لا يرونني لكثافة الضباب واشتداد الظلام .

وكان هذا الصوت يزيد ارتفاعاً مما يدل على أن اولئك الملاحين يدنون من قاربه ولكنه لم يكن يراهم بل كان يسمع اصواتهم متقطعة فعلم أن الحديث كان دائراً بينهم على اعدام فانوش وجوهن ولكنه علم ان صوت أحدهم كان صوت نيقولا رفيق جوهن الذي أعدم ، فاضطرب وندم لتغيير لون السواد لأن هذا الرجل كان من اصدقاء جوهن وكان شوكنج من اعدائه فخطر له أن يلقي نفسه في النهر ويعود سباحة الى البر .

وفيما هو يتردد في تنفيذ ما خطر له كان قارب الملاحين قد دنا من قاربه ووثب منه رجلان اليه فقبضا على عنق شوكنج والقياه في ذلك القارب فحاول أن يتخلص منهما وصار يستغيث فصاح بهما رجل كان لا يزال في القارب وقال لهما كماه واذا صاح اقتلاه فعلم شوكنج ان هذا الآمر كان الأسقف باترس تون كما علم ان القابض عليه كان نيقولا .

أما نيقولا فانه ضغط على عنقه ضغط المنتقم وقال له . انك كنت السبب في قتل جوهن مع انه كان رفيقك فستنال جزاءك .

وعندها قال لهما الاسقف من القارب الثاني : أقتصرا الآن على تقييد هذا ثم اصنعا به بعد ذلك ما ترومان فقيداه وكماه.

فصعد الأسقف وقال لهما : سيرا بي الآن الى سلم جسر وستمنستر فانهم ينتظروننني عند اللورد بالمير فذهبا به الى الجسر فترك القارب وصعد الى البر .

ثم قال للرجلين : انكما تعلمان ماذا يجب ان تصنعاه فاذهبا الآن واصنعا بما امرتكما به .

عاد الرجلان الى موقف شوكنج الأول عند الدهليز فكان شوكنج يقول في نفسه . لا شك ان العبوس قد سقط في الفخ الذي نصبته له تلك الفتـــاة الداهية ، وان الأسقف لم يغرق في النهر كما كنا نتوهم ، وهو ذاهب الى منزل اللورد بالمير .

اما الرجلان فانهما حين وصلا إلى الدهليز عادا الى سفينتهما فاخرجا مخلين من الحديد ودنوا من حائط الدهليز فجعلا يفتحان فيه ثقباً تحت خط الميـــاه ، فنظر شوكنج ما يصنعان وفهم مرادهما ، انهما كانا يحاولان فتح ممر للمياه الى الدهليز فتدخل المياه اليه فاما تغرق الرجل العبوس اذ كان في داخله او تقطع عليه خط الرجوع إذا كان في المنزل .

وهنا انقبضت نفس شوكنج بعد ان تمثلت له الحقيقة الهائلة ولم يجد معزياًله غير الصلاة فجعل يبتهل الى الله كي ينقذه وينقذ العبوس من هذا الخطر العظيم .

ولكن نيقولا ورفيقيه كانا يواصلان الثقب في الجدار وينزعان حجارته حجراً حجراً الى ان فتحا ثقباً متسعاً فارتج قاربها حتى أوشك أن يغرق فان مياه النهر دخلت بعنف عظيم الى الدهليز .

وانقتف الآن أثر الرجل العبوس فانه صعد من القارب الى فم الدهليز ووثب منه الى الارض فسار في ظلامه المخيف وهو مطمئن البال واثق من حسن النتيجة حتى انه لم يحمل سلاحاً .

وتقدم لنا وصف هذا الدهليز حين اكتشفته مس الن مع أبيها وبادي ، فلا نعود اليه ، بل نقول ان العبوس اخترقه حتى بلغ الى بابه السري ففتحه ودخل منه الى غرفة مس الن ، فوجدها معطرة منورة ولكنه لم يجد مس الن فيها وقال في نفسه لا بأس إذ يجب أن أكون السابق في مثل هذه المواقف ، لكنه ارتاح إلى ما رآه من زيادة التأني في مفروشات الغرفة واستدل من ذلك على ارتياح الفتاة ..

ولكنه لم يكد يستقر في تلك الغرفة حتى دخلت مس الن تتهادى في مشيتها وقد لبست ثوباً من المخمل الأسود كانت به فتنة للناظرين فدنت من الرجل العبوس ومدت يدها اليه وصافحته .

– يسرني انك دقيقة في مواعيدك .

ثم جلست على مقعد وأشارت له بالجلوس بقربها .

وقالت له مبتسمة : ألا تزال تحبني يا سيدي ؟

– كما تحبينني أنت .

ثم ركع عند قدميها وأخذ يدها بين يديه وجعل يكلمها بأفصح لغة يوحيها الغرام ويعرب لها عن وجدانات نفسه بألفاظ لا ترق وتعذب لدى شعب من الشعوب رقتها في أفواه الباريسيين .

وبينما الرجل العبوس يعتقد أنه قد سحرها برقيق الفاظه واستغواها

بلطف معانيه ضحكت تلك الفتاة الساحرة فجأة .

- يا ويحك إنك من المجانين .

ووقف الرجل العبوس متثاقلا ولكن دون انذهال .

وقال : أحق انك تشبهينني بالمجانين ؟

— بل أنك مجنون وأبله معاً .

— لماذا ؟

فنظرت اليه عند ذلك نظرة برقت عيناها وقالت بلهجة الساحر : ذلك أنك تجاسرت على الاعتقاد بأني أحبك .

— ولكني لا أزال اعتقد هذا الاعتقاد .

ثم أخذ يدها فقبلها فاختلف ضحكها وارتجفت يدها فقالت له : أتعلم أنك قد سقطت في فخ لا تستطيع ارلندا بجملتها إنقاذك منه على اني حذرتك أمس حين قلت لك أتجسر على الحضور إلى منزلي ؟

فأجابها ببرود : هو ما تقولين ومع ذلك فقد أتيت .

فأشارت بيدها إلى باب السلم وقالت له: أنظر الى منزل أبي وهذا السلم فهما غاصان بالجنود .

فقال لها بسكينة دون ان يبدو عليه شيء من الاضطراب : أحقيقة ما تقولين ؟

- أحسبك طامعاً أن تخرج من حيث دخلت أي من الباب السري .

ولم يجبها الرجل العبوس وجعل ينظر اليها نظرات غرام ضعضعتها ، وهو غير مكترث لما تنذره به من الأخطار ، كأنما غرامها قد أشغله من كل خطر .

وبعد ذلك سمعا دوياً يشبه دوي الرعد البعيد .

وقالت له : ألا تسمع هذا الدوي ؟

فأجابها بسكينة وهو ينظر اليها مبتسماً : نعم اسمعه واعلم أنه صوت

مياه التميس دخلت الى الدهليز وسيبلغ الينا بحيث لا يبقى لدي إلا واحد من أمرين وهما اما الموت غرقاً أو التسليم للجنود

– أتعرف هذا أيضاً ؟

– نعم قد عرفته منذ الصباح .

– عجباً وكيف أتيت انك لا شك مجنون .

– كلا ، فإنك في الصباح كنت كارهة لي وربما تكرهينني الآن ايضاً أما إذا تمثل لك هلاكي فإنك تحبيني وهذا كل ما أطمع فيه .

ثم نظر اليها تلك النظرات المغنطيسية الجاذبة فتكهربت لها نفسها وكان صوت مياه النهر يزيد ارتفاعاً دلالة على تقدمها في الدهليز .

ولا يستطيع قلم كاتب ان يصف قوة تلك الجاذبية السحرية التي ترسلها النواظر أشعة مكهربة فتصل بين القلوب وتفعل فيها فعل السحر ، وغاية ما يقال عما جرى في تلك اللحظة مس الن أصيبت بما تصاب به الحمامة حين يدركها البازي فركعت أمام الرجل العبوس وقالت له بصوت يتلجلج : رحماك واعف عني فاني أهواك .

وقد كانت هذه المرة صادقة في قولها فإنها ما أتمت كلامها حتى نهضت فوثبت إلى عنقه تقطعه تقبيلاً وتقول : رباه ماذا صنعت ... يجب أن نهرب ، هلم إلى الفرار وإلا قبض عليك وهلكت .. هلم إلى الفرار فإن الوقت لا يزال متسعاً .

وكانت تبكي فتدفعه بيدها قائلة : اهرب .

ثم تضمه إلى صدرها وتقول . بل نهرب معاً فإني اتبعك إلى حيث تشاء.

ثم تجذبه إلى الدهليز وتقول له : هلم بنا فقد نجد منفذاً منه .

أما العبوس فكان يتطلع اليها مبتسماً دون أن يعترضها فيما تفعل ويقول: لقد كنت واثقاً ان جهادي معك سينتهي بهذا الفوز .

وعند ذلك تراجعت مذعورة وصاحت صيحة منكرة قائلة : رباه ، قد

فات الاوان ، فقد وصلت الينا المياه تحمل بين أمواجها الموت
فابتسم الرجل العبوس ايضاً وقال لقد فات الأوان .

أما هي فإنها أسرعت إلى الباب الذي كانت قد سدته بالحجارة في غرفتها حين اكتشفت الدهليز وقالت له انك قوي شديد . اكسر هذا الباب فاني لا أعلم إذا كان يؤدي بنا إلى النجاة ، ولكن قد يكون لنا منه الخير .

ثم انقضت بنفسها على الباب تدفعه بيدها وقال العبوس : لا فائدة من كسره فان المياه من وراءه .

وكان يقول ذلك بملء السكينة دون ان يظهر عليه شيء من علائم الخوف في حين ان مس الن كانت تذرف الدموع الغزيرة وقد ولهت لاشفاقها عليه حتى بلغت حد القنوط .

فكان يبتسم ويقول لها : لقد كنت واثقاً انك ستحبينني كأنما لم يكن يشغله في تلك الساعة الرهيبة غير هذا الخاطر .

وكانت مياه التيمس تتصاعد حتى دخلت الى الغرفة وبلت اقدامهما ، فاشتد يأسها وقالت له :

- انك شجاع باسل فافتح الباب واخترق هؤلاء الجنود فانهم لا يتجاوزون ثلاثين رجلا ، خذ أيها الحبيب غدارتيك وجرد خنجرك وباغتهم بالانقضاض عليهم فقد تفوز بالنجاة

وقال لها بسكينة : ليس لدي أسلحة ولا يجمل بي أن أزور من أحب مدججاً بالسلاح .

فصاحت الفتاة صيحة قنوط وهاجت هياج اللبوة المشفقة على أشبالها ، وكأنما أرادت ان تفدي حبيبها بنفسها وتقيه الموت فطوقت عنقه بذراعيها وقالت :

- انهم لا يقبضون عليك إلا بعد ان يقتلوني .

وعند ذلك سمع ضجيج على باب السلم .

ثم فتح فجأة وظهر منه السير بترس تون وكثير من الجنود فقال لهم مشيراً الى الرجل العبوس :

- اقبضوا على هذا الرجل .

فوقفت مس الن بينهم وبينه وحاولت اغواء الأسقف فقالت له : دعنا نمر بحق السماء ... استحلفك بالله وبكل عزيز لديك ان تدعنا نذهب .. فاني أحبه . لا تسيء اليه ، افعل لك ما تريد وتكون قد اشتريتني باحسانك ..

ثم عادت إلى عناق الرجل العبوس فجعلت تقبله وتبكي ، ولو كان بيدها خنجر لأنقضت على هذا الأسقف ومزقت أحشاءه .

أما الأسقف فانه نظر اليها نظر الشامت وقال لها بلهجة الساخر : اني كنت اتوقع يا مس الن ان تسقطي في هوة هذا الغرام وان تصفحي عن هذا العدو اللدود ، ولكني لست امرأة فلا أصفح عن أعدائي .

ثم أشار الى الجنود أن يقبضوا عليه .

وتعانق الحبيبان .

واغتنم الرجل العبوس هذه الفرصة وقال لها باللغة الفرنسية : اننا أيتها الحبيبة مفترقان ، ولكن فراقنا لا يطول فاني أخرج من السجن حين أشاء .

لا تهتمي بي أيتها الحبيبة بل انصرفي الى خدمة ارلندا والارلنديين . إبرحي لندرا الى باريس وابحثي فيها عن رجل يدعى مرميش وآخر يدعى ميلون وامرأة تدعى فاندا فقولي لهم تعالوا الى لندرا بأمر الرئيس يمتثلون لأمرك ويحضروا في الحال .

اني أيتها الحبيبة القب في لندرا بالرجل العبوس . وأما في باريس فاني أدعى روكامبول .

وهنـا اطبق الجنود على روكامبول وساروا به الى السجن بأمر ذلك الأسقف .

ولم تشفع به دموع ابنة اللورد ولا منزلة أبيها ، ولكن دهـاؤه كان أعظم شافع لدى قلبها فبلغ منه ما أراد .

انتهت رواية « قلب المرأة »

ويليها الجزء الرابع عشر من روكامبول « تلميذ روكامبول »



الجزء الرابع عشر

تلميذ روكامبول

تلميذ روكامبول

- ١ -

كانت أنقاض المنزل الذي تهدم متراكمة ، وحجارة المنزل الذي يبنونه متكدسة وبينهما نار مشبوبة يتألق لهيبها في ظلام الليل الدامس .

وكان قرب هذه النار رجلان ، أحدهما حارس أدوات البناء ، وهو جندي قديم ، قطعت رجله في حرب القرم ، والآخر بنّاء لا يتجاوز عشرين عاماً .

وكان هذا الفتى قد اشتغل كل النهار بملء الاجتهاد ، ولكنه على فرط تعبه وعلى تقدم الليل لم يكن نائماً ، بل كان ملتفاً بردائه ومضطجعاً قرب تلك النار وهو يحاول الرقاد فلا يستطيع ، ويتقلب من جنب الى جنب متأوهاً متنهداً كأنما هو في عذاب اليم .

وكان الحارس يراقب هذا الفتى مراقبة المشفق عليه من حين إلى حين ، فلما طال تنهده قال له : ماذا أصابك يا ليمسون وما لي أراك منذ أيام تبيت هنا في حين أن جميع زملائك يبيتون في منازلهم ؟

— ذلك لأنه ليس لي منزل .

— كيف يكون ذلك ، ألا تقبض أجرتك في كل أسبوع أم انك تنفقها على الملاهي ؟

— بل أرسل نصفها إلى أمي ويكفيني الباقي لاستئجار غرفة وللمعيشة كسائر رفاقي ولكني أؤثر النوم بالهواء الطلق

— عجباً كيف تؤثره في مثل هذه الليالي الباردة ؟

— ذلك لأني لا أخاف البرد .

فعجب الحارس لأمره وقال: ليكن ولكن ما لي أراك لا تعرف طعم الرقاد منذ أسبوع وأنت لا تزال في مقتبل الشباب ؟

فتنهد الفتى وقال : إن النعاس لا يجد سبيلاً إلى أجفاني .

فابتسم الحارس وقال : بل ذلك لأن أشعة الغرام قد نفذت إلى قلبك .

فاهتز الفتى وجلس متربعاً على الأرض وقال: كيف عرفت ذلك ومن أنبأك اني من العشاق ؟

— إن دلائل العشق لا تخفى على أحد يا بني ، كحامل المسك لا يخلو من العبق . وأنا لم أبلغ بعد حد الكهولة ، فأبسط لي يا بني أمرك عساي أنفعك برأي صالح ، فقد طالما تقلبت على مهاد هذا الغرام حتى بت خبيراً بأدواء القلوب .

فعاد ليمسون الى التنهد وقال : ولكن هيهات ان تجد دواء لقلبي فان دودة أرض عشقت نجمة سماء فكيف تصل اليها ؟

فضحك الحارس وقال : أراك تستعمل الاستعارات ، فهل أنت دودة الأرض ؟

— نعم .

— والنجمة أين هي ؟

ـ هي فوق .

ثم أشار بيده الى منزل عال مشرف على البناء الجديد .

فابتسم الحارس وقال : لا تقنط يا بني فان الدودة تصير فراشة فتطير وتدرك هذه النجمة .

فتنهد الفتى أيضاً وقال : هب انني صرت فراشة فليس لي رجاء فان نجمتي عالية جداً لا تدركها ذوات الجناح .

ـ العلها من نساء الأعيان ؟

ـ ربما كانت أميرة فاني كل يوم حين تسطع أشعة الشمس أذهب فأقف عند بابها حين تخرج إلى النزهة في مركبتها .

ـ هل تخرج وحدها ؟

ـ كلا ، بل يصحبها رجلان ، ولكن هيئتها تدل على أنها تحتقرهما وتخافهما ، حتى كان يخطر لي بعض الأحيان أن أهجم عليهما بمطرقتي وأقتلهما شر قتل .

ـ ولكنك لن تفعل وإلا كنت من المجانين !

ـ قد أكون مجنوناً في هواها ولكن ذلك لم يمنعها عن أن تبتسم لي .،

ـ أهي ابتسمت لك ؟

ـ نعم فانها كانت واقفة في نافذتها تنظر الى الشارع نظرة الطير المحبوس في القفص وكنت واقفاً في معمل البناء أتأمل محاسنها الباهرة فنظرت إليّ فجأة وعلمت اني مأخوذ بجمالها فابتسمت لي .

وكان الفتى يقول هذا القول بصوت يتهدج فقال له الحارس : لقد بت أخاف على صوابك ، ولكن أتم بسط حكايتك فقد أفيدك بنصيحة متى وقفت على كل أمرك .

فمضى الفتى البناء في حديثه فقال : إني لست من أهل الدهاء والرياء ولكني لست، من أهل السذاجة المطلقة فأنا أعلم أن هذه الفتاة الحسناء لا تبتسم لي إلا لأنها محتاجة إلي في غرض من الأغراض .

– أتظن أنها محتاجة اليك ؟

– دون شك ألم أقل لك انها سجينة في منزلها ؟

– ما أظنك إلا فقدت رشادك ، ومتى كان السجناء يخرجون من سجونهم الى المنتزهات ؟

– وأي خطر من فرارها إذا كان السجانون يصحبونها ؟

– إني تقلبت في جميع أنواع الغرام ومر بي كثير من الحوادث فلم أجد مثل أمرك هذا !

– إصغ إلي حتى النهاية وسوف ترى ، فان حب هـــذه الفتاة باغتني لأول نظرة ، فلم أتدبر في أمري ، وشعرت ان هواها قد جرى في قلبي مجرى دمي في مفاصلي .

وقد رأيتها أول مرة في يوم سبت فلما رأيتها تبتسم لي تضعضع عقلي وغلت يدي عن العمل حتى أن مدير البنائين أنـذرني بالطرد إذا استمريت على ما كنت عليه من التهاون .

وكان اليوم التالي يوم الأحد ، أي يوم دفع الأجـور ، فقبضت أجرتي واشتريت بها ثوباً جديداً فلبسته ، وجعلت أتخطر حول المنزل طامعاً برؤية هذه الحسناء .

وهي تقيم في هذا المنزل الذي تراه مشرفاً على معمل البناء ومنزلها في الدور الثالث منه فقد استأجرت جميع ذلك الدور ورأيتها اول مرة تطل من نافذة غرفة زينتها

فابتسم الجندي وقال : أظنها من غنيات أهل الدعارة ، وانها ما ابتسمت لك إلا للعبث بك .

ولكنه رأى ان الفتى قد اشمئز ونفر من قوله ، فاستدرك خطأه وقال : ومع ذلك ، فقد أكون مخطئاً ، فلنفترض انها من الأميرات وتمم حديثك .

— إني طفت حول المنزل نحو ساعة فلم أرها . فذهبت إلى هذه الخمارة المقابلة للمنزل فرأيت رجلاً يسير ذهاباً وإياباً . فما شككت انه رقيب متنكر . ثم رأيت بواب المنزل واقفاً عند الباب ولي معه سابق عشرة فدعوته إلى شرب كأس من الخمر معي علي أقف منه على شيء من أخبار الفتاة ، فأجاب الدعوة ودخلنا الى الخمارة فما شربنا الكأس الثالثة حتى بدأت أحادثه بأمر هذا المنزل الفخم وأغبطه على استخدامه فيه .

فقال لي : قد يجوز أن تغبطني لو كان المنزل مأهولاً بجملته ، ولكن دورين منه لا يزالان فارغين . ثم أنه قد يحدث لنا أمور مزعجة مع هؤلاء الأجانب

— كيف ذلك ؟

— يوجد الآن فتاة إنكليزية تقيم في الدور الثالث منه يظهر أنها من النبيلات وانها إبنة لورد هربت من منزل أبيها إلى هذا المنزل .

وقد صحبت معها حين حضورها خادمة وخادمين كلهم من الانكليز ، فلم تكد تستقر في المنزل حتى أحضرت مركبة وطافت بها جميع باريس كأنها تبحث عن رجل لا تعلم مقره

ولم تعد إلا في المساء فجاء رجلان وطلبا ان يحادثاها ولكنها لم يخرجا من المنزل بعد المحادثة بل بقيا فيه ، واستبدلا جميع ما كان من الخدم وجعلا يراقبانها مراقبة شديدة حتى أنها أرادت ان تكلمني فوقف واحد منهما والله لقد أشفقت عليها فانها تذهب الى النزهة كل يوم ، ولكن الرجلين يصحبانها فلا يفارقانها

لحظة عين .

هذا كل ما يعرفه البواب من أمر الفتاة فتركته وقد أيقنت منه أن هذه الصبية من خير أسرات الانكليز وانها أسيرة هذين الرجلين .

وفي اليوم التالي عدت إلى العمل وأنا منقبض النفس ، أود لو بذلت نفسي في سبيل إنقاذها . فبينا أنا أشتغل بنحت حجر وعيناي تنظران إلى نافذتها ، فتحت تلك النافذة ، وأشرقت منها الفتـــاة إشراق القمر من السحاب . فكانت تجيل طرفها باحثة إلى أن رأتني ، فاستقر نظرها علي وابتسمت لي .

فشعرت أن جسمي قد تكهرب ، وقد اشتد خفوق قلبي حتى كدت أسمع ضرباته .

فشخصت عيناي اليها ولم يكن أحد يراقبنا ، وكأنما أدركت ما أصاب نفسي من الاضطراب لابتسامها ، فوضعت اصبعها على فمها ، كأنها تشير علي بوجوب الكتمان .

ثم أخذت ورقة من جيبها والقتها من النافذة فسقطت وراء أكـداس من الأخشاب القديمة وأشارت إلي إشارة تفيد أنها القت الورقة إلي ثم أقفلت النافذة ودخلت إلى غرفتها .

وكنت بعيداً عن هذه الأخشاب وما أحببت ان أسير اليها لالتقاط الورقة على الفور فقلت في نفسي ان موعد فرصة طعام الصباح قريبة وسألتقطها حين يدق الجرس لا سيما وقد أيقنت انه لم يرها أحد .

فقال له الجندي : وبعد ذلك ؟

فتنهد الفتى وقال : سوف ترى ما كان من نكد طالعي وطالعها ، فاني بينما كنت أنتظر فرصة الطعام لالتقاط الورقة وأنا آمن عليها وقد اطمأنت نفسي لوثوقي من احتياج الفتاة إلي ، قدم شخص الى ورشة البناء التي أعمل فيها وطلب أن يتكلم مع المدير .

فجعلت أنظر اليه دون اكتراث ، وأنا أحسب انه صاحب الأرض ، أو انه أحد المهندسين . إذ كانت ظواهره تحمل على الاحترام ، وهو بين العمرين .

فأسرع إلى لقائه وسمعته يقول : إني أقيم في الدور الثالث من هذا المنزل وقد سقطت من النافذة إلى أرض المعمل ورقة لها أهمية عندي فأرجوك أن تأذن لي بالتفتيش عنها .

فأذن له المدير دون اعتراض ، فذهب تواً الى حيث سقطت الورقة ورأيته واأسفاه قد التقطها ووضعها في جيبه .

فقال له الجندي : إنك على ذلك لم تعلم ما كتبته لك .

– كلا .

– أما رأيتها بعد هذه الحادثة ؟

– بل أراها في كل صباح وانها تفتح النافذة وتنظر إلي نظرة السائل كأنها تريد مني شيئاً .

– ذلك يدل على جهلها ما حدث لاعتقادها انك قرأت رسالتها .

– هذا أكيد واأسفاه وهي تنظر إلي نظرات تشف عما داخل نفسها من الغم والانقباض مما يقطع القلوب من الإشفاق .

– ألم تحاول الدخول الى منزلها ؟

– كلا .

وامتعض الجندي وقال : لقد كان العشاق في عهد الجندية أجرأ منكم على اقتحام الصعاب .

– ماذا كنت تصنع لو كنت في مكاني ؟

– كنت أدخل الى المنزل من بابه .

– وهذا الرقيب الذي لا يفارق الباب لحظة ؟

– كنت أدق عنقه .

– والبواب ؟
– أرشوه بالمال فينصرف به الى الخمارة .
– والرجلان اللذين يحرسانها ويبيتان معها في المنزل ؟
– أقتلهما اذا اعترضا سبيلي .
فأطرق الفتى البناء برأسه الى الأرض وقال : لا أستطيع الموافقة على هذا الرأي .
– ذلك لأنك لست من الجنود القدماء .
فابتسم الفتى ابتسام المكتئب وقال : اني لم اكن جندياً ولكني اسفك دمي طائعاً مختاراً في سبيلها .
– إذاً خاطر بحياتك على ما قلت لك .
– إني لست من رأيك .
– لماذا ؟
– لأني إذا جريت على مـــا تشير به من العنف ، في سبيل الوصول اليها ، لا ابلغ ما اسعى اليه من تخليصها ، بل تفضي النتيجة الى عكس ما اريد وتريد .
– إذاً ماذا تعمل ؟
– لقد خطر لي خاطر ارجو ان يكون مفيداً . ولكن لا يمكن تنفيذه قبل ثمانية ايام . وذلك الى ان يتم بناء الدور الثالث من هذا البنـــاء الذي نشتغل فيه ، وذلك ان نوافذه تصبح مساوية لنوافذ غرفة الفتاة ، لتساوي المنزلين بالارتفاع ، وليس بينهما غـير عرض الشـارع ، وهو لا يتجـاوز ستة امتار .
واذا تم هذا البناء ترقبت ليلة مظلمة لا يكون فيها غير انا وانت في المعمل فمددت لوحاً خشبياً من نافذة المنزل الجديد الى نافذة منزلها ودخلت اليها على هذه الطريقة دون خطر ودون ان يراني احد .

فسر الجندي لاقتراحه وقال: إنه خاطر حسن ويسرني ان اراك اشد جرأة مما كنت أظن .

– ليس في الأمر جرأة ، إني اعمل في حرفتي منذ عشرة أعوام وقد الفت هذه الخطرات واذا نجح قصدي هربت على هذه الألواح ، حتى اذا صحا النيام رأوا ان الطير أفلت من القفص .

– إن ذلك يدلني منك على التروي والحكمة . إصنع ما أنت صانع .

– لقد علمت الآن السبب في نومي في المعمل في حين أن جميع الرفاق يذهبون إلى منزلهم وأرجو ان تكتم سري بعد ان بحت لك به .

– إني جندي والجندي لا يخون على انيلا أقتصر على كتمان سرك بل أكون لك خير معين .

وكان الفجر قد انبثق وبدأت الطيور تناغي،فنظر الجندي الى ذلك المنزل الذي دله عليه الفتى، ورأى النافذة التي كلمه عنها ثم رأىان النافذة قد فتحت فجأة وظهرت منها الفتاة .

فلم يتمالك الجندي من إظهار دهشته لما رآه من جمالها ووقف يتأمله معجباً بتلك المحاسن الفاتنة .

أما الإنكليزيةفلم تراها وقد فتحت النافذة لتستنشق نسيم الصباح .

وقال الجندي للبناء : أعرفت اسم الحسناء ؟

– نعم فقد قال لي البواب انه سمعهم ينادونها مس الن .

وعند ذلك حانت التفاتة من الفتاة فرأت الفتى البناء ينظر اليها وارتعشت وجعلت تبتسم له كأنها علمت بانه سيكون منقذها .

- ٣ -

نعم إن تلك الفتاة كانت مس الن بعينها، إبنة اللورد بالمير، تلك التي كانت من ألد أعداء الرجل العبوس أي روكامبول فأصبحت الآن من أشد الناس إخلاصا له وولاء في حبه .

وإن من قرأ الرواية السابقة ، أي قلب المرأة ، يذكر من دون شك تلك المكيدة الهائلة ، التي نصبتها مس الن لروكامبول ، وهي تحبه وتحسب انها تكرهه .

حتى إذا ظهر لها بمظاهر اليأس ، ورأت ان الجنود أطبقوا عليه من جانب والمياه تدفقت عليه من جانب آخر . ثار في قلبها ذلك الحب الذي كانت تحسبه بغضاً ، وحاولت ان تقيه بنفسها وتجعل جسمها ترساً له ولكنها لم تجد أثراً للرحمة في قلب ذلك الأسقف بترس تون رئيس المذهب الانجليكاني وألد أعداء الارلنديين .

وقد شعرت الفتاة فجأة ، أنها تهوى ذلك الشخص الذي سلمته إلى أعدائه . فابتسم وقال : إنك سلمتني إلى أعدائي ، ولكنك ستنقذيني منهم يا مس الن .

ويذكر القراء ، أنه بينما كان الأسقف بترس تون يصدر أوامره إلى الجنود بالقبض على الرجل العبوس ، كان العبوس يقول لمس الن باللغة الفرنسية : « إننا مفترقان أيتها الحبيبة ، ولكن فراقنا لا يطول واني أخرج من السجن متى شئت .

« لا تهتمي بي أيتها العزيزة بل بارلندا التي تخدمها ، ولا تسألي أباك شيئاً ، ولا تهتمي باخراجي من السجن . بل سافري من لندرا إلى باريس ، وابحثي فيها عن شخص يدعى مرميس ، وآخر يدعى ميلون ، وامرأة تدعى فاندا ، وقولي لهم : هلموا معي إلى لندرا بأمر الرئيس يمتثلوا لك ويسرعوا

الى المجيء .

« إنني أيتها الحبيبة القب في لندرا بالرجل المعبوس ، ولكني أدعى في باريس روكامبول . »

ثم مشى روكامبول الى السجن مع الجنود ، يمشي مشية المنتصر لفوزه بقلب تلك الفتاة وقد تركها وهي توشك ان تجن من حزنها ولكنه بات موقناً انها باتت رهينة هواه .

وكان أبوها لم يعد بعد من البرلمان .

ولما خرج الأسقف والجنود بروكامبول من المنزل ، رأت انها قد باتت إرلندية ، وانها لم يعد لها اتصال بأبيها .

واغتنمت فرصة غيابه ، وجمعت ما كان لديها من الحلى والنقود ووضعتها في حقيبة .

وكان لديها خادمان وخادمة امتازوا في الاخلاص لها على سائر الخدم . وأخذت حقيبتها ، وأمرت اولئك الخدم ان يسافروا معها . فلم يبلغ روكامبول سجن نوايت حتى بلغت مس الن مع خدامها الى المحطة ، وبرحت معهم لندرا .

وفي مساء اليوم الثاني غادرت بولونيا ، ووصلت إلى باريس عند انتصاف الليل .

وكانت مس الن تعرف باريس كما يعرفها كبار أغنياء الانكليزفان هذه العاصمة تشوق اليها الشعب الانكليزي ولا سيما الأغنياء منهم فلا يوجد بينهم من لايزورها ولو مرة في العام .

ولم يكن روكامبول قد أرشد مس الن الى أماكن عصابته بل اكتفى بذكر أسمائهم فعلق بذهنها اسم ميلون وفاندا .

ولكن ذلك لم يكن كافياً في تلك العاصمة المتسعة للاسترشاد اليها فرأت انها لا بد من السعي والتعب للبلوغ اليها .

وكانت حين تجيء مع أبيها إلى باريس تقيم عادة في منزل في شارع لويس الكبير فذهبت مع خدامها إلى ذلك المنزل نفسه ، واستقبلتها صاحبته بملء الترحيب والتكريم وباتت فيه تلك الليلة .

وقد باتت بليلة الملسوع ، فلم يغمض لهـــا جفن . ولم يتمثل لها غير روكامبول وظواهر جـلاله وكبريائه ، وما عساه يعانيـه في ذلك السجن الرهيب . ثم تذكر أنها هي التي كادت له ، ورمته في السجن . فتتأوه وتبكي بكاء الأطفال .

وفي صباح اليوم التالي بدأت في البحث . فأخذت الكتاب الذي تنشر فيه أسماء التجار وأصحاب العمال . وجعلت تقلب فيـه ، وهي تقول في نفسها : إني أبحث عن ميـلون ، واذا وجـدت عنوانه ذهبـت اليه وقلت له : أتعرف الرئيس ؟ إنها طريقة بسيطة ، ولكنها قد تكون أحسن الطرق إلى نيل المراد .

ثم جعلت تقرأ الأسماءفوجدت كثيرين يدعون بهذا الاسم فكتبت عناوينهم وذهبت اليهم جميعاً فلم تجد بينهم من يعرف اسم روكامبول .

فعادت في المساء إلى المنزل وقد خطر لها خاطر غريب ، لا يتمثـــل إلا للانكليز فكتبت هذه الرسالة الآتية وهي :

« المسيو ميلون ، ومدام فاندا ، وكلاهما صديقان للمسيو ر . يرجى منهما أن يسرعا في المجيء الى شـارع لويس الكبير ، نمرة ٥٠ . والمسـألة خطيرة جداً » .

وعولت على ان ترسل هذه الرسالة إعلاناً الى جميع الجرائد فلا بد لميلون وفاندا وأصحابها ان يقرأوا الاعلان فيحضران اليها .

غير أن لنكد طالعها ، لم يتسع لها الوقت لإرسال هذا الاعلان ، لأن جسمها كان قد أضنكه التعب في النهار ، ولم تكن قد نامت ليلة أمس ، فتمشت مسرعة ، وحاولت أن تنام . ثم سمعت الخادم يحادث زائراً باللغة

الانكليزية .

ثم رأت الخادمة دخلت اليها تحمل رقعة زيارة كتب عليها الاسم :

سير جمس وود
أكسفورد ستريت

فهمت ان تجيب الخادمة انها لا تقبل زيارة من لا تعرفه . ولكن السير جمس دخل في أثر الخادمة قبل ان تجيبها بشيء .

فاصفر محيا مس الن لهذه الجرأة ، وتوقعت مصاباً . لا سيما أنها رأت من خلال الباب شخصين ايضاً ، كانا واقفين في الفسحة ، وهي لا تعرفهما .

ولكنها على اضطرابها لم يذهب عنها شيء من عظمتها .

ونظرت الى السير جمس نظرة ملؤها الكبرياء والإنكار ، وقالت له · ماذا تريد أيها الرجل مني ؟ وبأي حق تدخل الى غرفتي دون ان أأذن لك ؟

– اني أسألك العفو يا سيدتي ، إني شخص شريف لا اغتصب الحقوق ولم ادخل غرفتك إلا مسلحاً بحق الدخول .

فاحمرت عيناها من الغضب وقالت : ماذا تعني ؟

– اعني اني احمل جوازاً موقعاً عليه من سفير انكلترا في باريس .

– وماذا يفيدني هذا الجواز ؟

– ولدي ايضاً يا سيدتي امر من رئيس الشرطة وانا من كبار افراد الشرطة في لندرا .

فتراجعت الفتاة مذعورة مما سمعته وايقنت بحلول المصيبة .

اما هو فإنه قال لها ببرود : أعلمت يا سيدتي الآن ، لماذا تشرفت بالدخول الى غرفتك ؟ إن اباك اللورد ، وصديقه الأسقف بترس تون قد ارسلاني .

فصاحت الفتاة صيحة ذعر وسقطت على كرسيها واهية القوى مما اصابها من مفاجأة الاضطراب .

- ٤ -

كان السير جمس يناهز الخمسة والأربعين من عمره وقد وخط الشيب عارضيه ولكنه كان قوي البنية احمر المحيا جامد الحركة حسن البزة يتكلم بملء السكينة لا يتجاوز حدود الاحترام مع محدثيه .

فالتفت الى الفتاة وقال : أسألك يا سيدتي في البدء ان تعذريني ، ثم ارجوك ان تصغي إلي وان تكوني صبورة فقد قلت لك من انا واني لا افعل غير ما يدعوني اليه الواجب فلا لوم علي ولا تثريب .

اني يا سيدتي برحت لندرا مزوداً بأوامر قانونية لا بد لي من تنفيذها ولا اتجاوز حدود سلطتي في شيء .

فقالت له الفتاة ، وقد عادت اليها بعض سكينتها : ارجوك ان توضح لي كل ما تقول .

– إني مستعد يا سيدتي للامتثال فسلي ما تشائين .

– لقد قلت لي انك مزود بتعليمات بشأني ؟

– نعم يا سيدتي .

– من اعطاك تلك التعليمات او الأوامر ؟

– اللورد بالمير والدك النبيل .

– وما هي تلك الأوامر ؟

– انها قد تكون شديدة الوقع يا سيدتي ولكن خطتك وسلوكك يعدلانها .

– كيف ذلك ؟

- ذلك ان اباكي قد علم السبب الذي برحت من أجله لندرا وهو يريد أن تعودي اليها بل أنه يريد أن لا يكون لك ادنى اتصال باولئك الأشقياء الذين اتيت تبحثين عنهم في باريس .

- وبعد ذلك ؟

- أن الأوامر التي جئت بها تتعلق بهذين الأمرين .

- وما هي هذه الأوامر ؟

- اني انفذت قسماً منها ، فذهبت إلى سفير انكلترا في باريس وأطلعته على كتاب من أبيك ، فساعدني رئيس البوليس ، وحصلت منه على أمر بالقبض عليك .

فذعرت مس الن وتراجعت إلى الوراء قائلة : إذاً أنت آت للقبض علي ؟

- ان ذلك يتعلق بك يا سيدتي .

- كيف يتعلق بي ؟

- لأن البرلمان تنتهي جلساته بعد اسبوعين فيتفرق أعضاؤه ويستطيع أبوك عند ذلك مغادرة لندرا والبحث عن ابنته في باريس .

- ومن الآن إلى انتهاء الجلسات ماذا تصنع ؟

- أخيرك بين أمرين وهما أن أضعك في أحد المستشفيات الخصوصية أو أن تبقي حرة في هذا المنزل براقبتي فاذا وافقت على الاقتراح الثاني اضطر إلى ابدال خدمك بغيرهم وأقيم في هذا المنزل مع زميل لي بحيث لا تستطيعين الخروج من المنزل إلا إذا كنت مصحوبة بواحد منا .

ثم ابتسم وقال لها : أرجو أن لا يزعجك هذا الاقتراح فانك سوف تحمدين صحبتنا وستخرجين كل يوم متنزهة إلى الغابات ، وإذا شئت ذهبنا بك إلى الملاعب والى كل مكان يحلو لك الذهاب اليه كأنك حرة مطلقة ولا يعلم أحد من الناس اننا رقيبان عليك ، ثم انك تستطيعين ان تنفقي بملء السعة ، فان اباك اللورد مرسل اليك حوالة على بنك روتشيلد في باريس تقبضين منه كل ما

تحتاجين اليه من النفقات .

قالت له بلهجة المتهكم : وإذا رفضت اقتراحك ماذا تصنع ؟

– اضطر يا سيدتي مكرهاً آسفاً ان أذهب بك مع زميلي في هذه الليلة نفسها إلى مستشفى خاص حيث تراقبين فيه مراقبة خاصة .

وكان السير جمس يتكلم بلهجـة تدل على ثباته ، فما شككت انه يفعل ما قال . ورأت من ملامحه أن اغوائه محال ، وانه لا يخل بالواجب الذي انتدب اليه .

ثم وازنت بين الويلين فرأت ان تختار اخفهما فانها إذا قامت في المستشفى تكون فيه اسيرة يصعب افلاتها منه واما اذا بقيت في المنزل بمراقبة السير جمس بقي لها رجاء بالتملص بما تهيؤه لها الصدفة وذهنها المتوقد .

وعند ذلك تظاهرت انها تفتكر وتتمعن ثم نظرت اليه وقالت له : حسناً لقد رضيت باقتراحك .

ومنذ ذاك اليوم باتت معيشة مس الن على ما وصفها الفتى البنـاء للحارس الجندي فان البوليسين باتا لا يفارقانهـا لحظة في النهار ، فاذا أقبل الليل وضع احدهما سريراً عند باب غرفتها بحيث لا تستطيع الخروج من تلك الغرفـة دون ايقاظه .

فكانت مس الن تجهد الفكرة بايجـاد طريقة للخلاص ، وقد ضيق عليها هذان الرقيبان كل التضييق ، حتى أطلت يوماً من نافذتهـا وباغتت الفتى البناء وهو ينظر اليها نظرات الوله والهيام ، فخطر لها أن تستخدم هذا الفتى في سبيل خلاصها .

وفي اليوم التالي القت اليه تلك الرسالة من نافذتهـا وهي التي سقطت وراء الأخشاب والتقطها البوليس .

أما هذه الرسالة فقد كانت كما يأتي :

« لدي مهمة عظيمة أحب ان أعهد اليك بها ويكون لك منها نفع عظيم إذا

وفيت ، فإذا قرأت هذه السطور فارفع نظرك إلى النافذة فإذا كنت راضياً بخدمتي فارفع قبعتك مرتين متواليتين إشارة إلى قبولك وعند ذلك أرسل اليك تعليماتي » .

واتفق لنكد طالعها ان السير جمس باعتها بنظره وهي ترمي الرسالة ، فأسرع إلى المعمل واستولى عليها قبل أن يتمكن الفتى البناء من معرفة ما فيها .

وفي ذلك اليوم قال لها :

- انك إذا عدت يا سيدتي إلى ما فعلته اليوم اضطر إلى نقلك إلى ذلك المستشفى الذي أنذرتك به .

ومنذ تلك الحادثة لم يؤذن لها أن تفتح نافذتها في النهار ، اي حينما يكون البناؤون في المعمل ، فإذا اتفق انها فتحتها تجد ان احد البوليسين قد أسرع اليها ووقف بجانبها .

وكان من عادة البنائين أنهم يحضرون في الساعة السادسة صباحاً وينصرفون في الساعة السابعة مساء فيتولى الحارس الجندي عند انصرافهم حراسة المعمل ، فلم يكن السير جمس يرتاب به لأنه رأى ان الفتاة قد القت الرسالة إلى الفتى البناء .

ومر على ذلك ثمانية أيام إلى أن أرقت مس الن ليلة وفتحت نافذتها عند الفجر فرأت ذلك البناء مقيماً مع الحارس الجندي في المعمل .

وكان البناؤون لم يحضروا بعد إلى المعمل والسير جمس لا يزال نائماً لاعتقاده إن مس الن نائمة في ذلك الحين ، ولما رأت مس الن ذلك الفتى ارتعشت وعاد اليها الرجاء بالنجاة ، فأخذت من جيبها وانتزعت منه ورقة وكتبت عليها كتابة بمعنى الرسالة الأولى .

وقد استولى الفتى في هذه المرة على الرسالة ، وكان يعرف القراءة ، فلما

أتم تلاوتها رفع قبعته مرتين متواليتـين إشارة إلى القبول ودخلت مس الن وأقفلت النافذة .

- ٥ -

وقد دخلت وهي مطمئنة لوثوقها ان الفتى البناء يبيت في المعمل ولا يبرحه في المساء كما يفعل سائر البنائون .

أما السير جيمس فإنه استيقظ قبل أن يحضر البنائون ، ولكنه لم يشكك في شيء .

وفي ذلك اليوم ذهبت كعادتها إلى غابات بولونيا يصحبها الرقيبان ولم تعد إلا وقت العشاءفدخلت إلى غرفتها لتغيير ثيابها فاغتنمت هذه الفرصة وكتبت إلى الفتى البناء الرسالة الآتية :

ألا تستطيع ان تصل إلي بطريقة من الطرق ، فاما أن تأتي إلى غرفتي بسلم أو تصعد اليها من المدخنة ، إنك الرجل الوحيد الذي أعرفه في باريس وأنا أسيرة في المنزل الذي تراني فيه ،وإذا كنت تستطيع الوصول الي فاكتب لي لأني سأعلق في هذه الليلة خيطاً رفيعاً أربطه بالنافذة وأدليه إلى الأرض فلا ينتبه اليه أحد ، إربط بطرفه جوابك واني في الختام أعيد عليك ما قلته قبلاً وهو اني سأجازيك خير الجزاء) .

ولما أتمت كتابة الرسالة طوتها وخبأتها داخل ثياب صدرها .

وكان السير جمس يراقب المعمل كل النهار حتى إذا أقبل الليل وانصرف البنائون زالت شكوكه وانصرف إلى مراقبتها .

أما مس الن فإنها بعد العشاء قامت إلى البيانو وجعلت تعزف عليهـــا الحاناً شجية تشف عما داخل فؤادها من الوجد على روكامبول ولبثت على ذلك

إلى الساعة العاشرة .

ثم نام الرقيبان فدخلت إلى غرفتها واقفلت بابها واطفأت شمعتها ومشت مشياً خفيفاً إلى النافذة ففتحتها بملء الاحتراس والسكينة ، فلم يسمع لها صوت .

وأطلت منها فرأت رجلين يصطليان قرب النار ويتكلمان باصوات منخفضة وعلمت أنهما الجندي والبناء .

وكانت الليلة مقمرة فلما رأى البناء ان النافذة قد فتحت وبرز منها وجه الانكليزية خفق قلبه وهب مسرعاً فوقف تحت النافذة .

وعند ذلك القت اليه الرسالة وتوارت عن الأنظار .

وأخذ البناء الرسالة وعاد بها إلى حيث كان الجندي وأطلعه عليها فعجب الجندي لأمرها وقال : من عسى ان يكون قد أسرها في هذا المنزل إلا إذا كان زوجها الغيور ؟

أما الفتى فإنه أخذ قلمه الرصاصي الذي يرسم به الخطوط على الحجارة حين يقسمها ، وبحث عن ورقة فلم يجدها فالتقط من الأرض قطعة من الأجر الأحمر وكتب عليها بقلمه الغليظ ما يأتي :

« يوجد في ورشة البناء سلم طويل يصل إلى نافذة غرفتك ، وإذا كنت تصبرين ستة أيام وصلت اليك وأنقذتك من الأسر إذا كنت ترغبين » .

ثم أخذ قطعة الأجر وعاد بها إلى تحت النافذة .

وكانت واقفة وراء الزجاج فرأته يكتب على قطعة الأجر فأدلت اليه خيطاً دقيقاً متيناً من الحرير ، فربط به تلك الأجرة فجذبتها اليها .

وبعد دقيقتين أرجعتها وكتبت تحتها هذه الكلمة (سأنتظر) .

وقد أجهدت مس الن فكرها كي تعلم الطريقة التي يحاول انقاذها بها فلم تعلم ولكنها كانت واثقة بهذا الفتى .

وفي اليوم التالي كانت جالسة وحدها على المائدة مع السير جمس فقالت

له متى يأتي ابي فيما تظن ؟

– لقد وردني اليوم كتاب منه يقول فيه انه سيكون في باريس بعد ثلاثة عشر يوماً .

– اني معجبة لأمر وهو انه لماذا لم يعهد اليك إرجاعي إلى لندرا بدلاً من الحضور بنفسه ليعود بي اليها .

فابتسم وقال : لأنه لا نية له أن يعود بك إلى انكلترا .

– أحق ما تقول ..

– كل الحق يا سيدتي ، فإنه لا يريد ان يجمعك بالارلنديين في بلاد الانكليز .

– إلى أين يريد أن يذهب بي ؟

– أظن انه سيقيم معك فصل الشتاء في إيطاليا .

– حسناً لقد علمت .

وانقطعت بعد ذلك عن محادثته .

وتوالت الأيام وهي تمدها بالدقائق والساعات فكانت تلك السجينة المنكودة الحظ تنظر من حين إلى حين إلى ورشة البناء فترى المنزل الجديد آخذاً بالارتفاع ، وإنهم يسرعون في بنائه سرعة عظيمة حتى انهم بلغوا في اليوم الرابع الى الدور الثاني على مساواة غرفتها .

وفي اليوم السادس فتحت نافذتها في ليلة مظلمة ورأت الفتى البناء واقفاً تحت الغرفة وبيده قطعة من الأجر وعلمت انه يود أن يراسلها وأدلت له الخيط ، وربط بها القطعة ورفعتها اليها

وكان الفتى قد كتب عليها هذه الجملة « غداً أكون في غرفتك عند انتصاف الليل »

ولما قرأتها القتها من النافذة وعادت إلى فراشها فلم تنم تلك الليلة لشدة هواجسها ولكنها أخفت اضطرابها أمام السير جيمس فلم يشكك في شيء .

وفي المساء دخلت إلى مضجعها وتظاهرت بالنوم وكان السير جمس قد وكل حراستها إلى رفيقه وخرج لبعض الشؤون وعاد في الساعة الحادية عشرة فأطلق سراح رفيقه ووضع سريره عند باب غرفة الأسيرة .

ولم يكن يدخل إلى غرفتها على الإطلاق ، لكنه كان قد ثقب في باب غرفتها ثقباً ضيقاً يراقبها منه في الليل فنظر من الثقب ورأى أنها نائمة في فراشها فاطمأن خاطره وصعد إلى سريره فنام .

ولما انتصف الليل قامت الى النافذة ففتحتها ، وكان القمر يتلألأ في السماء ، فأطلت منها ورأت الفتى البناء واقفاً في شرفة دور المنزل الجديد الثالث ومعه الحارس الجندي .

ولما رأياها قد فتحت النافذة أخذ الاثنان لوحاً كبيراً من الخشب وجعلا يتعاونان على جره إلى نافذتها وهي مقابلة للشرفة التي كان فيها

فبدأت تفهم حيلة هذا الفتى لا سيما حين بلغ طرف اللوح إلى نافذتها واستقر عليها بينما كان طرفه الآخر مستقراً على الشرفة .

وعند ذلك أغمضت عينيها من الخوف ، فإنها رأت ذلك الفتى الباسل قد ركب فوق هذا اللوح الخشبي الذي لا يبلغ عرضه قدماً ، يزحف فوقه إلى نافذتها ، معرضاً نفسه لأعظم الأخطار بالسقوط من ذلك العلو الشاهق .

- ٦ -

غير ان الفتى كان قد الف هذه المخاطر وتمرس عليها منذ الحداثة فلم يكترث لها ولو وقف سواه هذا الموقف لأصيب بالدوار لعلو هذا الجسر الهوائي الذي كان يسير عليه .

وما زال يزحف متباطئاً منحدراً الى ان بلغ النافذة وكانت قد فتحت روافدها فاستقبلته وأعانته على الدخول إلى غرفتها وقد قالت له همساً إحذر ان ترفع صوتك او تذهب مساعينا أدراج الرياح .

وكانت قد أطفأت نور الغرفة غير ان أشعة القمر كانت ساطعة تنفذ اليها وتضيئها ، ويرى الفتى وجه الفتاة تسطع عليه تلك الأشعة وتزيده بهاء على بهاء

وكأنما قد عقد لسانه فلم ينبس بكلمة ، بل انه حسب نفسه حالماً لحظوته بهذا اللقاء على ما كان بينهما من تباين المقام فإنه كان يرى نفسه بناء حقيراً ، وينظر إلى ملابسه ، فيجدها رثة بالية ، والى يديه فيراهما ضخمتين محجرتين .

ثم يقارن بين حالته وحالتها فيجد انها إبنة لورد وينظر الى ملابسها فيجدها ترفل بالدمقس والحرير ، والى يديها الناعمتين المترفتين ويخشى أن يدميها باللمس ، ثم يسمع فمها الجميل يهمس في أذنه بأرق صوت كلاماً يدل على الثقة فيعلم انها قد اعتمدت عليه وشاركته في أمرها ورفعته من حضيضه الى أوجها فيحسب نفسه من الحالمين .

أما مس الن فإنها كانت تعلم دون شك موضع ذلك الثقب الذي ثقبه السير جيمس في باب غرفتها لمراقبتها وأخذت بيد الفتى وسارت بـه الى مكان من الغرفة لا ينفذ اليه الثقب ، ولا تراهما عين الرقيب فأدنت فمها من أذنه حتى لمستها وقالت هامسة : إني لا أعرفك ولكن ثقتي بك شديدة .

فتكهرب ذلك الفتى المنكود وقال لها : أنا أيضاً لا أعرفك يا سيدتي .

- تريد انك مخلص لي ؟

- بل إني أسفك دمي من أجلك .

فابتسمت له وقالت : وأنا أرجو أن لا تراق نقطة من دمك في سبيلي

وأؤمل أن تتمكن من خدمتي فيما أريد .

مري يا سيدتي أفعل .

— لا سبيل الآن الى الإسهاب فإن الوقت ضيق وأنا أخبرك بملء الإيجاز عن حالتي فإني ابنة لورد انكليزي هربت من منزل ابي لقضاء مهمة أعتبرها خطيرة .

فنظر اليها نظرة إعجـاب وقال : لو لم تكن مقدسة لما غادرت منزل أبيك !.

وعادت الى حديثها وقالت : إني اتيت الى باريس للبحث عن رجـل لا أعرفه ولا أعرف منزله ، ولا بد لي من إيجاده فإنه يدعى ميلون .

ودهش الفتى وقال : ميلون ؟

— نعم العلك تعرف من يدعى بهذا الاسم ؟

— ان مقاول المنزل الذي نبنيه يدعى يا سيدتي ميلون .

— رباه أيمكن أن يكون هو ؟

— من هو يا سيدتي العله الرجل الذي تبحثين عنه ؟

— قلت لك إني لم أعرفه ولم أره ..

— ألا تعلمين إذا كان من الكهولة او الفتيان ؟

— كلا .

— ان المقاول الذي أعنيه ضخم الجثة أبيض الشعر مشهور بكرم الأخلاق وطهارة القلب .

— ان كل ما أستطيع أن أقصه عن الرجل هو أنه يجب أن يكون عارفاً لامرأة تدعى فاندا ورجل يدعى روكامبول .

— ان ذلك يكفي وسأذهب في الصباح الى ميلون فأقول له أتعرف رجلاً يدعى روكامبول وإمرأة تدعى فاندا ، وإذا أجاب بالإيجاب كان هو الشخص الذي تبحثين عنه وأخبرك في الليلة القادمة .

ـ حسناً ، ولكني أحب أن أخرج من هـذا المنزل ، أتجد طريقـة لإخراجي منه ؟

ـ ان الطريقة سهلة ميسورة ولكن يجب أن أعود الى المكان الذي اتيت منه .

ـ لماذا ؟

ـ كي أضع لوحاً من الخشب أعرض وأثخن من هذا ...

ـ إني أجد هذا اللوح كافياً وأنا جريئة لا أخشى السقوط .

ـ ولكن هذا اللوح رقيق لا يحتمل اثنين .

وتمعنت هنيهة وقالت . أرى ان الأفضل إرجاء ذلك الى الليلة القادمـة وأن ترى ميلون الذي أخبرتني عنه .

ـ سأراه في الغد .

ـ ثم تبحث لي عن غرفة خارج باريس وتحضر لي ثياب بسيطة ممـا يلبسه النساء الفقيرات وخذ ما تحتاج اليه من النفقة .

ثم دفعت اليه كيساً محشواً بالذهب فقال لهـــا : سانفذ أمرك يا سيدتي بالتدقيق فاستعدي غداً في مثل هذه الساعة لأني سأمد لوحين مزدوجـين من الخشب الثخين العريض فتسيرين عليهما دون خطر

ـ انك رجل طيب القلب وستنال خير الجزاء عن إخلاصك .

ثم مدت اليه يدها فقبلها بملء الاحترام وخرج من النافذة الى اللوح وعاد عليه الى شرفة المـــنزل الجديد وسحب اللوح وركعت مس الن عند ذلك وشكرت الله لارساله اليها من ينقذها .

ولما فرغت من صلاتها دنت من باب غرفتها وانصتت ولم تسمع من السـير جمس ما يدل على الرقاد، واضطربت ولكنها كانت تحادث الفتى بحيث يصعب أن يسمع الشرطي ذلك الحديث .

على أنها باتت تلك الليلة عرضة للقلق ولم تطمئن إلا في صباح اليوم التالي

حين رأت السير جمس فإنها رأت السكينة بادية عليه فقال لها : أرجوك يا سيدتي أن تصبري على عشرتي ، فإنك لا تتحملني على مضضها غير اثني عشر يوماً .

وقالت مس الن في نفسها : بل ربما نجوت منك الليلة . ثم انصرفت إلى التفكير بذلك الفتى البناء .

- ٧ -

أما الفتى البناء ، فإنه حين وصل إلى شرفة المنزل كان الحارس الجندي ينتظره ، وتعاون على إرجاع اللوح إلى مكانه ، وقص الفتى على الحارس جميع ما جرى له مع مس الن .

وقال له الجندي بعد ان فرغ من حديثه : ماذا عزمت أن تفعل ؟

– ان الأمر بسيط ، لقد عزمت على أن أرى المسيو ميلون .

- وبعد ذلك ؟

- اسأله إذا كان يعرف رجلاً يدعى روكامبول .

– إني لا أوافقك على رأيك ..

– لماذا ؟

– لأني رجل مجرب ، وأنت لا تزال في مقتبل العمر وقد قلت لك أن التسرع غير محمود في هذه الأمور .

– أرجوك الإيضاح أيها الرفيق فإني لم أفهم شيئاً مما تقول .

فقال له الجندي : افترض يا بني ان المسيو ميلون ، مقاول هذا البناء لا يعرف روكامبول ، وليس هو ذلك الشخص الذي تبحث عنه الانكليزية ، أليس ذلك ممكناً ؟

ـ كل الإمكان .
ـ وإذا سألته هذا السوال فهو سيسألك عن السبب وأنت تخبره بالحقيقة .
ـ دون شك .

ـ وان ميلون قد تجاوز عهد الشباب وخطا إلى الكهولة فهو لا يكترث بأمور الغرام ، ولا ينظر إلا إلى مصلحته الخاصة أفهمت الآن ؟
ـ كلا أيها الرفيق .
ـ إذاً فاعلم ان المسيو ميلون هو رئيسك وانه لا ينظر في جميع ما تقوله إلا إلى أمر واحد .

ـ ما هو ؟
ـ هو أنك تتغاضى عن عملك وتصرف نهارك بالغرام وليلك بتسلق البيوت المأهولة ، وان الشرطة قد تعلم بأمرك ، وان صاحب المنزل المأهول قد يشكو أمره إلى الحكومة ويكون كل ذلك بسببك .

وتنهد الفتى وقال إنك مصيب فيما تقول لأن كل ذلك قد يحدث .
ـ وتكون النتيجة انه يطردك من المعمل ولا تعود قادراً على إنقاذ الانكليزية .
وانقبضت نفس الفتى لهذه الحقيقة الظاهرة وسأله : مـاذا كنت تصنع لو كنت في مكاني ؟
ـ كنت أكتم الأمر عن المسيو ميلون واهتم بايجاد غرفة للفتاة، وما طلبته من الثياب ، وعندما يقبل الظلام نمد لوحين من الخشب وتنقذها ، حتى إذا صارت خارج المنزل وأمنت عليها الرقباء تذهب إلى ميلون وتسأله إذا كان يعرف روكامبول ، إذ لا تبالي بعد ذلك بما يكون منه لأن الفتاة تغنيك عن العمل بعد إنقاذها .

ـ لقد أصبت وسأعمل برأيك .
ثم ذهب الاثنان إلى غرفة كانا قد أوقدا فيها النار فناما ، ولمـا أشرق

الصباح قال الجندي : لقد خطر لي خاطر وهو ان لي أختاً غسالة تقيم في شارع مقفر وهي تحبني حباً شديداً فاذا سألتها أن تقيم الانكليزية عندها لا تمانع .

وشكره الفتى شكراً خالصاً .

ومضى ذلك النهار والبناء يترقب زوال الشمس بفارغ الصبر وهو لا يجسر ان يرفع عينيه الى النافذة حذراً من أن يعلم رفاقه شيئاً من قصده أو ينتبه اليه الذين يترقبون الفتاة .

ولكنه وجد لوحين قويين يفيدانه لتنفيذ مأربه فنقلهما إلى الدور الثالث .

ولما أقبل الليل انصرف العمال وجاء الحارس وهو يحمل صرة تحت إبطه وخلا بالفتى وقال له : لقد رأيت أختي وهي تنتظرك الليلة مع الانكليزية ، وقد أعطتني هذه الصرة من الثياب لتلبسها الفتاة حين فرارها .

وأوقدا ناراً وأقاما حولها ينتظران انتصاف الليل .

وكانت تلك الليلة حالكة الظلام فقد تلبدت فيها الغيوم وحجبت نور القمر ، وكان الحارس يظهر مروره بهذا الظلام لأنه أستر للفرار .

وبعد أن مر قسم طويل من الليل رأيا نوراً في غرفة مس الن فقال الفتى البناء للحارس : اني لا ابرح مكاني مازال النور في الغرفة .

- لماذا ؟

- لأنه يدل على أنها ليست وحدها في الغرفة فمتى انطفأ وضعنا الألواح بين الشرفة والنافذة .

وقبل أن يتم حديثه إنطفأ المصباح وفتحت النافذة ، فتعاون الاثنان على مد اللوحين حتى إذا فرغا ركب الفتى البنّاء الجسر الهوائي وجعل يزحف فوقه إلى غرفة الفتاة .

ولم يكد يبلغ نصف الطريق حتى رأى ان روافد النافذة قد فتحت بعنف وبرز منها وجه إنسان ، لكنه لم يكن وجه مس الن بل وجه رجل ، فأخذ

الرجل طرف اللوح المتصل بالنافذة ورفعه بقوة والقاه في الفضاء ، وسقط الفتى يهوي إلى الأرض من ذلك العلو الشاهق ، وسمع الحارس الجندي صيحة هائلة خرجت من صدر ذلك الفتى المنكود الحظ .

- ٨ -

أن من يقيم في باريس منذ عهد غير بعيد يرى الجهة اليسرى من الشانزليزه قد تغيرت تغيراً عظيماً في العامين الآخرين ، فإن قرية شاليوت القديمة قد اختفت بجملتها ، وقصر دوقة دي الب وبستانه ، وهو عدة أفدنة قد استحال إلى أراض مخصصة للبناء بحيث لا يمر زمن وجيز حتى تشاد مكان هذه الأراضي مدينة جديدة .

وقد دعي الشارع الجديد شارع مورتي ، ولم يكن فيه غير أراض معدة للبيع وبعض أبنية جديدة متفرقة فيه .

وكان الشارع يقفر ليلاً ولا تمر فيه مركبة ، في حين أنه كان على قيد خطوتين من الشانزليزه ، ولم يكن أحد يجسر على المرور فيه في الليل خوفاً من اللصوص .

على انه في تلك الليلة ، وفي نفس الساعة التي هوى فيها ذلك الفتى المنكود من نافذة مس الن إلى الأرض كانت مركبة جميلة تسير في ذلك الشارع يجرها فرسان كريمان ، ولما بلغت إلى آخره قرب الشانزليزه وقفت ففتح شاب كان فيها بابها ونزل منها .

وكان الشاب متشحاً برداء لا تنفذ اليه الأمطار ووضع قبعة على رأسه إتقاء المطر وأشعل سيكاراً وقال للسائق : عد الى المنزل .

— ألا تريد أن أنتظرك يا سيدي ؟

— كلا

ورجع السائق وكان يلتفت مراراً علّه يعلم أين يذهب سيده مـــاشياً على الأقدام في مثل هذه الساعة .

وكأنما الشاب قد أدرك قصد السائق ولبث واقفاً في مكانه حتى توارت المركبة عن الأنظار ، وسار مسرعاً حتى بلغ التركيدارو فاجتاز منه شارع فرنسوا الأول ، وهو مقفر أيضاً ، ووقف في مكان منه وقد سمع وراءه صوت رجلين يتكلمان بصوت منخفض .

ودخل بين الأدغال ووقف يسمع ما يتحدث به الرجلان حتى إذا دنوا منه رأى أن أحدهم ضخم الجثة عالي القامة وقال في نفسه : لا بد أن يكون هذا ميلون .

ثم سمع حديثهما وكان أحدهما يقول للآخر : إذاً لا يجب أن أحضر اليك الليلة ؟

— كلا مهما دعت الحال إلا إذا عاد الانـكليزي الذي جاء في مساء أمس .

— أأنت ذاهب الى نفس المـكان الذي تذهب عادة اليه ؟

— نعم ، فعد الآن الى المنزل فلم تبق حاجة اليك .

وعاد الرجل الصغير من حيث أتى واستمر الرجل الضخم في سيره .

وعند ذلك خرج الفتى من الأدغال ودنا من الرجل الضخم ، والتفت اليه الرجل وقال له : من أنت ؟

فأجابه الفتى : أهذا أنت يا ميلون ؟

وسر ميلون وقد عرف الفتى من صوته وقال : أرجوك المعذرة يا مرميس فما عرفتك إلا من صوتك لشدة الظلام .

فأخذ تلميذ روكامبول بيد ميلون ذلك الخادم المخلص الأمين لرئيسه وسار وإياه فقال ميلون : أرأيت يا مرميس حرصي على الحضور في ميعاد جلستنا الشهرية ؟

- وأنا كذلك حريص مثل هذا الحرص .
- إني واثق بان جميع المصابة يحضرون .
- ما خلا فاندا .

فذهل ميلون وقال · لماذا ؟
- إني أرسلتها الى انكلترا باحثة عن روكامبول وعسى تجده .
فهز ميلون رأسه وقال بصوت يتهدج : إني أخشى ان يكون الرئيس أصيب بمكروه .
- إنك كنت تخاف هذا الخوف وتقول نفس القول منذ أربعة أعوام حين كان الرئيس في الهند .
- لا أنكر اني كنت أقول هذا القول .
- ولكنك لا تنكر أن الرئيس قد عاد .
- هو الحق ايضاً غير ان المثل المأثور « ما كل مرة تسلم الجرة » .
فأظهر مرميس نفوراً من ميلون وقال له : إنك نسيت واجب الاحترام للرئيس يا ميلون أيجمل بك ان تشبه الرئيس بالجرة ؟
- اعذرني ايها الصديق فأنت تعلم اني ساذج الفطرة سمج الألفاظ ولا تجهل مقدار احترامي للرئيس ، ولكنه مثل ما جرى على لساني فنطقت به وأنا لا أريد غير معناه .
- لا بأس ولكنك نسيت ان هذا الرئيس القوي المحبوب يعبث بالموت ويستقبله باسم الثغر .
- ولكن قد مضى عهد طويل يزيد عن نصف عام دون ان نقف على شيء من أخباره .
- إن لندرا غير بعيدة عن باريس ، فاذا كان الرئيس لم يوقفنا على أثر أخباره فقد يكون بذلك له مأرب خفي. غير اني سمعت الرجل الذي فارقك الآن يحدثك عن رجل إنكليزي فمن هو هذا الرجل ؟

- نعم سأخبرك عنه متى وصلنا إلى محل الاجتماع .

ثم سار الاثنان حتى وصلا الى أرض مسورة بالأدغال ، ففتحا بينهما ممراً ودخلا .

وقال ميلون : أظن اننا اول القادمين .

- اخبرني الآن من هوا هذا الانكليزي .

- ٩ -

وأعاد ميلون مدخل الأدغال إلى ما كان عليه وسار مع مرميس جنباً إلى جنب في تلك الأرض .

وقال له : لقد جاءني منذ ثمانية أيام رجل إنكليزي .

ولم يكن الرجل من النبلاء او الأغنياء ، بل كان رجلاً تدل ملابسه الرثة على فقره المدقع فحسبته لأول وهلة متسولاً وهممت ان أحسن اليه فمنعني عن ذلك بقوله : إني ما أتيت يا سيدي لمثل ذاك .

ثم قص علي قصة طويلة مفادها انهم سرقوه وهو قادم من لندرا الى باريس وكان مما سرق منه كتاب خطير ، وهو يتضمن حوالة مالية على رجل يدعى ميلون أعطاه إياها رجل يدعى الرجل العبوس . أتعرف أحد يدعى بهذا الاسم ؟

- كلا .

- وأنا أيضاً ولكن خطر لي بعد ذهاب ذاك الانكليزي ان الرجل العبوس قد يكون الرئيس .

- ما الذي أوحى اليك ذاك الخاطر ؟

- إن الانكليزي أخبرني ، حين سألته عن الرجل العبوس ، إنه فرنسي

وانه يعمل على استقلال ارلندا . وانه رجـل قوي قادر لا يقدم على أمر إلا يكون به من الفـائزين . ومثل تلك الصفات تنطبـق على روكامبول كل الانطباق .

فظهرت على محيا مرميس علائم التفكير وقال : أتم حديثك .

– ويظن الانكليزي ان الرجـــل العبوس الذي أعطاه كتاب الحوالة ، قد وقع عليه بغير ذاك الاسم ، ولكنه أعطاه إياه مختوماً ، فلم يذكر غير عنوانه وهو اسم ميلون وذهب الى جميع الذين يدعون بهذا الاسم فكانوا يطردونه لظواهر فقره .

ولقد أخطأت أنا أيضاً نفس الخطأ ، فقد حسبته متشرداً محتالاً . وكان ذلك اليوم الذي جاءني فيه يوم سبت ، أي يوم محاسبة العمال ، فأعطيتـــه عشرة فرنكات وقلت له : ليس لي وقت لمقابلتك الآن ، إذهب وعد إلي في غير هذا اليوم .

- ألعله عاد ؟

فتنهد ميلون وقال : كلا ولكني أمرت خادمتي ووكيلي وكل من يقيم في منزلي أن يحتفظوا بالرجل إذا عاد ، وأن يسرعوا إلى إخباري في أي مكان كنت فيه .

– أحتى في المكان الذي نحن ذاهبان اليه ؟

– نعم .

– لقد أحسنت بهذا الاحتيـاط ، وان قلبي يحدثني بان الرجـل قادم من عند الرئيس .

فتنهد ميلون ايضاً وقال : ولكن إذا لم يعد فماذا تصنع ؟

– نبحث عنه

– إن باريس واسعة ولا يكون مثلنا في البحث عنه إلا مثل الباحث عن إبرة بين أكداس الحشيش .

ـ لقد أخطأت لأن الانكليز قليلون بيننا ولا سيما الفقراء منهم .

وسار الاثنان في تلك الأرض المعدة للبناء ، بين أنقاض المنازل المتهدمة وأدوات المنازل الجديدة ، حتى انتهوا الى محل يشبه البئر ، وقد غطى فمه بالأدغال والشوك .

فأزاح ميلون تلك الأدغال ، فانكشفت عن قبو متسع فدخل مرميس وتبعه ميلون .

وقال ميلون : إننا أول القادمين فلم يحضر أحد بعد .

ـ لا بأس إننا ننتظر .

فأخذ ميلون شمعة من جيبه وكبريتاً وأنارها ، فظهر في القبو سلم داخل في جوف الأرض .

ونزل فيه وتبعه مرميس . حتى اذ نزلا ثلاثين درجة باتا في دهليز وظهر لهما نور بعيد .

وقال ميلون : يظهر اني كنت مخطئاً ، فمن عسى يكون قد تقدمنا من أفراد العصابة ؟

ـ أظنه مورت إن منزله قريب من القبو .

فأطفأ ميلون الشمعة ، وسار مع مرميس مسترشدين بذلك النور الذي كان ينبعث من ثقب قفل ، كما يظهر ، حتى وصلا إلى منبعث النور وهناك باب مقفل .

وطرقاه ثلاث مرات متوالية ففتح لهما ودخلا فوجدا رجلاً ضخم الجثة وقد بيضت شعره الأيام .

كان هذا الرجل الذي فتح باب القبــو جواني الجزار ، وهو ذلك الرجل الذي تقدم لنا وصفه في الروايات السابقة ، حين كان جلاد في سجن طولون ، فأنقذه روكامبول من السجن ، وأتى به الى باريس وضمه الى أفراد عصابته .

وكان أول القادمين الى ذلك المجتمع السري في تلك المغارة التي كانت باقية من آثار الأبنية الأولى .

ولا بد لنا ان نذكر السبب في اجتماع العصابة في ذاك المكان مرة في كل شهر فنقول :

يذكر القراء انه حين عاد روكامبول من الهند سار بجميع رجاله الى لندرا فلما استرد تلك الأموال التي اختلسها الماجور من ابن الرجاه لبث رجاله ينتظرونه في الباخرة ، فلم يعد . ولكنه أرسل اليهم كتاباً قال فيه : عودوا الى فرنسا وسأتبعكم .

فمر على تلك الحادثة عام ولم يعد روكامبول .

وكان جميع أفراد عصابته ، وكل من أخلص له ، يجتمعون مرة في كل شهر برئاسة مرميس او ميلون في خمارة او في قهوة ، وكل منهم يرجو ان يعلم نبأ جديداً عن روكامبول حتى ان بعضهم سافروا مستطلعين مستكشفين فلم يقفوا على أثره .

ثم ان رجال روكامبول لم يكونوا من اولئك البؤساء والتعساء الذين يشغلهم الفقر عن الاهتمام بغير شؤونهم فإن روكامبول كان قد أتم إحسانه اليهم ، وانه لم يقتصر على تطهير قلوبهم من وصمة الشر والآثام وجعلهم من أهل الخير والصلاح ، بل إنه التمس لهم عفو الحكومة بواسطة الكونتس ارتوف ، أي باكارا ، والكونت أرمان دي كركاز . وجعل لكل منهم مهمة يرتزق منهـا

وينفق ما يزيد عنه على التعساء .

وقد أنشأ الجواني الجزار مجزراً ، يبيع فيه المواشي واللحوم في شارع باسي ، فكان الناس يحترمون هذا الرجل لما رأوه من ظواهر صلاحه .

وجعل ميلون مقاول أبنية ومنازل ، فانه كان بناء قبل ان يعرفه ، وعين له رأسمالاً عظيماً من أموال مرميس التي اتصلت اليه من جيبسي النورية فانتظمت أعماله واتسع نطاق أشغاله حتى بلغ عدد العمال في معامله الف وخمسمائة عامل وبات من اهل الثروة واليسار .

وافتتح من أموال مرميس أيضاً مخزناً كبيراً لبيع الأخشاب عهد به إلى مورت فإنه كان في بدء عهده نجاراً .

وعلى الجملة فإنه أشغل كل واحد من رجال عصابته بالمهنة التي يعرفها ، فحسنت أحوالهم وعظم في نفوسهم ذاك الرجل الذي كان في بدء أمره لصاً مثلهم فتاب وبات من أفضل أهل الخير والصلاح .

على ان منظر تلك العصابة حين اجتماعها في تلك المغارة السرية ، كان من أغرب المناظر . فان كلا عنهم كان يـــأتي بالملابس التي يلبسها حين شغله . فيحتك ثوب فاندا الحريري بثياب النجار الزرقاء ، وفروة ميلون الطويلة برداء مورت القصير ، وتلتقي رائحة مرميس العطرية وملابسه الناعمة بثياب الجزار الخشنة وما تلطخ فوقها من لطخ الدهن وروائح اللحوم .

ثم ان اجتماعهم أشغل أفكار البوليس ، فإنهم كانوا مرة مجتمعين في خمارة فارتاب أحد رجال البوليس في أمرهم وكتب عنهم تقريراً الى مأمور القسم في ذلك الشارع .

وكان المأمور يعرف ميلون فدعاه اليه وسأله عن أسباب هذا الاجتماع فأجابه : إننا أصدقاء قدماء نأدب مأدبة في كل شهر تجمع عقدنا ، وتجدد عقد صداقتنا .

فاكتفى المأمور بهذا الجواب غير ان ميلون رأى ان الحرص أفضل فقال

لمرميس : اني أكره مداخلة البوليس في شوونا وسأدلك على محل تجتمع فيه في الشهر القادم فلا يهتدي اليه البوليس

ولذلك اختار تلك المغارة القديمة في ذلك الشارع المقفر وأرشد اليه جميع العصابة فكانوا يجتمعون فيها كل شهر آمنين مراقبة العيون .

وقد تقدم لنا القول ان جواني كان أول القادمين ، ثم تلاه مرميس وميلون ، ووصل بعدهما مورت وعشرة غيرهم .

وكان كل منهم ينظر الى الرفاق نظرة تدل على الكآبة لأنه لم يكن بينهم من عرف شيئاً عن روكامبول .

فلما انتظم عقدهم قال مرميس : هل أتى الجميع ؟

قال ميلون : نعم ما خلا فاندا .

قال مرميس. لقد قلت لك انها ذهبت الى لندرا وربما لا تتمكن من حضور مجتمعنا هذا .

وقبل ان يتم حديثه فتح الباب فجأة فصاحوا جميعهم صيحة فرح إذ رأوا فاندا واقفة على عتبة الباب .

وكانت لا تزال بثياب السفر وهي متشحة برداء مبطن بالفرو فقالت : إني أتيت من لندرا أحمل اليكم أخباراً عن روكامبول .

فصاحوا جميعهم صيحة ارتجت لها جوانب المغارة وقالوا: ليحيا روكامبول ليحيا الرئيس .

فلما انتهوا من صياحهم قالت فاندا : اني لا أعلم واأسفاه أين هو ولكني أؤكد لكم انه لا يزال حياً .

قال مرميس : إذاً ألم تريه ؟

— كلا ولكني اتبعت آثاره الى عهد اسبوعين ، وبعد ذلك اختفت عني تلك الآثار .

فقال ميلون : واأسفاه ان ذلك يدل على انه أصيب بمكروه

ـ كلا لأني حين فقدت أثره كان منتصراً على أعدائه

وقال مرميس : من هم أعداؤه ؟

ـ إن أعـداء روكامبول الآن هم اولئـك الذين يضطهدون الارلنديين ، والكنيسة الكاثوليكية اي الشعب الانكليزي،وقد ترأس روكامبول الارلنديين في لندرا وهم يدعونه الرجل العبوس .

فصاح ميلون مندهشاً : أتقولين انهم يدعونه الرجل العبوس ؟

ـ نعم ..

ـ لقد ثبت الآن ان ذاك الانكليزي المنكود الحظ كان قادماً إلي من عند الرئيس .

وقد ظهرت على ميلون علائم اليأس بعد هذا القول .

وقال مرميس لفاندا : أخبرينا الآن من أين انت آتية ؟ وماذا عرفت عن روكامبول ؟

- ١١ -

وكانت فاندا قد عادت تلك الليلة نفسها من لندرا ، فلم تذهب الى منزلها الفخم في شارع ماريفيان ، بل أتت تواً من المحطة إلى مجتمع العصابة ، وهي لا تزال بثياب السفر ، فأوقفت مركبتها في شارع مورلي وأتت سيراً الى المغارة

وكان السكوت سائداً بين أفراد العصابة ، وكلهم ينتظرون بملء الجزع ما ستورويه لهم فاندا عن روكامبول .

فجلست فاندا قرب مرميس وقالت . إننا حين برحنـا لندرا بأمر الشرطة ، كان روكامبول مسجوناً فيها ولكنه خرج من السجـن في اليوم

التالي بضمانة .

ثم اختفى من لندرا عدة أيام ، فتعذر على رجـال الشرطة الانـكليزية إيجاد آثاره .

فقال لها ميلون : وأنت أوجدت آثاره ؟

— نعم ..

— أفي لندرا ؟

— في لندرا نفسها . فقد بدأت في التنقل من فندق إلى فندق ، وأقمت في جميع الفنادق الفرنسية مدة ثمانية أيام . ولكن هذه المساعي لم تسفر عن الفوز فقلت في نفسي: إني لا يمكن ان أجده في مثل هذه الفنادق فلأبحث عنه في غير تلك الأمكنة .

ثم ذهبت إلى شارع الأحواض لما أقمت في فندق بل استأجرت غرفة في منزل حقير وتنكرت بثياب العوام .

وأنا أعرف اللغة الانكليزية كأبنائها ، فجعلت في النهار أتجول في الشوارع والأزقة . وفي الليل أدخـل الحانات والمنتديات العمومية . فلم يفدني كل ذلك في شيء .

وكانت غرفتي في ذلك المنزل الذي كنت فيه في الدور الثاني ، وكان يقيم في غرفتي عائلة مؤلفة من أبوين وابنتين ، بينهم فتاة حسناء ، وكنت أراها تمر أمامي فأرى عليها آثار نحول ، تدل على انها ناقهة من داء شديد . فكنت كلما رأيتها ابتسمت لها الى أن أفضى الأمر بنا الى التعارف .

فقلت لها يوماً : إني أرى عليك أثر النحول ، فهل كنت مريضة ؟

— بل كنت مشرفة على الموت فأرسل لي الله من أنقذني .

— أهو طبيب حاذق ؟

— بل هو محسن نبيل ، فإن دائي لم يكن يشفيه غير الراحة وتبديل الهواء وهو ما لم يكن ميسوراً لفقري .

فأرسل الله إلي رجلاً كريماً نبيلاً ، عرف تلك العلة وأزالها بفكره الوضاح ، وهو رجل أظنه فرنسي الأصل ولم أعلم حقيقة اسمه فانه كان يلقب بالرجل العبوس .

ثم قصت علي ما عرفته من أخبار ذاك الرجل وأخلاقه ، ووصفت لي تقاطيع جسمه .

الى ان أخبرتني ان لديها رسمه ، فشاقتني أخبار ذاك الرجل إلى رؤية وجهه . فلما رأيت تلك الصورة صحت صيحة فرح ، إذ عرفت انها صورة روكامبول .

وعند ذلك جعلت استقصي من تلك الليلة أخباره ، فعلمت بارشادها كثيراً من أموره ، وجعلت أقفو أثره خطوة خطوة ، وكلما أوشكت ان أظفر بلقائه فقدت ذلك الأثر .

وقد عرفت جميع الرجال الذين خدموه وكانوا تحت لوائه أشبه بالجيش الصغير وعلمت غايته والمعارك التي خاضها والفوز الذي ناله .

ثم علمت أيضاً أنه أرسل منذ ثلاثة أسابيع إلى فرنسا غلاماً إرلندياً يعده الارلنديون زعيمهم الأكبر .

وأرسل مع هذا الغلام رجلاً إنكليزياً يدعى شوكنج ، وينبغي أن يكون الآن في باريس وهو لا بد ان يكون واقفا على كثير من أسرار الرجل العبوس .

فقال ميلون . لا شك ان هذا الانكليزي ، هو نفس الشخص الذي أتاني .

وعادت فاندا الى الحديث فقالت . إن الغلام سافر إلى باريس ، وبقي روكامبول في لندرا . فركب في إحدى الليالي قارباً ذهب فيه بمياه التميس الى جسر وستمنستر ومنذ ذلك العهد لم يعد يراه أحد .

على أنه قال وهو في القارب انه قد لا يعود .

وقد بذلت جهداً عظيماً للوقوف على ما جرى له فلم أعلم غير ما ذكرت لكم من أخباره .

فقال ميلون : واأسفاه انه بات من الأموات .

فهز مرميس كتفه وقال : إن روكامبول لا يموت .

وقالت فاندا : اني أعتقد نفس اعتقادك ولكن كيف انقطعت أخباره واين هو الآن ؟

فقال جواني : انه قد يكون في باريس .

وقال مورت : إني طالما ظننت هذا الظن

وقال مرميس . إنه لو كان في باريس لكنا رأيناه .

وهنا عاد الأمل إلى قلب ميلون فقال : اذكر اننا حين كنا منذ أربعة أعوام قانطين من لقائه باغتني شخص وأنا قابع على عتبة الباب فوضع يده على كتفي وقال لي : أيها الأبله ! إن من كانت لديه مهمة لا يموت قبل قضائها .

فالتفت فكان ذاك الرجل روكامبول .

فرد مرميس : إذاً ثق انه سيقول لك هذا القول مرة اخرى لأن المهمة الأخيرة التي تولاها لم تتم بعد .

إن انكلترا لا تزال تضطهد ارلندا وتسيء إلى أساقفة الكاثوليك وتفرغ جهدها للتنكيل بالارلنديين .

وعلى ذلك فإن روكامبول لم يمت بعد .

فقال ميلون : من يعلم إذا كان محتاج الينا ويا حبذا لو تيسر لي لقاء ذاك الانكليزي الذي زارني .

وعند ذلك سمعوا وقع أقدام خارج المغارة فقال مرميس من عسى يكون القادم العلنا ننتظر أحد بعد ؟

فرد جواني · كلا إن عددنا قد تم

فقالت فاندا : رباه ! إني أسمع دقات قلبي لاضطرابي ألا يمكن ان يكون القادم روكامبول ؟
وهنا سادت السكينة وخفقت القلوب وانصرفت الأنظار إلى الباب .

- ١٢ -

وقد مرت بهم دقيقة هائلة لما تولاهم من الاضطراب . ثم فتح الباب فظهرت علائم الاشمئزاز على وجوههم .
ذلك ان هذا القادم لم يكن روكامبول ، بل كان وكيل ميلون الذي رافقه في شارع مورني حين لقيها مرميس وحذره أن لا يجيء اليه إلا اذا أتى الرجل الانكليزي .

فلما رآه ميلون داخلا قال له : لماذا أتيت إلي ؟
— ذلك لأنه حدث مصاب عظيم يا سيدي .
فاضطرب ميلون وقال : ويحك ما هذا المصاب ؟
— إنك تعلم أن فتى بناء ينام عادة في ورشة لويس الكبير .
— كلا لا أعلم ولكن أتم حديثك .

ثم التفت الى مرميس وقال : أرجوك المعذرة فان هـذا الأبله أتى يحدثني بأشغالي الخصوصية في هذا المكان .
— لا بأس فليتمم حديثه .

فقال الوكيل إن هـذا الفتى يا سيدي ، قد سقط من الدور الثالث ، وربما القوه منه ، فاني لا أعلم الحقيقة غير أن هذا المنكود قد بلغ حد الاحتضار .
وقد ذهبوا به الى مركز الشرطة ، وهناك دعوني اليه ، فلما رأيته قال

لي : أرجوك ان تبحث لي عن ميلون لأراه قبل الموت ، فاذا كان هو ميلون الذي يعرف روكامبول فقل له لدي سراً عظيماً أحب ان القيه اليه قبل ذهابي الى العالم الأخير .

فلما سمع ميلون حديث وكيله ، وثب الى الباب وقال : أهو قال هذا القول ؟

– نعم يا سيدي .

– إذاً انا ذاهب اليه .

– يجب الاسراع يا سيدي ، وقد أوقفت مركبة عند أول الشارع ، فهلم اليه .

فهم ميلون بالخروج فقال له مرميس : اصبر اني ذاهب معك

ثم التفت الى الحضور وقال لهم ابقوا هنا الى ان نعود، إن غيابنا لا يطول اكثر من ساعة .

وخرج الاثنان في أثر وكيل ميلون ، فركبا المركبة التي كانت تنتظره في اول الشارع .

وسارت بهم الى مركز الشرطة فبلغت اليه بعد ربع ساعة .

وكان الفتى البناء هناك ، في حالة تقطع القلوب من الاشفاق ، وقد وقف الجندي الحارس أمامه يرثي لبلواه ، ويمين الطبيب على ضمد جراحه . فكان يقول إني موقن بقرب الساعة ، ولكني لا أبالي بالموت اذا كان ميلون الذي أعرفه هو ذلك الرجل الذي تبحث عنه الانكليزية ، واذا كان يدركني قبل الموت .

أما الحارس الجندي فكان يسمع أقواله ويبكي . ثم ينظر إلى الطبيب نظرة السائل .

لكن الطبيب لم يكن يجيب بحرف .

عندما جاء ميلون ومرميس ظهرت على وجه الفتى علائم البشر وقال لميلون: لقد كنت واثقاً انك أنت هو الذي كانت تبحث عنك .

قال له ميلون بصوت يضطرب اشفاقاً على هذا المنكود الحظ : من هي التي تبحث عني يا بني ؟

— الانكليزية .

— ومن هي هذه الانكليزية ؟

— هي الفتاة الأسيرة في المنزل المشرف على الورشة ، وقد أردت انقاذها فاصغ إلي يا سيدي ، ولا تقطع علي الحديث فاني أخاف ان يدركني الموت قبل استيفائه .

فحال الحارس دون ما يبتغي وقال له : اني أعرف الحكاية يا بني كما تعرفها فدعني أرويها عنك وإذا اخطأت أصلحت خطئي .

وعند ذلك خرج الطبيب احتراماً لإرادة هذا المحتضر واندفع الحارس في حديثه ، فقص على مرميس وميلون جميع ما مضى مما عرفه القراء ، أما ميلون فانه لم يفهم شيئاً مما تريده هذه الانكليزية ، ولكن مرميس لم تفته كلمة من حكاية الحارس .

فلما أتم حكايته ووافق عليها البناء نادى مرميس الطبيب وقال له : ألا يمكن نقل هذا الجريح من هذا المكان ؟

— ان ذلك يستحيل قبل الغد .

فأوصاه وأوصى مأمور القسم به خيراً ونادى الحارس وقال له : هلم أنت معنا لأننا محتاجان اليك .

فقال له ميلون : إلى أين تذهب ؟

— إلى المحل الذي جرت فيه الحادثة فاني أحب أن أرى النافذة ثم خرج مع ميلون يتقدمها الحارس إلى معمل البناء .

أن ميلون كان عارفاً بذكاء مرميس فلم يكن يثق إلا به ولا يعتمد إلا عليه بعد روكامبول ، ولذلك تبعه إلى حيث أراد وهو واثق بان بحثه سيسفر عن نتيجة حسنة .

فلما وصل إلى المعمل قال مرميس للحارس : ارني النافذة .

فأراه أياها وأراه اللوح الخشبي الذي سقط بالفتى فصعد مرميس إلى شرفة المنزل الجديد وفحص المسافة الفاصلة بينها وبين غرفة مس الن وأخذ دفتراً من جيبه وخط فيه بعض كلمات .

ثم عاد إلى ميلون وقال له : اصغ إلي الآن فانه يجب أن تعود الى المغارة وتقول للعصابة : اننا لا نستطيع أن نخبرهم بشيء الآن ولكننا نحتاج اليهم قريباً .

– وأنت ماذا تصنع ؟

– أقيم هنا .

– أتقيم هنا وحدك ؟

– نعم ، اني سأجول قليلاً في هذا الشارع ثم أعود ، فقل للحارس أن يطيعني في كل ما آمره به .

فنادى ميلون الحارس وقال له : أني أنا مقاول هذا البناء ولكن رفيقي مهندسه أفهمت المراد ؟

– تريد انك أنت تشبه الكولونيل وهو يشبه الجنرال اني سأطيعه يا سيدي كما أطيعك .

فقال مرميس لميلون : يكفي الان ، اذهب الى حيث قلت لك .

فامتثل ميلون دون أن يعترض او يسأل فانه تعود ان يطيع مرميس كما كان يطيع روكامبول .

أما مرميس فانه حين خلا بالحارس وضع يده على كتفه وقال له : تعال معي وتبعه الحارس وذهب الاثنان إلى شارع لويس الكبير فدنا مرميس من منزل مس الن وقال للحارس : أهو ذا باب منزل الفتاة ؟

- نعم هو بعينه .

فأخذ دفتر وكتب فيه نمرة المنزل .

وقال الحارس : قد يمكن يا سيدي أن الفتاة لا تزال في المنزل وإنها لم تبرحه هذه الليلة .

– هـذا ما أريده منك أن تساعدني على معرفته .

– أتريد أن أقرع الباب وأسأل ؟

فابتسم مرميس لسذاجته وقال : كلا ، بل أريد أن تذهب معي إلى منزلي في البدء .

فاستغرب الحارس من قوله وقال له : الى منزلك يا سيدي ؟

– نعم فهو قريب من الشارع .

وكان مرميس يقيم في منزل جميل ويسكن الدور الأول منه ، فلما وصلا اليه وطرق الباب فتح له خادمه ، فدهش حين رأى سيده عائداً اليه بعد انتصاف الليل يصحبه رجل رث الثياب مبتور الساق ، ولم يمهله أن يمعن النظر بالحارس بل أمره أن يعود إلى فراشه .

ثم دخل بالحارس إلى منزله ، وكان انذهاله أشد من انذهال الخادم لما رآه من الأثاث الفاخر ، وجعل يسأل نفسه عن السبب بالمجيء به إلى مثل هـذا القصر الجميل .

غير ان الجندي يتمرن على الصمت مدة خدمته ويغدو الصمت من طبعه ، ثم أن ميلون قد أمره أن يطيعه ، ولم يجد بدأ من الامتثـال ، ولم يسأله عن شيء .

أما مرميس فإنه سار به إلى غرفة اشغاله فقال له : أنظر إلى الآنيـة

الموضوعة على المنضدة فإن فيها ثلاث زجاجات مختلفة من الخمر فاشرب ما يروق لك منها ، وإذا نعست نم على هذا المقعد وسأعطيك رداء للنوم .

— لست بحاجة إلى الرداء يا سيدي فإني أنام بثوبي .

— أما أنا فإني محتاج إلى ثوبك وسأبدله بثوب آخر .

— ماذا تريد أن تصنع به ؟

— أريد ان ألبسه وأتولى حراسة المعمل الليلة .

— ودهش الحارس وقال : أني لا أفهم يا سيدي ما تقول .

— إصغ إلي تعلم المراد .

ثم صب له كأساً من الوسكي وصب لنفسه مثله وشربا ، ثم قال له : إنك تعلم يقيناً أنه ليست الانكليزية التي القت اللوح من النافذة ورمت ذلك الفتى المسكين .

— دون شك ، لأنه لم يرتكب هذا الاثم الفظيع غير أحد الرجلين الذين يحرسانها .

— هو ذاك ، ولا بد ان الرجلان قد رأياك مع الفتى البناء وهما على غير ثقة منك .

— ربما ..

— لذلك أحببت أن أتولى عنك الحراسة ، حتى إذا رأيا في الصباح سواك علما ان صاحب المعمل استبدلك فلا يشككان بي .

— كل ذلك موافق يا سيدي ، ولكنك لا تزال في مقتبل الشباب .

— وماذا يضر ذلك ؟

— وانك سليم الأعضاء والعادة انهم لا يستخدمون في هذه الوظائف غير الجنود المشوهين .

فضحك وقال : إذن سأقطع ساعدي .

فدهش الحارس وقال : ماذا تقول يا سيدي وكيف تقطع ساعدك ؟

- إخلع ثيابك واجلس أمام النار إلى أن آتيك بثياب غيرها .

وامتثل الجندي وأخذ مرميس ثيابه ودخل إلى أحد الغرف وقال له : سوف ترى .

وبعد هنيهة عاد ونظر اليه الحارس نظرة دهش إذ رأى سحنتـه قد تغيرت وأبيض شعره وقطع ذراعه الأيسر ، بحيث لم يعرفه إلا من صوته فقال له : إني عرفت ببياض شعرك فإنك لبست شعراً مستعاراً، ورسمت على وجهك خطوطاً ظهرت كالغصون ولكني لا أعلم ماذا صنعت بذراعك .

- إني ربطت باطن كفي بكتفي ولبست فوقـــه الثوب وصرت كأني مقطوع اليد .

ثم ابتسم وقال : اني كنت ايها الصديق ممثلاً قبل أن أكون مهندساً ولما كان التمثيل في هذا العهد شعوذة ومخرقة فقد تعلمت منه التنكير .

وعند ذلك أعطاه ملابس جديدة فلبسها ، ثم تركه وسار إلى المعمل وهو يقول : سوف نرى إذا كان الشرطي الانكليزي أشد دهـــاء من تلاميذ روكامبول .

- ١٤ -

ووصل وهو متنكر بزي الحارس إلى المعمل وصعد تواً الى الدور الثالث وبسط لوحاً من الشرفة المحاذية لغرفة مس الن ، وأقام يراقب وهو يقول في نفسه انه لا بد لهذين الرجلين اللذين القيا الفتى أن يعودا إلى المنزل إذا كانا قد برحاه فأراهما من الشرفة دون أن يرياني ، لكنهما إذا كانا باقيين في المنزل فإني لا أراهما إلا إذا أنارا مصباحاً في الغرفة .

وقد أخطأ مرميس في حسابه فإنهما لم يخرجا من المنزل ولم ينيرا الغرفة ،

ولكن أحدهما فتح تلك النافذة التي سقط منها الفتى وأطل منها فجعل يراقب الطريق .

وكانت السكينة سائدة والمسافة قريبة بينه وبين الرجلين وأصغى إصغاء تاماً ، وسمع أحد الرجلين يقول لرفيقه : إن الحارس قد ذهب .

فقال له رفيقه : والفتى البناء ؟

— إنهم حملوه .

— أظن أنه لم يبح بشيء .

— دون شك وسيعلل البوليس سقوطه من قبيل الاتفاق .

— ذلك سيان عندي وخير لنا أن نبرح المنزل .

— دون شك إذ لم يعد لنا عمل به بعد أن بات الطير في القفص على اني لا أخشى أحداً حتى إني إذا اضطررت إلى قول الحقيقة أعترفت بها لقائد الشرطة ، وفوق ذلك فإنه أطلق يدي .

وسمع مرميس كل ما دار بينهما من الحديث وقال في نفسه : لقد بت واثقاً الآن أن هذين الرجلين من شرطة لندرا وانهما قدما للقبض على الصبية والعودة بها إلى بلادها ، ولكني أود لو رأيت وجهيهما وحبذا لو أنارا مصباحاً .

غير انهما لم يقضيا رغبته بل انهما أقفلا النافذة وعادت السكينة إلى ما كانت عليه .

وصبر مرميس إلى أن أشرق الفجر فلم ير شيئاً فنزل من الدور الثالث إلى أرض المعمل ، فأوقد ناراً ووجد في جيب ثوب الحارس الذي كان يلبسه غليوناً وتبغاً فجعل يدخن .

ولم يكن موعد قدوم العمال قد حان بعد فأخذ يراقب تلك النافذة ولكنها لبثت مقفلة فانصرف إلى مراقبة الباب ولبث مدة طويلة شاخصاً اليه الى ان فتح نحو الساعة السادسة ، وخرج منه البواب يحمل المكنسة .

فكنس الرصيف ثم دخل الى الخمارة المحاذية للمنزل فاقتدى به مرميس ودخل إلى تلك الخمارة وطلب الى الخمار كأساً من الشراب وجعل يشكو من البرد .

ونظر اليه البواب وكان قد طلب أيضاً كأس شراب فقال : من أنت الملك حارس المعمل ؟

- نعم .

– ولكنك غير الذي كان أول امس .

– نعم فاني توليت الحراسة مكانه مساء البارحة لأنه مريض .

– إذاً أنت الذي كنت في المعمل الليلة ؟

– نعم .

- لقد حدثت مصيبة في معملكم ولكن حدث في منزلنا ما هو شر منها فاخبرنا عن تفصيل ما حدث عندكم .

– إن أحد البنائين كان نائماً في الدور الثالث فسقط منه .

– العله قتل ؟

كلا ، ولكني لا أظنه ينجو من الموت .

– مسكين اني سمعت صياحه وأردت الخروج اليه فمنعتني إمرأتي .

– انك لم تنم دون شك بعد الحادثة .

-. ان أسفي ليس من الحادثة بل من هؤلاء الناس المقيمين عندنا فإني لا أجد معهم ساعة راحة وأخصهم هؤلاء الانكليز فإن لدينا منهم رجلين وفتاة حرموني لذة الرقاد

– كيف ذلك العلهم يعودون متأخرين ؟

– أنهم يذهبون ويعودون ويعودون في كل ساعات الليل ، مثال ذلك ليلة البارحة فإن الفتاة لم تعد الى المنزل وقد كانت خرجت في الساعة الثالثة بعد الظهر مع الرجلين فلم تعد الى الآن .

ـ والرجلان ألم يعودا ؟

ـ انهما عادا وأظن أنهما كانا يعدان معدات الرحيل كل الليل لأني علمت في الصباح أنهما ذهبا .

وعلم مرميس من البواب ما كان يريد أن يعلمه ، وهو أن مس الن والبوليسين برحا المنزل ولم يبق عليه إلا البحث عنها ، وعن تلك الفتاة التي سجناها دون شك في غير المنزل بدليل رجوعهما دونها ، وبدليل ما سمعه من أحدهما حين قال ان الطير قد بات في القفص فلا حاجة الى بقائنا في المنزل .

ـ ١٥ ـ

ولنذكر الآن ما جرى لمس الن وكيف ان طريقة انقاذها قد حبطت بعد أن كانت مدبرة أحسن تدبير ولذلك يجب أن نعود الى تلك الليلة تمكن فيها الفتى البناء من الدخول الى غرفتها فنقول .

ان السير جمس كان من أفضل رجال الشرطة وأبصرهم بمعرفة دخائل القلوب وأسرارها وقد عرف أسرار الن على مبالغتها في اخفائها .

وقد تقدم لنا القول انه ثقب ثقباً في باب غرفتها الذي كان يراقبها منه ، وانها كانت عالمة بهذا الثقب فوقفت مع البناء في مكان منحرف عن الثقب وكانت تعتقد ان الشرطي كان نائماً .

غير أن مس الن لم تفطن الى مرآة كانت في غرفة البوليس تجاه الثقب ، ودخلت اليها أشعة القمر من ذلك الثقب وعكست عليها صورتها والفتى .

وقد رآهما الشرطي فكتم أنفاسه وقام الى الجهة التي كانا واقفين فيها واصغى اليها ، ولم يفته حرف من حديثها وعول على أن يقتحم باب الغرفة

ويقبض على الفتاة لو كانت عزمت على الفرار مع الفتى في تلك الليلة .

غير انه مع اتفاقهما فلم يظهر شيئاً من ريبه ووضع في تلك الليلة الخطة التي يجب ان يجري عليها .

وفي اليوم المعين لفرارها خرج بها في ساعة النزهة فركبت بجانبه في المركبة وسارت معه حسب عادتها دون حذر ، وذهبت المركبة الى المنتزه حتى إذا دارت دورتها حول البحيرة أمر السائق ان يذهب الى جهة الأرز .

فاستغربت مس الن لتغيير خطة النزهة المألوفة وقالت له : الى أين تريد الذهاب ؟

فأجابها ببرود : لدي مهمة خاصة في تلك الجهة أحب قضاءها .

— ولكننا ذاهبون الى غابات بولونيا ؟

— هو ما تقولين .

ولم تشأ مس الن معارضته حذراً من أن تولد في نفسه الشكوك وقالت له : لنذهب .

ولما وصلت المركبة الى الأرز سارت مسرعة الى بولونيا ، حتى إذا خرجت من الغابات رأت مس الن رفيق السير جمس واقفاً قرب مركبة يظهر انها كانت تنتظر ، أمر السير جمس السائق ان يقف حيث كانت واقفة المركبة .

فاضطربت ونظرت اليه نظرة المستطلع فابتسم لها وقال لها : إن البرد شديد يا سيدتي فهلمي نستبدل مركبتنا المكشوفة بهذه المركبة المقفلة وقاية لنا من البرد .

فهمت ان تعترض ولكنه قال لها : تأبطي ذراعي ولا تقاوميني .

وكان يقول هذا القول بلهجة سيادة هاجت لها الفتاة فقالت : أرى أنك نصبت لي مكيدة .

— إنك مخطئة وستتحدث ملياً في المركبة .

وكان الشارع مقفراً وموقف الشرطة بعيداً عن المكان الذي كانوا فيـه ورأت أنها باتت اسيرة الرجل وانها لا بد لها من الامتثـال ونزلت من مركبتها وصعدت الى المركبة الثانية ، فصعد السير جمس بجانبها وأقفل الباب فأمر الشرطي الثاني العربة ان تسير .

ولما سارت المركبة قال لها السير جمس : انك انت يا سيدتي التي اكرهتني على ان أسلك معك هذا المسلك ولو شئت لكنا بقينـا في ذلك المنزل ننتظر والدك النبيل ولكنك حاولت الفرار فلم أجد بداً من الاحتياط

فاصفر وجه الفتاة وقالت : الى أين انت ذاهب بي ؟

— ان الفتى البناء سيطول انتظاره لك يا سيدتي في الليلة القادمة .

فصاحت مس الن صيحة اليأس وقـالت له ويحك أيها الشقي مـاذا فعلت ؟

— إنها كلمة يثقل وقعها علي أيتها السيدة ولا تقال لأمثـالي فإني رجـل شريف أتمم واجباتي .

— ولكن الى أين أنت ذاهب بي ؟

— الى مستشفى صحي .

فذعرت مس الن ذعراً شديداً وهمت ان تفتح باب المركبة وتلقي نفسها منه فضحك السير جمس وقال . ان الباب محكم الاقفال .

وحاولت ان تنظر من نوافذ الزجاج فرأت انه مصبوغ بدهان يمنع نفوذ البصر منه ، ووراءه قضبان من الحديد ، فهاجت هياج اللبوة فقدت أشبالهـا ولو كان لديها خنجر لمزقت أحشاء الشرطي .

أما السير جمس فانه لبث ساكناً هادئاً وكان يتبسم ويقول لها . لا فائدة يا سيدتي من هياج قد يؤذيك .

فانهالت عليه بالشتائم المفجعة ولكنه لم يجبها وظلت المركبة سائرة وقـد اجهدت فكرها كي تعلم الجهة التي تسير فيها فلم تستطع فعـادت الى شتمه

واهانته فأخذ عدداً من جريدة كان معه وجعل يقرأ فيها غير مكترث لشتائمها

وبعد حين وقفت المركبة فأعاد السير جمس الجريدة الى جيبه وقال : لقد وصلنا .

- ١٦ -

وكان رفيقه جالساً بجانب السائق فلما وقفت المركبة وثب الى الأرض وفتح الباب المقفل بالمفتاح .

وأخذ السير جمس يد مس الن وخرج بها من المركبة ورأت انها في وسط فسحة مستورة من ثلاث جهات بجدران عالية في الجهة الرابعة بناية عظيمة مربعة تشبه السجون فان جميع نوافذه كانت مشبكة بقضبان ضخمة من الحديد .

وكان هناك رجل لابساً ثياب الجنود ، فأسرع الى السير جمس وحياه باحترام فسأله الشرطي : هل المدير هنا ؟

— نعم يا سيدي وأظن انك الميلورد الذي ينتظره .

— نعم أنا هو فابلغ المدير زيارتي .

فدخل الى المنزل وبقي السير جمس مع مس الن وهي تنظر اليه نظرات تشف عن الحقد وحب الانتقام فقال لها : اتعلمين أين انت الآن ؟

— نعم اني في سجن ..

- بل في مستشفى المجانين ، ولكنك لا تبقين فيه غير أسبوعين الى ان يأتي أبوك من لندرا وهو الذي سيتولى اخراجك منه في اليوم الذي يحضر فيه .

فاضطربت وهالها هذا المصير فقالت . ولكني لست مجنونة .

- اني لا انكر ذلك ، ولكننا لسنا في لندرا ، بل نحن في عاصمة اجنبية ، فمتى أردنا الاحتفاظ بانسان نكاشف بأمره الشرطة الفرنسية فيخيرنا بين حبسه في السجن او في احد المستشفيات العلك تؤثرين سجن سانت لازار ؟

فأجفلت لاسم هذا السجن وظهرت عليها علائم الرعب والانفة فقال لها اني كنت أؤثر ان ابقيك في أحد المستشفيات الصحية ولكن من كان له ذكاءك يسهل عليه الفرار من المستشفيات البسيطة واما في مثل هذا المستشفى فان الطبيب نفسه يكون مسؤولاً عليك .

- تريد انك متفق وإياه على ارتكاب هذه الجريمة الجريمة ؟

فهز السير جمس كتفيه وقال . اني لا أبالي بهذه الشتائم فإن ضميري لا يقرعني بشيء ، وبعد فإني سأبتعد عنك فلا اتشرف بلقائك الا في لندرا .

وعند ذلك عاد الجندي فقال للسير جمس : ان المدير ينتظر سيدي المياورد .

فدنا السير جمس من مس الن وقال لها بصوت منخفض : اقسم لك انك ستعاملين هنا خير معاملة إذا لم تقاومي .

-- وإذا قاومت ؟

- يضطرون إلى اعتبارك مجنونة حقيقة ويعاملونك معاملة المجانين حين هياجهم أي أنهم يصبون عليك المياه المثلجة .

واقشعر جسم الفتاة وقد مرت في خاطرها ذكرى مريعة هائلة ، وهي انها زارت مرة مستشفى المجانين المشهور في لندرا فرأت المجانين يركعون ويتوسلون وهم يذرفون الدموع مسترحمين طالبين انقاذهم من عقاب المياه الباردة .

أما السير جمس فانه اغتنم فرصة رعبها فقال لها : لدي أوامر مهمة بادخالك إلى هذا المستشفى فكل ما تقولينه للطبيب لا يفيدك في شيء ، أما

مدير المستشفى فان مهمته أشبه بمهمة السجان فهو ينفذ الأوامر كما ترد اليه ولا يد له في شيء .

وعند ذلك أكره مس الن على أن تتأبط ذراعه ففعلت وسار بها في أثر الجندي ، فجعلوا يجتازون من غرفة الى غرفة حتى بلغوا الى غرفة المـدير ، وهو رجل في الخمسين من عمره تـــدل ملامحه على حب الاثرة والاستبداد فخف لاستقبالهما .

فقال له السير جمس : اني قادم اليك يا سيدي المدير باللادي التي كتبت لك عنها وأرسلت لك اوامر الشرطة بشأنها المعدة لها من سفارة انكلترا .

فنظر المدير اليها نظرة تدل على عدم الاكتراث وقال له : لقد أعـددنا لها الغرفة .

فأيقنت مس الن أن هذا الرجل لا رجاء لها فيه .

أما المدير فانه قرع جرساً كان أمامه فجاء اثنان من المرضين فقال لهما : إذهبا بالسيدة الى الغرفة نمرة ١٣ .

ولم يسع الفتاة إلا الاعتراض على عمله وقالت للمدير : العلكم تسجنونني كمجنونة في الغرفة ؟

وأجابها المدير بجفاء : دون شك .

وعلمت أن هـذا المدير شر من ذلك الشرطي ونظرت إلى الاثنين نظرة احتقار .

وسارت في أثر المرضين .

بعد ذلك ببضع دقائق كان السير جمس وزميله يصعدان الى المركبـــة وقال له رفيقه : الى اين تذهب الآن ؟

— إلى شارع لويس الكبير .

— لماذا ، ألاحضار ثياب الفتاة ؟

— كلا فاننا سنرسلها اليها في وقت آخر ، ولكننا نذهب الى ذلك المنزل

لانتظار الفتى البناء .

- وأي شأن بقي لنا معه فانه ينتظر ان تفتح النافذة الى ان تمل الانتظار فينصرف لأن النافذة لا تفتح .

- بل افتحها أنا فان الفتى قد تداخل فيما لا يعنيه وكاد يفسد علي أمري ويعبث بسمعتي فيجب أن يعاقب .

وعلى ذلك تقرر عقاب ذلك الفتى المسكين الذي دفعته المروءة الى انقاذ مسس الن .

أما مرميس فقد علم أن مسس الن ارسلت الى مستشفى صحي ولكنه لم يعلم أين هو ذلك المستشفى

- ١٧ -

ولنعد الآن الى مرميس فانه بعد أن وثق ان السير جمس ورفيقه قد برحا المنزل ولم يعودا اليه عاد الى منزله .

وكانت الساعة السابعة صباحاً ووجد ان الحارس الجندي قد شرب كفاءته من الشراب ونام ، فغير مرميس ملابسه وأيقظ الجندي ثم أعاد اليه ملابسه وقال له : اني معهد اليك بمهمة وهي أن تذهب الى المسيو ميلون المقاول وتعطيه هذه الرسالة .

وهي رسالة دعاه فيها الى الحضور اليه في الحال .

وبعد ان ختمها ودفعها الى الجندي قال له : والآن لم يبق لي الا ان استحلفك بشرف الجندية بأن لا تخبر أحداً عما جرى في الليلة الماضية ولا عن الانكليزية وان لا تذكر شيئاً عن استبدال ثوبي بثوبك وتنكري بزي الحراس وذلك لأن أفشاء هذه الأمور يضر بنا ضرراً عظيماً .

فأقسم الجندي بشرفه على الكتمان ، ونفحه مرميس بمائتي فرنك فتردد الجندي في قبولها ، فألح عليه وقال له : اني من أصحاب الملايين وأنت أحوج مني الى هذه القيمة الزهيدة .

فأخذها الجندي شاكراً وأسرع بالذهاب الى ميلون ولم تمض نصف ساعة حتى أقبل فقال له مرميس اعلم الآن ان الفتاة الانكليزية قد اختفت .

منذ متى ؟

ـ منذ أول أمس .

وقال ميلون : إذاً لم تكن في المنزل حين أصيب هذا البناء المسكين لكن أعلمت أين هي الآن ؟

ـ لو كنت عالماً بمقرها لما دعوتك لمشاركتي في البحث عنها .

ـ وكيف يمكن إيجادها ، إن ذلك مستحيل فيما أراه .

وابتسم مرميس وقال : انك لا تزال على سذاجتك الفطرية الا حين يكون روكامبول معنا فانه يفتح عينيك .

ـ لقد أصبت فاني حين أبتعد عنه أصبح كالحيوان الأعجم .

ـ ولكن اصغ الي واتبع تعليماتي فان الفتاة الانكليزية التي اتت تبحث عن رجل يدعى ميلون وامرأة تدعى فاندا هي آتية من قبل روكامبول دون شك وانه لم يرسلها الا لأنه في خطر ولأنه محتاج الينا .

هذا لا ريب فيه كما يظهر .

ـ اذاً يجب ان نجد هذه الفتاة وننتزعها من أيدي الذين اختطفوها ونعلم ما يريده روكامبول منا .

ـ لكن كيف نجدها ؟

ـ بهذين الرجلين اللذين كانا يحرسانها فانهما من أعداء روكامبول دون شك بدليل منعهما الفتاة عن الاجتماع بك وبفاندا ولذلك يجب علينا أولاً أن نبحث عن هذين الرجلين ومتى وجدناهما عرفنا أين هي مس الن .

- لكن كيف نستطيع إيجادها ؟
- انها من رجال الشرطة ولا اسهل من ايجاد المشتغل بالمهنة
- كيف ؟
- أيوجد لديك الآن نقود في منزلك ؟
- نعم لدي مائة الف فرنك .
- أين وضعتها ؟
- في الصندوق الحديدي .
- أهو ذاك الصندوق الذي اشتريته حديثاً من لندرا ؟
- هو بعينه .
- انه مثل الصندوق الذي عندي ، وسأسرق غداً من صندوقك ما أودعت فيه من المال .

فحملق ميلون بعينيه وقال : ماذا تريد بذلك ؟

- انه لا يوجد غير لص واحد انكليزي تمكن من طبع أقفال هذا النوع من الصناديق على الشمع ، وصنع مفاتيح يفتحها بها حين تلوح له الفرصة افهمت ؟
- كلا لم افهم شيئاً بعد .
- مع أن الأمر بسيط فان أموالك تسرق من صندوقك فتشكو الأمر الى ادارة الشرطة ، فتعتقد الشرطة الفرنسية ان سارق المال هو ذلك اللص الانكليزي لاشتهار أمره في هذه الصناديق ، ولما كان هذان الرقيبان على مس الن في باريس فان الشرطة الفرنسية تستعين بهما على ايجاد السارق .
- ولكن هل تعلم ادارة الشرطة الفرنسية ان هذين الشرطيين موجودان في باريس ؟
- اني واثق كل الوثوق وسأبرهن لك عن ذلك وأوضح لك عن تلك

الخطة التي وضعتها فإن روكامبول نفسه لا ينتقد علينا .

ثم قام وأشعل سيكاراً وأعطى مثله لميلون وقال : إصغ إلي الآن .

- ١٨ -

انني إذا وفقت بين ما رواه لنا الحارس الجندي وبين أبحاثي نجد ان الأمر قد مضى كما يأتي :

وهو أن روكامبول أرسل الينا مس الن فلم تكد تصل الى باريس حتى أخذت تبحث عنك ولكن البوليسين الانكليزيين وصــــلا قبل أن تجدك فسجناها في المنزل وأقاما معها يراقبانها .

ومن هنا قد اتضح لي جلياً ان الشرطة الفرنسية لها يد في هذا الأمر ، لأن الشرائع الانكليزية لا نفوذ لها في فرنسا .

ولو أرادت الفتاة أن تلجأ إلى أي نفر من أنفار الشرطة ، لأنقذها من الانكليزيين .

فقال ميلون : ولماذا لم تفعل ذلك ؟

ـ لأن الانكليزيين قد سبقاها إلى إدارة الشرطة ، فتمكنا بواسطة السفارة الانكليزية من الحصـول على أمر بالقبض على الفتاة ، يعملان بــه حين الاقتضاء .

ـ لقد فهمت الآن .

ـ إذاً إنتبه لقولي ، إنه يوجد في صندوقك مائة الف فرنك .

ـ نعم ..

ـ وسأسرقها .

فضحك ميلون وقال : ولكنك ستردها دون شك ؟

ـ ولكن قبل أن أردها تذهب إلى إدارة الشرطة وتعرض شكواك وتهتم الشرطة بايجاد السارق والمسروق .

ـ وبعد ذلك ؟

ـ إن الشرطي يعلم لأول وهلة ان السارق من الانكليز.

ـ كيف يمكن ان يتصل الى هذه المعرفة ؟

ـ ذلك منوط بي فلا تهتم به ، واسمع انه متى وثق ان السارق إنكليزي يستعين بالشرطيين الانكليزيين ، فأوهمها انني أنا السارق فيأخذان باقتفاء أثري ، ولكني أدرك من أوهما ما يدركانه من أثري ومتى عرفت مقرهما عرفت مقر مس الن .

فنظر ميلون الى مرميس نظرة المعجب به وقـــال له : إنه قد يمر ظروف أحسب في خلالها انك الرئيس نفسه .

فابتسم مرميس وقال : إن روكامبول ، لو لم يجدني أهلاً لخدمته ، لما جعلني تلميذه ، ولما نهض بي من وهـــدة الشر وحضيض المفاسد ، إلى ما أنا فيه .

ـ لقد أصبت ولكن ..

ـ لكن ماذا ؟

ـ إنك تسرق المال وتوهمهم انك السارق ، فاذا اتفق انهم قبضوا عليك فكيف تبرىء نفسك ؟

ـ لأنهم لا يقبضون علي . وعلى افتراض انهم ظفروا بي ، فإني أعددت طريقة الخلاص .

ـ إذاً لنصنع ما تريد .

ـ متى تكون عادة في منزلك ؟

ـ عند الظهر ، وهو الوقت الذي يكون فيـــه عندي رؤساء عمالي لتلقي الأوامر .

- إذاً عد الى منزلك وانتظرني فيه .
فامتثل ميلون طائعاً وانصرف .

* * *

وقد رأى القراء كيف أن ميلون عاد إلى مهنته القديمة . فإنه قبل أن يدخل في خدمة والدة انطوانيت ، وقبل ان يزج في سجن طولون كان من البنائين .

وأعطاه مرميس رأسمالاً كبيراً بأمر روكامبول كي يشتغل فيه بالأبنية ، إلى ان يصدر أمر آخر من روكامبول .

فاحترف مهنته وكان يشتغل بملء الجد والوفاء ، فاتسع نطاق أشغاله وصار لديه مئات من العمال

وكان يقيم في شارع ماريتيان ، على قيد بضع خطوات من منزل فاندا .

فكان منزله ، ولا سيما في أيام دفع أجور العمال ، يشبه الدوائر الكبرى لكثرة ما يحتشد فيه من البنائين والنجارين والفعلة والملاحظين فإنه كان متولياً بناء نحو عشرين بناية في حين واحد .

وقد كان ذلك اليوم الذي اجتمع فيه بمرميس يوم سبت ، أي يوم دفع الأجور .

وبينما كان ميلون يحاسب رؤساء العمال عند الظهر ، وقفت مركبة جميلة عند باب منزله وخرج منها رجل بسيط الثياب ، ولكن جميع ظواهره تدل على أنه من الأعيان .

وكان هذا الرجل أشقر الشاربين أحمر شعر الرأس ، لابساً قميصاً أزراره من الماس الثمين ، وهو يتوكأ على عصا قبضتها من الذهب ولابساً قبعة لا تصنع إلا في انكلترا .

فطرق البـاب ، وفتحت له الخـادمة ، فقال لها : هل المقاول ميلون في منزله ؟

-- نعم . .

فدخل تواً إلى حيث كان ميلون وقال له بلهجة إنكليزية محضة : أتشرف يا سيدي بالسلام عليك وإني أدعى اللورد كاندول من أعضاء مجلس البرلمان وأنا مقيم في اوتيل موريس .

فاستقبله ميلون خير استقبال ورد تحيته بملء الاحترام .

فقال له الانكليزي : إن طبيبي الخاص وصف لي الاقامة في باريس مراعاة لصحتي فأحببت ان أشيد منزلاً فخماً في الشانزليزه .

– إذاً تفضل معي يا مولاي لأريك ما لدي من الرسوم

ثم دخل به الى الغرفة التي كان فيها الصندوق . فلما خلا بهما المكان قال له اللورد بلهجة فرنسية : ألم تعرفني يا ميلون ؟

فدهش ميلون ، إذ عرفه من صوته انه مرميس ، فإنه كان يحدثـه قبلاً بصوت مستعار ، وقال له : إن روكامبول نفسه لا يستطيع ان يعرفك بهذا التنكر .

– إذا كنت لا أعرف أن أتنكر حين الحاجة ، فكيف يحق لي ان أدعى تلميذاً لروكامبول ؟

– والآن هل أتيت لتسرقني ؟

– كلا بل لأهيىء معدات السرقة . غير اني أردت ان يراني رجالك ولذلك اخترت الساعة التي يجتمعون فيها عندك لقبض الأجـور والآن فلنتحدث بما أتيت لأجله .

ثم سار به إلى الصندوق وقال له : أرني صندوقك قبل كل شيء .

وكان هذا الصندوق داخـــلاً في جوف الجدار ، فأخذ ميلون مفتاحاً معلقاً في عنقه ، وفتح الباب الأول الكائن في الجدار ، فانفتح عن صندوق إنكليزي .

وكان صندوقاً ضخماً ، يبلغ ارتفاعه ارتفاع خزانــة المرآة العادية ، وتبلغ زنته الف كيلوغرام .

وهو من الصناديق التي لا تعمل فيها النار .

ولم يكن له غير قفل واحد صغير ، غير ان طريقة فتحه اصطلاحية فاذا أدخل صاحبه المفتاح في هذا القفل أداره شمالاً ويميناً عدة مرات مختلفة على طريقة لا يعرفها غير صاحب الصندوق .

فأمر مرميس ان يفتح الصنـــدوق ففتحه وقال له : أين وضعت المائــة الف فرنك ؟

— في هذه المحفظة السوداء التي تراها .

— والآن أقفل باب الجدار .

فأقفله ميلون وفحص مرميس قفله وقال : إن اغتصابه سهل ميسور بحيث يمكن فتحه دون أقل عناء

— ولكن ماذا عزمت أن تفعل ؟

— أول مـــا أبدأ به الخروج من عندك ، فتشيعني الى الخارج وتقـــول لي بصوت يسمعه كل من عندك من العمال ايها الميلورد إني أتشرف بانتظارك في الساعة الرابعة .

— وبعد ذلك ؟

- وعند ذهابي توصي خادمتك ان تدخلني حين وصولي الى غرفتك ، أي

الى هذه الغرفة التي فيها الصندوق ، فاني سأحضر قبل الساعة الرابعة واجتهد ان تتأخر فتحضر بعدها ، بحيث يثبت اني أقمت وحدي في غرفتك ثلاثة أرباع الساعة .

ـ وعندما أحضر ؟

ـ تجدني قد انصرفت بحجة تأخرك عن الموعد فتدخل الى غرفتك فتجد باب جدار الصندوق مكسوراً والصندوق مفتوحاً .

ـ سأقل كل ما قلته ولكن بعد ذلك ؟

ـ وانك لا تعود وحدك الى الغرفة بل تعود مع أحد وكلائك ، كي يكون شاهداً على ما ترى .

وتذهب معه بعد ثبوت السرقة الى فندق موريس لتسأل عن اللورد كاندول فلا تجده بالطبع .

ثم تذهب الى ادارة الشرطة فتعرض شكواك وتتهم اللورد الانكليزي ، وتظهر للشرطة جميع إشاراته وملامحه وملابسه كما رأيتني .

ـ حسناً وبعد ذلك ؟

ـ وبعد ذلك ينتهي عملك فلا تهتم بعد بالأمر .

ثم خرج وهو يقول له مبتسماً : إن المال سيرد اليك دون شك ، فلا خوف عليه .

فشيعه ميلون حتى إذا وصل إلى حيث كان عماله ، قال له على مسمع منهم : حبذا يا حضرة الميلورد ، لو تكرمت بالرجوع في الساعة الرابعة حيث أكون قد تفرغت من مشاغلي ، فأريك الأرض المعدة للبيع التي حدثتك عنها .

فأجابه مرميس بلهجة الانكليز قائلاً : كم ينبغي من الزمن لبناء منزلي ؟

ثلاثة أشهر .

- إنه زمن بعيد ولا طاقة لي بالصبر إلى هذا الحد .

- إذاً سأتمه بشهرين على ان نشتغل في الليل على أنوار كهربائية ، ولكن ذلك يكلف كثيراً .

- لا بأس ، دعهم يشتغلون ليلاً ، فاني أدفع كل ما يطلب إلي من النفقات .

ثم تركه وانصرف . فقال أحد الوكلاء لميلون : إنك ستربح أرباحاً كثيرة من هذا الانكليزي .

فأجابه ميلون ضاحكاً : وسنأخذ بثأرنا ، من الانكليز ، عن معركة واترلو .

ثم أتم ميلون محاسبة وكلائه وصرفهم ، فركب مركبة وذهب لتفقد المعامل ، بعد أن أوصى الخادمة بادخال الانكليزي الى غرفته ، حين يعود .

غير ان خطة مرميس بدأ عليها حادث غير منتظر ، عدلها تعديلاً خفيفاً وذلك ان ميلون بينما كان ذاهباً لتفقد معامله ، رأى رجلاً يجتاز رصيف الشارع وهو مطرق الرأس يمشي مشية الحزين فارتعش حين رآه وأمر السائق ان يقف في الحال .

ثم وثب من المركبة وأسرع الى هذا الرجل ، فانه كان ذلك الانكليزي الذي جاءه من قبل الرجل العبوس . فوضع يده على كتفه وقال له بلهجة الفرح المسرور . لقد تيسر لي لقاؤك بعد العناء الشديد ، فهل كنت عائداً إلي ؟

وكان هذا الرجل شوكنج نفسه ، خادم روكامبول في لندرا . فقال له بلهجة المكتئب الحزين . نعم يا سيدي ، لقد بلغ بي الشقاء حده بعد فقدي تلك الحوالة التي سرقوها مني مع المرأة والغلام ، فبت في حالة تستوجب الإشفاق .

فقال له ميلون : لم يبق حاجة الى الحوالة ، فإني انفق عليكم منذ الآن عن سعة ، وأعطيكم كل ما تحتاجون اليه . ألم تقل لي ان الذي أرسلك هو الرجل العبوس ؟

— نعم يا سيدي .

— إذاً إعلم انه أخلص أصدقائي .

ثم فطن الى مس الن فقال له : إنك عشت مدة طويلة مع الرجل العبوس فهل عرفت فتاة إنكليزية تدعى مس الن ؟

فاصفر وجه شوكنج ، واتقدت عيناه ببارق من الحقـد ، وقال له : مس الن ؟

— نعم .

— إنها يا سيدي ألد أعداء الرجل العبوس .

فتراجع ميلون مذعراً ، وهو يقول : انها ألد أعـدائنا ، ونحن نريد إنقاذها ؟

— ٢٠ —

كان شارع مارينيان مقفراً ، كسائر الشوارع الجديدة المشادة في جوار الشانزليزيه .

وكان ميلون وشوكنج يتحدثان وهما واقفان على الرصيف دون ان يراهما أحد لندور المارة في ذلك الشارع .

وقد سكن اضطراب ميلون بعدما رأى شوكنج فقال له : أحق ما تقول أن مس الن عدوة الرجل العبوس ؟

— بل هي شر عدو ويخشى بأسها ، وهي تكره الرجل العبوس كرهاً

لا يوصف

— ألديك برهان يثبت ما تقول ؟

— تعال معي يا سيدي الى حيث هي حنة ورالف ، يعيدا عليك نفس ما قلته .

— من هي حنة هذه ؟

— والدة رالف .

— ورالف ؟

— انه الغلام الذي سيغدو يوماً زعيم الارلنديين العام .

— أهما في فرنسا ؟

— بل هما في باريس ، وانا الذي جئت بهما اليها ، فان الرجل المبوس أعطاني حوالة ونقوداً . وبعد وصولنا بثمانية أيام سرقت منا الحوالة والنقود

— ألم تشكو أمرك الى البوليس ؟

فابتسم شوكنج إبتسامة حزن وقال : ان الذين سرقونا هم أعظم منا ولا تنالهم يد الشرع .

— إننا في فرنسا وليس في بلادنا من يعلو على الشرع .

فهز شوكنج رأسه وقال : ان اللذين سرقونا ليسوا فرنسيين ، وفوق ذلك ، فإنهم أعداء لنا تبعونا من لندرا ، وليس الرجل المبوس معنا فيحمينا .

— أين هما المرأة والغلام ؟

— إنهما يقيمان معي في غرفة صغيرة قريبة من فندق لوريس ، في أفقر شوارع باريس .

فقال ميلون لقد أذكرتني معملاً لي هناك ، فهلم بنا نقضي المهمتين في حين واحد

ثم عاد الى الموضوع الوحيد الذي كان يشغل خاطره فقال إذاً ان مس الن عدوة الرجل العبوس ؟

– إنه لم يجد فيما مر به من الحوادث الجسام عدواً أشد منها وطالما كنت أخشى عليه منها .

– كيف ذلك ؟

– انه كان يحاول ان يحملها على حبه .

فذكر ميلون مقدرة روكامبول وقوة سلطانه على القلوب غير ان ذلك لم يمنعه عن سوء الظن بمس الن .

فقال لشوكنج· إصعد الى مركبتي وانتظرني فيها الى ان أعود فاني داخل الى منزلي لقضاء بعض المهام .

ثم تركه ومشى بضع خطوات الى منزله ، فدخل وكتب الرسالة الآتية :

« لم يبق لنا فائدة من السرقة ، إذ لا يفيدنا الاهتمام بمس الن . لقد رأيت الانكليزي الذي جاءنا من قبل الرجل العبوس ، وأكد لي أن مس الن عدوة لدودة ، لا صديقة حميمة كما توهمنا ، وانها معولة على إهلاك روكامبول .

« فابق في منزلي حين وصولك اليه وانتظرني فيه الى ان أعود ، فاني ذاهب الى شارع لوريس » .

« ميلون »

ثم أعطى الكتاب للخادمة ، وقال لها : متى جاء الميلورد الانكليزي الذي أوصيتك أن تدخليه الى غرفتي ، أعطه هذا الكتاب وقولي له أن ينتظر .

فأخذت الخادمة الكتاب وخرج ميلون الى لقاء شوكنج وهو يقول : طالما ساعدنا أعداء الرئيس ونحن نحسب انهم أعوانه .

في نحو الساعة الرابعة وقفت مركبة عند باب منزل ميلون ، وخرج منها ذلك الميلورد الانكليزي ، أي مرميس ، فأعطته الخادمة الرسالة وأدخلته الى غرفة سيدها .

فلما خلا بالغرفة فتح الرسالة وقرأها وقال : ان هذا الرجل ساذج القلب ، فلا يغير فطرته شيء حتى عشرة روكامبول .

ثم أخذ قلماً وكتب الى ميلون ما يأتي :

« إنك أبله لا يمكن اصلاحك فان مس الن اذا كانت صديقة لروكامبول فقد وجب علينا إنقاذها .

« واذا كانت عدوة له فقد وجب علينا أن نقبض عليها ولذلك كان انقاذها واجباً في الحالين .

« أما أنا فقد سرقت مالك . فلا تضع الوقت بالتفكير ، وأسرع في الحال ، حين تقف على رسالتي هذه ، الى ادارة الشرطة ، وأعرض شكواك » .

وبعد أن كتب هذه الرسالة ختمها وعنونها باسم ميلون ، وأقفل باب الغرفة من الداخل كي لا يدخل عليه أحد . ثم أخرج من جيبه مبرداً ودنا من الصندوق ، وهو يذكر مبتسماً مهنته القديمة ، فعالج باب الصندوق الخارجي ففتحه .

ويذكر القراء ان ميلون ترك الباب الداخلي مفتوحاً فأخذ مرميس منه محفظة الأوراق المالية فوضعها في جيبه وأقفل باب الصندوق الخارجي كي لا يرى الباب مفتوحاً .

وأقام في الغرفة نحو ربع ساعة ثم خرج والرسالة بيده فوجد الخادمة في الطابق السفلي فأعطاها الرسالة وقال لها بلهجة الحانق : إن سيدك رجل قليل التربية فان من كان بمقامي لا يحملونه على الانتظار .

ثم تكلف هيئة المعظمة وأعطاها ليرتين وانصرف .

وكانت مركبته لا تزال واقفة على الباب ، فأمر سائقها أن يسير به الى شارع مورتي ، وهناك استوقفه فنزل من المركبة وذهب ماشياً على الأقدام إلى تلك المغارة التي كانوا يجتمعون فيها كل شهر ، فخلع ثيــاب تنكره ولبس ملابسه العــادية ، ثم عاد إلى منزله وهو يقول في نفسه . أن مس الن إذا كانت من أعدائنا فقد وجب علينــا حتماً إنقاذها واستخدامها في سبيل أغراضنا .

- ٢١ -

ولنعد الآن إلى ميلون فانه سار مع شوكنج من شارع ماريبيان إلى شارع لورسين حتى انتهى إلى منتصف الشارع فوقفت بهما المركبة عند باب منزل حقير كان أمامه أرض معدة للبناء وقد نصب فيها لوح أسود كتب عليــه بأحرف كبيرة (ميلون المقاول البناء) .

فأراه شوكنج الكتابة وقال له : اني لم اهتد اليك إلا بها ، فان معملك بازاء البيت الذي نقيم فيه ، ذهبت اليك في المرة الأولى ولم أجسر أن أعود ثانية ، غير اني كنت أرجو أن اراك مع حنــه حين حضورك لتفقد الأعمال فترانا وتشفق علينا .

فقال ميلون : ان لدي كثيراً من معامل البناء في باريس بحيث لا يتيسر لي تفقدها بجملتها ولو لم أراك اتفاقاً لما اتفق لك أن تراني في ذلك المعمل لشدة بعده عن مركز أعمالي .

— ولو لم تراني لكنا هلكنا جوعاً فاني خدمت سائساً في اصطبل قريب من هنا فلم أخدم اسبوعاً حتى طرأ على صاحب الأصطبل ما دعــاه إلى السفر فباع الخيل والمركبات وعدت إلى التجول والاستعطاء .

وبينما كان شوكنج وميلون يتحدثان قرب باب المنزل مر بهما رجلان وسارا ذهاباً واياباً قرب المعمل عدة مرات كأنهما كانا يستغربان وقوف ميـلون مع ما يبدو من ظواهر غناه مع شوكنج وظواهر فقره المدقع مائلة للعيون .

ولم تكن هيئة الرجلين تدل على التجسس وحب الاستطلاع بل كان يبدو منهما أنهما يتنزهان في تلك الجهة لكثرة اشجارها وصفاء هوائها ولكنهما كانا يتكلمان بصوت منخفض .

غير ان شوكنج سمع منهما حين مرورهما بقربه كلمة استغرب لها ، فقال له ميلون : ماذا اصابك ؟

ـ لا شيء ، غير ان الرجلين من الانكليز .

ـ ألا تظنهما من أهل الشارع ؟

ـ كلا ، بل أظنهما شرطيين انكليزيين يراقباننـا ، وأظن انهما همـا اللذان سرقانا .

فهز ميلون كتفه وقال: إذا بدرت منهما بادرة سوء ، أمرت البنائين عندي ينكلون بهما تنكيلا ، والآن فلندخل لنرى المرأة والغلام فدخل الاثنـان الى المنزل من رواق طويل وبقي الانكليزيان واقفين في آخر الشارع وقد رأياهما دخلا الى المنزل .

وكانت الغرفـــة التي تقيم فيها الأرلندية وابنها حقيرة لا أثاث فيها ولا مستوقد لها ولم يكن فيها غير طاولة قديمة ومقعد من الخشب كانت تنام عليه المرأة وولدها وكيس من القش كان ينام عليه شوكنج .

ولم يكن على الطاولة كسرة خبز ولا قدح ماء ولا شيء يدل على أن هؤلاء البؤساء قد اكلوا منذ عهد قريب .

فتأثر ميلون من ظواهر الفقر المؤلم وعجب بجمال الأرلندية وظواهر انفتها.

أما شوكنج فانه عانق الأرلندية وقال لها . بشراك يا حنـة قد نجونا فهذا هو ميلون صديق أبينا الرجل العبوس .

وأخذ ميلون الغلام بين يديه وقبله وقد اغرورقت عيناه بالدموع اشفاقاً ثم قال لهم : انكم لا تقيمون يوماً بعد في هذه الغرفة فان منزلي كبير لايضيق بكم وستعيشون معي الى ان ترد الأوامر بشأنكم من روكامبول .

وقد زادت هواجس ميلون على روكامبول بمناسبة ذكره ، وجعل يسأل الارلندية عنه اسئلة مختلفة وهي تجيبه بما ينطبق على روايات فاندا بعد عودتها من لندرا .

ثم جعل يستقصي منهم عن السرقة فأخبروه انهم حين حضورهم الى باريس كان لديهم كثير من المال وحوالة عليه فأقاموا في فندق جميل وهو الفندق الذي سرقوا فيه ولم يكن شوكنج يتهم أحد بالسرقة ، الى ان اخبره صاحب الفندق أن رجلاً انكليزياً كان يقيم عنده في غرفة مجاورة لغرفتهم وانه سافر مسرعاً يوم حدوث السرقة

وقال ميلون : ان المصيبة غير عظيمة فقد لقيتموني وأنا لا يعوزني المال

ثم أعطى شوكنج مائتي فرنك وقال له : اشتري ثياب لكم جميعاً وبعد ذلك خذ الغلام وامه واحضر بهما الى منزلي .

وعندما تذكر ان مرميس سيكون عنده في الساعة الرابعة لكنه حسب انه سيرجع عما قرره من سرقة المال من صندوقه حين يطلع على رسالته ويعلم منها ان مس الن عدوة لا صديقة فلم يذهب الى المنزل بل ذهب الى المعمل ليتفقد الأشغال . فرأى ان الانكليزيين لا يزالان يتمشيان في الشارع .

أما الرجلان فانهما رأيا ميلون خارجاً من المنزل الى المعمل ، فقال أحدهما لرفيقه : لا بد لنا ان نعلم ما كان يعمل هذا الرجل في المنزل

- ٢٢ -

ان هذين الرجلين اللذين كانا يراقبان ميلون وشوكنج وينظران اليها خلسة انما كانا السير جمس وادوارد زميله الشرطي الآخر .

وكان السير جمس يقول لرفيقه : أرأيت يا ادوارد كيف اننا لم نضع وقتنا عبثاً منذ البارحة فإننا أصبحنا واثقين من عدم فرار مس الن ووجدنا أثر شوكنج والارلندية وابنها .

- لقد أحسنت انما لا أعلم ماذا يجب ان نصنع الآن ؟

- ماذا تعني ؟

- أعني أننا أتينا بمهمة الوثوق من مس الن ومنعها عن مقابلة الارلنديين ، ولكن أي شأن لنا مع شوكنج والغلام وامه ؟

فابتسم السير جمس وقال : انني كنت الرأس المرشد ، وكنت أنت اليد العاملة منذ أتينا لهذه المهمة . ولكن ما ظهر لي من دلائل حكمتك ورجاحة عقلك منذ أسبوعين يحملني على الإباحة لك بحقيقة المهمة التي أتينا من أجلها الى فرنسا .

- انني مصغ اليك ايها الصديق فقل .

- لا يخلق بنا الوقوف كي تحول حولنا الأنظار فلنسر ذهاباً وإياباً كمن يتنزه ولا تحول نظرك عن هذا المنزل .

ثم تأبط ذراع رفيقه وقال له وهما يمشيان ، ليس اللورد بالمير وحده الذي أرسلنا إلى باريس فقد أرسلنا أيضاً الاسقف بترس تون ، ذلك الرجل القادر الذي يتولى رئاسة المذهب الانكليكاني ، فإن ارلنـدا لم تهج فيما مر بها من الأدوار هياجها في هذه الأيام وقد أشتد ساعد الارلنديين حتى باتت انكلترا

نفسها تخافهم .
وقال له إدوارد : وهل هؤلاء المقيمون في هذا المنزل من الارلنديين ؟
– نعم .
– ومس الن ؟
– إنها إبنة اللورد بالمير ، أي إنها انكليزية غير أنها تدلهت في حب رجل فرنسي يلقب في لندرا بالرجل العبوس ، وهو الذي ارسلها إلى فرنسا لتجيئه بالمدد لأنه الآن سجين في لندرا وسيحاكمونه قريباً أمـا مهنتنا الأولى فهي أن نمنع اتصال مس الن بأولئك الذين جاءت لتبحث عنهم .
– العلك عرفتهم ؟
– كلا ولكني سأعرفهم فلنتحدث الآن عن الارلنديين .
– ولكني لا أجدهم يدعون إلى الاهتمام فإنهم في أشد حالات الشقـاء ولا أراهم من أهل البأس والعقل ولا من أهل البسالة والنفور .
– إنك مخطىء فإن شوكنج كان في لندرا كمساعد للرجل العبوس .
– والمرأة ؟
– إنها أرملة شقيق اللورد بالمير ، وقتل زوجهـــا شنقاً لانضمامه إلى الارلنديين ، وهذا الغلام الذي رأيته زعيم الارلنديين الأعظم وهو لا يتجاوز عشرة أعوام
– ماذا ينبغي أن نصنع بهم أنقبض عليهم ؟
– كلا فإن الوقت لم يحن بعد .
– إذاً تريد أن تخطفهم ؟
– نعم .
– ولكن ..
– سوف ترى فإن شوكنج لم يكن لديه درهم في هذا الصباح فقـد أرسلت من سرق أمواله ، وحوالة كانت معه على مياون المقاول .

- اليس هو ذلك الرجل الضخم الذي دخل مع شوكنج إلى المنزل ؟
- هو بعينه ..
- كيف اتفق التقاؤهما ؟

- أظن أن شوكنج عاد إلى ميلون ، وأن ميلون جاء معه كي يقابل المرأة ويتثبت من صدق أقواله ، ولا بد ان تكون الارلندية قد وافقت على أقوال شوكنج ، وان يكون ميلون أعطاهم ما يحتاجون اليه من المال بل ربما خطر له أيضاً أن يذهب بهم إلى منزله ؟
- أتدعه يفعل .

. لقد قلت لك أنه ليس لدي أمر بالقبض على مس الن ولكننا نستطيع اختطاف الغلام ، لأن الأسقف بترس تون واللورد بالمير وعداني بمكافأة قدرها عشرة آلاف جنيه إذا عدت بالغلام الارلندي إلى لندرا .
- أتعلم ماذا يريدان أن يصنعا به ؟

.. لا أعلم .
- لعلهما يريدان إعدامه ؟
قد يكون ذلك ولكن تبعة الجريمة تقع عليهما ، أما نحن فيقبض كل منا خمسة آلاف جنيه إذا تيسر لنا إيصاله إلى لندرا .
فطرب إدوار لهذه الجائزة العظيمة وقال : إذاً أسرع بالعمل .
- ذلك يتعلق بالحوادث فإن شوكنج لا بد أن يخرج من المنزل وتبقى الارلندية وابنها وحدهما فيه .
- وبعد ذلك ؟

- إصغ الي فاني أريد أن أبوح لك بسر لم تكن تعلمه ، وهو اني كنت قديماً من الجمعية الارلندية ورقيت إلى منصب عظيم في جمعياتهم السرية غير اني كنت فقيراً مثل جميع الارلنديين وبعت نفسي لانكلترا سداً لعوزي ولأني لست من أصحاب المبادىء .

- تريد انك عارف بأسرار الارلنديين ؟
- بل اني أعرف رموزهم واشاراتهم السرية التي يتعارفون بها .
وبينما هما يتكلمان رأيا شوكنج خارجاً من المنزل فقال السير جمس : انظر انه خارج من المنزل ويجب اقتفاء أثره .
- أأحدثه ؟
- دون شك وتقول له انك انكليزي وانك رأيته فقيراً معدماً فوجبت عليك مساعدتــه ، ثم تجتهد أن تسير به الى الضفة الثانية من النهر بحجــة تختلقها وتطيل معه الحديث بحيث يغيب ساعة عن المنزل وهو الوقت الذي احتاج اليه .
- وأنت ماذا تصنع ؟
- سأعود ارلندياً وأقابل هذه الارلندية .

وعند ذلك افترق البوليسان فذهب إدوارد في اثر شوكنج وذهب الســير جمس إلى منزل الارلندية وهو يقول : لا بد لي من الاستيلاء على الغلام .

- ٢٣ -

لقد عرف قراء قلب المرأة شوكنج وأخلاقه فإن تأثير السعادة والشقاء كان يتخلف فيه ، فهو إذا كان فقيراً معدماً بات حكيماً عاقلاً حذراً ، واذا سمع رنة النقود في جيبه ذهبت حكته وانطفأ نور ذلك العقل .

ويذكر القراء أيضاً حين جمعه الرجل العبوس لورداً كيف انــه كان يرتكب الهفوة إثر الهفوة ، حتى اوشك أن يفسد ما تقلده من أعمـــال لولا مراقبة الرجل العبوس .

ولما جاء باريس وسرق ما كان لديه من المال اقدم اقداماً عجيباً ، وفعل

ما لا يستطيعه سواه في سبيل الارتزاق ، كي يقوم بأود الارلندية وابنهـا ويظفر بميلون .

ولما ظفر بصديق روكامبول وملأ جيبه نقوداً تبدد ذلك الذكاء ، وذهبت تلك الحيلة العجيبة على الرزق ، وبات أبله العقل سافح القلب ، كثير الركون الى الناس والأيام ، فلا يحذر أحداً ، ولا ينظر الى المستقبل الا من خـلال أقداح الخمر .

وذلك انه حين كان واقفاً منذ ساعة مع ميلون عند باب المنزل ورأى الانكليزيين يرودان حول المنزل ، نظر اليهما بعين الحذر حين سمعهما يتكلمان باللغة الانكليزية .

ولو كان خرج من المنزل كما كان حين دخل اليه ، أي خالي الوفـاض ، بادي الانقباض لكان نظر الى ما حواليه عساه يرى الرجلين غير ان جيبـه كان مفعماً بما قبضه من ميلون فسار دون ان يتدانى الى الالتفـــات وتبعه الشرطي ادوارد وهو لا يراه .

وكان شوكنج ذاهباً لشراء ثياب له وللارلندية وابنها ، ومن كانت له اخلاق شوكنج لا يسير ماشياً على الأقدام حين يستطيع الركوب ، فلما وصل الى الشارع رأى مركبة من نوع الأمنبوس فصعد اليها وهو يعلل نفسه بركوب مركبة خاصة حين رجوعه .

وسارت مركبة الاومنيبوس الهوينا، وبعـد هنيهة استوقفت باشارة من الشرطي ادوارد وصعد اليها وجلس بجانب شوكنج ، ولم يعرفه شوكنج لأنه ما رآه غير لمحة حين كان مع السير جمس .

وجاء مراقب المركبة لقبض الأجرة فبدرت من شوكنج كلمة بالانكليزية فأظهر إدوارد إنذهالاً وتكلف السرور وقال : انت انكليزي ؟

فأجابه بالايجاب . .

ودار بينهما الحديث فقال له ادوارد : أانت هنا منذ عهد طويل ؟

– منذ شهر .

فنظر الشرطي الى ملابسه نظرة المشفق وقال العلك اتيت باريس للاشتغال بمهنة سواق المركبات ؟

فاستاء شوكنج من ظواهر إشفاقه وقال بجفاء : كلا .

– أرجو ألا يسوءك اقتراحي فإني غني لا أطيق أن ارى مواطني في عسر وضيق .

ثم أعطاه رقعة زيارته فشكره شوكنج وادخلها في جيبه .

ولما وصلت المركبة الى شارع فوجيراد وقفت ونزل منها شوكنج وتبعه ادوارد ووضع يده على كتفه وقال : ان كل انكليزي يلقى مواطناً له في بلاد أجنبية يشرب وإياه كأساً من الخمر فهل ترفض دعوتي .

فاهتز شوكنج لذكر الخمر وهو من المولعين بها وقال له : معاذ الله أن أرفض مثل هذا الطلب يا سيدي ؟

– إذاً هلم به إلى هذه الخمارة فإنها حسنة الظواهر .

وكان في تلك الخمارة كثير من الزبائن فجعلوا ينظرون إلى إدواردوشوكنج نظر الاعجاب لما رأوه من اختلاف ملابسهما الدالة على ما بينهما من تباين المقام .

غير انهما ذهبا إلى طاولة معتزلة في آخر الخمارة وطلبا زجاجة من نبيذ برتو ، فشرباها وطلب إدوارد زجاجة ثانية فلم يعترضه شوكنج وشرباها ، وطلب زجاجة ثالثة وطعاماً مختلفاً فهاجت شهية شوكنج فأكل وشرب قدر ما يأكله أربعة رجال أصحاء .

وكان الشرطي يتوقع أن يصرعه السكر من حين إلى حين ، غير أن شوكنج كان مدمناً للشراب فلا يصرعه القليل منه ، ومع ذلك فقد أثر فيه تأثيراً أعاد اليه ذكرى أيامه السابقة مع الرجل العبوس حين كان يتنعم بماله وبجده ويغير القابه من لورد إلى بارون إلى مركيز .

فلما امتلأ بطنه من الشراب ، شرب كأساً وجعل يتبسم ابتساماً معنوياً ثم قال للشرطي : أرجوك أن تعذرني يا سيدي فاني مضطر أن أفارقك لقضاء بعض المهام .

وعند ذلك نادى خادم الخمارة ، فقال له إدوارد : ماذا تريد منه ؟

أجابه ببرود : اني أريد أن ادفع الحساب .

ثم أخذ قطعة نقود ذهبية ووضعها على المائدة، فتظاهر الشرطي بالاندهال أما شوكنج فإنه عاد إلى الابتسام وقال : ان المرء ليس بثيابه يا مواطني العزيز فاعلم الآن اني لورد غريب الأخلاق يقال عني من اهل الشذوذ .

وأنا أسافر متجولاً في البلاد بغية الوقوف على اخلاق الأمم وعاداتهم ، وقد تنكرت اليوم بهذه الثياب الرثة وتجولت في شارع سانت مارتلي ورأيت شبهاً عجيباً بينه وبين شارع سبيتهلد في لندرا .

فوقف الشرطي إجلالاً وقال بلهجة الاحترام: ولكن إلا تتدانى يا حضرة اللورد إلى تشريفي بذكر اسمكم الشريف .

فاهتز شوكنج اهتزازاً كبيراً وقد زاده السكر تيهاً حتى اوشك أن يصدق نفسه :

– اني ادعى اللورد ويلموت .

ثم نهض بملء العظمة كما ينهض اللورد عن كرسيه في مجلس البرلمان .

كان السير جمس قد قال لرفيقه إدوارد ان ساعة تكفيني لاختطاف الغلام ووضعه في محل أمين ، وقد مضى أكثر من ساعة على اجتماعه بشوكنج فلما نهض يحاول الذهاب قال في نفسه : ليذهب الآن حيث شاء ولم يعترضه في شيء .

أما شوكنج فإنه وقف وقوف المنتصر ومد يده إلى إدوارد فقال بلهجة المتواضع : لا بأس من أن تزورني خلال إقامتك في لندرا .

فشكره الشرطي وقال : إن هذا شرف عظيم لي يا سيدي اللورد .

فتشامخ شوكنج وقال انني مقيم في اوتيل لابيه ، وليس لدي رقعة زيارة ولكني سآمر رجال الفندق أن يدخلوك الي متى حضرت .

ثم تركه وهو معجب بنفسه لتمكنه من خداعه وافترقا فذهب كل منهما في سبيل .

أما شوكنج فإن الشرب كان قد أثر فيه تأثيراً يعد قليلاً بالقياس إلى المدمنين من الانكليز ، ولو أصاب رجلاً غير الانكليز لصرعه ، اي أنه وصل إلى محل بائع الثياب دون ان يلتطم بالجدران .

وكان هذا المحل يشتري الثياب القديمة فينظفها ويبيعها للمقتصدين ، فدخل شوكنج إلى المحل ودفع لصاحبه ٦٠ فرنكاً فألبسه ثوباً جميلاً وزاده قميصاً وأعطاه قفاراً .

وخرج من عنده وهو يتمايل سكراً وعجباً وهو لا يشكك أنه لورد حقيقي بعد هذه الثياب .

وبعد أن نظر نفسه في جميع مرائي المحل مراراً وامتلأت نفسه من الغرور فطن إلى ثياب الارلندية وولدها فقال في نفسه : كان يجب أن أحضرهما معي لكن لا بأس فسأذهب في مركبة وأعود بهما .

وسار حتى وصل الى لكسمبرج وكان أول من رآه في تلك الحديقة الشرطي إدوارد ، وهو جالس على مقعد يطالع في احدى الجرائد فدنا منه شوكنج وسعل كي يحول اليه الأنظار فالتفت الشرطي اليه وتظاهر بالدهشة وخف للسلام عليه وهو ينظر الى ملابسه نظرة إعجاب .

وقال له شوكنج : اني بعد ان فارقتك ذهبت الى الفندق وغيرت ملابسي لأني سأحضر جلسة مجلس الشيوخ ولكنك قد هجت شوقي الى الشراب بما سقيتني اياه فهل لك ان تشرب زجاجة ؟

– اني لا أجسر على رفض طلب سيدي اللورد ولكني التمس منه على ما بيننا من تباين المقام أن يأذن لي هذه المرة بدفع ثمن الشراب .

– لا بأس فقد أذنت لك .

وعند ذلك دخل الاثنان الى الخمارة في الحديقة وكان ادوارد يقول في نفسه : لا أعلم ما فعل السير جمس فقد يكون محتاجاً الى اكثر من الوقت الذي عينه ، فلنطل الزمن بالضحك على هذا الأبله

وكان شوكنج قد شرب مقداراً عظيماً كما قدمناه وجلس مع ادوارد وجعل يشرب من الزجاجة حتى صرعته الخمر وسقط على الأرض لا يعي لسكره فنادى ادوارد صاحب الخمارة وقال له: ان هذا الرجل مولع بالشراب وهو من أغنياء الانكليز ، وقد سكر كما تراه فاحمله وضعه على مقعد من مقاعد الحديقة معرضاً للهواء الطلق الى ان يستفيق .

فامتثل الخمار وحمله مع رجلين من خدمه الى الحديقة .

ومن كان يدمن الشراب كان سكره قصير المدى ولذلك لم يمر بشوكنج ثلاث ساعات حتى صحا من سكرته ففتح عينيه وجمع حواسه فذكر ما كان منه وما صار اليه وقال . ويح لنفسي ما أشقاني فقد تركت الأم وابنها وانصرفت الى السكر .

ثم ذكر اتفاقه مع ميلون على اللقاء فهب منذعراً وأسرع بالخروج من الحديقة

وكان عزاؤه الوحيد ان الرجل العبوس لا يعلم ما كان من تقصيره .

وهناك لقي مركبة فركبها وقال في نفسه :أظن أن خطائي ممكن اصلاحه فإني سأبقي المركبة لحسابي فأذهب بهـــا مع حنة ورالف الى بائع الثياب ونذهب في الأثر الى منزل ميلون .

وبعد ربع ساعة وقفت المركبة عند باب منزل الارلندية فخرج شوكنج منها ، وصعد الى الغرفة التي يبيتون فيها فوجد الباب مفتوحاً ولم يجد فيها أحداً .

فانذعر وجعل يجيل نظراً حائراً مضطرباً وكانت فتاة عاملة تقيم في غرفة مجاورة لغرفتهم فرأته وقالت له : ان امرأتك وولدك قد سافرا .

فاضطرب ووقع هذا القول عليه وقع الصواعق فقال لها : كيف سافرا ومتى ولماذا ؟

– ان أحد مواطنيكم جاء الى هنا وذهب بهما .

– أهو رجل انكليزي ؟

– نعم ..

فوهت قواه حتى حسب ان الأرض تميل بـه وذكر اللذين رآهما يرودان حول المنزل حين كان يحادث ميلون وذاك الرجل الانـكلـيزي الذي أسكره فصاح صيحة رعب وخرج من المنزل راكضاً كأنه أصيب بالجنون .

- ٢٥ -

أما ميلون فانه عاد الى منزله وجد كتاب مرميس بدلاً من أن يجـده بنفسه ، فقرأ تلك الرسالة وقال في نفسه بعد الإمعان ، ان مرميس مصيب فيما فعل ، وكانت الخادمة لا تزال واقفة أمام ميلون ، فأظهر أمامهـا شدة

استيائه من كتاب الانكليزي وقحته ، وعند ذلك جاء اثنان من وكلائـه فأخبرهما بأمر هذا اللورد الغريب وقال لهما وهو يتكلف مظاهر الكدر : اني تأخرت ربع ساعة عن الموعد المضروب فحسب هذا الرجـل الغريب اني احتقرته وكتب لي كتابات شائنة .

فقال له أحد الوكيلين . اذاً لم يبق رجاء بعودته ؟

ـ ليذهب حيث شاء فان لدي كثيراً من الأعمال فلا أبالي بمثـله والآن اصعدا معي الى غرفتي لأريكما رسم بناء جديد تعهدت ببنائه .

وكان ميلون يمثل دوره تمثيلاً متقناً فتقدم وكيله الى غرفته ولم يكد يفتح بابها حتى صاح صيحة طبيعية ، وأسرع الوكيلان اليه فوجداه واقفاً وقفـة المنذهل وهو يقول . لقد سرقوني .

وكان يجيد تمثيل الرعب اجادة طبيعية بحيث لم يخطر لأحد أن يشك في قوله ، وخرج من الغرفة ونادى الخادمة فقال لها منذ أي حين خرج هذا اللورد

ـ منذ ربع ساعة .

ـ في أي جهة مضى ؟

ـ رأيت مركبته ذهبت الى جهة الشانزليزه .

ـ ألم تعرفي نمرتها ؟

ـ كلا لم انظر الى النمرة ولكني نظرت الى السائق .

ـ اتعرفيه اذا رأيتيه ؟

ـ دون شك .

فخرج ميلون من المنزل مسرعاً وتبعه الوكيلان فركب مركبة معهما وهو يقول بلهجة القانط : لا شك ان هذا اللص متنكر بثياب الأعيان وأن البحث عنه محال ، ولكن لا بد من إبلاغ الشرطة .

وكان مدير شرطة تلك الناحية يعرف ميلون حق العرفان فـما شكك بكلامه فكتب أقواله واقوال الوكيلين والخادمة وقال : اني سأرسل قضيتك

الى ادارة الشرطة فانه يوجد في باريس الآن بوليسان من الانكليز لهم اتصال ببوليسنا فاذا ثبت ان السارق انكليزي فهما يظفران به دون شك ولكن البوليس الانكليزي لا يعمل شيئاً مجاناً .

فقال ميلون : اني أدفع ربع المال المسروق اذا اقتضى الأمر

غير ان البوليس لم يكتف بكتابة المحضر بل انه حاول اجراء التحقيق التام فبدأ بالذهاب الى منزل ميلون وفحص الصندوق فوجد ان قفل الجدار مكسور وان قفل الصندوق نفسه سليم وليس فيه اقل اثر من الاغتصاب فاستدل من ذلك ان الصندوق قد فتح بمفتاح مصنوع في انكلترا حيث صنع الصندوق

ولما أتم فحصه قال لميلون ان ادارة الشرطة قد تدعوك غداً لاستعلام منك واستئناف التحقيق .

— سأذهب حين تدعوني .

فذهب الشرطي في شأنه وتظاهر ميلون انه يريد الاقامة منفرداً في غرفته لشدة أسفه على المال .

غير أنه لما خلا بنفسه ذهبت عنه آثار الانقباض وقال في نفسه : انهم يتهمونني بالبلاهة وقد اتهم نفسي بالبله ايضاً غير اني قد فعلت اليوم ما لا يفعله روكامبول ومثلت دوري تمثيلاً خدع به وكلائي ومأمور الشرطة نفسه .

ثم ظهرت عليه مظاهر الاعجاب بنفسه وجعل ينظر في حساباته بملء الرضى وفيما هو على ذلك طرق باب غرفته ودخلت الخادمة فقالت له . لقد جاء يا سيدي انكليزي آخر وهو يطلب ان يراك .

فتذكر ميلون موعده مع شوكنج وقال لها اتدل ملابسه على الفقر ؟

— كلا فانه لابس خير ثياب .

— ايصحبه امرأة وغلام .

— كلا بل هو وحده ولكنه يبكي بكاء شديداً فاحذر يا سيدي فإني اخشى ان يكون هذا الانكليزي ايضاً من الماكرين .

فخرج ميلون من غرفتــه ونزل إلى الدور الأسفل ، حيث كان ينتظر شوكنج فاستقبله باكياً وقال له : لقد اختطفوا حنة ورالف أيضاً .

ثم قص عليه جميع ما كان يعلمه .

ولم يكن شوكنج يعلم غير أمرين ، أحدهما أن رجــلا إنكليزياً سقاه فــأسكره ، والآخر ان رجــلا انكليزياً ايضاً قدم الى المــنزل وذهب بالأم والغلام .

فأشكل الأمر على ميــلون ، وقال في نفسه لا يحــل هذا المشكل إلا مرميس .

ثم أوصى شوكنج أن يبقى في المنزل إلى حين عودته وذهب الى بيت مرميس فوجده وقص عليه ما جرى .

فلما فرغ من حــديثه ابتسم مرميس وقــال له : أهــذا الذي أشكل عليك فهمه ؟

ـ وأي إشكال أعظم من هذا ؟

ـ إن الذين اختطفوا الغلام هم نفس الذين سجنوا المس الن

ـ أتظن ؟

ـ بل أؤكد ، وقد نصبت لهم فخاً فمتى وقعوا فيه استرجعنا الغلام وامه كما نسترجع المس الن .

فأعجب ميلون به وقال له . أرى لك قريحة الرئيس ، فإنك تجد مخرجاً من كل أمر .

ـ لا أقول لك أن لي ذ كاء روكامبول ولكني أذكى منك فانك تغرق في قدح ماء كما يقولون

ولنذكر الآن ما جرى للارلندية وابنها ، فإن السير جمس أخبر رفيقه ادوارد أنه كان من الارلنديين . وحكايته انه بعد ان خان تلك الطائفة ، التي أصبحت شغل انكلترا الشاغل ، هرب الى البلاد الاميركية خوفاً من الارلنديين ثم عاد بعد ان أقام مدة طويلة في لندرا ، فلم يعرفه فيها أحد .

وكان يعتمد في خديعة الارلندية على تلك الأشارات التي كان يعرفها حق العرفان . فإنه كان من كبار تلك الطائفة قبل أن يبيع نفسه للانكليز بيع السلع .

وكان قد تداول مرات كثيرة مع اللورد بالمير ومع الأسقف بترس تون قبل أن يحضر الى فرنسا فعلم من هذا الأسقف جميع ما جرى اخيراً من الحوادث ولكنه لم يبح بشيء منها لرفيقه ادوارد

ويذكر القراء أنه حين كان يقيم مع رفيقه في منزل مس الن لحراستها كان يعهد في أول الليل بمراقبتها إلى رفيقه ويذهب متجولاً في أنحاء باريس للبحث عن الارلنديين ومراقبتهم .

وان البوليس الفرنسي لم يأذن له إلا بالقبض على مس الن ، ولكنه سمح له بواسطة السفارة ان يقتفي أثرهم وعين في خدمته رجلاً حاذقاً يعرف جميع خفايا باريس

وقد جعل السير جمس نصب عينيه البحث عن الغلام وأمه ، والقبض عليهما . ثم إيجاد محل أمين يسجنهما فيه ، الى أن ترد اليه الأوامر من الأسقف . ويذهب في كل ليلة مع الرجل الفرنسي ، فيطوف في الشوارع المقفرة باحثاً عن منزل معتزل بعيد حتى فاز ببغيته ، فانصرف الى البحث عن الغلام وامه .

وبعد ذلك بثلاث أيام عثر بالبيت الذي يبحث عنه ، ووقف في المساء على أثر الارلندية وابنها .

فبينما كان ادوارد يسير مقتفياً أثر شوكنج ، كان السير جمس يصعد إلى منزل الارلندية ، وقد وضع خطة لإغوائها ، يستحيل عليها أن تعلم المراد منها .

فلما وصل الى الدور الثالث رأى فتاة خارجة من باب منزلها فقال لها : أين يقيم الانكليز من هذا البيت ؟

فدلته على غرفة الارلندية فصعد اليها .

وكان باب الغرفة لا يزال مفتوحاً ، بعد ذهاب شوكنج ، وكانت جالسة مع ابنها تلاعبه وتمازحه ، وقد اطمأن بالها بعد ان اجتمعت بميلون . فلما رأت السير جمس ذعرت غير انه بادرها بالإشارة الارلندية السرية . فمشت اليه مطمئنة وقالت له . ماذا تريد أيها الأخ ؟

فأجابها باللغة الارلندية الاصطلاحية : إني أبحث عنك أيتها الأخت منذ عهد طويل .

– عني أنا ؟

– نعم وعن ابنك زعيمنا الأكبر .

وعند ذلك ركع أمام الغلام وقبل يديه بملء الاحترام ، ثم قال له بلهجة الكئيب : إن واحداً من إخواننا يحتضر في هذه المدينة المتسعة التي لجأنا اليها فراراً من الذين يضطهدوننا ، وقد أراد هذا المحتضر ان يردد نفسه الأخير أمام الزعيم الذي ستلقى اليه مقاليد ارلندا ، فهل ترفضون طلب ذاك المنكود في ساعة الموت ؟

فأجابته حنة : كلا ايها الأخ وسنسير معك اليه .

غير ان السير جمس ، ذلك الخائن الذي باع سر إخوانه للانكليز ، كان قد الف حكاية صغيرة يرويها للارلندية ، كي يتم إغواءها بمساعدة إشاراته

السرية فقال لها : إصغي إلي أيتها الأخت ، فإني قد أتيت خصيصاً إلى باريس من أجلك ولكني لم أقف على أثرك إلا منذ بضع ساعات

فنظرت اليه حنة وقالت : من الذي أرسلك إلي ؟

- رجلان يدعى أحدهما صموئيل .

فأزال اسم هـذا الكاهن من نفس الارلندية كل ريب وأتمت الاشارات السرية تطمينها .

وعاد السير جمس الى الحديث فقال : إني أبحث عنك منذ ثمانيـة أيام ، وإنما أبحث عنك لسببين الأول هو صدور الأمر إلي بإيجادك ، والثاني وجود ذاك الأخ المنكود على فراش المـوت ، والتماسه بركة رئيسنا الأعظم قبـل مفارقته الحياة .

– أين يقيم هذا المحتضر ؟

– إنه يقيم في منزل بعيد يجب ان نسير اليه في المركبة .

– أيمكن ان نعود قبل هجوم الليل ؟

– دون شك .

فابتسمت حنـة وقالت : إنك تنـذهل ، ايها الأخ ، لمبـادرتي إياك بهذا السؤال .

– هو ما تقولين .

– إنك آت من قبـل الكاهن صموئيـل كما تقول ، ومن رجـل آخر أليس كذلك ؟

- نعم أيتها الأخت .

- ما اسم الرجل الآخر ؟

– لا اسم له ولكنهم يلقبونه بالرجل العبوس .

فمدت حنة يدها اليه وقالت له : ما زال الاثنـان قد أرسلاك إلي فإني أتبعك حيث تشاء .

ثم اني لا أخفي عنك أمراً من أموري فاننا حين جئنا الى باريس أرسل الرجل العبوس معنا رفيقاً .

– وهذا الرفيق يدعى شوكنج .

– أتعرفه ؟

– نعم وكنت أرجو ان أراه معك .

– إنه ذهب في بعض الشؤون .

– واأسفاه كنت أحب أن ننتظره فيذهب معنا ولكن الرجل في حالة النزع وأخشى ان يعيقنا الانتظار فيموت قبل ان نصل اليه .

– لقد أصبت وفوق ذلك فان شوكنج عندما يكون ملآن الجيب لا يهتم بالاسراع في العودة وسأخبرك عن أمرنا في الطريق .

وأنا ذاهب لإحضار مركبة فتأهبي .

ثم ذهب ، فأسرعت حنة الى ارتداء ملابسها ، وأخذت غلامها بيدها وحاولت أن تسير به فلم يسر ، فذهلت أمه لمقاومته وقالت له : ماذا طرأ عليك ؟

– إني أخاف يا أماه .

– لماذا الخوف يا بني وممن خفت ؟

– إن خوفي من هذا الشخص ولا أحب الذهاب معه .

– لا سبيل الى الخوف فانه من اخواننا الارلنديين .

– كلا واني خائف منه .

وكانت ثقة حنة بالسير جمس راسخة بعدما أخبرها انه قادم من قبل الرجل العبوس والكاهن صموئيل فأنبت ولدها وقالت له : انك رجل والرجل لا يخاف .

فتحمس الغلام ووقف فقال لأمه بعظمة : اذا كنت تريدين الذهاب فلنذهب ولكن سوف ترين اننا سنصاب بنكبة .

فلم تحفل حنة بقول ولدها وحسبت حذره من قبيل الهواجس .

أمـا رالف فانه لم يقاومها بعد ان أنـذرها ونزل معها ، فوجد السـير جمس قد جاء بالمركبة فصعدا اليها مع السير جمس ، وسار السـائق الى حيث أمره الشرطي .

وقد أخبرته حنة وهم سائرين بما جرى لهم في باريس ، وكيف أنهم سرقوا منهم مالهم والحوالة الى ان أخبرته بحضور ميلون اليه وإحسانه اليهم ودعوته لهم الى منزله .

ثم قالت له : وهذا هو السبب في اضطراري الى الرجوع قبل الظلام لأننـا وعدناه ان نكون عنده في هذا الموعد .

- حسناً وأنا اذهب بكما اليه متى فرغنا من هذه المهمة .

وظلت المركبة سائرة من شـارع الى شارع ، حتى وصلت الى شارع ضيق يدعى الشارع الأخضر . فدخلت فيه ووقف عند منعطف لم تدخـل فيه المركبة .

فنزل السير جمس وأعان الارلندية وابنها على النزول وقال لها : ان المنزل قريب جداً من هنا .

ثم حاول ان يأخذ بيد الغلام فنفر منه والتصق بامه .

فقـال له السير جمس ، باللغـة الارلندية الاصطـلاحية : العلـك خفت يا بني ؟

فأثرت لهجته الحنونة وهذه اللغة برالف فأعطاه يده وسار الشرطي بالاثنين في ذلك الشارع .

كان هذا الشـــارع الضيق كثير السكان ، ولكن معظمهم من العمال .
فكانوا اذا أشرق الصباح هجروا مساكنهم الى المعامل فلا يعودون الا حين
يقبل الظلام .

ولذلك لم يكن يوجد فيه مدة النهار غير امرأة ترضع ولدها او صغـــار
يلعبون عند أبواب المنزل .

وكان يوجد في وسط هذا الشارع من جهة مدخـل الشارع الأخضر منزل
مرتفع ذو ثلاثة أدوار فكان يقيم في الدور الأول منه رجل فحام وفي الدورين
الآخرين فريق من العمال .

غير ان العمال لا يقيمون في منازلهم الا في الليل كما قدمناه ، فلا يبقى في
المنزل نهاراً الا ذلك الفحام .

وقد دخل السير جمس مع حنـة ورالف الى ذلك المنزل ، فـلم ترعها
قذارته ، ولا ضيق ذلك الشارع فقد الفت مثل هذه المنـاظر في شوارع
لندرا المقفرة .

ولذلك دخلت الى رواق المنزل المظلم في أثر السير جمس دون تردد
أو خوف .

ولما بلغوا الى آخر الرواق انتهوا الى باب قرعه السير جمس فأسرع الفحام
الى فتحه واستقبال الزائرين .

وهذا الفحام يناهز الأربعين من العمر وهو ضيق الجبهة صغير العينين قوي
العضلات شديد البنية ولكن هيئته تدل على الشر .

وكان أرملا غير ان الأقوال قد اختلفت عن موت امرأته . فقال بعضهم
انه سقاها سماً وقال آخرون انه قتلها خنقاً . فلما اشتهرت الاشاعات سجنه
البوليس وأطلق سراحه بعد التحقيق .

ثم انه كان له ابنة تبلغ الخامسة عشرة من عمرها كان يعاملها أسوأ معاملة وينهكها ضرباً .

فلما ماتت أمها هربت من منزل أبيها فلم يعلم أحد ما جرى لها ولم يكترث أبوها لاختفائها .

وكان هذا الرجـــل يدعى شاباروت وهو شديد البخل كثير الشغل ، فظ الطباع هائل الخلقة .

وكان جميع أهل الشارع يخافونه وإذا جاء النساء لشراء الفحم والحطب من من دكانه لا يجسرن على تخطي العتبة .

على انه كان كثير الصمت لا يعاقر الخمر ولا يخاصم أحداً ومع ذلك فقـد كانوا يخافونه ويبتعدون عنه ما استطاعوا .

ويذكر القراء ان السير جمس كان قد استخدم رجلاً فرنسياً عارفـــاً بجميع خفايا باريس ، فقال له الرجل يوماً : إنك قد سألتني أن أرشدك إلى رجل شديد العزم ثابت الارادة يقدم على كل أمر ، فاذا كنت لا تزال في حاجة الى هذا الرجل فهلم معي أرشدك اليه .

فتنكر السير تلك الليلة بثياب العمال وسار معه الى حانتـه ، فأراه ذلك الرجل الفحام جالساً في زاوية الخمارة يتمشى وقال له . هـذا هو الشخص الذي تحتاج اليه فاتفق معه يفعل ما تشاء اما أنا فاني ذاهب اذ لا أتداخل بينكما في شيء .

ولا شك ان الفحام كان عالماً باحتياج السير جمس اليه فإنه استقبله على شراسة طباعه بالابتسام .

فجلس السير معه وطلب قنينة خمر فشرباها معاً وتحـادثا ملياً ، فأفضت المحادثة الى ان السير أعطاه قبضة من الذهب فبات الفحام بعد هذه المقابلة طوعاً للشرطي في كل ما يريد .

وقد اجتمع به السير مراراً بعد هذا الاجتماع .

وكان التقاؤهما دائماً في الحانات ولم يزره في دكانه غير مرة واحدة وهي المرة الأخيرة .

فلما وصل السير جمسن مع الارلندية وابنها لم يدخل الى دكان الفحام ، بل دخل في الرواق وطرق الباب ، فأسرع الفحـام بفتحه فتحه وتبودلت بينه وبين السـير جمس نظرة سريه ، كان يقول له فيها : إتبعني ، فقد فهمت المراد .

وكان السير ماسكاً يد الغلام فتبع الفحام ووراءها الارلندية ، فاجتازوا فسحة كانت مظلمة في رابعة النهار .

وفي جوار هذه الفسحة فسحة أخرى ، بل هي سقف كان الفحام يخزن تحته فحمه وأخشابه .

وساروا على هذا السقف في الظلام الحالك .

وكان السير كلمـا آنس من رالف تردداً يكلمه بلغته الاصطلاحيـة ، فيطمئن ويسير .

وكانت الارلندية ترجو من حين الى حين أن ترى سريراً وعليه ذلك الرجل المحتضر ولكنها لم تر شيئاً .

واستمروا سائرين حتى وصلوا إلى باب في آخر الفسحة ففتحه فـلم يروا شيئاً لشدة الظلام .

ولكن الفحـام أضاء شمعة وتقـدمهم ، فوجدوا أنهم في مكان يشبه القبو .

وكان نور الشمعة ضعيفاً حتى انهم لم يروا ما يوجد داخل هذا القبو ولكنهم كانوا يشعرون انه سقف خشبي وان تحته فراغ .

فكان الفحام يتقدم الجميع بشمعته ، وفي أثره السير والغلام ، ووراءهما الارلندية

فلم يسيروا ثلاث خطوات حتى وقف الفحام وانحنى الى الأرض باحثـاً

كأنه يلتقط شيئاً ، فانذهل الغلام لانحنـــائه ثم شعر باهتزاز شديد ، تلاه صيحة وصوت يشبه صوت سقوط جسم في المياه ، فالتفت الغلام منذعراً فلم ير امه .

أما الارلندية فانها قد اختفت ، ذلك ان الأرض قد فتحت تحت قدميها فسقطت في هوة تحت السقف الذي كانوا يسيرون عليه .

- ٢٨ -

وكان رالف قد ذعر لهذا الصوت الذي سمعه وحسب في البدء ان الحادث بسيط فالتفت وراءه منادياً أمه . غير أن حركة السقف الذي فتح فجأة كانت سريعة بحيث فتح تحت أقدام حنة وانغلق بأسرع من لمح البصر ، فلم ير الغـلام شيئاً مما حدث .

ولكن الذعر تمكن من قلبه حين التفت ولم ير أمه وحاول الرجوع والأفلات من يد السير جمس وهو ينادي يا أماه .

أما السير فانه مسكه بيد شديدة ، بينما كان الفحام يضحك لصياحـه ضحك المستهزئين . فعض رالف تلك اليد بملء قوته ، حتى ان السير صـاح متألماً وأفلته .

فانقض الفحام عند ذلك عليـــه ، وضغط على عنقـه ضغطاً منعه عن الصياح .

وكان هذا الشقيان سمعا بعد سقوط حنة صوت جسم يضطرب في المياه ، ثم انقطع هذا الصوت ، وساد السكون فقال الفحام ضاحكاً : أظن أن أمرها قد انقضى .

وعاد الى الضغط على عنق الغلام حتى اندلع لســانه وانحبس الدم في

وجهه فصاح به السير قائلا · ويحك انك ستخنقه فاحذر ان تقتله فان حياته ثمينة عندي

وكان الغلام لا يزال يناضل ، فقال الفحام للسير جمس : إذاً أربط فمه بمنديل .

فتعاون الشقيان على ربط فمه ، وحملاه الى مستودع الفحم ، فألقاه ذلك الوحش الكاسر في الأرض ووضعه في كيس فحم فارغ ، فكاد غباره يعمي عينيه .

وعند ذلك دار بين الاثنين الحديث الآتي :

قال الفحام للسير : ماذا يجب أن نصنع به ؟

ـ أتظن أن أمه قد غرقت ؟

ـ دون شك فإن المياه التي سقطت فيها يبلغ عمقها عشرة أقدام فليطمئن بالك ، وقل لي ماذا نصنع بالغلام ؟

ـ يجب أن تبقيه عندك .

ـ إلى متى ؟

ـ إلى الغد .

ـ أيجب ان أطعمه ؟

ـ دون شك إلا إذا اشتد صياحه فعاقبه بالجوع .

ـ اني سأضعه في مكان يصرخ به قدر ما يشاء فلا يسمع صياحه أحد ، ثم حمل الكيس الذي وضع فيه الغلام وقال له مشيراً إلى قطعة ضخمة من الخشب : أزح هذه الخشبة من موضعها .

فأزاحها السير جمس فانكشفت عن سلم يؤدي إلى قبو فقال له : انتظرني هنا فاني عائد اليك .

ثم نزل وبعد هنيهة عاد وقال : اني سجنته في قبو لا يجد منه مخرجاً ولا يجيب صياحه فيه غير الصدى ثم مد يده إلى السير جمس وقال : لقد فعلت ما

علي فافعل أنت ما عليك. فأخذ السير جمس الف فرنك ذهباً من جيبه ودفعها له وقال : خذ نصف أجرتك الآن .

فحملق الفحام بعينيه وقال : والنصف الآخر ؟

— سأدفعه لك متى أخذت منك الغلام وأنا أريد بذلك أن تحرص عليه .

— كن مطمئناً فسأحرص عليه كل الحرص .

— إذاً سأحضر غداً لاستلامه وأدفع لك بقية ما اتفقنا عليه .

فتنهد الفحام وقال : ليكن ما تريد .

ثم افترق الاثنان ودخل الفحام إلى دكانه وخرج السير من الرواق إلى الشارع الآخر وركب المركبة التي جاء فيها وذهب تواً إلى ادارة التلغراف وأرسل الرسالة البرقية الآتية :

« لحضرة الأسقف بيترس تومن
لندرا ٩٢ أوكسفورد ستريت
ان رالف عندي . أيجب أن نسافر ؟ أجبني على الفور »

« سير جمس »

وبعد أن أرسل الرسالة الدموية سار آمنـاً مطمئناً إلى القهوة الانكليزية ليتناول فيها طعام العشاء وهي القهوة التي واعد رفيقه ادوار على مقابلته فيها.

غير أن ادوار ابطأ في الحضور ولم يعد إلا بعد ان أتم السير عشاءه ، فقال له ادوار : ماذا صنعت ؟

— قضي الأمر .

— وأين وضعت الغلام ؟

فابتسم السير وقال : في محل أمين لا يصل اليه أحد .

— أما انا فاني مررت بالفندق وأحضرت لك منه كتاباً ورسالة برقيـة وردتا باسمك .

فأخذها السير منه وبدأ بفتح الرسالة البرقية وهي واردة اليه من الأسقف

بيترس تون فقرأ ما يأتي :

« اكتب كتاباً مفصلاً وانتظر أوامر جديدة »

– كما يريـــد . ثم فتح الكتاب فوجد أنه من البوليس الفرنسي وقد تضمن ما يأتي :

« أحضر في الساعة التاسعة صباح غد إلى مكتبي فان لدي اقتراحاً أعرضه عليك ومهمة أعهد بقضائها اليك »

فقال بعد أن قرأ هذه الرسالة : اني لا أعلم ما يريد مني غير اني أظن انه يستخدمنا في سبيـل القبض على بعض اللصوص الانكليز ، إذ يوجد عصابة منهم قدمت حديثاً إلى باريس وهو أمر يسرني ، فاننا لا نخدم البوليس الفرنسي مجاناً .

إذاً تذهب في الساعة التاسعة من صباح غد ؟

– دون شك انها فرصة مناسبة للكسب ، ثم جعل يدخن مع رفيقه دون ان تخطر في باله تلك المرأة المنكودة أو يمر في خاطره ذلك الغلام الصغير .

– ٢٩ –

في صباح اليوم التالي ذهب السير الى ادارة الشرطة ودخلت مركبته إلى رصيف أورفيفر .

وهناك محطة للمركبات كان فيها نحو عشرين مركبة تنتظر وهي خالية من الناس ما خلا مركبة كانت ستائرها مرخية . ولكن رجلين كانا ينظران فيها من خلال تلك الستائر الى كل قادم .

وكان هذا الرجلان مرميس وميلون فقد صعدا الى هذه المركبة منذ الساعة الثامنة ونصف وقالا لسائقها أنهما ينتظران قادماً وأنهما استأجرا مركبته بالساعة

فأوقفها في خدمتها وجعل الاثنان يراقبان القادمين إلى دائرة الشرطة من خلال السجف ويتحدثان بصوت منخفض .

وافتتح مرميس الحديث فقال : أتحسب يا ميلون ان الانكليز يستطيعون التنكر في باريس فإن من كان مثلي يعرفهم من حركاتهم إذا تعذر عليه معرفتهم من وجوههم .

وقال ميلون : إذاً أنت تريد أن تعرفه ؟

- دون شك .

- ولماذا لا تدعني أقابل مدير الشرطة قبله ؟

- ذلك لأنك تعرف الرجلين اللذين كانا يرودان حول منزل الارلندية حين كنت مع شوكنبج فاذا جاء أحدهما لإدارة الشرطة عرفته وأرشدتني اليه ، ثم اني أحب أن يصل قبلك إلى دائرة الشرطة .

ثم تنقلا من حديثهما إلى حديث آخر ، وفيما هما على ذلك مرت بهما مركبة فوقفت عند باب الشرطة وخرج منها رجل وكلم السائق .

فقال مرميس : هذا هو إذا لم تخطىء فراستي .

وقال ميلون : لقد أصبت فانه أحد الرجلين اللذين رأيتهما البارحة .

- إذاً اصغ الي فان هذا الشرطي قد صعد إلى دائرة الشرطة لمقابلة المدير فاصبر هنيهة واصعد في اثره واجتهدأن تخرج معه سواء عهد اليه المدير بالبحث عن سارق أموالك أو لم يعهد اليه .

- لماذا ؟

- لتكون واثقاً من أن هذا الرجل لم يأت إلى دائرة الشرطة لغير هذه المهمة .

- كفى لقد فهمت وبعد ذلك ماذا أصنع ؟

تعود إلى منزلك .

- وأنت ؟

ـ أما أنا فلدي كثير من المهمات وسأبدأ منها باقتفاء أثر هذا الرجل .

ـ ان فكري يحدثني بأنه لا يرضى أن يبحث عن السارق .

ـ لماذا ؟

ـ لأني أدعى ميلون ولأنه أحد الرجلين الذين سرقا حوالة شوكنج علي ، فهو يؤثر الابتعاد عني .

ـ إنك مخطىء فاخرج الآن من المركبة واذهب إلى إدارة الشرطة فقد آن الأوان .

فامتثل ميلون دون أن يعترض ونادى مرميس السائق فدله على مركبة السير جمس وقال : اتستطيع مركبتك ان تدرك هذه المركبة حين انطلاقها ؟

ـ دون شك .

ـ إني أريد إقتفاء أثر راكبها وسأكافئك عن ذلك بعشرين فرنكاً .

ـ سأفعل ما تريد فلا يغيب عنك لمحة طرف .

أما السير جمس فانه دخل إلى المدير فأحسن استقباله وقال : اني دعوتك ايها الزميل لمشاركتي في البحث عن سرقة ارتكبها أحد مواطنيكم .

ـ إني أعلم بوجود عصابة من لصوص الانكليز في باريس فهل مقدار المال المسروق عظيم ؟

ـ مائة الف فرنك .

ـ كم تدفع لي إذا وجدت المال ؟

ـ ربعه ، أي خمسة وعشرين الف فرنك .

ـ ان القدر يسير لا يحمل على الاهتمام غير انك ساعدتني في مهمتي خير مساعدة ولا بد لي من مساعدتك أيضاً فأرني أوراق التحقيق .

وقبل أن يتم مطالعتها دخل ميلون فنظر الى السير جمس نظرة تدل على عدم المبالات بحيث اقتنع السير جمس ان ميلون لم يعلم بعد باختطاف الارلندية وغلامها وانه لم ينهمك إلا في البحث عن ماله المسروق .

واخبره مدير الشرطة انه هو صاحب المال المسروق فسأله أسئلة كثيرة واسترشده منه على كل علائم الرجل الانكليزي الذي زاره ثم قال : عد يا سيدي إلى منزلك ولا تهتم بهذه السرقة وسنرجع اليك أموالك بعد ثلاثة ايام .

ـ الا يجب أن أراك في خلال هذه المدة ؟

ـ كلا ، فاني عرفت عنوانك فمتى قبضت على السارق كتبت اليك في البريد .

وكان السير جمس بلهجة الواثق من فوزه ، فتظاهر ميلون بالسرور وقد فعل ما أمره به مرميس فانه لم يخرج من غرفة مدير الشرطة إلا مع السير جمس ولم يفترق عنه إلا في الفسحة العمومية وعاد الى منزله ، وركب السير جمس المركبة التي تنتظره وسارت به .

وعند ذلك أمر مرميس سائق مركبته ان يقتفي أثره وجدد له الوعود .

ولم يكن لمركبة السيرجمس نافذة من الوراء فلم ير مركبة مرميس ولم يخطر في باله انه يتبعونه .

ولبثت مركبة السير جمس تسير ومرميس في أثرها حتى وقفت عند باب فندق اللوفر فأطلق سراح السائق وصعد الى الفندق .

أما مرميس فانه أوقف مركبته بعيداً عن الفندق فخرج منها واطلق سراحها ، ثم أخرج من جيبه محفظة اوراق فألقاها على الأرض بحيث تلوثت في الوحل وابتلت بمياه المطر فحملها بيده وذهب الى الفندق وهو يقول : لنلعب الآن مع هذا الانكليزي لعبة المحفظة فانه لا يفطن لها مهما بلغ من الخبث والدهاء .

أن خدعة المحفظة مشهورة في باريس دون سواها وهي خدعة لم يستنبطها اللصوص ولم يألفوها ولكن الذي اخترعها جماعة النصابين .

وقد استنبطوها خاصة للجاسوسية ومكائد الغرام فانه يوجد منهم جماعة في كل شارع يقيمون فيه الأغنياء فيتجسسون النساء والرجال ويستفيدون مما يعلمونه من أسرار غرامهم .

مثال ذلك أنهم يجدون رجلاً يسكن في منزل فخيم وهو غني عجوز قبيح الوجه ثم يعلمون أن له امرأة جميلة صبية فيأخذون من ذلك الحين في مراقبة تلك المرأة .

وأن الواحد يكمن لتلك المرأة فيجد انها تخرج في صباح كل يوم من منزلها فيتبعها ويجد انها دخلت إلى الكنيسة وهي تحمل كتاب الصلاة فيدخل في أثرها فيجد انها خرجت من باب آخر فلا يتأثر لاحتجابها بل يسر لأنه يرى أن ظنونه قد تحققت فيها .

وفي اليوم الثاني يأتي إلى الكنيسة في الموعد نفسه فيكمن لها قرب الباب الذي خرجت منه بالأمس فيراها قد ركبت مركبة ودلت السائق على المنزل الذي تريد الذهاب اليه فيقفو أثرها ويعرف اسم العاشق الذي تزوره كل يوم .

فلا يمر بذلك عهد طويل حتى يرد إلى العاشق كتاب من ذلك الجاسوس ينذره فيه باخبار زوج عشيقته بسر غرامه إذا لم يدفع له مبلغاً يعينه ويكتب مثل هذا الكتاب للزوجة فاما أن يكون لديها المال المطلوب فتدفعه أو تبيع ما لديها من الحلي والجوهرات هرباً من الفضيحة أو تخبر الشرطة بأمرها فيقبض على هذا النصاب ويبقى سرها مكتوماً لشدة حرص الشرطة على الكتمان .

ومن ذلك ان أحد هؤلاء النصابين يتفق ان يكون في غابات بولونيا او في

الشانزليزه فيرى مركبة وقفت وفيها رجل وامرأة فيخرج الرجل منها ويذهب ماشياً على الأقدام وتعود المركبة بالمرأة إلى منزلها فيعلم هذا النصاب انهما كانا في موعد غرام ويقتفي أثر المركبة حتى يرى المنزل الذي وقفت عنده ويرى المرأة خرجت منها وصعدت إلى المنزل .

وعند ذلك يأخذ من جيبه محفظة جميلة من الجلد الرومي فيمرغها بالتراب ويذهب بها إلى بواب ذلك المنزل فيقول له : ان تلك السيدة التي دخلت الان سقطت منها محفظة وهي تدفع اجرة السائق ، فقل لي اسمها وفي أي دور تقيم كي أرجعها اليها .

فيقول له البواب انها فلانة وانها تقيم في الدور الأخير من المنزل الى جهة اليسار فيشكره النصاب ويصعد ولكنه لا يقف عند باب البيت بل يصعد إلى السطوح فيقيم هنيهة ثم يعود وقد عرف اسم المرأة ومنزلها .

ومن ذلك الحين يأخذ بمراقبتها حتى يعثروا بعاشقها فيرسلون اليها رسائل الانذار كما تقدم .

ولنعد الآن الى موضوعنا فان مرميس قد لجأ إلى هذه الخدعة ليعلم اسم هذا البوليس الانكليزي والاسم الذي يتنكر به في الفندق .

وكان قد لبس ثياب رثة فدنا من البواب واراه المحفظة ووصف له الرجل الانكليزي الذي دخل ، وسأله أن يرشده إلى غرفته كي يرد اليه المحفظة التي سقطت منه .

فقال له البواب: انه يدعى السير جمس وود ويقيم في الغرفة التي نمرتها ١٨ ثم أذن له بالصعود اشفاقاً عليه لما رآه من دلائل فقره .

كان هذا الفنــدق الذي دخل اليه السير جيمس من أعظم فنادق باريس واتقنها إدارة وتنظيماً بحيث لا يمكن ان يدخل اليه زائر دون أن يراه البواب ويدقق في أمره .

ولكن حين يدخل الزائر اليه ويصعد إحدى سلالمه الكثيرة تبطل المراقبة ولا يلتفت أحد اليه .

وفي هذا الفندق نحو الف غرفة وكثير من الأروقة فكان يزدحم فيه الانكليز والالمان والروس والأتراك ويمتزج فيه الخادم مع السائق والحمال مع الترجمان ومنظف الغرف مع خدام باعة الثياب .

فلما دخل مرميس اليه وأمن المراقبة قال في نفسه ان العجلة تورث الندامة والوقت فسيح لدي لفحص أحوال هذا الرجل .

وقد رد محفظته إلى جيبه لأنه لم يخطر له في بال ان يقابل السير وجهاً لوجه بحجة المحفظة بل اتخذها ذريعة للدخول إلى الفندق بملابسه الرثة .

ولكنه ذهب الى الرواق الذي كانت فيه غرفة الشرطي وجعل يسير ذهاباً وإياباً وهو لا ينفك عن زيارة باب تلك الغرفة .

وقد رأى ان مفتاحها لا يزال في قفله من الخارج فقال في نفسه : ان السير غير عازم على اطالة الاقامة في غرفته ولولا ذلك لكان أخرج المفتــاح من قفله وأقفل غرفته من الداخل وربما كان ينتظر زيارة زائر .

ولم يكن مرميس مخطئاً في ظنه فانه لم تمر به بضع دقائق حتى أقبل الشرطي ادوارد ففتح الغرفة ودخل الى السير جمس .

وكان الرواق مقفراً إذ لم تكن تلك الساعة ساعة عودة المقيمين في الفندق فما نظر مرميس أحداً فيه ودنا من باب تلك الغرفــة يحاول الاصغاء لما يجري بين الأثنين من الحديث .

وان العادة في مثل هذه الفنادق الكبرى ان يضعوا مقاعد من الخشب في كل رواق كي يستريح عليها المنتظرون وكان يوجد مقعد عند باب غرفة السير .

وأخرج مرميس أنبوبة طويلة من الكاوتشوك تبلغ ثخانتها قدر ثخانة الاصبع فوضع طرفها في ثقب قفل الباب برفق ووضع طرفها الآخر في أذنه وجلس على ذلك المقعد فلم تفته كلمة من الاثنين لانحصار الصوت بواسطة هذه الأنبوبة وبلوغه إلى أذنه كما يبلغ اليه بواسطة التليفون .

وقد سمع الاثنان يتكلمان باللغة الانكليزية فجرى بينهما الحديث كما يأتي : وقال ادوار : لعلك قادم من هناك ؟

— نعم وقد وصلت الآن ..

ماذا قال لك البوليس وما هي هذه المهمة ؟

— إنها سرقة مائة الف فرنك

— ومن هذا المثري ؟

فضحك السير جمس وقال انه لا يخطر لك في بال ، فهو ذلك المقاول الذي رأيناه البارحة ، أي وكيل الرجل العبوس .

— أهو ميلون ؟

— هو بعينه .

— ارأيته هناك ؟

— نعم رأيته في غرفة المدير .

— ولكنك رفضت قضاء هذه المهمة دون شك ؟

— بل قبلتها شاكراً ..

— ولكن ..

فقاطعه السير جمس قائلاً : اني أعلم ما تريد أن تقوله ، وهو اننا نقدم على أمر محفوف بالخطر ، إذ قد يتفق ان ميلون وشوكنج يبحثان عن الارلندية وابنها .

هو ذاك .

– ونريد أيضاً ان ميلون قد رآنا قرب منزل شوكنج سوية فاذا امتزجنا معه فقد يشك بنا

– نعم والذي أراه انه لا يجب أن نتداخل في الأمر .

بل نعمل يداً واحدة ولكننا نعمل مفترقين فلا يرانا أحد معاً والأجدر بك الآن أن تبرح هذا الفندق وتقيم في الغران أوتيل .

فلم يقنع إدوارد من كلامه وقال : إن الأجدر بنا أن نعود إلى لندرا بعد موت الارلندية والاستيلاء على الغلام .

إن ذلك محال ، فإن الأسقف بترس تون أمرني في رسالته البرقية أن أكتب له كتاباً مفصلاً وان انتظر أوامره الجديدة .

- أكتب هذا الكتاب ؟

- نعم وقد ارسلته في هذا الصباح .

- إذاً سيصل الليلة إلى لندرا فلنفرض ان الأسقف أرسل اليك رسالة برقية يأمرك فيها بالسفر فماذا تفعل ؟

– نسافر .

– والسرقة أتدعها ؟

- كلا فإني أرجو أن نظفر بالسارق في هذه الليلة .

– كيف ذلك ؟

ذلك لأني واثق بعض الوثوق ان السارق هو ذاك اللص الانكليزي الذي عهدنا اليه سرقة شوكنج .

– ما حملك على اتهامه ؟

– إنه حين سرق مال شوكنج وكتاب الرجل العبوس إلى ميلون دفعت له أجرته ووعدني أن يعود إلى لندرا ، ولكنه لم يسافر فقد رأيته البارحة في الشارع وعندي أن كتاب الرجل العبوس أطمعه بميلون وحاول أن يسرقه

ويشتغل لحسابه .

أتظن انك تجده ؟

- دون شك .

- وإذا كان هو السارق اتسلمه للحكومة الفرنسية ؟

- كلا بل اقتصر على استرجاع المال منه

وكان مرميس يسمع كل الحديث فلم تفته كلمة منه بفضل تلك الأنبوبة ، وقال في نفسه : إن ذلك يدعوني إلى تعديل خطتي ولكني قد وثقت ان الغلام في قبضتهم .

وعاد إلى الإصغاء إذ عاد الاثنان إلى الحديث بعد سكوت قليل فقال إدوارد : ومس الن ؟

فأجابه : إنها لا تزال في سجن سانت لازار

فارتعش مرميس وقال في نفسه : لقد عرفت الآن نصف ما كنت أريد أن أعرفه .

ثم قام عن المقعد فأخرج الأنبوبة من القفل وأعادها الى جيبه وجعل يسير ذهاباً وإياباً في الرواق .

وبعد هنيهة فتح باب الغرفة وخرج منها السير جمس وادوار ، وكان إدوار يحقيبة السفر فقال مرميس في نفسه لا شك انه ذاهب بها إلى الفران أوتيل .

ثم أسرع إلى الحقيبة فأخذها من يد الشرطي وقال : ألا تحتاج يا سيدي إلى حمال ؟

أما السير جمس فإنه على توقد ذكائه وطول خبرته بمهنته لم يداخله شيء من الريب بمرميس فأعطاه إدوار الحقيبة دون احتراس فأخـذها ومشى أمامهما على مسافة قريبة بحيث كان يسمع حديثهما .

وكان السير حاسر الرأس مما يدل على انه كان عازماً على البقاء في الفندق وإيصال رفيقه إلى آخر الرواق .

فقال له : متى أراك ؟

- في هذه الليلة .

- أين ؟

- تدخل إلى القهوة الانكليزية في الساعة السابعة حيث تجدني على المائدة فلا تكلمني شيئاً ، لكن أنظر إلى مائدتي فاذا رأيت أمامي صحن محار فأعلم اني وجدت المال المسروق وعند ذلك حدثني إذ لا يبقى لي شأن مع صاحب المال ، وأنا أرجو أن يردني نبأ هذه الليلة من الأسقف .

وهنا ودعه وعاد إلى غرفته ، وخرج إدوار من الغرفة يتقدمـــه مرميس بالحقيبة وقد سمع حديثهما الأخير ، فسار إلى القران أوتيل وأسرع مرميس إلى كاتب الفندق وقال : أعدوا غرفة في الحال لحضرة الميلورد .

فابتسم إدوار وقال : اني لست ميلورد يا بني .

فقال مرميس بسذاجة : ولكن سيدي من الانكليز ، أليس كل الانكليز لوردية ؟

فضحك ادوار لبساطته وقال : كلا فاني لست لورداً ولكن سير .

- إن هذه اللفظة لا يدور بها لساني .

وعند ذلك نادى الخادم أحد الخدم وقال له : أعد لحضرة اللورد الغرفة نمرة ٢١ في الدور الأول في سلم ج

ورفع مرميس قبعته ووقف ينتظر البخشيش فأعطاه ادوار فرنكاً وصعد الى غرفته ، أما مرميس فانه خرج من الفندق وهو يردد نمرة الغرفة كي لا ينساها وذهب الى منزله .

وكان مرميس يقيم في أجمل شارع في باريس فكان خدامه يندهلون حين يرونه يتنكر بالثياب الرثة ويختلفون في تأويل هذا التنكر فيقول بعضهم انه وافر الثروة وقد عاشر الانكليز فاكتسب غرابة اخلاقهم ، ويقول آخرون بل انه عاشق لفتاة من العمال ، فهو يلبس لبسهم كي يروق في عينيها الى غير ذلك من الأقوال .

وقد ابتسم مرميس حين عاد إلى منزله ورأى ما كان من دهشة خدمه فغير ملابسه ونادى خادم غرفته وقال له اذهب في مركبة في الحال الى شارع ماريبيال وائتني بميلون .

فامتثل الخادم وانصرف مسرعاً .

وبعد هنيهة دخل خادم آخر وأخبره ان فاندا تنتظره في قاعة الاستقبال فذهب اليها وقال لها : اني كنت على وشك الكتابة اليك

— إذاً لقد أحسنت بالمجيء ؟

— نعم ، لأني محتاج اليك .

ثم جلس بقربها وقال لها : اني أعلم الآن أين هي مس الن فانها في سجن سانت لازار واني معتمد عليك .

— بماذا اباخراجها الآن من السجن ؟

— لا أدري ، فان ذلك يتوقف عليك وعلى حكمك فيها.

— كيف ذلك ؟

— إنه يتضح حسب رواية الفتى البناء المنكود الذي سقط من نافذتها ان مس الن تحب الرئيس .

— نعم ...

– ولكن يتضح من رواية شو كنج ومن روايتك ان هذه الفتاه أعدى عدو لروكامبول ولذلك يجب أن تقابليها وتحدثيها فنضع خطتنا بعد حكك فيها .

. حسناً سأفعل .

– ولكني لم أبحث في طريقة تمكنك من الدخول الى السجن .

– أما أنا فاني وجدت الطريقة دون بحث فمتى يجب أن اذهب ؟

– في أقرب حين وحبذا لو أمكنك الذهاب اليوم .

– ان هذا محال لا أستطيعه قبل الغد .

– لماذا ؟

– لأن التي سأذهب الى السجن معها لا تصل الى باريس إلا في آخر قطار يصل هذه الليلة .

اني لم أفهم ما تقصدين .

– اني سأدخل اليه غداً او متى اردت بفضل راهبة كانت في ليون ولي على هذه الراهبة فضل عظيم وهي ستبيت عندي في هذه الليلة وفي صباح غد أذهب الى السجن بصفة راهبة معها .

– ولكن اتظنين انها توافق على هذه الخدمة ؟

– إني متى أخبرتك بحكايتها تعلم انها لا ترفض لي طلباً .

ثم ابتسمت وتابعت : اني اعرفها منذ عهد بعيد ، أي منذ ذلك العهد الذي ادخلني فيه الرئيس الى سجن سانت لازار لانقاذ انطوانيت ميلر .

– إذن حدثيني بأمرها اذ ان الوقت فسيحاً لدينا لأن ميلون لا يصل قبل نصف ساعة .

– اذن فاسمع اني منذ ستة أعوام ادخلني روكامبول الى سجن سانت لازار لانقاذ انطوانيت ميلو منه « راجع رواية سجن طولون » ولقينا فيه راهبة أثرت عليها انطوانيت بلطفها وأدبها وأثرت عليها بحنوي واخلاصي .

ولم تكن هذه الراهبة مشككة ببراءتي وبراءة أنطوانيت بل كانت واثقة ان دخولنا الى السجن انما كان بدسائس الأشرار فأحبتنا حباً عظيماً . وانت تعلم كيف خرجت انطوانيت من السجن .

– نعم فانها خرجت ميتة بالظاهر .

– ان الجميع كانوا يعتقدون بموتها حين أخرجناها ما عدا روكامبول الذي وضع هذه الخطة وعصابته التي اعانته على تنفيذها .

ثم مضى على ذلك عام تزوجت بعده أنطوانيت وسافر الرئيس لقضاء بعض المهمات الخطيرة وكدت انسى لازار ومن كان فيه الى ان كنت خارجة يوماً من الكنيسة ولقيت راهبة حيتني واستوقفتني .

وعلمت للحال أنها الراهبة التي كانت تتودد لنا في سجن سانت لازار .

أما الراهبة فانها قالت لي : لا اخالك يا سيدتي تأبين ان تخبريني حقيقة أمر مضى عليه عهد طويل .

ثم اخذت يدي بين يديها وقالت لي بلهجة المتوسل : الشائع يا سيدتي في السجن ان مدموازيل انطوانيت لم تمت .

- ولكنك انت رأيتها قد ارقدت في النعش .

– نعم ولكن الرواية مختلفة .

وقاطعتها وقلت لها بصوت منخفض : تعالي الى منزلي يوم تخرجين من

السجن اخبرك كل شيء .

وكان من عـــادة الراهبة أن تخرج مرة في كل اسبوع من السجن ، فلم يمض ذلك الأسبوع حتى جاءتني فأخبرتها بجميع ما فعلناه ، ولم اكتم عنها شيئاً مما مضى .

وجعلت تزورني في كل اسبوع حتى باتت خير صديقة لي وكنت اعطيها كل مرة مبلغاً من المال تفرقه على المسجونات .

الى ان قالت لي يوماً : ان ملجأ القديس حنة غير كاف لدفع النكبـات ولو كان لي مال لانشأت مثله ولكني انشأته في مكان يبعد جداً من باريس ، ولا يخطر للبائسات اللواتي يطرقن أبوابه ان يرجعن الى تلك العــاصمة الجهنمية .

وقلت لها . ان قصدك نبيل وسأجد لك المال المطلوب .

وفي ذلك اليوم استشرت روكامبول فاذن وسألته مالاً فأعطى وقد سألتك انت ايضاً الا تذكر يا مرميس ؟

ــ نعم واذكر اني اعطيتك مائة الف فرنك اعانة للملجأ .

ــ هو ذلك الملجأ الذي تولته الراهبة ماري ودعته باسم القديسة مريم .

ــ أين هو هذا الملجأ ؟

ــ هو بالقرب من مدينة ليون .

ــ اذاً فان الراهبة اعتزلت خدمة السجون وخرجت من هذه المصلحة .

ــ انها اعتزلت خدمة السجون ولا تزال باقية فيها وذلك ان هذا الملجـأ الذي انشأته خصوصياً ولكنه خاضع لخدمة السجون ومراقبة الحكومـة ، فاذا كانت سجينة واحسنت السلوك في سانت لازار ، ارسلوها الى ملجـأ القديسة مريم كي تتم فيه بقية المدة المحكوم عليه بها ، وقد يتفق ان تبقى فيه.

ولذلك فان الراهبة ماري تأتي من حين الى حين الى سجن سانت لازار او ترسل احد الراهبات من عندها فتتعهد السجينات وتنظر في شفائهن ومبلغ

تأثير السجن في نفوسهن، فاذا رأت بينهن سجينة صادقة التوبة جديرة بالرحمة توسطت في سبيل نقلها الى الملجأ ، وقد يتفق انها تخرج كل مرة اربعاً او خمساً من اللواتي كانت مهنتهن السرقة والفساد .

وقد كتبت لي البارحة انها قادمة هـذه الليلة الى باريس وسأذهب الى المحطة لاستقبالها .

– حسناً ، ولكن كيف رأيت انه يمكنك الدخول معها الى سجن سانت لازار .

– اني ادخل معها كرفيقة لها .

– ولكنك لست من الراهبات .

– كلا .

– أتظنين ان الراهبة ماري شديدة الاخلاص بك والثقة بحسن قصدك فتسمح لك بالتنكر بملابس الراهبات ؟

– اني قد وضعت خطة أضمن نجاحها فاكتف بالوثوق من دخولي غداً الى سانت لازار والق علي تعليماتك .

. ان تعليماتي منحصرة بكلمتين وهما معرفة الحقيقة .

- تريد أن تعلم اذا كانت مس الن من اعداء روكامبول او من اصدقائه .

– هو ذاك .

– وبعد ذلك ؟

– اذا ثبت لك انها من اعدائه تركناها في سانت لازار فان هذا السجن ضامن اتقاء شرها ، واذا كانت من الأصدقاء انقذناها .

– لا اظن ان انقاذها من مثل هذا السجن سهل ميسور فاني لا ازال اذكر ما لقيناه من العناء في انقاذ انطوانيت .

وضحك مرميس وقال : اني أعرف كل هذه المتاعب ولكنها تخرج دون ادنى مشقة .

ـ من يخرجها من السجن ؟
ـ الذي ادخلها اليه .
ـ كيف ذلك ؟

ـ اصغي الي ايتها العزيزة فان الذي ادخلها الى هذا السجن بوليس انكليزي جاء من لندرا الى باريس وقد عرفت اسمه اليوم فانه يدعى السير جمس وود

وقد كان سجنها في البدء في مستشفى صحي غير انها حاولت الفرار فنقلها الى سجن سانت لازار كي يكون مطمئناً عليها اذ لديه كثير من الشواغل في باريس .

ـ اذاً ان الأمر لا يدعو الى السرعة .

ـ بل انه يدعو إلى أتم الاسراع فإن السير وود قد يسافر الليلة او غداً فلا بد لي من معرفة حقيقة ما نجهله عن مس الن .

ثم قص عليها ما فعله وقال ان كل ما صنعته معقول وقد يسفر عن النجاح الأكيد غير ان الاتفاق قد يفسد كل ما دبرته اذا لم اسرع بالعمل فان السير وود قد يرد اليه في هذه الليلة أمر بالسفر فيأخذ مس الن والغلام ويسافر بهما.

ـ أانت واثق انه هو الذي اختطف الغلام ؟

ـ كل الثقة .
ـ أتعلم أين وضعه ؟
ـ كلا ولكني سأعلم .

وعند ذلك فتح باب الغرفة التي كانا فيهاودخل ميلون يتبعه شوكنج وعليه علائم اليأس .

فقال له مرميس : لا تيأس فسنجد الغلام وامه .

فأجابه شوكنج بصوت متقطع من الاشفاق : إن الغلام قد تجده ، وأما

تلك الأم المنكودة فإني أخشى أن يكونوا قتلوها.

فاضطرب الثلاثة وجعل كل منهم ينظر إلى الآخر .

- ٣٤ -

ولنعد الآن إلى السير جمس وود فان هذا الشرطي كان مصيباً في اتهامه الانكليزي الذي استخدمه لسرقة شوكنج .

وذلك ان الشرطي الانكليزي في لندرا يعرف كل اللصوص معرفة تامة ولا سيا اولئك اللصوص الذين يبرحون لندرا في وقت الضباب ويقدمون الى العواصم الكبرى التماساً للارتزاق فيها من مهنتهم الشائنة .

ومثل هذا الشرطي الحاذق لم يكن يعرف اولئك اللصوص فقط ، بل كان يعرف اختصاص كل لص بسرقاته ، فان بين اولئك اللصوص من يقتصر على سرقة البضائع من المخازن ، وبعضهم يختصون بسرقة الجيوب في مركبات الأومنيبوس، وبعضهم يذهبون الى الكنائس ويغتنمون فرص الزحام وآخرون إلى المراسح .

وكان السير وود يعرفهم كلهم في باريس ، وقد عرف أيضاً لصاً انكليزياً كانت مهنته صنع الأقفال .

وكان هذا اللص يدعى سميث ، وكان عاملاً في لندرا في معمل لصنع الصناديق الحديدية ولما وقف على أسرار المهنة وبرع فيها تخلى عنها واحترف اللصوصية .

وهو الذي استخدمه السير وود لسرقة شوكنج ، وكان قد اخبره انه عائد إلى لندرا ، غير أنه رآه منذ يومين فأيقن أنه سارق المال ، إذ لا يوجد سواه من يستطيع فتح صندوق ميلون المصنوع في المصانع الانكليزية

دون أن يكسر قفله

وكان السير وود حاذقاً لبيباً كما قدمنا غير انه لم يكن من السحرة ، ولا يستطيع غير الساحر ان يعلم ان ميلون قد سرق نفسه ، اي انه ادعى السرقة بغية نصب مكيدة للسير وود .

ومما نذكره عن علاقة السير جمس وود بهذا اللص الانكليزي انه حين رآه المرة الأولى في باريس قال له : اني لست في خدمة الشرطة الفرنسية فلا خوف عليك مني ، بل اني سأستخدمك وادفع لك .

وقد استخدمه في سرقة شوكنج ودفع له أجرة جيدة فكان الرضى متبادلاً بين الفريقين وباتا يشبهان الحليفين .

وكان بوسع السير وود ان يرشد اليه الشرطة الفرنسية ويعود إلى لندرا لما صدر اليه الأمر بالعودة غير انه لم يكن يريد إساءته بل أراد الاقتصار على استرجاع المال المسروق طمعاً بريعه اي حصته منه .

فأرسل رسالة إلى سميث يدعوه فيها وبعد ساعتين حضر اليه ، فاستقبله السير وود بالبشاشة وقال له : كنت أخشى أن لا أجدك ، وان تكون قد سافرت .

– لقد رجعت عن السفر فقد لقيت في باريس اشغالاً موافقة .

– ماذا عملت وما هي هذه الأشغال .

فأجابه اللص : اني اتفقت مع شريكين والأعمال رائجة كما يظهر فقد ربحنا صفقة رابحة .

- أيدخل فيها المائة الف فرنك التي سرقتها من المقاول ؟

فظهرت علائم الدهشة على سميث ، وكانت صادقة ظاهرة حقيقتها حتى وثق السير وود انه مخطىء باتهامه .

غير أنه لم يكتف بهذه الظواهر ، وجعل يسأله أسئلة مختلفة فلا يزيد إلا انكاراً .

فلما أيقن من براءته أخبره بكل ما جرى من امر هذه السرقة على ما علمه من مدير الشرطة ومن ميلون نفسه .

فقال له اللص : اني لا أستطيع ان أبدي رأياً قبل أن أرى الصندوق ، لكني أعتقد أنهم يهزأون بك .

– من يهزأبي ؟

– لا أستطيع أن أعلم إذا كان الصندوق قد وجد مفتوحاً كما قلت فلا يستطيع فتحه على هذه الصورة غير اثنين أحدهما أنا ، ولكني قلت لك اني لست السارق .

– والآخر؟

– هو انكليزي يدعى جوهان ولكني واثق انه ليس في باريس .

– ولكن الصندوق قد فتح

– لا أنكر ذلك ولكنه لم يفتح كما قلت وفي كل حال لا أبدي حكمي فيه قبل أن أراه .

– ان هذا سهل .

ثم أخذ ورقة وكتب فيها ما يأتي ·

« سيدي

« اني آخذ باقتفاء أثر الذي سرق أموالك وسأظفر به غير اني لا بد لي من أن أرى صندوقك ، ولذلك سأحضر إلى منزلك في الساعة الحادية عشرة من هذا المساء مع زميل لي ويجب أن تكون وحدك في البيت كي لا يرانا أحد عند دخولنا لأسباب سأخبرك بها عند اللقاء »

« سير جمس وود »

ثم طوى الرسالة وأرسلها مع أحد خدام الفندق إلى ميلون وقال لسميث: إذهب الآن وانتظرني في الساعة السادسة في الشانزليزه عند عطفة شارع مارينيان .

فامتثل اللص وذهب بعد ان واعده على اللقاء

فلما خلا السير جمس بغرفته ذكر ما قاله له اللص وهو « انهم يهزؤون بك » ، فقال في نفسه : من عسى يهزأ بي أشوكنج الأبله أم هو ميلون ؟ ان هذا لا يعقل ، وفوق هذا فان السرقة حدثت حين كنت منهمكاً باختطاف الارلندية وابنها .

غير ان هذا الشرطي على بسالته وحذقه خامر قلبه الخوف فخطر له أن يأخذ رالف ومس الن ويعود بهما إلى لندرا دون ان يكترث بهذه السرقة .

وفيما هو يتردد في هذا الخاطر وقد أوشك ان يعول عليه دخل اليه خادم الفندق يحمل رسالة برقية من لندرا ففضها وتلا فيها ما يأتي :

« إبق في باريس ثمانية أيام ، إننا سنمحا كم الرجل العبوس والحكم عليه مضمون ، التفاصيل بالبوسطة » .

« باترس تورن »

فتمعن السير وود ملياً بهذه الرسالة ثم قال في قال في نفسه بعد التفكير : انه لا بد لي أن أصدع بالأمر وأبقى هنا ثمانية أيام فلا بد بالتالي من عمل الهو به لاسيا وقد وعدت مدير الشرطة بالقبض على السارق ، وعندي ان ميلون لو لم يكن ماله قد سرق لما شكا أمره إلى الشرطة ، ولا أخال سميث إلا مخطئاً فان السارق لا بد ان يكون في باريس .

وعندها وضع الرسالة في جيبه وخرج من الفندق متجولاً إلى المساء ؛ ثم عاد اليه وجد فيه رسالة من ميلون يخبره بها انه سينتظره في الموعد المعين ، فعول على أن يذهب اليه مع سميث

ولنذكر الآن ما جرى للشرطي ادوار فإنه غادر فندق اللوفر إلى غران أوتيل ، وكان مرميس يحمل أمتعته كما قدمناه فبعد ذلك بساعتين تأهب ادوار للنزول الى قاعة الطعام

وفيما هو يفتح باب غرفته للخروج لقي خادماً حياه بملء الاحترام وقال : اني آت اليك من قبل سيدي .

– ماذا يدعى سيدك ؟

- المسيو بايتافن .

- اني لا أعرفه .

– إن سيدي يعلم انك لا تعرفه ولكنه أمرني أن أخبرك بأنه يقيم في شارع وبر على خطوتين من هذا الفندق وانه واسع الثروة يبلغ إيراده في العام مائة الف جنيه وأنه يسره أن يحدثك هنيهة

ثم دفع اليه رقعة زيارة كتب عليها اسم بايتافن وهو الاسم الذي كان يدعو به نفسه مرميس .

فظهرت على ادوار علائم التردد فقال له الخادم : إن مما قاله لي سيدي ان السير إدوار يعلم ان لنا صديقاً مخلصاً في انكلترا واني أدعوه إلى مناولة طعام الغذاء معي لسؤاله عن هذا الصديق .

وكان إدوار يعلم ان شارع اوبر لا يقيم فيه غير النبلاء والأغنياء وانه قريب جداً غران اوتيل فعلم ن هذه الدعوة سرية ولكنه لم يجد فيها ما يدعو الى الخوف لاسيما والخادم ترك له رقعة سيده فقال للخادم : إذهب أمامي فاني سائر معك

فمشى الخادم أمامه وسار ادوار في اثره الى المنزل الذي يقيم فيه مرميس وهو بيت فخم حسن الرواء جميل الظاهر متسع الفتحات يصعد اليه بسلالم

من المرمر .

فصعد ادوار تلك السلالم وهو يقول في نفسه : ما عساه يريد مني هـذا الرجل وأنا لا أعرفه ؟

وكان مرميس يقيم في الدور الأول من المنزل فطرق ادوار الباب ففتح له خادم وأدخله الى غرفة الاستقبال وهي مفروشة بابدع الرياش .

فمر قبل دخوله الى تلك القاعة بفسحة واسعة وضعت فيها طاولة الطعام وعليها الأطعمة الأولية ، فأيقن ادوار ان الخادم لم يخدعه وان الرجل ينتظره للطعام .

وبعد هنيهة فتح أحد أبواب القاعة ودخل مرميس فلم يكد ادوار ينظر اليه حتى ظهرت عليه علائم الدهشة ، وابتسم فقـال له : العلك عرفتني يا سيدي ؟

فأجابه ادوار بصوت يتلجلج · ربما .. ولكن كيف اعلل هذا الاتفاق ؟

ـ انني ذلك الحمال الذي نقل أمتعتك اليوم من فندق اللوفر ولا يشغـل هذا التنكر بالك يا سيدي ، فان لندرا اذا كانت مقر أهـــل الشذوذ والأخلاق الغريبة فان باريس لا تخلو منهم أيضاً .

والحكاية انه خطر لي اليوم ان ارأهن على امر فكسبت الرهان بواسطتك وانت لا تعلم ، وسأقص عليك تفضيل هذا الرهان امام الرجل الذي راهنته وهو صديق لك .

ـ أهو صديق لي ؟

ـ نعم انه من الانكليز .

وعندها فتح الباب وقال الخادم : هذا اللورد ويلموت .

فذعر ادوار وتذكر شوكنج ، لاسيما حين رآه قـد دخل وهو لابس الثياب الرسمية السوداء ، وأزرار قميصه من المـاس الوهاج ، وأيقن ان في الأمر خدعة .

فقام عند ذلك مرميس الى المستوقد ، فأخذ منه مسدساً لم يكن ادوارد قد رآه فصوبه اليه وقال له : إن هـــذا المسدس يا سيدي من المخترعات الاميركية الحديثة فهو يطلق بقوة ضغط الهواء لا بقوة البارود فلا يسمع له دوي ولا حس .

أريد بذلك انه اذا بدر منـك أقل مقاومة أطلقت عليك هـذا المسدس فقتلتك دون ان يسمع أحد شيئاً حتى خدم المنزل ويبقى البواب مشتغلاً في تلاوة جريدته دون ان ينتبه إلى شيء .

فاضطرب ادوارد ولكنه تجلد وقال إذا كنت تمازحني يا سيدي ، فهـو مزاح مؤلم .

– كلا لا أمازحك ألا تعرف اللورد ويلموت ؟

– نعم عرفته .

-- إذن فاعلم انه هو الذي رجاني ان أجمع بينكما على مائدتي .

– إذا كان هذا ما تقول فما شأن هذا المســدس العله من مقدمات الطعام المهيجة للقابلية ؟

– كلا ولكني أعددته لاستخدامه إذا رفضت دعوتي .

- لم يخطر في بالي ان أرفض هذه الدعوة .

– إذن هلم بنا إلى المائدة .

ثم أشار إشارة إلى شوكنج فهمها فتأبط ذراع الشرطي وقال له: هلم بنا إلى المائدة يا مواطني العزيز .

وكان شوكنج قوي البنية شديد العضـــل ، وكان مرميس يسير وراءهما بمسدسه ، وفوق ذلك فان خادماً قوياً كان واقفاً بالباب ، فأيقن ادوارد أن المقاومة لا تفيد وانه قد سقط في الفخ الذي نصب له كما يسقط الأرنب ، فسار الى المائدة مستسلماً للقضاء وقعد بجانب شوكنج .

أما مرميس فانه قعد بإزائه ووضع المسدس قبالته ثم أشار الى الخادم الواقف

بالباب ان يذهب فامتثل وأقفل الباب .

وعند ذلك نظر الى ادوارد وقال له : لنتحدث الآن فلا يسمع حديثنا أحد وسأذكر لك ما أريده بغاية الايجـاز فأنت أتيت إلى باريس مع السير جمس وود .

فلم يجبه ادوارد وجعل ينظر اليه نظر المبهوت .

فقـال له مرميس : وإنكما أتيتما بمهمتين ، إحداهمـا إرجاع مس الن الى انكلترا .

— إنها المهمة الوحيد ولا سواها لنا .

فهز مرميس كتفيه وقال : وأمـا مهمتكما الثانية فهي اختطاف الغـلام الارلندي الذي كان يتولى شوكنج مراقبته .

ولذلك أرجوك أن تعلم يا سيدي العزيز أن من كان مثلنا يضبطون الناس في شارع مثل هذا الشارع ، وفي قصر يسكنـه كثير من الناس يقـدمون في أعمالهم إلى النهاية .

وأنا أخيرك الآن بين مائة الف فرنك تقبضها فتعيش سعيداً وبين رصاصة تقع في صدرك لتذهب بك إلى العالم الأخير .

ثم جعل يلاعب المسدس بيده من غير اكتراث ، وهو ينتظر جواب البوليس .

- ٣٦ -

ورأى مرميس ان هذا المبلغ من المال قد أثر تأثيراً حسنـاً بادوارد ، فلم يقتصر على الوعد بل أخرج من جيبه دفتر حوالات على بنك انكلترا ووضعه أمام ادوارد .

فقال ادوارد في نفسه. إني قد أخطأت بتسرعي في قبول دعوة هذا الرجل ولكني قد أصبحت في قبضته الآن وهو قادر ان يصنع بي ما يشاء ولا يبعد ان يقتلني ولا يعلم بقتلي أحد .

أما مرميس فانه قال له : لقد حسبت ما سيدفعونه لك ، مقابل خدمتك في المهمتين ، فرأيت انه لا يتجاوز نصف هذا المبلغ . ومع ذلك فإني أزيدك أيضاً خمسين الف فرنك ، فاني واسع الثروة ولا يؤثر بها مثل هذا المبلغ

فبرقت عينا ادوارد من الفرح ، ورأى مرميس بريقها ، فقال له بلطف : أرى انك رجل حكيم مجرب والاتفاق معك ممكن ميسور . فاعلم الآن اني أعرف أين سجنتم مس الن ولست بحاجة اليكم لإنقاذها ، ولكني لا أعلم أين سجنتم الغلام .

— ولا أنا أيضاً .

فقطب مرميس حاجبيه وقال له: إحذر فانك ستخيب الرجاء فيك وتفقد الأمل بالاتفاق .

— إني أقسم لك .

فقاطعه وقال له : لا تقسم بل قل الحقيقة فإذا بحت بها أعطيتك حوالة على بنك انكلترا بمائة وخمسين الف فرنك .

— إني لا أكتمك يا سيدي شيئاً مما أعلمه ، ولكن لا حيلة لي بايضاح ما لا أعلمه ، ولو أنذرتني بالموت . فان السير جمس اختطف الغلام وأمه حين كنت أنا منهمكاً بإبعاد اللورد ويلموت عن المنزل بما سقيته من الخمر .

— ولكنك رأيت السير في المساء ؟

— نعم ..

— ألم يقل لك ما فعله بها ؟

– نعم فقد أخبرني انه وضعها في محل أمين .

– أين ؟

– في شارع بعيد عند رجل فحام يدعى شابروت .

– ألا تعلم اسم الشارع ؟

– كلا .

فقال له مرميس بسكينة : أنظر يا سيدي الى هذه الساعة فاني أمهلك ٥ دقائق ، إذا لم أعرف في خلالها أين هو الغلام ، أطلقت عليك رصاص المسدس .

فاصفر وجه ادوارد وجعل العرق ينصب من جبينه وقال : إني لست مساوياً للسير في المنصب فثق يا سيدي اني لا أعلم غير بعض أسراره ولكني لا أعلمها كلها وأنا أقسم لك اني لا أعلم أين وضع الغلام .

فجعل مرميس يلعب بمسدسه ، وقال له : لم يبق لديك غير ثلاث دقائق .

– إني قلت الحقيقة فاصنع بي بعد ذلك ما أنت صانع . ولكني أطلعك على سر من أسرار السير ، إذا علمته فعلت به ما تشاء ، وإنما أقوله لأبرهن عن صدقي .

فبدأ مرميس يثق بصدق ادوارد وقال له : قل ما هو السر فإني أمهلك أيضاً بضع دقائق .

– هذا السر هو ان السير لم يختطف الغلام وأمه بالشدة او بالوعيد ، بل انه دعاهما إلى اتباعه فتبعاه .

فقال شوكنج : إن هذا محال فان الارلندية كانت تعلم ان الأعداء محيطون بنا من كل جانب فكانت تحذر كل الناس .

– هو ما تقول ، ولكنها لا تحذر من أخ ، فان السير جمس كان ارلندياً مثلها .

– ماذا تعني ؟

– أعني ان السير كان من رؤساء الجمعيات الارلندية السرية في بدء عهده فخانها وباع نفسه لانكلترا وقد وثقت به حنة للاشارات الارلندية السرية التي أبداها لها .

فقال له مرميس : أهذا هو كل سرك ؟

– نعم ..

فتممن هنيهة وقال : إنك قد تكون كاذباً في كل ما قلته لي فلا تطمع أن يكون لك بعد هذا الايضاح ودادية مع السير .

– إني لم يكن لي معه مثل هذه العلائق في حين من الأحيان ، وغاية مـا بيني وبينه اننا نشتغل في مهنة واحدة . غير أنه داخل في سلك الشرطـة السياسية وأنا أشتغل في خدمة الشرطة العمومية على أني أؤثر مصلحتي الخاصة على كل شأن وقد جريت معك الآن شوطاً بعيداً في الاقرار فلم يعد يسعني إلا خدمتكم ، وقـد قلت لك اني لا أعرف أين هو الغـلام ولكني سأعرف كل شيء بالتفصيل .

فابتسم مرميس وقال : ليس لدي ما يدعوني الى الريب بصدقك غير اني تعودت أن أعمل أعمالي بنفسي ، ولا بد ان يكون ثبت لك ذلك بالبرهان فقد رأيتني اليوم قد اقتفيت أثرك وأنا بثياب الحمالين ، ولذلك أرجوك أن تأذن باتخاذ بعض الاحتيـاطات ، الى أن أتأكد من صحـة ما رويته لي .

– ان ذلك سهل عليك ميسور لك .

– نعم ولكن يشترط في ذلك ان تبقى هنا .

– سأبقى بملء الرضى .

– إذاً ان الاتفاق تام وسأدفع لك المال على الفور .

ثم وضع المسدس في جيبه ، وأخذ دفتر الحوالات وكتب له حوالة على

بنك انكلترا بمائة وخمسين الف فرنك وأعطاه إياها .

وأخذها ادوارد ووضعها في جيبه ، وقد أفعم قلبه سروراً بهذه الثروة الجديدة .

فقال له مرميس : قم الآن واتبعني .

فامتثل ادواد ، وتقدمه تلميذ روكامبول . فاجتاز قاعة الطعام الى غرفة ثانية ومنها إلى غرفة ثالثة لم يكن فيها نوافذ وإنما النور كان ينفذ اليها من السقف .

فأدخله مرميس اليها وقال له : إنك ستقيم في هذه الغرفة بحراسة اللورد ويلموت ورجل آخر ، إلى ان أعثر بالغلام وأنقذ مس الن . ورجائي أن تعذرني لاتخاذي هذه الاحتياطات ، فان الحكمة تدعوني اليها ، على فرط ثقتي باخلاصك .

فقال له ادوارد بسكينة . إفعل بي ما تشاء ، فاني أسيرك وقد بعتك نفسي .

فنادى مرميس ذلك الخادم الذي كان قد أرسله الى ادوارد ، وهو رجل شديد ، فقال له مشيراً الى ادوارد : إنك تراقبه أشد المراقبة حتى أعود ، فاذا رأيته يحاول الفرار فقيد يديه ورجليه ، وإذا استغاث ضع في فمه كامة .

فانحنى الخادم إشارة الى الامتثال وقال له ادوارد وهو يبتسم: إني ما قلت لك غير الحقيقة وسيثبت لك صدقي بالبرهان .

— وأنا ذاهب للبحث عن هذا البرهان .

ثم تركه وانصرف بعد ان عهد بحراسته الى الخادم وشوكنج .

- ٣٧ -

يذكر القراء ان السير جمس كان قد واعد سميث اللص على اللقاء في شارع مارينيان .

فلما حانت ساعة اللقاء كان سميث قد حضر ماشياً ، وجعل يتنزه في ذلك الشارع . ثم أقبل السير جمس في مركبته ، فوقفت في المكان المعين للاجتماع .

وقد رآه سميث فجاء اليه وقال : الملك مستعجل يا سيدي ؟

– لماذا تسألني هذا السؤال ؟

– لأني كنت اود ان أحدثك هنيهة .

– إصعد الى المركبة نتحدث فيها ، فان السائق لا يسير بها قبل أن آمره .

فجلس سميث بجانبه وقال له: إن هذا الصندوق المسروق لا يستطيع فتحه كما فتح إلا جوهان وانا ولكن جوهان في لندرا .

– لقد قلت لي هذا القول اليوم .

– ولكن الآن جئتك بالبرهان الأكيد فقد قرأت في جريدة التيمس أن الشرطة قبض في لندرا على جوهان وهو الآن في سجن نوايت .

– أهذا كل ما تريد ان تقوله ؟

– نعم ولو كنت في مكانك لتخليت عن هذا العمل فانهم يعبثون بك كما أرى .

فهز السير كتفه وقال : ماذا علي ومما أخاف ، فإني مندوب الشرطة الانكليزية وفي جيبي كتاب من السفير ، ثم اني جريت في هذه المهمة شوطاً بعيداً فلا يسعني الرجوع .

– إذاً إفعل ما تشاء .

فأمر عند ذلك السائق ان يذهب الى منزل ميلون .

وسارت المركبة حتى بلغت اليه ووقفت عند بابه ، فخرج الاثنان وطرقا الباب ففتح وظهر لهما ميلون يحمل بيده مصباحاً وقد تكلف هيئة البساطة التامة .

فنظر السير حين رآه الى سميث نظرة معنوية تفيد ان هذا الرجل البسيط لا يهتم بغير ماله المسروق .

أما ميلون فإنه حيا الشرطي وقال له : إني أنتظرك يا سيدي بفارغ الصبر فان أحد وكلائي أخبرني منذ ساعة إنه رأى الرجل الذي سرقني سائراً في مركبته .

فأشار السير جمس الى سميث ، وقال له : ألا تظن أن هذا هو السارق ؟

فابتسم ميلون وقال : إن الفرق بعيد جداً .

– العلك وحدك ؟

– دون شك ألم تطلب إلي ان أكون وحدي وقد كنت أنتظر قدوم عائلة فقيرة مؤلفة من أب وأم وغلام ولكنهم لم يحضروا .

– لماذا ؟

– لعلهم تأخروا لبعض الأسباب فأجلوا قدومهم الى الغد .

فظهرت على السير علائم الرضى وقال في نفسه . إنه لا يعلم شيئاً من اختطاف رالف .

ثم قال لميلون : لا يذهلك يا سيدي اني سألتك ان تكون وحدك فاننا نحن أفراد الشرطة الانكليزية نحب ان تكون أعمالنا سرية وقد أسفرت طريقتنا عن نجاح مضمون

– إن على كل رجل يا سيدي ان يتقن مهنته فأنا أجيد صناعة البناء وأنت تحسن القبض على اللصوص .

— ولقد أحضرت لك أحد زملائي فهو إذا رأى الصندوق يعرف على الفور كيف فتح .

— إذاً اتبعاني .

ثم صعد قبلهما فتبعاه وقال السير لرفيقه بالانكليزية : أرأيت كيف أنك مخطىء بعدما رأيت ظواهر هذا الرجل ؟

أما ميلون فانه لم يلتفت اليهما وتظاهر أنه لم يسمع حديثهما ودخل بهما إلى الغرفة التي كان فيها الصندوق فقال لهما : إني تركت الصندوق على ما وجدته كي يسهل على البوليس مراقبته .

فقال له سميث : حسناً فعلت .

ثم أخذ منه المفتاح وجعل يفتح الصندوق به ويقفله مراراً وهو يظهر استغرابه الى ان قال له العلك بحث بسر فتحه لأحد ؟

— لا .

— إن ذلك محال إذ لا يستطيع ان يفتحه دون كسره غير العارفين بسره فهل تذكر أن أحداً نومك تنويماً مغنطيسياً ؟

— كلا

— هل وضعت المفتاح في مكان تصل اليه الأيدي ؟

— إنه لا يفارق عنقي .

فالتفت سميث إلى السير وقال له بالانكليزية : إني أعيد عليك ما قلته فان الرجل يهزأ بنا .

ولم يكد يتم كلامه حتى سمع حركة من ورائه فالتفت الاثنان فوجدا أن الباب قد فتح وان رجلاً دخل منه .

وقد عرف السير لأول وهلة أن هذا الرجل كان الحمال الذي رآه في الفندق يحمل أمتعة ادوارد ، غير انه أبدل ملابسه الرثة بثياب الأعيان فاصفر وجهه وأيقن ان سميث كان صادقاً في حذره ، وان الفح قد نصب

له وسقط فيه

أما مرميس فانه نظر إلى السير جمس وقال له وهو يبتسم : إن للبوليس الانكليزي صيتاً حسناً يا سيدي ، ولكني أخشى أن يفقد اليوم هذا الصيت .

ثم دخل إلى الغرفة فدخل بأثره ثلاثة رجال وهم : مورت وجواني الجلاد وشوكنج .

فابتسم شوكنج كما ابتسم مرميس وقال للسير : سوف نرى ما يكون بيننا يا سارق الأطفال .

- ٣٨ -

إن السير جمس كان من أهل الجرأة والذكاء وقد علم لأول وهلة أن هذا الصندوق إنما كان مكيدة نصبت بمهارة واعتناء .

وقد علم ايضاً ان ميلون وهذا الفتى الحمال وشوكنج وكل من كان في الغرفة هم من أعوان الرجل المحبوس ، وقد تمكن من قلب سجنه أن يوقفهم على الحالة ، ولكن ذلك لم يتيسر إلا بواسطة مس الن ، فكيف تيسر لهم الاجتماع بها ؟

هذا الذي أشكل فهمه على السير ، ولكنه لم يحاول التفكير بهذا السر ولا وقت له للتفكير بغير ما جاء اليه فإنه كان يرى ان الصاعقة تنقض على رأسه وانه يجب الاهتمام باتقائها

غير انه تجلد ولم يظهر عليه شيء من علائم الرعب بل انه كان يبتسم إلى تلك العصابة باحثاً عن رئيسها

على ان مرميس لم يدع له وقتاً للتمعن ، فانه دنا منه وقال : إنك شديد

الذكاء يا سيدي ، فلا بد ان تكون علمت بما صرت اليه ، وانك أصبحت في قبضتنا .

فظهر الرعب على وجه سميث ونظر اليه السير نظرة تفيد اننا سننجو من هذا الشرك فلا تخف .

وعاد مرميس الى مخاطبته فقال : إننا هنا في شارع مقفر ، وهذا المنزل الذي نحن فيه تكتنفه حديقة متسعة ، أريد انك إذا استغثت لا يسمعك أحد ليقدم لنجدتك .

فلبث السير محافظاً على السكينة وقال : من يعلم ؟

– أنا أعلم والآن فانك عرفت دون شك ماذا نريد منك .

– كيف يمكن ان أعرف .

– إذاً سأساعدك على المعرفة .

– كما تريد .

– ألم تكن حارساً لتلك الفتاة التي تدعى مس الن بالمير ؟

– هو ما تقول .

ولكنها قد اختطفت فماذا صنعت بها ؟

– إن هذا من اسراري ولا دخل لأحد فيه .

– ولكن الصدفة قد أعانتني فعرفت اين وضعتها .

– إذا كنت تعرف مكانها فلماذا تسألني ؟

– إسمع أقص عليك تاريخ اختطافها فانك وضعتها في البدء في مستشفى المجانين وأقمت تنتظر التعليمات من لندرا فلما وردت اليك سعيت بواسطة السفارة فأدخلتها إلى سجن سانت لازار .

– إن كل ما تقوله أكيد

– إني واثق من صدق قولي ولكن الذي أريده انك اذا كتبت بخطك بضع كلمات يطلقون سراح مس الن .

ولكن هذه الكلمات لا أكتبها .
أحق ما تقول ؟

— كل الحق فإنك لم تحملني على القدوم الى هذا المنزل الا وانت عـازم على إبقائي فيه حتى انك قد تقتلني أيضاً ولكنهم ينتقمون لي .

فابتسم مرميس وقال : من ينتقم لك ؟

فأشار السير الى ميلون وقال له : اني حين رأيت هذا الرجـل عند مدير الشرطة يشكو سرقة أمواله وكنت أعلم انه الرجل الذي تبحث عنه مس الن لم أصدق كلمة من شكواه .

واني اتيت الى فرنسـا مندوبـاً من حكومتي ، فوجبت على الحكومـة الفرنسية حمايتي .

ولذلك أبلغت الخبر رئيس الشرطة قبيل قدومي الى هذا المنزل فأرسـل ستة من رجال الشرطة وهم ينتظرون في عطفة الشارع فاذا لم أعد اليهم بعد ربع ساعة جاءوا لنجدتي فأسرع بقتلي قبل ان يحضروا .

فظهرت علائم القلق على ميلون أما مرميس فإنه ضحك ضحكاً عالياً وقال: الحق انك من أهل الصبر والذكاء يا سير جيمس فانك قدرت على اختراع هذه الحكاية في موقفك الحرج .

- أتظن اني اخترع ؟

— بل أؤكد وهوذا البرهـان . انك خرجت في صباح اليوم برفقـة ميلون من دائرة البوليس فلم تخبر المدير بحذرك بل لم يخطر لك الحذر عند ذلك في بال .

- ولكني رأيت المدير في النهار .

- كلا ، فإني أرسلت من يقتفي أثرك ، وإذا شئـت أخبرتك كيف أمضيت كل يومك بالتفصيل ، غير ان الوقت أضيق من ان أضيعه في مثل هذه الأحاديث فاعلم الآن اني وجدت طريقـــة لإخراج المس الن من سجن

سانت لازار .

فلندع مس الن ولنبحث عن الارلندية وابنها فاننا لانعلم ما صنعت بهاونريد أن نعلم يا سير جمس .

فهز كتفيه وقال انكم لن تعلموا .

- بل نعلم وفوق ذلك فإننا نعلم من امر ما تحسب انه خاف علينا أي أننا نعلم بأنك كنت من أعضاء الجمعية الارلندية السرية ، ثم بعت نفسك لانكلترا .

فخان السير جلده هذه المرة واصفر وجهه فقال له مرميس : وانت تعلم يا سيدي ذلك العقاب الهائل الذي يعاقب به الارلنديون من يخونهم فان من ضمن شرائعهم السرية هذا البند :

« إن العضو الذي يخون الجمعية يقبض عليه ويحاكم ، فيحكم عليه بالموت . ويبدأون في إعدامه بقطع لسانه ثم يقطعون يديه ورجليه ويفقأون عينيه ثم يقتلونه جوعاً إذا لم يجهز هذا التقطيع عليه » .

هذا هو ملخص بند الخيانة يا سيدي واني أستطيع إرسالك الى اللذين خنتهم ضمن صندوق .

فلتشحن كما تشحن الطرود وتنال هناك ما تعلمه من العقاب إلا إذا أرجعت الارلندية وابنها

– إني أرفض كل الرفض فاصنع بي ما تشاء .

– ولكنك لا تزال مخطئاً أيضاً وقد ترجع عن غرورك متى علمت اننا نعرف اسم شاباروت

فارتعش السير جمس واضطرب اضطراباً لم يخف على مرميس .

وكان رجال العصابة يسمعون الحديث .

فلما ذكر اسم شاباروت تقدم جواني الجلاد وقال اني أعرف رجلاً فحاماً يدعى بهذا الاسم .

أما السير فانه عاد الى سكينته . فلما رأى مرميس اصراره على العناد قال لرفاقه إننا ستتحدث هناك

ثم قال للسير : هلم بنا الى سجنك يا سيدي .

وعند ذلك فتح باباً وأدخله مع رفيقه الى غرفة وأقفل الباب .

فلما خلا الاثنان بتلك الغرفة وقال السير جمس لسميث : لقد توهموا أنهم يحملونني على الاقرار بالوعيد وقد ساء فألهم .

— ولكننا لا نزال في قبضتهم .

فنظر السير الى نوافذ الغرفة وقال له : أيصعب عليك وأنت من مشاهير اللصوص كسر هذه النافذة ؟

فأجابه اللص بصيحة ذعر اشترك بها الاثنان ، وذلك أن أرض الغرفة خسفت بهما ، وجعلا ينزلان الى الأعماق نزولاً تدريجياً ، وكلما نزلا ابتعدت عنهما النوافذ .

فأيقن السير جمس عند ذلك ، باستفحال الخطر . وعلم ان أعداءه رجال أشداء .

- ٣٩ -

بينما كان السير جمس وسميث قد وقعا في قبضة مرميس وعصابته ، كانت حوادث أخرى تجري في منزل شاباروت الفحام الذي سجن فيه رالف وسقطت أمه في تلك البئر على ما وصفناه .

أما هذه البئر فانها قبو متسع تجتمع فيه الأمطار ، وهذا القبو مشترك بين شاباروت وجيرانه فيشرف عليه شاباروت من فسحة في منزله ، ويشرف عليه جيرانه في المنزل من دكان كانت في ذلك العهد مفتوحة الأبواب ، إذ كانت

من غير انجار .

وكان هذا القبو مغطى من الجهتين بباب من الخشب حذر السقوط فيه ففير السير جمس باب شاباروت ووضع فيه لولباً بحيث إذا أدير اللولب ومر من فوقه جسم فتح البـــاب وسقط الجسم ثم انغلق الباب على الفور ، وعاد إلى ما كان عليه .

وهذا الذي حدث لتلك الأرلندية المنكودة فانها عندما مرت فوق البـاب انحنى ذلك الفحام إلى الأرض وأدار اللولب فسقطت المرأة في المياه وسمع السير جمس صيحتها الهائلة ثم سمع صوت تخبطها في الميـاه ثم انقطع الصوت فايقن أنها باتت من الأموات .

غير أن الله الذي يحمي الضعفاء من الأقوياء لم يرد لها الموت وأبى أن تنفذ مكيدة أهل الشر بتلك الأم التعيسة فانها حين سقطت في تلك الميـاه هوت فيها إلى آخر مبلغ عمقهـا ، ثم صعدت إلى سطحها وأعانها انتفـاخ ثوبها على العوم فلم تصيح بعد صيحتها الأولى ولم تستغث ، بل انهـا حبست انفاسها وأصغت إصغاء تامـاً ، فسمعت ابنها يصيح قائـلاً : أين هي أمي ... ردوا إلي أمي . .

ثم انقطع صوت ولدها وسمعت ضحك الفحام والسير جمس فعلمت للفور أن سقوطها لم يكن اتفاقاً بل مكيدة وأنهم أرادوا اغراقها كي يختطفوا ابنها فاذا شعروا انها لا تزال في قيد الحياة نزلوا اليها وأغرقوها .

ولم يكن سكوتها حرصها على حياتها بل لخوفها على ولدها فان الأمل لا يفارق الأنسان إلا حين الموت وقد ذكرت انهم فرقوا بينها وبين ولدها مراراً فقدر الله لهما أن يجتمعا بعد الافتراق .

وكانت المياه شديدة البرودة والهواء فاسداً ولكنها تجلدت ولم تتحرك ثم أخذت ثيابها تثقل بالمياه حتى أوشكت أن تغرقها ورأت انها تهبط تباعاً .
وكانت ابنة حياة أي انها كانت ماهرة بالسباحة، غير انها لم تشأ أن

تسبح حذراً من أن يسمعوا حركة جسمها فلبثت على ذلك ثلاث دقائق مرت بها كساعات النزع إلى أن سمعت صوت خطوات السير جمس والفحام من فوق رأسها وأيقنت انهما ابتعدا فهاجت فيها عواطف الأمومة وحب الحياة وجعلت تسبح بعنف شديد في تلك المياه الآسنة .

وكان الظلام دامساً فكانت كلما تقدمت ترى الظلام قد خف حتى بلغت البئر الثانية التي تشرف عليها من الدكان .

فتقدمت أيضاً حتى صارت تحت الدكان فرأت نور النهار ينبعث ضئيلاً من شقوق سقف البئر .

وعند ذلك جعلت تسبح علها تعثر بما ترتاح اليه من متاعب السباحة إلى أن أتاها الله بالفرج فعثرت بعد الجهد الشديد بعود من الحطب كان عائماً على سطح المياه فاستعانت به كما يستعين النوتي ببقايا السفينة التي تحطمها الأنواء .

وعند ذلك سمعت فجأة صوت باب يفتح فوق رأسها ، فهلع قلبها وحسبت أن السير جمس والفحام علما انها لم تغرق فاتيا ليجهزا عليها غير انها سمعت بعد فتح الباب ما اطمئنت له نفسها وهو صوت فتى يغني أغنية كانت شائعة في ذلك العهد فأدركت على الفور أن رجلاً قـــد دخل إلى الدكان وانه غير الرجلين اللذين تخشاهما فجعلت تصيح مستغيثة بأعلى صوتها .

وبعد هنيهة سمعت أن الغناء قد انقطع فجأة قبل اتمامه فعلمت أن صوتها قد وصل إلى مسمع المغني وعادت إلى الصياح .

وعند ذلك فتح سقف البئر ودخلت أشعة النهار الىالمياه فأيقنت الأرلندية أن الله قد أرسل اليها منقذاً ليقيها ويقي ولدها من ظلم الأشرار .

تقدم لنا القول أن بيت الفحام يجاوره بيت آخر وأن الفحام كان يشرف على البئر وسكان ذلك المنزل المجاور يشرفون عليها من دكان لم تكن مأجورة في ذلك العهد .

وكان الفحام واثق ان المنزل لا يوجد فيه أحد بالنهار لأن كل سكانه من العمال .

غير أن هذا المنزل كان يقيم في قسم منه امرأة غسالة وابن لها يدعى بوليت وهو في مقتبل الشباب .

وكان بوليت هذا من أحذق غلمان باريس تقلب في كثير من الأعمال ، كان في التاسعة من عمره مستخدماً في مطبعة ، واشتغل نجاراً في الثانية عشرة وخدم في المراسح في الخامسة عشرة - وبعدها اعتزل هذه المهن وصار مغنياً في القهاوي ثم ارتقى إلى مهنة ممثل في الضواحي ثم تعين سكرتيراً لقوميسير الشرطة في بلفيل .

فهو قد تقلب في كثير من المهن كما ترى ، ولكنه لم ينجح في واحدة منها ، فان القوميسير الشرطة ، قال له ، انك لا تصلح لمهنتنا لميلك إلى التمثيل .

وقال له مدير الجوق انك لا تصلح للتمثيل لتعلقك بالغناء .

وقال له صاحب قهوة الغناء : ان السامعين قد صفروا لك استهجاناً فلا يسعني قبولك .

وقال له النجار : انك كثير التصور والغزل .

أما صاحب المطبعة فإنه أرسله بمسودة مقالة إلى كاتبها لإصلاحها فأضاعها في الطريق ولم يعد إلى المطبعة .

على أنه كان ذكي الفؤاد ، طيب السريرة كثير الأصدقاء ، وكان

له أيام عسر وأيام رخاء ، فإذا جاءت أيام اليسر أنفق عن سعة وعاش مع أصحابه عيش الرخاء ، وإذا دهمه العسر لجأ إلى بيت أمه وأقام معها يعيش من فضلة كسبها .

وكان هذا اليوم من أيام بؤسه أي أنه كان ملازماً بيت أمه .

وقد كان سمع الناس يتحدثون بجرائم جاره الفحام وخطر له أن يغتنم فرصة فراغه ويراقبه ، فكان ينزل إلى تلك الدكان وفيهـا نافذة تشرف على فسحة بيت الفحام ، فيراه مراراً يمر بالفسحة فيأخذ قطعة من مرآة مكسورة ويضعها على النافذة محنية بحيث يرى كل ما يصنعه الفحام دون أن يراه جاره فيرى ملامح الشر تنطبع فوق وجهه حين يعتقدانه وحده فينقطع عن التكلف ويظهر بهيئته التي فطر عليها .

وقد بلغ من مراقبته إياه انه عرف كل أخلاقه وعاداته وخروج مرات في أثره وعرف الخمارة التي يتعشى فيها كل ليلة مع ان الفحام لم يره ولم يعرفه على التصاق المنزلين .

ففي الليلة التي خلا بها السير جمس بالفحام كان بوليت في تلك الخمارة فرابه اجتماع هذين الرجلين في مثل هذه الخمارة على ما بينهما من تباين المقام كما كانت تدل ثياب السير جمس ، فتنبه بوليت وقال في نفسه ان القوميسير قد طردني من الخدمة لاعتقاده اني كسول لا أصلح لها ولقد كان مصيباً في اعتقاده ، أما إذا ذهبت اليه يوماً وقلت له إني اكتشفت جريمة وأوقفته على تفاصيلها فإنه يكافئني دون شك ويردني إلى الخدمة .

وقد استدل بوليت من اجتماع الرجلين انهما لم يجتمعا إلا للاتفاق على جريمة فجعل من ذلك الحين يراقب جاره مراقبة شديدة .

وبعدها بيومين رأى عربة وقفت في الشارع عند عطفة الزقاق المؤدي إلى بيت الفحام ، ورأى فيها ذلك الذي مع الفحام ، أي السير جمس ، ومعه امرأة وغلام لم يعرفهما .

ثم رآهم جميعاً قد دخلوا إلى بيت الفحـــام فأسرع إلى الدكان ووقف في النافذة المشرفة على الفسحة واستعان بالمرآة فلم ير شيئاً .

وعند ذلك خطر له أن يغني بصوت مرتفع على رجـــاء أن يسمع الفحام صوته فإذا كان عازماً على الجريمة لا يجسر على ارتكابها متى سمع صوته ولكنه لم يعلم ان الأمر قد قضي حين كان عائداً إلى منزله للمراقبة من النافذة .

على انه حين كان يغني سمع صوت الارلندية تستغيث ، فانقطع فجـأة عن الغناء ، وعاد إلى الاصغـــاء ، فسمع الصياح وعلم انه صادر من البئر ، فأسرع إلى الخشبة الموضوعة فوقها وأزاحها وجعل ينظر إلى المياه باحثاً عن مصدر الصوت .

وكانت الارلندية قد نهكت قواها وخفت صوتها ولكنها لما رأت ان سقف البئر قد فتح ورأت رأس إنسان قد ظهر لها عادت لها قوتها وجعلت تستغيث بملء صوتها .

فقال لها بوليت : لا تخافي ، تجلدي دقيقة فسأنقذك .

ثم تركها وعاد مسرعاً إلى البيت فجاء بسلم طويلة وأنزلها إلى تلك البئر فبات أسفلها راكزاً في قاع البئر وأعلاها مستنداً إلى حائط الدكان .

وعند ذلك أسرعت الارلندية وتمسكت بالسلم غير انهـا لم تقدر ان تصعد اليها لثقل ثيابها ولفرط ما لقيته من التعب ، فنزل بوليت وأعانهـــا على الصعود .

وكان بوليت على ذكائه وسوء معشره طيب السريرة طاهر القلب فلم يخطر في باله الفحام والشرطي في تلك الساعة ، بل تمثلت له تلك المرأة على ما كانت فيه من الشقاء ، ولم يخطر في باله غير انقاذها ، فلما بلغ بها إلى سطح الدكان ترك السلم في موضعها وذهب بالارلندية إلى بيت امه .

ولم تكن أمه قد عادت بعد إلى المنزل فنزع ثياب الارلندية المبتلة ولفهـــا باغطية السرير ثم أشعل ناراً فوضعها قربها كي تتدفأ بها وقال لهـــا : اطمئني يا

سيدتي فسأنقذ ولدك كما انقـذتك

أما الارلندية فلم يخامرها شيء من الخوف على ولدها لأنها كانت تعلم شدة انشغال اللورد بالمير بالاستيلاء عليه ، ومع ذلك فان كلام بوليت قـد زاد في تسكين اضطرابها .

أما بوليت فانه تمعن قليلاً في الحالة ثم قال في نفسه : ان أمي ستعود قريباً واذا رأت هذه المرأة عندي أرهقتني بالأسئلة والاعتراض ثم لا تمر ساعة حتى يعرف هذه الحادثة جميـع أهل الحي ، إذاً لا بد لي أن أفر بهـا من هنا كي لا تراها .

ولما استقر رأيه على ذلك قال للارلندية : إذا أردت أن لا يصـاب ولدك بمكروه فاتبعيني .

فتبعته الارلندية طائعة فنزل بها إلى غرفة تحت البيت تمدها أمه للغسل فأدخلها اليها وقال لها : لا أستطيـع انقاذ ولدك إلا إذا بقيت هنا .

فوعدته بالامتثال فخرج بوليت وأقفل الباب من الخارج مبالغة في الحذر .

ثم ذهب إلى الشارع حيث كانت المركبة واقفة فوجـد انها انصرفت ، فأيقن ان السير وود قد ذهب فدخل إلى الزقاق المؤدي إلى بيت الفحام فوجده واقفاً على عتبة دكانه بملء السكينة وعلائم السرور بادية عليه .

وقد أيقن بوليت ان الغلام قد اختطف ولكنه لم يعلم إذا كان السير جمس قد ذهب أو إذا كان باقياً في بيت الفحام .

وكان في ذاك الزقاق غسالات يغسلن الثياب على قـارعة الطريق ، وجعل بوليت يمازحهن ويراقب خلسة الفحام ، فرآه قد دخل مراراً ثم عاد إلى موقفه فقال في نفسه : لا شك ان الغلام سجين عنده وان دخوله مراراً لم يكن إلا لتفقده .

وعند ذلك عاد الى البيت ووقف في تلك النافذة المشرفة على فسحة بيت الفحام فلم ير أثراً ، فخطر له خاطر لا بد في تنفيذه من الجرأة ، وهو ان

الارلندية قد سقطت الى المياه من ثقب في سطح قبو الفحام فهو يدخل الى القبو كما سقطت منه .

ولم يطل تفكيره بهذا الخاطر بل انه نزل لفوره الى الدكان ، وكانت السلم لا تزال في البئر فخلع ثيابه والقى نفسه في المياه وجذب السلم اليه فجعل يسبح بها متجهاً إلى جهة قبو الفحام فوضع السلم على الجدار وصعد عليها الى أن مست يداه السقف الخشبي فرفعه بكتفه وولج منه الى القبو.

وكان بيت الفحام يشبه بيت أم بوليت بغرفه وأقبيته وطريقة بناءه فلم يصعب على بوليت البحث فيه وجعل يجول من مكان الى آخر حتى سمع أنيناً في القبو الداخلي فأيقن انه انين الغلام المسجون فيه .

وعند ذلك دنا من الباب وفحص قفله فوجده شديد المتانة بحيث رأى ان انقاذ الغلام في تلك الساعة مستحيل ، لاسيما وان الفحام لا يزال في المنزل ، ولكنه اطمئن على الغلام إذ علم انه لا يزال حياً ، وان هذين الأثيمين لم يبطشا به كما أرادا البطش بامه فارتأى ان يعود بعد ان يذهب الفحام الى الخمارة لمناولة العشاء حسب عادته كل ليلة ، ثم يحضر معه ما يحتاج اليه من المعدات .

وفيما هو يحاول الرجوع من حيث أتى سمع وقع أقدام الفحام آتياً الى جهة القبو فأسقط في يده وخشي افتضاح امره وما ينتج عنه من تعذر انقاذ الفتى اكثر مما خشي على نفسه من ذلك الوحش الكاسر .

ولكنه لم يفقد هداه فنظر الى ما حواليه فرأى أكداس الحطب مرصوفة بانتظام في زاوية ، فأسرع واختبأ وراءها ، ثم دخل الفحام يحمل سلة من الطعام فذهب دون ان يرى بوليت الى رف من الخشب ، فأخذ من فوقه مفتاحاً فتح به باب القبو ودخل الى الغلام بسلة الطعام فرآه بوليت وقال في نفسه : لقد غنيت بهذا الاكتشاف عن المعدات ، لقد علمت أين يضع مفتاح القبو .

أما الفحام فانه خرج من القبو بعد أن أطعم الغلام فأقفله وأعاد المفتاح الى مكانه ثم انصرف .

وكان بوليت شديد الجرأة كثير الاقدام غير انه كان حكيماً على حداثة سنه وأرتأوى ان يؤجل انقاذ الفتى الى ان يذهب الفحام الى الخمارة حذراً من عودته المفاجئة .

ولذلك عاد الى سقف البئر ففتحه ونزل الى الماء وعاد بالسلم الى جدار الدكان وصعد اليها فلبس ثيابه ، ثم صعد الى غرفة امه .

وكانت قد عادت من عملها وأخذت تعد طعامها فشم بوليت رائحة الطعام وعلم ان والدته في المنزل ، فذعر لحضورها حذراً من افتضاح امره ثم اطمئن وقال في نفسه قد يوجد بين النساء من تكتم السر ليلة وانا لا احتاج الى اكثر من هذا الزمن لانقاذ الفتى .

وعند ذلك دخل فجأة الى والدته ، فأرادت ان تنتهره ، فوضع إصبعه على فمه فقال لها ارجوك ان لا تصيحي يا اماه وان تنتبهي الى ما أقول ولو مرة في العمر .

فقالت له . ماذا تريد أيها الوقح ، وما بالك مبتـــلا ، الا تشفق علي أم تحسبني خلقت لخدمتك ؟

– قلت لك لا تصيحي يا اماه ، فان لدينا ثروة ، وهذه الثروة موقوفـة عليك .

فضحكت ضحك الهازىء وقالت له : ويحك ما هذا الهذيان ألا تزال تحدثني كل يوم بمثل هذه الاماني وأنت على ما عرفت به من الكسل والخمول ، ألا تخجل أن اعولك في حين انه يجب عليك أن تعولني ؟

– إصغي الي بالله فاني لست من الهازئين .

– ولكن من اين انت قادم ؟

– سأخبرك بكل شيء

ثم ذهب الى الباب فأقفله ووضع المفتاح في جيبه ، فقالت : رباه ان ولدي قد جن .

أما بوليت فانه قال لها برزانة : اني سأغدو قوميسيراً للبوليس .

وهزت الأم كتفها ثم جعلت تنظر الى ولدها كأنها باتت خائفة على صوابه فقال لها : وسأنال جائزة عظيمة .

– ولكن ...

فقطع عليها حديثها وقال : لا سبيل الى الاعتراض يا أمـــاه لأن الثروة مضمونة كما قلت لك اذا أردت .

– ماذا تريد ان اصنع ؟

– ماذا تطبخين في هذا القدر ؟

– لحماً وبصلاً .

– انضج الطعام ؟

– انه على وشك النضج ، ولكن أية علاقة لثروتنا بهذا الطعام ؟

– ان له علاقة شديدة لأنه الواسطة .

وضحكت المرأة وقالت : العله واسطة ترقيتك الى مقام قوميسير ؟

– نعم يا أماه .

واستاءت الأم إذ حسبته يهزأ بها وسألته : الا تقول لي ايهـا الوقح ماذا كنت تصنع في الدكان ؟

– ان هذا لا يعنيك .

– أهكذا تجيب أمك ايها الشقي ؟

– كفى يا اماه تأنيباً وأعطني زجاجة خمر وقطعة من الخبز . ثم ذهب الى القدر فرفعها عن النار .

وحاولت ان تصيح به فقال لها: انك ان اعترضت علي او صحت حرمتيني من رتبة القوميسير .

ثم وضع الخبز تحت إبطه وحمل الزجاجة بيد والقدر بيد وخرج من الغرفة بعد ان فتح الباب وهو يقول : إن هذه المنكودة أشد حاجة منا إلى الطعام بعدما لقيته من العناء .

غير ان والدة بوليت لم تكن لتتخلى عن طعامها بسهولة فاندفعت في أثر ولدها حتى أدركته وقد دخل إلى الارلندية.

ولما رأت الأم تلك الارلندية ومالها من الجمال صاحت صيحة منكرة وحسبت انها فهمت كل شيء وهي لم تفهم شيئاً وقالت لإبنها : تباً لك من لص فاجر أتسرق طعامي وقد كلفني تعب النهار كي تطعمه لخليلتك .

غير ان بوليت أسرع فوضع الطعام أمام الارلندية وبادر إلى الباب فأقفله ثم وضع يده على فم أمه وقال لها : إنك ما زلت قد أتيت إلى هنا ورأيت فلا أجد بداً من إخبارك فاسمعي .

ورأت الأم ملامح الجد بين عينيه ، وتبينت خطورة الأمر من نبرات صوته فانقطعت عن الصياح وأصغت اليه .

أما بوليت فإنه أشار بيده إلى الارلندية وقال لها : انظري يا أماه إلى هذه المرأة فاني لو لم أدركها لقضت غرقاً .

- ماذا تعني ؟

- أتعرفين جارنا الفحام ؟

- اليس هو شاباروت الذي قتل امرأته؟

- هو بعينه ، وقد القى منذ ساعة هذه المرأة في البئر فأنقذتها حين سمعت صياحها .

وكانت أم بوليت عجوزاً صخابة ثرثارة ولكنها كانت طيبة السريرة كولدها ولما ايقنت ان المرأة مظلومة وانها ليست من بنات الهوى اصغت إلى ولدها وسمعت قصة الارلندية .

أما بوليت فانه أخبر الارلندية ان ولدها لا يزال في قيد الحياة ثم أكرهها

على الأكل مع والدته ووعدها بإنقاذ ابنها فجعلت تبكي سروراً .

وعندها التفت بوليت إلى أمه وقال لها : اني أرى أبواب المستقبل قد فتحت امامي ونحن الآن في حاجة إلى الرصانة.

– ماذا تريد بذلك ؟

– أريد أن هذا الفحام لم يلق المرأة في البئر وسجن غلامها في القبو إلا وله شريك في هذه المهمة الشائنة ، وقد رأيت هذا الشريك يحادث الفحام ولذلك فقد وجب الحذر .

– دون شك ، وعندي أنه يجب أن تسرع في الحال إلى رئيس البوليس فتخبره بجلية الأمر .

– ليس هذا بالرأي الصواب فإن الفحام قد يخنق الغلام متى رأى رجال الشرطة قادمين اليه .

– إذاً ما العمل ؟

– يجب ان تبقى هذه المرأة هنا إلى ان أنقذ ولدها ويجب أن تحرصي عليها كل الحرص .

– كن واثقاً من ذلك .

– واحذري أن تدعي أحداً يراها .

– سأفعل .

– نعم ، أوصيك بالكتمان لأن كلمة تبدر منك تفسد كل أمر .

– اني أعدك بأن أكتم أمرها عن كل الناس .

– بل تعديني ايضاً أن لا تذهبي إلى منازل الجيران .

– سأقيم في غرفتي فلا أبرحها حتى تعود .

– إذا كان كما تقولين فاعلمي اذاً ان الساعة بلغت السادسة الآن وهـــذا موعد خروج الفحام الى الحمارة للعشاء فيجب اغتنام هذه الفرصة .

ثم ترك الارلندية تعتني بها امه وخرج من المنزل إلى الزقاق فرأى الفحام لا يزال واقفاً في الباب فجعل يسير ذهاباً وإياباً ويراقب الفحام .

وكانت الغاسلات تغسل الملابس في ذلك الزقاق وبينهن فتاة حسناء كانت تنظر إلى بوليت نظرات حب وادلال .

وقد رآها الفحام فاحمر وجهه من الغضب ، ولم يكن غضبه لاعتقاده انه يراقبه ، ولكنه استاء لأنه رآه يرود أمام دكان الغسالات ، فإن هذا الوحش الكاسر على غلظة كبده ، كان يحب احد تلك الغاسلات ودبت الغيرة الى قلبه الوحشي .

أما تلك الفتاة التي كان يهواها فكانت تدعى بولينا ، وهي نفس الفتاة التي كانت تنظر الى بوليت تلك النظرات التي تشف عن الحب الصادق .

وكان قد بلغ من حبه لتلك الفتاة انه عزم على الاقتران بها دون ان يكاشفها بقصده ، لاعتقاده انه ذو مال وان الغاسلات لا مال لهن .

وكان كلما مر بالعاسلات ، وهو يحمل الفحم إلى زبائنه ، ينظر إلى الفتاة نظرة المعجب بجمالها ، ويزيد فيه ميل الزواج بها .

ولما رأى بوليت يمر ذهاباً وإياباً بدكان الغاسلات تنبهت فيه عواطف الغيرة واتقدت عيناه ناراً .

وفيما هو على ذلك خرجت تلك الفتاة بطبق الماء المتسخ فنظرت إلى بوليت وقالت له وهي تضحك : احذر .

فأسرع بوليت الى التراجع حذراً من أن تصيبه المياه فقالت له الفتاة باسمة : أراك يا مسيو بوليت تفرط في الحذر من المياه .

فذهل بوليت حين سمعها تناديه باسمه فقال لها : العلك تعرفيني ايتها الفتاة ؟

- دون شك فقد حضرت تمثيلك مرة فأعجبت بك ألا تهبني ورقة الدخول فلا شك ان لديك كثيراً من الأوراق

ـ اعطيك متى شئت وقدر ما تشائين .

ـ اني اشكرك مقدماً فاذهب الآن فإن صاحب الدكان يراني أحدثك، وإذا شئت فانتظرني في الساعة التاسعة فيمدخل الزقاق نتفق على تعيينالساعة التي نذهب فيها لحضور التمثيل . ثم تركته ودخلت الى الدكان .

وكان الفحام قد رآهما يتحدثان فاصفر وجهه من الغيرة واقفل باب دكانه ولكنه لم يذهب بل بقي واقفاً قرب الباب .

أما بوليت فانه خشي ان يعلم بأنه يراقبه فمشى يحاول الخروج من الزقاق . وكان الظلام قد أقبل فلم يسر هنيهة حتى شعر ان الفحام قد انقض على عنقه وهو يقول : انك تتداخل فيما لا يعنيك وسترى ما يكون جزاؤك .

ثم ضغط عليه بعنف شديد حتى كاد يخنقه .

- ٤١ -

أما بوليت فانه حين سمعه يقول له هذا القول لم يخطر له ان الفحام يريد الإشارة الى تلك الفتاة بل حسب انه اطلع على أمره وعلم انه يحاول انقاذ الغلام فقال وقد كاد يخنقه لشدة ضغطه على عنقه : اتركني ايها الأثيم او ادفع بك الى الشنق ؟

وصاح شاباروت صيحة هائلة وكف عن الضغط على عنقه فاغتنم بوليت الفرصة واجاب : انك قتلت امرأتك ولدي على ذلك برهان .

فأجابه الفحام : لا ريب عندي انك ستذيع هذه الأقوال في الحي ولكني اهزأ بك وبأقوالك .

ـ والانكليزية التي القيتها في الماء ؟

وقد ذكر له بوليت أمر الانكليزية راجياً أن يرعبه فيطلق سراحه ،

ولكن ساء فأله ، فإن الفحام حين ذكر له جريمته زادته إقداماً على الجرائم فضغط على عنق بوليت وهو يقول : أما وقد عرفت هذا السر ، فلا تطمع بعده بالحياة .

وجرى بين الاثنين عراك عنيف ، وكان الظـــلام حالكاً ، والزقاق مقفراً ، والفرق بعيداً بـين الاثنين ، فإن ذلك الفحام الوحشي كان يشبه الجبابرة ، وقــد زاده الغضب قوة على قوته ، فبات يعبث ببوليت كما يشاء .

أما بوليت فإنه شعر بالغلبة وشعر انه ليس من أكفاء ذلك الخصم الشديد فجعل يصيح مستغيثاً .

غير أن الفحام لم يمهله فإنه صرعه والقاه الى الأرض وركع فوق صدره ثم أخذ مدية غليظة من جيبه وطعنه بها .

فأن بوليت أنيناً مزعجاً ولم يتحرك .

وعند ذلك نهض الفحـام عنه وقد جحظت عينـاه وانصب العرق من جبينه ، وقد توهم أنه قتله فضحك ضحكاً هائلاً وقال : لقد أصبح عـدد قتلاي ثلاثة .

ثم تراجع عن فريسته وقد شعر ان ساقيه يضطربان ، ثم وقف وجعل ينظر نظرات تائهة دون أن يجسر على النظر الى بوليت فان القتلة يصابون حين الجريمة بمثل هذا الذهول .

ولبث هنيهة حائراً مضطرباً ، مقيـداً بقوة خفية ، إلى أن سمع وقع أقدام ، فأسرع إلى الفرار الى الجهـة المضادة لمصدر الصـوت ، وأطلق ساقيه للريح .

فكان يسير راكضاً إلى أن بلغ شارع سانت امبرواز ومن هناك سار الى شارع سانت اوجين فالترعة ، ولبث نحو ساعة يسير مضطرباً خائفاً دون أن يهتدي الى أين يسير ، فكان تارة يندفع في سـيره وتارة يمشي الهوينا ، ثم

يقف مستريحاً ، فترن في أذنيه كلمات بوليت الأخيرة فيهلع قلبه خوفاً من سوء المصير .

وعند ذلك بدأ المطر يتساقط ، فلجأ الى مكان يقيه المطر ، وعادت اليه سكينته فقال في نفسه : إني قتلت هذا الفتى دون ان يراني أحد ، فمن يتهمني وليس بيني وبينه علاقة او اتصال ، ولا يعلم الناس ما أضمرت له من الأحقاد .

وهنا ارتاح لهذا الخاطر وجعل يفكر في ماذا يفعل .

إن من يطالع تقاويم الجرائم يجد فيها ثلاثة أمور : أولها أن القاتل أول ما يخطر له بعد ارتكاب الجريمة ان يعد سبيلاً لدفع التهمة عنه ، وثانيها أنه يحدث له شوق شديد الى الخمر ، فيندفع إلى أقرب خمارة يجدها ، والثالث أنه بعد أن يترنح سكراً يذهب الى محلات الدعارة والفساد .

ولذلك كان أول ما خطر لهذا الفحام أن يذهب الى الخمارة بعد ان أيقن أنه لم يره أحد حين ارتكاب الجريمة .

فذهب الى الخمارة المجاورة للمكان الذي كان فيه وكانت غاصة بالزبائن وقد لعبت الخمرة بالرؤوس فانطلقت الألسن وتشعبت الأحاديث .

فدخل وهو يتكلف السكينة جهده على أن تقطيب حاجبيه وغلظة جسمه نفر الناس منه فلم يكلمه أحد من الحاضرين خلافاً لعادة السكارى فان السكر يؤلف بين قلوبهم ويقربهم من كل بعيد .

أما الفحام فانه هب الى منضدة لم يكن عليها أحد وقعد فجاءه الخادم وأحضر له ما طلبه من طعام وشراب .

فجعل يأكل ويشرب وهو يراقب الحضور ، فلم يجد بينهم من شغل به او اهتم له فاستدل من ذلك ان أمره لم يفتضح إذ لم يسمع خلال أحاديثهم ما يشير الى ارتكاب جريمته .

وفرغت قنينة الشراب فتلاها بالثانيـــة وأردفها بالثالثة إلى أن حانت الساعة العاشرة وهي إقفال تلك الخمارة ، فاضطر إلى الخروج منها مكرهاً وهو تائه في مهامه الأفكار في الطريق التي جاء منها ، فقطع الترعـة إلى شارع اوجين ومنه الى شارع سانت امبرواز ، ومنه الى الشارع الذي يدخل منه الى الزقاق .

وهنا تنبه بالرغم من سكره وجعل يخاطب نفسه فيقول: لماذا هذا التخوف ومن يخطر له ان يتهمني إذ لم يكن قد رآني أحد وفوق ذلك فاني تعشيت في خمارة كان فيها كثير من الناس يشهدون لي .

وعند ذلك عول على الدخول الى الزقاق ، فدخل حتى وصـل إلى منزله وأخرج المفتاح من جيبه ووقف منذعراً وقـــد اضطرب من الرعب حتى أوشك أن يسقط

ذلك انه رأى نوراً يضيء في منزله ، فأيقن ان الشرطة قد اتصـــل بها أمر الجريمة .

وأن منزله قد غص برجال الشرطة للقبض عليه ، فجمد الدم في عروقه من الخوف ، ثم أقفل راجعاً وجعل يهذر وهو لا يعقل من الخوف ولا يهتدي إلى سبيل .

وها نحن موضحون السبب ، في وجود النـور والناس ، في دكان ذلك الفحام .

- ٤٢ -

بينما كان الفحام قد طعن بوليت تلك الطعنة النجلاء ، وهام على وجهه بعد الجريمة ، كانت الغاسلات يداعبن بولينـا ويمازحنها ، إذ رأينها تحادث

بوليت ، فجعلن يسألنها عن هذا الفتى وهي تجيبهن معجبة به إعجاباً يدل على افتتانها بهواه .

وما زلن يمازحنها حتى انتقلن من المزح إلى الهزء فكبر عليها هزؤهن وأوشك هذا المزاج أن يفضي الى المهاترة .

وتدخلت عند ذلك صاحبة الدكان ، وهي رئيسة الغاسلات فأصلحت بينهن ، وعادت الى بولينا فكلمتها برزانة وقالت لها : أحقيقة أنك تهوين هذا الفتى ؟

فاحمر محيا الفتاة ولم تجب .

فاستدلت من سكوتها واصفرار وجهها على صدقها في حبه وقالت لها : إني أعلم انك لست على شيء من الخفة ونزق الشباب وانك إذا كنت تحبين هذا الفتى فعلى سبيل الاقتران به .

ولكنك تعرضين بمستقبلك للخراب فليس لهذا الفتى مهنة وما هو من أهل الجد والإقدام ولا مال له على انك لو اتبعت سبل الرشاد لتيسر لك القران بعد شهر برجل له مهنة معروفة .

فقالت لها الفتاة : ماذا تعنين ؟

– أعني أنك تصبحين بعد شهر مدام شاباروت إذا كنت ترغبين .

فضحكت بولينا ضحك الهازئة وقالت لها : أشكرك لهذا النصح فان هذا الشخص يشبه ذلك الأمير الذي كان يقتل كل امرأة يتزوجها حين تروق في عينه سواها .

– لا حقيقة لما أشيع عنه وفوق ذلك فهو كثير المال .

فهزت الفتاة كتفيها وقالت : أية حاجة لي بالمال وأنا أكسب قوت يومي ألم يقل الله لا تهتموا بالغد إن الغد يهتم بكم ، ثم أية مقارنة بين غاسلة لا تفارق المياه وبين فحام لا يغسل وجهه إلا يوم الأحد ؟

فضحكت الغاسلات لقولها ، وقالت لها إحداهن : ولكن هذا الفحام

هائم بك فقد رأيته ينظر اليك نظرات الوجد ، وأنت حرة فاختاري ما تشائين من الفتيان غير أنه لا بد لي من نصيحة أسديها لك وهي ان تحذري من هذا الشخص .

– وماذا يعنيه أمري ؟

– لا أقول انه يعنيه ، ولكن الغيرة قد تدفعه إلى كل مكروه ، ولو رأيته كيف كان ينظر الى ذلك الفتى الذي كنت تحدثينه لحذرت كل الحذر ، فان عينه تدل على الشر وقد تحمله الغيرة على الانتقام

فاهتزت بولينا إشفاقاً وسكتت فلم تفه بكلمة بعد هذا الحديث .

ولبثت الغاسلات يشتغلن إلى الساعة السابعة ، ثم انقطعن عن العمل وبسطن مائدة العشاء ، حتى إذا فرغن من الطعام قالت بولينا لصاحبة الدكان : إني لا أستطيع العمل في هذه الليلة فقد تركت أمي متوعكة في هذا الصباح ، وأخشى ان تكون مريضة وليس من يعولها سواي .

وكانت بولينا صادقة في قولها ، فإنها كانت تريد افتقاد أمها ، ثم أنها كانت تريد ان توافي بوليت ، إذ اتفقت معه على اللقاء في الساعة التاسعة .

فلما حان الموعد المعين أخذت سلتها التي أحضرت فيها طعام الصباح فأدخلتها في كوعها ومشت وهي مضطربة لهذا اللقاء

وفيما هي سائرة تعلل نفسها بالأماني ، أوتعد رق الألفاظ لتحادث بها بوليت ، عثرت بجسم فالتفتت مذعورة ورأت جسماً ممدوداً على الأرض لا حراك فيه .

فراعها هذا الاتفاق ولم تعلم أهو جسم سكير أم قتيل ، ولو اتفق مثل ذلك لسواها لهربت خوفاً .

غير ان بولينا على حداثتها كانت ثابتة الجنان فانحنت على هذا الجسم كي ترى صاحبه ولكنها لم تحدق فيه حتى تراجعت مذعورة وصاحت صيحة حنو وتألم

فان هذا الشخص كان بوليت .

وعند ذلك أكبت عليه تنقذه وتنظر في أمره فرأت الدم سائلاً منه ، فخافت خوفاً شديداً .

ولكنها لم تستغث ولم تترك بوليت لطلب النجدة ، بل انها تولت الأمر بنفسها ووضعت يدها على قلبه وشعرت أنه يخفق خفوقاً خفيفاً استدلت منه أنه لا يزال في قيد الحياة .

وقد اطمأنت وارتاحت بعض الارتياح ، وكان أول ما خطر لها أن حبيبها لم يجرحه هذا الجرح غير شاباروت الفحام .

وخافت ولكن خوفها لم يكن على نفسها ، بل على بوليت وحاولت أن تسرع باحضار المدد لبوليت ، ولكن خوفها عليه من الفحام منعها عن الذهاب .

ثم أيقنت انه مغمى عليه بعد ان سمعت دقات قلبه ، فرأت أن تنقذه بما تعلمه من الوسائل ووضعت فمها على فمه وجعلت تنفخ نفخاً خفيفاً ، فتصل أنفاسها إلى رئته .

وكانت تفرك يديه بيديها وتناديه بأعذب الألفاظ فلا يستفيق .

وعند ذلك خطر لها خاطر أملت ان يعينها على إفاقته ، وهو انها كانت قد اشترت في الصباح برتقالاً غير تام النضج ، فذكرت انه لا يزال معها برتقالة في سلتها .

فأخذتها وفلقتها فلقتين واستعملتها مقام اسفنجة فكانت تفرك بها صدغيه وشفتيه وأعصابه فتفعل به فعل الخل .

وبعد أن أطالت الفرك على هذه الطريقة تنهد بوليت تنهداً خفيفاً ، فردت بتنهد الفرح والاستبشار ، ثم فتح عينيه وقال بصوت خفيف خافت : أين أنا ؟

فشعر عند ذلك بقبلة حارة كادت تحرق شفتيه ، وسمع صوتاً حنوناً

لطيفاً يقول له : لا تخف يا مسيو بوليت ، فهذا أنا صديقتك الصغيرة . .
بولينا الغسالة

إن الفحام حين طعن بوليت بمديته صوبها الى البطن لوثوقه من ان الطعنة في ذلك الموضع تكون قاتلة .

غير ان مديته أصابت شيئاً صلباً ، وهو حافظة نقود بوليت التي كانت في جيب بنطلونه ، فزلقت عن النقود ولم تصب البطن كما كان يريد ، بل أصابت الفخذ فجرحته جرحاً طويلاً ولكنه غير بليغ إذ لم يقطع له عرق من عروقه .

غير أن الضربة كانت قوية أصابت بوليت بألم شديد أحدث له هذا الإغماء .

فلما صحا من إغمائه نهض واقفاً على قدميه ، فارتاحت بولينا لاستفاقته ولكنها ذكرت الفحام فاضطربت وقالت رباه ! إني أنا السبب في جميع ما أصابك .

فأخذ بوليت يدها بين يديه وقال وهو ينظر اليها نظرات الامتنان : كيف تقولين إنك انت السبب ؟

– نعم . اليس هو الفحام الأثيم الذي جرحك ؟

– هو بعينه فكيف تكونين السبب ؟

– إنه حاول قتلك لغيرته علي منك ، فإن هذا الشقي مغرم بي وقد رآني أحدثك

فأدرك بوليت جلية الأمر وعلم ان الفحام لم يحاول قتله لأنه كان يراقبه بل لأنه كان يهوى الفتاة .

وهنا نظرت بولينا الى ثيابه فذعرت وقالت : إن ثيابك مصبوغة بالدماء فهل تشعر بألم شديد ؟

– كلا .

ـ إذا كنت لا تستطيع المشي فتوكأ علي ، إن منزلي قريب من هنا وأمي ليست فيه .. هلم بنا .

فامتثل بوليت واستند على كتفها ، فمشى عدة خطوات دون أن يشعر بألم .

ثم ان برد هواء الليل أنعشه وزاد في قوته فتمكن من الوصول مع الفتاة الى بيتها القريب دون عناء شديد .

فلما وصلت به الى خارج بيتها ، رأت أن لا نور فيه . فعلمت أن والدتها لم تعد بعد ، وانها ستسهر في المرسح الذي تشتغل فيه فانها بوابة أحد المسارح .

ففتحت باب المنزل ودخلت ببوليت اليه وأجلسته على كرسي كي يستريح الى ان تنير المصباح .

ولما أنارت مصباحها نظرت الى بوليت ورأته أصفر الوجه غير انه لم يكن يظهر عليه أن جرحه بليغ .

وكان هذا المنزل الصغير مؤلفاً من غرفتين إحداهما للنوم والثانية للمطبخ فذهب بوليت إلى المطبخ فنزع لباسه وتفقد الجرح فاذا هو بسيط لا يدعو إلى الخوف .

وكانت بولينا قد أحضرت له خرقة وخلاً ، فضمد الجرح بيده موقتاً ، ثم عاد اليها فقال لها وهو يبتسم : لم ينلني من هذا الجرح غير خوفي السابق من عقباه ، وهو بحمد الله لا يدعو إلى الاكتراث غير انه يجب ان يعتقد الفحام انه قتلني .

وعندما ذكر الفحام ، خطرت له الارلندية ، التي عهد بحراستها الى والدته ، وتذكر الغلام المسجون في القبو ، فعادت اليه حميته ونسي ما هو فيه .

أما الفتاة فإنها قالت . يجب إبلاغ البوليس فيقبض عليه ويسجنه فتأمن

شره لأنه أخطأك اليوم ولكنه قد يعود الى ما فعلة في الغد حتى يصادف منك مقتلاً فانه وحش كاسر .

ثم نظرت اليه نظرات تشف عن غرام صادق طاهر وقد جال الدمع في عينيها إشفاقاً عليه من ذلك الفحام .

غير أن بوليت لم يكن يفتكر بها في ذلك الحين بل كان كل همه قاصراً على الارلندية وولدها .

وكان يقول في نفسه : إن شاباروت يعتقد أنه قتلني ، فهو سيقضي ليلته في الحانات وأماكن اللهو والخلاعة ، شأن القتلة السفاكين . واذا عاد الى بيته فلا يعود قبل الصبح ، ولذلك فسأجد متسعاً من الوقت لإنقاذ الغلام .

وعند ذلك أخذ يد الفتاة بين يديه فقال لها إنك حويت من طيب السريرة بقدر ما حويت من الجمال وقد رأيت فيك ما دلني على ثبات جأش وقوة جنان فهل أنت شجاعة القلب كما أرى ؟

فاحمر محيا الفتاة وقالت : عند الاقتضاء .

– إذاً تذهبين معي ؟

– إلى أين ؟ ألِى دائرة البوليس ؟

– كلا .

– إذاً إلى أين ؟

– إلى بيت شاباروت الفحام .

وظهرت علائم الذعر على محياها وقالت : أتذهب إلى بيت هذا الضاري ؟

– إطمئني إذ لا يمكن أن يكون في بيته .

ونظرت اليه نظرة ذهول وردت : ولكن ماذا تريد أن تصنع في ذلك البيت ؟

– أريد إنقاذ غلام قد يموت جوعاً إذا تأخرت عن إنقاذه .

فأشكل هذا القول على بولينا ، ونظرت إلى بوليت نظرات خوف ، كأنها خشيت أن يكون أصيب عقله بالخبل ، لفرط ما نزف منه من الدماء .

– ٤٣ –

أما بوليت فإنه أدرك معنى نظراتها ، فابتسم لها وقال : إطمئني ، أيتها الحبيبة ، فإني على أتم الهداية . وسأبرهن لك عن صدقي فيما أقول .

ثم قص عليها جميع ما حدث في النهار ، وكيف أنه أنقذ الارلندية من البئر وعلم مكان الغلام المسجون .

ثم أتم حديثه فقال لها : إذا كنت لا تزالين في ريب مما قلته ، فهلمي معي إلى بيتنا ، تجدي تلك الارلندية مع والدتي ، فقد عهدت اليها حراستها .

– لا حاجة الى ذلك إني أصدقك .

ثم بدرت منها حركة دلت على الاستياء فقالت: إذاً أنت لم تحضر إلى الزقاق إلا لمراقبة الفحام .

فأدرك سر استيائها وقال : بل ولكي أراك أيتها الحبيبة .

فردت بدلال : إنك غير صادق هذه المرة .

– بل إني صادق ، وإذا شئت ان تكوني إمرأتي كنت سعيداً معك ، ولا عبرة بما اشتهرت به من الكسل ، فاني أغدو بعد اقتراني بك من أهل الجد والإقدام .

فاحمر محياها قليلاً وقالت : سوف ترى في ذلك .

– إذاً فلنهتم الآن بهذا الغلام المنكود المسجون في القبو .

فردت بلهجة تدل على رعبها : ألا تزال مصراً على إنقاذه ؟

– دون شك أو يموت جوعاً .

– ولكن كيف ؟

– إننا ندخل الى بيت الفحام في البدء ثم ندخل إلى القبو .

فضمت يديها قائلة : رباه ! لا شك انه مجنون .

فابتسم قائلاً : ماذا رأيت من دلائل جنوني .

– دخولك إلى بيت الفحام العلك تريد ان يقتلك ؟

– إني لا أخشاه الآن إذ لا يمكن أن يعود الى بيته هذه الليلة وهو يحسب انه قتلني .

على أن بولينا لبثت تضطرب من خوفها على بوليت وتحسب دخوله الى بيت الفحام خطراً من أشد الأخطار التي لا يقدم عليها عاقل

فلما رأى منها هذا الخوف قال لها : ما زلت خائفة فلا حاجة لي بذهابك معي ، غير اني أحب ان أسألك عن شيء وهو هل تظنين أن الجيران قد عادوا الى البيت ؟

– لقد عادوا دون شك وهم نيام الآن لأن جميعهم من العمال .

– أليس للمنزل بواب ؟

– كلا .

– إذاً أن كل مستأجر له مفتاح للباب ؟

– بل أن لهذا الباب العام زلاجاً يفتح الباب مثل باب بيتنا .

إني كنت أعلم ذلك ، فإن بيتنا مثله أيضاً ، ولكني أردت أن استوثق .

وردت بولينا : ولكن هب انك دخلت الى البيت كما تقول فكيف تدخل

إلى الدكان ؟

- إن ذلك سهل فإني راقبت الفحام ورأيته حين يذهب الى العشاء يقفل دكانه فيضع مفتاحها تحت عتبة الباب .

- هذا أكيد وأنا رأيته يفعل ذلك عدة مرار .

- إذاً إطمئني علي فسأبلغ ما أريده من إنقاذ الغلام . والآن أودعك شاكراً لك حسن اعتنائك بي وسأزورك غداً اذا سمحت لأوفيك حقك من الشكر والامتنان .

ثم هم بالخروج من المنزل ، وهو لا يزال منحط القوى ، يتمايل في مشيه من ضعفه تمايل السكارى ، فأسرعت اليه بولينا وقالت له : إنك لا شك فقدت صوابك ، أتحسب اني أدعك تذهب وحدك ، وأنت على هذه الحال ؟

- ماذا تقصدين العلك تريدين الذهاب معي ؟

- وكيف يخطر لك أن أدعك تذهب وحدك ، وأنت على ما أنت فيه من الضعف ؟

- ولكني أراك خائفة من الفحام ؟

- هو ما تقول ولكن خوفي لم يكن علي بل عليك وفوق ذلك فاذا أصبت بمكروه لا قدر الله فاني أصاب به مثلك فهلم بنا .

فضمها بوليت الى صدره شاكراً وخرج بها

وكان ما نزف من دمائه قد أضعفه فكان يسير مترنحاً ترنح السكارى غير أن بولينا كانت تعينه على احتمال السير .

وكانت المسافة قريبة بين المنزلين . فلما وصل الى بيت الفحام ، نظر بوليت الى ما حواليه نظرة الفاحص ، فرأى الزقاق مقفراً ، والسكينة سائدة . فظهرت عليه علائم التردد وقال للفتاة : إن الذي سأعمله بسيط جداً لا يحتاج الى اثنين ، فدعيني أقضي هذه المهمة وحدي وانتظريني هنا

الى ان أعود .

فاعترضته الفتاة قائلة : كلا بل أدخل معك .

ــ ألا تزالين مصرة ؟

ــ كل الاصرار إذ يجب ان أشاركك في البؤس والنعيم وأقتسم كل خطر . ألم تقل لي انك تريد ان أكون امرأة لك ؟

فعانقها بوليت ثانية عناق شكر وحنان وقال : إذاً هلم بنا .

ودنا بوليت من الباب فمد يده من ثقبه وفتحه ، فخفق قلب بولينا ولكنها دخلت بجرأة من ذلك الباب لأنها كانت تحب بوليت وهي معــه والحب يولد الشجاعة في قلوب النساء .

وكان بوليت يعلم أين يضع الفحام مفتاح دكانه .

وبحث عن المفتاح ووجدهفي مكانه ففتح به الدكان ودخل مع خطيبتهوسط الظلام الدامس .

غير ان كل فتيان باريس يحملون كبريتاً شمعياً في جيوبهم ، فأخذ بوليت علبته وأضاء عوداً منها وبحث مستعيناً بنوره الضئيل فوجد شمعداناً موضوعاً على كيس الفحم فأنار الشمعة

وفي ذلك الوقت وصل شاباروت عائداً الى منزله ، فرأى النور وأيقن أن رجال البوليس أقبلوا ليبحثوا عنه ، فأركن الى الفرار لا يلوي على شيء لخوفه كما تقدم .

أما بوليت فانه دخل مع الفتاة من الدكان الى فنــاء البيت ، فقالت له بولينا : إن نوافذ الجيران تشرف على هــذه الدار ، ألا تخشى أن يرونا منها ؟

ـ ألم تقولي انهم نيام ؟

ــ اني كنت أود ان نسير من غير نور ولكني لا أعرف داخلية المنزل ، وأخشى أن نسقط في البئر .

ثم سار الاثنان حتى وصلا الى البئر فأراها بوليت الباب الذي سقطت فيه الارلندية .

وعند ذلك نزلا الى القبو الأرضي المسجون فيه الغلام ، وكان بوليت قد رأى الفحام أين خبأ مفتاحه وعلم موضعه ، فأخذ المفتاح وفتح به باب القبو .

وكان الغلام يئن في محبسه ويذرف الدمع السخين إذ لا يستطيع الاستغاثة فلما رأى باب سجنه قد فتح ذعر ذعراً شديداً وحاول ان يقطع رباطه فلم تستطع يداه الصغيرتان .

غير ان بولينا أسرعت اليه وحملته بين ذراعيها ، وهي تتوجع لمصابه اشفاقاً عليه .

فارتاح الغلام لصوتها الحنون وظواهر اشفاقها وكف عن الأنين وعلم أن الله أرسل من ينقذه من قبضة ذلك الأثيم .

وفك بوليت قيوده وبعد ربع ساعة كان رالف بين ذراعي أمه تلاعبه وتقبله وهي توشك أن لا تراه .

أما بوليت فان التعب وما نزف من دمائه أنهك قواه فأغمض عينيه وسقط ثانية على الأرض مغمياً عليه .

- ٤٤ -

ولنعد الآن الى شاباروت ، فانه بعد ان رأى النور في منزله خاف خوفاً شديداً وفر هائماً على وجهه في أنحاء باريس ، وهو لا يعلم أين يستقر من القلق .

وبقي هائماً تائهاً كل ليلة الى ان كاد يشرق الفجر ، ووجد نفسه في شارع

ليون وهو يمشي بخطوات متوازنة لاضطرابه ، وقد زاده الخوف شراسة . فكان اتقاد عينيه وانقلاب سحنته وتقطيب حاجبيه تدل على ما فطر عليه من الغلظة والهمجية .

وكان يعتقد كل الاعتقاد ان البوليس عرف بأمره ، وأتى ليبحث عنه في منزله .

ورأى ان مناخ باريس لم يعد يوافقه وعول على الفرار الى ليون بالقطار الذي يسافر في الساعة الخامسة ونصف .

وقد قال في نفسه : اني أركب هذا القطار المسافر الى ملهوس فأكون الليلة في سويسرا حيث أكون في مأمن من البوليس .

وقد تقدم لنا القول ان السير جمس كان قد أعطاه الف فرنك وكان المال لا يزال في جيبه فأدخل يده اليها متفقداً ذلك المال وهو يقول في نفسه : اني أسافر بهذا المال الى آخر الأرض .

فذهب الى المحطة بغية شراء تذكرة السفر فلما وصل اليها وجد بعض المسافرين واقفين عند شباك التذاكر .

ولكنه قبل ان يبلغ هذا الشباك رأى رجلين من البوليس واقفين يراقبان كل مسافر وينظرون الى وجهه ويسألانه بعض الأسئلة .

فلم يعد لديه مجال للريب بان ادارة البوليس خشيت ان يفر من باريس فأرسلت من يقبض عليه في المحطة .

وعند ذلك رجع من حيث أتى ، وقد زادت هواجسه واشتد اضطرابه فعاد الى شارع ليون ، وهناك سجن يدعونه سجن مازاس ، فنظر اليه نظرة ذعر ووضع رأسه بين يديه كأنه يحاول ان يستوثق انه لا يزال رأسه فوق كتفيه .

وقد تمكن منه اليأس فلم ير شافياً من هذا الداء الأليم غير الخمر فدخل الى أول خمارة رآها مفتوحة .

وكان في الخمارة فريق من عمال السكة الحديدية جالسين حول منضدة يتحدثون

فجلس الفحام حول طاولة قربهم وطلب كأساً من الأبسنت فشربه جرعة واحدة وطلب سواه وجعل يصغي الى حديث العمال فذعر ذعراً شديداً لأول كلمة سمعها حتى كاد الكأس يسقط من يده

ذلك أنه سمع صاحب الخمارة يقول للجماعة : ولكنهم . لم يقبضوا عليه .

فأجابه أحدهم : ولكن لا بد من القبض عليه .

وقال آخر : القبض عليه غير مضمون فقد يتمكن من الفرار

فرد صاحب الخمارة وهو يبتسم : هيهات ان يجد مناصاً ، فقد تغير العهد القديم وبات البوليس السري منتشراً في جميع الأنحاء فهم يعثرون بالسارق والقاتل كما يعثر كلب الصيد بالطريدة .

فسأله الجماعة : ألعل الفتى الجريح قد مات ؟

— كلا ، ولكن حالته تنذر بالخطر .

فتأسف الجماعة عليه وقالوا : مسكين انه لا يزال في مقتبل الشباب .

وكان شاباروت يصغي إلى الحديث والعرق البارد ينصب من جبينه ولم يكن لديه شك انهم يعنونه بحديثهم دون أن يعرفوه ومع ذلك فانه لم يسرع بالخروج من تلك الخمارة حذراً من تنبيه الأنظار اليه .

وعاد إلى الشرب والاصغاء فكان الحاضرون يتحدثون ولا يخرجون في حديثهم عن موضع هذه الجناية غير انهم لم يذكروا امامه اسم القاتل واسم القتيل وغاية ما علمه ان القتيل فتى في مقتبل الشباب ومن عسى يكون هذا الفتى غير بوليت ؟

وما زال شاباروت في هذا العذاب الأليم إلى أن سمع أحد عمال السكة الحديدية يقول : ولكن هذا القاتل لا يستطيع الفرار بقطارنا دون شك .

فقال احدهم : ألعلهم يعرفوه بالمحطة ؟

-- إذا كانوا لا يعرفوه فأنا أعرفه .

فتنهد شاباروت تنهد الراحة والفرج ، وقال في نفسه : ان هذا الرجل قـد رآني حين دخلت ، وأنا الان جالس بقربه ، فلا شك انهم لا يعنونني بهذا الحديث

ثم عاد إلى الإصغاء ، فسمع صاحب الخمارة يقول : انه قد أقام عندي مدة طويلة ، فلم يخطر لي في بال انه من أهل الشر ، وانه يطعن مثل هذه الطعنة النجلاء .

فزاد ارتياح الفحام وقال في نفسه : هذه اول مرة دخلت فيهـا إلى هذه الخمارة وقد أحدث له هذه الارتياح جرأة فينفسه فاشترك معهم ونادى صاحب الخمارة وقال له : بأية جريمة يتحدثون ؟

ان أحد العمال قتل زميلا له في هذه الليلة طمعاً بسلب مائة فرنك كان المسكين قد اقتصدها .

– ألعله هرب ؟

– ربما ولكنهم يعتقدون انه لا يزال في الشارع وذلك ممكن فانه قد يرجو أن يفر بالسكة الحديدية لأنه من عمالها .

فأيقن عند ذلك شاباروت ، أن البوليسين اللذين كانا يفحصان الوجوه في المحطة يكونا هناك للقبض عليه ، بل للقبض على ذلك القاتل ، فلم يعد يخاف السفر .

وعند ذلك خرج من الخمارة وسار توا الى المحطة ولكنه لم يكد يبلغ اليها حتى سمع صفير القطار فعلم انه وصل بعد فوات الأوان .

وكان أحد عمال المحطة قد رآه فقال له : لا بأس عليك إذ يوجد قطار أيضاً يسافر بعد ثلاث ساعات .

غير أن شاباروت أبى الانتظار فخرج من المحطة وهو يقول في نفسه : من

يعلم فقد أكون مبالغاً في خوفي وقد لا يكون الأمر على ما توقعته ولا بد لي من البحث والاستقصاء كي أعلم ماذا حدث .

ثم رجع فجعل يجتاز من شارع الى شارع حتى قرب من الشارع الذي يقيم فيه فتغلبت الحكمة على الخوف وقال في نفسه : لا بد لي من التجسس فاعلم إذا كانوا عثروا بجثة بوليت وإن كانوا يتحدثون بي فقد يمكن ان يكون النور الذي رأيته في منزلي نور اللصوص لا نور رجال الشرطه .

ولما خطر له هذا الخاطر لم يجد أقرب الى تنفيذه من الحانات فجعل يدخل من حانة ويخرج منها الى حانة فيشرب في كل خمارة كأساً ويسمع من يتحدثون به فكان جميع الناس يتحدثون بأعمالهم الخاصة ولم يسمع حديثاً يدل على اكتشاف جريمته .

وما زال على ذلك الى أن ولج خمـارة كان صاحبها يعرفه فاستقبله خير استقبال ولم يظهر عليه شيء من دلائل الاتهام .

وكانت هذه الخمـارة قريبة من منزله ، وهي كثيرة الزبائن ، وأيقن الفحام أن جريمته لم تعرف ، لأنها لو أشتهرت لما خفيت على صاحب تلك الخمارة ، ثم ان السكر زاده جرأة فأقام مدة طويلة في تلك الخمارة وهو يصغي إلى حديث كل داخل اليها ، ولم يسمع أحـداً ذكره بلسان ، ولذلك خرج منها مطمئناً وذهب سائراً في طريق منزله على نية التجسس في الطريق مبالغة في الاستيثاق .

وقبل ان يبلغ إلى منزله مر بدكان الحلاق الذي كان يحلق عنـده وكان فيها كثير من الناس وكلهم يعرفونه ، وقد رأوه جميعهم ، فلم يظهروا له شيئاً فاطمأن خاطره وزادت جرأته ودخل إلى الدكان فحلق لحيته وهو يحدثـه بكثير من الأمور فان ثرثرة الحلاقين واحدة في جميع البلاد .

ولكنه على كثرة كلامه لم يذكر له شيئاً من جريمـة الأمس ، فخرج من عنده مرتاح البال وهو يقول في نفسه : إذا كان الحلاق لم يتحدث بهـذه

الجريمة فهي لا تزال خفية دون شك ، ولا خوف علي من الذهاب إلى منزلي بعد هذا .

- ٤٥ -

قد تبدل خوف شاباروت بجرأة عظيمة فدخل إلى الزقاق وجعل ينظر في الأرض عله يقف على أثر من دماء بوليت في الموضع الذي طعنه فيه .

ولكن السماء قد أمطرت مطراً غزيراً في تلك الليلة ، فجرف السيل الدماء ومحى أثرها

وذهب عندئذ مطمئناً إلى منزله وقبل أن يصل اليه لقيه صاحب خمارة في الزقاق وقال له : هات لي كيساً من الفحم

ودنا منه الفحام وحياه فقال صاحب الخمارة : يظهر انك لم تبت في منزلك هذه الليلة .

واضطرب الفحام وسأله : كيف عرفت هذا ؟

– إني طرقت بابك في هذا الصباح لحاجتي إلى الفحم فلم أجدك

– نعم ، إني لقيت أمس صديقاً من مواطني وهو قادم حديثاً إلى العاصمة فسرت معه تلك الليلة باللهو . ثم تركه بعد أن اطمأن من حديثه وقال : سأحضر لك ما طلبته من الفحم .

وذهب إلى دكانه فمر بدكان الغاسلات التي تجاورها ونظر اليهن حسب عادته فرآهن يشتغلن ورأى بينهن بولينا .

فخفق قلبه حين رآها وذهب إلى منزله فوجد الباب مقفلاً كما تركه وافتقد مفتاح القبو فوجده في موضعه ففتح الدكان ودخل فبحث فيها ولم يجد أثراً يدل على البحث والتنقيب إذ رأى كل شيء لا يزال في مكانه ، فقال في نفسه :

إذاً ليس رجال الشرطة الذين جاءوا إلى منزلي ليلة أمس .

وكان شاباروت لا يبقي في دكانه غير القليل من المال فإذا بلغ مـا يجمعه مائة فرنك أرسلها إلى بنك الاقتصاد ، وقد ذكر أنه ترك في الليلة الماضية ما يقرب من هذه القيمة في درج كان مفتاحه معه ، فافتقد المـــال فوجد انه لا يزال في مكانه ، وتمتم إذاً من عسى أن يكون قد دخل إلى مـنزلي إذ لم يكن فيه أثر للشرطة أو اللصوص .

ثم أخذ يبحث ، وخرج من دكانه إلى الفناء ، ومن الفناء إلى الرف الذي كان يضع فوقه مفتاح القبو الذي سجن فيه الغـلام حيث تركه وأسرع إلى ذلك القبو ووقف منذعراً مبهوتاً ، إذ رأى بابه مفتوحـــاً ، ولم ير فيه أثراً للغلام .

وعندها أدرك في اعتقاده سر الأمر إذ أيقن ان السير جمس قد جاء في طلب الغلام ، وأنه هو الذي كان في منزله في الليل وحسبه من رجال الشرطة وأركن للفرار ، ثم وقف يعض على أسنانه من الغيظ ويقول : ان هذا الشقي قد سرق الغلام كي لا يدفع لي بقية ما اتفقنا عليه ، لأنه لم يدفع لي غير الف فرنك اي نصف قيمة الاتفاق .

ولم يعد يخطر له في بال ان اللصوص أو الشرطة دخلوا إلى منزله بعد أن استوثق في اعتقاده ان الانكليزي هو الذي أتى لسرقة الغـلام ، وأسف أسفاً شديداً على ما خسره من المال ، ولكن هذا الأسف لم يشغله عن الافتكار ببوليت إذ لم يكن يعلم ما جرى له وهل بات قتيلا أم هو لا يزال في قيـد الحيـاة

وكان يضرب أخماساً وأسداس ويقول : إذا كان قد قتل فكيف اتفق انه لم يعلم بأمره أهل الزقاق وهو منهم . لا شك انه لم يقتل بـل هو جريح وحمل نفسه ولجأ الى بعض الأماكن ، لكن إذا صح هذا الافتراض فكيف لم يعرض شكواه ولماذا البوليس لا يهتم بالقبض علي .

وقد طاش رأسه وأمعن في التفكير ولم يهتد الى حل هذه الألغاز .

ثم ذكر ما قاله بوليت حين ضغط على عنقه وكاد يخنقه وهو تهديده بالشنق لقتله امرأته ورمي الارلندية في البئر ، وكيف تسنى له أن يعرف هذا السر؟

وكانت جميع هذه المشاكل تعرض له تباعاً فلا يستطيع حل واحدة منها ويضيع صوابه بينها فكان تارة تتمثل له رجـــال الشرطة وتتجسم في نفسه المخاوف ويحاول الفرار وتارة يطمئن ويؤثر البقاء في المنزل .

وطـــال تردده ، حتى انه بقي كل النهار في الدكان ، ولم ير أحداً قد اهتم به .

وقد أرسل الفحم في المساء إلى زبائنه كالمعتاد ، وكان يمر في ذهابه وإيابــه بدكان الغاسلات فينظر نظرات حنو إلى بولينا ، لكن الفتاة كانت منصرفــة الى عملها فلم تكترث له ولم تنظر اليه .

مضى النهار وذهب في الليل الى الخمارة التي تعود أن يتعشى فيها وتعشى ولم يسمع أحداً ذكر أمامه بوليت وعاد الى المنزل آمناً مطمئناً ، ولم يشغله غير الأسف على الألف فرنك التي كان يرجو ان يقبضها من السير جمس .

ثم نام نوماً هادئاً ولكن لم يطل نومه حتى سمع قرعاً شديداً على باب المنزل فصحا مرعوباً وقال : إنهم الجنود دون شك ولم يبق سبيل للفرار .

ولم يسعه إلا القيام فنهض من الفراش خائفاً متثاقلاً وقال بصوت مختنق : من الطارق ؟

فأجاب صوت من الخارج قائلاً : أنا .

— من أنت ؟

- أنا جواني الجزار .

فتنهد الفحام تنهد الارتياح إذ كان يعرف هذا الجزار ، إذ كان يجتمع بــه في الخمارة التي يتعشى فيها .

أما جواني هذا فهو الذي كان يلقب بالجلاد حين كان في سجن طولون

وانقذه روكامبول وجعله من رجال عصابته .

ولما فتح الفحام بادره جواني بقوله : اني قادم للبحث عن الغلام وأمه .

وحاول الفحام الانكار وقال : أي أم وأي غلام ؟

- الارلندية وابنها الذين جيء بهما إلى منزلك أيها الصديق العزيز .

- ٤٦ -

ولم يكن جواني قد جاء وحده فقد صحبه مرميس ودخل الاثنان مسرعين حين فتح الفحام الباب .

أما الفحام فقد اصفر وجهه اصفراراً شديداً حين سمع جواني يطالبه بالارلندية والفتى ولكنه أصر على الانكار وقال لسائله : اني لا أعلم ماذا تعني إذ لم أر ارلندية ولا ارلندياً .

وضحك مرميس وقال : لكنك سوف ترى انك رأيتها .

ثم أخرج مسدساً من جيبه وقال : اني أستطيع حملك على الاقرار بهذا المسدس ، لكن لدي طريقة أفضل منها فانظر .

ثم جلس أمام طاولة يأكل عليها شاباروت طعام الصباح فوضع عليها المسدس وفك أزرار جيبه وأخرج منها محفظة ونثر منها كثيراً من الأوراق المالية على الطاولة .

وكانت مدية الفحام لا تزال في جيبه ، لكنه علم أن المدية لا توازي المسدس ، ثم انه كان كثير الحب للمال ، فلما رأى تلك الأوراق تتناثر من المحفظة اتقدت عيناه ببارق الطمع ، ولم يعد يخطر له غير أمر واحد وهو ان الانكليزي سرق الفتى ولم يدفع له الألف فرنك ، وجال في فكره أن يعوض المال بالمال الموجود .

وكأنما تلميذ روكامبول قد أدرك ما في نفسه فقال : إذا كنت تحب المال وتريده وجب عليك أن تتكلم وهذه الف فرنك أدفعها لك مقدماً .

فمد الفحام يده وأخذ الورقة المالية بلهف فقال مرميس : يظهر انك تريد الاقرار بدليل أخذك المال فقل لنا ماذا صنعت بالفتى .

واجاب الفحام وقد اضطربت يده بالورقة المالية : أما وقد علمت شيئاً من هذه الحكاية ، فلا بد لي ان أخبرك بحقيقتها بعدما ظهر لي من كرمك لاسيما وان هذا الانكليزي قد خدعني لأنه وعدني بألفي فرنك

— ألم يدفع لك المال ؟

— انه دفع لي النصف ووعدني أن يدفع النصف الآخر حين يعود لأخذ الغلام .

فقال مرميس : وماذا حدث بعد ذلك ؟

— حدث انه عاد في الليلة الماضية فاغتنم فرصة غيابي من المنزل ودخل دخول السارقين وأخذ الصبي ولم يدفع لي ما وعدني من المال

وكان الفحام يتكلم ببساطة تشف عن الصدق الأكيد فقال مرميس في نفسه : لا شك انه صادق في قوله أو هو يعتقد انه صادق . ثم قال للفحام : في أية ساعة تحسب أن الانكليزي جاء الى منزلك ؟

— بين الساعة العاشرة والحادية عشرة من مساء أمس.

فأجاب مرميس ببرود : ان هذا مستحيل . لانه كان يعلم ما فعله السير جس في الليلة الماضية .

فاضطرب شاباروت لهذا التكذيب وقال : إذاً من يحضر الى منزلي ويأخذ الفتى ؟

— لا أعلم ، لكني واثق انه غير الانكليزي فقل لي الآن ما فعلت بالأم.

فارتعش الفحام ولم يجب

أما مرميس فقد رأى انه يخاف الاقرار فقال بلهجة السيادة : قل الحقيقة

أزدك ألفاً أخرى .

ونظر الفحام اليه بعينين تتقدان ، وتنازعه في ذلك الحين عاملان عامل الرهبة وعامل الطمع فقد قال في نفسه عن مرميس: ان هذا الرجل قد يكون بوليساً متنكراً يحاول خديعتي ولكنه قال ايضاً : لا شك ان شأن هذا الصبي خطير فانهم يتنازعون عليه ويدفعون الألوف من اجله وهي فرصة اغتنمها ولا اظفر بمثلها في كل حين .

وقد تغلب الطمع فيه على الحكمة وأمحى رسم المشنقة الذي كان قد تمثل لعينيه ، وحل المال عقدة لسانه فقال : ان الأم قد قتلتها .

فظهرت على جواني علائم الذعر ، وأما مرميس فقد كان تعلم من استاذه روكامبول الصبر والتأني في هذه المواقف فقال كيف قتلت هذه المرأة ؟

ثم أخذ ورقة أخرى بألف فرنك ودفعها اليه فأخذها الفحام وقال : اني أغرقتها .

— أين أغرقتها أفي الترعة ؟

— كلا بل في البئر .

— وأين هي هذه البئر ؟

— تعال معي ادلك عليها .

— إذاً سر أمامي واحذر ان تحاول الفرار فإني اقتلك دون اشفاق .

فوضع الفحام الورقة في جيبه دون ان يعترضه مرميس وقص عليه بايجاز كل ما حدث بالقبو وكيف ان سقف البئر خسف تحت قدمي الارلندية فهوت الى المياه .

فقال مرميس : إذاً هلم بنا نرى المكان الذي سقطت منه .

فأضاء الفحام شمعة ، وفتح باب الدكان المؤدي الى الفسحة وخرج فتبعه مرميس وهو يقول : لا تنس اني اتبعك والمسدس مشهر بيدي .

وسار الفحام دون ان يجيب حتى وصلوا الى القبو وهناك اعتراه اضطراب

غريب لدنوه من محل الجريمة واصابه من الوجل نفس ما أصابه حين طعن بوليت ولم يجسر على النظر اليه فقد كان هذا الرجل من كبار الائمة السفاكين ولكنه إذا قتل لا يطيق النظر الى فريسته وهذا شأن كثير من المجرمين .

ولما وصل الى سقف البئر وقف وقد اصفر وجهه واضطربت رجلاه وقال لمرميس : انظر انت إذا شئت أما انا فإنني لا اطيق النظر .

ثم جعل يرتعش كمن أصاب جسمه برد وادار وجهه كي لا ينظر .

اما مرميس فانه اخذ الشمعة وأشار الى جواني أن يفتح باب البئر ففتحه وعندها قال لهما شاباروت : لا بد ان تكون الجثة عائمة طافية على سطح المياه فانها غريقة منذ أمس .

وكان يقول هذا القول بصوت مختنق فما شكك مرميس بصدقه ونظر في تلك المياه فقال : اني لا ارى جثة طافية كما تقول بل اني ارى سلماً .

فذهل الفحام وقال : اترى سلماً كما تقول ؟

ــ نعم ..

ــ وجثة المرأة ؟

ــ لا ارى الجثة .

وتشجع الفحام قليلاً ودنا من البئر فانحنى فوقها متباطئاً متثاقلاً ثم زادت جرأته ونظر الى المياه على نور الشمعة وحدق في جوانب البئر فلم ير الارلندية بل رأى سلماً طافية على وجه المياه كما قال مرميس .

وهناك انذهل انذهالاً عجيباً وسأل : ان هذا عجيب فكيف وجد السلم في البئر ومن عساه يكون نزل اليها ؟

ــ اتظن انهم نزلوا الى البئر ؟

ــ دون شك .

وكان يوجد في القبو معقل طويل فـألقى الفحام طرفه الى السلم وجذبه

اليه فأخرجه من المياه .

ثم أخذ يفحص خشبه على نور الشمعة فقال : إن الخشب لم يبل وهو ما يدل على ان السلم لم يلق في هذه المياه من عهد بعيد .

وفيما هو يفحصه نظر حرفاً مكتوباً عليه فقال : ان هذا السلم سلم الدكان المجاورة التي تشرف ايضاً على هذه البئر ، وهذا الحرف المكتوب هو الحرف الأول من اسم صاحبها ، ولكن هذه الدكان غير مأجورة فمن ذا الذي نزل إلى البئر من تلك الدكان وأنقذ المرأة إذ لا شك عندي الآن ان المرأة قد نجت من الموت .

وأخرج مرميس ورقة مالية ايضاً وقال له : إني أزيدك الف فرنك اذا تكلمت بايضاح .

وزال عند ذلك اضطراب شاباروت وقد فرح فرحين أحدهما بالمال والآخر بنجاة المرأة ونجاته من التبعة فعادت اليه سكينته وأخذ يحدث مرميس بجميع ما اتفق له .

كان شاباروت مفطوراً على الشر ، كأنما خلق له ، وقد زاده تعلقاً به شغفه الشديد بالمال ، وبخله العجيب حتى أنه لم يكن يحجم عن جمعه ولو أنذر بالقتل .

على أنه مع ذلك لم يكن يخلو من الذكاء والحكمة فلما رأى السلم طافياً على المياه ، ورأى مكتوباً عليه الحرف الأول من اسم صاحب الدكان تنبه وجعل يفتكر متمعناً .

وكان مرميس وجواني ينظران اليه وينظران بصبر نتيجة تفكيره وتمعنه إلى أن انتهى الفحام من تفكيره الطويل فقال لهما : اصغيا الي .

ثم نظر اليهما نظرة الشريك للشريك بأمر نال جزاؤه مقدماً عليه وقال : إننا حين جئنا مع الانكليزي والارلندية وابنها كان الانكليزي يسير بالفتى في طليعتنا وهو يجتنب المرور فوق سطح البئر .

وكنت أسير وراءهما والمرأة تسير في أثري فوق سقف البئر حيث سقطت فيها وصاحت صيحة واحدة .

فقال مرميس : وبعد ذلك ؟

— لم يصدر منها بعد ذلك صوت ، فحسبت وحسب الانكليزي انها قضت نحبها غرقاً ، وأما الفتى فكان يصيح صياحاً شديداً فحملناه إلى القبو وسجناه فيه .

— أذهبتم به دون ان تستوثقوا من موت أمه ؟

— نعم ..

— وبعد ذلك عدت وذهب الانكليزي فأحضر الطعام للفتى وأردت أن

أتفقد المرأة في البئر فما جسرت .

فقال له مرميس : لا فائدة من هذه الأقوال ، لأني لم أستدل منهـــا على شيء .

– لقد عولت على أن لا أكتمك أمراً بعدما رأيته من كرمك ، فاني أحب فتاة غسالة في هذا الزقاق ، وقد رأيت فتى يحادثها وتحادثه بدلال ، فكبر الأمر علي وصبرت حتى افترقا فتعقبت الفتى وأشبعته ضرباً ولكماً ثم طعنته بمديتي .

فقال جواني : أية فائدة من هذه الأخبار ؟

فلم يجبه الفحام ومضى في حديثه فقال : لقد ذكرت حين كنت رابضاً فوق صدره انه كان يدعوني قاتلاً سفاكاً فحسبت في البدء انه يشير بذلك إلى امرأتي ، فإن بعض الناس يتهمونني بقتلها غير اني اخطأت لأنه كان يشير الى الارلندية إذ قال اني رميتها في البئر .

فتنبه مرميس وقال : أهو قال هذا القول ؟

– نعم ، وهو قول أضاع رشادي فأغمدت مـديتي في بطنه وأركنت إلى الفرار .

– وماذا فعلت بعد ذلك ؟

– فعلت ما يفعله المجرمون في هذه الحوادث فتنقلت من خمارة الى خمارة ثم عدت الى منزلي متجسساً فرأيت فيه نوراً وحسبت ان رجـــال الشرطة يكبسون منزلي وعدت الى الفرار .

وهناك عدت الى الحانات وقد خطر لي ان اهرب من باريس ولكن خطر لي اني مخطىء في مخاوفي ، فان الانكليزي هو الذي كان في منزلي ، فعدت ولما لم أر فيه الفتى أيقنت ان الانكليزي قد سرقه كي لا يدفع لي بقية ما اتفقنا عليه من المال .

وكان جواني قد فرغ صبره لهذه الحكاية وحاول ان يقاطعه مراراً فكان مرميس يمنعه الى ان فرغ الفحام من قص حكايته كما عرفها القراء فقال لهما : أما الآن وقد رأيت هذا السلم فقد وثقت اني كنت مخطئاً فليس الانكليزي الذي سرق الفتى .

– إذاً من هو ؟

– إن هذه البئر مشتركة بيني وبين جيراني يشرف عليها من الدكان كما يشرف عليها من المنزل والذي أراه ان المرأة حين سقطت في البئر اغمي عليها في البدء ثم إستفاقت بعد خروجي من المنزل فاستغاثت وسمعوا صياحها من الدكان فأنقذوها .

– ولكنك تقول ان الدكان غير مأجور .

– لا بأس فقد يتفق ان يكون فيها أحد من الجيران في تلك الساعة فأنقذ الارلندية بهذا السلم .

فقال مرميس : قد يمكن أن يكون الجيران انقذوا الارلندية كما تقول ، لكن من انقذ ولدها ؟

– ان الذي أنقذ الأم دون شك فانه دخل الى منزلي من البئر بواسطة السلم وبحث عن الفتى ووجده ، ولا اظن منقذه غير الفتى الذي طعنته بمديتي بما انه كان يعلم اني القيت الارلندية في البئر .

– ولكنك تقول انك قتلته .

– لقد كنت مخطئاً في توهمي إذ لو كان قتيلاً لظفروا بجثته ولما خفي امره على اهل الحي ، ولكني أظن ان مديتي لم تصب منه مقتلاً وانه تظاهر بالموت كي لا أجهز عليه .

وبينما كان شاباروت يقول هذا القول سمعوا ضجيجاً من الخارج تلاه طرق الباب وسمعوا صوت الطارق يقول : افتحوا باسم الشرع .

وصاح شاباروت صيحة منكرة وجمد الدم في عروقه من الرعب .

يذكر القراء ان بوليت أغمي عليه في منزل امه بعـــد ان رد رالف الى الارلندية ، ولما رأت امه ما كان من إغمائه خافت خوفـــاً شديداً وجعلت تصيح .

وأسرعت بولينا اليها فقالت لها : لا تخافي يا سيدتي فإن جرحه بسيط لا خوف عليه .

ــ أهو جريح ومن جرحه .. ربأه ما هذا المصاب .. قولي من جرحه !

ــ جرحه الفحام يا سيدتي .

ولم تكن الارلندية تفهم اللغة الفرنسية غير انها فهمت حكاية بولينـا من اشارتها لأنها كانت افصح من الكلام .

وأسرعت الى منقذها مع امه فنزعتا ثيابه وجعلتا تنشقانه الخل فما طال الأمر حتى فتح عينيه .

وعندها ابتسم لأمه تطميناً لها وقال : يسر المرء ان يصنع ما يجب عليه للانسانية ولو مرة في العمر .

ثم جعل يجيل نظره بينها وعيناه مغرورقتان بالدمع وبين الآرلندية وهي تضم ولدها الى صدرها الى ان استقر نظره على تلك الفتاة ، ونظر اليهـا نظرة تشف عن امتنانه لها .

ثم أخذ يدها فوضعها في يد امه فقال لها : احبي هذه الفتاة يا اماه لأنهـا هي التي انقذتني من الموت .

فضمتها امه الى صدرها فقالت لها . اني لا اعلم يا ابنتي من أنت ، لكني ارى انه يحبك ، وإذا كان يريد الزواج بك ، فلست انا التي تعترض على

هذا الزواج .

فاحمر وجه الفتاة وظهرت علائم السرور على محيا بوليت ، وبعد هنيهة قال لأمه ، والآن يا أماه ، إن الأمر خطير ويجب أن تعملي بما أوصيتك به من قبل .

– إطمئن فقد وعدتك بالكتمان ولا أحنث بوعدي ، أتريد أن أقسم لك بتربة أبيك ؟

– لا حاجة إلى ذلك يا أماه فقد وثقت بوعدك ، والآن إصغيا إلي ، إن شاباروت قد يكون معتقداً أنه قتلني فلا يعود إلى منزله هذه الليلة ، وكذلك لا يجب أن نبلغ البوليس خبر جنايته الآن بل ننتظر حتى يعود إلى منزله .

ووافقت بولينا على هذا الرأي واتفقت مع بوليت على أن تذهب صباح غد إلى عملها حسب العادة وأن لا تخبر رفيقاتها بحرف عما جرى .

ثم ودعته وذهبت إلى منزلها .

وفي الساعة السابعة من صباح اليوم التالي نهض بوليت من فراشه معافى نشيطاً . فجاءته بولينا وأخبرته أنها ذهبت لارسال بعض الثياب المغسولة إلى أصحابها ، فاغتنمت هذه الفرصة لزيارته وأخباره ان شاباروت قد عاد الى منزله .

– إذاً سينام هذه الليلة في السجن .

فلما دنت الساعة السادسة ، وهو الموعد الذي يذهب فيه الفحام الى الخمارة للعشاء ، ذهب بوليت الى القوميسير رفيقه ، وأخبره بجميع ما حدث .

فلم يشك القوميسير بكلامه وأبلغ الأوامر اللازمة . فأخذوا يراقبون الفحام وقد تبعوه منذ خرج من منزله الى الخمارة ، وإنما لم يقبضوا عليه في ذلك الحين ، بناء على طلب بوليت . إذ أراد ان يقبض عليه في الليل

لأنه كان عازماً على الاقتران تلك الليلة ببولينا ، فما أحب افتضاح هـذا الأمر في النهار .

فبينا كان شاباروت يحدث مرميس بما جرى سمع قرع الباب كما تقدم وسمع الطارق يقول : إفتحوا باسم الشرع !

فهلع قلبه من الخوف ونظر الى مرميس نظر المتوسل .

أما مرميس فـإنه غير خطته فجأة ، وقـال للفحام بجفاء . إنـك تسمعهم يقرعون البـاب باسم الشرع ، فلمـاذا لا تفتح ؟ أتريـد أن يكسروا الباب ؟

فرد الفحام بصوت يتلجلج : ولكنهم قادمون للقبض علي .

ــ هذا ممكن .

ــ ألا تستطيع أنت إنقاذي ؟

فجعل مرميس يضحك ثم قال له : لسنا نحن الذين أبلغنا البوليس ، فقد تعودنا أن لا نعتمد في قضاء أغراضنا إلا على أنفسنا ، ولكننا لا نتداخل في شؤونه .

ثم قرع الباب ثانية ولم يجسر الفحام على فتحه فذهب جواني وفتحه .

فدخل القومسير يتبعه جنديان ثم دخل في أثرهم بوليت فكان ضربة قاضية على الفحام .

أما القومسير فانه ذهب تواً الى الفحـام وقال له . إني أقبض عليـك باسم الشرع .

فأسرع الجنديان بأمر البوليس وفتشا جيوبه وأخرجا منها المدية التي كانت معه وقبضا عليه .

وعند ذلك التفت القومسير الى مرميس وجواني وسألهما عن اسميهما .

فقـال له جواني : إني أدعى جواني ، وأنا جزار في باسي في شارع التلغراف .

فنظر إلى مرميس وقال له بأدب · وأنت يا سيدي ؟

فقال مرميس : إني أدعى بايتسافن ، وأنا من المتمولين ومنزلي في شارع أوبرت نمرة ١ .

ثم أخرج رقعة زيارة ودفعها اليه .

فعجب القومسير إذ كان يعلم ان هذا الشارع لايقيم فيه إلا الأشراف وقال: كيف اتفق وجودك هنا يا سيدي ؟

– لم يكن اتفاقاً بل قد أتيت خصيصاً لسؤال هذا الرجل عن امرأة حاول أن يقتلها وعن غلام كان يسجنه .

وعندها تقدم بوليت وقال : إطمئن يا سيدي إن المرأة والغلام بخير وأنا أزودك من أخبارهما ما تريد .

فنظر مرميس الى هذا فرأى الذكاء يتوقد بين عينيه .

– ٤٩ –

وحدث سكوت قصير فان الفرنسي بطبعه سريع الفهم .

وكان مرميس يشبه بوليت في أنه نشأ منشأ غلمان باريس ، فنظر كل منهما إلى الآخر نظرة واحـــدة ، عرف كل منهما منزله الآخر . فعرف مرميس ان بوليت يشبهه ، حين كان في الثامنة عشرة من عمره . وعرف بوليت أن مرميس من أولئـك الغلمان الذين يرتقون بالذكاء والجـد والاتفـاق .

فاكتفى مرميس بهذه النظرة وعاد إلى القومسير وقال . إن هذا الفحام يا سيدي سيجيبك عن كل جرائمه الكثيرة التي ارتكبها ، وان ذلك من شأنه وليس من شأني . إنما أرجوك أن تأذن لي بايضاح الحالة بعض الايضاح منعاً

للاشكال .

فأعلم أنه يوجد في باريس شرطي إنكليزي أرسل إلى لندرا بمهمة اقتفاء أثر بعض اولئك الارلنديين البؤساء المتهمين بالثورة على انكلترا .

فهز القومسير كتفه وأبدى إشارة تفيد ان فرنسا لا تهتم بتنفيذ مآرب انكلترا .

فأدرك مرميس معنى إشارته وقال : إن فرنسا تود ارلندا كما تود البولونيين وكل شعب مضطهد مظلوم .

أما هؤلاء الارلنديون الذين ذكرت لك أمرهم ، فقد جاءوا الى باريس ، ومعهم حوالة مالية علي ، وهم رجل وامرأة وغلام . فكان يعمل هذا البوليس الذي يقتفيهم على إخفاء الرجل والمرأة والعودة بالغلام إلى لندرا .

فقال له القومسير : إني أعرف هذه الحكاية فان هذا الشرطي يدعى السير جمس وود وقد طلب الينا مساعدته في مهمته ، فاعتذرنا بحجة أن ذنوب الارلنديين سياسية محضة فلا بد لفرنسا بالقبض عليهم ولكني لم أعرف غير هذا .

— إذاً ، إسمع النتيجة . ان هذا الشرطي أبعد الرجل الذي كان يصحب المرأة والغلام ، ثم جاء بهما إلى منزل هذا الرجل الذي قبضت عليه ، فألقى المرأة في البئر .

- والغلام ؟

قال بوليت : اني أنقذته وهو مع الوالدة .

وأوشك الفحام ان يجن من اليأس .

أما القومسير فانه قال للحضور : إنكم تستطيعون ان تنصرفوا وإن كنا في حاجة الى شهادتكم دعوناكم .

ثم أمر الجنديين ان يخرجا بالفحام فدافع دفاع القانطين . ولكنهما غلباه

وقيداه وأخرجاه مقيداً مغلولاً

ونظر الى بوليت نظرة ملؤها الحقد وقال : سوف ترى ما يكون مني إذا قدر لنا ان نلتقي .

فضحك بوليت وقال له ستفصل المشنقة بيننا ، ويموت حقدك في قلبك .

* * *

بعد ذلك بساعة ، كان مرميس وميلون وشوكنج وجواني مجتمعين في منزل بوليت .

وكانت هناك الارلندية وابنها وبوليت وأمه بولينا ، فلما رأت الارلندية شوكنج ارتاحت كل الارتياح .

فقال لها شوكنج : لم يبق لدينا ما تخشاه أيتها العزيزة فإن أصدقاء الرجل العبوس يتولون حمايتنا .

فقال مرميس : هو ما تقول ، ولكن الرجل العبوس ، أي روكامبول ، محتاج الينا .

— إن مس الن تقول هذا القول ولكنها ألد الأعداء .

— لقد كانت من الأعداء .

— وهي لا تزال .

— من يعلم ؟

ثم نظر إلى بوليت وقال له : إن ما رأيت منك يدل على الذكاء وطيب السريرة ، فاسمح لي أن أكافئك على جميلك فقل لي ماذا تريد أن تكون ؟

فلم يجب بوليت بشيء ولكنه جعل ينظر الى أمه وبولينا .

فتولت أمه الجواب وقالت لمرميس : إن ولدي يكون سعيداً إذا وجد محل يخدم فيه .

وقال بوليت : وأنا أقنع براتب الف فرنك في العام .

وقالت بولينا : أما انا فاني أشتغل في عملي عند ذلك وأتزوج بوليت فأغدو معه كبنات الملوك .

فابتسم مرميس وقال لها في أي شارع تريدين ان تكوني ؟

— في شارع تمبل .

— سيكون لك ما تريدين .

فقالت أم بوليت : وولدي ؟

— سيعمل في خدمتي وأجعله كاتم أسراري .

فصاحت بولينا صيحة فرح وأسرعت إلى بوليت فعانقته .

فابتسم مرميس وقال : وسيكون راتبك ثلاثة الاف فرنك بدلاً من الف فرنك . ولما كان الزواج يقتضى له نفقات فاسمح لي أن أقدم لخطيبتك هدية العرس .

ثم فتح محفظته وأخرج منها ستة آلاف فرنك أوراقاً مالية ، ودفعها الى بولينا .

فاحمر وجه الفتاة وامتنعت عن أخذها .

فقال لها مرميس : خذي يا سيدتي ما أعطيتك إياه ، فإني واسع الثروة بفضل فتاة كانت تحبني ، وأورثتني هذه الثروة على شرط أن أنفقها في سبيل الخير .

ثم نظر الى بوليت وقال : إجتهد أن تسرع في زواجك لأني محتاج اليك وسأسافر الى لندرا في قريب .

وظهر على بولينا علائم الاستياء وخشيت من الفراق .

وأدرك مرميس معنى استيائها وقال لبوليت : وستصحب إمرأتك ،

فتمضيان شهر العسل في بلاد الانكليز .

فتعانق الخطيبان عندها وذرفت من عينيها دموع السرور .

— ٥٠ —

ولنعد الآن الى شخص من أشخاص هذه الرواية الذي طال سكوتنا عنه ، نريد به مس الن .

إن مس الن كانت سجينة في سجن سانت لازار ولكنها لم تكن مختلطة مع المسجونات لأنهم راعوا مقامها ومقام والدها اللورد .

ويذكر القراء انها كانت قبل إدخالها الى السجن في مستشفى مجانين يتولاه طبيب خاص ، وقد تعهد هذا الطبيب أن يحتفظ بها ثمانية أيام ، مقابل مبلغ من المال .

وكان السير جمس يرى ان هذا الوقت كاف إذ كان ينتظر في خلاله قدوم اللورد بالمير .

ولكن الزمن المعين مضى ولم يحضر اللورد بالمير .

وكان بوسع الطبيب ان يتعهد بالاحتفاظ بالفتاة ثمانية أيام أخرى . غير أنه حدث حادث لم يكن يتوقعه فحال دون قصده . وذلك أن طبيباً شابا كان معين في ذلك المستشفى وقد تفقد مس الن مراراً فأدرك أنها على أتم العقل ولا أثر فيها للجنون .

وكانت الفتاة قد ضغطت عليه ، وأثرت فيه تأثيراً عظيماً . فذهب الى مدير المستشفى وقال انك تسجن في هذا المستشفى فتاة غير مجنونة ، فاذا لم تطلق سراحها فإني لا أشكوك الى البوليس ، بل الى الجرائد أي لسان الرأي العام .

فخاف المدير أن تفضح الجرائد أمره ، وكتب لفوره الى السير جمس ، فاضطرب السير وخشي أن تفر الفتاة منه ، فاستعان بالسفارة وطلبت السفارة الى الشرطي حجز الفتاة مؤقتاً ، في محل لا يتيسر لها الفرار منه لأنها قاصرة .

فأجاب الشرطي طلب السفارة ونقلت الفتاة من المستشفى الى سجن سانت لازار في عربة مقفلة وأعدت لها فيه غرفة خاصة في رواق الراهبات وخادمتان لخدمتها ومنعوا عنها كل اتصال بالسجينات .

على انها كانت سجينة وقد علمت لأول وهلة انهم يحرصون عليها كل الحرص فأيقنت ان لا سبيل لها الى الفرار وكاد يستولي عليها القنوط .

ولم تكن تفكر الا بالرجل العبوس وانه في السجن بين أيدي قضاته الذين لا يرحمون .

وكانت ترجو أن يساعدها ذلك الفتى البناء المنكود ، وهو الرجل الوحيد الذي كانت تعتمد عليه في إنقاذها ، غير انها لم يردها شيء من أخباره .

ولم تكن تعلم اذا كان قد أخبر ميلون المقاول بأمرها واذا كان ميلون هو نفس الذي ينتظره الرجل العبوس في لندرا .

وقد كانت تفكر الليل والنهار في هذه المسائل فلا تهتدي الى حلها لأنها لم تكن ترى غير الخادمتين ولا تجسر على أن تسألهما شيئاً .

غير أن هاتين الخادمتين قالت لها يوماً ، وهي تعد لها الطعام : إن الراهبة أرسيل ستزورك اليوم .

فتعجبت مس الن لهذه الزيارة وقالت لها : إني لا أعرف هذه الراهبة ، فمن هي ؟

-- إنها ملاك بصورة إنسان وحبذا لو كنت في خدمتها .

— ولكن لماذا تريد أن تزورني ؟

ـ لا أعلم ، ولكن الذي أعلمه هو أنها التمست من الرئيسة أن تأذن لها بمقابلتك .

فشعرت مس الن بأمل جديد قد تولد في نفسها فانها لم تكن ترجو الهرب من السجن بمساعدة هذه الراهبة، ولكنها كانت ترجو ان تعهد اليها بالبحث عن ميلون وفاندا وإخبارهما عن روكامبول .

وبعدها بساعة فتح باب غرفتها ودخلت منه راهبتان .

وكانت احدى الراهبتين شقراء والثانية سمراء ، فدنت الشقراء من المس الن وقالت لها باللغة الانكليزية . اعلمي يا مس الن أن هذه الراهبة التي تصحبني لا تفهم اللغة التي أكلمك بها . ولم أكلمك بلغة قومك الا لأني لا أريد أن تفقه الراهبة شيئاً مما أقول لك .

واحذري ان يبدو منك أقل أثر من الاضطراب مما سأقول لك ، والزمي السكينة التامة ، لأني قادمة لانقاذك ، وأنا قادمة من قبل الرجل العبوس .

فخفق قلب الفتاة سروراً ، ولكنها تجلدت وقالت لها : اذا كنت آتية من قبل الرجل العبوس ، فلا بد ان تكوني عارفة أنه عرضة لخطر شديد .

ـ نعم وهو خطر الموت اعداماً .

فاصفر وجه الفتاة اصفراراً شديداً لم يخف على الراهبة الشقراء فقالت في نفسها : إنها تهواه .

ثم قالت لها : ولكنك من ألد أعداء الرجل العبوس .

ـ لقد كنت من أعدائه يا سيدتي .

ـ والآن ؟

فأطرقت مس الن بنظرها الى الأرض وقالت : والآن فإني أحبه وقد أحببته في تلك الساعة الهائلة التي خنته فيها فنصبت له الشرك وسلمته بيدي

إلى الجلاد .

ثم قصت عليها بايجاز ما جري لها مع روكامبول وكيف نصبت له المكيدة وكانت تتكلم بلهجة تشف عن الصدق والاخلاص .

أما الراهبة فقد أصغت اليها الى ان أتمت حديثها فقالت لها : لقد وثقت يا سيدتي بصدق إخلاصك وسننقذ الرجل العبوس ولذلك سنسافر مساء غد الى لندرا أنا وأنت وآخرون .

فتعجبت مس الن مما سمعته وقالت لها : ولكن من أنت يا سيدتي ؟

— إني أدعى فاندا وقد أحببت قبلك الرجل العبوس .

وقد خفضت فاندا عينيها استحياء حين جهرت بهذا الحب ثم نظرت إلى مس الن فرأت ان بارق الغيرة قد اتقد في عيني الفتاة فابتسمت فاندا وقالت لها : لا تتعبي نفسك بالغيرة فانه يحب ان يحبك أنت .

فتشاغلت مس الن عن هذا الموضوع وقالت لها : ولكن كيف تقولين إني مسافرة معك الى لندرا وأنا سجينة هنا كما ترين ؟

— لقد أعددت لك طريقة الخلاص .

ولا بد لنا لنعلم كيف أغدت فاندا لابنة اللورد طريقة الخلاص ان نعود الى السير جمس وسميث .

ويذكر القراء اننا تركناهما سجينين في منزل ميلون وقد نزلت بهما أرض الغرفة التي أدخلا اليها الى أعماق مجهولة مظلمة .

وقد استمرت أرض الغرفة تنزل نزولاً بطيئاً نحو أربع دقائق مرت بالرجلين مرور الأدهار لشدة ما لقياه من الرعب .

ثم استقر ذلك السقف الذي هوى بهما ولكنهما لم يعلما أين كانا لاربداد الظلام فقد كان الظلام حالكاً ورعبهما شديداً فلبثا هنيهة لم يجسر أحد منهما على أن يفوه بكلمة .

إلى أن افتتح السير جمس الحديث بشتم الفرنسيين أقبح شتم .

وقال سميث: إني أقسم بحامي انكلترا اني لم أقرأ في روايات الف ليلة وليلة ما يشبه الرواية التي يمثلونها بنا .

فقال السير جمس، بعد ان مل من الشتائم ولم يدع في قاموس السباب كلمة : ولكن أين نحن الآن ؟

— أظن أننا في قبو ومع ذلك فسنرى .

وأخرج من جيبه علبة الكبريت الشمعي ، فأضاء عوداً ثم ثانياً فثالثاً ، وكان هو يضيء الشمع والسير جمس يبحث ، حتى علم أنهما في محل يشبه بئراً نضبت مياهها ، وانهما على مسافة عشرين متراً في جوف الأرض .

وقد رأى ان بناء البئر حديث فنقر سميث بيده على الجدار فوجد أنه شديد الصلابة وأيقن انه لا سبيل إلى الفرار .

والحقيقة أنهما كانا في البئر ، وان ميلون كان قد حفرها خاصة لتجريب

آلة تسهل طرق البناء وهي آلة تصعد وتنزل بلولب يدار كما يريد صاحبه فتغني عن السلالم

وكان مرميس يعلم سر هذه الآلة وهذه البئر ، فاستخدمها لسجن البوليس .

أما السير جمس ورفيقه اللص فانهما أثارا جميع عيدان العلبة حتى علما كيف سقطا الى الهاوية .

وكان السير جمس قد عادت اليه سكينته بعد ذلك الغضب والحنق فقال لرفيقه : ماذا يريد ان يصنع بنا هؤلاء الأشقياء .

- لا أعلم ولكنهم يستطيعون قتلنا ودفننا في هذه البئر .

- أكيد ولكنهم لم يقتلونا لأنهم يريدون استخدامي كما أراه .

ولم يكد يتم كلامه حتى اهتز بهم اللوح الذي كانا عليه لأن مساحته كانت قدر مساحة البئر .

فقال اللص : أتراهم يريدون إنزالنا أيضاً ؟

- كلا وأظن أنهم سيصعدون بنا .

وقد أصاب السير جمس في ظنه لأن المصعد ما لبث ان اهتز حتى أخذ بالصعود تباعاً فقال في نفسه : إنهم يحاولون تخويفنا .

وعندها نظر السير جمس الى العلاء ، فرأى نوراً ورأى مرميس مطلاً من حافة البئر .

وبقي المصعد آخذاً بالارتفاع إلى ان وصل الى مسافة ثلاثة أقدام من فم البئر فأوقفه مرميس ومد يده الى سميث فقال له : تعال أنت .

وحاول السير جمس ان يقتدي به ولكن مرميس أسرع الى ادارة اللولب فبدأ المصعد بالنزول .

وعندها قهقه مرميس ضاحكاً وقال له : لا فائدة لنا على الاطلاق من سجن هذا اللص معك ، وخير لنا ان تكون وحدك فان الخلوة تدعو الى

الامعان والتفكير .

فصاح السير جمس صيحة الرعب ، وتوارى في الظلمات وسقط الى حيث كان .

* * *

وقد توالت الساعات دون ان يناديه أحد ، وخطر له خاطر كاد يجن له من الرعب إذ قال في نفسه : ان هذا الرجل قال لي انه يعرف اين هي مس الن وانه غير محتاج الي في سبيل إنقاذها وقال أحد رجاله ايضاً انه يعرف شاباروت إذاً هم غير محتاجين الي ، ومن يعلم ما يكون من شأني معهم فقد يكون مرادهم ان يقتلوني حياً .

وعندها شعر هذا الرجل الذي خان ارلندا فجأة بعذاب جديد لأن الجوع قد عضه بنابه وبدأ يشعر بآلامه .

وكان قد نام عشرون ساعة لم يذق في خلالها طعاماً ولا شراباً فأيقن أنه دفن حياً في تلك البئر .

ثم برح به الجوع والخوف وتلاهما حمى عقبها اضطراب في الدماغ مثل لعينيه أموراً غريبة وتصورات هائلة اذ تمثل له ان الارلنديين يحيطون به من كل جانب ويتشاورون في طرق تعذيبه فيصيح صياحاً منكراً ويستغيث منهم بهم الى ان ينقطع صياحه ويستفيق من ذهوله فتنقشع هذه الأحلام وتزول هذه الخيالات ويعود هداه ، فيشعر بآلام الجوع ويجد من عذابه فوق ما كان يجد من آلام الأحلام ثم تتوالى الساعات ويمر الوقت دون ان يتحرك اللوح الذي كان عليه ودون ان يسمع حساً .

وبعد أن أحس انه يقاسي آلام النزع شعر ان اللوح قد تحرك ولم تكن الحمى مثلت له هذه الحركة بل ان اللوح تحرك حقيقة ، وشعر السير جمس انه

يصعد الى العلاء .

وقد كان فرحه لا يوصف حين رأى النور يتلألأ عند فم البئر وحين رأى مرميس ينتظره وبيده المصباح .

وقد كان سروره عظيماً لأنه رأى وجه انسان بعد الوحشة ورأى نوراً بعد الظلمة فرجا ان يبل حلقه ولو بقطرة ماء .

ثم وقف المصعد بغتة ، ورأى السير جمس أنه يبعـــد عن فم البئر نحو أربعة أمتار ، وسمع مرميس يقول بلهجة الهازىء : إني يا سيـــدي خادمك المطيع .

ورد السير بصوت مختنق : إنك أطلت سجني فإن العادة في انكلترا أن يطعموا المسجونين مرتين في اليوم .

– يسوءني ان أجدك جائعاً غير اني اضطررت الى إهمال أمرك لكثرة ما طرأ علي من المشاغل بعد ان تشرفت بلقائك .

ورد السير بلهجة دلت على فراغ صبره قائلا : ولكن هذه الآلة الجهنمية قد وقفت وامتنعت عن الصعود .

– وأية فائدة من بلوغها الي ، فقـد أوقفتها عند الحد الذي يمكننـا المباحثة فيه .

فاحتدم السير غيظاً وقال : العلك تريد القائي في البئر ؟

– معاذ الله ان أكون من الظالمين ولكني مضطر الى إبقائك في سجنك الى ان تردني أوامر جديدة .

– من أين تنتظر ورود هذه الأوامر ؟

– انها على أسلاك البرق من وراء المانش أي من عاصمة بلادكم .

فارتعش السير وأتم مرميس حديثه فقال : قد تقدم لي القول انه طرأ علي من المشاغل بعد ان تشرفت بلقائك وكان اول هذه المشاغـــل التي دعتني الى نسيانك اني أنقذت رالف وامه .

فدهش الشرطي وظهر عليه ما دل على عدم التصديق .
فقال له مرميس : ان الأم لم تمت كما توهمتم وانكم القيتموها في البئر ، ولكنها لم تغرق .
ثم قص على السير جميع ما جرى للأم والصبي .

ولو تلقى السير مثل هذا الخبر في الليلة الماضية لجن من اليأس غير ان قواه كان أنهكها الجوع فتلقى هذا الخبر المؤلم دون اكتراث .

وعاد مرميس الى الحديث فقال : ثم اني أرسلت رسالة برقية الى الأب صموئيل في لندرا ، وهو الذي أخبرتنا عنه مس الن .

وان هذه الفتاة لا تزال في سجن سانت لازار ، حيث وضعتها ، ولكننا نستطيع مخابرتها .
أما الرسالة التي أرسلتها الى الكاهن ، فقد ذكرت له فيها صفاتك وعلائمك وأخبرته انك كنت من الارلنديين وسألته ما يريد ان نصنع بك فوردني الجواب الآتي فاسمع :
ثم أخذ رسالة من جيبه ففتحها وقرأ بصوت مرتفع ما يأتي :

« ان جمعيتنا السرية عرفت الرجل الذي وصفتموه فهو يدعى ولهم هولا قبل ان يخوننا وقد اختفى منذ خمسة سنين حتى حسبناه ميتاً ، افعلوا به ما تشاءون . واذا أرسلتموه الى انكلترا فلا يلقى غير موت هائل فظيع يعاقب به كل من يخوننا .
« أما الرجل المحبوس فلا يزال سجيناً أسرعوا بالحضور » .

ثم طوى الرسالة وردها الى جيبه وقال للسير بلهجة دلت على الثبات : انك تعلم يا سير جمس ما يكون من عقابك اذا أرسلناك الى انكلترا ودفعناك الى اخوانك الارلنديين الذين خنتهم .
ورد السير بصوت مختنق : اذاً اقتلني هنا فذلك خير لي .
— اني كنت عازماً على ان أقترح عليك الموت في هذه البئر .

وضاق صدر السير جمس وقد برح به الجوع فصاح يقول : اقتلني كما تشاء لكن لا تقتلني جوعاً وارسل لي طعاماً .

فأجابه تلميذ روكامبول : انها أمنية بعيدة فقد قضي عليك أن تموت جوعاً .

– إذاً أغثني بجرعة ماء على الأقل .

– إني أعطيك ما تشاء من طعام وشراب إذا كنت تفعل ما أريده منك.

– قل ما تريد .

– هذا ما كنت أتوقعه منك ، لأن الجوع لا بد أن يفضي بك إلى الامتثال والخضوع فانتظرني قليلاً ريثما أعود .

ثم تركه وذهب بالمصباح فبقي السير جمس في الظلمة الدامسة .

وغاب مرميس دقيقتين لم يمر بالسير جمس دهراً أطول منهما إلى أن عاد مرميس يحمل باحدى يديه مصباحاً وبالأخرى محفظة تحتوي على كل أدوات الكتابة فوضع المصباح عند فم البئر بشكل يظهر له منه وجه السير جمس ولا يفوته شيء من عوامل تأثره وقال : سوف ترى يا سيدي فاني أرجو أن نتمكن من الاتفاق .

ثم أخذ كرسياً وأنزلها إلى السير جمس فقال له : اجلس على هذا الكرسي فلا بد لك من الراحة .

ولما جلس قال مرميس : خذ أيضاً هذه الطاولة والمحفظة بحيث إنك لم تعد محتاجاً إلا للمصباح .

فأخذهما السير جمس وقال : لكني أريد أن أشرب .

– سأعطيك كل ما تريد إذا اتفقنا ، فخذ الآن المصباح

ثم ادنى له مصباحاً مقفلاً مربوطاً بخيط متين .

فأخذهما السير جمس ايضاً وقال بصوت أبح كأنما النار قد أحرقت حلقه : أغثني بشربة ماء .

- لقد قلت لك اني سأعطيك كل ما تحتاج اليه من طعام وشراب إذا اتفقنا

- ولكن ماذا تريد مني ؟

- أريد أن تكتب عشرة أسطر .

- لمن ؟

- الى مدير البوليس .

فظهرت على السير جمس علائم الإنفـــة والبسالة بالرغم عما كان يلقاه من الجوع والظمأ .

- اني علمت ما تريـد مني وهو أن أكتب الى مدير البوليس كي يطلق سراح مس الن ولكني لا أكتب تلك السطور واؤثر أن أموت جوعاً .

فاجابه ببرود قائلاً : كما تريد هذا من شأنك . ثم ادار اللولب فعـاد السير جمس إلى النزول وسمع مرميس يقهقه ضاحكاً .

غير أن الغلام لم يكتنف السير جمس حسب العادة بل انه كان يرى كل ما يحيط بنور المصباح الذي كان يهوى معه ، وكان لديه كرسي يجلس عليها بدلاً من الجلوس على الأرض .

وعند ذلك بات هذا الرجل عرضة لعاملين عامل الوفاء والكبرياء وعامل الجوع وحب الحياة .

غير أن هذين العاملين لم يطل تنازعهما فان الجوع قـد أنهك قواه وأحرق الظمأ احشاءه فأثر الحياة على الواجب وتغلب جوعه على الكبرياء فجعل يصيح منادياً مرميس بأعلى صوت ، فلم يجب غير الصدى . .

وما زال المصعد يهوي حتى استقر فعاد إلى الصياح ثم جعل يضرب بالكرسي على الطاولة فلم يجب أحد .

ولكنه رأى فجأة أن المصبـــاح معلق في خيط ، فقال في نفسه : لا بد أن يكون هذا الخيط متصلاً بجرس في فم البئر ، وقـد ربطوه خاصة كي أنبههم حين اذعاني .

وعند ذلك أخذ الخيط وشده فأخذ اللوح يصعد به للفور حتى وصل إلى قرب فم البئر فوقف وظهر مرميس وقال له : لا شك انك رضيت بما اقترحته عليك بدليل صعودك .

– أغثني بشربة ماء أفعل كل ما تريد .

– ابدأ اولاً بفعل ما أريد وأنا أرسل لك خير ما تشتهيه من الطعام .

فشعر السير جمس انه مغلوب وأخذ القلم ليكتب فقال له مرميس: اسمح لي أن املي عليك ما أريد ان تكتبه .

ثم أملا عليه ما يأتي :

« سيدي المدير

لقد وردت لي رسالة برقية من لندرا أمرت بها أن اسافر في الحال ولذلك أرسلت اليك زميلي البوليس ادوار راجياً ان تدفع اليه الأسيرة » .

فدهش السير جمس وأدرك مرميس سر اندهاشه فقال له : ان رفيقك اللورد لا يتصعب مثلك وهو يخدم من يدفع له ما يرضيه .

فلم يجب السير جمس ولكن كتب ما أملي عليه وأمضى الكتاب فأدار مرميس اللولب فصعد الى فم البئر فأخذ الكتاب من الشرطي وظهر عند ذلك ميلون يحمل صينية عليها شراب وطعام فاخر .

فلم يكد السير جمس يرى آنية الماء حتى اختطفها وأفرغها في جوفه ثم أسرع الى قطعة من الخبز فقال له مرميس: لا تزدرد الطعام كما تفعل فقد تختنق واني أدعو لك بحسن الشهية .

ثم أدار اللولب فعاد اللوح الى السقوط ولكن السير جمس لم يحزن لسقوطه هذه المرة فقد هبط معه النور وصينية الطعام والشراب .

٥٢

ولما خلا المكان بمرميس وميلون فحص مرميس كتاب السير جمس وقال لميلون : اننا نستطيع بعد هذا الكتاب أن نسافر غداً الى لندرا .

– ومس الن ؟

– انها تسافر معنا لأننا سنخرجها من سجنها بفضل هذه الرسالة .

– والسير جمس ؟

– انه يصحبنا في هذه الرحلة

– ولكنه يخوننا دون شك .

فابتسم مرميس وقال : انه متى وصل إلى لندرا لا أخشاه لأن الارلنديين قد عرفوه الآن ، وهم يعدون له أفظع عقاب فإذا وعدناه بكتمان أمره عنهم يخدمنا كما يريد بملء الإخلاص والوفاء .

– إني أتمنى هذه النهاية ولكنه قد يهرب منا قبل أن نصل به إلى انكلترا .

– ولكنه لا يستطيع الفرار قبل غد في كل حال .

– ذلك أكيد فإنه لا يتمكن أن يخرج من البئر

– وفوق ذلك فإنه لا يخرج منها خروج رجل بل خروج طرد بضاعة .

– الحق لا أفهم ما تقول .

فضحك مرميس وأجاب : أيها الأبله العزيز إنك لو كنت تفهم كل شيء لما استطعنا أن ندهشك بالغرائب من حين إلى حين .

فامتعض ميلون لكلامه ولكن مرميس علل استياءه بشيء من المزاح وقال : ان الصباح قد طلع فادع لي الشرطي إدرار إذ يجب أن يذهب بهذه

الرسالة إلى مدير الشرطـة ويجب أن تخرج مس الن من سجن سانت لازار قبل الظهر .

* * *

يوجد على قيد خطوتين من ترعة سانت مرتين مستشفى القديس لويس وهو قائم في وسط أجمل بقعة تكتنفها الأشجار فتلطف هوائها وتدخل الشمس اليه من كل النوافذ .

هناك نقلوا ذلك الفتى البناء المنكود الذي سقط عن اللوح وهو يحاول إنقاذ مس الن كما ذكرناه في بدء الرواية .

ولقد كان الطبيب قال عنه ان حالته خطيرة ولكنها لا تحمل على اليأس ولبث هذا المسكين ثمانية أيام بين الموت والحياة ، ثم مضى الأسبوع وتغلبت الحياة بفضل ذلك المساعد القادر ، وهو الشباب ، ثم ان الراهبات والمرضين كانوا يعتنون به كل الاعتناء لإشفاقهم عليه منذ أول يوم رأوه لاسيا بعد أن عرفوا حكايته والسبب في سقوطه وكانت مروءته وبسالته أعظم دافـع إلى هذا الحنو والاشفاق عليه .

وكان ميلون قد أرسله إلى ذلك المستشفى وتولى دفع النفقات عنه ، وأوصى أن لا يقتصدوا في معـــدات راحته ، فكان يزوره كل يوم ويتفقده ، كما كان يزوره كل زملائه البنائين ، ولا يتحدثون في ذلك المستشفى إلا بأمره .

وقد اتفق أن سيدتين عظيمتين أقبلتـــا لعيادة هذا البناء الفقير ، فدهش العمال والمرضون لزيارتها ، لاسيا لما رأوه من باهر جمالها ومظاهر عظمتها .

وكانت المرأتان في عهد الشباب ولكن أحداهما كانت أكبر سناً من رفيقتها وكلتاهما مبرقعتان ببرقع كثيف .

فلما علم الفتى بأن سيدتين قادمتان لعيادته خفق قلبه ، حتى إذا دنت منه المرأتان ، ورفعت الصغرى برقعهـا صاح البناء صيحة دهش وفرح ، لأنه عرف ان هذه الفتاة القادمة لعيادته هي مس الن التي أصيب بما أصيب من أجلها .

أما مس الن فإنها ابتسمت وقالت له . أرجوك أن لا تكون حاقداً علي فإني لم أزرك إلى الآن لأني كنت سجينة ولم أخرج من سجني إلا اليوم فكانت عيادتك أول زيارة لي فعلتها .

ولم يجد الفتى ما يجيب به وجعل ينظر إلى الفتاة نظرات الشغف ، فقالت له مس الن : إني سأبرح فرنسا أيها الصديق ، ولكني سأعود اليهـا فأراك ولا أنساك .

وكانت المرأة الثانية التي تصحبها هي فاندا وقالت :

– ونحن أيضاً لا ننساه .

وعند ذلك جلست مس الن قرب سرير الفتى فأخذت يده بين يديها وقالت له :

– اليس لك أهل أيها الصديق ؟

– نعم . يا سيدتي لي أم فقيرة أرسل اليها نصف ما أكسبه عندمـا يتيسر لي العمل ، ولكن المسيو ميلون وعدني أن يتولاها بعنايته إذا مت على أثر جرحي .

وأجابته بصوت حنون :

. إنك لا تموت أيها الصديق فقد زال عنك كل خطر بحمد الله ، وفوق ذلك فاني لا أريد ان يتولى سواي العناية بأمك فقل لي مـاذا تشتغل أمك ؟

– إنها لم تعد تستطيع العمل لعجزها .

– ولكني سأمنحها منزلاً وأعين لها خادمة تخدمها ما زالت في قيد الحياة وخذ هذا المال فإنها تأمن به شظف العيش .

ثم أخذت محفظة جلد جميلة من جيبها وأخرجت منها أوراقاً مـالية قيمتها عشرون الف فرنك ودفعتها للفتى البناء ، فجال الدمع من عينه ولم يتمكن من شكرها .

وعلمت مس الن ما كان يجول في نفس هذا الفتى العامي الذي تجاسر ان ينظر اليها نظرة شغف بلء الاحترام .

فقـالت له : اني ضمنت مستقبل أمك ، واما أنت فسأفيك ما علي حين اعود .

ثم مدت اليه يديها الجميلتين فأدناهما من شفتيه ولثمهما وهو يرتجف .

* * *

بينما كانت مس الن تودع الفتى البناء كان مرميس وميلون يتأهبان للسفر إلى لندرا .

وقد أدار مرميس لولب المصعد واصعد السير جمس اليه فقال له : قد أطلعتك على الرسالة التي وردت من الكاهن صموئيل ، وقد علمت ان الارلنديين حكموا عليك بالاعدام ، وانا حر ان اصنع بك ما اشاء ، غير اني أقول لك لا تخف فإن أمر حياتك موكول اليك إذ رضيت ان تخدمني فيما أريد ، ثم اني اعدك بعفو الارلنديين عنك إذا رجعت عن خيانتهم وعدت إلى خدمتهم باخلاص .

وظهرت على السير جمس علائم الرعب لذكر الارلنديين فقال له مرميس: إنك ستبرح باريس في هذه الليلة وفي صباح غد تصل إلى لندرا .

وكان بالقرب منه صندوق يبلغ طوله مترين فأشار مرميس اليه وقال للسير جمس : اترى هذا الصندوق ؟

— نعم ..

— انك ستسافر في هذا الصندوق فإني لا احب ان تهرب منا قبل وصولنا إلى انكلترا .

ثم اشار الى ميلون فأحضر له زجاجة مختومة وقدحاً ففض مرميس ختم الزجاجة وصب ما كان فيها بالقدح وقدمه للسير جمس وقال : اشرب .

ولكن البوليس امتنع عن اخذ القدح وقال : من يضمن لي انه ليس في القدح سماً .

— ليس فيه غير مادة مخدرة .

- لكن من يضمن لي صدق ما تقول ؟

- يضمنه هذا المسدس ..

ثم اخرج من جيبه مسدساً وصوبه على السير جمس وقـال : اشرب او اطلق النار .

وعلم السير جمس من اتقاد عينيه صدق عزيمته وقال في نفسه : إذا لم يكن من الموت بد في الحالين فان موت السم افضل ، وقد يكون الرجل صادقاً ولا يكون المراد غير تخديري، ثم اخذ القدح وشرب ما فيه جرعة واحدة فشعر للفور ببرود شديد تولاه ، ولم يكد الشراب يستقر في جوفـه حتى اطبقت عيناه وسقط على المقعد دون حراك .

فنظر مرميس الى ميلون وقال له : قل للعصابة تتأهب فقد قضي الأمر ونحن ذاهبون لانقاذ رئيسنا روكامبول .

انتهت رواية « تلميذ روكامبول »

ويليها الجزء الخامس عشر من روكامبول « روكامبول في السجن »

الجزء الخامس عشر



روكامبول في السجن

روكامبول في السجن

- ١ -

مر شهر بعد قبض الجنود على روكامبول في منزل مس الن حين وافاها اليه من ذلك الدهليز السري .

ويذكر القراء تلك الكلمات الأخيرة التي قالها لمس الن ، وهي توشك أن تجن من فرط حزنها . قال لها : إذهبي الى باريس ، وعودي بميلون ورفاقه .

ثم مشى مع الجنود الى السجن بأتم السكينة

ولما وصلوا به الى سجن نوايت الرهيب وجد فيه كثيراً من الجنود فاستدل من ذلك على مبالغة الأسقف بترس تورن بالحذر ، وإن القبض عليه كان مدبراً خير تدبير .

وقد كان في طليعة اولئك الجنود حاكم السجن نفسه وهو محاط بحراسه فحياه روكامبول تحية الصديق للصديق ، فقال له الحاكم وقد عرفه : انك قد عبثت بي مرة حين أنقذت ذلك من السجن ، ولكنك لا تجد من ينقذك . فسنحرص عليك أشد الحرص .

فابتسم روكامبول وقال : إنك تحسن صنعاً .
– وسأتولى حراستك بنفسي فقد علمنا الآن انك أحد هؤلاء الزعماء الارلنديين الذين طالما أقلقوا خواطر انكلترا .
فأجابه بسكينة : إن ذلك من الممكنات .
– ولا بد لي من إخبارك أن يوم إعدامك سيكون بعد ثلاثة أسابيع أو شهر .
– إني أشكرك يا سيدي لهذا التفاؤل .

وكان الحاكم لا ينفك عن الابتسام لروكامبول ، فقد كان هذا الرجل طروباً بالفطرة . وكان يرى ذلك السجن الرهيب المظلم من أجمل قصور الأرض فوضع يده فوق كتف روكامبول وقال له : لدي نبأ أخبرك به ، وأرجو أن يسرك . فان أمرك منوط بي في هذا السجن ، وأنا حر في معاملة المسجونين كما أشاء .
وبوسعي أن أخفف وطأة سجنهم إذا أردت ، والذي يبدو لي منك انك كريم الأخلاق وافر الأدب ومن كان مثلك وجبت رعايته ولا يجمل بمثلي ان يعامله معاملة أدنياء المجرمين .
– إني أشكرك كل الشكر يا سيدي ولا أنسى لك هذا الاحسان .

– والحق اني ميال اليك وإني أجاهر بحبي للفرنسيين ، ولا أخشى لومة لائم ، وفوق ذلك فإنك كما قلت لا رجاء لك بالحياة أكثر من شهر ، فلا أحب أن تعذب في خلاله ، ولذلك أعددت لك وسائل الراحة ، وستجد في غرفتك سجيناً آخر يؤاسيك وتؤاسيه ، وقد أذنت لك بمطالعة الكتب وقراءة الجرائد .

فقال له روكامبول : أتأذن لي بالكتابة أيضاً ؟
– دون شك .
ثم أشار الى الحراس فذهبوا بروكامبول الى الغرفة المعدة لسجنه وكان لها

نافذة تطل على فناء

ولما دخل اليها رأى رجلاً مضطجعاً فوق سريره ، فهب من مضجعه ونظر نظرة وحشية الى الداخلين .

وكان هذا الرجل في الثلاثين من عمره ، طويل اللحية نحيل الوجه براق العينين ، فناداه أحد الحراس باسم برنيت وقال له : إنك لا تبيت وحدك بعد الآن .

فأجاب : ان ذلك سيان عندي .

ثم عاد الى مضجعه دون ان ينظر إلى روكامبول ، فلما انصرف الحراس وبات روكامبول وحـده مع هذا الرجل نظر اليه مبتسماً وقال : إني أراك شديد الكآبة أيها الصديق .

فنظر اليه السجين نظرة إنكار وقال : أتريد ان أكون فرحاً طلق المحيا في هذا السجن الضيق ؟

– أتقيم طويلاً فيه ؟

– كلا إنني سأشنق في السابع عشر من هذا الشهر .

– أي ذنب جنيت ؟

فرسم برنيت علامة الصليب على وجهـه ، حسب اصطلاح الجمعية السرية الارلندية .

فدهش روكامبـول ، وأجابه بمثل إشارتـه ، ورأى وجه الارلنـدي قد استنار .

فأشار له روكامبول إشارة سرية أخرى لم يفهمها .

وأدرك لفوره حقيقة أمر هذا السجين وقال : لا شك أن هؤلاء الانكليز أضعف منا في مجال الحيلة ، فإنهم وضعوني مع رجل ليس هو من الارلنديين ولكنه عرف رموزهم . إنهم يستطيعون ان يجعلوه جاسوساً علي ، وسوف نرى ما يكون .

ثم رفع عينيه الى السماء وقال : لا تأسف أيها الصديق إن الموت في سبيل الارلنديين خير من الحياة .

- ٢ -

أما حاكم السجن وهو يدعى روبرت فقد وفى بما وعد به روكامبول ، وانه أرسل اليه كثيراً من الكتب .

ولما أزف وقت الطعام أرسل اليه ولرفيقه ، الارلندي الكاذب ، طعاماً شهياً .

ولكن روكامبول لم يحدث ذلك الرجل كلمة طول ذاك اليوم وقبل أن تطفأ مصابيح الغاز اضطجع في سريره .

وفي اليوم التالي جاء اليه حاكم السجن بنفسه فقال له . كيف أنت ؟

فابتسم روكامبول وقال له : بخير .

– أراقت لديك تلك الكتب التي أرسلتها اليك ؟

– أشكرك كثيراً إنها من خير ما يقرأ يا حضرة المیلورد .

– إني لست لورداً ولكني غير قانط من ان تكافئني جلالة الملكة فكتوريا بلقب بارون جزاء خدماتي .

– اني واثق كل الوثوق من نيلك هذه الأمنية لأنها دون ما تستحق .

فشكره الحاكم وقال : أتريد ان أرسل اليك جرائد ؟

– حبذا يا سيدي لو تكرمت بارسال جرائد بلادي لأن المرء يحن إلى لغته كما يحن الى وطنه .

– سأرسلها اليك هذه الليلة وسأزورك كلما سنحت لي الفرصة فقد أنست بعشرتك فقل لي كم عمرك ؟

– تسعة وثلاثين عاماً .

– من يراك يحكم انك لا تتجاوز الثلاثين

فابتسم روكامبول وقـال له : ومع ذلك فقد لقيت من المتاعب مـا لم يلقه سواي .

– ولكنني أعجب لنبيل مثلك كيف ينخرط في سبيل أولئك الارلنديين الحفاة العراة .

وكان رفيق روكامبـول في السجن ، أي ذلك الجاسوس الذي عينـوه لمراقبته واستخراج خفـايا اسراره ، يسمع الحديث ويمثل دوره أتقن تمثيل . فلما سمع الحاكم يحتقر الارلنديين تظاهر بالغضب الشديد وتمتم كلمات لا تفهم .

أما روكامبول فقد أجاب الحاكم بقوله : إني قد انضممت إلى الارلنديين لأني خلقت لنصرة الضعيف والميل معه على القوي .

فوقف الحاكم بالمحادثة عند هذا الحد وانصرف . أما روكامبول فانه عاد الى القراءة ، دون أن يحادث الجـاسوس بكلمة ، في حين أنه كان يود أن يسأله الف سؤال .

* * *

مضى على ذلك أربعة أيام ، كان الحاكم يزور روكامبول في خلالها كل صباح ويحمل معـه الجرائد الفرنسية ، ثم يغتنم فرصة تشاغـل روكامبول بأخذ الجرائد ، فينظر نظرة خفية الى الجاسـوس ، ولكن هذه النظرة لم تكن تخفى على روكامبول .

فإذا انصرف الحاكم عاد روكامبول الى القراءة والتفكير .

وكان يقرأ الجرائـد الفرنسية بامعـان شديد ، فلا يفوته خـبر من

أخبارها . وبعد ثمانية أيام من إقامتـه في السجن عثر في جريدة الديبا على المقالة الآتية :

« يرى الذين تعودوا النزهة في غابات بولونيا مركبه تسير فيها فتاة حسناء كل يوم وقد استلفتت الأنظار بجمالها وهي انكليزية كما يقولون .

« ويصحب هذه الفتاة في كل نزهة رجلان ، يبلغ أحدهما الخمسين من عمره .

« وقد حسبوا في البدء ان هذا الرجـل والد الحسناء ، ولكنهم رأوا من دلائل نفورها منه واحتقارها إياه ما أبعد عنهم هذا الظن ، وفسح لهم مجال الريب .

«وقد رأى الكونت «م».. وهو من مشاهير الباريسيين أن الفتاة الانكليزية أسيرة واللذين يصحبانها من عمال البوليس وقد أرسلا من لندرا فعسى ان يتوفق الكونت إلى كشف هذا السر » .

فلما قرأ روكامبول هذه المقالة أمعن في التفكير وتاه في مهامه التصور ، ثم قال في نفسه . من عسى ان تكون تلك الفتاة الانكليزية غير مس الن ، وإذا كانت هي فقـد يكون الكونت م ... وقف على الحقيقـة ، ولا بد أن يكون الأسقف بترس تون والـلورد بالمير ، أرسلا في أثرها هذين البوليسين .

ثم أطرق مفكراً وقال : ان هؤلاء الارلنـديين ضعفاء لا يقدموا على المخاطرة في سبيل إنقاذي لأني لست إرلندي الأصل ، فيجب ان أعتمد على عصابتي أكثر من اعتمادي عليهم وقد أرسلت مس الن الى باريس ، وقلت لها : إبحثي عن ميـلون ومرميس وفاندا ، فاذا كانت المس الن أسيرة لا تعـلم عصابتي شيئـاً ولا تحضر . إذاً لا بد لي من إيجـاد وسيلة أدعـو بها العصابة .

وعندما جال في نفسه هذا الخاطر نظر إلى ذلك الجاسوس وعن له خاطر

سريع فقال : إنهم قد وضعوا هذا الرجل جاسوساً علي ، واذا أصلحت نفسه الساقطة حميته من وصمة الجاسوسية الشائنة واستخدمته فيما أريده من أغراضي ، فكان لي خير معين .

وقد عرف القراء تلك النظرات الجاذبة المؤثرة التي عرف بها روكامبول وخطر له أن يستعين بها على استجلاب الجاسوس ، لا سيما بعد أن رأى من عينيه أنه أميل الى الخير منه الى الشر ، وان الفقر دعاه الى امتهان هذه المهنة السافلة ، ووضع جريدته على السرير وجعل ينظر تلك النظرات الى الجاسوس .

وأحس الرجل لفوره بتأثير النظرات فيه ، وان نفسه قد تكهربت بها . فلم يكن يطيق النظر اليه ويغض من بصره كلما حدق به الى أن أيقن روكامبول من ذلك التأثير ، فقال له بلهجة السيادة المطلقة : ماذا تدعى أيها الرجل ؟

– برنيت .

– أين ولدت ؟

– في دبلين

– ومتى قبضوا عليك ؟

– يوم فرار الكولونيل ستيفن .

– اني كنت في طليعة الاخوان يومئذ فلا أذكر اني رأيتك بينهم .

فاحمر وجهه احمراراً خفيفاً استدل منه روكامبول على ضعفه فقال : أتعلم اننا اليوم في الحادي عشر من هذا الشهر ؟

– نعم . .

– ولقد قلت لي انهم سيشنقونك في اليوم السابع عشر فلم يبق لك في هذا الوجود إلا ستة أيام .

فأطرق الجاسوس بنظره اتقاء لنظرات روكامبول وقال: إني مستسلم للقضاء

راض بما كتب لي .

فحدق روكامبول به تحديقاً اضطربت له حواسه وقال : ولكنك تعلم يقيناً انك لا تموت في ذاك اليوم .

ـ من ينقذني ؟

ـ لا ينقذك أحد .

ـ إذاً لا بد من الموت .

فعاد روكامبول إلى إرهاقه بنظراته ، وقال له : إن الاعدام لا يكون إلا بعد صدور الأحكام ، ولم يحكموا عليك بشيء أيها المجنون بل انهم وضعوك معي في هذا السجن لمراقبتي ، ورضيت أن تتولى هذه المهمة الشائنة لفقرك ولكني سأغنيك من هذا الباب الحقير ، وأغنيك عن الندم وترقيع الضمير فاصغ إلي .

ثم أخذ يبسط له بفصاحته النادرة عيوب الجاسوسية ، ويقبح ذلك المبدأ المنحط ويشرح ما تجده النفس من الانبساط في خدمة المبادىء الشريفة ويعلله ببسطة العيش .

وقد أفاض في هذه المباحث الى ان افتتن عقل الرجل وسال لعابه حتى اذا انتهى من مواعظه وإرشاده بسط يده وقال له : أتريد ان تكون في عداد أصدقائي ؟

فجثا الرجل على ركبتيه ، وقد بلغ روكامبول في نفسه ما أراد وقبل تلك اليد التي مدت اليه .

ثم قال : اني لا أعلم من انت ولكني أعلم انك من أهل السلطان على القلوب وسأكون في خدمتك من أوفى الأمناء .

فابتسم روكامبول وقال سوف ترى انك غير مخطىء في وفائك متى خرجنا من هذا السجن .

فذهل برنيت وقال : أتطمع بالخروج منه يا سيدي ؟
– إني أخرج متى أشاء .

– ٣ –

مر على ذلك أربعة أيام انقطع الحاكم بعدها عن زيارة روكامبول لقنوطه من الجاسوس لأنه كان في كل مدة يحضر يشير الى الجاسوس مستفهماً فيغمزه بعينه مشيراً الى انه لم يستطع ان يعلم شيئــاً بعد فانقطع عن زيارته ، وجعل يرسل الجرائد الفرنسية مع أحد الحراس .

وكان هذا الحارس الذي يرسله عالماً بأمر الجاسوس فكان كلما أتى يسأله بالنظر فيجيبه بالاشارة انه لم يعلم شيئاً الى ان جاءه يوماً فغمزه بعينه مشيراً ان لديه أخبار خطيرة فسر الحارس وانطلق إلى مولاه .

وكان الجاسوس قد استسلم كل الاستسلام إلى روكامبول كما قدمناه وقد كان لديه حقيقة أخبار هامة يريد ان يبلغها إلى الحاكم .

أما روكامبول ، أو الرجــل العبوس ، فقد كان قرأ في الليلة ، هــذه المقــالة الآتية ، في إحدى الجرائد الفرنسيــة التي يرسلها اليه الحــاكم ، وهذه هي :

« لا يكتفي هولاء الانكليز بما يبدونه من الشـــذوذ في بلادهم ، بل انهم يقدمون عليها في بلادنا . وهذا خبر ننشره بملء التحفظ ، على وثوقنا من صحة ما نرويه .

« ان فتاة حسناء من أهل النبل قدمت الى باريس فاستلفتت الأنظار بحوادثها وهي تدعى مس الن إبنة اللورد ب ..

« وكان قد حضر معها خادمان حين قدومها الى باريس ولم يعـــلم احد سر

حضورها الى العاصمة فأقامت في منزل جميل في أفضل الشوارع وكان الناس يرونها كل مساء تخرج متنزهة في الغابات .

« ولكن يظهر ان هذه الرحلة لم ترق لعائلة الفتاة .

« انه اذا اتفق مثل هذا الحادث في فرنسا ، يذهب والد الفتاة الهاربة باحثاً عنها ويعود بها . أما في انكلترا فإن مثل تلك الأمور تجري على عكس ما هي عندنا .

« وذلك ان والد الفتاة وهو أحد أعضاء البرلمان الانكليزي، لم ير من العدل أن يترك جلسات المجلس فلم يحضر للبحث عن فتاته ، بل أرسل لها رجلين من كبار رجال الشرطة ولديها أوامر صريحة صدقت عليها من السفارة الانكليزية فعثرا بالفتاة وقبضا عليها .

« غير أنهما لم يرجعاها الى انكلترا كما يتبادر الى الأذهان لأن والدها اللورد ارتأى إبقاءها في باريس الى ان تنتهي جلسات البرلمان راجياً ان يمحوا تعاقب الأيام تلك الفضيحة .

« ولذلك عهد الى البوليسين بمراقبة ابنته ، وأن يذهبا بها الى المسارح والمنتزهات والى حيث تشاء ، مشترطاً أن لا يأذنا لها بالاجتماع مع أحد .

« والذي نراه أن الحادث حادث غرام لم يرق ، دون شك ، في عيني والدها اللورد » .

فلما قرأ روكامبول تلك المقالة لم يبق لديه شك أن مس الن في باريس وانها لم يتيسر لها الالتقاء بميلون .

وعلى ذلك فإن ميلون لم يعلم شيئاً من أمره ولا بد من إرسال الأمر إلى العصابة بالحضور الى لندرا . وهنا جعل يفكر بطريقة تمكنه من إبلاغ العصابة ما يريد ولا شك أنه ظفر بها بدليل انه انقطع فجأة عن التفكير الى محادثة برنيت الجاسوس فقال له: إصغ إلي يا برنيت إنهم وضعوك في غرفتي لمراقبتي والوقوف

على أسراري .

فاضطرب برنيت وقال : ايها الرئيس ألم أتب توبة صادقة ؟ فما بالك توبخني هذا التوبيخ ؟

ـ إني لا أريد تأنيبك ، واصغ الى تتمة حديثي . ان الحاكم يزورني كل يوم ، وينظر اليك مستفهماً ، وهو يرجو أن تكون قد ظفرت ببعض أسراري .

ـ وأنا أعبث به وأخونه كما ترى .

ـ هو ذاك ولكني اريد ان تخونني اليوم .

فدهش برنيت وقال : أنا أخونك يا سيدي ؟!

ـ سوف ترى كيف أريد ان تخونني ، إني أريد بذلك انك تخدمني .

ـ إني مستعد للموت في سبيل إرضائك .

ـ إذاً ، إعلم انه لا بد أن يأتي الحاكم غداً ، أو يرسل أحد حراسه واذا جاء بنفسه أو اذا جاء الحارس فاغمز إشـــارة على انك عثرت على خبر خطير .

ـ ولكني اذا أشرت تلك الاشارة يدعوني الحاكم اليه .

ـ وهذا الذي أبغيه .

ـ إذاً ما أقول له ؟

ـ سأخبرك غداً بما يجب أن تقول ؟

وانقطع روكامبول عن الحديث فصرف ليلته بالتمعن والتفكير .

وفي اليوم التالي لم يحضر الحاكم بل أرسل الحارس واشار اليه برنيت تلك الاشارة السرية كما قدمناه .

فلما ذهب الحارس قال روكامبول لبرنيت : ان الحاكم سيدعوك اليه فيما أراه .

ـ دون شك .

- إذاً إسمع ما يجب ان تقول له .. قل ان الرجل المحبوس قد ائتمنني على سر من أسرار الارلنديين، وهو أن لهذه الطائفة مركزاً عاماً في باريس وزعيماً يدعي روكامبول .

فقال برنيت : ما هذا الاسم الثقيل ؟

فابتسم روكامبول وقال: ثم تقول انه يوجد وسيلة سهلة للقبض على هذا الزعيم الذي يدعونه روكامبول وهو أشد زعماء الارلنديين خطراً أما هذه الطريقة فهو ان يعلن في الجرائد السيارة ان روكامبول قد وقع في قبضة البوليس الانكليزي وزج في سجن نوايت .

فاعترضه برنيت قائلاً : ولكن روكامبول في فرنسا كما تقول فإذا قرأ ذاك الاعلان بقي فيها .

- ولكنك تظهر للحاكم غير ما تظن .

- كيف ذلك ؟

- ذلك ان روكامبول هرب من انكلترا ، لخوفه من مطاردة البوليس . واذا قرأ هذا الاعلان في الجرائد ، أيقن ان البوليس لا يطارده بعد ذلك ، لاعتقاده أنه سجين . فيعود روكامبول الى لندرا مطمئن البال .

- لقد فهمت .

ولم يتمكن الرجل المحبوس من متابعة الحديث ، لأن باب الغرفة فتح عند ذلك ، ودخل منه الحارس ، وقال لبرنيت : انك قد قدمت عريضة الى الملكة التمست بها تعديل الحكم عليك ، وقد قبلت جلالتها العريضة فاتبعني .

فتظاهر برنيت بالسرور العظيم وقال : الى أين ؟

- الى الحاكم لأنه يريد ان يتلو عليك الأمر بتعديل الحكم ، ونجاتك من الاعدام

فخرج برنيث يتبع الحارس وبقي الرجل المحبوس وحده وهو يقول في نفسه: ان النجاح مضمون الا اذا عرفوا اني أنا هو روكامبول .

- ٤ -

كان الحاكم ينتظر برنيث بفارغ الصبر فلما دخل اليه أخبره بجميع ما تلقنه من روكامبول فسر الحاكم سروراً عظيماً وقال لبرنيث: انه خبر عظيم سنكافئك عليه خير مكافأة .

– وهذا الذي ارجوه يا سيدي لأني ما رضيت ان أسجن نفسي طائعاً إلا طمعاً بمثل ما تعدني به .

فأعاده الحاكم الى سجن روكامبول وامر باحضار مركبة وذهب بها مسرعاً الى منزل الأسقف بترس تون .

وقد تقدم لنا في الأجزاء السالفة وصف ذاك الأسقف ولكي نزيد وصفه ايضاحاً تعرف به حقيقة منزلته لدى القراء نقول انه يشبه بزعامته الانجليكان زعيم الجزويت ، وله من التأثير على اسقف كانتوربوري ما لرئيس الجزويت من التأثير على البابا .

وقد لقيه حاكم السجن في منزله فلما دخل عليه وجده مكباً على الكتابة ولديه كثير من الرسائل الخطيرة .

اما الأسقف فانه ذعر لمنظر الحاكم وقال : ماذا ألم يبلك العلك اتيت لتنذرني بفرار الرجل المحبوس ؟

فابتسم الحاكم وقال له : ليطمئن مولاي ، لأني اتولى حراسة هذا الرجل بنفسي فلا يمكنه الفرار ، ولكني اتيت اخبرك انه باح للجاسوس ببعض اسراره .

– العله ذكر اسمه الحقيقي ؟

– كلا ولكنه قال ان اعظم زعيم للارلنديين مقيم الآن في باريس وانــه يتأهب لعمل سري عظيم .

– وما اسم ذاك الزعيم ؟

– روكامبول .

– اني ما سمعت بهذا الاسم الغريب قبل الآن فهل علمت شيئاً عنه ؟

– كلا غير ان الجاسوس عرض علي امراً يدل على ذكائه ويسهل القبض على ذاك الزعيم .

– ما هو هذا الخاطر ؟

– إن روكامبول برح انكلترا لتوهمه ان الشرطة تبحث عنه فلو نشرنا في المورنن بوست والتيمس ان روكامبول زعيم الارلنديين الشهير قد قبض عليه وزج في سجن نوايت يقف على الخبر حين مطالعته الجريدتين فلا يبقى له سبيل للخوف ويعود الى لندرا فنقبض عليه .

– انه فكر جيد على بساطته .

– أترى انه يجب إنفاذه ؟

– كلا فدعه الآن الى ان افكر فيه . وبعد فاعلم ايها الصديق ان مسألة الارلنديين لا اضعها في المنزلة الأولى من الاهتمام ، فاني اذا كنت قد بذلت ما بذلته من الجد والاهتمام في القبض على الرجل العبوس ، فما ذلك الا لأنه ساعد الأب صموئيل الأيمن .

وانت تعلم غيرة ذاك الأب العظيمة على الكنيسة واحترام اهل لندرا لاسيما الفقراء منهم بهذا الأب فلو تركته وشأنه ولو لم أقطع ساعده لأفسد علينا طائفتنا ورد كثيراً من قومنا الى طائفته .

– والرجل العبوس ماذا نصنع به ؟

– نحافظ عليه الى ان يصدر الأمر باعدامه فإن رئيس العدلية لا يريــد

محاكمته قبل ان يعرف اسمه الحقيقي .

– ولذا ارى انه لا بد من القبض على روكامبول لأننا اذا قبضنا عليه نعلم منه حقيقة اسم الرجل المبوس .

– لقد اصبت ولكن لا تنشر الآن الاعلان في الجرائد واصبر الى المساء اخبرك ما يجب ان نصنع .

وبعد هنيهة عاد الحاكم الى سجنه وارسل الأسقف الى ادارة التلغراف ، فأرسل الرسالة الآتية :

« باريس .. السير جمس وود .

« في اوتيل دي لوفر .

« أتعرف زعيماً للارلنديين يقيم الآن في باريس ويدعى روكامبول ؟ »

« بترس تومن »

وأقام الأسقف في منزله جميع نهاره ينتظر الرد ، فلم يرد ذلك لأن السير جمس كان في تلك البئر التي سجنه فيها مرميسن كما يذكر قراء رواية تلميذ روكامبول .

فلما سئم الأسقف من ورود الجواب شغل باله وذهب الى اللورد بالمير فقال : أوردت اليك رسالة من السير جمس ؟

– كلا .

فأخبره الأسقف بما كان بينه وبين حاكم السجن ، وبانشغال باله لتأخير جواب السير جمس .

فطمأنه اللورد وقال: لا شك ان السير جمس يبحث الآن عن روكامبول ولا يستطيع ان يجيبك قبل ان يقف على اثره .

فخرج الأسقف من عنده مطمئناً وارسل يخبر حاكم السجن كي يرسل الاعلان الى الجريدة فكتب الحاكم الخبر كما يأتي :

« ان هذا الرجل الذي يدعونه روكامبول ، وهو أشد زعماء الأرلنديين

الذين طالما أقلقوا الحكومة بدسائسهم ، قد قبض عليه في دبلين وسيرسل إلى انكلترا ، والمرجح انه يسجن في نوايت إلى أن تتم محاكمته »

وقد كتب منه ثلاث نسخ فأرسلها إلى التيمس ، والمورنن بوست ، وافنن ستار ، وهي أشهر الجرائد الانكليزية ، وجعل يفرك يديه فرحاً ويعلل نفسه بالقبض على روكامبول ، وهو لا يعلم أن روكامبول في سجن نوايت وانه قد سقط في فخ روكامبول .

- ٥ -

يرى القراء ان حيلة روكامبول قد جازت على الحاكم والأسقف .

أما الحاكم فقد كان شديد الاعجاب بنفسه لاعتقاده انه أقنع ذلك الأسقف وحمله على رضاه عنه ، أما الأسقف فإنه صبر إلى اليوم الثاني فلم يرد اليه جواب السير جمس فزاد انشغاله وكثرت هواجسه .

وما زال يضرب أخماساً لأسداس ويرسل الأنباء البرقية تباعاً إلى السير جمس حتى ورد اليه الجواب البرقي كما يأتي :

« بولونيا في الساعة السابعة صباحاً .

« روكامبول سافر إلى لندرا عند انتصاف الليل بطريق كابس وهو مصفر الوجه أسود الشعر والشاربين تصحبه امرأة شقراء سوداء العينين .

« اني انتظر أوامركم في اوتيل اسبانيا » .

« السير جمس »

فأجابه الأسقف بما يأتي :

« فهمت مرادك أخبرني عن مس الن » .

وبعد ساعة وصل اليه من السير جمس ، أو من الذي استعار اسمه ،

هذا التلغراف :

« مس الن لا تزال في قبضتنا كن مطمئناً عليها » .

ولما تزود الأسقف بهذه الأخبار ذهب إلى إدارة البوليس ، فأطلع المدير على ما جرى ، ووصف له روكامبول والمرأة التي تصحبه ، ووعده مدير البوليس خيراً وضمن له القبض عليه حين وصوله ، فتركه الأسقف وذهب إلى سجن نوايت .

ولما لقيه الحاكم قال : كيف رأيت أتظن ان الرسائل التي نشرتها في الجرائد تسفر عن نتيجة حسنة ؟

-- بل اسفرت عن خير النتائج فاقرأ هذا التلغراف ؟

ثم عرض عليه تلغراف السير جمس فقرأه الحاكم وقال : اذاً أتظن أن روكامبول في لندرا ؟

- بل هو في الطريق اليها فان السير جمس من أحذق رجال البوليس ولو لم يكن واثقاً من سفره لما أنبأني .

- وهذا الجاسوس الذي وضعته مع الرجل العبوس من أهل الحذق والذكاء أيضاً فقد حمل بدهائه الرجل العبوس على الوثوق به كل الثقة .

- العله استطلع منه سراً جديداً ؟

- نعم ، فان الرجل العبوس قال له : انه لو كان روكامبول في لندرا ، وتيسر لي أن أحادثه لاستتب النصر لارلندا وسلمت أنا من الشنق .

-- أهو قال هذا القول ؟

- نعم يا سيدي ، وقد خطر لي خاطر أرجو أن يكون صواباً ، وهو ان أنقل الرجل العبوس مع جاسوسه إلى غرفة متسعة بحيث أضع فيها ثلاثة أسرة ، حتى إذا تيسر القبض على روكامبول وضعناه مع الاثنين في غرفة واحدة .

-- كيف ذلك أتحقق أمنية الرجل العبوس وتجمعه بروكامبول ؟

— دون شك فإننا نعلم بواسطة الجاسوس هذا السر العظيم وكيف ينجو من الشنق إذا اجتمع بروكامبول .

— اني أرى رأيك ، فإننا قد نستطيع سماع حديثها بغير واسطة الجاسوس أيضاً ، فافعل ما اقترحته وتأهب لاستقبال روكامبول ، فلا بد من القبض عليه .

ثم تركه وانصرف إلى منزله فورد في الساعة الخامسة تلغراف ولكنه كان موقعاً عليه بامضاء البوليس ادورد بدلاً من السير جمس .

وكان الأسقف يعلم أن إدورد قد سافر مع السير جمس بمهمة واحدة فقرأ التلغراف وهو كما يأتي :

« اقتفيت بأمر السير جمس أثر الرجل الذي تريدون الوقوف على أخباره فهو سيقيم في دوفر نهاراً وليلة وسيسافر مع المرأة التي تصحبه في قطار الساعة السابعة من المساء ، وسأوضح السبب في اقتفاء أثرهما بدلاً من القبض عليهما » .

« ادورد »

فلما اتم الأسقف تلاوته قال في نفسه : لا شك ان السير جمس من أمهر رجال البوليس ولا بد أن أكافئه مكافئة توازي هذه الخدمة الجليلة .

* * *

ولنعد الآن إلى حاكم السجن فانه بعد انصراف الأسقف قال في نفسه : اني سأنقل الرجل المحبوس وجاسوسه صباح غد إلى الغرفة ذات الثلاثة أسرة ، وسأظفر بالوقوف على أسرار روكامبول .

وكان قد تعود بعد أن بدأ الجاسوس يخبره بأسرار الرجل المحبوس أن يزوره في محبسه كل يوم ويبالغ في ملاطفته وتخفيف شقائه

وقد ذهب اليه بعد انصراف الأسقف وقال له : كيف تجد نفسك في

هذه الغرفة ؟

– اني متمتع فيها من فضلك بأتم الراحة .

– كلا بل هي رطبة وقد تؤذيك .

– لم أر فيها ما يدل على الرطوبة .

– ولكنها ضيقة أيضاً وسأنقلك إلى غرفة اعظم اتساعاً بحيث قد تكونوا فيها ثلاثة بدلاً من اثنين .

فأرتعش روكامبول فقال : العلك تريد التفريق بيني وبين برنيت ؟

- كلا بل ربما أضع معكما رفيقاً ثالثاً أظن أنك تعرفه إذا ذكر لك اسمه فإنه يدعى روكامبول .

فتكلف روكامبول هيئة الاضطراب وقال : إنك مخطىء يا حضرة الميلورد فهذه أول مرة سمعت فيها اسم روكامبول .

وأقام الحاكم هنيهة معه ثم انصرف ، ولما خلا برنيت بروكامبولقال : الحق اني لا أفهم شيئاً من هذه الألغاز .

فابتسم روكامبول وقال : ستعلم كل شيء متى آن الآوان .

ثم انصرف إلى التفكير وجعل يقول في نفسه : لا أدري إذا كان ميلون قد تسمى باسمي ودعا البوليس يقبض عليه ، أو هو مرميس ، ولكن لا بد ان يكون واحداً من الاثنين وعلى ذلك فلا بد من ورود أنباء جديدة .

وقد أخطأ روكامبول في حسابه خطأ ضعيفاً جداً لا بد لنا في إيضاحه من الرجوع إلى الماضي لإيضاح تلك الأنباء البرقية التي خدع بها الأسقف وحاكم السجن .

ان مرميس حين قبض على السير جمس وسجنه في البئر كما تقدم في رواية تلميذ روكامبول بالغ في اخفاء أمره والحذر من وقوف أحد على أمره .

ويـذكر القراء أن الشرطي إدوارد ، اي رفيق السير جمس ، بات من رجال مرميس ، ولكن رجال الفندق الذي كان يقيم فيـه السير جمس كانوا يعلمون ان ادوارد والسير جمس واحد ، فكان ادوارد يحضر بأمر مرميس مرتين أو ثلاثة في كل يوم إلى ذلك الفندق لاستلام الرسائل التي ترد إلى السير جمس ، وقد أوهم عمال الفنـدق ان رفيقه قد سافر في بعض الشؤون فكانوا يدفعون اليـه كل ما يرد باسم السير جمس لوثوقهم من اتفاقهما واشتغالهما في خدمة واحدة .

وعلى ذلك فان ادوارد استولى على الرسائل التي تبودلت بين الأسقف وبين السير جمس ودفعها لمرميس فعلم منها لفوره ما اصاب روكامبول .

كان الذي علمه من الرسائل ان الرجل المحبـوس في سجن نوايت وانهم سيحاكمونه دون شك وقد يحكمون عليه بالاعدام .

ولكنه علم أيضاً من رسائل الأسقف انه لا يمكن الحكم على المحبوس قبل معرفة اسمه الحقيقي وانهم لم يظفروا به إلى الآن فعول على الأسراع إلى لندرا مع رفاقه للاهتمام بانقاذه .

وقبل ان يسافر ارسل ادوارد إلى الفندق عله يقف على رسالة جديدة .

وكان قد قرر قسمة العصابة إلى ثلاثة أقسام يسير كل قسم منها بطريق ثم يلتقون جميعهم في محل واحد ويسيرون من منزل مرميس

ولما اجتمعوا عنده وتأهبوا للسفر أقبل ادوارد قادماً من الفنـدق ودفع لمرميس رسالة برقية معنونة باسم السير جمس .

وكانت نفس الرسالة التي ارسلها الأسقف إلىالسير جمس يقول له فيها أبحث

عن زعيم للارلنديين يدعى روكامبول فانه في باريس .

فلما تلا مرميس الرسالة دهش لها وأعطاها لفاندا فتلتها ثم تلتها مس الن فدهشوا جميعهم وجعل كل منهم ينظر الى الآخر دون ان يتكلم .

وبعد سكوت قصير قال مرميس : انه لم يعد بد من الاسراع في السفر فاني أرى ان لروكامبول يداً في هذه الرسالة الغريبة .

فقالت فاندا : كيف رأيت ذلك ؟

- ان روكامبول قد اعتمد بعض الاعتماد علينـــا حين دخوله إلى سجن نوايت ، ولكنه قد اعتمد على نفسه أيضاً . وأننا اذا بحثنا في رسائل الأسقف الى السير جمس ، نجد أن قضاة الانكليز يبحثون عن حقيقة اسم الرجل المبوس ، ولا يحاكمونه قبل أن يعرفوه فلا بد ان يكون روكامبول قد فتن قاضي التحقيق وأضله .

- أو تظن ذلك ؟

- بل اؤكد انه إذا كان الأسقف قد ذكر اسم روكامبول فان الرجل المبوس قد ذكره قبله .

- ولكن لأي قصد ؟

- لا أعلم ولكني واثق ان روكامبول قد وضع خطة فلا ينبغي علينـا أن نفسدها .

وعلى ذلك قرروا الاسراع بالسفر فوصلوا في الساعة الخامسة من مساء ذلك اليوم الى بولينا .

وكان الفصل فصل شتاء والبحر مزبداً، قال مرميس للجماعة : اننا نبيت هنا ونسافر في الصباح .

فقالت فاندا لماذا لا نسافر الليلة ؟

- لأني اريد ان ارسل رسالة الى الأسقف أسبر فيها غوره ، ولا بأس إذا بلغنا لندرا في المساء بدلاً ان نصل اليها في الصباح .

فقالت مس الن : ولكني ارى أن الوقت لا يجب أن نضيعه .

– اطمئني يا سيدتي فلا بد لنا من انقاذه .

ولم ينم مرميس إلا غراراً تلك الليلة فانه كان يمعن فكره طول الليل ويقول في نفسه : لا شك أن روكامبول يهزأ بقضاته وسجانيه .

وعند الصباح نزل الى قاعة الفندق فرأى ميلون فيها يقرأ الجرائد الانكليزية ثم رآه أصفر وجهه فجأة فاسرع اليه وقال له ماذا اصابك ؟

فاجابه بصوت يتهدج . خذ واقرأ ، ثم اعطاه جريدة التيمس التي كان يقرأ فيها ودله باصبعه على ذلك الخبر الذي نشره حاكم السجن كما تقدم عن القبض على روكامبول .

فلما قرأ مرميس هذا الخبر صاح صيحة فرح دهش لها ميلون وقال : ألعل القبض على روكامبول يسرك يا مرميس ؟

-- كلا ، ولكنك أبله يا ميلون .

– كيف حكمت علي بالبلاهة ؟

- دون شك ، ان هذا الخبر الذي قرأته خير برهان على صدق ما كنت مرتاباً فيه ، ان روكامبول يهزأ بالبوليس ، والبوليس يعتقد أن روكامبول صديق الرجل العبوس ، ومما يدلك على أن لروكامبول يداً في هذه الأمور انه مسجون في سجن نوايت منذ خمسة عشر يوماً فكيف يقبض عليه في دبلين منذ يومين وعندي انه هو الذي حمله على نشر هذا الخبر .

– ولكن أي قصد له بهذا الخبر الغريب ؟

– ان قصده أن ينبهنا إذا لم تستطع مس الن الاهتداء الينا ، واخبارنا انه بحاجة الينا .

ثم خرج من الفندق وقال له : اتبعني .

- الى أين ؟

– الى مركز التلغراف ، اني اريد ارسال رسالة برقية الى الأسقف .

– باسم السير جمس ، فان الشرطي ادوارد مقيم باسمه في فندق اسبانيا .

- وأية فائدة من هذه الرسالة ؟

– الفائدة منها أن الأسقف يجيب السير جمس عليها إذا كانوا قبضوا حقيقة على رجل دعا نفسه باسم روكامبول .

ولما وصلا الى التلغراف ارسل الرسالة الآتية :

« ان روكامبول سافر الى لندرا عند منتصف الليـل بطريق كاليس وهو مصفر الوجه اسود شعر الشاربين تصحبه امرأة شقراء سوداء العينين » .

فقال ميلون وقد اطلع على الرسالة : ولكن هـذه الأوصاف كلها تنطبق عليك وعلى فاندا .

– هو ما تقول فان لي بذلك مآرب سوف تعلمها .

وأقام مع ميلون في إدارة التلغراف ينتظر ورود الجواب .

- ٧ -

ولم يطل انتظار مرميس فقد ورد اليه من الأسقف هذا الجواب الوجـيز باسم السير جمس وهو (فهمت المراد فما فعلت بمس الن ؟)

فرفع مرميس التلغراف إلى ميلون وقال : ارأيت كيف ان روكامبول يهزأ بهم ؟

– لقد بدأت أن أرى رأيك ، ولكن ..

– ولكن ماذا ؟

– بقي أمر لم أفهمه وهو لماذا أظهرت ملامحك في التلغراف المرسل إلى الأسقف ؟

- كي يسهل القبض علي بصفة روكامبول .

ولماذا تريد أن يقبضوا عليك ؟

كي يرسلوني إلى سجن نوايت فاجتمع فيه بروكامبول وأتلقى أوامره لأنه إذا كان هذا الخبر المنشور في الجرائد من صنعه كما أرى فهو إنما أراد به أن نعلم غايته ونبذل الجهد للوصول اليه في نوايت .

– إن الوصول إلى نوايت قد يكون سهلاً ، ولكن الخروج منه ليس بالأمر السهل .

– بل أخرج منه ويعتذرون لي كل الاعتذار عن القبض علي .

– كيف ذلك ؟

– ذلك ان السفارة الفرنسية تخرجني .

ثم ابتسم وتابع : إن ماضي حياتي قد بعد بعداً شاسعاً عن الأذهان ، لقد مر بي ستة أعوام أعيش فيها عيش النبلاء ، فلا أجلس إلا في أعظم المنتديات ولا أعاشر إلا أكابر القوم ، فإن كل الناس يعرفون اني أدعى فيلكس بيتافن واني واسع الثروة كثـير البر والاحسان ، وقد كثرت علائقي مع نخبة الناس ، ولاسيا المركيز س ... السكرتير الأول في سفارة فرنسا في لندرا ، فإنه من أخلص أصدقائي ، ولذلك إذا رأيتهم يقبضوا علي فـلا تعترض ودعهم يفعلوا .

– وبعد ذلك ؟

– يجب أن أقيم يومين في سجن نوايت ..

وبعد هذين اليومين ؟

– بعد ذلك تذهب إلى السفارة الفرنسية وتدفع هـذا الكتاب الذي سأكتبه إلى المركيز س .

ثم ذهبا إلى الفندق فكتب مرميس الكتاب الآتي :

« صديقي المركيز ..

« يظهر ان انكلترا قد أصبحت بلاد العجائب ، وان بوليسها بات من أهل

الخيال وهذه حكايتي في تلك البلاد التي يدعونها بلاد الحرية ومع بوليسها الذي اشتهر بالحذق فاسمعها .

« لقيني أحد رجال البوليس فحسبني من أولئك الارلنديين الذين أقلقوا خواطر رجال البرلمان فقبض علي قبض المجرمين وهو يحسبني أحد زعماء هذه العصابات .

« وقد أطلعته على أوراقي وبرهنت له عن صحتها وذكرت له اسمي ، فأبى إلا أن يدعوني روكامبول ، ولكني استمهلته ريثما أكتب هذه الرسالة الوجيزة ودفعتها إلى خادم غرفتي ، وأنا مضطر أن أبيت هذه الليلة في سجن نوايت .

« ثم أن هذا البوليس لم يقتصر على اتهامي بل يؤكد لي اني سأشنق بعد ثلاثة أيام ولكنك لحسن حظي في لندرا »

« صديقك »

« فيلكس بيتافن »

وبعد أن كتب هذه الرسالة اعطاها لميلون مع كتاب آخر وقال له : إنك تذهب إلى السفارة بهذه الرسالة بعد ان يقبضوا علي بيومين .

فقال ميلون : ولكن المركيز قد لا يكون في لندرا فإذا اتفق ذلك فماذا اصنع ؟

– كلا بل هو فيها فقد ودعته في باريس منذ ثلاثة ايام وشيعته الى المحطة إذ كان عائداً الى السفارة في لندرا .

وبعد أن فرغ من هذه المهمة مع ميلون كتب رسالتين برقيتين ونادى الشرطي ادورد فأعطاه إياهما ، وكانت إحداها بتوقيع السير جيمس ، وهي التي تلقاها الأسقف وفيها إشارة الى ان مس الن لا تزال تحت الحفظ ، والثانية بتوقيع الشرطي ادورد أرسلت أيضاً الى الأسقف من دوفر .

ولما أطلع عليهما ادورد قال : لم أفهم المراد من هاتين الرسالتين .

- ولكن أمرهما بسيط فان الأسقف لا بد ان يكون أبلغ الشرطة بعد ان وصل اليه تلغراف الصباح ، وعلى ذلك فإن الشرطة متربصة في كل المحطات ، واذا كنت أريد أن اكون حراً يوماً وليلة في لندرا يجب ان ينتظروني في دوفر ، في حين انني سأصل في قطار فولكستون الذي سأسير فيه بعد ساعة .

- حسناً لقد فهمت .

- إذاً اصغ الي انك تسافر بطريق كاليس الى دوفر فترسل منها الرسالة الثانية ثم تسافر في الحال الى لندرا وتذهب حين وصولك تواً الى منزل الأسقف .

- وماذا اقول له ؟

- تقول انك تركتني ، أي تركت روكامبول في دوفر وعينت بوليسين لمراقبتي وأتيت لتتلقى اوامره .

- وأين اراك ؟

- غداً مساء في كوفان غاردن في خمارة افنس .

- سأوافيك في الموعد المعين .

ثم تركه وسافر الى كاليس .

أما مرميس وعصابته فانهم سافروا في باخرة الظهر ، وبعد ساعتين كانوا سائرين في طريق لندرا وقد ملأت جرأة مرميس قلب مس الن املا ووثقت من الفوز في انقاذ روكامبول .

- ٨ -

وقد سافروا ثلاث عصابات كي لا يستلفتوا اليهم الانظار الى فولكستن ، وركبوا القطار الى لندرا ، فكانت فاندا ومس الن العصابة الأولى، ومرميس وميلون الثانية ، والبقية الثالثة .

وكانت مس الن متنكرة اتم التنكر بحيث لو رآها ابوها لما عرفها ، فلما وصل القطار الى لندرا نزلت فاندا ومس الن الى محطـــة كانتس سكريت وكذلك رجال العصابة ، ما خلا مرميس وميلون فانهما بقيا في القطار الذاهب الى محطة شارنغ كروس .

ولما وصل القطار الى تلك المحطة رأى مرميس فيها نحو عشرة من رجال الشرطة ، فقال لميلون : انظر الى رجال الشرطة فانهم كلهم قـــد اتوا للقبض علي .

فذعر ميلون خلافاً لمرميس فانه كان يصدر اوامره الى ميلون باللغـة الانكليزية وبلهجة أهل البلاد حتى لقد توهم البوليس بالرغم من سواد شعره ، انه انكليزي من ضواحي لندرا، وفوق ذلك فان الرجل الذي كانوا ينتظرونه كانوا يتوقعون ان يجدوا معه امرأة كما ورد للأسقف فلم يعترضوه .

وعند ذلك خرج مرميس مع ميلون من المحطة وقال له : هلم بنا الآن الى فندق التيجان .

– وماذا نعمل بذلك الفندق ؟

– نتعشى ..

– وبعد ذلك ؟

– ننام .

- وغداً ؟

- غداً نتنزه ونقرأ الجرائد ونمتع النظر بمشاهدة الحسان في الحدائق .

-- ألا نقابل فاندا ؟

- نقابلها بعد أن نقابل ادوارد فإني لا أستطيع أن أعمل شيئاً قبل أن أراه

- والسير جمس ماذا نصنع به فانه منذ يومين في الصندوق ولم نطعمه إلا في بولونيا .

- سنوقظه في هذه الليلة .

- وماذا نصنع به بعد ذلك ؟

- نطلق سراحه مؤقتاً .

- ألا تخشى أن يخوننا ؟

- اني أخاف خيانته في باريس ، وأما في لندرا فهو الذي يخافني .

- كيف ذلك ؟

- ذلك أن الارلنديين قد عرفوه بعد الكتاب الذي كتبته إلى الأب صموئيل وهم لا يرحمون من يخونهم .

فاقتنع ميلون بما سمعه وذهب مع مرميس إلى الفندق ، وفيما هما جالسان على المائدة ، أقبل رجل عليه مظاهر النبل فحياهما وجلس بقرب مرميس .

ولم يكن مرميس من جمعية الارلنديين ولكنه كان قد كتب إلى الأب صموئيل بصفته صديق الرجل المحبوس .

أما الرجل الذي جلس بقرب مرميس فانه حياه وقال له باللغة الفرنسية : الست يا سيدي الرجل الذي ينتظره الأب صموئيل ؟

-- ربما ..

فأخرج الرجل ورقة من جيبه وهي رسالة من الأب صموئيل وقال : إننا ننتظرك يا سيدي بفارغ الصبر ، فاننا كنا متفرقون في جميع محطات لندرا ،

وهم لم يفتحوا صناديقك بالجمرك والمحطات التي نزلت منها الآن ، لأن أكثر رجالها من جمعيتنا .

فنظر مرميس إلى محدثه نظر المنذهل وقال : لكن كيف عرفتم بقدومي وأنا لم أكتب للأب شيئاً عنه ؟

ـ ذلك لأننا أرسلنا جواسيسنا فراقبوك من باريس حتى وصلت هنا ، وقد ورد الينا تلغراف باصطلاحات لا يفهمها سوانا علمنا منه انك قادم بذلك الخائن الذي دعا نفسه السير جمس بعد ان خاننا حذراً منا وانك قد خدرتـــه ووضعته في صندوق .

ـ لقد صدق من أخبركم فانك تقول الحق .

ـ وأنا قادم لأخذ هذا الخائن .

فقطب مرميس حاجبيه وقال : إذاً لا يريد الأب صموئيـل أن يفي بمـا وعدني به .

ـ ان الأب صموئيل لا ينكث وعداً يا سيدي .

ـ ولكن ماذا تريدون أن تصنعوا بالسير جمس ؟

ـ اننا نريد أن نطمئن بالقبض عليه وثق أننا لا نؤذيه .

ـ إذاً أرجو أن تمهلني إلى أن نتم العشاء فنصعد معاً إلى غرفتي وأسلمك الأسير .

ـ ألديك طريقة سريعة لإيقاظه ؟

ـ اني اوقظه بدقيقة ..

فانخرط الرجل في سلكهما وتمشى معهما وجعـــل الثلاثة يتحدثون ويتنادمون حتى توهم رجال الفندق أن الرجل من اصدقائهما ، فلما طلب غرفة في الفندق مجاورة لغرفتيهما اسرعوا إلى تلبيته .

وبعد أن فرغوا من العشاء صعد الثلاثة إلى غرفة مرميس ، وكان الصندوق الذي وضعوا فيه السير جمس في الغرفة ، قد ثقبوه من جوانبه كي يتصل

به الهواء ، ففتحوا الصندوق واخرجـه ميلون منه جثة باردة ، ووضعـه فوق السرير .

وعند ذلك أخـذ مرميس زجاجة صغيرة تحتوي على سائل أخضر فصب منه بضع نقط في فم السير جمس فارتعش لفوره ورجفت عينـاه ، وفتحت شفتاه وصبر مرميس هنيهة ، وصب في فمه بضع نقط ايضاً فانتفض السـير جمس واستوى جالساً في السرير وقد فتح عينيه ، ولم يكد ينظر ذلك الرجل الذي كان مع مرميس حتى عرفه واضطرب وظهرت عليه علائم الذعر .

وقال له الرجل ببرود : ارى انك قد عرفتني .

فجعل السير جمس وود يضطرب ويرتجف وهو لا يعرف ماذا يقول .

- ٩ -

وعند ذلك قال مرميس للسير وود : لا تخف إذا كنت أسيرنا فاني مـا نكثت بوعدي بعد ان علمني رجل يدعى روكامبول أن احترم العهود ولكنك تذكر دون شك اني ما وعدتك بالحماية إلا بشرط ان تخدمني باخلاص ووفاء فاذا وفيت بوعدك لا يصيبك مكروه .

ثم التفت إلى الارلندي وقال له : اليس كذلك يا سيدي ؟

فأجابه قائلا : دون شك فان عهودنا مقدسة .

فقال مرميس للسير وود : إني أعهد بك الآن إلى هذا الرجل النبيل وهو يقسم لي انك لا تصاب بأقل أذى إذا لم تحاول إيذاءنا لأنه يعلم إني وعدتـك هذا الوعد باسم الرجل العبوس .

فقال الرجل . هذا أكيد وسنفي بالوعد والآن يا سيدي ماذا تريد ان نصنع ؟

- اني أترك الخيار للسير وود بين أن يبقى هنا أسيراً على أن يقسم بشرفه أن لا يفر وبين أن يتبعك .

فقال السير وود وقد نظر نظرة ملؤها الرعب إلى الارلندي : اني أؤثر البقاء هنا .

ونظر الارلندي إلى مرميس وقال : أتأذن لي بابداء رأيي ؟

- ما هو ؟

- هو ان يبقى وود عندنا الى أن يخرج الرجل المحبوس من السجن .

فقال ميلون : وأنا أرى رأيك ايضاً وهو نعم الرأي .

فانطرح السير وود عند ذلك على قدمي مرميس وقال : ارحمني يا سيدي ولا تلقيني في قبضة الارلنديين .

فقال له مرميس: ومما تخاف إذا كنا لا نؤذيك ؟

فأطرق السير وود برأسه الى الأرض وقال له الارلندي : إنني وعدتك بأن لا اؤذيك وأنت تعرفني .

غير ان السير وود لم يجبه فذهب الارلندي إلى النافذة وقال للشرطي : اعلم يا جيمس إنني إذا نظرت من هذه النافذة وأشرت إشارة أسرع الي ستة رجال أشداء فيبدأون بعقابك ، على اني أعيد عليك ما قلته وهو انك إذا تبعتني طائعاً مختاراً وفينا بما وعدك به الذي قبض عليك .

فقال له مرميس : اتبعه ولا تخف فاني أقسم لك باسم الرجل المحبوس ان تكون آمناً كل خطر .

ولم يسع السير جمس بعد ذلك إلا الامتثال وسار مع الارلندي مكرهاً مضطراً وهو يقدم رجلاً ويؤخر أخرى .

ولما خلا ميلون بمرميس قال له : اني كنت أؤثر أن يبقى السير جمس في البئر بمراقبة أحد وكلائي فلا يشغل بالنا في شيء .

- هو ما تقول ولكنه يخدمنا في لندرا خدمات لا يستطيع ان يأتيها

وهو في البئر .

فهز ميلون كتفيه وقال : اني لا أضمن صدقه فيما وعد .

— لكنه يضمن نفسه فاذا لم يخدمنا كما نريد لا يكون جزاؤه غير الموت

— لكنه قد يضحي حياته في سبيل انتقامه فان الانتقام عند بعض الناس أفضل من الحياة فاني حين كنت في سجن طولون مع روكامبول لقيت بين أولئك المجرمين من لا يكترث للموت في سبيل أغراضه .

— قد تكون مصيباً فيما قلته ، ولكن لا خوف علينا الآن منه ما زال في قبضة الارلنديين فلنقصر اهتمامنا الآن على الافتكار بانقاذ الرجل العبوس أي رئيسنا روكامبول .

ثم دخل الى غرفته فنام فيها نوماً هادئاً إلى الصباح وعند الظهر تلقى مرميس رسالة من فاندا قالت له فيها : انني مع رفيقتي بخير وعافية ونحن ننتظر أوامرك بفارغ الصبر لأنك انت الذي يتولى رئاستنا في هذه المهمة .

ولم يفترق مرميس وميلون كل ذلك النهار وعند المساء ذهبا الى خمارة نافرن فوجدا الشرطي ادوارد ينتظرهما فيها فجلسوا كلهم حول مائدة وجعلوا يتحدثون بصوت منخفض فسأله مرميس : قل لنا ماذا حدث .

— حدث انك أصبت في ظنك فان الرجل العبوس يهزأ بالحاكم والبوليس والأسقف .

فابتسم مرميس وقال : احقاً ما تقول ؟

— نعم فقد وضعوا معه في سجنه جاسوساً ولا شك انه فتن الجاسوس فانقلب جاسوساً على الذي عينه .

فقال ميلون : ان ذلك لا يدهشني فان لعينيه سلطاناً نافذاً على القلوب .

وقال مرميس : ماذا فعل هذا الجاسوس ؟

— أخبر الحاكم ان الرجل العبوس يعتمد في انقاذه من سجنه على زعيم ارلندي في باريس .

فابتسم مرميس ايضاً وقال: ان هذا الزعيم يدعى روكامبول اليس كذلك؟

فدهش الشرطي وقال : هو ما تقول ، وان الجاسوس نفسه اشار عليهم بأن ينشروا ذاك الخبر الذي قرأته في الصحف ؟

« — وماذا علمت من الأسقف ؟

— علمت انه يذوب شوقاً الى القبض على روكامبول وانهم معتمدون على وضعه مع الرجل العبوس .

فضحك مرميس ضحكاً عالياً وقال لميلون : يجب ان تذهب الى فاندا وتخبرها انهم سيقبضون علي غداً صباحاً .

— اني ذاهب الآن فأين اراك ؟

— في الفندق الذي اقيم فيه .

ثم قال لادوارد : لا فائدة من القبض علي الآن فيجب ان ندبر طريقة القبض علي في الصباح .

— اين ؟

— في فندق التيجان في مريري .

فقال له ادوارد : ان الدخول الى سجن نوايت سهل ، ولكن كيف تخرج منه ؟

— لقد اعددت السبيل لخروجي وأعطيت ميلون التعليمات اللازمة فاطمئن ، والآن فانصرف واكتب الى الأسقف واخبره انك عالم اين يوجد روكامبول .

فانصرف الشرطي وذهب مرميس الى الفندق لينام .

ولنعد الآن الى روكامبول ، او الرجل العبوس كما يدعونه في السجن ، فان الحاكم نقله الى غرفة متسعة وذهب لزيارته بعد نقله فقال له : لدي خبر يسرك وهو انه سيكون لك رفيق ثالث .

فابتسم الرجل العبوس وقال : إذاً التمس منك ان ترسل لنا ورقاً للعب فاننا نلعب لعبة الويست ما زلنا ثلاثة الا اذا كان هذا الضيف يجهل هذا النوع من اللعب .

وضحك الحاكم قائلا : ولكنك تعرف هذا الرجل أكثر مما أعرفه أنا فهو صديقك روكامبول .

- لقد قلت لك يا حضرة الميلورد اني ما سمعت هذا الاسم الغريب قبل الآن .

ونظر اليه الحاكم نظرة الهازىء ثم قال له بلهجة المتهكم : اذاً قد أخطأوا بالقبض عليه .

- من هم ؟

- البوليسان اللذان أرسلناهما إلى فرنسا .

فوقف الرجل العبوس عند هذا الحد من الحديث ، غير أن الحاكم عاد إلى الكلام فقال له : ربما أكون قد أخطأت فيما قلته لك من أن روكامبول سيجتمع بك اليوم ، لأن ذلك قد يكون غداً ..

- أين سجنته الآن ؟

- لم أسجنه بعد ولا أزال في انتظاره .

- إذاً قد قبضوا عليه ؟

- يجب ان يكون قضي الأمر .

- ألم تره ؟

- كلا .

فتأوه الرجل العبوس وقال كنت أرجو ان اعرفه من اوصافه لو ذكرتها لي فإنه قد يكون غير اسمه كما غيرته أنا .

- اني لم أر هذا الرجل كما قلت لك ولكنهم ذكروا لي أوصافه فهو معتدل القامة لا يزال في مقتبل الشباب وهو أسود شعر الشاربين وقد جاء إلى لندرا تصحبه امرأة .

- أهذه هي كل أوصافه ؟

- نعم ..

- كأنك لم تقل لي شيئاً لأن هذه الصفات يكثر تشابهها بين الناس .

- ذلك أكيد ولكنك ستراه لأنه سيسجن معك .

ثم ودعه وانصرف فنظر الرجل العبوس إلى برنيت وقهقه ضاحكاً فقال له الجاسوس : ارى انك قد عرفت هذا الرجل .

- دون شك ..

- يظهر انهم خدعوا به وانه ليس روكامبول .

- كيف يكونه أيها الصديق وأنا هو روكامبول .

فأجفل الجاسوس لهذا الدهاء وتمثلت له عظمة هذا الرجل مما زاده احتراماً وخضوعاً له فقال له روكامبول وهو يبتسم . انهم لو قالوا لك منذ ثمانية أيام اني أستطيع وانا في سجن ان أخابر رجالي بواسطة الجرائد أكنت تصدق هذا الزعم ؟

- كلا لأن ذلك محال .

- ولكنك ترى انه بات من الممكنات وهنا لا بد لي من الثناء على البوليس الانكليزي فانه خدمني بملء الغيرة والإخلاص .

فقال له برنيت : ولكني إلى الآن لم افهم حق الفهم مشروعك

. إذاً إسمع انهم قبضوا علي وأودعوني هذا السجن المنيع بحيث امتنعت

عني سبل الخلاص بواسطة أصحابي في الخارج .

وان لي في فرنسا عصابة يسفك رجالها دماءهم في سبيلي ولكنهم لا يعلمون اني سجين فاحتلت هذه الحيلة كي يعلموا اين انا ويحضروا الي .

– ولكنهم إذا حضروا وجعلوا البوليس يقبض عليهم لا يستطيعون إفادتك بشيء .

– انك مخطىء ايضاً لأن هذا الفتى الذي سيقبضون عليه باسم روكامبول هو ولد تبنيته لذكائه وانطباعه على الخير فهو قد عرف دون شك ان هذا الخبر المنشور في الجرائد إنما كان من صنعي فهو قد حضر الى لندرا كي يراني ويتلقى أوامري .

– وكيف يخرج لتنفيذ الأوامر ؟

– سوف ترى فاطمئن . ولم يكد العبوس يتم كلامه حتى سمع في الرواق خطوات الحراس ثم فتح باب غرفته وظهر حاكم السجن في طليعة الحراس وهم يقودون رجلاً بملابس السجن .

ونظر روكامبول الى هذا السجين دون اكتراث وكان الحاكم يراقبه كل المراقبة فلم يبد له ما يدل على التعارف بين الاثنين .

اما برنيت فانه نظر الى الحاكم نظرة تشير الى ان هذين الشقيين يعبثان بك ، فأدرك معنى الإشارة وقال للرجل العبوس : هوذا الذي اخبرتك عنه وهو فرنسي يدعى روكامبول .

فابتسم الرجل العبوس وقال لهذا السجين الجديد : ان اسمك غريب يا سيدي .

وانحنى مرميس وقال : وما اسمك انت يا سيدي ؟

– الرجل العبوس .

– ارى ان اسمينا متفقان بالغرابة

وعند ذاك اغتنم الحاكم فرصة محادثتهما واشار الى برنيت اشارة تدل على

وجوب المبالغة في الانتباه واجابه على اشارته بما طمأنه . ولما خرج الحاكم جعل روكامبول ومرميس ينظر كلا منهما الى الاخر نظرات عدم الاكتراث حتى خدع برنيت وقال في نفسه : يظهر انهما غير متعارفين .

- ١١ -

يوجد في لندرا طريقة يستعملها البوليس لمراقبة اللصوص وهي المرائي المنعكسة الأشعة فانهم يضعونها في الشوارع التي يكثر انتيابها امام المخازن بشكل يرى فيها البوليس وهو يسير ما يجري داخل تلك المخازن فتمتنع السرقات .

وهذه المرائي يستعملها البوليس في السجون عند الاقتضاء عندما يريد المراقبة ، وهناك آلة غريبة اميركية يستعملها البوليس في السجون ايضاً لسماع ما يتحدث به المسجونون وهي اانابيب يضعونها في غرفة المسجون الذي يريدون مراقبته فتنقل الأصوات كما ينقلها التليفون .

وكان روكامبول ومرميس عارفين دون شك باسرار هاتين الطريقتين ، لذلك لم يظهرا حين التفاتهما ما يدل على التعارف ولم يتحدثا بكلمة تحمل على الريبة ، لكن مرميس علم من حذر روكامبول انهما محاطان بالجواسيس فحذر مثله ، حتى ان برنيت على اعتقاده بأن مرميس من اتباع روكامبول خدعته ظواهر الرجلين وظن انهما غير متعارفين

فقال للرجل العبوس : يظهر انهم قد خدعوا يا سيدي .

واجابه . هو ما تقول .

ـ إذاً ليس هو روكامبول .

ـ ان الفرق بعيد بينهما ..

ـ إذاً لا تعرفه ..

– هذه هي أول مرة رأيته فيها .

وكان مرميس يتظاهر انه لم يفهم شيئاً من معنى حديثهما إلى أن تعرض له برنيت بالحديث فقال : يظهر ، يا سيدي ، انك متضجر من عشرتنا .

– ليس ضجري من عشرتكما ايها الرفيق ، بل من السجن لا سيما وانهم قد خدعوا بي وسجنوني دون ذنب .

– إذاً لست روكامبول الذي طالما تحدثوا عنه في هذه الأيام ؟

فابتسم مرميس وقال : هذه اول مرة سمعت فيها هذا الاسم .

– إذاً كيف قبضوا عليك وأدخلوك الى هذا السجن الذي لا يوضع فيه غير كبار المجرمين .

– إني لم أجد في ما مر بي من أدوار الحياة ، بل لم أقرأ في القصص أغرب من ذاك الخطأ ، فإني فرنسي كما يبدو لك . ولكني لا أدعى روكامبول كما يتوهمون بل أنا رجل غني مشترك في أعظم النوادي الباريسية ولي صحبة مع معظم النبلاء الباريسيين .

– يبدو يا سيدي من لهجتك في حديثك انك من النبلاء

– وقد أتيت الى لندرا بغية النزهة ، فأقمت في فندق التيجان . وبينما أنا نائم مطمئن ، فتح باب غرفتي ودخل رجال الشرطة ، وأكرهوني على ارتداء ملابسي وهم يدعونني باسم روكامبول ، ثم جاءوا بي إلى هذا السجن .

– ألم يكن معك أوراق تثبت من أنت ؟

كان لدي نحو عشر رسائل تثبت اسمي الحقيقي ، ولكنهم أبوا أن ينظروا أوراقي .

– ألا تعرف أحداً في لندرا ؟

– أعرف بعض أعيانها ولي صداقة تامة مع سكرتير سفارة فرنسا الأول

وهو سيخرجني من هنا .

– بل هو يخرجك اليوم دون شك وان كلمة واحدة منه تكفي لتبرئتك وإطلاق سراحك .

– هو ما تقول . غير أن السفارة لا تعلم بأمري قبل الغد ، لأني أرسلت أمس خادم غرفتي إلى ليفربول فهو يصل اليهـــا في هذا الصباح ، ثم يبرحها عائداً إلى لندرا في المساء ، فلا يصــل قبل صباح غد ، وهو خادم قـديم عندي يعلم كل علائقي ، وسيبحث عني دون شك . فإذا عرف ما حل بي ذهب تواً إلى السفارة وأبلغها الأمر ، ولذلك تراني مطمئنـــاً ولكني أكره المبيت في السجن .

وكان روكامبول في خلال ذاك الحديث مضطجعـــاً على سريره يقرأ الجرائد ، دون أن تفوته كلمة من حديث مرميس ، فعلم ما أراد مرميس من محادثة برنيت . وأنه أراد أن يظهر لروكامبول أنه سيلبث في السجن أربعاً وعشرين ساعة أي ان الوقت متسع لإيجاد وسيلة للمباحثة ، دون ان يخشيا مراقبة أحد .

وعند الظهر جاءوا بالطعام ، وكان الرجل العبوس لا يزال مضطجعـاً في سريره ، فنهض من مضجعه وجعل يأكل مع رفيقيه دون ان يتكلم.وقد أرسلوا الطعام الى حارسين يصحبها حارس للمراقبة ، فجعل يراقبهم وهم يأكلون دون أن يباغتهم بنظرة او كلمة .

حـتى إذا فرغوا من طعـامهم وأراد الانصراف ، قال له الرجـل العبوس . إنك نهجت معي أيها الرفيق ، منذ سجنت ، نهجـاً يدل على حسن أدبك وسلامة نيتك . فهل تأذن لي أن التمس منك أمراً أرجو ان يكون مقضياً ؟

– سل ما تشاء إني لا ابخل عليك بما تجيزه أنظمة السجن .

إني أطلب ورقاً للعب وقد التمست هذا الالتماس من حاكم السجن ، فلم

ينكره علي .

ثم التفت إلى مرمسيس وقال له : أتريد أن تلاعبني ، يا سيدي ، بالويست ؟

– مع الشكر يا سيدي ، لأني مولع بهذه الألعاب .

وأنت يا برنيت ؟

– وأنا ايضاً لا يخفف عني وطأة السجن مثل اللعب

فانصرف الحارس وهو يقول : سأعرض طلبك على الحاكم ورجائي أن أعود اليك قريباً بما تريد .

- ١٢ -

وقد أراد روكامبول بلعبة الويست ان يتخذها ذريعة للمباحثة مع مرميس كما يريد .

وبعد نصف ساعة عاد الحارس بالورق ودفعه لروكامبول قائلاً : هذا هو ورق الويست ، فإن الحاكم لا يحب أن يبخل عليك بشيء ، ولكن كيف تلعبون تلك اللعبة ؟

– نلعبها نحن الثلاثة .

– ولكنكم ستغدون إثنين .

فأجفل روكامبول وقال : كيف ذلك ؟

– ذلك ان الحاكم أذن لأخي برنيت ان يراه .

ثم التفت الى برنيت وقال له : إن أخاك ينتظرك فهلم معي

فتظاهر برنيت بالسرور وقد علم ان الحاكم يريد ان يراه إذ لم يكن له أخ وسار في أثر الحارس الى غرفة الحاكم فوجد رجلاً لم يكن يعرفه من قبل وهو

الأسقف بترس تون .

فسأله الحاكم قائلاً : ألديك ما تخبرنا عنه ؟

– كلا إني لم أعلم شيئاً بعد .

– ومع ذلك إن الرجل المحبوس قد خلا بروكامبول .

– ولكني أخشى ان البوليس منخدع يا سيدي لأن الذي حسبه روكامبول ليس روكامبول .

– كيف عرفت ذلك ؟

فروى برنيت جميع ما سمعه من مرميس، فهز الأسقف كتفيه وقال : انهما يمثلان رواية .

- ولكن يوجد طريقة سهلة لمعرفة الحقيقة .

– وما هي ؟

– هو أن تسألوا في السفارة عن هذا الرجل ، لأنه يدعي أنه صديق السكرتير .

فقال الأسقف : هل عرفتم اسمه ؟

فرد الحاكم : كلا .

– يجب ان تعرفه .

فقال برنيت : أعيدوني الى السجن أعرف اسمه بعد ساعة .

فقال الأسقف للحاكم : ان السير جمس وادوارد من أمر رجال الشرطة عندنا وهما اللذان أثبتا ان هذا الرجل روكامبول ، فلم يبق سبيل للريب فيما يقولان . واذا أخبرنا السفارة بأمر هذا الشخص ونحن لا نعرف اسمه أزعجناها دون فائدة .

ثم التفت إلى برنيت وقال : ان هذا الرجل يقول انه أرسل خادمه الى ليفربول وانه يعود غداً ؟

- نعم يا سيدي .

- إذاً لنصبر الى الغد فإذا كان حقيقة زعيم الارلنديين ، فلا بد ان تبدوا منه بادرة خلال هذه المدة غير اني أخشى ان يكونا لا يثقان بك فلا يبوحان أمامك بشيء .

- إني لا أرى ما تراه ، يا سيدي ، لأن ثقة الرجل المبوس بي شديدة .

فوافق الحاكم على هذا القول .

فقال له الأسقف : ألم تضع آلة هيدسون ، الساعة الأميركية ، في الغرفة ؟

فأجابه الحاكم قد سهوت عنها وسأضعها ، فإنها تفيدنا خير فائدة لا سيا وأن برنيت غير متمكن من اللغة الفرنسية ، فقد يفوته الكثير من معاني حديثها .

ثم عاد برنيت الى السجن ، فلما لقيه الرجل المبوس قال له : ماذا فعلت القيت أخاك ؟

- نعم ايها الرفيق وقد سررت كثيراً بلقائه .

ثم جعل يحدثه بتلك اللغة الارلندية الاصطلاحية التي يشكل فهمها على الانكليز كا يشكل فهم لغة البرابرة على المصريين ، فقال انه أخبر الحاكم بما سمعه من مرميس وعن رأيه بخطئه .

فقال روكامبول : وبماذا أجاب الحاكم ؟

- كان معه شخص آخر ، وخط الشيب رأسه ، ظهر لي أنه من رجال الدين .

- لقد عرفته فهو الأسقف باترس تون .

- وقد أسف الاثنان لعدم وضع آلة ساعة في هذه الغرفة ، لا أعلم ما هي ؟

- هي آلة هيدسون الأميركية .

ـ هو ذاك فقد سمعتها ذكرا هذا الأسم .

فتنهد روكامبول تنهد المرتاح ، لأنه كان يخشى ان يحول في الحديث مع مرميس ، حذراً من هذه الآلة ثم قال له : ألم يتكلما عن آلة الأشعة ؟

ـ كلا .

فقال مرميس : وهما يريدان ان يعرفا اسمي ؟

فدهش برنيت إذ سمعه يتكلم باللغة الارلندية ، أما مرميس فانه ضحك وقال : إنك أبله .

ـ كيف تقول اني أبله .

ـ دون شك فإني انا هو روكامبول .

ـ إذاً كل ما قال لي الرجل العبوس كان تمويهاً وأي سبيل بقي لسوء ظنه بي بعدما رآه من إخلاصي ؟

فقال له روكامبول : إني لم أسيء بك الظن ، أيها الصديق ، ولكني ، كنت أحسب انهم وضعوا الآلة السامعة في الغرفة ، فخشيت شرها .

ولكني لم أعلم بعد ما هي هذه الآلة ؟

ـ هي أنبوبة من الكاوتشوك توضع في السقف ، او تمد على الجدار ، ويتصل طرفها بالخارج . فتنقل حديث المقيمين في الغرفة ، كرجع الصدى .

وقال مرميس : أتظن انه يوجد في هذا السجن من يعرف اللغة الارلندية الاصطلاحية .

ـ ليس فيه من يعرفها .

ـ وأنت أتعرف الفرنسية ؟

ـ لي بها إلمام .

– إذا سوف نرى اذا كنت تفهم ما نقول .

وعندها قال روكامبول لمرميس ما يأتي :

« فجم جأجت تجاجر جيجنج اجلجفجيجعصجر » .

فصاح برنيت قائلاً : ما هـذه اللغة ؟ أيوجد بين النـاس من يتحدث بها ؟

– هي اللغة التي يتحدث بها اهل جافا في الهند ، وان الانكليز على طول عهدهم بالهند لا يفهمون حرفاً منها

– ولكن ايتكلمون هذه اللغة في بلادكم ؟

– يتكلمـون بها في البيت الذهبي في باريس كل يوم ، وفي سجن نوايت اليوم .

ثم قال لمرميس : والآن يا بني يمكننا ان نتكلم كما نشاء .

– « هجذجا جرجاجيجي » اي هذا رأيي .

– ١٣ –

إن تلك اللغة التي تحدث بها روكامبول لم تكن لغة جافانية ، كما قال بل هي لغة فرنسية محضة ، يدخلون بين كل حرف من حروف الكلمة حرفاً مصطلحاً عليه فلا يفهم السامع شيئاً مما يقال إلا إذا كان متمرناً على ذاك الاصطلاح .

وقد جعلنا المثال باللغة العربية تسهيلاً لفهم ذاك الاصطلاح أدخلنا حروف الجيم بين كل حرفين من جملة وهذا رأيي ، بحيث صارت الجملة كما يـلي : « هجذجا جرجاجيجي » .

وهو اصطلاح قديم لا يزال شائعاً عندنا بين اولاد المدارس بحيث يتكلم

المتمرن على هذا الاصطلاح بسرعة غريبة فيشكل فهم مراده إلا على المتمرن على هذا الاصطلاح .

أما في باريس فإن هذه اللغة غير قاصرة على أولاد المدارس ، كما هي عندنا الآن ، بل انها شائعة بين كثيرين من الناس يتحدث بها كثيرون من أهل الطبقة العليا ، حتى انهم انشأوا بها جريدة يطبع منها نحو سبعين الف نسخة في الأسبوع .

ومما لا ريب فيه ان حاكم السجن ، لو سمع بسماعته الأميركية هذه اللغة لما فهم حرفاً . ولو فطن انها لغة اصطلاحية يتحدث بها الباريسيون لجاء بواحد منهم واستعان به على فهم أمورها . ولكن أنى له أن يخطر في باله هذا الخاطر .

ولذلك كان روكامبول ومرميس يتحدثان بها مطمئنين غير مكترثين بالآلة السماعة .

وقد بدأ روكامبول بالحديث فقال لتلميذه : قل لي الآن كيف عرفت اني سجين ؟

– أخبرتني المس الن .

– العلك رأيتها ؟

– هي معنا .

– ولكنهم كانوا يراقبونها في باريس وقد سجنوها أيضاً .

– هو ذاك .

– وبعد ذلك ؟

– أنقذناها .

– إذن ، حدثني بكل ما حدث بالتفصيل ، مـا زال الوقت متسعاً لنا الآن .

فقص عليه مرميس بالتفصيل جميع ما حدث مما تقدم ذكره في رواية

تلميذ روكامبول .

ولم يمض ساعتان ، حتى وقف روكامبول على كل ما حدث في باريس ، منذ سقوط الفتى البناء ، إلى إنقاذ الارلندية وولدها ، وخروج مس الن من السجن .

ولما أتم حديثه قال روكامبول : ماذا فعلت برالف وامه ؟

– اني لم أجسر على إحضارهما إلى لندرا .

– لقد أحسنت .

– وفوق ذلك فإني لا أستطيع ان أقدم على امر بشأنها إلا إذا كان لدي أوامر منك ولم يكن بيني وبينك اتصال فوضعتها في منزل ميلون وجعلت شوكنج حارساً لها

– ومس الن ؟

– إنها مع فاندا الآن . والآن ايها الرئيس فانك تعلم اني لا أطيل البقاء في هذا السجن .

فابتسم روكامبول ابتسامة معنوية وقال : ولا أنا .

– إن رجائنا وطيد بانقاذك .

فابتسم روكامبول ايضاً وقال : هذا ما أرجوه ولكنكم إذا لم تفوزوا بانقاذي خلصت نفسي . فأتم حديثك الآن ان خادم غرفتك الذي قلت انك أرسلته الى ليفربول هو ميلون اليس كذلك ؟

– دون شك .

- ولكنه لم يذهب الى ليفربول كما قلت

– كلا ، ولكنه سينتظر أربعاً وعشرين ساعة ، ثم يذهب بكتابي الى السفارة .

فظهرت علائم الرضى على روكامبول وقال: الحق اني غير نادم على تربيتك وتبنيك لأنك ذكي الفؤاد . والآن إصغ إلي : إني خدمت هؤلاء الارلنديين

خدماً جليلة وانقذت زعيمهم الأكبر ودخلت الى السجن طائعاً مختاراً في سبيل خدمتهم .

ولكن الارلنديين لم يعرفوا سر غايتي من دخولي الى السجن ، وفوق ذلك أن لهذه الطائفة اقداماً غريباً وجرأة نادرة حين تحاول انقاذ أحد ابنائها ، ولهذه الطائفة زعيم يجلونه كل الاجلال ، إذا قنطوا عاد اليهم الرجاء بكلمة تصدر من فمه .

وقد لبثت مدة ثلاثة أشهر مرشداً لهذا الزعيم بل زعيم عليه فاقمت انكلترا وأقعدتها إلى أن خطر لي يوماً أن ألقي نفسي في فخ نصبته لي مس الن وهي في ذلك العهد من ألد أعدائي بغية تحويلها عن اعدائي واستخدامها في أغراض الارلنديين .

فلما قبض علي أصبحت خاملاً في عيون اولئك الذين ضحيت نفسي في سبيلهم ، ولم يخطر لأحد منهم انقاذي ، فما حقدت عليهم لأن المرء قد فطر على نكران الجميل ولم أحاول النجاة بنفسي لرضاي بما قسم لي ولم يبق غير الكاهن صموئيل من الذين يريدون لي السلامة ولكن بقية الارلنديين انكروني وتخلوا عني لأنهم رأوا اني لا أستطيع افادتهم وأنا في السجن .

فاهتز مرميس وقال : ولكننا نحن لا نتخلى عنك أيها الرئيس الحبيب .

– اني عارف بما طويت عليه سرائركم ولذلك أرسلت اليكم مس الن على اني أريد أن أجرب الأرلنديين تجربة أخيرة ، فاما أن أعود إلى نصرتهم أو أتخلى عنهم لانصار سواهم من المظلومين الذين يعرفون قيمة المروءة فيكافئون اصحابها بالاخلاص .

– وما هي هذه التجربة ؟

– انك ستخرج غداً من هذا السجن فيعتذر اليك الحاكم والأسقف ورئيس الحقانية ، ان في انكلترا عادة مخالفة لعادات القضاء في فرنسا ، وهي أن الحكومة اذا قبضت على رجل تشتبه به خطأ ، انها مضطرة أن

تدفع له تعويضاً .

– اني أعرف ذلك .

– وهذا التعويض يجب أن يكون مناسباً لمقام المقبوض عليه ومركزه في الهيئة الاجتماعية وأنت مشترك في أعظم نوادي باريس واصحابك من أهل المقامات وشهرتك ذائعة بالثروة فسيحكمون على كل الذين قبضوا عليك بغرامة مالية ، فلو طلبت خمسين الف جنيه لحكمت بها المحكمة ووزعتها على الذين اساؤا اليك ، أفهمت الآن ؟

– كلا ، لم أفهم بعد .

– عندما يحكمون لك ينال حاكم السجن أعظم نصيب من الغرامة فتقترح عليه انك تتنازل عن الغرامة مقابل الاذن لامرأتك بمشاهدة الغرفة التي سجنت فيها والرجل الذي سجنت معه ، أما امرأتك فهي فاندا .

– سأفعل .

– ولكنك قبل ذلك تذهب الى الكاهن صموئيل وتسأله أن يجمع الأرلنديين ويطلب اليهم انقاذي ..

– وإذا أبوا ؟

ابتسم روكامبول وقال : عندما تعود الى هنا اضع في جيبك رسالة أكتب لك فيها ما يجب أن تصنع .

وعند ذلك فتح باب الغرفة ودخل حاكم السجن فقال روكامبول : لنتم حديثنا معه بهذه اللغة الاصطلاحية فنضحك عليه قليلاً .

أما حاكم السجن فانه جعل يجيل طرفه بين روكامبول ومرميس ويسمع هذه اللغة الغريبة التي كانا يتحدثا بها دون أن يفهم حرفاً .

فلما رآه روكامبول ومرميس وقفا احتراماً له ورفعا قبعتيهما فقال الحاكم مخاطباً روكامبول : لقد انتهى الأمر بفوزي عليك وهذا الذي كنت أتوقعه .

فأجابه روكامبول مبتسماً : ماذا تعني يا سيدي فيما تقول فاني لم أفهم مرادك ؟

– أريد أنك لا تستطيع بعد الآن أن تقول بأنك لا تعرف الأسير ، وأشار إلى مرميس

– ولكني لا أعرفه يا سيدي إلا منذ ساعتين فبتنا كأننا صديقان منذ أعوام .

– لو كنت لا تعرفه إلا اليوم كما تقول لما كنت تكلمه بلغة لا تفهم .

– ولكني أفهم ما أقول ويفهم ما يقول .

– إذاً انكما تتكلمان بلغة اصطلاحية .

– بل نحن نتكلم بلغة شائعة بين الملايين من الناس وهي لغة أهل جافا .

– إذا كان ذلك أكيد فسوف نرى .

فسأله مرميس . العله يوجد عندكم سجين من أهل تلك البلاد ؟

ولم يجبه الحاكم بل نادى الحارس الذي كان يصحبه وقال : اذهب وائتني بالسجين ديكس .

فقال الرجل العبوس : من هو ديكس هـذا ؟

– هو بحار انكليزي أقام في بلاد الهند عشرة أعوام ، وهو مسجون بجريمة السرقة .

فابتسم روكامبول وقال : أتأذن لي يا سيدي أن أتم حديثي مع هـذا

الرفيق الجديد

– أباللغة الجافانية ؟

– دون شك فاني أباحثه في أمور سرية .

ثم قال لمرميس باللغة الاصطلاحية سوف ترى كيف أعبث بهذا الرجل فاني سأكلم البحار بلغة جافا الحقيقية فاني أقمت عامين في الهند في بلاط الرجـــاه وعرفت لغات الهنود .

– إنك تعرفها دون شك وأما أنا فلا أعرف حرفاً منها .

– لا ينبغي أن تتكلم فسأتولى الحديث عنك وأنت تلازم الصمت .

فضحك روكامبول ومرميس وبقي الحاكم وبرنيت ينظران اليهما حائرين.

وبعد هنيهة جاء الحارس بالبحار وقـال له الحـاكم بعظمة : أتعرف يا ديكسون لغة الهنود ؟

– اني أعرفها حق العرفان .

– اني أريد أن تحادث هذا السجين بتلك اللغة ، وشار إلى روكامبول .

والتفت روكامبول إلى ديكسون وقال له بالهندية: يقول الحاكم أنك أقمت عشرة أعوام في الهند فهل طاب لك المقام في هذه البلاد ؟

– كلا .

– لماذا .

– لأني خلقت لصاً لا بحاراً ، وبحارة الهنود أبرع منا .

فقال له الحاكم : ماذا تقول .

– إن هذا الرجل سألني إذا كانت راقت لي الهند .

– إذاً فهمت ما يقول ؟

– نعم ...

إذاً عد إلى سجنك .

ثم أشار إلى الحارس فعاد به الى السجن .

والتفت الحاكم عند ذلك إلى روكامبول وقال له : الأجـدر بك ان تقول لنا حقيقة اسمك كي يتمكن القضاة من محاكمتك .

- ليتمكنوا من الحكم علي بالإعدام ؟

– من يعلم فإن مراحم الملكة كثيرة .

– تريد ان الملكة تعفو عن المحكوم عليهم بالاعدام

– ان ذلك منها كثير الاتفاق .

– ولكن وزير الحقانية قد لا يصادق على هذه الرأفة فينفذ بي حكم الاعدام مع صدور العفو وهي نصيحة أسديك عليها جميل الشكر .

فيئس الحاكم منه وقال : إنك حر بالدفاع عن حياتك كما تشاء .

ثم ودعه وحاول الانصراف فناداه مرميس وقال له : ألا تأذن لي يا سيدي ان أحادثك هنيهة ؟

– تكلم .

– الا تزال واثقاً اني ادعى روكامبول ؟

– اني كنت مشككاً في هذا الصباح وأما الآن فاني على أتم اليقين .

– ألا تأذن لي يا سيدي أن أفترض افتراضاً ؟

– ما هو ؟

– لنفرض اني لست روكامبول .

– لنفرض .

- لنفرض اني رجل غني من نبلاء الفرنسيين لم يرتكب جريمة يعـاقب عليها ، وانه يسافر إلى انكلترا متنزهاً ، وان سفير دولته يطالب به ويخرجه من السجن .

– اني لا اخاف شيئاً من هذا .

- ولكني قلت لك اننا نفترض افتراضاً .

– إذاً لنفترض ما تشاء وانك خرجت من السجن فماذا تصنع ؟

ـ لا أصنع شيئاً سوى اني أقاضيك وأطلب تعويضاً عن إهانتي وهو غرامة شديدة يا حضرة الحاكم يدفع نصفها أنت ونصفها مدير الشرطة .

ـ لقد أخطأت فاني لا أدفع شيئاً لأنهم أمروني بسجنك ليس إلا .

ـ بل انت المخطىء يا سيدي الحاكم إذ يجب ان تعرف حقيقة إسم السجين قبل سجنه .

- اني واثق من صحة ما فعلت .

فضحك مرميس ضحك الساخر وقال : من يعش ير .

أما الحاكم فإنه خرج مغضباً وجعل الرئيس وتلميذه يضحكان .

- ١٥ -

وبعد ذلك نظر روكامبول إلى برنيت وقال · اني أراك حائراً منذهلاً !

ـ ألا ترى ما يدعو الى الحيرة يا سيدي ؟

- دون شك ولكنك ستزيد انذهالاً بين ساعتين لأنهم سيفرقون بيننا .

ونظر اليه برنيت نظرة المكتئب الحزين كما ينظر الكلب الأمين لصاحبه حين يفترق عنه فقال له روكامبول : لا تجزع أيها الصديق فإننا سنلتقي .

فرفع برنيت عينيه إلى السماء قائلاً . اننا نلتقي إذا اذن كالكراف الجلاد.

ـ العلهم حكموا عليك حقيقة بالإعدام .

ـ كلا لقد علمت حقيقة أمري ولكنهم سيحكمون عليك به .

ـ لا تخف علي يا برنيت أترى بين ملامحي ما يدعو إلى الخوف ؟

ـ كلا بل يظهر لي انك تهزأ بالجلاد كما تعبث بالحاكم .

ـ هو ما تقول والآن قل لي الى متى تقيم هنا ؟

- اني أستطيع الانصراف غداً لأنهم وضعوني معك لمراقبتك وأظن

مهنتي قد انقضت .

– كم يدفعون لك مقابل هذه المهمة ؟

– إنهم وعدوني بخمسين جنيهاً إذا أحسنت خدمتهم .

– ولكننا سندفع لك مائتين حين خروجك فقد أحسنت خدمتنا .

فأجاب برنيت بلهجة المشكك : ولكن من يدفع لي هذه القيمة ؟

فقال له مرميس : أنا ..

– العلك تخرج أنت من السجن أيضاً ؟

- لا أخرج اليوم بل غداً ..

ونظر برنيت إلى روكامبول نظرة إخلاص قائلاً ولكني أبقى في السجن معك ولا أريد الخروج منه .

– ان هذا محال الآن أيها الصديق إذ لم يبق لهم بك حاجة فإنك لا تعرف اللغة الهندية وسيستعيضون عن تقاريرك بالآلة السماعة .

ثم عاد إلى الضحك مع مرميس فعجب برنيت لأمرهما وقال : اني لم أر قبلكما مسجونين يضحكان ملء أفواههم كما تضحكان .

وقال له مرميس : اما وقد تقرر الآن افتراقنا لأنهم لا بد أن يطلقوا سراحك فقد وجب أن نتواعد على اللقاء .

– دون شك .

– وذلك أولاً لأدفع لك ما وعدك به الرئيس .

– بل لأنضم اليكم وأكون خير مساعد في انقاذه .

– لهذا ولذاك فقل لي أين اراك ؟

– في اولد فرنك نمرة ٧ .

فقال له روكامبول : الا تذهب في الليل إلى خمارة ونستون ؟

– نعم ..

فأجابه مرميس : إذاً انتظرني فيها بعد ثلاثة أيام في الساعة الثامنة

من المساء .

– سأنتظرك دون شك .

وقبل ان يتم حديثه فتح الباب ودخل الحارس فأمر برنيت ان يتبعه ونظر برنيت الى روكامبول نظرة وداع مؤثرة وخرج في أثر الحارس والدمع يجول في عينه .

ولما وصلا الى الرواق قال له الحارس : سأذهب بك الى حارس الباب الأكبر .

– لماذا ؟

– للتوقيع على عهد الافراج عنك فتأخذ ملابسك وتنصرف.

– إذاً أصبحت مطلق السراح ؟

– نعم فلم تبق حاجة اليك .

– ولكنهم وعدوني بخمسين جنيهاً افلا اقبضها ؟

– كلا فإنك لم تنفعهم بشيء .

فتأثر برنيت تأثيراً شديداً لكنه لم يفه بحرف وعول على أن ينتقم منهم بمبالغة الإخلاص للرجل العبوس .

وبعد أن خرج برنيت من السجن خرج الحاكم في أثره وركب مركبة وذهب بها مسرعاً الى الأسقف فوجده في منزله ، ولما رآه الأسقف بادره بالسؤال عن الرجل العبوس وروكامبول فسأله : أتعارفا ؟

– لم يكن في ذاك ريب ولكنهما يتكلمان بلغة غريبة

– ما هي ؟

-- لغة أهل جافا واني لا أعلم كيف يعرفان هذه اللغة

– ان الأمر بسيط فان للارلنديين علائق عظيمة في الهند ، ويوجد كثير منهم في الجيش ، فأنا صايب عدونا الأكبر ، فانهم ألد أعداء انكلترا ولذلك يكثر اختلاطهم بأعدائهم .

– هو ما تقول ولكننا الآن قبضنا على هذين الزعيمين وسنعرف حقيقة اسم الرجل العبوس .

– الملك تعرف لغة جافا ؟

– كلا ، ولكن لدي سجين بحار يعرفها فاذا عينا له جائزة أوقفنا على أمرارهما .

– ولكنهما لا يتكلمان أمامه .

– ولكنهما يتكلمان حين يكونا مختليين ، الملك نسيت آلة هيدسون السماعة ؟

– ولكن كيف تضع هذه الالة دون ان يعلما ؟

– لقد أمرتهم أن يضعوها في غرفة أخرى ، فمتى تم وضعها أنقل الأسيرين اليها فتنقل الالة حديثهما الى البحار السجين وسأنقلهما اليها في هذا المساء .

– أتظن انهما لا يفطنان لها ؟

– دون شك فانها لا تخطر لهما في بال لاسيما وانهما سيعلمان بأني أنقلهما من غرفتهما المتسعة لذهاب برنيت منها .

لقد احسنت فاذهب الان واتم ما شرعت به .

وبعد أن انصرف الحاكم تجهم وجه الأسقف وقال في نفسه : ما هذا الأمر الغريب اني أرسلت الى السير جمس رسالتين أمرته بهما ان يعود مع مس الن فلم يجبني الان وما عسى ان يكون اصابه ؟

وعاد الحاكم الى السجن فوجـــد العمال قد اتموا وضع الالة السماعة في غرفة مجاورة للغرفة التي كان فيها روكامبول ومرميس وقد اشتغل في وضعها اثنا عشر عاملا .

وقد تقدم لنا وصف هـذه الالة وهي انابيب من الكاوتشوك متصلة وقد وضعوها في السقف وأدخلوها في انابيب الغاز بحيث بات يستحيل على الأسيرين ان يراها ، ولكنهما قد علما من الجاسوس ، انهم سيضعوا هذه الالة ولم تكن اسرارها خافية على الرجل العبوس .

اما الحاكم فانه امتحن الالة فأدخل اثنين الى الحجرة وامرهما ان يتكلما ثم وضع السماعة على اذنه خارج الحجرة واصغى اليها فسمع كل الحديث ولم يفته حرف منه ، فسر سروراً عظيماً وقال في نفسه : لقد وقع الشقيـان في الفخ ، وسأقف على كل اسرارهما .

على ان سروره لم يتكامل فقد خطر له خاطر نغصه عليه ، إذ خطر في باله ما قاله له مرميس وهو « لنفرض اني لست روكامبول »

ذلك انه كان يعرف الشرائع الانكليزية فيعلم انها صارمة شديـدة في مسائل الشخصيات .

ثم ان مرميس قد قال قولاً معقولاً وهو انه يجب عليك ان تكون على اليقين من اسم الذي تسجنه فاذا ثبت اني لست روكامبول فقد وجب عليك دفع الغرامة .

وهنا اضطرب اضطراباً شديداً وقال في نفسه اني اعتمدت على الأسقف والأسقف اعتمد على السير جمس وهذا الشرطي مشهور بالحذق ، لكن لكل فرس كبوة ، فاذا كان مخطئاً فان التبعة تقع علي .

ولم يكن هذا المنكود غنياً فانه كان يعيش من راتبه ويقتصد شيئاً منه

لمستقبل بنيه .

على انه خطر له خاطر تعزى به بعض العزاء وهو انه لو لم يكن هـذا الرجل روكامبول نفسه لما تكلم مع العبوس بلغة يعتقد انه لا يوجد من يفهمها ولو لم يكن بينهما اسرار خفية لكان حديثهما باحدى اللغات المعروفة

ثم تسلح بهذا البرهان الذي أعاد اليـه زهوه وارتياحه ، وذهب لزيارة الأسيرين فاستقبله روكامبول خير استقبال وقال بلهجة المتهكم: اني ممتن لما تبديه من كرم الأخلاق يا سيدي لأنك تتفضل بزيارتنا مرتين وثلاثاً كل يوم .

وقال مرميس : وانا اشعر حين اراك بارتياح يخفف عني عناء سجني .

وقال روكامبول : انه الحق ما يقوله يا سيدي الميلورد فانك طلق المحيـا بشوش الوجه اذا راك السجين تهلل قلبه وتعزى عما هو فيه .

فقال الحاكم : ولكني واأسفاه اتيتكم بخبر قد يسوءكم .

– قل يا سيدي فقد الفنا الشقاء حتى تعودناه

– الست مرتاحاً في هذه الغرفة ؟

– كل الراحة .

– وهذا الذي يسوءني فاني مضطر الى نقلكما منها .

– لماذا ؟

– لأن هذه الغرفة كبيرة وانتما الان اثنان .

– كيف ذلك الا يعود الارلندي الذي كان معنا ؟

– كلا وقد تعدل الحكم عليه ونقل الى سجن آخر .

فلم يظهر روكامبول شيئاً من ملامح الشك على اعتقـاده يكذب الحاكم قائلاً له : إذ كان ذلك فاذن لنا على الأقل ان نلعب بالشطرنج بـدلاً من الويست .

- سأفعل ما تريد فهل يحسن رفيقك لعب الشطرنج ؟

فأجابه مرميس قائلاً : إن لي ولعاً عظيماً بالشطرنج ولكن لعبي معـه

لا يطول .

فدهش الحاكم وقال : لماذا ؟

– لأني سأخرج من السجن في صباح غد .

وحاول الحاكم أن يبتسم ، ولكن اضطرابه لهذا النبأ حال دون ابتسامه فقال له لقد تقدم لك معي مثل هذا المزاح .

- إني لا أمازحك يا سيدي وسوف يتبين لك صدق ما أقول .

– حسناً سوف نرى .

ثم خرج وهو يبتسم ولكنه كان شديد الاضطراب لما لقيه من اطمئنان مرميس .

وبعد ذلك بنصف ساعة نقل روكامبول ومرميس إلى الغرفة التي وضعوا فيها السماعة ، أما الحاكم فانه دعا اليه البحار ديكسون قـائلاً : متى تنقضي مدة سجنك ؟

– بعد ثلاثة أشهر .

– إني إذا كنت راضياً عنك أنقصت هذه المدة إلى ثلاثة اسابيع ، وعند انصرافك اكافئك بخمسة وعشرين جنيهاً .

- إذاً قل لي يا سيدي ماذا يجب ان اصنع .

– تجلس اولاً على هذا الكرسي .

– وبعد ذلك ؟

– تضع هذه السماعة على اذنك .

– ها قد وضعتها .

– اصغ اتسمع صوتاً ؟

– إني أسمع أصوات رجلين يتحدثان .

– إصغ جيداً .

– إنني مصغ كل الاصغاء .

– ما يقول المتحدثان ؟

– اني لا افهم حرفاً منها مما يقولاه

– كيف لا تفهم ؟

– إني اسمع الحديث ولا افهم المعنى ولكني عرفت الذي يتحدث من صوته فهو ذلك السجين الذي أمرتني أن أحادثه أمس ولكنه لا يتكلم الآن بتلك اللغة الهندية التي كان يتكلم بها .

وصاح الحاكم صيحة غضب قائلاً : ولكن اصغ جيداً فقد يكون الحديث مشكلاً عليك لبعد المسافة .

– كلا يا سيدي فإني أسمع حديثهما كما أسمع حديثك ولكني لا أفهم حرفاً من هذا الحديث .

فتأوه الحاكم قائلاً : ما هذا الرجل وبأية لغة جهنمية يتكلم ؟

– لا أعلم ، لكن يظهر من لهجة حديثهما ما يدل على الرضى والارتياح .

– ولكن أتظن ان اللغة التي يتحدثان بها شرقية ؟

– ربما ، لكن تعال يا سيدي واسمع .

فأخذ الحاكم السماعة من يده ووضعها على اذنه واصغى .

وكان روكامبول في ذلك الحين يحدث مرميس ويضحك ضحك الساخر فيجيبه مرميس بمثل ضحكه بحيث لم يسمع الحاكم غير الضحك .

ثم انقطعا عن الضحك وعادا إلى الحديث بتلك اللغة الاصطلاحية التي بسطنا مثالها فقال الحاكم : لا شك ان هذه اللغة التي يتحدثان بها من اللغات الشرقية وان هذا الرجل شيطان بصورة انسان .

ثم ضرب بيده جبينه كمن خطر له خاطر جليل وقال : سوف نرى من يفوز .

يوجد في جنوب وينهال قرب سكوتلاند يارد بناية عظيمة كتب على بابها بأحرف كبيرة «مدرسة الخطوط واللغات القديمة» فانهم يعلمون في هذه المدرسة جميع اللغات القديمة كالسفسفيكوية والهيروغليفية وسواها على اللغات الغربية التي لا تهتم بها غير الانكليز لكثرة علائقهم مع سكان المعمور .

أما الخاطر الذي خطر لحاكم السجن فهو أن يذهب إلى هذه المدرسة ويدعو جميع اساتذتها فيسمعون حديث روكامبون ومرميس ويقفون على اسرار هذه اللغة التي يتحدثان بها .

ولذلك أعاد البحار ديكسون إلى سجنه وركب مركبة فسار بها مسرعاً إلى تلك المدرسة فلقي مديرها واخبره بمصابه مع الرجلين فابتسم المدير وقال لا شك انها يتكلمان بتلك اللغة المصرية القديمة التي كان يتكلم بها المصريون في عهد الفراعنة فتعال معي ننتخب من الأساتذة من يصلح لفهم حديثهما .

وبعد ذلك بنصف ساعة خرج الحاكم من المدرسة يصحب معه استاذين انفقا شبابهما على درس اللغات القديمة وذهب بهما الحاكم إلى السجن .

وعند الساعة الثامنة من المساء أخذ أحد الاستاذين السماعة ووضعها على اذنه ، فجعل الحاكم ينظر اليه فيرى علائم الذهول بادية عليه ، فاستمر على الاصغاء خمس دقائق اخرى ثم وضع الآلة موضعها وقال : اني لا أفهم شيئاً من حديثهما .

فاخذ الاستاذ الثاني الآلة وفعل مثل زميله ثم أعاد الآلة وقال مثل رفيقه فكاد الحاكم يجن من قنوطه .

وكان من رأي أحد الاستاذين أن اللغة التي يتفاهم بها الأسيرين هي إحدى لغات جزر الأوقيانوس وأنها تشبه لغة جزيرة صندويج وارتاي الاستاذ الثاني أنها لغة العبيد في اواسط افريقيا .

ثم اتفق الاثنان انهما لا يعرفان هذه اللغات ، وأشار على الحاكم ان يدعو رجلاً يعرفانه ، كان قد أسر مرة في بـلاد الكونغو ، وطاف جميع جزر الأوقيانوس .

وقد ذكرا للحاكم اسم هذا الرجـــل وأرشداه إلى عنوانه فارسل أحد حراس السجن يدعوه .

ولم يكن هذا الرجل يقيم في مدرسة اللغات بل كان يقيم في ضواحي لندرا فلم يستطع الحارس أن يعود به إلا بعد ثلاثة ساعات .

وكان قد دنا انتصاف الليل غير ان إن الأسيرين لم يكن في نيتهما أن يناما كما يبدو فانهما كانا لا يزالان يتحدثان ويضحكان فيقع ضحكهما على هذا الحاكم المنكود وقوع الصواعق .

ولما جاء الرجل أصغى إلى حديثهما بالآلة ثم أعادها وقـال : ليست هذه اللغة من لغات بني الانسان.

فاضطرب الحاكم وقال : كيف ذلك أليست من لغات جزر المحيط ؟

-. كلا .

- ألعلها إحدى لغات العبيد في أفريقيا ؟

- ولا هذه أيضاً .

فتجهم الحاكم وانقبضت نفسه حتى انه أوشك أن يعول على الانتحار ليأسه من الرجلين ، غير أن أحد الاستاذين اللذين جاء بهما من المدرسة خطر له خاطر فدنا من الحاكم وقال له : اليس هذان الأسيران فرنسيان ؟

- أظن .

- ألم تسمع بتلك اللغة الفرنسية الاصطلاحيـة ، التي يتكلم بها اللصوص في فرنسا ؟

- نعم .

- انهما يتكلمان بهذه اللغة .

– أيوجد في لندرا من يفهم بها ؟
– لا بد أن يكون في سجن من سجونها اسير فرنسي .

فنادى الحاكم عند ذلك رئيس الحراس وسأله عن ذلك ، فقال : يوجد عندنا في نوايت سجين فرنسي متهم بسرقات كثيرة .

– جئني به في الحال .

فاسرع الرئيس وجاءه به فسأله إذا كان يعرف تلك اللغة فاجابه انه يعرفها كما يعرف الانكليزية .

فقال له : ضع إذاً هذه الآلة على اذنك واسمع .

فامتثل اللص واصغى قليلاً ثم التفت إلى الحاكم وقال : ليست هذه لغة اللصوص الفرنسيين ولكنها اللغة الجافانية .

فهز أحد الاستاذين كتفه وقال : لو كانت لغة أهل جافا لفهمنا الحديث.

– لم أقل انها لأهل جافا ، بل هي خاصة يتكلمها بعض أهالي باريس ويدعونها جافانية .

فقال الحاكم : ولكنك تفهمها دون شك .

– كلا يا سيدي ، إنها لغة النساء والنبلاء في باريس .

قال الحاكم وقد بلغ منه القنوط مبلغاً عظيماً ولكن ماذا نفعل ؟

– يجب أن تحضر من باريس من يعلمها .

– ولكن ذلك يقتضي ثلاثة أيام بين ذهاب الرسول وإيابه وبحثه عمن يعرف هذه اللغة .

– إذاً فاطلب بالتلغراف إحدي محرري جريدة جافا فان مركز هذه الجريدة في شارع مونتمارتر .

فانذهل الاساتذة الثلاثة وقالوا : كيف ذلك ، أتطبع جريدة بهذه اللغة في فرنسا ؟

– وهي جريدة كثيرة الانتشار لديها نحو سبعين الف مشترك .

فقال الحاكم · لكن ذلك يقتضي له زمن طويل ، وإذا لم يكن غير هذه الطريقة فلا بد من إجرائها .

وقبل أن يتم كلامه دخل رئيس الحراس والذعر ملء قلبه فقال : رباه ماذا صنعنا وما هذا الخطأ الذي أخطأناه ؟

فذعر الحاكم وقال له : ويحك أي خطأ ؟

- إننا سجناه باسم روكامبول وهو صديق مخلص للسكرتير الأول في سفارة فرنسا وقد جاء هذا السكرتير الآن إلى السجن وهو يرغي ويزبد ، ويطلب تعويضاً هائلاً ؟

فصاح الحاكم صيحة منكرة وسقط على كرسيه وقد وهنت قواه .

- ١٨ -

وكانت الساعة الرابعة بعد منتصف الليل وقد ذهب ميلون إلى منزل هذا السكرتير بالكتاب الذي أعطاه إياه مرميس ، فقيل له أنه في حفلة راقصة فالتمس أن يأذنوا له بانتظاره لأن الأمر خطير ، فأذنوا له وأقام ينتظر إلى الساعة الثانية بعد انتصاف الليل ، فلم يعد فقال له الخادم : إذ كان الأمر خطيراً كما تقول ، ولا بد من مقابلته الليلة فاذهب إلى نادي ويست أنديا لأنه هناك .

وأسرع ميلون إلى ذلك النادي فقال له البواب : ان السكرتير أحد أعضاء النادي ، ولكنه لا يأتي اليه قبل الساعة الثالثة .

فاضطر ميلون ان ينتظر ويتذرع بالصبر إلى أن قدم هذا السكرتير وأطلع على كتاب مرميس فتأثر تأثراً كبيراً وأسرع إلى مركبته يصحبه ميلون ، فذهب وإياه إلى سجن نوايت .

ولا يجيز قانون السجون لأحد أن يدخل اليها في هذه الساعة المتأخرة غير أن السكرتير كان يتكلم بلهجة السيادة فينذر ويتوعد بمداخلة سفير فرنسا حتى اضطر بواب السجن إلى مناداة رئيس الحراس .

ولما جاء قال له السكرتير : يوجد عندكم سجين فرنسي .

– بل لدينا كثير من الفرنسيين .

– لكني أعني رجلاً فرنسياً قبضتم عليه في فندق التيجان .

– نعم وهو من أشد أهل الجرائم .

فضحك السكرتير وقال : إنكم تدعونه روكامبول اليس كذلك ؟

– نعم يا سيدي .

– إن هذا الرجل الذي أودعتموه السجن من أعيان الباريسيين ، ومن أصدق إخواني ، وأنا أطلب باسم الحكومة الفرنسية الإفراج عنه على الفور .

فاضطرب الرئيس وقال : إن هذا الأمر يا سيدي منوط بالحاكم وما أنا غير قائد الحرس .

– إذاً إذهب وناد الحاكم

– أفي هذه الساعة يا سيدي ؟

– دون شك ، وإذا كان قد نام أيقظه من رقاده وقل له اني السكرتير الأول في سفارة فرنسا .

وخاف قائد الحراس وأيقن من خطورة الأمر وأسرع إلى الحاكم وأخبره بما كان كما قدمناه .

غير أن السكرتير كان قد تبع الحارس إلى غرفة الحاكم لاستقباله وهو يضطرب فقال له السكرتير دون أن يكترث للأساتذة الثلاثة : إني أتيت اليك لأسألك الإفراج عن صديق لي قد قبضتم عليه خطأ .

فسأله الحاكم بصوت يتلعثم :

- ألا يمكن يا سيدي أن تكون أنت المخطىء فإن الرجل الذي جاؤني به هو روكامبول نفسه ؟

فأجابه السكرتير ببرود : إذا كنت تعتقد اني أنا المخطىء فـإن التحقيق سهل ميسور .

- كيف ذلك يا سيدي ؟

- ذلك أن تجمعني بهذا الرجل الذي تدعونه روكامبول .

فتولد الرجاء عند ذلك في قلب الحاكم إذ قال في نفسه : ان مثل هـذا السكرتير على علو مقامه لا يمكن أن يكون له صحبة مع المجرمين والأشرار .

وكان في اعتقاده ان رجلا نبيلا لا يحدث رجلا كالرجل العبوس بلغة سرية كل الليل فلا بد إذاً أن يكون من أمثاله ، لذلك رضي باقتراح السكرتير وقال هلم معي يا سيدي إلى غرفة الأسير .

ثم مشى أمامه يتقدمه قائد الحراس وتبعهم الأساتذة الثلاثة ، أما ميلون فانه بقي عند الباب الخارجي إذ خشي ان يرى روكامبول فيخونـــه الجلد ويفضح أمره لاسيما وأن مرميس أوصاه ألا يدخل إلى السجن .

ولما فتح الحاكم غرفة روكامبول ودخل الجميع اليها صاح مرميس صيحة فرح ووثب من سريره إلى السكرتير .

فصاح السكرتير قائلا : لقد ساءني جداً أيها الصديق ما أصابك .

فضحك مرميس وأجاب :

- ولكني لم أضجر في السجن ، لقد تسليت كثيراً بعشرة هذا الرجـل والاتفاق معه على الهزء بالحاكم .

فدهش الحاكم وقال : تقول أنكما هزأتما بي .

- دون شك فان هذا الرجل الذي وضعتموني معه في السجن فرنسي وأنا لا أعلم السبب في سجنه ، لكنكم أردتم أن أكون شريكه في جرائمه ، وأن أكون صديقه الحميم فاقترحت عليه عند ذلك ان نتلهى بالعبث بكم إلى أن

تفرجو عني فأجابني إلى اقتراحي وهو رجل صالح التربية فانه قد يكون ارتكب جريمة غير انه يتقن اللغة الجافانية .

فقال الحاكم : إنها لغة جهنمية .

بل هي لغة لطيفة يا سيدي الحاكم وسأقفك على أسرارها .

غير ان السكرتير لم يمهله فانه أشار إشارة توديع إلى روكامبول قائلاً لمرميس :

– هلم معي أيها الصديق فانهم مدينون لك بتعويض وأقسم لك ان الغرامة ستكون عظيمة بقدر الإساءة اليك .

وبعد نصف ساعة خرج مرميس مع السكرتير من السجن وغادر ذلك الحاكم المنكود عرضة الهواجس لوثوقه من حكم القضاء عليه بالغرامة وهو لم يكن من الأغنياء .

أما روكامبول فانه عاد إلى سريره ونام مطمئناً هادئاً واثقاً من فوز تلميذه بما أوصاه .

- ١٩ -

يوجد في لندرا جمعية أسستها نبيلات الانكليز يشترك فيها العواقل والأوانس وغرضها تعزية من يحكم عليه بالاعدام قبيل تنفيذ الحكم عليهم .

ولنساء هذه الجمعية لباس خاص يلبسنه حين يحاولن قضاء هذه المهمة الشريفة ، فاذا لبسته المرأة أصبحت فوق القانون ولو ارتكبت جريمة إذ لا يجسر أحد على القبض عليها وهي لابسة تلك الثياب .

وكانت مس الن عضواً عاملاً في تلك الجمعية ، ولها غرفة في شارع سرمنت .

كانت تلبس فيها تلك الثياب حين تزور السجون لتعزية المحكوم عليهم بالإعدام .

ويذكر القراء أن فاندا ومس الن نزلتا في فندق حين وصولهما إلى لندرا ففي اليوم التالي لوصولهما قالت لفاندا : اني لا أستطيع البقاء معك في هذا الفندق .

– لماذا ؟

– لأني أخاف جواسيس الأسقف وأحب أن أدافع بسلاحي .

– أي سلاح تعنين ؟

– انك تعرفين شيئاً عن انكلترا ، لكن قد غابت عنك أشياء ، فان في هذه البلاد امتيازات كثيرة تحول دون قوة الشرطة وسلطانهم .

مثال ذلك ، تلامذة مدرسة أبناء المسيح ، وأعضاء جمعية إعانة المحكوم عليهم بالإعدام ، فان الشرطي إذا تجاسر على اعتراض سيدة من أعضاء هذه الجمعية وهي بالثياب الخاصة هجم عليه الناس ومزقوه تمزيقاً . وأنا من أعضاء هذه الجمعية ، لذلك فقد وجب ان البس لباسها الخاص كي أنجو من غدر الأسقف .

– ولكن اين مركز هذه الجمعية ؟

– إني لا أذهب الان إلى مركز الجمعية بل إلى الغرفة التي أضع فيها ملابسي الخاصة وهي قريبة من هذا الفندق فهل تذهبين معي ؟

ورضيت فاندا بالذهاب معها .

وذهبنا حتى إذا وصلتا اليها وارتدت مس الن تلك الثياب الخاصة قالت : اني لا أخشى الان حقد الأسقف .

– وغضب أبيك ؟

فابتسمت وقالت إن كلمتي الأخيرة لم أقلها بعد لأبي فانه يحبني حب عبادة ولا يزال يحبني هذا الحب .

- إذاً فهو شديد التعاسة لبعدك عنه .
- دون شك ولكني سأقنعه وأجمله من حزني .
- أتجسرين على مقابلته والذهاب اليه ؟
- كيف لا وإني سأذهب اليه في رابعة النهار .
- ألا تخافين أن يبقيك في المنزل ؟
- ولكني أذهب اليه بهذه الثياب وهي تحميني .

ثم قالت بعد سكوت قصير : إني أحب الرجل العبوس الان وكنت السبب في دخوله إلى السجن وأنا أتولى إنقاذه .

وكانت تتكلم بلهجة الواثق المطمئن ثم قالت إني وافقت على مشروعكم ومشروع أصحابكم ولكن هذا المشروع قد يخفق فاذا لم تنجح مساعيكم فلا بد من نجاحي .

وبعد حين عادت فاندا إلى الفندق ، وبقيت مس الن في تلك الغرفة ، وكانت قد استخدمت فتاة ارلندية تصلح لها غرفتها وتحضر لها الطعام في الفندق .

* * *

مضى على ذلك يومان ففي اليوم الثالث ذهب مرميس الى الفندق الذي تقيم فيه فاندا فسرت سروراً عظيماً لمرآه وقالت له : ارأيت الرئيس ؟

- وأقمت معه يوماً وليلتين .
- أتلقيت أوامره ؟
- تلقيتها تامة فأين هي مس الن وكيف لا أراها معك ؟

فأخبرته فاندا بجميع ما اتفق فقال لها : إذاً هلم بنا إلى غرفتها إذ يجب أن أراها .

فذهبت فاندا به إلى غرفة مس الن واجتمع بها ثم بدأت تسأله عن

روكامبول أدق السؤالات ودلائل الغرام ظاهرة بين عينيها وهي تضطرب كلما ذكرت اسمه كأنها تراه .

فقال مرميس وهو يبتسم . اطمئني يا سيدتي .. سوف ننقذه ، ولا بد من انقاذه .

ثم أخبرها ان روكامبول أمره إن يقابل الأب صموئيل ، وسألها كيف يستطيع أن يجده ، فأخبرته ان هذا الكاهن مختبىء منذ قبض على الرجل العبوس ، لأنه متهم مثله بتحريض الارلنديين على الانكليز ، ولكني أعلم أين هو .

– أين ؟

– تذهب الى سنوارك وتدخل الى كنيسة سانت جورج فتقول لبوابها اني قادم لخدمة الارلندية وكلمه باللغة الفرنسية فان ذلك يزيد ثقته بك .

– أيرشدني الى مقام الأب صموئيل ؟

– ربما ولاسيما اذا كلمته عن الرجل العبوس .

. اذاً سأذهب الان فان الوقت غير متسع لدينا لاسيا وان الرجل العبوس يطلب من زعماء الارلنديين جلسة خاصة للبحث في شأنه .

فقالت له مس الن : اذهب وأسرع بما أمرك به فاذا لم ينقذه الارلنديون فأنا أعلم كيف انقذه .

فانصرف مرميس وخرجت فاندا وهي تفتكر بمس الن وتقول : رباه ما هذا الحب فهي توشك ان تجن بهواه ، فيالله من نضارة الشباب .

وبعد حين كان مرميس وميلون سائرين الى كنيسة سانت جورج وهما لا يكادان يهتديان لكثافة الضباب . حتى اذا بلغا اليها طرق مرميس الباب ففتح له البواب الشيخ ، فلما رأى هذين الرجلين ظهرت عليه علائم الخوف فقال لهما : ما تريدان ؟

فقال مرميس تلك الجملة التي علمته اياها مس الن وهي اننا قادمان لخدمة ارلندا .

فأجابه البواب قائلاً : اني لم أعلم ما تريد .

— اني اريد ان ارى الأب صموئيل

— انه غير موجود هنا وربما كان في سانت جيل

غير ان مرميس ايقن ان البواب كان كاذباً فيما ادعاه فقال له :

— احذر ايها الشيخ فانك قد تضر ارلندا ضرراً بليغاً اذا لم ترشدنا الى الأب صموئيل .

— العلكما ارلنديان ؟

كلا بل نحن اصدقاء الارلنديين

— وقد تكونان ايضاً من أصدقاء الانكليز فاذهبا في شأنكما فانهم حين قبضوا على الكاهن خدعوه بمثل هذه الأقوال .

— ولكننا قادمان من فرنسا وقد رأينا رالف وامه حنة

فتراجع الشيخ خطوة الى الوراء فأيقن مرميس ان اسم الغلام وامه قد أثر عليه فقال له :

— اتريد ان اصفهما لك ، فان حنة طويلة القوام سوداء الشعر زرقاء العينين وافرة الجمال ، وان رالف عمره عشرة أعوام وهو كثير التيه كأبيه السير ادوارد بالمير .

- وقد رأيتها كما تقول ؟

فقال ميلون . وهما الان عندي .

- اين ؟

- في منزلي في باريس .

غير ان الشيخ لم يثق كل الوثوق بكلامهما فقال لهما اني اصدقكما ولكني لا اعلم مكان الكاهن .

فقال له مرميس : كلا بل انت تعلم ولكنك لم تصدق حديثنا بعد فهل تعرف الرجل العبوس ؟

فارتعش الشيخ لذكر اسمه وقال له :

- اتعرف الرجل العبوس ايضاً ؟

- اتعرف ايضاً شوكنج ؟

فكاد الريب يزول من قلب الشيخ ، وقال له : اتثبت لي انك تعرف شوكنج ؟

- ان الأمر سهل فهو ليس في لندرا .

- هذا اكيد .

وهو في فرنسا مع رالف وامه .

فلم يقتنع بهذا البرهان وقال ان هذا اكيد ايضاً ، ولكن الشرطة الانكليزية لا تخفاه خافية وقد تكونان من الشرطة .

فيئس مرميس وقال : إذا كنت لا ترشدنا إلى الأب صموئيل ، أفلا تسمح لنا على الأقل أن نعهد اليك بايصال هذه الرسالة اليه .

- إذا رأيته .

لنفرض إنك تراه فإذا رأيته فاعطه هذه الرسالة وقل له أنها من الرجل العبوس .

فأخذ الشيخ الرسالة من مرميس وقال له : عد في الغد او في المساء فقد

يتفق لي أن أرى الكاهن .

— حسناً .

ثم أضاف قائلاً : هلم بنا نذهب .

فقال ميلون : كيف نذهب وقد قيل لنا ان الكاهن هنا .

— تعال معي وسوف ترى .

فلما ساروا خارج الكنيسة قال ميلون : لقد أخطأنا ، فقد كان يجب أن نلح على هذا الشيخ ، فإذا أبى أن يجمعنا بالأب صموئيل قبضت أنا على عنقه فمنعته عن الصياح ، ودخلت أنت الى الكنيسة وبحثت عن الأب صموئيل .

وكانا لا يزالان داخل السور فقال له : إجلس هنا على هذا الصخر ثم انظر الى العلا ألا ترى قبة الجرس ؟

— إن الضباب كثيف فلا أرى شيئاً .

— ولكن حدق النظر فماذا ترى ؟

— إني أرى نوراً يتصاعد إلى القبة .

— إذاً ، فاعلم أن الأب صموئيل مختبىء في تلك القبة وهذا النور الذي تراه مصباح الشيخ لأنه صعد اليه بالرسالة فلننتظر هنيهة .

— لماذا ؟

— سوف ترى .

وبعد حين وجيز جعل ذلك النور ينزل بعد صعوده ، ولكنه كان يهبط بسرعة .

فتابع مرميس . إن هذا الشيخ المسكين يجري الآن بهمة الفتيان .

— وكيف ذلك ؟

— إنه ينزل من السلم راكضاً .

— لماذا ؟

- لرجائه أن يدركنا قبل ان نحتجب عن الأنظار وسوف ترى .

وكان مرميس مصيباً في ظنه ، فإن الشيخ لم يلبث أن فتح باب الكنيسة وخرج راكضاً إلى فنائها حيث كان ميلون ومرميس .

- ٢١ -

لم يكن مرميس مخطئاً حين أخبر ميلون ان هذا الشيخ قد صعد بمصباحه الى قبة الجرس لمقابلة الأب صموئيل ، فإن هذا الكاهن كان مختبئاً حقيقة في غرفة سرية كائنة في القبة لم يكن يعلم سرها غير بواب الكنيسة، وكاهنها والأب صموئيل .

وقد أنشأ الارلنديون هذه الغرفة الخفية منذ خمسين عاماً ، وذلك أن أحد كهنتهم أهان أسقف كانتربوري ، في ذلك العهد ، وطعن بمذهب البروتستانت ، فطاردته الحكومة .

وبقي مختبئاً في أحد بيوت الارلنديين حتى بنوا له هذه الغرفة فاختبأ فيها حتى انقضت مشكلته .

ومنذ خمسين عاماً الى عهد هذه الرواية ، لم يدخل تلك الغرفة إلا الأب صموئيل .

وذلك أنه جاء ليلة الى بواب كنيسة سانت جورج وقال له : يجب أن أختبىء .

فرد الشيخ : لماذا العلهم يطاردونك .

- نعم فقد بحثوا في أوراقي مدة غيابي فوجدوا بينها رسائل من الرجل العبوس الذي قبضوا عليه فأمروا بالقبض علي .

وكان ذلك بمساعي الأسقف بترس تون ، فانه استصدر أمراً من نظارة

العدلية بالقبض على الأب صموئيل ، ولكنه تمكن من الاختباء قبل أن يعثروا عليه .

ولقد طال اختباء الأب صموئيل ، حتى انه تعذر على زعماء الارلنديين الاجتماع .

ولكن رسائل الكاهن كانت تصل اليه ، وقد وصل اليه التلغراف الذي أرسله مرميس من العاصمة الفرنسية ، بواسطة أحد عمال التلغراف الارلنديين .

أما مبالغة البواب في الحذر من مرميس وميلون، فذلك لأن أفراد الشرطة السرية الانكليزية كانوا يأتون كل يوم إلى الكنيسة بازياء مختلفة ومطالب متنوعة فلم يفوزوا بحيلة من حيلهم .

غير أن الأب صموئيل تبين الصدق من لهجة الرجل العبوس فقال للشيخ من جاء بهذه الرسالة ؟

– رجلان .

– أين هما ؟

– أطلقت سبيلهما .

– أمن عهد بعيد ؟

– كلا بل الآن وقد يكونان باقيين في الفناء .

– إذاً أسرع اليهما وجئني بهما فإنهما من الأصدقاء .

فهرول الشيخ مسرعاً وهو ينزل درجات السلم ثلاثاً ثلاثاً حتى أدركهما فوضع يده على كتف مرميس واستوقفه .

فسأله مرميس . ما لي أراك تلهث من التعب ؟

– لأني عدوت عدواً بغية إدراكك .

– وأنا أبطأت في الخروج ليقيني أنك ستعود إلي .

– إذاً اتبعاني إلى الكاهن لأنه ينتظركما .

وبعد هنيهة كان مرميس وميلون في خلوة مع ذلك الكاهن الشاب ، فقال له مرميس : إنك قد علمت دون شك ، من الرسالة اني خارج من سجن نوايت .

– نعم فهل لقيت الرجل العبوس ؟

بت معه ليلتين .

فوضع الأب صموئيل يده على جبينه وقال: إن من أعظم الشقاء ان يكون العبوس في سجن نوايت .

– ولكنه سوف يخرج منه .

فرفع الأب صموئيل عينيه الى السماء قائلاً: واأسفاه انك لا تعرف الارلنديين كما يظهر .

ماذا تعني ؟

– إن الرجل العبوس كان زعيمنا الأكبر بضعة شهور . فما تولى أمراً من أمورنا إلا كان الفوز رائده .

على ان أولئك الارلنديين على شدة تمسكهم بالدين المسيحي لا يزالون من أهل التفاؤل والتشاؤم ، فقد كانوا يعتقدون أن للرجل العبوس قوة فوق قوة البشر ولكنه سقط في الفخ الذي نصب له فتغير اعتقاد الارلنديين به ولم يعد بينهم من يعتقد به ذلك الاعتقاد السابق .

– ولكن ألم يحاول أحد إنقاذه .

– كلا واأسفاه .

فابتسم مرميس قائلاً : ان الرجل العبوس لم يؤخذ اغتيالاً واذا كان قد خدعه الانكليزي فهو الذي أراد ان ينخدع .

– ماذا تقول ؟

– أقول الحقيقة .

فتراجع الأب صموئيل لفرط ما أدهشه هذا النبأ .

وتابع مرميس قائلاً · إنه رضي أن يؤمىر للبلوغ الى غاية لا ينالها إلا من هذا الباب .

– إني لا أفهم ما تقول يا سيدي .

– إنكم يا سيدي الكاهن تعرفون أعداءكم الألداء في لنـدرا فهل لك أن تذكرهم لي ؟

– إن لنا ثلاثة أعداء أشداء لا نرهب سواهم .

– من هم ؟

– إن أولهم الأسقف بترس تون زعيم المذهب الانجليكاني .

– والثاني ؟

– هو اللورد بالمير .

– والثالث ؟

– المس الن إبنة اللورد بالمير وهي ألد أعدائنا .

– إنك مخطئ يا سيدي الكاهن .

– كيف ذلك ؟

– ذلك أن المس الن لم تعد من أعدائكم .

– ماذا تقول ؟

– لا أقول غير الحق يا سيدي فان المس الن أصبحت ارلندية مثلكم بفضل الرجل العبوس .

– ٢٢ –

وقد كان هذا الخبر شديد الوقع على الأب صموئيل ، حتى انه أوشك أن لا يصدقه لغرابته فقال لمرميس : العلك واثق يا سيدي ان الرجل العبوس

لم ينخدع ؟

-- بماذا ؟

-- بالمس الن لأنها شديدة الخداع والرياء وقد يكون ما بدا منها مظاهرة ترمي بها إلى غرض من الأغراض .

-- لقد كانت مرائية خداعة ، كما تقول ، الى ان غلبها الرجل العبوس .

-- ألعلها تهواه ؟

-- إنها أحبته ، بل فتنت به وتدلهت بهواه ، منذ قبض عليه رجال الشرطة .

وكان مرميس قد علم من روكامبول ، خلال إقامته معه في السجن جميع الحوادث التي جرت في لندرا منذ ستة أشهر .

فقص على الأب صموئيل كيف أن المس الن كادت للرجل العبوس تلك المكيدة ، وكيف انه سقط في ذلك الفخ طائعاً مختاراً ، فحمل الفتاة على التدله بحبه .

ثم ذكر له تفاصيل سفرها الى العاصمة الفرنسية وكيف انه أنقذها من قبضة السير جمس إلى آخر ما عرفه القراء .

فلما أتم حديثه قال له الأب صموئيل: لقد وثقت الآن من أنها تهوى الرجل العبوس وإنها باتت إرلندية المشرب . ولكني أخشى ان لا يثق بانقلابها بقية الزعماء .

-- وإذا جاءت بنفسها اليهم ؟

-- قد يكون في ذلك فائدة وسأدعو الزعماء للاجتماع الليلة .

-- في أي مكان ؟

-- أتعرف لندرا ؟

-- حق العرفان .

— يوجد شارع يدعى وينغ وفيه زقاق يدعى ولكوس .

— أعرفه .

— إذاً لتحضر المس الن قبل نصف الليل بقليل .

— أتحضر وحدها ؟

— كلا فإن أهل الزقاق من الرعاع وقد تعرض نفسها للاهانة إذا أتت وحدها فاصحبها وانتظر هناك .

— سأحضر وإياها في الموعد المعين .

ثم حدق الأب صموئيل هنيهة وأضاف : أتعلم ما ساعد الارلنديين على تغيير اعتقادهم بالرجل العبوس ؟

- كلا .

- لأنه غير ارلندي وقد علموا انه فرنسي .

فاستاء مرميس وقال له : إني أعلم كل ما فعله الرجل العبوس في سبيل خدمتكم بما كنتم تعدونه من الخوارق والمعجزات ، ولكننا نحن أعوانه ، رأيناه فعل ما يصح أن يسمى بالعجائب . وهو لو شاء الخروج من سجن نوايت ، لخرج من تلقاء نفسه ، دون أن يحتاج الى مساعد .

وبدرت حركة من الأب صموئيل تفيد أنه اذا كان كذلك فلماذا يرجو مساعدتنا ؟

فأدرك مرميس قصده ورد قائلاً : إن لكل نابغة يا سيدي هوس ولكل قوي شيء من الضعف .

أما الرجل العبوس فقد كان في بدء عهده من كبار المجرمين وهو من أصدق التائبين ، وقد آلى على نفسه أن يكفر عن ذنوبه السابقة بنصرة كل مظلوم ، وخدمة كل غرض نبيل .

وقد رآك في خمارة بين السكارى تشبه الملاك بين الأبالسة ، فنحن

لقصدك ، وبات إرلندياً مثلك . فاذا أنقذتموه أنتم أفادكم فوائد جمة لا تخطر لكم في بال .

- أتطلب لي أنا إنقاذه ؟.. إني أحب هذا الرجل ، كما أحب نفسي !..

- وإذا تخليتم عنه تخلى لنفسه السراح .

وكان ميلون يسمع الحديث فهاجه ما رآه من برود الأب صموئيل وقال : ونحن ماذا أتينا نعمل في لندرا ؟

فتأوه الأب صموئيل وأجاب : إنه لو كان ارلندياً لأنقذوه ولو اضطروا الى إحراق لندرا بجملتها ولكن ما حيلتي بهؤلاء القوم وهم لا يخاطرون بأنفسهم إلا من أجل الارلنديين .

فابتسم مرميس وقال : لقد صدق الرجل العبوس يا سيدي ، حين شبهك بالملائكة ، وهو لا يشك باخلاصك . وإذا تخلى عنه الارلنديون فلا تخف عليه فإننا نحن أعوانه نستطيع أن نفتح له أبواب السجن ، لأننا لم نأت الى لندرا إلا لهذا الغرض .

فأطرق الأب صموئيل مفكراً ثم أجـــاب : سوف نجتمع في هذه الليلة وسنرى ما يكون .

وعند ذلك هم مرميس وميلون بالانصراف ، فقال له الأب صموئيل : لقد نسيت أمراً ، وهو انك لست من الارلنـديين ، فلا تستطيع حضور اجتماعنا !.

- إذاً المس الن تذهب وحدها ؟

- كلا إنك توصلها الى ولكوس وأنا أحضر وأذهب بها .

ثم خرج مرميس وميلون ، فكان ميلون يتمتم كلمات لا تفهم ولكنها تدل على استيائه .

فسأله مرميس : ما أصابك وما تقول ؟

- إن الرئيس يضحي نفسه للأغراض النبيلة ولكن هؤلاء الناس لا يدركون معنى هذه المقاصد ولا يقدرونها قدرها .

- لا تتسرع بأحكامك يا ميلون فقد يفعلون ما يريد الرئيس .

- إن نيتهم ظاهرة من فتور هذا الأب .

- إذا كان ذلك تولينا نحن تخليصه .

- وكيف ذلك أوضعت خطة لتخليصه ؟

- دون شك وسنبدأ بتنفيذها الليلة .

- كيف يكون ذلك وأنت ستصحب المس الن ؟

- إني سأصحبها عند نصف الليل وسأبدأ العمل قبل هذا الميعاد فهلم معي اننا ستتحدث على الطريق .

ثم خرج وإياه من فناء الكنيسة وسارا الى جسر وستمنستر . .

- ٢٣ -

وفيما هما على الطريق قال لميلون: لنتحدث الآن ولنراجع حسابنا فكم يبلغ عدد عصابتنا ؟

- أين ذلك ؟

- في لندرا .

- تريد نحن والذين أتينا بهم ؟

- نعم ..

- أربعة أنا وأنت وفاندا ومس الن .

- لا تعد النساء فانهن لا يدخلن في حسابنا .

- نحن الاثنان ومورت وجواني وبوليت والسير جمس .

ـ لا تحسب هذا .

ـ وادوارد ؟

ـ عده ، فاننا سنكون ستة . ثم ان روكامبول أهداني الى أربعة نستطيع الاعتماد عليهم حين الاقتضاء ، واذا اضطررنا أيضاً دعونا شوكنج من فرنسا .

فذهل ميلون وسأله : ولم هذا الحساب ؟

فابتسم وأجابه : إنك كثير التسرع في الميل الى معرفة الأمور قبل أوانها .

ـ ولكني لم أفهم شيئاً .

ـ إقتصر الآن على العلم انك ستغير مهنتك فقد كنت مقاولاً في فرنسا ، أهذا صحيح ؟

فحملق ميلون ورد : دون شك .

ـ لكنك ستغدو بائع حبوب .

فظهرت علائم الاستياء على ميلون وقال : أرى انك تهزأ بي يا مرميس ولم أكن لأسمح به لغير روكامبول .

ـ إطمئن واعلم اني لا أهزأ بك .

ـ ولكني لم أعلم الآن أي اتصال بين بيع الحبوب والمهمة التي أتينا من أجلها .

ـ سوف تعلم .

ـ متى ؟

ـ بعد ساعة .

وكان الاثنان قد وصلا إلى خمارة ، فدخلا اليها وطلب ميلون كأسي شراب .

وأخذ مرميس جريدة التايمز من جيبه ، وقلب صفحاتها حتى بلغ إلى

الصفحة الرابعة ، فوضع إصبعه فوق إعلان ودفع الجريدة إلى ميلون قائلاً له : إقرأ .

وكان الاعلان يتضمن انه يوجد محل تجاه سجن نوايت ، لبيع الحبوب وسواها ، وان هذا المحل كثير الزبائن بعيد الشهرة وان صاحبه يريد ان يبيعه ويتنحى عن الأعمال .

فلما قرأه ميلون سأله : ما تعني باطلاعي على الاعلان ؟

– لقد قلت لك انك كثير التسرع ، تريد معرفة كل شيء قبل أوانه ، فاكتف الآن بأن تعلم أن لنا فوائد جمة من محل تجاه سجن روكامبول .

– هذا أكيد .

– وإننا إذا لم نستفد من ذلك ، سوى التعارف مع عمال السجن لكفى .

فكف ميلون عن الأسئلة وشربا كأسيهما ، ثم برحا الخمارة ذاهبين الى جهة ترافلغار .

ثم سارا منها الى سجن نوايت الى ذلك المخزن الذي قرأ ميلون الاعلان عنه في جريدة التايمز .

فوقفا بعيدين عنه ودله مرميس عليه قائلاً :يجب ان نشتري المخزن والبيت الذي فوقه .

ونظر ميلون الى البيت ، نظرة احتقار قائلاً : ان هذا بيت قديم ، لا يصلح لشيء

– سوف ترى ما يكون من فائدته وانه لا يبدل بثمن ولا بد لنا من شرائه لا سيما وان ذلك أمر روكامبول .

– إذاً ليكن ما يريد فلندخل اليه .

ثم دخل الاثنان الى المخزن ، ووجدا صاحبه جالساً حول مائدة مكباً

على دفاتره .

وحياه مرميس قائلاً له : الست يا سيدي ، صاحب الاعلان في جريدة التايمز ؟

فلما رأى أنهما قادمان لشراء مخزنه ، أحسن استقبالهما ، وقال لهما : نعم أنا هو .

ثم أخذ يصف لهما ما بلغه محله من الشهرة الى ان فرغ من اوصافه فسأله مرميس : كم ثمن مخزنك هذا ؟

– ثلاثة آلاف جنيه يا سيدي ، وهو ثمن زهيد بالقياس الى شهرته لكني مضطر الى اعتزال الأعمال فلا أجد بداً من هذا التساهل .

وبعد المساومة اتفقا على شرائه بألفي جنيه ، فأخرج مرميس من جيبه أوراقاً مالية وبسطها على الطاولة قائلاً : اني أدفع لك هذا السعر ولكني أقيدك بشرط .

فبرقت أسرة البائع حين رأى تلك الاوراق وقال : قل يا سيدي ما هو شرطك ؟

فأجاب مرميس : إني سأبرح انكلترا غداً يا سيدي ، وإن رفيقي الذي تراه معي من أهلي ، وأحب ان أراه متولياً أعماله قبل سفري . وإنما دفعت لك الفي جنيه بشرط أن تبرح هذا البيت مع زوجتك في الحال .

– إني غير متزوج .

– اذاً تتركه مع عمالك

– ليس لي أيضاً عمال .

فابتسم مرميس قائلاً : ان هذا خير دليل على رواج أعمالك ، وكثرة زبائنك .

ما ربح هذا المحل يا سيدي من رواج بضائعه ، بل من نوافذه

المشرفة على السجن ، فانهم كلما شنقوا مجرماً فيه اؤجرت النافذة الواحدة بعشرة جنيهات .

– رضيت شرط ان تبرح محلك على أثر عقد البيع .

- رضيت .

فذهبوا عند ذلك عند أحد المحامين ، فكتب لهم عقداً ودفع مرميس الثمن ، فانصرف البائع لفوره ، وذهب مرميس وميلون الى المحل فكتبا على بابه هذه الجملة : « تغير صاحب هذا المحل وهو مقفل مؤقتاً إلى أن يتم إصلاحه » .

وبعد ان الصق هذا الاعلان على باب المحل قال لميلون · هلم بنا الآن الى مس الن .

– وبعدها ؟

– نذهب الى الشارع الذي يقيم فيه باعة الكتب .

فضحك ميلون وقال : اني لا أفهم شيئاً مما تقول ، إلا اذا كنت من الانبياء .

وبعد هنيهة دخل مرميس الى غرفة المس الن فقال لها : سيجتمع زعماء الارلنديين الليلة في ولكوس وهم ينتظرونك .

– سأذهب ولا بد ان يتعهدوا لي بتخليص الرجل العبوس .

ثم قص عليها حديثه مع الاب صموئيـــل فقالت لا شك انهم حمقى لانهم يريــدون أن يكون النصر حليف الرجــل في كل أعماله أو يعــدونه من الخاملين .

– اننا نمتثل لما أمرنا به الرجل العبوس لانه يريد ان نمتحن هؤلاء الارلنديين على أنهم اذا أبوا تخليصه خلصناه نحن غير مكترثين بهم .

دن شك فاني اذا رأيت أبي ...

فقاطعها قائلاً : أترين أباك ؟

– نعم اني أصنع بأبي ما أريد حين أريد .

– إذاً إلى اللقاء ، فسأحضر في الساعة الحادية عشرة لايصالك الى مكان الاجتماع .

* * *

ثم تركها وذهب مع ميلون الى باعـــة الكتب ، فذهب الى بائع بينهم يدعى سيموتز ، وهو كتبي شهير لديه كثير من الخرائط والكتب التاريخية القديمة ، وقال له : اني محتاج يا سيدي ، الى خريطة لندرا في القرن السادس عشر .

فأجابه الكتبي : ان هذه الخريطة التي تطلبها يا سيدي ، لا يوجد منها سوى نسختين إحداهما في مكتبة المتحف والثانية في مكتبتي .

– ألا تريد ان تبيعني اياها ؟

– لقد دفعوا لي مائة جنيه فأبيت .

وأخذ محفظـة الاوراق المالية من جيبه قائلا : وإذا دفعت لك مائة وخمسين ؟

- أبيعها .

– إذاً هاتها .

ففتح الكتبي خزانة وأخرج منها تلك الخريطة ، وهي مقسمـــة الى أقسام كثيرة ، وملصقة على قماش بشكل كتاب فدفعها اليه قائلا : إن هذه الخريطة يا سيـدي من أغلى الآثار التاريخية ، فإنها قـد وضعت بأمر شارل الثاني .

– إني أعرف ذلك .

– وقد أمر بوضعها على أثر تلك المؤامرة الهائلة التي كان المراد منها نسف لندرا بجملتها بواسطة الوف من براميل البارود .

اني أعرف سر تلك المؤامرة ايضاً ، واني آخذ بانشاء كتاب ولذلك أحببت شراء الخريطة للاستعانة بها على وضع الكتاب .

-- إذاً افتحها يا سيدي لاطلعك على بعض مصطلحاتها .

فامتثل وتابع الكتبي : انظر يا سيدي الى الخطوط الحمراء انها تشير الى الدهاليز التي في ذلك العهد .

— ولكنهم قد هدموها بعدها كما أظن ؟

— هو ذاك غير اني واثق انه لا يزال كثير منها باقياً الى الآن كما كان في عهد المؤامرة .

— أين هي ؟

— في ضواحي سجن نوايت على الاخص .

ثم وضع إصبعه على إحدى الشوارع المرسومة في الخريطة واضاف : انظر يا سيدي الى هذا الشارع فان فيه منزلاً تجاه سجن نوايت ، يمتد تاريخ بنائه من القرن الرابع عشر .

— لقد بات اثراً تاريخياً ولا بد لي ان أراه .

— إني على اليقين انك ستجد في أقبية البيت اثر الدهاليز المرسومة في هذه الخريطة .

فأجابه بلهجة تدل على عدم الاكتراث : ان ذلك قد يكون ، وسوف نرى .

ثم دفع ثمن الخريطة كما اتفقا وخرج من عنده مع ميلون ، فنظر ميلون الى مرميس نظرة اعجاب قائلاً : بدأت أفهم الآن .

فابتسم قائلاً : الحمد لله

وعند ذلك عاد مرميس وميلون إلى المحل الذي اشترياه فدخلا اليه وجعل مرميس ينظر إلى بضائعه ويقول : لا شك ان ذلك البائع كان جل اعتماده على تأجير النوافذ كما تدل بضائعه .

— هو ما تقول ، ان كل بضائعه لا تباع بدينار .

— ولكننا سنشتري له خير البضائع فتعين فيه امرأة حسناء للصندوق .

— ماذا تقول ؟

— وتعين أيضاً عاملين للبيع وكاتباً للدفاتر والمراسلات .

— إذاً تريد حقيقة ان أكون من التجار ؟

— اني لم أقل غير ذلك .

— ولكن لماذا ؟

— لأننا في حاجة إلى جمع العصابة كلها في محل واحد دون ان نستلفت الينا الانظار فان مورت وجواني يكونان العاملين للبيع وبوليت لمسك الدفاتر وامرأته بولينا للصندوق .

— لقد حسبت اني فهمت في البدء .

— وأنت ألم تفهم ؟

— وكيف تريد أن أحل هذه الالغاز ؟

— إذاً فاسمع أن الكتبي قال لنا ان هذا المنزل لا بد ان توجد في أقبيته الدهاليز التي حفرت أيام المؤامرة .

— نعم .

— أما هذه الدهاليز قد تكون متصلة بسجن نوايت ولكنهم قد يكونون هدموا مداخلها فلا بد لنا إذاً من الاستعانة بهذه الخريطة لايجاد مداخل تلك الدهاليز ، فاذا وجدناها فلا بد من استعمال الرجال والآلات لتطهيرها وفتح

منافذها ، فهل يجمل بنا استئجار العمال من لندرا لهذا الغرض السري الخطير فانهم لا يخرجون في المساء حتى يذيعوا أمرنا فيعلمه جميع الناس ولذلك وجب أن يكون عمالنا منا .

– أصبت ، وأرجوا أن تعذرني فقد كان يجب أن أدرك القصد قبل أن تصرح به ، ولكني بطيء الفهم كما تعلم .

– أما عمالنا أي رجال عصابتنا وهم أنت وبوليت ومورت وجواني فسيكونوا عمالاً في المحل نهاراً وعمال حفر وتنقيب في الليل .

– اسمح لي أن اسألك سؤالاً آخر وهو انه لو عثرنا بهذه الدهاليز أتظن انه يوجد بينها دهليز يتصل بسجن نوايت ؟

فتح مرميس الخريطة وأرى ميلون الخطوط الحمراء فيها التي تعين مواضع الدهاليز فدله على خط أحمر يسير على الجهة اليمنى من المنزل إلى ناحية السجن .

– حسناً ، ولكن لا يظهر في هذا الرسم إلى أين ينتهي الدهليز ، ولا مقدار عمقه .

– ولكننا سنعلم .

– متى ؟

– بعد يومين .

– كيف ذلك ؟

فضاق صدر مرميس لكثرة اسئلته وقال له. صبراً أيها الصديق فستعلم كل شيء في وقته ليس لنا الآن متسع من الوقت لهذه الأبحاث .

فاطرق ميلون برأسه ولم يجب ، أما مرميس فانه نظر في ساعته وقال : أن الساعة الثامنة الآن ويجب أن أذهب إلى مس الن بعد ثلاث ساعات ، فهلم بنا الان نتعشي ثم نذهب للبحث عن رجال العصابة فاين تركتهم ؟

تركت مورت وجواني في بوكدنج حيث يقيم تجار الخيل الفرنسيين .

– وبوليت .

– انه يقيم مع إمرأته في فندق سابونيير .

– إذاً هلم بنا إلى هذا الفندق ، فـاني محتـاج إلى بوليت وزوجته قبل الآخرين .

* * *

بينما كان ميلون ومرميس يتعشيان كانت فاندا عند مس الن .

وكانت مس الن تتأهب لحضور اجتماع زعماء الارلنديين فنظرت إلى فاندا وقالت لها وهي تبتسم : رباه ما أشد الانسان تعرضاً للتغيير فان اسم الارلنديين كان يثير العواصف في قلبي منذ شهرين وكنت أرى انه يتحتم على انكلترا إبادتهم من الوجود لأنهم كانوا يشبهون عندي الحشرات السامة .

فابتسمت فاندا وقالت لها : والآن ؟

– أما الآن فإن الارلنديين اخواني .

– ان ذلك لا يستغرب فقد قيل لي انك ارلندية الأصل

– هو ذلك ولكن أبي بات انكليزياً وجعلته الحكومة لورداً استرضاء له فصارت انكلترا موطناً لنا .

.. وكل هذا الانقلاب أحدثه الرجل العبوس ؟

فأجابتها باعجاب : انك تعرفينه حق العرفان فلا تجهلين نظراتـــه التي تخترق القلوب .

فتنهدت فاندا وقالت : نعم أعلم .

– اننا حين ننقذه ويغدو حراً أكون عبدة له وأمشي وإياه جنباً إلى جنب في السبيل الذي ننهجه وهو حرية ارلندا .

وقالت فاندا لنفسها : رباه قد بلغ حبه من قلبها ، ثم انحدرت دمعة من عينيها فمسحتها وعندها طرق الباب ودخل مرميس وقال لمس الن : الملك يا سيدتي متأهبة للرحيل ؟

— نعم .

وكانت قد لبست الثوب الخاص بنساء تلك الجمعية التي تقدم لنا وصفها .

- ٢٥ -

انتصف الليل وظهر شارع وينغ بمظهره الحقيقي الذي طالما وصفناه فيما تقدم من أجزاء هذه الرواية ، لأن هذا الشارع لا يمر به إلى الساعة الثامنة غير أولئك العمال النشطاء الذين يعودون من أعمالهم إلى منـــازلهم ليناموا ، ثم يستفيقون في الساعة الرابعة من الصباح للعودة إلى العمل .

وفي ذاك الحين تقفل أبواب المخازن وينقطع لعب الأولاد في الطرقات والمستنقعات وتسود السكينة في الشارع الرهيب وأزقته الكثيرة .

حتى إذا أوشك الليل ان ينتصف بدأت المخازن الليلية بفتح أبوابها وكثر تردد الناس وازدحامهم ، وغصت بهم الحانات ، وامتلأت الشوارع باللصوص والبحارة والسكارى فإذا بلغت الخمرة مبلغها من الرؤوس لا تجد غير المعربد أو اللص المحتال ، ثم تضيق بأصحابها فيتركون المناضد إلى الأزقة بحيث يغدو الشارع بجملته حانة واحدة .

كل هذا والشرطي واقف ينظر اليهم غير مكترث لهم لأن الشريعـــة الانكليزية تقضي باحترام حرية الأفراد على أن لا يمسوا حرية سواهم ولذلك يتعذر على المرأة الشريفة أن لا تمر بمثل هذه الشوارع .

غير ان مس الن كانت مرتدية بثوب السجون وهو ثوب يحترمه كل انسان في لندرا ، حتى اللصوص ، بل ان اللصوص وأهل الجرائم يبالغون باحترام هذا الثوب ، لأن كلا منهم يعلم انه قد يحتاج يوماً إلى تعزية هؤلاء النساء النبيلات في آخر ساعـــات حياتهم ، إذ لا بد أن تبلغ بهم الجرائم إلى

ولما انتصف الليل ومرت مس الن بثوبها بين أولئك الرعاع فعل ثوبها بهم فعل السحر فانهم انقطعوا حين بدت لهم عن الغناء والعربدة ووقفوا جميعهم بملء الاحترام .
وكان مرميس يسير معها بين أولئك الجماهير وقد اتشح برداء كبير ساتر معظم وجهه فما زال سائراً بها حتى وصل إلى المكان المعين ، فجلس معها على مقعد لينتظر قدوم الأب صموئيل .

ولم يطل انتظاره فانه رأى الأب قادماً فأسرع لاستقباله وقال : هـذه هي مس الن يا سيدي بانتظارك .
– إن الوقت متسع لدينا فلننتظر
-- ولكن الليل قد انتصف .

- هو ذاك غير ان النور لم يتقد بعد .
– ما هو هذا النور ؟
وأشار بيده إلى منزل في زاوية الشارع وقال : سيبدو لكم قريباً نور فوق سطح هذا المنزل .
– العل هذا النور إشارة ؟

-- نعم . .
- ولكننا لا ننتظر طويلاً فهذا النور قد ظهر .
والتفت الأب صموئيل ورأى النور قد سطع هنيهة ثم انطفأ فقال لمس الن إذاً هلمي بنا فقد آن الأوان .
ثم التفت إلى مرميس وقال : وأنت أين نجدك ؟
– هنا .
– ولكن غيابنا قد يطول .

- لا بأس فان لدي من التبغ ما يخفف علي عناء الانتظار وفوق ذلك فان

الرجل العبوس قد عهد الي بهمة وهي أن أقابل رجلا بحاراً يدعى وليم وفتاة تدعى بياتري

ـ اما أنا فاني أعود مع مس الن بعد ساعة .

ثم تركه وسار معها قائلاً لها : إن ملابسك هذه خير واق فاني قد أفرغت الجهد في الحيلة حتى بلغت إلى هذا المكان دون أن يقبضوا علي ، أما الآن فاني لا أخشى خطراً ما زلت معي ، وأي شرطي يجسر أن يقبض على رجل يصحب فتاة من أخوات السجون .

فتأبطت الفتاة ذراعه وسارت وإياه .

- ٢٦ -

بينما كانت مس الن تسير متكئة على ذراع الأب صموئيل كان مرميس يبحث عن وليم كما أمره الرجل العبوس .

وكان روكامبول أخبره عن الحانات التي يتردد اليها هذا الرجل ، وهو ذاك البحار القوي الذي اختصم مرة مع روكامبول حين كان يطارد الارلندية والدة رالف وصرعه روكامبول مرات كما يذكر قراء ابن ارلندا ، وبات هذا الرجل الذي لم يغلبه أحد قبل روكامبول عبداً له ، وجعله من أعوانه ، وكان يعتمد عليه في بعض المهام لما رآه من إخلاصه .

ولم يكن مرميس يعرفه ، ولكنه دخل إلى إحدى الحانات التي يكثر تردده اليها وهو يرجو أن يعرفه من أوصافه أو يسأل عنه لأنه كان مشهوراً في تلك الناحية .

ولما دخل إلى الحانة أسرعت اليه فتاة ارلندية وسألته أن يسقيها كأساً من الشراب ، فأجابها مرميس إلى ما سألته وجلس معها حول مائدة وجعل

يحادثها أحاديث مختلفة إلى أن ورد ذكر البحارة فقال لها : أتعرفين بحاراً يدعى وليم ويقيم في وينغ ؟

– أجارك الله يا سيدي أتريد أن تخاصمه ؟

– كلا ، ولكني أحب أن أراه .

– ومن لا يعرف هذا الرجل فهو عشيق بيتزي ، وما هو بحار إلا بالاسم فانه لا يشتغل منــذ ثلاثة أعوام وعشيقته تنفق عليه .

ولكن كيف خطر لك اني أريد مخاصمته ؟

– هو أنكم معشر الفرنسيين لا تهابون أحداً ، لأن وليم لا يجسر أحد على معارضته فيما يريد لما بلغ اليه من قوة الساعد، فهو السيد المطلق في هذه الأحياء غير انه اتفق مرة أن وليم كان يحاول الاستبداد بامرأة ارلندية ، وقــد أكرهها على الدخول الى هذه الحانة وهي تستغيث ، ولا يجسر أحــد على أن يغيثها ، وكان في الخمارة رجل فرنسي يشبهك بقوامه وبعض ملامحه ، غير أن له نظرات تنفذ إلى القلوب ، وعينين براقتين لم أر مثلهما في وجه انسان . ولما رأى هذا الرجل استبداد وليم بالمرأة وتبين في وجه تلك المرأة ملامــح الصلاح حمل على وليم حملة منكرة وقــذفه قذف النواة ، فأكبر الناس هــذه الجرأة وعجبوا لهذه القوة النادرة .

أما وليم فانه نهض عن الأرض وهو يرغي كالجمال وهجم على الرجل الفرنسي هجوم الكواسر ، فحمله الفرنسي مرة ثانية وقذف به كما فعل في المــرة الأولى ، ثم أعاد الكرة مرة ثالثة فلم يكن نصيب وليم غير الخذلان ، وعنــد ذلك أقر لخصمه بالقوة وتخلى عن تلك المرأة ولم يحقد على خصمه ، بل أصبح من أخلص أصدقائه .

– إن ذلك يدل على أدب نفسه وعرفانه قدر الرجال، ولكن هذا الرجل الفرنسي ألم تعرفي اسمه ؟

– إن إسمه لم يعرفه أحد ولكنه يلقب بالرجل العبوس .

فتظاهر مرميس انه لا يعرفه ، وعند ذلك دخل إلى الحانة رجل هائل الخلقة طويل القامة ، ضخم الجثة عريض المنكبين له رقبة كرقبة الثور وشفة أدلاها الادمان على السكر فباتت كشفة البعير فقالت الارلندية لمرميس : هوذا وليم الذي تسأل عنه فاذا كنت تريد محادثته فهذه أفضل فرصة لأنه لم يسكر بعد .

فشكرها مرميس ودفع لها شلنين ثم قام إلى حيث وقف وليم فدنا منه وقال له : الست الذي يدعونه وليم البحار ؟

فنظر اليه وليم نظرة احتقار وقال : نعم وأنت ماذا تدعى ؟

– إنك لا تعرفني ولكني أتيت لأكلمك من قبل رجل تعرفه .

– ومن هو هذا الرجل ؟

فاقترب منه وهمس في اذنه قائلاً : انه يدعى الرجل العبوس .

وظهرت على وليم علائم الدهشة فقال مرميس · هلم نتحدث خارج الخمارة

ثم خرج به إلى الشارع فسأله وليم : إذاً أنت قادم من قبل الرجل العبوس !

– نعم كما قلت لك .

– اني لم أر أشد من هذا الرجل فاني لم يصرعني أحد سواه في حياتي .

– ألم تحقد عليه بعد هذا الفوز ؟

– بل قدرته قدره وبت له خير صديق فاني أبذل حياتي في سبيله إذا احتاج الي .

-. إنه محتاج اليك الان يا وليم ولذا أرسلني اليك .

-. إذاً قل ما يريد العله استاء من عدو فأنتقم له منه بالموت .

– كلا .

– إذاً ماذا يريد ؟

- إن الرجل العبوس في سجن نوايت .

- بالله ماذا تقول ؟

ــ هو ما قلت لك وأنا أرجوك أن تفعل كل ما جاز لك فعله فاني لا اكلمك .

ــ ولكن قل ماذا تريد ان اصنع ؟

ــ أريد ان تشرب معي غداً كأساً فأخبرك بما يجب ان تفعل .

ــ وأين اوافيك ؟

ــ في اولد باي تجاه نوايت عند بائع الحبوب .

لقد عرفت المكان .

ــ اتوافينني !

ــ سأوافيك .

فنظر مرميس في ساعته ورأى ان الوقت قد أزف لرجوع مس الن فاعتذر من وليم وانصرف عائداً إلى المكان الذي ذهبت منه مع الاب صموئيل .

- ٢٧ -

أما مس الن والكاهن فانهما تركا مرميس وذهبا إلى ذلك المنزل الذي ظهرت منه إشارة النور الأخضر وهو منزل مرتفع يتألف من أربعة ادوار تدل ظواهره على فقر سكانه .

ودخل الكاهن من بابه إلى رواق مظلم وتبعته مس الن غير هيابة يدفعها الأمل بانقاذ الرجل العبوس فلا تبالي بخطر فالتفت اليها الكاهن وقال لها : اتبعيني يا ابنتي دون خوف .

وهي تقول . اني لا أخاف شيئاً .

وقد انتهيا من فوق الرواق إلى باب فطرقه الأب صموئيل بشكل اصطلاحي ففتح وظهر منه نور ضعيف رأت به الن انها في قصر فيه سلم يتألف

من بضع درجات وكان المصباح معلقاً في السقف .

فنزل صموئيل وتبعته مس الن فعدت سبع عشرة درجة وانتهيا بعد ذلك إلى رواق آخر ، كان فيه نور وفي آخره باب وسمعا اصواتاً بشرية من وراء الباب .

ولما سمع الأب الأصوات قال للفتاة : ان الزعماء مجتمعون وهم لا يتوقعون قدومك ، يجب ان تبقي في الرواق إلى ان ادعوك .

ثم تركها في الرواق وطرق الباب فقال له صوت من الداخل : من أنت ، وماذا تريد في هذه الساعة ؟

– إني اخوكم .

ففتح الباب عن قاعة تحت الأرض في وسطها منضدة طويلة جلس حولها عشر رجال هم زعماء الارلنديين .

ولما رأوا الأب صموئيل وقفوا إجلالاً له ، وقال أحدهم : إنك دعوتنا إلى الحضور وقد لبينا الدعوة .

فقال لهم : اني دعوتكم لأكلمكم عن إرلندا العزيزة وعن الذين خدموها باخلاص .

ثم اشار اليهم فجلسوا في مواضعهم وبقي وحده واقفاً .

– اني أريد ان اكلمكم ايها الاخوان عن رجل خاطر بحياته في سبيل ارلندا ..

فأجابه معظمهم : ومن منا لم يخاطر بحياته في هذا السبيل ؟

– هو ذاك ، ولكنكم ارلنديون .

– والذي تعنيه ؟

– إنه من الفرنسيين .

فقطب الجميع حواجبهم وقال احدهم : العلك تريد ان تحدثنا ايضاً بشأن الرجل المحبوس .

– نعم ايها الاخوان .

– وماذا تريد ان نصنع له وهو ليس ارلندياً ؟

– ولكنه خدم إرلندا خدمات جليلة لم يقدم على بعضها سواه من الارلنديين .

– ولكنه ماذا فعل ؟

– انه انقذ جوهان كولدن .

– وبعد ذاك ؟

– أنقذ ايضاً ذاك الذي نعده زعيمنا العام في مستقبل الأيام .

– ولكنه خدع بمكيدة لا يخدع بها العقلاء من أهل الحذر .

– إنكم مخطئون .

– كيف ذلك أما هو الآن في سجن نوايت بسبب هذه المكيدة ؟

– هو ذاك ولكنه لم يقع في الفخ إلا طائعاً مختاراً وإنما رضي أن يسجن ويعرض نفسه للاعدام خدمة لارلندا واستجلاباً لأشد أعدائها .

وقد خاض الأب صموئيل في وصف إخلاص الرجل العبوس بلهجة كان لها تأثير شديد على الحاضرين إلى أن قال : وإنكم جميعكم تعلمون نسب هذا الغلام الذي سيتولى قيادتنا حين يبلغ سن الرشد .

فقال أحد الزعماء : نعم فهو ابن أخي اللورد بالمير عدونا اللدود .

فأجابه ببرود : إني كنت أنتظر منكم هذا الإقرار فان مس الن لم تعد عدوة لإرلندا كما تتوهمون .

فدهش الجميع وقالوا : كيف ذلك ؟

– لأن الفتاة أصبحت أشد اخلاصاً لارلندا منا لها .

– هـذا محال

– بل هي الحقيقة فانكم تعرفونني منذ عهد بعيد وليس بينكم من يجسر على القول إني من أهل الكذب .

فصاحوا جميعهم بصوت واحد : معاذ الله ان نتهمك .

– إذن أقسم لكم بارلندا وهي أمنا العزيزة ان مس الن من أنصارنا .

ثم مشى إلى الباب ففتحه ونادى مس الن فقال لها : أرجوك يا سيدتي أن تثبتي لاخواني ما قلت لهم عنك .

فدخلت مس الن ورفعت البرقع الكثيف عن وجهها فدهش الجميع لمرآها وقال لها الأب صموئيل : أرجوك أيضاً يا سيدتي أن تقولي لهؤلاء الأخوان اني لم أقل غير الحق .

وكانت مس الن قد اصفر وجهها قليلاً لهذا الموقف ولكن نور العزيمة الثابتة كان يتقد في عينيها

فقالت : اني كنت ايها الرفاق الد عدوة لكم ، وكنت أشد أعداءكم ايضاً غير أن رجلاً نزع هذا العداء من قلبي وأحل محله الاخلاص لكم ولم يتيسر له نيل هذه البغية إلا بعد أن خاطر بحياته راليكم حكايتي معه .

ثم قصت عليهم جميع ما حدث لها مع الرجل العبوس بلهجة دلت على إخلاصها وصدق وفائها .

وختمت حديثها بقولها : إني التمس منكم إنقاذ هذا الرجل فهو أصدق وفي لإرلندا ، وإذا كان معنا بلغنا منه ما نريد .

وكان لكلام الفتاة تأثير شديد على الزعماء لاسيا وقد وثقوا كل الوثوق انها منهم وانها لا تخلص لهم إلا إذا أنقذوا من تحب فقدم أحدهم وقال : إني بالاصالة عن نفسي والنيابة عن اخواني اقسم لك يا مس الن بامنا ارلندا سننقذ الرجل العبوس .

فأعاد جميع الحاضرين قسمه ، فشكرتهم مس الن وقالت لهم . اني واثقة بكم .

ثم ذهبت إلى الكاهن فركعت أمامه وقالت أرجوك يا أبتاه باسم ارلندا ان تغفر لي

فأنهضها وقال لها : اني أغفر لك يا ابنتي عن إساءتك الينا باسم الوطن ، وباسم أبنائه .

- ٢٨ -

في صباح اليوم التالي فتح ميلون ذلك المخزن الذي اشتراه مرميس وقد رتبه أجمل ترتيب واجتمع فيه أهل العصابة ، فكان كل منهم يشتغل بالمهمة التي انتدب لها .

أما ميلون فقد كان واقفا عند باب المخزن ينظر إلى جهة كنت ستريت كأنه ينتظر قدوم زائر .

ولم يطل انتظاره فان مركبة وقفت عند باب المخزن فتهلل وجه ميلون لأن هذا القادم كان مرميس .

وكان مرميس قد تردى بثياب الانكليز ، وتخلق بأخلاقهم وقلد جميع حركاتهم ، بحيث لم يعد يختلف بشيء عنهم ، فدفع أجرة المركبة وأطلق سراحها ، ثم دخل إلى المخزن فتبعه ميلون وقال له : لقد طال غيابك حتى كاد يفرغ صبري .

– العلك انتظرتني كل الليل ؟

– دون شك .

– ولكن ذلك لم يمنعك عن العمل كما أرى .

– نعم ولكني قلقت عليك .

– لماذا القلق ؟

– لأني لم أعلم ما جرى لك هناك .

– سأقول لك ما جرى بجملة واحدة وهي أنهم وعدوا ان ينقذوه وقد

واعدت أحد زعمائهم على اللقاء هنا .

– متى ؟

– في هذا الصباح .

ولم يكد مرميس يتم حديثه حتى دخل الى المخزن رجل عليه علائم الفقر فتظاهر أنه يريد شراء حاجة له .

وأجال نظره في الحاضرين فلما رأى مرميس إرتعش وخطا خطوة اليه وقال : مس الن .

فأجابه مرميس : الرجل العبوس .

– إذاً أنا هو الرجل الذي تنتظره .

ثم مشى إلى آخر المخزن فتبعه مرميس وجلسا في زاوية فقال له الارلندي لقد أرسلني اليك زعماء الارلنديين فانه بعد أن فارقتنا مس الن عقدنا جلسة خاصة قررنا فيها انقاذ الرجل العبوس .

قال مرميس : كيف عولتم على إنقاذه ؟

– ذلك ما لا نستطيع قوله الآن .

– لماذا ؟

– لسببين، أما الأول فهو اننا لم نضع خطة انقاذه بعد ، والثاني هو إنك وعصابتك لستم من الارلنديين .

– وما يضركم إذا لم نكن منكم ؟

– قد لا يكون في هذا ضرر غير ان نظام جمعيتنا علينا بأن لا نشرك بأعمالنا من لم يكن من أعضائها .

قال مرميس : لكن الرجل العبوس قد شارككم بأعمالكم ، وهو فرنسي مثلنا .

– ولكنه عضو عامل في جمعيتنا واقف على معظم أسرارها .

– ونحن أصحابه ورجاله .

فأجابه الارلندي ببرود : إننا سنرده اليكم وماذا تريدون أكثر من هذا ؟
وعندها قام من مكانه فودع مرميس وانصرف دون ان يخبره عن طريقة إنقاذ روكامبول .
فلما انصرف قال ميلون لمرميس : ما قال لك هذا الرجل ؟
– انهم يريدون تخليص الرئيس دون مساعدتنا .
فاستاء ميلون وقال : كلا إن هذا لا يكون فإننا ما جئنا إلى هـذه الديار للنزهة .
.. دون شك فسنشتغل حسب خطتنا وليعملوا حسب خطتهم ولكن يجب الاسراع .

فضم ميلون قبضتيه وقال . قبح الله هؤلاء الارلنديون فاني بت من أشد الناس كرهاً لهم ، ولولاهم لما كان روكامبول في السجن .
- وأنا أيضاً أكرههم كرهك فإنهم لا يريدون انقاذه اعترافاً بجميله عليهم بل طمعاً بمساعدة مس الن لهم فيما يريدون .

– واني لو ملكت عمري لبذلت نصفه على ان ننقذ الرئيس قبلهم .
– إذاً هلموا إلى العمل ولا تبذل شيئاً من عمرك .
– كيف هذا أنشتغل نحن في رابعة النهار ؟
– نعم . وسنبدأ بتفقد اقبية المنزل والبحث عن مداخل الدهليز .
– إذاً هلم بنا .
فأخذ مرميس تلك الخريطة التي اشتراها من بائع الكتب وبعض أدوات النور ، ثم فتح الباب المؤدي الى الأقبية ودخل منه فتبعه ميلون .

كان مرميس قد أخبره ميلون بما يجب أن يفعله طيلة غيابه ، فاشترى جميع آلات الحفر والتنقيب والكسر ، وكل ما يستعمله البناؤون في الردم .

وقد وجد جميع هذه الآلات عند باب القبو .

أما هذا القبو فقد كان كسائر أقبية المنازل ، وان صاحب ذلك البيت القديم أقام فيه خمسة عشر عاماً ، دون ان يخطر له أن هذا القبو يؤدي إلى دهليز ، حفرت فيه إبان المؤامرة ، في القرن السادس عشر .

فوضع مرميس مصباحه فوق أحد البراميل الفارغة التي كانت في القبو ، وفتح الخريطة التي بحوزته وبدأ بالبحث عن رسم البيت المذكور في الخريطة

فوجده ووجد معه تلك الخطوط الحمراء المشيرة الى مكان الدهليز ، ثم أخذ مصباحه وجعل يتفقد المكان .

ولم يكن لهذا القبو غير باب واحد ، وهو الباب الذي دخل منه ميلون ومرميس .

وكان ميلون يطوف وإياه فقال : إني لم أر أثر الدهليز .

فأجابه ذلك لأنهم قد سدوا بابه بالبناء فامسك هذا المصباح ودعني أبحث .

فحمل ميلون المصباح وأخذ مرميس المطرقة وجعل يطرق بها في كل موضع من الجدران ويصغي الى الصوت ، كما يطرق الطبيب صدر المريض حين يفحصه

وما زال يفحص هذا الفحص حتى سمع صوتاً يشبه صوت الطرق على معدن

فاختلج وأمر ميلون ان يدني المصباح .

ورأى عند مصدر ذاك الصوت مسماراً مغروساً في الجدار . فأخذ المطرقة وطرق المسمار فغار في الجدار وسقطت على أثرها قطعة من حجر انكشفت عن ثقب في الجدار تمد منه اليد .

فمد ساعده من الثقب فلم يصادف إلا الخلاء .

وعندها أخذ المطرقة وأمر ميلون ان يقتدي به ، وجعل الاثنان يطرقان ذلك الجدار بعنف شديد . وبقيا على ذلك حتى فتحا فيه ثقباً يتسع لمرور إنسان .

فأخذ مرميس المصباح بيده ، ودخـــل من ذلك الثقب . ولكنه لم يتقدم قليــلا حتى اعترضه قبو آخر أضيــق من الأول ، وظهر له أنــه دون منفذ .

فقال له ميلون ، وقد رأى ما رآه . كأننا لم نتقدم شيئاً .

- سوف نرى .

ثم عاد إلى طرق الجدران بمطرقته كما فعل في المرة الأولى . وبقي يطرق في مواضع مختلفة حتى سمع صوتاً يشبه صوت الطبل الرجوج فنظر الى ميلون نظرة انتصار وقال . هوذا المنفذ

فأخذ ميلون يهدم الجدار بمطرقته فما أزال غير قشرته الخارجية وظهر من صوت المطرقة أنها توقع على حديد .

. فمنعه مرميس عن العمل قائلا · هذا ما كنت أتوقعه .

ثم جعل يزيل القشرة عن ذلك الحديد ، فانكشفت عن باب حديدي يبلغ علوه المتر ولم يكن له قفل ظاهر .

فتفقــده مرميس ، ورأى أنه شديــد الكثافة ، بحيث لا تفيد بـه المطارق ، فقال لميلون · إن هـــذا الباب هو باب السرداب ، ويكفي أننا وجدناه

- أتظن ؟
- بل أؤكد .
- إذاً ما العمل الآن ؟
- لا شيء بل ننتظر الى المساء فاتبعني .

ثم رجع مرميس من حيث أتى وهو يقول : لقد بت واثقاً الآن من أن الدهاليز لم تدمر ، وسننقذ روكامبول قبل أن يشرع الارلنديون بإنقاذه .

ثم خرج الاثنان من تلك الأقبية .

- ٣٠ -

ولنعد الآن إلى ذلك الحاكم ، حاكم سجن نوايت ، فان الخطأ الذي أخطأه في القبض على مرميس وما يتوقعه من دفع غرامة فادحة قد هد حيله وأنهك قواه .

فنام تلك الليلة نوم الملسوع ، ولما استفاق تجسمت تلك الحادثة في خاطره ، فكان شديد التأثير كثير الانفعال ، حتى ان زوجته وابنتيه كن يخشين على صوابه .

وذلك ان الشرائع الانكليزية لا ترحم من يخطىء من عمال الحكومة لمبالغتها في احترام حرية الأشخاص .

فإذا قبض شرطي خطأ على رجل آمن ، قضي على ذلك الشرطي بدفع ما يطلبه الرجل من التعويض . وكذلك حاكم السجن فان التبعة عليه تكون أشد وأنكى .

وقد خطر لهذا الحاكم المنكود ان هـذا الشخص الذي سجنه باسم

روكامبول قد يطلب غرامة مليون فرنك ، بالقياس إلى علو مقامه وجاهه وثروته ، وقد لا تحكم له المحكمة بكل هذا المبلغ ، ولكنها تحكم له ببعضه دون شك ، وأي مبلغ يحكم عليه بدفعه يؤدي به إلى الخراب ، لأنه لم يكن من الأغنياء .

وفي المساء حسب ثروته ، وقدر ما يمكن ان يحكم به القضاة عليه مع المراعاة والتساهل ، فوجد أنه يزيد أضعاف ثروته فكبر عليه الأمر وجعل يبكي بكاء الأطفال .

واستفاق في صباح اليوم التالي وهو على حاله من القلق والهم فأقام في بيته وهو ينتظر في كل لحظة أن يقرع الجرس ، ويرد اليه الانذار بالذهاب إلى المحكمة لمقاضاته .

ثم خطر له خاطر غريب وهو ان يستشير الرجل العبوس في مشكلته دون أن يعلم المسكين ان نكبته من هذا الرجل .

فذهب اليه وقال له : إني عاملتك في سجنك خير معاملة ، فجازيتني بنكران الجميل .

فلم يجبه الرجل العبوس ولكنه جعل يضحك ، فقال له الحاكم : إنك دفعتني الى ارتكاب هذا الخطأ بتلك اللغة الجهنمية التي كنت تحدث بها ذلك الرجل ، فزاد اعتقادي انه روكامبول .

فأجابه روكامبول : ولكني أخبرتك يا حضرة الميلورد ، اني لا أعرف هذا الشخص .

فتنهد الحاكم وقال : لا أنكر انك أخبرتني ، ولكني لم أستطع التصديق .

— وأي ذنب بقي علي فيما صرت اليه ، إن موقفك حرج ولو خيرت بين موقفي وموقفك لاخترت الأول .

— أتظن ان هذا الرجل الشريف يطالبني بتعويض كما أنذرني ؟

- بل إنني واثق كل الوثوق وسيفضي ذلك إلى خرابك .

فاضطرب الحاكم وقال : رباه ما العمل ؟

- لدي رأي أرجو أن يكون سديداً .

- أسرع بابدائه .

- ان هذا الشخص يا حضرة الميلورد واسع الثروة .

- ولأجل ذلك ، أرجو ان لا يطمع بتعويض لا يفيده ، ويكون فيه خرابي .

- ولكنه شخص غريب الأخلاق يشبه اللوردية عندكم بشذوذهم ، ولذلك ثق انه سيراك قبل أن يرفع أمره الى الحاكم ، وربما سألك أمراً غريباً مقابل ذلك التعويض .

- ولكنه ماذا يطلب ؟

- لا أعلم إنما هذا اعتقادي .

- وعندها ؟

- أشير عليك أن تجيبه الى ما يطلب فان من كان في موقفك الحاضر يجب عليه أن يضحي بعض التضحيات .

فتنهد الحاكم تنهداً عميقاً وقال : اني أشكرك وأرجوك معذرتي عما بدر مني في بدء الحديث .

ثم هم بالخروج ولكنه عاد فقال لروكامبول : الست محتاجاً إلى شيء ؟

فابتسم قائلاً : وانا أسألك العفو يا سيدي الميلورد فقد نسيت أن ترسل إلي الجرائد اليوم .

- لقد أصبت .

- وحبذا يا سيدي لو أرسلت لي التايمز او الافنن ستار .

- سأرسل لك الجريدتين .

- أشكرك وأرجوك ان تأذن لي بسؤال .

- سل ما تشاء إني مصغ اليك .

- متى يحكمون علي ؟

- لا أعلم .

ولكنهم سيحاكمونني ؟

- دون شك ، ولكن ذلك لا يكون قبل ان يعرفوا حقيقة اسمك

فضحك روكامبول وقال : إذاً سأتشرف يا حضرة الميلورد ، دهراً طويلاً بضيافتك .

فانصرف الحاكم وقد تعزى بعض العزاء بما أخبره به روكامبول ، ودخل الى البيت وسأل اذا كان قد قدم أحد لزيارته ، فعلم أنه لم يزره أحد .

أما بيت هذا الحاكم في نوايت فقد كان مشرفاً على شارع أولد بالي ، وهو بيت ضمن بيت ، اي أنه يوجد بين القسم الكائن فيه بيته وبين السجن جدار فيه باب غليظ من الحديد .

وكان بوسع الحاكم ان يستقبل الناس في بيته دون أن يمروا اليه من السجن .

فجلس الحاكم حول مائدة الطعام وجعل يأكل وهو يفتكر بماذا عسى أن يطلب اليه ذلك الرجل الفرنسي .

وفيما هو يأكل دخل اليه الخادم يحمل على صينية رقعة زيارة ، فأخذها الحاكم وقرأ فيها هذا الاسم :

« فيليكس بيتافن »

(شريف فرنسي - فندق التيجان)

وقد أعطاه الخادم الرقعة وقال له : ان صاحبها يا سيدي ، يلح بأن يراك .

فتنهد الحاكم وقال لبنتيه : لقد أتى الرجل ، فإما ان يكون رسول الخراب ، أو رسول الخير .

- ٣١ -

ودخل مرميس وهو يبتسم ابتساماً أشكل فهم معناه على الحاكم ، ولكنه كان يظهر له أنه أقرب الى الشر منه الى الخير . فاصفر وجهه من الخوف ، وسقط العرق البارد من جبينه ، فأسرع وقدم له كرسياً وعرفه لفوره بزوجته وابنتيه ، كأنه يريد ان يظهر له أنه رب عائلة استعطافاً له

أما مرميس فانه قال بعد التعارف: إنك عرفت يا سيدي دون شك السبب في زيارتي .

– كلا يا سيدي لم أعلم .. ولكني أظن .. وفي كل حال فأكرم بك من قادم مهما يكون سبب زيارتي .

– أشكرك يا سيدي وأخبرك اني قادم من عند المحامي ستلج ، وانت تعلم أنه أشهر المحامين في لندرا .

فاضطرب الحاكم وقال : نعم يا سيدي اني سمعت به .

– ان المحامي أبرع رجال الشرع ، وأزلقهم لساناً وأقوامهم حجة وأشدهم حرصاً على حقوق موكليه . وقد عرضت قضيتي معك عليه فوجد ان الفوز فيها مضمون .

فمسح الحاكم العرق من جبينه ، وجعلت زوجته وابنتاه يذرفن الدموع .

وعاد مرميس الى الحديث فقال : ان المحامي ستلج قد أكبر هذا الأمر

وعول على أن يقاضيك أمام المجلس الخاص الأعلى . وانت تعلم ان لا رحمة في قلوب قضاة هذا المجلس .

فرفع الحاكم عينيه الى السماء دون ان يجيب فقال مرميس :والذي يراه هذا المحامي ان المجلس لا يقتصر على الحكم عليك بغرامة عشرين او ثلاثين الف جنيه بل انه يعزلك من منصبك .

وهنا وهنت قوى ذلك الحاكم المنكود ، ونسي مركزه فركع أمام مرميس وقال له : أعترف يا سيدي اني أهنتك إهانة عظيمة ، وأسأت اليك إساءة لا تغتفر ، ولكني التمس منك ان يسع حلمـــك ذنبي ، وأن تشفق على زوجتي واسرتي المنكودة .

— إني لست يا سيدي الحاكم مجرداً من الرأفة كهذا المحامي ولكنك انت نفسك تعترف انك أسأت إلي إساءة لا تغتفر وأي إساءةأشد من ان يجيء الرجل النبيل متنزهاً في عاصمة الانكليز فيستقبله رجال الشرطة ، ويزج في السجن بين المجرمين .

- إنك مصيب يا سيدي في كل ما قلته .

— إذاً انت تعترف بوجوب التكفير عن هذا الذنب ؟

— دون شك يا سيدي .

— إذا كان ذلك فإني أرجو ان اتفق معك وأوثر الاتفاق الودي .

فتنهد الحاكم وقال : مر يا سيدي بما تشاء .

- بل انت اعرض علي ما تستطيعـه من أنواع التعويض والتكفـير عن ذنبك .

فعاد الحاكم إلى التنهد قائلاً : اني لست غنياً يا سيدي ومع ذلك فإنه ليست لدي غير خمسة آلاف جنية وهي مهر ابنتي .

فضحك وأجابه : أي مائة وخمسة وعشرون الف فرنك.

— نعم يا سيدي .

– أكتب الى العاصمة الفرنسية سائلاً عني ، تعلم أن دخلي السنوي يبلغ مليون فرنك .

فقالت زوجة الحاكم : أتكون يا سيدي غنياً إلى هذا الحد وترضى الخراب لعائلة منكودة ؟

– ولكني عرضت الاتفاق الودي على حضر زوجك ورضي به ولو عهد الأمر إلى القضاء لكان الخراب لا شك فيه .

فقال الحاكم : إني أدفع لك يا سيدي كل ما أملكه .

فابتسم مرميس وقال : وإن سألتك تعويضاً أدبياً ؟

فصاح الحاكم صيحة فرح وقال : لقد خطر لي يا سيدي انك من أشرف الأغنياء لا تكترث للمال .

– إن هذا منوط بك ومتعلق بالتعويض .

– قل يا سيدي ما تريد . أتحب ان أكتب اليـــك كتاب اعتذاري في جريدة التايمز ؟

– كلا .

– أتريد أن أجمع كل رجال السجن فاعتذر اليك أمامهم ؟

– كلا

فذعر الحاكم وخشي ان يكون قد أصيب بشر جديد فقال : كيف تكون الترضية الأدبية إذاً وماذا تريد ؟

– إني لست يا سيدي من الانكليز ولكني من أهل الشذوذ .

– قل لي ما تريد .

– إني لم أعد آمناً على نفسي في لنـدرا ، بعد ان قبض علي في أشهر فنادقها . ثم أن زوجتي قد خافت خوفـاً شديداً ، ولم يعد يهدأ لها بال من الخوف .

– أتريد ان أطلب لك حرساً من الشرطة ؟

- كلا بل أريد أمراً أبسط من هذا ، وهو ان أقيم في منزلك مع زوجتي إلى ان أعود الى فرنسا . وإن زوجتي يا سيدي الحاكم من أهل الظرف والكياسة ، وهي بارعة في الموسيقى ولا تمل زوجتك وابنتاك عشرتها خلال هذه الضيافة .

فدهش الحاكم لهذا الطلب وقال : ولكن زوجتك تضجر ضجراً شديداً في هذا البيت فإننا في سجن كما لا يخفاك .

– ولكنها تستطيع الخروج في النهار كما أظن ؟

– دون ريب .

- وهذا الذي أرجوه فانها لا تخاف إلا في الليل .

فنظر الحاكم الى زوجته نظرة تدل على ان الخطر الشديد الذي كان يتوقع حدوثه لم يصبه غير الخوف .

ثم نظر الى مرميس وقال له : إن منزلي معد لخدمتك يا سيدي ، فأهلاً بك وبزوجتك .

فبرقت عينا مرميس بأشعة السرور وأصغى الى تتمة الحديث .

- ٣٢ -

وجعل الحاكم يصف منزله وما فيه من أسباب الراحة ترغيباً لمرميس فانه وجد أن حل المشكلة بهذا الشكل فوق ما كان يتمناه ثم قال : إن لدينا قاعة كبرى وثلاث غرف لا أستخدمها في شيء لاتساع البيت بنا فإن شئت خصصتها لك ولزوجتك .

– إنها فوق الكفاية لأننا لا نقيم في لندرا أكثر من أسبوع .

فسر الحاكم من هذه النهاية وقال سنجعل يا سيدي طعامنا ومواعيده على

الطريقة الفرنسية .

– لا حاجة إلى ذلك يا سيدي ، فإننا أنفنا العادات الانكليزية غير أن مطالبي لا تقتصر على هذا الحد .

فوجف قلبه وعاد اليه الاضطراب فقال له مرميس : لقد تقدم لي القول إني من أهل الشذوذ ومن غرائب أخلاقي ان لي بالشطرنج ولعاً غريباً بحيث لا أطيق الصبر عن اللعب به كل ليلة .

– إذا كان ذلك فإني من البارعين به وسألاعبك به حين تشاء .

– كلا ليس هذا الذي أريده .

– إذاً ما تريد ؟

– إني قضيت أيام شبابي في الهند وهناك نوع من لعب الشطرنج اخترعه البراهمة لا يعرفه أهل اوروبا فلا تعرفه انت .

– دون ريب فإني لا أعرف غير الطريقة المألوفة .

– ولكن يوجد بين المسجونين عندك رجل أقام زمناً طويلاً في الهند وهو بارع في هذا اللعب .

– من هو هذا السجين ؟

– هو الرجل الذي سجنتني معه .

– الرجل العبوس ؟

– هو بعينه .

فاضطرب الحاكم وقال : ولكن يا سيدي ...

– ان الرجل شريف الأخلاق حسن التربية .

– هو ما تقول بل هو فوق ما وصفته .

– ولذلك فإنه سيظهر أمام السيدات في منزلك ، بما يجب عليه من الاحترام .

فدهش الحاكم وقال : كيف ذلك يا سيدي أتريد ان أحضر الرجل العبوس

الى منزلي ؟

– كل ليلة إذ لا يعرف هذه الطريقة من اللعب سواه .

– ولكني مقيد بنظام السجن يا سيدي .

– إن أردت ان تحدثني بالنظامات عدت الى محادثتك بالمرافعات وبما يعتقده المحامي ستلج وفوق ذلك فإن كنت تخاف ان يهرب فإنك تستطيع ان توقف على الباب قدر ما تشاء من الحراس .

– اني لست أخاف فراره سواء كان في محبسه أو في منزلي .

فوقف مرميس عندها قائلاً : لقد عرفت الآن الشرط الذي أتنازل به عن حقي من الغرامة ولم يبق عليك غير الرفض او القبول .

فنظر الحاكم الى زوجته وتبودلت بينهما نظرتان مقادهما : « إنه خير لنا أن نخالف نظام السجن مخالفة قد لا نؤاخـــذ عليها ، من ان نعرض ثروتنا للضياع » .

وعندها التفت الى مرميس قائلاً: لقد رضيت بشرطك يا سيدي وسيلاعبك الرجل العبوس كل ليلة .

– وأنا أتعهد لك بأن لا أرى المحامي ستلج طيلة إقامتي عندك بل سأكتب اليه اني مسافر وأرجوه ان يوقف القضية إلى ان أعود .

– كيف ذلك يا سيدي ألا ترجع بتاتاً عن القضية .

– سأرجع عنها يوم سفري ولكني أقسم لك بشرفي انك إن وفيت بعهدك وفيت بعهدي فما أنا من الخائنين .

فـوثق الحاكم انه يريد ان يحتاط ، وقـال له : ليكن يا سيدي ، ما تريد .

فنهض مرميس ودنا من زوجة الحاكم فقال لها وهي تمسح دموعها سأتشرف غداً يا سيدتي بتقديم زوجتي لك .

فقال الحاكم : كيف ، ألا تحضر في هذا المساء ؟

- كلا فاننا ذاهبان الليلة الى كرنويش وسنبيت فيها .

ثم خرج مرميس فشيعه الحاكم الى الباب الخارجي ، حتى اذا ركب مركبته وانصرف ، عاد الى زوجته وقال لها : لقد نجونا بحمد الله من أشد الأخطار .

ثم عانقها وعانق ابنتيه فكانت تمتزج دموع الفرح بدموع الحنان .

* * *

أما مرميس فانه توجه تواً الى الفندق الذي تقيم فيه فاندا فقال لها : إعلمي أيتها العزيزة انك أصبحت زوجتي مدة اسبوع .

فابتسمت فاندا وقالت : كيف ذلك ؟

- ذلك انك تدعين منذ الآن السيدة بيتافن ، وتبرحين هذا الفندق ، وتذهبين معي للاقامة في بيت أسرة إنكليزية ، أي في بيت السير روبرت .

- ولكنه حاكم سجن نوايت .

- هو بعينه

- ولكن كيف رضي بذلك ؟

- بل رضي ان يجمعنا بشخص تعرفينه ، ويسرك ان تجتمعي به ، وهو روكامبول

فاصفر وجه فاندا وجعل يقص عليها جميع ما اتفق حتى اذا أتم حديثه قالت : ولكن أية غاية لك من هذا الاجتماع .

- تخليص روكامبول .

- كيف ؟

- سوف ترين ، فقد علمني هذا الرئيس الحبيب ان لا أقول الكلمة الأخيرة

من قصدي .

ثم تركها وانصرف فذهب الى رجل صانع أقفال، شهير بصنع الأقفـال الغريبة وهو يقول في نفسه : لا بد ان يرشدني هذا الرجـل الى طريقة لفتح الباب الحديدي الذي وجدته في قبو المنزل فانه لا ريب باب الدهليز الموصل الى سجن نوايت .

- ٣٣ -

ولما دخل مرميس الى مخزن صانع الأقفال ، طلب اليـه ان يريه جميع ما لديه من الأقفال على اختلاف أنواعها .

فأراه كل ما كان عنده ، فلما أنهى فحصها قـال له : لقد قرأت في كتاب قديم عن لندرا ، انهم كانوا يستعملون فيها في القرن السابع عشر أقفالاً غريبة الصنع .

لقد استعملوا أقفالاً مختلفة في ذلك القرن فأيها تعني ؟

– قرأت في الكتـاب انهم كانوا يستعملون أبواباً من الحديـد لا تظهر أقفالها .

– اني عرفت هذه الطريقة ولدي مثال منها إن شئت أظهرته لك .

– هذا جل ما أتمناه .

– هلم معي الى متحفي فان لدي مجموعة نفيسة من تلك الآثار القديمة ، لا توجد عنـد سواي ، حتى ان إدارة المتحف نفسها تحتاج إلي في مثـل تلك الشؤون .

ثم تقدم مرميس إلى غرفة متسعة ضمن مخزنه وبدأ بالحديث عن القفل السري فقال : أترى هذا الباب الحديدي أمامك ؟

— نعم ..
— إفحصه أترى فيه قفلاً ؟
— لا !
— إفحص جيداً .

فتمعن به مرميس ملياً ثم قال : اني لا أجد فيه أثراً لقفل .
— إذاً أنظر .

ثم أخذ مطرقة وجعل يطرق بها الباب الحديدي طرقات يعدها ، حتى إذا عد عشراً سمع صوت زلاج حديدي من الداخل قد سقط ، ثم فتح الباب

فسر مرميس سروراً عظيماً ، وقد أيقن ان باب القبو يشبه هذا الباب ، وقال لصانع الأقفال : إنها طريقة عجيبة ، لا تخطر في بال أحد .

— اني سأوضح لك اسرارها ، ولكن لا بد لي قبلها ان اوضح لك تاريخ ابتكارها والسبب في اختراعها .

لقد ذكروا انه منذ مائة وخمسين عاماً انقسم اهل لندرا الى قسمين قسم انتصر لأسرة ستيوارت ، وقسم تحزب لأسرة هانوفر . فتآمر اشياع اسرة ستيوارت وحاولوا نسف قسم من مدينة لندرا تذرعاً لبلوغ مأربهم من إنزال اسرة هانوفر عن العرش .

ولم تفز هذه المؤامرة ، ولكن الحكومة وجدت كثيراً من الدهاليز محفورة في أقبية المنازل ، وكانت ابوابها حديدية تشبه هذا الباب الذي تراه امامك .

وانهذا الباب لاقفل فيه كما رأيت وقد بقيسره خفياً حتى رشتالحكومة احد رجال المؤامرة فباح بسر قفله .

فكان مرميس يقول في نفسه وهو يصغي الى الحديث : لقد اصاب روكامبول

بإهدائي الى هذا الرجل فإني سأقف منه على جميع ما أريد

وعاد صانع الأقفال إلى الحديث فقال: ان هذه الطريقة الخفية كان المتآمرون يرمون بها إلى غاية وهي انهم كانوا كثيرين وكانت الأبواب التي صنعوها كثيرة بحيث تعذر صنع مفتاح خاص لكل متامر منهم فاخترعوا هذه الأبواب وجعلوا طريقة فتحها واحدة فهي تقفل كلها بالطريقة التي رأيتهـا أي بالقرع عليها بالمطرقة طرقات معدودة .

– انها طريقة مدهشة ولكن كيف يفتحون تلك الأبواب ؟

- بالطريقة نفسها ، ولكن الفرق بين الفتح والاقفال انك ان أردت الفتح أطرقت على البـاب فيسقط الزلاج ، وإن أردت اقفاله طرقت أسفله فيرتفع الزلاج إلى حيث كان ، وهذا مثاله ، ثم أخذ المطرقة وضرب بها على الباب من أعلاه ففتح ، ثم ضرب على أسفله فاقفل .

– لقد أدهشتني هذه الطريقة وأنا ممتن لك كل الامتنان من إيضاح سرها ، ولا أكتمك يا سيدي اني مندوب من قبل مكتبة الحكومة الفرنسية لانشاء كتاب عن هذه المؤامرة الهائلة التي دعت إلى صنع مثل هذه الأبواب والبحث في اسرارها وقد قيل لي أن أمثال تلك الأبواب السرية موجود عنـدك فثق يا سيدي اني سأذكرك في كتابي .

أما مرميس فانه قد عرف ما أراد أن يعرفه ، فشكر الرجل وودعه ، ثم انصرف بمركبته فبلغ بها بعد نصف ساعة مخزن الحبوب .

وهناك رأى أن عمال المخزن قد زادوا عاملاً وهو وليم البحار الذي لم يغلبه إلا روكامبول .

فناداه مرميس وقال له : اننا سنعمل على انقاذ الرجل المحبوس ، فهل تريد أن تكون منا ؟

– كيف لا أكون منكم فاني أسفك دمي في هذا السبيل .

- حسناً ، أبق معنا ولما يحين وقت العمل نخبرك ، فاقام وليم في المخزن

ولبس ثياب عماله

أما ميلون فأنه رأى علائم السرور بادية بين ثنايا وجه مرميس فاستبشر بما رآه وقال له ماذا حدث ؟

– هات مصباحك واتبعني .

– إلى أين ، أإلى القبو ؟

– نعم .

– ألعلك وجدت وسيلة لفتح الباب ؟

– نعم ، هلم بنا .

وذهب الاثنان إلى القبو الأول ، ثم دخلا إلى القبو الثاني من الثقب الذي ثقباه حتى وصلا إلى البـاب الحديدي ففحصه مرميس فحصاً مدققاً فوجده يشبه الباب الذي رآه عند بائع الأقفال .

فقال ميلون ولكن لا أجد فيه قفلاً ، فكيف تقول انك اهتديت إلى طريقة فتحه ؟

– سوف ترى اني أفتحه دون ان يكون له قفل فهات المطرقة التي بيـدك وخذ المصباح الذي بيدي وأنظر ، ثم أخذ المطرقة منه وجعل يطرق بها أسفل الباب على الطريقة التي تعلمها فسمع ميلون بعد ذلك صوت زلاج حديدي سقط دون أن يراه

أما مرميس فانه القى المطرقة إلى الأرض ودفع الباب بيديه دفعة شديدة ففتح لفوره وانكشف عن دهليز مظلم .

وعندئذ أخذ مرميس المصباح من يد ميـــلون ودخل إلى الدهليز ومعه ميلون وهو يقول : أظن اننا سننقذ روكامبول قبل أن يهتدي الأرلنديون الى طريقة انقاذه .

وسار مرميس وميلون في ذلك الدهليز الحديدي ومرميس يحسب انـه سيبلغ منه نفق يؤدي إلى السجن ولكنهما لم يسيرا هنيهة حتى اعترضهما جدار آخر فقال : لقد تسرعنا لاعتقادنا بالفوز ولا بد لنا من العودة أدراجنـــا واحضار الآلات اللازمة لفتح منفذ في هذا الجدار .

فعادا إلى القبو الأول وهناك أخذا ما يحتاجان اليه من الآلات ورجعـا إلى الجدار ليعملا على هدمه، ولكنهما لم يزيلا قشرته حتى ظهر لهما باب حديدي كالباب الأول ففتحه مرميس بنفس الطريقة السابقة ، اي بالمطرقة ودخل مع ميلون فوجدا فناء يشبه القاعات .

فأخذ مرميس المصباح وطاف مع ميلون تلك القاعة فوجدا بها ثلاثة منافذ تؤدي إلى ثلاثة دهـــاليز فوقف ميلون وقفة الحائر وقال . هذه مشكلة تفوق جميع ما تقدم من المشاكل في هـــذه الأقبيـــة ، إذ لا نعلم في اي الطرق نسير

فقال له مرميس : لننظر في الخريطة عسانا نهتدي بها إلى سواء السبيل .

ثم جلس على الأرض وفتح تلك الخريطة وميلون ينير له فلم يجد في الخريطة ما يشير إلى الدهليز .

وبعد أن أطرق هنيهة متمعناً التفت إلى ميلون وقال له : إننـا مشينا إلى هذا المكان دون تعريج اليس كذلك ؟

– هذا ما أظنه .

- لنسر في الدهليز الوسط بين الدهليزين .

– لماذا ؟

– لأن الطريق إلى سجن نوايت لا تعاريج بها فلو أردنا المسير اليـه من المخزن نمرنا إلى الأمام ..

ـ لقد أصبت .

وسار مرميس أمامه بالدهليز المتوسط فلم يسر بضع خطوات حتى اعترضته أكداس من التراب متخلفة عن تهدم جدران .

وعاد مرميس إلى ميلون وقال إننا أصبحنا في حاجة إلى الرفاق فان إزالة الموانع يقتضي له عدة ساعات

ـ أتريد أن أعود فأدعوهم ؟

ـ كلا .

ثم نظر في ساعته فقال : إن الساعة الآن الرابعة فلنصبر إلى الساعة السادسة حيث يقبل الظلام .

ـ لماذا ؟

ـ لأن المخازن تقفل أبوابها في هذه الساعة فتقفل أنت مخزنك وتأتي بعمالك فلا ينتبه الينا أحد .

ـ والآن ماذا نصنع ؟

ـ نسير في دهليز آخر من قبيل الامتحان لأن الوقت فسيح لدينا .

ـ كما تريد .

وعاد مرميس يتبعه ميلون إلى الدهليز الأيمن وسارا بضع خطوات وعند ذاك وقف مرميس وقال ما هذا إلا تسمع دوياً بعيداً متواصلاً ؟

ـ نعم وأظنه صوت المركبات التي تمر فوقنا فإننا تحت الأرض .

ـ لا أظن .

ثم اضطجع ووضع أذنه على الأرض فأصغى هنيهة وعاد فقال : لا أظنه صوت مركبات .

ـ للسير أيضاً قليلاً عسى أن تتبين لنا هذه الأصوات .

فاستصوب مرميس رأي ميلون وسار أمامه نحو ثلاثين خطوة ، وهو يراقب ما حوله ثم وقف فجأة وقال : ألا ترى أن الأرض تنخفض تباعاً

أمامنا كلما تقدمنا ؟

ـ نعم فما عسى أن يكون هذا ؟

ـ إن انخفاض الأرض المتتابع يدل على أنه يوجد فوقنامجاري مياه المدينة إلى النهر ، ولا شك أن هذه الأصوات التي نسمعها هي أصوات تحدر المياه إلى النهر بدليل اتصال الصوت وارتفاعه كلما تقدمنا .

ـ فلنتقدم أيضاً وسوف نرى .

وجعلا يتقدمان في الدهليز وكلما تقدما زاد ارتفاع الأصوات حتى باتت كهزيم الرعود .

وفيما هما يسيران هب هواء شديد فجأة كاد يطفىء المصباح فقال مرميس أشعرت بمجرى الهواء ؟

ـ نعم ، ولكن الهواء يجري في كل مكان .

ـ هو ذاك ، غير أن هذا الهواء بليل وهو يسري من الخارج .

ـ إذا كان كذلك لنعد فقد عرفنا ما يجب أن نعرفه ..

ـ كلا ، بل يجب أن نواصل السير .

ـ لماذا ؟

. لأني أريد أن أعلم أين ينتهي الدهليز .

ـ ولكنه ينتهي إلى النهر كما ترى ونحن نسير في جهة معاكسة للجهة التي نريدها ، أي جهة نوايت .

فضحك مرميس وقال : إنك لا تزال على بلاهتك ..

ـ لماذا ؟

ـ لنفرض أننا أنقذنا روكامبول .

ـ لنفرض هذا فأية حاجة لنا بهذا الدهليز !.

ـ حاجتنا به أننا نخرج روكامبول من دهليز السجن إلى هذا الدهليز فنجد هناك سفينة بانتظارنا .

ـ لقد أصبت

ـ بماذا ، أبحاجتنا إلى الدهليز أم بحكمي عليك بالبلاهة ؟

وضحك ميلون وقال : بالاثنين فلا تجر علي بأحكامك يا مرميس فإني بطيء الفهم كما تعلم .

ـ إذاً .. إتبعني .

وسارا أيضاً بضع خطوات وعندها هبت ريح شديدة فجأة فاطفأت المصباح وباتا في ظلام دامس .

- ٣٥ -

فاضطرب ميلون وقال : رباه ما نصنع ؟

فضحك مرميس قائلاً : أرأيت كيف إنك تغرق في نقطة ماء ؟

ـ ليس لدي كبريت فأنير به المصباح .

ـ ولكن أنا لدي ..

ثم أخرج علبة الكبريت الشمعي من جيبه ، وأخرج أيضاً مصباحاً ، له غلاف من الزجاج يقي النور من الهواء فأضاءه وهو يقول : لقد أحضرت معي المصباح لتوقعي مثل هذه الحادثة فهلم بنا الان إلى استطراد السير .

فمشيا ، وكانا كلما تقدما يرتفع الصوت ويزيد هبوب الهواء ، ثم سمعا أن المياه تنحدر مسرعة من فوقها ، وإذا الهواء بات رطباً وعلما أنهما اقتربا من النهر .

وبعد خمسة دقائق رأيا نوراً يتألق من محل بعيد وقال مرميس : ما عسى أن يكون هذا النور فانه لا يمكن أن يكون مضاء في الدهليز منذ القرن السابع عشر ؟

فقال ميلون : اني أخشى وجود سوانا فيه وعندي أنه يجدر بنا أن نعود أدراجنا .

فقال له مرميس بلهجة المؤنب : الملك خفت يا ميلون ؟

- معاذ الله أن أخاف نفسي .

- يظهر انك خائف علي ؟

- كلا ، ولكني أخشى أن يرانا هؤلاء الناس فيفتضح أمرنا .

- لا بأس فلنتقدم ، وان تبين لنا الخطر عدنا من حيث أتينا .

فامتثل ميلون وكانا كلما تقدما يكبر النور ويزيد تألقاً وتمتد أشعته كأنما كانت تنعكس على مرآة

فقال مرميس : لقد علمت الآن ما هذا .

- ما هو ؟

- إن الذي تراه هو نهر التيمز لأن هذا الدهليز ينتهي اليه .

- ولكن المياه لا نور لها .

- هو ذاك غير ان الذي يبدو لك هو نور الغاز المتاوج فوق المياه .

- أتظن ؟

- بل أؤكد الآن .

ثم سارا بضع خطوات أيضاً فثبت ما قاله مرميس واتضح ان الدهليز ينتهي عند نهر التيمز ، وان النور كان مصباحاً غازياً تتدفق أشعته على مياه النهر .

وكان الضباب قد انجلى ففحص مرميس المكان الذي كان فيه فوجد أنه على ضفة النهر وعلى يمينه جسر بلاك فريارد وكل يساره جسر لندرا

ولما عرف المكان وضواحيه بالتدقيق عاد ميلون إلى الدهليز وهو يقول : لقد علمت ما كنت أريد أن أعلمه .

وكانا قد قضيا في هذا الاكتشاف نحو ساعة فغادا وهما يفحصان كل مكان

يمران به ، حتى وصلا إلى تلك القاعة ذات الدهاليز الثلاثة ونظر مرميس في ساعته وقال : إن الساعة تبلغ الخامسة والنصف الان ، ولا يزال لدينا نصف ساعة .

ـ ما تعني بذلك ؟

ـ أعني أننا عرفنا الدهليز الأيمن والمتوسط وبقي علينا الأيسر كي يتم إكتشافنا ولا نكون أضعنا الوقت سدى .

ـ إذاً هلم بنا .

ودخلا في الدهليز الأيسر وكانا يسيران صعداً خلافاً للدهليز الأول .

وبعد حين عرض لهما باب حديدي مثل الأبواب التي رآها ففتحه مرميس بالمطرقة ، كالطريقة التي تقدم وصفها وتقدما فقال ميلون : إننا لا نسير الآن إلى جهة التيمز .

ـ هو ذاك ، بل إننا نسير في الجهة المعارضة له .

ـ ولكني مع ذلك أسمع دوياً يشبه دوي المركبات .

فأصغى مرميس هنيهة وقال : إنك مخطىء أيضاً فليس هذا الدوي دوي مركبات ، وقد عرفت ما أردت أن أعرفه .

ـ ولكن ما هذا الدوي ؟

ـ لقد تركنا أولدبالاي على يميننا ونحن الان تحت الخط الحديدي ، فهذا الصوت الذي سمعناه صوت قطار قد مر من فوقنا ألا ترى كيف انقطع الصوت ؟

ـ لقد أصبت .

ـ لنرجع إلى رفاقنا فقد طال غيابنا عنهم .

وبعد ربع ساعة وصلا إلى المخزن فقال مرميس لرجال العصابة : إننا سنقفل المخزن ونشتغل بغير ذلك من المهام .

وقال ميلون : وإن لدينا من الأعمال ما يقتضي له الليل بطوله .
ـ بل قد يستغرق عملنا عدة ليال .

- ٣٦ -

في صباح اليوم التالي وقفت مركبة عند باب سجن نوايت في الجهة التي يدخل منها إلى منزل الحاكم ، وكان في المركبة مرميس وفاندا .
وأطلت إبنة الحاكم من النافذة ورأتها بينما كان مرميس يقرع الباب .
وكانت فاندا قد تأنقت بملابسها وتزينت خير تزيين وباتت فتنة للناظرين ، بحيث لم تتمالك إبنة الحاكم عن إظهار إندهاشها وإعجابها بذلك الجمال .

أما الحاكم فقد لبس خير ملابسه إستعداداً لاستقبال الضيفين الكريمين .
وكان قد أمعن الفكرة طول ليله فيما اتفق عليه مع مرميس ، وقد خطر له في البدء أنهم يكيدون له ولكنه قال في نفسه : إذا كان هناك مكيدة فلا يكيدها غير الارلنديين ، ويستحيل أن يكون هذا الرجل النبيل حليفاً لهؤلاء الزعانف ، وهو صديق السكرتير الأول في سفارة فرنسا .

فاطمأن خاطره لاسيما بعد أن تذكر ما رواه مرميس عن المحامي ، وما كان يتوقعه من الافلاس والعزل لو وقف في مواقف القضاء .

ثم خطر له الخاطر الاتي فقال : لننظر إلى الامور من أقبح وجوهها ولأفترض أن لهذا الشريف الفرنسي علاقة سرية مع الرجل العبوس ، فغاية ما يكون من عقابي أن ناظر الحقانية يوبخني ، ثم لأفرض أمراً آخر يستحيل أن يكون ، وهو فرار الرجل العبوس ، فان عقابي عندها لا يكون غير الطرد من الخدمة وتبقى لي أموالي ، في حين أنه لو حاكمني الرجل الفرنسي لحكم علي بالغرامة وبالعزل معاً ، فأكون قد خاطرت بالمنصب ،

ومع هذا فسأبالغ في الحذر

وفي الصباح ذهب لزيارة الرجل المحبوس فعلم روكامبول من هيئته أنه قابل مرميس .

أما الحاكم فانه قال :

ـ إنك لا تنكر يا سيدي إني عاملتك خير معاملة في سجنك وخففت شقائك جهد الاستطاعة .

ـ كيف أنكر يا حضرة الميلورد فقد طالما أعربت لك عن إمتناني .

وقد أعطيتك جرائد ، وأذنت لك بالكتابة وأنت تعلم ان كنت في هذا السجن فليس الذنب ذنبي .

ـ هذا لا ريب فيه .

ـ ولذلك لا أجد سبباً يدعوك إلى الحقد علي .

ـ معاذ الله أن أحقد عليك يا سيدي الميلورد فاني شاكر لأحسانك ممتن لجميلك ، وإن قدرت لي النجاة .

فقاطعه الحاكم وقد كره أن يسمع كلمات النجاة وقال : لا حاجة لإطلاق سراحك كي تبرهن لي عن اعترافك بالجميل فاني واثق من كرم أخلاقك ولذا أتيت أستشيرك في شأني .

ـ قل يا سيدي الميلورد فاني أصدق المخلصين لك .

فقص عليه الحاكم عندها جميع ما جرى بينه وبين مرميس وذكر له الشرط الذي اقترحه للتنازل عن القضية .

فابتسم روكامبول وقال : اني كنت عارفاً بما جرى .

فذهل الحاكم وقال : كيف ذلك ؟

اصغ إلي يا سيدي الميلورد فاني سأكلمك بحرية وجلاء . إن هذا الفرنسي الذي سجنته معي قد استاء استياء شديداً حين نقلتنا إلى الغرفة الضيقة

وعول على الانتقام منك وأخبرني عن طريقة انتقامه .

ـ لم يكن انتقامه هائلاً كما كنت أتوقعه .

ـ إنه كان عازماً على انتقام شديد لو لم ير من إحسانك الي ..

ـ ما تعني بذلك ؟

ـ إن هذا الرجل ليس صديقاً لي كما أخبرتك من قبل ، ولكني فرنسي مثله فلما رأى عطفك علي عول أن ينتقم منك باثارة ظنونك فقط .

ـ لم أفهم ما تقول ؟

ـ إنه يريد أن يجتمع بي في منزلك كل ليلة مدة أسبوع ، فيلاعبني بالشطرنج ويكلمني بهذه اللغة التي أثارت مخاوفك وهواجسك كي يوهمك أن له علاقة بي .

ثم ضحك ضحكاً عالياً وقال :

ـ ولكني اطمئنك يا سيدي فانه لا يعلم شيئاً من أسراري ، ولا تكترث بهذه اللغة فانه لا يريد بمحادثتي بها غير إثارة مخاوفك واعتبر نفسك سعيداً لنجاتك من قبضتي المحامي ستاج .

فذعر الحاكم لاسم المحامي ، ثم سأل العبوس : ولكني إذا أجبت المسيو بيتافان الى مطلبه أخالف نظام السجون ولذلك أردت أن أستوثق منك معتمداً على شرفك .

ـ ماذا تريد ..

ـ هو أنه لا بد أن يحاكموك فاذا استنطقوك فأرجو أن لا تـذكر أمامهم أنك دخلت منزلي .

ـ أقسم لك بشرفي يا سيدي الميلورد أني لا أبوح بشيء ، ولكن ..

ـ ولكن ماذا ؟

ـ الملك واثق من عمالك في هذا السجن !

ـ أن بينهم اثنين عينتهما لمراقبتك في ذهابك وايابك ، وأنا واثق

منهما كل الوثوق .

– اذاً اعتمد علي يا سيدي بالكتمان فقد أقسمت لك .

وعند هذا فارقه الحاكم وهو مطمئن وعاد الى منزله وتهيأ لاستقبال مرميس وأمر أن يعد له ولامرأته خير مكان في منزله .

وقد جاء مرميس وفاندا كما قدمناه في الساعة العاشرة فأسرع الحاكم لاستقبالهما .

وقال مرميس وهو يضحك : كيف كانت ليلتك أمس ألم تأرق لذكر المحامي ستاج .

فارتعش الحاكم لذكر اسم هذا المحامي ، ولكنه لبث يبتسم وقدم ذراعه لفاندا .

- ٣٧ -

أما مرميس فانه لم يكن قد نام تلك الليلة .

فأنه في الساعة السادسة أمر باقفال المخزن وجميع رجال العصابة فيه وكانوا خمسة رجال وإمرأة .

أما المرأة فهي بولينا زوجة بوليت وقد عهد اليهـا مرميس أن تبقى في المخزن وأن تطفىء الأنوار وتصغي إلى ما يجري في الخارج حتى إذا سمعت ما يدعو إلى الشبهة تدخل إلى القبو وتنبههم .

وبعد أن أبقاها في المخزن تقدم إلى القبو يتبعه رجال العصابة فظلوا سائرين حتى وصلوا الى القاعة ذات الدهاليز الثلاثة .

وكان مرميس قد أخذ لفيفة من الخيطان فربط طرف الخيط عند مدخل القبو الأول فجعل يسير واللفيفة بيده والخيط متصل .

أما ميلون فانه اعتقد انه فهم قصد مرميس من ذلك الخيط الطويل فقال لقد علمت ما تريد بهذا الخيط .

ــ أتظن انك علمت ؟

ــ نعم انك تفعل كما يفعلون في سراديب رومــا فإن الساري فيها إن لم يستعمل هذه الطريقة لا يعرف أن يعود .

ــ لقد أخطأت فليس هذا قصدي . .

- إذاً ما هو قصدك .

ــ سأبسطه لك فيما بعد .

وكان ميلون قد تعود أن يحترم إرادة تلميذ روكامبول وتكتمه فلم يلح عليه بالسؤال ، وتقدمت العصابة في الدهليز المتوسط حتى وصلوا إلى تلك الأتربة المتهدمة التي اعترضت مرميس وميلون وحالت دون تقدمها حين اكتشاف هذا الدهليز .

فقال لهم مرميس : هلموا إلى العمل أيها الرفاق إذ يجب ان نفتح ممراً بين هذه الأتربة المتراكمة .

فانكبوا جميعهم على العمل بهمة قوية .

وما زالوا يشتغلون أربع ساعات متوالية حتى رفعوا تلك الأتربة وأزالوا حواجز السرداب فصاحوا جميعهم صيحة الفرح والفوز .

وأما مرميس فانه دفع لفيفة الخيطان لميلون وقال له امسكها .

ثم أمر بوليت أن يأخذ مصباحاً وأخذ من جيبه مقياساً مترياً من تلك المقاييس التي يستعملها التجار ، ففتحه وجعل يقيس به الخيط المتصل ، وكلما قاس متراً ابتعد عن ميلون إلى جهة المخزن . وميلون ينظر حائراً مبهوتــاً دون أن يجسر على سؤاله

حتى إذا ابتعد عنه تنهد وقال : ليس لي بهذا الغلام حيلة فانه يأبى إلا أن يعاملني كما يعاملني الرئيس .

ولم يفهم أحد من رجال العصابة ما كان يريد مرميس بهـذه المقايسة غير بوليت ، فـــانه أدرك شيئاً من قصده اذ قال له ، حين بلغ إلى القبو الأول :

– انك قست الخيط لتعلم المسافة التي اجتزناها .

– هو ذاك ولكن لي بهذا القياس قصد آخر .

– ما هو ؟

– سوف تعلم .

ثم جلس على حجر وقال: اني عددت ثمانية وسبعين متراً فاصعد الى المخزن فلا بد أن يوجد فيه لفيفة خيطان مثل هذه اللفيفة وأتني بها .

فأسرع بوليت وجاء باللفيفة فقاس مرميس منها ثمانية وسبعين متراً وقطع الخيط ، فوضع الخيط الذي قاسه بجيبه ، وصعد مع بوليت الى المخزن فأطفأ المصباح وقال : سوف نرى الآن اذا كان يصح قياسي .

وكانت السكينة سائدة في الشارع ، فوضع مرميس اذنه على البـــاب وأصغى فسمع وقع خطوات بطيئة فقال : انها خطوات الحـــارس الليلي فلننتظر الى أن يمر .

وأقام ينتظر حتى مر الحارس بالمخزن وتعداه فقال انه لا يعود الى هذا الموقف قبل خمس دقائق وهو وقت كاف لإتمام ما أريد .

فوقف بوليت حائراً وهو لا يفهم شيئاً من هذه الألغاز .

- ٣٨ -

وعند ذلك امسك مرميس بوليت طرف الخيط وفتح باب المخزن وبيده الطرف الآخر فخرج منه وسار تواً الى سجن توايت المقابل للمخزن فلم يقف

الا حين انتهى الخيط .

فترك الخيط ومشى الى حائط السجن وهو يعد خطواته فبلغت احـدى عشر خطوة حين وصل الى الجدار .

وهنا رجع مسرعاً الى المخزن فأقفل بابه وقال لبوليت : أفهمت الآن ؟

ـ قد فهمت كل قصدك .

ـ اذاً اسحب الخيط كي لا يبقى في الشارع أثر يدل على ما نفعل .

فامتثل بوليت وعاد الاثنان الى القبو الأول فأنارا مصباحاً وذهبـا الى حيث كانت بقية أفراد العصابة فوقف في طليعتها وقال لرجالها : اتبعوني الان ، فتقدموا عشر خطوات ، وهناك وجدوا قاعة جديدة يبلغ اتساعهـا نحو عشرة أمتار .

غير أنهم لم يجدوا فيها منفذاً ولا اثراً يدل على وجود باب فقال ميلون : هوذا عقبة جديدة قد عرضت لنا .

فهز مرميس رأسه وقال : ما أكثر العقبات عندك .

ثم تناول مطرقة وجعل يطرق بها جدران القاعة وبوليت ينير له حتى سمع صوتاً معدنياً في الجهة المقابلة للسجن وقال :

ـ هوذا الباب ، لكن يجب أن نزيل ما يحجبه برفق وعناية كي لا يخرج صوت مرتفع ينبه الأسماع .

ثم ترك المطرقة وأخذ آلة حادة فأمر رفاقه أن يقتدوا به وجعل يزيـل طلاء الجدار برفق وسكينة فما مضت ساعة حتى ظهر من تحت ذلك الجدار باب حديدي يشبه الأبواب التي في تلك الدهاليز .

ولم يكن لذلك الباب قفل فضحك ميلون وقال : اننا نعرف طريقة فتحه اليس كذلك يا مرميس ؟

فأجابه . نعم ولكننا لا نفتحه الان .

ـ لماذا !

- إذ لا فائـدة من فتحه الآن ، فقـد اشتغلنا فوق الكفـاية في هذه الليلة .

ونظر ميلون في ساعته وقـال : كيف ذلك ، فـان الليل لم ينتصف بعد .

– لا بأس فاتبعوني

ثم رجع أدراجه وهو يعد خطواته ، حتى وصـل في ذلك الدهليز الى المكان الذي وجدوا فيه بقايا الردم فقال : إن المسافـة من الباب الحديدي الى هذا المكان أربع عشرة خطوة ، ومن هنـا إلى القبو الكائن تحت المخزن ثمانية وسبعون مـتراً ، فتكون المسافة كلها ثمانية وثمانين مـتراً بالتقريب .

وقد عددت من باب المخزن الى جدار سجن نوايت ثمانية وسبعين متراً ، وعلى هذا فلا بد ان يكون الباب الحـديدي الأخير الذي اكتشفنـاه ، كائنـاً تحت منزل حاكم السجن . ولذلك فـلا فائدة الآن من فتح ذلك الباب .

فقال ميلون : إني لم أفهم شيئاً بعد

فابتسم مرميس وقال : ولكن الأمر بسيط .

– كيف ذلك ؟

– ألم أقل لك اني سأزور مع فاندا سجن نوايت ؟

– نعم ..

- فإن كان الحاكم عارفاً بهذه الدهاليز فهو يريني إياها

– إذاً يضطر إلى فتح الباب الحديدي .

- كلا فان الباب لا بد ان يكون محجوباً بجدار من داخل السجن كما كان محجوباً من داخل الدهليز .

– إذاً فهو لا يستطيع ان يريك شيئاً

فضحك مرميس وقال : سوف ترى . وأما الآن فهلموا بنا ، فيجب أن ننام .

ثم سار أمامهم فتبعوه

* * *

وفي صباح اليوم التالي ، نادى مرميس بوليت وقال له يجب ان تكون شجاعاً .

— إن الشجاعة عندي .

— ألا تخاف من المبيت في الدهليز ؟

- إني أبيت بين المقابر عند الاقتضاء .

— إصغ إلي إني أريد منك ان تذهب إلى آخر باب اكتشفناه في الدهليز ، فتجتهد أن لا تنام وتصغي كل الاصغاء

-- ماذا تتوقع ان أسمع ؟

— لا أعلم ولكنك تحفظ كل ما تسمعه وتلتبه اليه كل الانتباه .

-- سأفعل ما تريد .

وبعد حين توجه بوليت الى الدهليز ومضى مرميس إلى فاندا فسار بها إلى بيت حاكم السجن كما قدمناه

- ٣٩ -

ولنعد الآن إلى بيت الحاكم ، فإن زوجته وابنتيه وجدن من فاندا فوق ما كنا يتوقعنه من اللطف والظرف والكياسة ، فأعجبن بها غاية الاعجاب .

وقد استحال هـذا الاعجاب الى حب ، حين البست فانـدا إحدى البنتين عقداً ثميناً من اللؤلؤ ، والبست الأخرى خاتمـاً بديعاً من أغلى الجواهر .

فأقام الجميع يتحدثون ويتنادمون ، حتى دنا وقت الطعام ، فأكلوا ولاعب مرميس الحاكم بالشطرنج ، فتساهل باللعب كي يغلبه مبالغـة بإرضائه .

ولما فرغا من اللعب قال مرميس للحاكم: إننا اتفقنا فيما اتفقنا عليه أن ترى زوجتي سجن نوايت فانها تحب ان ترى كل ما فيه .

ـ حباً وكرامة وإنني أطلب اليك أمراً يا سيدي .

ـ قل ما تشاء .

ـ إننا اتفقنا ان يلاعبك هذا الرجل السري الذي يدعونه بالرجل العبوس الليلة بالشطرنج .

ـ بل كل ليلة .

ـ هو ذاك وقد اتخذت كل وسائل الحرص ولا يعلم بانه يحضر الى منزلي غير اثنين أثق بهما كل الثقة من حراسي .

ـ ما تريد بذلك ؟

ـ أعني ان ناظر العدلية أصدر إلي أوامر شديدة بشأن الرجل العبوس وهي أن لا أدع أحداً يراه ولذلك لا أستطيع أن أري زوجتك غرفة هذا الرجل ، وستراه في منزلي .

ـ لا بأس ولكنها تستطيع أن ترى بقية المسجونين .

ـ دون شك وسأريكم ايضاً جميع السجون على اختلافها من الغرف البسيطة إلى السجون العميقة المظلمة .

ـ أيوجد سجون عميقة في نوايت ؟

ـ نعم يوجد سجنان

ان هذا يدهشني يا حضرة الميلورد

— لماذا ؟

— لأن طريقة السجون العميقة قديمة جداً وقد قرأت في تاريخ انكلترا ان سجن نوايت أنشيء سنة ۱۷۸۰ .

— هو ذاك ولكنه بني على أنقاض السجن القديم الذي احترق في تلك الأيام فبقي هذان السجنان. على انهما لم يستعملا غير مرة فقد كانا ملجأ للمتآمرين أيام مؤامرة البارود المشهورة .

— نعم لقد قرأت شيئاً عن هذه المؤامرة، ولكن من عهد طويل فلم يعلق بفكري شيء منها .

— إنه حديث طويل سأخبرك عنه في غير هذا المقام وإن شئت بدأنا الآن بزيارة السجون العميقة .

— لماذا تؤثر ان نبدأ بها ؟

— لأنها ليست كائنة في داخل السجن بل هي تحت أقدامنا حيث نقف ، أي تحت منزلي .

— كيف ذلك ؟

— إنه يوجد تحت منزلي قبو أضع فيه الخمر وفي هذا القبو مدخل السجنين غير اني حصنتهما ووضعت فوقهما ما يشبه خرزة البئر خوفاً من ان يسقط فيها أحد الخدم .

لقد أحسنت ، وفوق ذلك فان السجن العميق لا يختلف في شيء عن البئر .

— هو ما تقول فان هذين السجنين يبلغ عمق الواحد منهما سبعين قدماً ويمكن النزول اليهما بالحبال وقد نزلت اليهما مرة .

— وما رأيت فيهما ؟

— رأيت فيهما مدخلاً للدهاليز التي حفرت أيام مؤامرة البارود .

فضحك مرميس وقال : إذاً يمكن الفرار من سجن نوايت .

فارتعد الحاكم ، وقد خطر له الرجل المحبوس ، ولكنه أخفى اضطرابه وقال : إن هذا محال ، فان هذين السجنين كائنان تحت منزلي ، وليس في السجن كما قلت لك وفوق ذلك فان مدخل الدهاليز قد سد بالجدران .

– إن كان كما تقول فلم يبق وسيلة للفرار .

– وزيادة في الاستيثاق ، نزلت مرة إلى السجنين ومعي بناء ، فأمرته أن ينقض الجدار الذي سد فيه مدخل الدهليز ففعل . ولكنه لم يجد جدار ، بل وجده قشرة رقيقة من الطين أزالها ، فانكشفت عن باب من الحديد .

فاضطرب مرميس وقال : وهذا الباب ؟

– إننا ألفيناه متيناً لم تعمل فيه المطارق .

– ألم تحضر صانع أقفال ؟

- أحضرت ستة لا واحداً .

- ألم يستطيعوا كسر القفل ؟

– إنهم لم يجدوا فيه قفلاً فيفتحوه او يكسروه .

- وبعدها ماذا صنعت ؟

– وثقت من صلابته فتركته على حاله وطليته بالطين كما كان وجعلت فيه ثقباً صغيراً كي أعرف مكان الباب .

لقد شوقتني إلى مشاهدة هذين السجنين فلنبدأ بهما

- كما تشاء

وبعد ربع ساعة كان الحاكم يتقدم مرميس وفاندا الى السجن ويتقدمهم حارسان يحملان المصابيح .

فقال مرميس لفاندا بصوت منخفض : كنت أفضل أن لا ترى

الرجل العبوس

ــ لماذا ؟

ــ لأني أخشى ان تظهر عليك علائم التأثر لمنظره فيفتضح أمرنا .

ــ لا تخف فاني أملك نفسي عند الاقتضاء وسوف ترى بهذه الليلة .

وإن ظهرت عليه نفسه علائم التأثر ؟

فهزت فاندا رأسها وقالت : إنه لا يحبني أنا الآن .

ثم ابتسمت ابتساماً أعرب عما داخل فؤادها من القنوط وقالت : إنه يحب الآن مس الن .

وبعد هنيهة وصلوا الى مدخل السجنين فتفقدهما مرميس وكان يسأل الحاكم عن كل ما يشكل عليه ، فيجيبه دون احتراس إلى ان قال : أتريدان أن تنزلا اليه ؟

فقالت فاندا : أما انا فلا .

وقال مرميس : وأما انا فاني احب ان أنزل اليهما فاني طالما سمعت بهذه السجون ولم أرها في حياتي .

وأمر الحاكم احد الحارسين أن يحضر سلماً من الحبال ، فغاب هنيهة وعاد به .

- ٤٠ -

فلما ربط الحارس السلم بأعلى البئر قال مرميس للحاكم : إني لا أكلفك يا سيدي مشقة النزول الى السجن ، فقد نزلت اليه مراراً . فأعطني مصباحاً وسأنزل وحدي .

فأعطاه المصباح وحمله باحدى يديه ونزل على السلم برشاقة الغلمان فلم ينزل

عليه درجة درجة بل انه أمسك الحبل بيده ولف رجليه عليه وترك نفسه يهوي حتى بلغ الى أسفل السجن

وأطل الحاكم من فوق قائلاً : إفحص الباب جيداً .

– ولكنك بنيت أمامه حائط كما تقول .

– نعم ولكني ثقبت فيه ثقباً فانظر منه بنور مصباحك .

فابتسم مرميس وقال في نفسه : مسكين هذا الحاكم ، فاني لم أر أشد بساطة منه .

ثم وضع المصباح قرب الثقب وجعل ينظر فرأى الباب الحديدي .

وقال له الحاكم : أرأيت الباب ؟

– نعم وهو غريب الصنع .

– إنه رنان صلب فانقر عليه تعرف صلابته .

وقال مرميس في نفسه : ويح لهذا الرجل انه بات شريكنا وخير عون لنا في تخليص روكامبول .

ثم مد يده من خلال الثقب ونقر على الباب ، فخرج له دوي رنان .

وعند ذلك صعد مرميس على السلم درجة درجة ، وهو يقول في نفسه : لقد بلغت ما أريد ، ولا شك ان بوليت كان يسمع كلامي من وراء هذا الباب

فلما التقى بالحاكم قال له : اليس للسجن الثاني باب مثل هذا الباب ؟

– كلا وهو يشبه هذا السجن أتم الشبه .

– إذاً لا حاجة الى النزول اليه فلنتفقد بقية السجن .

وسار الحاكم يتبعه مرميس وفاندا ، وجعل يريهما غرف سجنه ، وهو معجب بترتيبه . فكان يصف لهما كل ما يريانه ويوضح لهما كل ما يشكل عليهما وقد بلغ من شغفه بهذا السجن أنه بات يحب من يسجن فيه ، حتى انه قال لمرميس : إني أكاد أبكي حين يخرج سجين من سجني .

— ولكنه سجن نوايت لا يخرج منه أحد إلا إلى المشنقة
— ليس ذلك مضطرداً فان جلالة الملكة كثيرة المراحم .

وكانت فاندا تظهر اهتماماً عظيماً بما تراه وهي تلتقل من غرفة إلى غرفة ، حتى وصلوا الى الغرفة المسجون فيها روكامبول ، فلمس مرميس كتفها وقال لها : هذه هي غرفته .

فاضطربت فاندا ولكنها أسرعت إلى إخفاء اضطرابها ، وكان باب غرفة روكامبول مقفلاً فلم يأمر بفتحه

وغادرت تلك الغرفة الى سواها فما مضت ساعة حتى تفرجوا على جميع غرف السجن الرهيب .

وبعدها عادوا إلى منزل الحاكم فأقامت فاندا مع زوجته وابنتيه وادعى مرميس انه مضطر الى الخروج لمقابلة أصحابه .



وقد ذهب مرميس تواً الى المخزن ووقف بعيداً عنه ورأى ميلون واقفاً عند بابه ، فأشار اليه ان يتبعه .

فامتثل ميلون وتقدمه مرميس حتى ابتعد عن السجن فاجتمع به ، وقال له ميلون : ما وراءك من الأخبار ؟

— إني أحب ان أسألكم عن أخباركم .
— لم يحدث عندنا شيء فان الحالة كما تركتها .

فقطب حاجبيه وسأله : وبوليت ؟
— إنه لا يزال في المكان الذي وضعته فيه .
— ألم تره منذ الصباح ؟
— إني ذهبت اليه عند الظهر بالطعام .
— وبعدها ألم تره ؟

ــ كلا

فزال التقطيب من جبينه وقال له : حسناً عد الى المخزن وانتظرني فاني لا أحب ان أعود معك كي لا يروني من السجن .

فذهب ميلون وركب مرميس عربة وعاد بها إلى المخزن دون أن يراه أحد من الحراس .

وكان رجال العصابة في المخزن وكل منهم يشتغل في مهمته هذا يبيع الزبائن وهذا يقبض الثمن وآخر يقيد في الدفاتر .

فذهب مرميس تواً الى القبو مع ميلون ، فقال له ميلون : إنني لا أعلم لماذا وضعت بوليت عند ذلك الباب الحديدي فما عساك تنتظر منه ؟

فلم يجبه مرميس وسار وإياه إلى حيث كان بوليت .

وأسرع بوليت إلى مرميس وقال له بصوت يضطرب : يظهر يا سيدي أننا لسنا وحدنا في هذا الدهليز .

ــ كيف ذلك ؟

ــ يوجد سوانا وراء هذا الباب الحديدي .

ــ كيف عرفت ذلك ؟.

ــ سمعت نقراً على الباب .

ــ إطمئن فأنا هو الذي قرع الباب .

فدهش ميلون وقال : ولكن أي طريق سلكت الى هذا المكان ؟

فأجابه : من الطريق الذي سيسلكها روكامبول غداً الينا ، لأن ساعة خلاصه قد دنت .

ولنعد الآن الى بيت حاكم السجن ففي الساعة العاشرة كان الحاكم وعائلته وضيفاه جالسين على المائدة يشربون الشاي .

وكان الحاكم طلق المحيا باش الوجه طول النهار ، فلما أظلم الليل انقبضت نفسه وتجهم وجهه .

أما سبب انقباضه فقد كان الرجل العبوس، إذ تذكر انه يجب عليه الوفاء بعهده وإدخاله الى منزله ، فلما فرغوا من العشاء ، ادعى انه يريد تفقد السجن وذهب الى الرجل العبوس .

فحياه روكامبول باحترام وقال له : ماذا أصابك فإني أرى هيئتك تدل على الكآبة ؟

– اني لست كئيباً ولكني كثير القلق .

- لماذا يا حضرة الميلورد ؟

– لا أنكر عليك اني خائف منك غير واثق بك فانك ستذهب الليلة الى بيتي وأخشى ان يبدر منك ما يسيء .

– إنك تهينني يا سيدي بهذا الظن ، واذا كان بعض الظن إثم ، يا سيدي كما يقولون ، فان ظنك كله إثم ، وكيف يخطر لي اني أكيد لك بعد إحسانك إلي ؟

– أتقسم لي بأنك لا تسيء إلي ؟

– لا حاجة الى الأقسام ، يا حضرة الميلورد ، فما أنا من أهل الشر كما يحسبون .

فانصرف الحاكم من عنده وقد سكن اضطرابه بعض السكون ، ولكنه لم يعد الى البيت حتى عاوده الاضطراب ، وبات يحسب لاجتماع الرجلين الف حساب .

ولما انتهوا من شرب الشاي ، قـال مرميس للحاكم : متى ستحضر السجين ؟

فتنهد الحاكم وقال : سأحضره في الحـال متى فرغ الحراس من أعمـالهم ، وأظنهم فرغوا .

ثم نادى أحد الخدم وقال له : قل للحارس ويلسون ان ينفذ الأمر الذي أصدرته اليه .

فانصرف الخادم ، وبعد ربع ساعة فتح باب القاعة التي كانوا فيها ودخل الرجل العبوس .

فنظر مرميس الى فاندا فرآها هادئة صامتة ساكنة تمثل دور عدم الاكتراث باضطراب قليل لا يظهر إلا لمثل عين مرميس .

أمـا روكامبول ، فانـه حيا السيدات بلطف واينـاس ، دلالة على وفرة أدبه .

فقال مرميس لفاندا : هذا هـو الفرنسي المنكود يا سيدتي ، الذي سجنت معه .

ثم التفت الى الرجل العبوس وقال له إني التمست من حضرة الحاكم إحضارك كي تلاعبني بالشطرنج حسب الطريقة الهندية .

– إني مستعد فاني أعرف هذه الطريقـة ، وقد أخبرني حضرة الحاكم اليوم بنيتك .

فقال مرميس للحـاكم : إني أشكرك يا سيدي ، وأسـألك المعذرة عن كثرة مطالبي .

وكان الحاكم شديد الاضطراب حتى انه حاول الابتسام فلم يستطع .

وتابع قائلاً : اني سأكلم مواطني بتلك اللغة الجافانية وأرجو ان لا يسوءك سماعها كما ساءك من قبل .

فنظر روكامبول الى الحاكم نظرة خفية معنوية مفادها ، ألم أقل لك

اليوم أنه يريد أن ينتقم منك بالتحدث معي بهذه اللغة فلا تخف » .

وعند ذلك قامت إحدى بنتي الحاكم وقالت له : إن هـــذه السيدة يا أبي ستشنف اسماعنا بألحانها الشجية على البيانو ، بينما يلعب هذا السيدان بالشطرنج .

فقامت فاندا تعزف على البيانو ، وبدأ مرميس وروكامبول يلعبان بالشطرنج . وكانت فـاندا تعزف عزفـاً مرتفعاً ، يحـول دون سماع الحديث .

أما مرميس فإنه بدأ الحديث مع روكامبول وهو يلاعبه وقال له باللغـــة الجافانية . ايها الرئيس ان كل شيء قد تهيأ .

- كيف ذلك ؟

- إن نجاتك في الليلة القادمة يتعلق بك .

- من الذي ينقذني أنتم او الارلنديون ؟

- نحن .

- أوضح قولك .

- إني فعلت ما أمرتني به فاشتريت المخزن الكائن تجاه السجن واشتريت الخريطة التي أخبرتني عنها .

- أوجدت مدخل الدهليز ؟

- وجدت كل شيء .

ثم أخبره تفصيلاً بجميع ما فعله وانه نزل إلى السجن العميق ونقر على الباب الحديدي فسمع بوليت الصوت من الجهة الثانية ثم قال له: إني استأجرت باخرة وهي راسية في انتظارنا في التيمز ، عنـد نهاية للدهليز الأيمن المشرف على ذلك النهر .

- أحسنت ولكن الارلنديين ماذا صنعوا ؟

إني لم أعلم شيئاً من أخبارهم .

– ولكنهم يشتغلون ويعملون على إنقاذي .
-- ربما ولكننا سنبلغ قبلهم هذا المراد .
– هذه هي النتيجة التي لا أريدها .

فاضطرب مرميس وقال : لماذا ؟
– لأني أريد ان يفعلوا شيئاً من أجلي .
– وأي فائدة لك من ذلك ؟
– لأني أريد ان أعلم بعد إطلاق سراحي إذا كان يجب ان أخدمهم أو أتخلى عنهم .
– ولكنه لدينا في فرنسا أعظم من هذه المهمة .
– ربما ولكني أظنك لا تجسر على عصياني .
– معاذ الله يا حضرة الرئيس .
– إذاً إصنع ما أقوله لك .

ثم جعل روكامبول يحادثه ويلاعبه بالشطرنج ، والحاكم يسمع حديثهما بقلق شديد دون ان يفهم شيئاً فيضطرب ويقول في نفسه : والله إن هذين الشقيين اذا طال اجتماعهما عندي ابيضت شعوري وذهب عقلي .

- ٤٢ -

كانت مس الن لا تزال في الغرفة التي وصفنـــاها ، وهي بثياب أخوات السجون حذراً من الأسقف ، وكان مرميس قد لقيهـا قبل ان يذهب الى بيت الحاكم فقال لها : إني لا أعلم ما يصنعه الارلنديون ، ولكني أؤكد لك بأننا سننقذه .
– كيف ذلك ؟

فأخبرها مرميس بجميع ما فعله ، ووافقت على خطته ، وانصرف الى بيت الحاكم ، وقد وعدها ان يعود اليها ويخبرها بما يكون بينه وبين روكامبول .

وفي اليوم التالي جاءها وهي تنتظره بفارغ الصبر ، فتبينت الكآبة من ملامح وجهه ، وقالت له : لا شك أن المصيبة قد داهمتنا ، فقل لي ماذا حدث ؟

– ان المصيبة لم تفاجئنا بعد ولكني أخشى ان تفاجئنا .

– ماذا تعني ؟

فقال لها بلهجة القنوط : اني أعددت كل وسائل إنقاذه ، فطهرت الدهليز واستأجرت باخرة تنتظرنا في النهر ولكنه لا يريد .

– من هو ؟

– روكامبول .

– كيف ذلك ألا يريد ان ينجو من السجن ؟

– كلا .

فحارت الفتاة في أمرها وقالت : ولكن كيف لا يريد ولماذا ؟

– لأنه يريد ان يرى ما يكون من الارلنديين .

– انهم سيبرون بوعدهم وينقذونه دون شك .

– ولكن متى ؟

– إن الأب صموئيل أبى ان يخبرني

– بل يجب ان نعلم فاني أنقذه بالقوة وبالرغم عنه اذا اضطررت .

– إذن تعال معي الى كنيسة سانت جورج ، فاننا نجد فيها الأب صموئيل .

فامتثل مرميس وسار معها وهو مكتئب حزين حتى وصلا الى الكنيسة . وكان البواب قد عرفها فقالت له المس الن : قل للأب صموئيل اني أحب

أن أراه اذا كان في القبة

ـ انه مجتمع فيها مع الزعماء ولا أعلم اذا كان يستطيع مقابلتكما .

ـ لا بأس إذهب وأخبره .

فذهب البواب ثم عاد فقال : انه ينتظركما فاتبعاني .

قصدا الى تلك القبة ووجدا الكاهن مختلياً مع أربعة من الزعماء ، فقال لهما الكاهن : ألعل لديكما أنباء خطيرة ؟

فأجابته المس الن : كلا ، ولكننا أتينا لنعلم كيف ومتى ستنقذون الرجل المحبوس .

فأجابها أحد الزعماء قائلاً : اننـــا وعدناك ان ننقذه ، ونحن من الذين يحترمون الوعود .

ـ لا شك عندي فيما تقول ، ولكني أحب ان أعلم كيف ستنقذونه .

ـ ذلك سر من أسرارنا لا نستطيع ان نبوح به لأحد .

ـ ولكن متى يكون إنقاذه ؟

ـ قد يكون غداً وقد يكون بعد أسبوع الى ان تتم معداتنا .

فنظرت الفتاة الى مرميس نظر تشف عن اليأس فقال لها على مسمع منهم : إذاً لنصبر اذا كان لا بد من الصبر .

ثم انصرفا فلما باتا خارج الكنيسة قال مرميس للفتاة : لقد عزمت عزماً أكيداً لا يثنيني شيء عنه .

ـ ما هو ؟

ـ هو اني سأنقذ روكامبول بالرغم عنه .

ـ ألم تثق بوعود الارلنديين ؟

ـ اني أثق بها ولكن يظهر لي ان هؤلاء الارلنديين من أهل المطل والأمر يدعو الى الاسراع .

وفيما هما يسيران سمع مرميس صوت رجل يناديه ، فالتفت فرأى الشرطي

ادورد فقال له : من أين أنت قادم ؟

— اني سائر في أثركما .

— لماذا ؟

— لاخبركما بنبأ محزن لا أجد بداً من اطلاعكما عليه وهو أن ناظر الحقانية قرر محاكمة الرجل المبوس غداً بنــاء على إلحاح الأسقف وربما قضي عليه بعد ليلة من صدور الحكم .

فاصفر وجه مس الن واوشكت أن تسقط أما مرميس فقــال : لا يزال لدينا ليلتان وهذا فوق الكفاية .

— ولكن إذا أصر على عناده فما تصنع ؟

— أنقذه بالقوة وأختطفه اختطافاً .

ثم نادى مركبة فاصعد اليها مس الن وقد وهت قواهــا فجلس بجانبها وجعل يشجعها فسارت المركبة بها إلى غرفتها .

— ٤٣ —

وأوصل مرميس مس الن إلى غرفتها وعاد إلى المخزن فوجد ميلون شديد القلق لأنه لم يره بعد أن اجتمع بروكامبول فقال له : لم يعد لدينا وقت ويجب أن نسرع ما أمكنت السرعة .

فرد ميلون أظن أن الأرلنديين سيحدثون حدثاً فاني رأيت كثيرين منهم يرودون في الليلة الماضية حول سجن نوايت

— إذا كان الأرلنديون يريدون انقاذه فلينقذوه الليلة .

— لماذا ؟

— لأننا سننقذه الليلة القادمة ولو اضطررت إلى الاكراه فانه يريد أن

ينقذه الارلنديون اعترافاً بجميله عليهم .

فضم ميلون يديه وقال : ماذا أصاب الرئيس ألعله جن ؟ وماذا أتينـا لنعمل إذاً ؟

ـ أتعلم يا ميلون أنهم سيحكمون عليه غداً ولكني أرجو أن نكون في طريق فرنسا قبل أن ينفذ الحكم فيه ، فهل رأيت ربان الباخرة ؟

ـ نعم ، وهو مستعد للسفر .

ـ إذاً عد اليه بين الساعة الرابعة والخامسة وقل له أن سيدة ستزوره في الباخرة . .

ـ من هي ، ألعلها مس الن ؟

ـ دون شك .

ـ في أية ساعة تزور الباخرة ؟

ـ عند منتصف الليل وقل له أن يتأهب منذ ذلك الحين بحيث نستطيع السفر حين وصولنا إلى الباخرة .

ـ أأنت واثق اننا نستطيع انقاذه هذه الليلة ؟

ـ دون شك فهلم بنا الى الدهليز ولنصحب وليم فانه أشدنا قوة .

فأنار ميلون مصباحاً وأخذ مرميس مطرقة وساروا جميعهم الى البـاب الحديدي الفاصل بين الدهليز والسجن ففتح البـاب بالمطرقة على الطريقة التي عرفناها فظهر من ورائه الجدار الرقيق الذي بناه حاكم السجن .

فقال مرميس لميلون انك بناء فما رأيك بهذا الجدار . .

ـ انه رقيق جداً .

ـ ترى انه يمكن تدميره بالمطارق بسهولة .

ـ لا حاجة الى المطارق وسوف ترى ثم صدم الجدار بكتفه صدمة قوية زعزعته فاسرع وليم اليه وقال له : أصبر فسأعينك واندفع معه على الجدار فما مضت دقيقة حتى تهدم وانقض وظهر السجن العميق الذي نزل اليه مرميس

من بيت الحاكم فدخل مرميس وتبعه وليم وميلون وقال مرميس : انظر أتعلم أين نحن الآن .

ـ اننا في بئر كما يظهر .

ـ ولكن في هذا البئر منفذاً ويبلغ عمقها ستة أمتار فيجب أن نحضر سلماً يبلغ طوله ستة أمتار .

ـ إن إحضار السلم سهل ميسور ولكن كيف يمكن إدخاله من هذا الباب الضيق فإن إتساع البئر لا يزيد عن متر .

ـ لقد توقعت ذلك وأعددت لهذه المشكلة حلا فأوصيت نجاراً في شارع أوسبورن بصنع سلم يطوى وينشر ، فإن طوي لا يزيد حجمه عن نصف المتر وإن نشر بلغ ستة أمتار ، والآن اصغ إلي فإنك تذهب إلى النجار وتحضر السلم في هذه الليلة .

ـ وبعد ذلك ؟

ـ تحضروا كلكم في الساعة الحادية عشرة إلى البئر ويتسلح كل واحد بمسدس وخنجر .

وزوجة بوليت ؟

ـ تحضرونها معكم ، فاذا وضعنا السلم صعدت أنت في البدء وتبعك الآخرون ما عدا بولينا فلتنتظر عند أسفل السلم .

ـ وبعد ذلك ؟

ـ عندما تبلغون إلى أعلى البئر تجدون قبواً مقفل بمفتاح فتكسرون القفل وتفتحون الباب فتجدون السلم وتصعدون عليها وتبلغون منها إلى المطبخ وهناك لا تجدوا غير خادمة ، وقد تجدونها نائمة ، وإذا لم أتمكن من تخديرها وحاولت الصياح فاربطوا يديها ورجليها وكمموها وبعدها تدخلون إلى غرفة مجاورة للمطبخ وهي قاعة الطعام فتنتظرون هناك .

ماذا ننتظر ؟

– كلمة مني تعمل بموجبها .

– وإن رأينا في المطبخ غير الخادمة ؟

– إن اضطررتم إلى القتل فاقتلوا ، ولكن بالخناجر لا بالمسدسات أفهمت الآن ؟

فقال ميلون : كما ينبغي .

– إذاً فاذهب الآن واحضر السلم وعد إلى الرفاق واخبرهم بما يجب ان يفعلوا ..

– ٤٤ –

أما مس الن فانها لم تكن رأت مرميس منذ الصباح ، ولكنه قال لها حين رآها : إني أعيد عليك ما قلته وهو اني سأنقذه بالكره إن اضطرني إلى الاكراه .

– وأنا ماذا يجب أن أصنع ؟

– يجب أن تنتظري وسيطول إنتظارك إلى الساعة الثامنة حيث يأتي اليك ميلون ويذهب بك :

– الى أين ؟

– إلى باخرة راسية في النهر وهي الباخرة التي تذهب بنا إلى فرنسا .

ثم انصرف عنها فصبرت الفتاة إلى الساعة الثامنة فجاءها ميلون وعلائم السرور بادية على وجهه فقال لها إننا لم نعد في حاجة الى الأرلنديين يا سيدتي فسنتولى نحن انقاذ روكامبول ، وقد كنت أخشى أن يتولى انقاذه سوانا .

– ومع هذا فقد ينقذونه ، إذ لا شك عندي بصدق نيتهم بل قد

ينقذونه قبلكم !.

- إن ذلك محال .

- سيان عندي ان انقذناه نحن أو الارلنديين فان الغرض أن يتم انقاذه ..

- ولكني أبذل حياتي طائعاً راضياً على أن يكون تخليصه على يدنا لا على يد سوانا فلقد طالما ضحى الرئيس الحبيب حياته في سبيلنا .

فابتسمت مس الن وقالت : اتظنني غير مخلصة لروكامبول ؟

- لا شك عندنا باخلاصك يا سيدتي ..

- يجب ان تعلم اني ضحيت هذا الإخلاص من أجلكم !.

- كيف !

- ان الارلنديين قد وضعوا خطة لإنقاذه لا أزال أجهلها ، وأنتم قد اخترتم الدهاليز لإعداد وسائل فراره ، أما أنا فما فعلت ؟. اني لم أفعل شيئاً الى الآن ، ولكن لتحبط مساعي الارلنديين ، ولتحبط مساعيكم تجد اني أنا الذي أنقذه .

فأجابها ميلون بلهجة خامرها الشك : انت يا سيدتي ؟

- نعم .. فإني أدعى مس الن بالمير ، أي ابنة لورد نبيل يعد من أعظم رجال المجلس الأعلى نفوذاً ، وان اضطررت تراميت على اقدام الملكة وسألتها العفو عن رجل بلغ حبه من قلبي حد العبادة .

- ولكننا لسنا في حاجة الى هـذا يا سيدتي لأنه لا يمضي بضع ساعات حتى يكون روكامبول بيننا .

- حقق الله هذا الرجاء فهو أمنية الجميع . والآن هيا بنا

وعندها سار بها ميلون الى الباخرة وقال لها : سنجتمع عند نصف الليل ان شاء الله .

ثم تركها تذهب الى النجار الذي اوصاه مرميس على السلم فأخذه وعـاد

به الى المخزن

ولما دخل ميلون وجد جميع رجال العصابة في اضطراب شديد وكانوا قد أقفلوا المخزن عند الساعة السادسة وأطفأوا الأنوار فباتوا في ظلام دامس .

فاستقبله جواني وقال : اننا ننتظرك بفارغ الصبر ..

- لما . وما حدث ؟

- لقد حدثت أمور كثيرة خلال غيابك .

فقاطعه بوليت وقال : اني سأتولى عن جواني شرح ما حدث فإنك بعد أن خرجت كثر مرور الارلنديين بالشارع ، وكانوا يمرون اثنين اثنين ، ثم رأينا فجأة واحداً منهم يجر عربة من عربات براميل البيرا فوقف هنيهة عند سجن نوايت بين البابين ، فدنا منه عندها رجلان وأعاناه على انزال البرميل ووضعاه عند الحائط .

– وما فعلوا بعدها ؟

– لم يفعلوا شيئاً سوى أنهم ركبوا تلك المركبة وانصرفوا بها .

– والبرميل ؟

– لا يزال في موضعه فتعال كي نراه .

فخرج بوليت وميلون فتفقدا البرميل ، فقال ميلون : ما رأيك في هذا البرميل أتعرف ما فيه ؟

– كلا .

فهزه ميلون وقال : انه شديد الثقل .

فقال بوليت : أظنه محشو بارود .

فارتعش ميلون وقال ما يعملون بالبارود وأي قصد من وضعه عند الجدار ؟

لأنهم يريدون نسف السجن كما يظهر .

فهز كتفيه وقال من الذي يبغي نسفه ؟

ــ الارلنديون بغية تخليص روكامبول .

ــ ويحك ما هذا الخطأ ألا تعلم أنهم إذا نسفوا السجن بغية تخليصه قتلوا الذي يريدون ان يخلصوه .

ــ لقد أصبت ، ولكن هلم بنا ندور حول السجن .

فوافقه ميلون وسارا نحو مائة خطوة فوجدا برميلاً آخر يشبه الأول ، فقال له : أتعلم يا بوليت ما هذا ؟

ــ كلا .

ــ انه خمر سرقه اللصوص فوضعوه هنا على أن يأخذوه في الصباح .

ــ ربما كنت على حق ، ولكني لا أزال أعتقد انه بارود .

.. ذلك سيان عندي فانهم حين ينسفون السجن نكون قد أخرجنا روكامبول منه .

ــ ربما ، ولكني في كل حال أؤثر أن أخبر مرميس بما رأيناه .

ــ ان هذا محال فكيف يمكننا الدخول الى سجن نوايت .

فتنهد بوليت وقال : لقد أصبت .

ــ اذاً يجب ان نسرع ما أمكننا السرعة وأن نخرج روكامبول من سجنه قبل ان ينسف فهلم بنا نعود الى المخزن فقد آن اوان رجوعنا الى الدهليز .

وعندها رجعا الى المخزن ونزلا مع بقية العصابة الى القبو فأناروا المصابيح وحملوا السلم، وساروا في الدهليز الطويل حتى بلغوا الى السجن العميق فوضعوا السلم وصعدا جميعهم ما خلا بولينا ، فكسروا الباب كما أمرهم مرميس ودخلوا الى المطبخ وهم يحملون المسدسات بأيديهم والخناجر بأفواههم .

وكان مرميس قد عاد الى سجن نوايت قبل هجوم الليل فوجد فاندا تعزف على البيانو مع بنتي الحاكم ، ووجد زوجته تشتغل بالتطريز .

أما الحاكم فلم يكن في المنزل في ذلك الحين ، لأنه لم يكن يعود الى المنزل الا ساعة العشاء .

ولما عاد رآه مرميس مصفر الوجه ووجد بين ثنايا وجهه علائم القلق فقال له : يظهر يا سيدي الحاكم انك متعب الليلة .

-- هو ذاك أيها الضيف العزيز .

- ما أصابك ؟

- لدي أنباء سوء .

فأدرك ما يعنيه الحاكم بأنباء السوء ولم يلح عليه بالسؤال وبعد العشاء دخل هو والحاكم الى قاعة التدخين فلما اختليا سأله : قل لي يا سيدي الان ما هو النبأ السيء الذي أشرت اليه .

- هو اني أخشى ألا يتيسر لك ملاعبة الرجل العبوس بالشطرنج الليلة .

- لماذا ؟

- لأنه ورد الي بلاغ من ناظر الحقانية يتضمن على ان هذا المنكود ستكون محاكمته في صباح غد .

فتكلف الانذهال العظيم وقال له : العلهم عزموا على الحكم عليه قبل ان يعرفوا اسمه ؟

- نعم . والذي أراه أنهم سيحكمون عليه بالإعدام ويشنق بعد غد دون شك .

فتأسف عليه ثم قال : ولكني سألاعبه ليلتين أيضاً .

فتراجع الحاكم منذعراً وقال : كيف ذلك أتجسر على ملاعبته بعدما علمت

من أخباره ؟

ــ دون شك .

ــ ولكني سأضطر الى زيارة هذا المنكود الليلة واخباره بما جرى .

ــ ستخبره في الليلة القادمة .

ـ ذلك محال يا سيدي فإن النظام يقضي علي بابلاغه الخبر في هذه الليلة قبل انتصاف الليل .

ــ اذاً ستخبره الليلة ولكن بعد فراغنا من اللعب .

وقد قال هذا القول بسكينة وارتياح فكان الحاكم ينظر اليه نظرات انكار ويقول في نفسه : ما هذا الرجل فقد تجرد قلبه من عاطفة الرفق والاشفاق .

وكأنما مرميسن قد ادرك معنى نظرته فقال له : لقد آن الأوان يا سيدي الحاكم لاطلاعك على كل شيء من مكنونات أمري .

فوجف قلب الحاكم وقال : ماذا تعني يا سيدي ؟

ــ انك تحسبني الى الان غنياً من اهل الشذوذ والأخلاق الغريبة .

ــ هو ذاك يا سيدي فأنت الذي حكمت على نفسك هذا الحكم .

ــ نعم ، فقد اكون من اهل الشذوذ غير اني من كبار اللاعبين بالشطرنج فاني غلبت في باريس جميع مشاهير هذه اللعبة ولم يبق في لندرا من يجسر على ملاعبتي ، ولكني لقيت رجلاً في بطرسبرج ، وأعترف لك أنه هو وحده الذي غلبني الى الان .

ــ أحق ما تقول يا سيدي ومن هو هذا الرجل ؟

ــ هو الجنرال ايجيتوف فقد قال لي آخر مرة غلبني فيها « انك لم تتعلم لعب الشطرنج على طريقة البراهمة فلا يمكن أن تكون من أكفائي » وقد علمت يا سيدي الحاكم ان الرجل العبوس يعرف هذا النوع من اللعب .

ــ نعم عرفت .

ـ وقد علمني اللعب ليلة أمس غير اني لا أزال محتاجاً الى التمرين .
ـ وبعد ذلك ؟
ـ وبعد ذلك أصبح خير كفوء للجنرال فقد ربح مني مليون ريال في العام الماضي .

فاستعظم الحاكم المبلغ وقال له : مليون ريال ؟
ـ نعم ، أي نحو أربعة ملايين فرنك افهمت الآن ؟
ـ لم أفهم شيئاً بعد .

ـ اني في مدة سجني في نوايت تنقلت مع هذا المنكود الذي تدعونه الرجل العبوس من حديث الى حديث ، حتى انتهت بنا المباحثة الى حديث الشطرنج ، فأكد لي انه يعرف الطريقة الهندية ، وكنت لا أزال آسفاً على الملايين الأربعة التي فقدتها فقلت في نفسي ان سمح لي حاكم السجن بملاعبة الرجل وتعلمت منه الطريقة الهندية فغلبت الجنرال واسترجعت ما خسرته من الملايين .

فأشرق وجه الحاكم بنور الرجاء وزالت من نفسه وساوس المؤامرة ، فان الهواجس كانت قد تمكنت منه فهدت حيله منذ دخول مرميس الى السجن .

وعاد مرميس الى الحديث وقد رأى ما بدا عليه من علائم الاطمئنان ، فقال انك ترى يا سيدي الحاكم ان دخولي الى بيتك لم يكن كما كان بادياً علي من ظواهر الشذوذ ، بل لاسترجاع تلك الملايين ، وهي كثيرة تستحق هذا الاهتمام ، فان شنق الرجل العبوس ، قبل أن أتمكن من ادراك دقائق أسرار هذا اللعب فقدت الملايين واضطررت ان أعود الى المحامي ستلج ليطالبك بالغرامة .

فأن الحاكم انين الموجع وقال : لا اخالك تعود الى هذا البحث .
ـ اذاً دع الرجل العبوس يمرنني التمرين الأخير .

ففرك الحاكم اذنه دون ان يجيب وقد اصفر وجهه من الخوف فقال له مرميس . ان الوقت غير متسع لدينا فاختر بين حلين ، اما الرجل العبوس ، او المحامي ستلج .

- ٤٦ -

وقد وقف الحاكم التعس شر موقف فهو اما ان يخالف واجباته فيعرض نفسه للعزل والإهانة ، او يخالف مرميس فيعرض ثروته للضياع ، وحاله للخراب .

وقد أراد أن يقنع مرميس بأنه من المخلصين له فأراه بلاغ الحاكم ثم قال: أترى في أي موقف أوقفتني فاني ان لم اطعك كنت السبب في خرابي ، وإن أطعتك خالفت الشرع وعصيت أمر الوزير .

– بماذا تخالفه .

– بعدم إبلاغ الرجل العبوس هذه الأنباء قبل نصف الليل .

– ولكننا نفرغ من اللعب في الساعة الحادية عشرة .

– ولكن هذا المنكود يجب أن يقضي مع المحامي عنه هذا الوقت الذي يقضيه بملاعبتك .

– ولكنك تقول ، ان الحكم عليه لا بد منه ، فأية فائدة له من لقاء المحامي ؟

– هو ما تقول ، ولكن ان علم ناظر الحقانية بما جرى عاقبني بالعزل دون شك .

– كلا بل اني اضمن لك أنه يكافئك خير مكافأة .

فدهش الحاكم وقال : كيف ذلك ؟

– ألم تقـل لي ، أنهم سيحكمون على الرجل العبوس دون أن يعرفوا اسمه ؟

-- نعم ...

– إذاً افترض إنه غداً في ساعة المحاكمة تذهب إلى المجلس وتخبر القضاء بحقيقة الرجل العبوس .

فانذهل الحاكم انذهالاً شديداً وقال : انا أقول لهم حقيقة اسمه وكيف يكون ذلك وأنا لا أعرفه ؟

– ولكني اقوله لك ..

– أنت ! إذاً أنت تعرف اسمه ؟

فنظر مرميس في ساعته وقال : ان الساعة التـــاسعة الآن وستحضر الرجل العبوس لملاعبتي في الساعة العاشرة تقريباً .

– نعم ..

– وفي الساعة الحادية عشر تنصرف زوجتك وبنتاك إلى مخادعهن .

– هو ذاك كما يفعلن في كل ليلة .

– وعند ذلك ، يبقى في هذه القاعة ، أنا وزوجتي وأنت والرجـل العبوس .

– وبعد ذاك ؟

– وبعد ذاك أنادي الرجل العبوس باسمه الحقيقي .

– وإن أنكره ؟

– أقسم لك انه لا ينكره .

– كيف تثبت إنه لا ينكر .

– لأني حين كنت معه في السجن قـال لي اني لا غرض لي في إخفـاء اسمي إلا لإطالة مدة المحاكمة، ولكنهم إن حكموا علي ذكرت اسمي أمام القضاء .

– أحق ما تقوله لي ايها الرجل النبيل ؟
– هي الحقيقة بعينها .
– أيمكن أن تكون هازئاً بي ؟

– من يسعى وراء أربعة ملايين فرنك ، لا يهزأ بأحد ، وعلى ذلك فاحضر السجين ، وان علم ناظر الحقانية إنك حضرته إلى منزلك وأراد تأنيبك ومعاقبتك ، افحمته بكلمة وهي اسم الرجل المحبوس الحقيقي ، ثم تقول له انك ما خالفت نظام السجن إلا لهذه الغاية الحميدة فيكافئك بدلاً من أن يعاقبك .

فسر الحاكم سروراً عظيماً بهذه النتيجة بعد أن وثق من مرميس وعاد إلى الاشتراك بالحديث العام مع الحضور .

وبعد نصف ساعة برح الحاكم القاعة وهو يقول لمرميس : إني ذاهب لإحضار الرجل المحبوس .

فلما انصرف الحاكم خلا مرميس بفاندا وأخبرها بجميع حوادث النهار. فاصفر وجهها حين علمت أن محاكمته غداً ، ولكن مرميس قال لها : ان كل شيء قد أعد لفراره الليلة .

– وإن أبى الرئيس أن يهرب ؟
– لا بد له من أن يقبل .
– من يعلم .

– أنا فانه ان أبى ان يتبعنا عرض نفسه للقتل وعرضنا لأشد الأخطار .

فأطرقت فاندا برأسها وقالت : لا أعلم ما يكون ، فاني شعرت اليوم بكآبة لم أشعر بمثلها في ما مر بي من أدوار الحياة ، وان قلبي ينذرني بمصاب كبير .

فهز مرميس كتفه وقال : ان مناخ لندرا دفعك إلى هذه الكآبة والكآبة ولدت في قلبك هذه الهواجس .

- ربما صح ما تقول غير انه اذا حبط مشروعنا فما نصنع ؟
- يتولى إنقاذه الارلنديون والآن فهل لدينا خنجر ؟
- هو تحت ملابسي ..
- إذاً فلنصبر والله من وراء القصد .
وعندها فتح الباب ودخل الحاكم مع روكامبول .

- ٤٧ -

وكان روكامبول رابط الجأش باسم الثغر تبدو عليه السكينة والارتياح كأنه غير مهدد بالشنق في سجنه الرهيب ، بل كأنه ينادم أصحابه في نوادي باريس وهو يدعى الماجور أفاتار .

وكان مرميس يقلد سكينته ويرتاح ارتياحه ما خلا فاندا فانها كانت حزينة النفس منقبضة الصدر فشغل روكامبول بما رآه من ظواهر كآبتها .
أما الحاكم فانه جلس قرب مرميس كي يرى دائماً وجه الرجل العبوس ويراقبه ، فجعلا يلعبان نحو ربع ساعة دون أن يفوها بكلمة مما استدل منه الحاكم على شدة انهماكهما في اللعب الى أن بدأ مرميس يحدثه باللغة الجافانية فقال : لدي أنباء جديدة ايها الرئيس .

- لقد توقعت ذلك مما رأيته من كآبة فاندا .
فاعترض الحاكم وقال : كيف ذلك اعدتما الى الحديث بهذه اللغة الجهنمية ؟
فقال له مرميس : انك مخطىء يا سيدي الحاكم اننا لا نتكلم بتلك اللغة الاصطلاحية التي تخافها .
- ولكنكما تتحدثان باللغة الجافانية .

ـ هو ذاك ، ولكن حديثنا هذه المرة بلغة جافا الحقيقية .

ـ واية فائدة من الحديث بها بعد أن رجعت عن المزء بي .

ـ لأننا نلعب بالشطرنج على الطريقة الهندية ولا بد للتعبير عن المصطلحات بلغة الهنود .

فتنهد الحاكم وقال في نفسه : ان كل شقاء يعرف موعد انتهائه لا يعد شقاء وهذه آخر ليلة تعذباني فيها هذا التعذيب .

عند ذلك سأل روكامبول مرميس باللغة الجافانية فقال له : ماذا حدث ؟

ـ رأيت زعماء الارلنديين الأربعة والأب صموئيل ؟

ـ العلهم يعملون على انقاذي !

ـ نعم .. ولكنهم أبوا أن يخبروني عن خطتهم في انقاذك وعن الموعد الذي عينوه .

ـ وما يهمنا ذلك ؟

ـ يهمنا جداً .

ـ لماذا ؟

ـ لأننا نضطر الى لزوم السكينة بينما الأغراب يشتغلون .

فابتسم روكامبول وقال : اتعلم ما خطر لي يا مرميس ؟

ـ ماذا .

ـ لقد خطر لي ان الارلنديين يخفقون في مشروعهم وانكم تخيبون ايضاً فلم يبق الا ان اهتم بنفسي واحك جلدي بظفري .

ـ ما تعني بذلك ؟

ـ اعني اني سأنقذ نفسي بنفسي .

ـ متى !

ـ بعد ثلاثة أيام .

وعند ذلك بلغت الساعة الحادية عشرة فانصرفت زوجة الحاكم وبنتاه ،

فقال مرميس لروكامبول : انه بعد ثلاثة أيام يكون قد فات الآوان .

ـ لماذا ؟

ـ لأنهم سيحكمون عليك غداً ويشنقونك بعد غد .

فارتعش روكامبول ارتعاشاً لم يظهر فقال له مرميس : يجب يا سيدي ان تعذرنا وترضخ لمطالبنا فهذه اول مرة جسرنا فيها على عصيانك وان رجال العصابة سيكونون هنا بعد ربع ساعة .

فاتقدت عينا روكامبول وقال : أحق ما تقول ؟

ـ نعم، وقد عزمنا على اختطافك ان ابيت ان تتبعنا .

فتنهد روكامبول وقال ان اخلاصكم قد شفع لدي بعصيانكم وقد صفحت عنكم .

وكان الحاكم يسمع الحديث ولا يفهم كلمة منه .

وجعل ينظر الى الساعة قلقاً وينتظر بفارغ الصبر ان يحين الوقت لمعرفة حقيقة امم الرجل العبوس .

ولما حان الوقت وبات مرميس واثقاً من قدوم رجال العصابة خاطب روكامبول باللغة الانكليزية فقال له :

ـ اليس ما قلته لي اكيداً يا سيدي ، وهو انهم اذا حكمو عليك تعترف لهم باسمك الحقيقي ؟

ـ دون شك .

فصاح الحاكم صيحة فرح وقال : اذاً تستطيع أن تتكلم الآن .

فقال له روكامبول . لما يا سيدي الميلورد ؟

ـ لأنهم قرروا محاكمتك دون ان يعرفوا اسمك .

ـ لا اظنك تريد فيما قلته الا حملي على الاعتراف .

ـ كلا وهذا بلاغ ناظر الحقانية يثبت لك ما أقول .

فنظر روكامبول الى ذاك البلاغ الوزاري دون اكتراث وقال له : متى قرروا محاكمتي ؟

– غدا ..

– وأنت متى ترى انهم يشنقونني ؟

– بعد غد ..

– اذاً تريد ان تعرف حقيقة اسمي ؟

– اني التمس ذلك منك التماساً ورجائي ان تجيبني اليه فاني ما أردت لك الا الخير .

اذاً فاعلم اني ادعى روكامبول .

فوقف الحاكم لانذهاله وقال : انت روكامبول !

– انا هو بعينه .

وقد قال روكامبول هذا القول وهو يضحك ولكنه قبل ان يتم ضحكه سمعوا صوت استغاثة ضعيفة ثم سمعوا صوت وقوع جسم على الأرض ثم انقطع الصوت .

فهب الحاكم منذعراً وحاول ان يخرج الى مصدر الصوت غير ان مرميس حال دونه فقبض على عنقه واستل خنجره فقال . ان مشيت خطوة او صحت صيحة فأنت من الهالكين .

ثم صاح قائلاً : الي ايها الرفاق .

وهذه أول مرة وقف فيها الحاكم مثل هذا الموقف . فانه حين سمع ما قاله له مرميس احمر وجهه في البدء ثم توالت أوداج عنقه ، وجعل يجيل نظراً تائهاً بين روكامبول ومرميس وفاندا ، فيرى علائم اليأس والشدة بادية بين وجوههم .

ثم سمع ان الأصوات قد زادت في مطبخه . ثم رأى الباب قد فتح ودخل فريق من الرجال ، فانجلت الحقيقة لهذا الحاكم الساذج ، وأدرك سر المكيدة .

فقال في نفسه : إن الرجل الذي دعا نفسه روكامبول له شريك في المؤامرة وهو الرجل الفرنسي الذي هزأ بي وبالسفارة ، وهؤلاء الرجال الذين دخلوا هم أعوان هذين الرجلين .

وكان الذين دخلوا الى القاعة هم ميلون وبوليت وجواني وموريت ووليم ، فصافحهم روكامبول ، وسأل مرميس عن شوكنج ، فقال : اني كتبت اليه أن يحضر ، ولا بد ان يكون قد وصل الآن ، ولكني لم أره بعد .

أما الحاكم فقد كان في بدء عهده جندياً ، ولكنه اعتزل الخدمة العسكرية منذ عشرين سنة ، وتعود عيش الترف فذهبت حميته ولما رأى جميع اولئك الناس قد انقضوا على منزله انقضاض الصاعقة ، هلع قلبه ووهت رجلاه من الخوف ، فسقط جاثياً على ركبتيه وهو يقول : بالله رحماكم واشفقوا علي .

فضحك مرميس وقال إطمئن فاننا لا نقتلك إذا لزمت السكينة .

أما روكامبول فانه التفت الى ميلون وقال له : أوصلتم إلى هنا دون صعوبة ؟

كلا فاننا لقينا خادمة حاولت ان تستغيث فأوثقنا يديها ورجليها ووضعنا كامة في فمها .

– وغير ذلك ؟

-- لقينا أيضاً حارساً ، في الغرفة المجاورة لهـذه القاعة ، فاضطر وليم الى قتله

وكان مرميس لا يزال محتفظاً بالرئاسة مع وجود روكامبول ، فالتفت الى الحاكم وقال له : يسوءني يا سيدي أن أجازيك عن حسن ضيـافتك لي هذا الجزاء .

ولكني مكره على ما فعلت فيجب عليك الآن أن تذعن لأحكامنا إذا كنت تؤثر الحياة ، فافتح فمك في البدء لنضع فيـه الكمامة ، ثم اسمح لنا أن نوثق يديك ورجليك .

فبكى الحاكم بكاء الأطفال وقال : أتعاملني هذه المعاملة بعد ان عاملتك معاملة الأشراف ؟

– إني شريف في عيني وفي عيون من يعرفني .

ثم أخذ كامة من جيبه ودنا بها من الحاكم .

فأشار الحاكم إشارة مفادها انه يريد ان يقول كلمة ايضاً .

فقال له مرميس : قل يا سيدي ما تشاء وأوجز ما استطعت فان الوقت غير فسيح للجدال .

فقال بصوت مختنق أتعدني انك لا تسيء إلى امرأتي وابنتي ؟

– إني لا أسيء اليهن ولا اليك فما نحن من أهل الشر .

أتعدني أيضاً انكم لا تسرقوا شيئاً من المنزل ؟

فامتعض مرميس وقال : إنك تتهمنا بما نحن براء منه يا سيدي الحاكم ، وحقك أن تتهمنا بما تشاء بعد الذي رأيت منا . غير اننا لسنا لصوصاً بل نحن متآمرون .

فلم يجد هذا الحاكم المنكود بداً من الاذعان ، ففتح فمه ووضع مرميس فيه الكمامة وأوثق يديه ورجليه ووضعه برفق فوق مقعد ، ثم قال للجماعة : هلموا بنا الآن .

فقال له روكامبول : العل الباخرة متأهبة ؟

– إنها تنتظرنا عند مدخل الدهليز .

– والمس الن ؟

– إنها فيها .

فمشى روكامبول خطوة الى الباب ثم التفت وراءه إلى فاندا فوجدها صفراء الوجه كئيبة فقال لها : ماذ أصابك ؟

– لا أعلم ولكني خائفة .

فقال لها مرميس : أتخافين والرئيس معنا ؟

وقال لها روكامبول : هلمي واتبعيني

فمشت بالكره عنها وكان ساقاها يضطربان فشغـــل بال روكامبول عليها وقال . أخاف ان تكون أصابتها نوبة عصبية .

ثم تأبط ذراعها وسار بها تتبعهما الجماعــة حتى وصلوا الى المطبخ حيث كانت الخادمة ملقية مكمة فوقفت فاندا وقالت : لا تتوغلوا بالمسير .

فقال مرميس : رباه ماذا أصابها العلها جنت ؟

وكان روكامبول قد خاف خوفاً شديداً عليها فقال لها : لقد فات الأوان ولم يعد سبيلاً للرجوع .

فاصطكت أسنان فاندا وجعلت تقول : لا تتقدموا .. إني خائفة .

فجعل روكامبول ومرميس وميلون ينظر كل منهم إلى الآخر نظرات الاندهال .

ثم قال روكامبول لمرميس . ألا تعلم لماذا هي خائفة ؟

- كلا .

وقالت فاندا : إني أتوقع مصاباً .

فقال لها مرميس : ولكننا لا نستطيع البقاء هنا ، وأنت عارفة بموقفنا .

فتنهد روكامبول وقال : إن فاندا روسية تعتقد بأحاديث القلوب .

ثم التفت اليها وقال : هلمي بنا أيتها الحبيبة فان الله يحمينا .

فامتثلت له وسارت معه حتى وصلوا الى فم البئر ، فقال روكامبول مخاطباً رجال العصابة . إني رئيسكم وفي مثل هذا المقام يجب ان أكون آخر من ينزل بعدكم .

فقال له مرميس ولكنك تنزل قبلي .

- لماذا ؟

- لأنك قد تؤثر ان ينقذك الارلنديين فتفضل البقاء .

- إنك لا تزال أبله ، فقد أردت امتحان تلك الطائفة ، وعلمت انها لم تقدم على إنقاذي غير مكرهة طمعاً باسترضاء المس الن وأبيها ، وكفى ذلك برهاناً فانزل

فنزل الجميع واحداً بعد واحد ، فلما اجتمعوا كلهم في أسفل البئر تنهد ميلون تنهد الراحة وقال : لينسف الارلنديون السجن الآن كما يشاؤون ببارودهم .

فارتعش روكامبول وقال . أي بارود تعني ؟

إن الارلنـديين يحاولون نسف سجن نوايت ، هـذه الليلة ، بغية إنقاذك .

- كيف عرفت ذلك ؟

- قد رأيت مع بوليت براميل البارود عند جدران السجن ولكنهم قبل أن ينسفوه نكون قد بعدنا عن موقف الخطر .

وعادت فانـدا إلى إظهار مخـاوفها وهواجسهـا ، عندمـا سمعت هذا الحديث .

وكانت بولينا واقفة تنتظر بمصباحها ، وقد أهاج الخوف أعصابها . فلما رأت زوجها أسرعت إلى معانقته وقالت له لقد خفت وحدي خوفاً شديداً فلنسرع الآن بالخروج من هذا الدهليز بل هذا القبر .

فساروا جميعهم حتى بلغوا القاعة ذات الثلاثة دهاليز ، فوقفوا وسألوا مرميس في أي دهليز يجب أن يسيروا . فسار يتقدمهم في الدهليز المؤدي الى النهر .

ولكنهم لم يسيروا بضع خطوات حتى ارتجت الأرض تحت أقدامهم ، وسمعوا دوياً هائلاً يفوق دوي الصــواعق فسقطوا جميعهم على الأرض لقوة الارتجاج .

وصاحت فاندا قائلة : رباه هذا الذي كنت أخشاه .

وقال ميلون : هوذا دوي بارود الارلنديين

ثم سمعوا دوياً آخر من ورائهم فــالتفتوا وإذا بسقف الدهليز الذي كانوا يسيرون فيه قد تهدم وسقط صخور كبيرة .

فصاح مرميس بالرفاق قائلاً : أسرعوا راكضين فاننا قد ننجو .

فنهض الجميع وأسرعوا ركضاً إلى جهة النهر ، ولكن الأرض كانت لاتزال ترتج تحت أقدامهم والصخور تتساقط .

فنظر روكامبول الى ما حواليه بعينين تتقدان وقال ماذا جرى العل ساعتي

الأخيرة قد دنت ؟

فقال مرميس · كلا فان الطريق لا تزال مفتوحة

أما فاندا فانها اضطربت اضطراباً شديداً وقالت : بالله كفى لا تسيروا خطوة إلى الأمام .

فقال مرميس : كلا فلنمش .

فسار روكامبول في طليعة رجاله ، وهو يقـول : لنمش ، ويفعل الله ما يشاء .

وتبعه الرفاق يتقدمهم ميلون وهو يشتم الارلنديين أقبح شتم

ولكنهم لم يسيروا بضع خطوات حتى سمعوا دوياً آخر أشد من الأول ، فصاحت فاندا صيحة منكرة وسقطت على ركبتيها .

أما بقية الرفاق فقد جعل كل منهم ينظر الى الآخر نظرة ملؤها الرعب ، ما خلا روكامبول فانه لبث ساكناً هادئاً شامخ الأنف غير مكترث لهـذه الأخطار الهائلة .

- ٥٠ -

وقد طالت مدة تساقط الدهليز فان القبة كانت تسقط قطعاً ضخمة ، والأرض تهتز كل حين كما تهزها الزلازل .

وكانت فاندا راكعة تصلي ، وبولينا تعانق زوجها بوليت وتقول : إننا نموت معاً على الأقل .

وكان ميلون يهدد السماء بقبضته ويشتم الارلنـديين ، ومرميس ينظر الى روكامبول ، وروكامبول ساكن رابط الجأش ينظر الى هذه النكبة ويتوقع نهايتها بسكينة تدل على انه فوق الموت .

ثم خف الارتجاج وسكن الدوي وانقطع تساقط الصخور فقال روكامبول هيا بنا . . إلى الأمام

فاتقدت عينا فاندا ببارق من الأمل وقالت لقد نجونا .

فأجابها روكامبول . كلا إننا ما نجونا بعد ولكن تقدموا واتبعوا

وكانت الصخور قد تراكمت في ذلك الدهليز ، غير ان روكامبول كان يحمل مصباحاً فكان يسير أمامهم مستضيئاً به وهم يتبعونه آمنين لما رأوا من ظواهر سكينته .

فساروا كذلك نحو مائة خطوة وهناك وقف روكامبول إذ رأى برميلاً كبيراً ملقى أمامه في الدهليز .

وقد أيقن أنه برميل بارود ، لأنه رأى فتيلاً في طرفه ، فجعل يقول في نفسه : ما هذا البرميل ومن وضعه ؟ العل الارلنديين يعرفون طريق هذا الدهليز ؟

وكان الرفاق قد وقفوا لتوقفه فدنا مرميس من البرميل وجعل ينظر اليه منذهلاً من وجوده ويظن فيه الذي ظنه الرئيس .

أما روكامبول فانه بعد ان أتم فحصه قال: يستحيل ان يكون الارلنديون وضعوه في هذا الدهليز .

– ومن عسى يضعه اذا لم يكن الارلنديون ؟

ودار روكامبول حول البرميل يفحصه ايضاً وابتسم قائلاً : إنه كائن في هذا الدهليز قبل ان نخلق .

فدهش مرميس وقال : كيف ذلك ؟

– وهذا البارود فيه من نحو ۲۰۰ سنة .

– كيف يمكن ذلك ان يكون ؟

– أنظر الى خشبه قد نخره السوس ويكاد يفت اذا لمسته الأيدي .

– لقد أصبت .

ـ لا تمس الفتيلة فانها شديدة الجفاف لما تقـــادم عليها من الأعوام ، وهي تستحيل إلى غبار إذا لمستها .

ـ وعلى ذلك فان البارود قد فسد أيضاً لطول عهده .

ـ إنك مخطيء يا مرميس ، فإن قوة هـــذا البارود القديم تبلغ عشرة أضعاف البارود الجديد . فاحذروا ان تدنوا منه بمشاعلكم ، وسيروا الى الأمام .

ثم تقدمهم وتبعوه ، وكانوا كلما ساروا يشعرون بأن الأرض تنخفض مما يشير الى اقترابهم من النهر .

ولكن روكامبول توقف فجأة وقال : هذا الذي كنت أخشاه .

ذلك انه رأى حجراً ضخماً قد سقط من قبة الدهليز وسد مخرجه كما سدت الصخور مدخله من ورائهم .

وزاد رعب فاندا وقالت : هوذا قد بتنا أسرى .

فلم يجب روكامبول بشيء وقد ذهب كل رجائه فانه لا يستطيع ان يرجع الى الوراء خوفاً من الوقوع في قبضة الشرطة ، لأنهم لا بد ان يعلموا ما جرى للحاكم ويسرعوا الى مطاردتهم في الدهليز ، ولا يستطيع ان يتقدم الى الأمام لأن الطريق قد انسدت .

فتمعن هنيهة والرفاق وقوف حوله ينظرون اليه ، ثم قال : يجب أن تغلب أو تموت .

فقال ميلون : كيف يتسنى لنا ذلك الفوز ومن يستطيع دفع هذا الصخر الى النهر ؟

وقال مرميس : ألا نستطيع تكسيره ؟

فأجابه ميلون : كيف نستطيع ذلك وليس لدينا شيء من الآلات . ثم ألا ترى ان الصخر أصم صلد ؟

فقالت فاندا : أرى اننا سندفن أحياء في الدهليز .

فقال روكامبول : ربما

أما بولينا فإنها عانقت زوجها تبكي .

فقال لها بوليت : لا تبكي أيتها الحبيبة فاننا لم نقنط بعد كل القنوط ألا ترين الرئيس انظري إلى وجهه فانه يدل على أتم السكينة

أما روكامبول فانه لم يحفل بهذه الأخطار وقال لمرميس وميلون : إصغيا ألا تسمعان دوياً بعيداً ؟

— نعم .

— إن هذا الصوت صوت دوي أمواج التيمس ، فانه بات على مسافة قريبة منا ، وانظر يا مرميس الى قبة هـذا المكان الذي نحن فيه فانها منحوتة من الصخر الأصم .

- هو ذاك ولا خوف علينا من سقوطه

- ليس هذا الذي أريده ، ولكنك تعودت إطلاق البنـــادق ، اليس كذلك ؟

— دون شك .

— إذاً لنفرض فرضين ، أولهما ان هذا الرواق الذي نحن فيه قريب جداً من النهر

- ان ذلك أكيد لا سبيل فيه الى الافتراض .

— ولنفرض ان هذا الرواق يشبه حديد البندقية .

— نعم .

— وان هذا الصخر الذي تحشى بها فانه يسد سبيلنا .

— وبعد ذلك ؟

— إذاً لا يعوزنا لاطلاق تلك الرصاصة غير البارود والبارود عندنا .

فقال ميلون : العلك تريد نسف الصخر ؟

فقال روكامبول : كلا ، بل أريد دفعه الى النهر بقوة البارود ، كما تدفع

الرصاصة البندقية .

وقال مرميس : ان الفكر دقيق ولكني أرى تحقيقه صعباً .

ـ لماذا ؟.

ـ ان البارود لا يلقي وراءه ما يصده في الدهليز كما يلقى في البندقية ، فينفجر ولا يكون لنا بعد انفجاره غير الموت .

فقالت فاندا : لقد أصاب مرميس .

أما روكامبول فانه ابتسم وقال : بل أخطأ .

فنظر الجميع الى روكامبول نظرات تدل على القلق، أما روكامبول فانه كان ساكناً مطمئناً ، ونظر الى مرميس وقـــال له ان الذي ينقصك هو القوة للمقاومة اليس كذلك ؟

ـ دون شك كي تنحصر قوة البارود في الجهة المواجهة فتستطيع دفع الصخر وإلا فلا يكون إلا الانفجار .

ـ ولكن ذلك سهل ويسير ، فاني أنا وأنت وميلون نحمل ذلك البرميل الذي لقيناه في الدهليز ونضعه تجاه الصخر ونجعل الفتيل من الوراء أي من جهتنا دون شك .

ـ وبعد ذلك ؟

ـ وبعد ذلك نحمل جميع الذي نعثر به من الصخور التي تساقطت في هذا الدهليز ، فيبنى بها جداراً وراء البرميل تكون سماكته ستة أضعاف سماكة الصخر . وأنت بناء يا ميلون فكم تحسب ان هذا العمل يقتضي له من الزمن ؟

ـ ست ساعات على الأقل .

ـ ولكن الشرطة تفاجئنا قبل ساعة .

فهز روكامبول كتفيه وقال : أما الشرطة فلا نخشاها لسببين أحدهما ان الانفجار قد حدث مرتين وراءنا ولا بد ان يكون قد سد الطريق ، والثاني

أن هذا البوليس قد يعتقد اننا قتلنـــا جميعاً بهذا الانفجار ، فلا يشغل نفسه بمطاردتنا .

فقال ميلون : ولكن العمل يقتضي له ست ساعات من الوقت .

فابتسم روكامبول وقال : أتظن ان الوقت طويل ؟

– دون شك .

– إذاً لنفرض اننا بنينا الجدار بلحظة ، وانه مبني الآن ، بحيث لا يبقى علينا إلا ان نلهب الفتيل ، فيجب علينا بعدها ان ننتظر سبع ساعات على الأقل .

فنظر الجميع اليه ولم يفهموا شيئاً مما قال .

– ان هذا الدوي الذي نسمعه هو صوت المياه ، وهو يدل على شدة قربنا من النهر .

– نعم ..

– ذلك لأن النهر الآن في زمن المد ، ويجب علينـــا أن ننتظر لحين تنخفض المياه .

– لماذا ؟

– لأننا إذا دفعنا الصخر الآن بالبارود يلقى مقاومة عنيفة حين بلوغه الى فم الدهليز ، ولكنه لا يلقى شيئاً من ذلك حـــين تنحصر المياه وتبعد من فم الدهليز فيخف مجرى الهواء .

– إن كل الذي تقوله صواب ، وإنما بقي لي اعتراض ، وهو اننا اذا وضعنا برميل البارود بين الصخر الذي يعترضنا والجدار الذي نبنيه فكيف توصل اليه النار ؟

– بواسطة فتيل ندخله من منفذ نجعله في الجدار .

– وكيف نصنع هذا الفتيل ؟

– من قمصاننا .

- مهما كان طويلاً فانه لا يقي من يضع فيه النار من الأخطار فإن قمصاننا لا تكفي لإطالته الى حد اتقاء الخطر .
- إن ذلك لا يعنيك لأن الذي يضع النار هو أنا .

فصاح ميلون وفاندا ومرميس بصوت واحد : أنت ؟
فابتسم وقال لهم بسكينة :نعم أنا فإنكم تدعونني الرئيس ، ومن كان رئيساً يجب ان يطاع فهلموا الى العمل .

- ٥١ -

وقد تكلم روكامبول فلم يعد بد من الطاعة ، وفوق ذلك فان ساعة الخطر كانت لا تزال بعيدة

على أن مرميس رأى في عيني ميلون أنه عازم على العصيان ، فهمس في أذنه قائلاً : لنسرع الآن في بناء الجدار ، وسنرى بعد ذلك ماذا يكون .
- ليكن ما تريد .
وانصرف جميعهم الى العمل يداً واحدة .

وقد بدأوا بنقل البرميل ، وكان شديد الثقل بحيث اضطر الجميع أن يتعاونوا على نقله وإسناده الى الصخر .
ثم نزعوا قمصانهم ومزقوها قطعاً طويلة ، وصنعوا منها فتيلاً وأدخلوه في البرميل .
وعند ذلك قال روكامبول للجماعة : هلموا بنا الآن الى بناء الجدار .

ثم نظر في ساعته ، وكانوا جميعهم يحملون المشاعل في أيديهم ، فقال لهم : لا حاجة الى إنارة جميع هذه المشاعل ، فقد نحتاج اليها ، وفي واحد

منها الكفاية .

فأطفأ الجميع مشاعلهم ما خلا روكامبول

وقال ميلون لمرميس : أرى ان الرئيس شديد الحذر .

ــ وهو مصيب في حذره ، فاننا سنقيم هنا عدة ساعات . فإذا أنرنا جميع مشاعلنا احترقت قبل فراغنا من العمل وبتنا في ظلام حالك .

وكان ميلون قد تولى إدارة البناء ، فكان كل واحد من الجماعة يذهب ثم يعود بقطعة من الصخور ، فيرص ميلون هذه الصخور بعضها فوق بعض .

فلما بلغ ارتفاعه قدمين ادخلوا الفتيل ، بحيث بات طرفه الآخر في الخارج وعادوا الى البناء .

وما زالوا على ذلك أربع ساعات متوالية ، وهم يشتغلون بنقل الحجارة ويغنون ويضحكون ، كأنهم قد نسوا ما هم فيه . حتى بلغ هذا الجدار الى سقف الدهليز ، فبات برميل البارود محصوراً بين الجدار وبين الصخور .

غير ان سماكة الجدار كانت ستة أضعاف سماكة الصخور ، بحيث أن البارود حين ينفجر يصده ، فيدفع الصخور الى الأمام ، كما تدفع قنبلة المدفع .

وقد حسب روكامبول ان قوة المقاومة في الجدار تبلغ ثلاثة أضعاف قوتها في الصخور لأنه قطعة واحدة وذلك كاف لدفعه .

وعند ذلك نظر في ساعته .

فقال له ميلون : أحان الوقت ؟

ــ كلا .

ــ ولكننا نشتغل منذ زمن طويل .

فأجابه : إن هذا الزمن الطويل لم يزد على أربع ساعات ، ولم يحن بعد

وقت الجزر .

فتنهد ميلون ثم قال : كم يجب ان ننتظر بعد ؟

- ثلاث ساعات .

فتنهد ميلون أيضاً وقال . إنه وقت كاف لقدوم رجال الشرطة .

فلم يعبأ روكامبول بهذا الخطر ، وقال له بسكينة : اني أرجو أن لا يحضروا .

ثم جلس فوق صخر وكان رفاقه مجتمعين حوله فقال لهم اصغوا إلي الآن أيها الرفاق .

فسكتوا جميعهم كأن على رؤوسهم الطير ، ليسمعوا حديثه في هـذا الموقف الرهيب .

فقال روكامبول إني واثق من النجاة بهذه الطريقة التي ابتكرتها غير اني قد أكون مخطئاً في حسابي هذا .

فأجابه مرميس : لا أظن انك أخطأت .

- وأنا أرى ما تراه غير ان العاقل يجب ان يتوقع الخيبة والحرمان قبل ان يتوقع النصر والفوز فإذا كان مخطئاً في حسابه فلا يكون قد أخطأ مرتين بركونه الى الفوز وعدم توقع الخيبة

- هو ذاك يا سيدي وما زلت مرشدنا الحكيم .

- إذاً فاعلموا أننا إذا لم نستطع دفع الصخر الى المياه من منفذ الدهليز فلا بد ان يحدث انفجار البارود تهدماً جديداً في الدهليز .

- وأنت أيها الرئيس ؟!

- إني لا أتكلم عن نفسي الآن فاصغوا إلي .

وقد قال هذا القول بلهجة السيادة المطلقة وبرقت عيناه ، فأطرق جميعهم الرؤوس ولم يجسر أحد على الاعتراض .

وعاد روكامبول الى الحديث وقال : إنه حين تبلغ النار الى البرميـل

وينفجر بارود، لا بد ان يحدث أحـــد الأمرين ، وهو إما ان يدفع الصخر اندفاع قنبلة المدفع الى النهر ، فيتيسر لنا الخروج من هـذا الدهليز . .

فقاطعه مرميس قائلاً : وإما ان تتهدم القبة فتسحقنا جميعاً .

– كلا انها لا تسحقكم أنتم بل تسحقني أنا .

فقالت فاندا : وهذا الذي لانريده أيها الرئيس فإما أن نعيش معاً أو ندفن في قبر واحد .

– ولكن هذا الذي أريده أنا .

فقال ميلون : إني أجد طريقة جديدة بسيطة لحل هذه المشكلة أبديها إذا أذنت لي .

– ما هي ؟

– هي أن نقترع فمن أصابته القرعة تولى إشعال الفتيل .

– إنك مصيب في رأيك في الظاهر ولكنك مخطىء في الحقيقة .

– لماذا يا سيدي ؟

- لأنه اذا تهدمت القبة بالانفجار ، يستحيل على من يكون في القـــاعة ذات الدهاليز الثـلاثة ان يهربوا ، ولا بد لهم من السقوط في قبضـة البوليس .

فإذا كنت بينكم وقبض علي البوليس أخذني تواً الى المشنقة واذا كان لا بد لي من الموت فإني أوثر الموت في هذا المكان .

أما أنتم فإنكم لم ترتكبوا جرائم ولم يحكم عليكم بالاعدام فإن الحكومة قد تسجنكم أياماً معدودة ثم تطلق سراحكم .

فقال ميلون : من يعلم ، فقد يحسبون احتيالنا في إنقاذك من الجرائم التي تعاقب عليها بالاعدام .

– ولكني أنا أعلم فإني أدرى منكم بالشرائع الانكليزية، وليس من العدل

ان يعرض احد منكم نفسه للموت من أجلي لا سيا حين لا يكون لي رجاء بالحياة إذا نجوت من الانفجار .

فقالت فاندا : واية فائدة لنا من الحياة بعدك ؟

ـ انكم تتمون أعمالي .

فاستاء ميلون لهذا الكلام وقال: أتريد أن نخدم اولئك الأرلنديين الزعانف وهم السبب في ما صرت اليه ؟

فأشار اليه روكامبول بيده وقال له : اسكت .

ثم التفت إلى فاندا وقال لها . اصغي إلي يا فاندا .

فأطرقت فاندا برأسها خشية أن يلتقي نظرهـــا بنظره وقالت : تكلم يا سيدي ..

ـ إذا صح حذري وحدث ما أخشاه أي إذا سحقتني هذه الصخـور فاذهبي أنت بعد أن يطلق سراحكم إلى مس الن .

ـ انها تنتظرنا في الباخرة .

ـ لا بأس فانك تبحثين عنها حتى تجديها .

ـ سأمتثل لأمرك .

ـ ثم تذهبين معها إلى روتشريت في الضفة الثانية من التيمس قرب النفق

ـ اني أعرف هذا المكان .

ـ هناك زقاق في ادم ستريت فتدخلان فيه وتبحثان عن منزل نمرته ١٧ وهو منزل ذو ثلاثة أدوار تقيم فيه امرأة تدعى بياتري فتريها هذا

ثم أخرج نوطاً صغيراً من الفضة كان معلقاً في عنقه بخيط من حرير ودفعه لفاندا ، فأخذته وقالت وبعد ذلك ؟

ـ وعند ذلك تعطيك بياتري أوراقاً .

ـ سأفعل .

فنظر روكامبول في ساعته وقال : في أي يوم نحن من الشهر ؟

فقال مرميس : في الرابع عشر .

فتمعن روكامبول هنيهة ثم قال : اني اخطأت في حسابي فان زمن الجذر يبتدىء اليوم قبل ساعة من الموعد الذي حسبته وعلى ذلك فلا بد أن تكون المياه قد انحسرت الآن عن مدخل الدهليز .

فارتجفت فاندا وقالت : إذاً آن الأوان .

- بل لا يزال لدينا عشر دقائق .

وعند ذلك ركع ميلون أمام روكامبول وقال له : استحلفك بالله يا سيدي أن تجيبني إلى رجاء التمسه منك .

- تكلم .

- دعني ابقى معك .

- ليكن ما تريد .

فصاح ميلون صيحة فرح وجعل الجميع يبكون .

فدنا روكامبول عند ذلك من فاندا فضمها الى صدره بلهف شديد ثم عانق كل واحد من الآخرين عناقاً اسال الدموع من عيونهم وعادوا جميعهم الى رجائه أن يأذن لهم بالبقاء معه .

فنظر اليهم روكامبول تلك النظرات الساحرة وقال لهم : ان الوقت قد أزف فابتعدوا .

فابتعد جميعهم سائرين الى القاعة .

وكانت فاندا تسير في آخرهم وهي تلتفت كل خطوة لترى روكامبول .

أما روكامبول فكان يصيح بهم قائلاً : اسرعوا بالابتعاد حتى أيقن انهم بعدوا عن موقف الخطر نظر الى ميلون وقال له : ألأنت مستعد ؟

- كل الاستعداد .

- ألا تشعر بشيء من الندم ألم تخف من الموت ؟

- أن الموت معك يحلو .

- إذاً لنشرع بالعمل .

وعند ذلك ادنى مشعله من الفتيل فالتهب ووقف ينتظر الانفجار الهائل وقفة من لا يكترث للموت .

فكان الفتيل يشتعل ببطء وتتقدم النار فيه تباعاً حتى وصلت إلى الجدار الفاصل بينه وبين البرميل .

وكانت فاندا لا تزال تسير وراء الجميع وهي تلتفت كل حين ويكاد فؤادها ينفطر إشفاقاً على روكامبول ، بينا كان رفاقها يتقدمون حتى كادوا يبلغون القاعة .

فصاح بها روكامبول : إسرعي .. اسرعي .

وكان مرميس يتقدم الجماعة فأسرع الخطى واقتدى به الرفاق .

ولما وصلوا إلى قرب مدخل القاعة وقف مرميس وقال لفاندا : إنا نبعد ثلاثمائة متر عن البرميل ، ولكن الدهليز مستقيم بحيث نستطيع مشاهدة الانفجار .

ثم وضع المشعل الذي يحمله وراء ظهره فرأى روكامبول وميلون بنور المشعل الذي كان معهما .

وكانوا واقفين الواحد بإزاء الآخر ينتظران بلوغ النار إلى البارود بملء السكينة .

فوجف قلب فاندا وارتعدت فرائصها

ولم يكن خوفها على نفسها فقد برهنت على بسالتها في كثير من المواقف المحفوفة بالأخطار ، وإنما كانت واجلة على ذلك الرجل الذي تدلهت بحبه حتى باتت تعبده عبادة .

ومضى على ذلك عشر دقائق مرت بتلك العصابة مرور الأدهار لما تولاهم من الجزع على روكامبول وميلون .

ثم رأى مرميس ان الوقت قد حان فقال لرفاقه نامو كلكم على الأرض .

فقال جواني : لماذا ؟

— لأن قوة الانفجار تلقيكم على الأرض إذا كنتم وقوفاً فتنكسر أضلاعكم .

فامتثل الجميع له وانبطحوا على الأرض ما خلا فاندا.

فسألها مرميس أن تقتدي بالجماعة فقالت . كلا إني أحب أن أرى .

وظلت واقفة تنظر إلى روكامبول وميلون .

فقال لها مرميس : وأنا أبقى أيضاً كي أرى ما ترين .

ثم وقف جنبها بينما كان الجميع نياماً فما مرت بها دقيقة حتى اتصلت نار الفتيل بالبرميل فسمعا دوياً شديداً لا يذكر معه قصف الرعود .

وكان الاهتزاز شديداً حتى ان مرميس وفاندا على تماسكهما سقطا على الأرض . غير انهما لم يغمضا عيونهما فتجلى لهما ما كانا يحسبانه من العجائب .

ذلك أنهما رأيا أن المشعل الذي كان يحمله روكامبول قد انطفأ وظهر لهما بدلاً منه نور أبيض مستدير كالقمر تألق من آخر الدهليز .

وقد دفع البرميل الصخر إلى الأمام والجدار إلى الوراء في حين واحد .

وعلى ذلك فإن الرئيس لم يخطىء في حسابه حين جعل الدهليز مدفعاً والصخر قنبلة .

وكان هذا النور المستدير الذي ظهر لهما ضوء النهار بدأ من فم الدهليز المستدير الذي ينتهي عند نهر التيمز .

وبعد لحظة رأيا روكامبول وميلون قد نهضا فان قوة الارتجاج القتهما على الأرض ، ثم سمعا صوت الرئيس يناديهم ويقول تقدموا .. إلى الأمام وهو يتقدم مع ميلون إلى النهر .

فصاح مرميس برفاقه وقد أخذ الفرح منه كل مأخذ لقد فاز الرئيس ... هلموا بنا ... إلى الأمام ، فنهضوا جميعهم وساروا وراء مرميس يتبعون أثر روكامبول وميلون .

وكأنما الله قد أراد أن لا يسيروا بضع خطوات حتى رأوا أن ذلك النور

الأبيض المستدير توارى .

ثم شعروا باهتزاز الأرض فوقف مرميس في مقدمة رفاقه والعرق البارد ينصب من جبينه .

ذلك ان قبة الدهليز الذي كان فيه روكامبول قد سقطت وتراكمت الصخور فسدت المنفذ أيضاً وحجبت ذلك النور الذي كان دليل النجاة .

فلما أيقن رجال العصابة من سد المنفذ ساد فيهم الرعب .

وكانت المشاعل قد اطفأت والظلام محدقاً بهم والأرض لا تزال ترتج ودوي سقوط الصخور يصل إلى مسامعهم على مسافة ٥٠ متراً .

فقالت فاندا : لقد هلكنا وهذه الساعة الأخيرة قد دنت .

فقال مرميس : من يعلم فقد يفتح الله لنا باباً للنجاة .

ثم أضاء المشعل وقال : يجب أن نرى أين نحن وكيف نسير

وهنا انقطع دوي التهدم وبطل اهتزاز الأرض فتقدم مرميس من الرفاق وقال : إتبعوني .

فتبعوه وهو يسير أمامهم وينير طريقهم وكانت زوجة بوليت قد أغمي عليها من الرعب فحملها وسار في أثر الجماعة .

ولبثوا سائرين حتى وصلوا إلى موضع البرميل فمشوا فوق الصخور إلى الجدار الذي هدمه الانفجار فرأوا هناك تشقق الجدار في الجهة التي انـدفع فيها الصخر .

ثم واصلوا السير حتى وصلوا إلى المكان الذي رأوا فيه احتجـاب النور الأبيض المستدير فوجدوا صخراً هائلاً أعظم من ذلك الصخر الذي دفعه البرميل قد انتزع من القبة وسد الدهليز .

فجعل مرميس وفاندا ينظر كل منهما إلى الآخر نظرات تشف عن الرعب وكلاهما يقول بعينيه دون أن يجسر على الكلام ، ترى ماذا أصاب الرئيس العله سحق تحت هذا الصخر ، او ان الصخر سقط وراءه ففصل بينه وبـين

رفاقه وسار هو الى النهر .

وكأنما كل منهما قد فهم قصد الآخر وقد تغلب الرجاء على فاندا فقالت: أرجو أن يكون قد نجا .

– وأنا أرجو رجاءك .

ثم نظر إلى رفاقه وقد أخذ الرعب منهم كل مأخذ فقال : لا يجب أن يخطر لنا التقدم في بال فإنكم ترون الطريق مسدوداً .

فقال جواني ، إذاً لنعد الى القاعة التي كنا فيها وسنرى ما يكون بيننا وبين البوليس إذا قبضَ علينا .

فلم تجب فاندا بكلمة فإن هذه النكبة الجديدة انهكتها وقد عاودها الشك بعد ذلك الرجاء فكادت تجن من جزعها على روكامبول.

وكأنما أولئك الرفاق المخلصين قد نسوا ما هم فيه من الأخطار .

وانصرف اهتمامهم إلى روكامبول فقال أحدهم : ترى ماذا أصاب الرئيس ؟

فأجابه جواني : لا شك عندي أنه نجا مع ميلون .

ولم يشترك مرميس بهذه المباحثة ، ولكنه سار أمام الجماعة ساكناً فتبعوه إلى القاعة التي كانوا فيها .

وهناك جمعهم وقال لهم : يجب ان نتباحث في أمورنا كي نقر عـلى رأي نرجو أن يكون صواباً . ثم أشار لهم إلى ذلك الدهليز الذي جاؤوا منه كأنه يشير عليهم الرجوع منه .

فقال جواني : العلك تريد أن نرجع إلى نوايت ؟

وقال وليم : إنه بئس الرأي فاننا اذا عدنا اليه نكون قد سلمنا أنفسنا للبوليس .

فقال جواني . وأي خطر علينا من ذلك ؟

- هو انهم يرسلوننا في البدء الى سجن الطاحون .

– ولكنهم يطلقون سراحنا بعد ذلك .

– أما انتم فقد يطلقون سراحكم وأما أنا فإني انكليزي .

أما بوليت فانه أضاء مشعله وقال : اني سأتفقد هنيهة هذا الطريق الذي تشيرون أن أسلكه .

ثم تركهم وسار نحو خمسين خطوة وعاد فقال : لم يبق سبيل الى الجدال فقد قطعت جهيزة قول كل خطيب .

– كيف ذلك ؟

– ذاك ان القبة قد تهدمت ايضاً في الدهليز المؤدي الى السجن فسدت الطريق .

فقال جواني : إذاً لقد أصبحنا أسرى بين الحاجزين .

وقال مورت : بل حكم علينا بالموت جوعاً .

فهز مرميس كتفيه وقال : ارى انكم تسرعتم باليأس .

فتطاولت اليه الأعناق وحومت عليه الأبصار وقالوا جميعهم : كيف ذلك؟

– ذاك ان هذه القاعة تحتوي على ثلاثة دهاليز احدها يؤدي الى النهر والآخر الى السجن وكلاهما مسدود ، غير انه بقي دهليز ثالث لا نعلم الى أين يؤدي ولكننا لم نطرقه بعد .

فقالت فاندا لقد أصبت .

– وقد يفتح لنا باب النجاة فهلموا بنا ندخل اليه .

ثم سار أمام الجماعة فتبعوه ودخلوا في ذلك الدهليز فكانوا يسيرون فيه صعداً خلافاً للدهليزين السابقين .

وكان مرميس يسير امامهم وهو يعللهم برجاء وجود منفذ فيسيرون وراءه يحثهم الأمل وقد أناروا كل المشاعل للاهتداء .

وفيما هم سائرون وقف مرميس فجأة وقال لهم بصوت منخفض : اسكتوا ثم أصغى هنيهة وقال : أحبسوا أنفاسكم ولا يتحرك أحدكم ذلك انه سمع صوتاً ولكن هذا الصوت لم يكن صوت انفجار أو دوي تهدم

بل كان صوتاً بشرياً .

فسكت الجماعة وجعل مرميس يصغي ويقول في نفسه : العل ذلك صوت رجال الشرطة أم هي أصوات الارلنديين القادمين لانقاذ روكامبول ؟

وبينا هو حائر في أمر هذه الأصوات يشير الى رفاقه بالصمت ظهر له نور من بعيد ثم جعل هذا النور يقترب شيئاً فشيئاً حتى تبين حامله لمرميس فصاح بصوت الفرح المستبشر قائلاً : لقد نجونا .

ورددت الجماعة صوته دون ان يعلموا كيف قدرت لهم النجاة .

ذلك ان هذا الرجل الذي كان يدنو منهم يحمل مصباحاً كان شوكنج يصحبه أحد زعماء الأرلنديين .

انتهت رواية « روكامبول في السجن »

ويليها الجزء السادس عشر من روكامبول « مذكرة مجنون »



الجزء السادس عشر

مذكرة مجنون

مذكرة مجنون

- ١ -

لقد تركنا مرميس في ختام الرواية السابقة « روكامبول في السجن » يصيح برفاقه قائلا . لقد نجونا فهذا شوكنج قادم الينا من الدهليز .

وتركنا روكامبول وميلون في ذلك الدهليز فقد تساقطت الصخور وسدت منفذه وحجبت روكامبول وميلون عن رفقائهم فلا يعلمون أهما من الأحياء فيرجوا أم هما من الأموات فيبكون .

ولم يكن مرميس قد خدعته عيناه فانه رأى شوكنج حقيقة يسير جنباً الى جنب مع رجل آخر عرفه أيضاً انه احد زعماء الارلنديين الأربعة الذين رآهم مجتمعين عند الأب صموئيل .

وعنـــد ذلك التفت الى رفاقه وقال لهم : لنتقدم الآن اليهما فانهما من الأصدقاء .

وكان شوكنج قد رآهم ايضاً وعرف منهم مرميس فأسرع اليهم مع رفيقه وصل الى مرميس فعانقه بفرح عظيم وقال له اننا نبحث عنكم منذ عهد بعيد وكنا نخشى ان تكون القباب قد سقطت عليكم .

ثم أجال نظره بين العصابة باحثاً عن روكامبول فلم يره فقال ، أين الرجل العبوس ؟

فأطرق مرميس برأسه دون أن يجيب .

فذعر شوكنج وقال : ويلاه العله مات ؟

– إننا لا نزال نرجو أن يكون حياً .

– كيف ذلك وما تعني ؟

– تركناه يتقدمنا مع ميلون في الدهليز المؤدي إلى النهر وقد فتح سده بالبارود ، وفيما هو يتقدمنا وبيننا وبينه نحو مائة متر تهدمت القبة فسدت الطريق وحالت بيننا وبينه فلا ندري أسحقه الردم أم سلم منه فنجا .

فابتسم شوكنج وقال : أما أنا فاني مطمئن عليه فاني أعرف الرئيس حق العرفان فإذا كنتم لم تروه صريعاً فهو قد نجا دون شك .

فاطمأن الجميع ما خلا فاندا وسأله مرميس · كيف وصلت إلى هنا ؟

– اني جئت من باريس كما أمرتني إلى المخزن الذي اشرت اليه فوجدته مقفلاً فذهبت إلى الأب صموئيل فجمعني بالارلنديين العازمين على إنقاذ الرئيس.

والتفت الزعيم الارلندي عند ذلك إلى مرميس وقال له : إننا نبحث عنكم وإذا كنتم قد أصابتكم كوارث فان الذنب ذنبكم .

فأجابه مرميس بلهجة تدل على الانفة : أتظن اننا أذنبنا ؟

– دون شك فانكم لو وثقتم من صدق نيتنا على إنقاذ الرجل العبوس لما حاولتم إنقاذه .

فاعترض شوكنج حديثهما وقال : ليس هذا الوقت وقت العتاب والخصام إذ يجب أن نخرج الآن من هذا الدهليز فان الصخور لا تزال تتساقط والخطر فيه شديد .

فقال مرميس : ولكن من أين دخلتم إلى هذا الدهليز ؟

فأجابه شوكنج من المنفذ الثالث .

فذهل مرميس وأيقن أن شوكنج يعرف المنفذين الآخرين،فقال له شوكنج ان الارلنديون يعرفون هذا الدهليز كما تعرفونـه ، وكان في نيتهم أن ينسفوا جانباً من سجن توايت لو لم تتسرعوا .

ــ ولكننا لم نعرف خطتهم .

فقال له الزعيم : أنا أبسطها لك فإننا وضعنا ثلاثة براميل من البارود في الدهليز ، وثلاثة عند جدران السجن فوضعنا النار في البدء في براميل الدهليز وأبقينا الآخرين لاسقاط جدران بيت الحاكم .

ــ ولكن ما كانت غايتكم من ذلك ؟

ـ انه حين ينهد بيت حاكم السجن يضطرب رجاله ويختل النظام فنهجم على السجن وننقذ الرجل المحبوس .

ــ وماذا فعلتم ببراميل السجن ؟

ــ إننا حين علمنا انكم مع الرجل المحبوس في الدهليز نزعنا الفتيـــل من برميلين فلم ينفجر غير برميل واحد .

ــ ولكن بيت الحاكم قد تهدم .

ــ كلا ، بل سقط بيت يجاوره ولم يعلموا إلى الآن كيف كان سقوطه .

والسجن

ــ لم يصب بشيء وقد انقذوا الحاكم فأخبر كيف انكم قيدتموه وهربتم من البئر إلى الدهليز فنزلوا من الدهليز بغية مطاردتكم ولكنهم اضطروا للرجوع.

ــ لماذا ؟

ــ لأن تساقــط الصخور كان لا يزال متصلا ، ثم لأنهم وجدوا الدهليز مسدوداً .

ــ ولكنكم أتيتم من طريق آخر ؟

ـ دون شك .

ـ إذاً نستطيع الخروج من هذا الدهليز ؟

- عندما تريدون فاتبعوني إن شئتم .

ثم سار أمامهم والعصابة في أثره ، وبعد ربع ساعة وصلوا إلى سلم فقال مرميس : إلى أين يؤدي هذا السلم ؟

- إلى قبو في خمارة .

- وهذه الخمارة ..

- هي خمارة يتولاها أحد زعماء الارلنديين .

- أين هي كائنة ؟

- في شارع فارنجدون .

- إذاً نحن في شرق سجن نوايت ؟

- هو ذاك .

فبدأوا النزول من السلم وكان شوكنج في الطليعة وفاندا في المؤخرة وهي كأنها قد أودعت روحها في ذلك الدهليز فانها كانت تتلفت من حين إلى حين وتقول في نفسها · رباه ما عسى ان يكون قد اصابه انه قد يكون الآن تحت صخر ضخم يردد النفس الأخير .

وكان هذا السلم مؤلفاً من ثلاثين درجة وهناك باب فتحه شوكنج فدخل يتبعه الجميع إلى قبو دخلوا منه إلى خمارة لم يكن فيها غير صاحبها فجعل هذا الرجل ينظر اليهم باحثاً عن الرجل العبوس .

وقال مرميس لشوكنج : أنحن الآن في شارع فارنجدون ؟

- هو ذاك .

- أنحن فوق فليت ستريت أم تحته ؟

- تحته .

- إذاً نحن قريبون جداً من النهر .

- إننا على بعض خطوات منه .

- إذاً هلم بنا للبحث عن الرئيس .

ـ ان ذلك سهل ميسور فإن لدي قارباً في النهر .

فقالت فاندا : اني اذهب معكما .

وقال جواني قولها واقتدى به رجال العصابة فقال لهم مرميس : كلا لا يذهب أحد غير فاندا ، أما انتم فانتظروا عودتنا في هذه الخمارة

فلم يجدوا بدأ من الاذعان لأنه كان يتولى رئاستهم في غياب روكامبول

وعند ذلك خرج شوكنج ومرميس وفاندا من تلك الخمارة إلى ضفة النهر، فوجدوا قارب شوكنج ، فنزلوا اليه وتولى شوكنج إدارة المجـازيف فسأل مرميس الى أين يريد الذهاب ؟

ـ الى المدخل الأيمن للدهليز .

ـ اني أعرف موضعه فهو لا يبعد اكثر من عشر دقائق .

وما زال القارب يسير بهم حتى عثر بأدغال فقال شوكنج هوذا مدخل الدهليز .

فنظر مرميس الى تلك الأدغال وقال له : لم يخرجا من الدهليز .

فشهقت فاندا بالبكاء وقالت انهما قتلا .

أما مرميس فانه لم يجبها ولكنه أزاح الأدغال وفتح ممراً فيها ، ثم وثب من القارب الى الأرض وقال لشوكنج :

ـ الا يزال المصباح معك ؟

ـ نعم ولكننا لا ننير الا في داخل الدهليز .

ثم نزل شوكنج وفاندا فدخلوا الى الدهليز وانار شوكنج المصباح فلم يكد نوره يضيء حتى رجعت فاندا الى الوراء وصاحت صيحة ذعر .

- ٢ -

ولقد يتبادر الى الأذهان ان فاندا ومرميس وشوكنج قد رأوا جثتي روكامبول وميلون فذعروا هذا الذعر .

على انهم لم يروا شيئاً من ذلك ، بل الذي دعاهم الى هذا الرعب انهم رأوا صخراً هائلاً قد سد مدخل الدهليز فحسبوا ان التهدم الذي رأوه وراء روكامبول وميلون قد اتصل ايضاً أمامها فسحقهما .

وقد كان البرهان جلياً فان مرميس قد وثق بعد ان فحص الأدغال انهما لم يخرجا من الدهليز ، ولكن خطر له أن يمتحن إمتحاناً آخر وهو ان مياه التيمس تدخل حين المد الى هذا الدهليز فتبل أرضه بحيث تنطبع عليها آثار الأقدام .

فأخذ مرميس المصباح من يد شوكنج وجعل يفحص التراب فلم يجد أثرا للأقدام وقد رأى فوق ذلك ان الصخر غير مبتل فاستدل من هذا ان سقوطه كان بعد زمن المد ، اي بعد انحسار المياه ، فجعل كل من الثلاثة ينظر الى الآخر نظرات تشف عما داخل قلوبهم من اليأس ، إذ لم يبق مجال للشك لديهم بأن الصخور قد سحقت روكامبول ورفيقه حين فرارهم ، ولكن بقي لهم رجاء واحد ، وهو ان صخور القبة قد تكون سقطت من خلفهما ومن ورائهما فباتا سجينين بين صخرين .

وجعلت فاندا تنظر الى مرميس ثم تعض كفها من اليأس وتقول رباه ماذا نفعل ؟

أما مرميس فكان تائهاً في تفكيره ثم خطر له خاطر فأعاد المصباح الى شوكنج ودنا من تلك الصخور المتراكمة التي سدت مدخل الدهليز فاضطجع قريباً وأصغى .

فكانت فاندا تنظر اليه دون أن تعلم ما يريد ، أما مرميس فانه جعل

يصغي وعلائم اليأس مرتسمة فوق وجهه ولكنه لم يطل الاصغاء حتى أشرق وجهه بنور الأمل وقال : إني أسمع صوتاً .

فأسرعت فاندا وقالت له بصوت خنقته العبرات : ماذا تسمع ؟

ـ إني أسمع صوتاً بعيداً منقطعاً يشبه صوت البشر ويصل الى أذني كصوت نقط المياه المتساقطة .

فأصغت فاندا مثله وقالت وأنا أسمع أيضاً ما تسمع ، ولكن الذي أسمعه صوت إنساني .. إصغ .. إصغ انه صوت إثنين لا واحد ، وهما يقتربان .

وبعد هنيهة صاحت فاندا صيحة فرح فقال لها : ماذا سمعت ؟

ـ صوتها يا مرميس . صوت روكامبول وميلون .

ثم جعلت تصيح منادية روكامبول ، فقال لها مرميس : أسكتي واصغي فإن النداء لا يفيد

وقد أوشكت فاندا أن تجن من فرحها فانقطعت عن الصياح كي يتسنى له أن يسمع ما سمعته .

وبعد هنيهة قال لها : لقد أصبت فهذا صوت الرئيس .

ـ لماذا لا تريد أن أناديه ؟

ـ لأنه لا يسمعك .

ـ كيف نحن نسمعه وهو لا يسمعنا ؟

ـ ذلك لأنه في دهليز بين صخرين ، فيخرج لصوته رنين فيصل الينا . أما نحن فإننا في الهواء الطلق ، فيضيع صوتنا في الهواء قبل ان يصل اليه .

فاقتنعت فاندا بهذا البرهان الجلي ، وتابع قائلاً : يظهر من لهجة حديثهما أنهما لم يصابا بجراح .

ـ هو ذاك فاني لا أسمع توجعاً ولكنهما أسيران بين السدين فإذا لم يتيسر

لهما الخروج ماتا من الجوع

– ولكننا ننقذهما .

– كيف ؟

– إننا لا نستعمل البارود دون شك ، ولا حيلة لنا باستعمال الآلات وفتح منفذ في هذا السد . ولكن هلمي بنا نعود الى القارب ، فمتى صرنا في عرض النهر أخبرك .

أما شوكنج فانه لم يفهم كل الحديث ، لأنهما كانا يتكلمان باللغة الفرنسية ولكنه علم ان الصوت كان صوت روكامبول وميلون .

ثم ذهب الثلاثة الى الباب ، ودفع شوكنج القارب ، بأمر مرميس ، الى عرض المياه .

وجعل مرميس يراقب البيوت الكائنة فوق الصخور التي سمعوا من ورائها صوت روكامبول .

حتى اذا عرف ما أراد ان يعرفه عاد الى البر فنزلوا جميعهم من القارب وذهبوا الى الخمارة حيث كان ينتظرهم الرفاق .

فأمر مرميس ان ينتظروهم أيضاً فيها ، وخرج من تلك الخمارة مع فاندا وشوكنج الى تلك المنازل التي كان يفحصها من عرض النهر ، وجعل يبحث فيها عن منزل حتى عثر عليه ، فقال لفاندا إني إذا لم أكن مخطئاً في حسابي فلا بد أن يكون هذا البيت فوق الصخر ، الذي سمعنا من ورائه صوت روكامبول .

ثم دنا من البيت ففحص بابه وعاد فقال· لقد بت الآن واثقاً فان هذا البيت لزعيم ارلندي يدعى فرلان وسيكون خير معين لنا على إنقاذ الرئيس .

- ٣ -

ولنعد الآن إلى روكامبول ، فقد كان آخر عهد القراء بـــه أنه وضع النار في الفتيـــل (راجع روكامبـــول في السجن) ، وابتعـــد عنه أصحابه الى القاعة ذات الثلاثة دهاليز ، فبقي مع ميـــلون ينتظر بلوغ النار إلى برميل البارود .

فلما اتصلت به النار وحدث ذلك الانفجار الهائل اهتزت الأرض اهتزازاً عنيفاً القى روكامبول وميلون على الأرض .

ولكنهما نهضا على الأثر ، ولم يكد روكامبول ينظر الى نتيجة الانفجار حتى صاح صيحة المنتصر الفائز ، ونادى أصحـــابه يقول : إتبعوني فقـــد فتح السد .

ذلك ان البارود دفع الصخر الى النهر وظهر ضوء النهار من السرداب فجعل يعدو مع ميلون .

ولكنهما لم يعدوا عشرين خطوة ، حتى تهدمت قبة الدهليز من ورائهما وتراكمت الصخور ، فحالت بينهما وبين رجال العصابة الذين كانوا يركضون في أثرهما .

فذعر روكامبول وهم بالرجوع الى أصحابه فوجد السد محكماً بينه وبينهم فتمعن هنيهة ثم قال لميلون : هلم بنا نخرج الآن من هذا الدهليز ولا نعدم وسيلة بعد ذلك لإنقاذ رفاقنا .

ثم ركض روكامبول الى جهة النهر وركض ميلون في أثره وهما يريان النور ينبعث من فم الدهليز .

وعند ذلك رأى روكامبول فجأة ان هذا النور قد احتجب ثم سمع دوياً هائلاً أشد من الأول .

ثم اهتزت الأرض اهتزازاً شديداً فسقط روكامبول وميـــلون أيضاً ،

وجعلت الصخور تتساقط حولها ، وكاد أحـد هذه الصخور يصيب رأس روكامبول فيسحقه

وكانت الظلمات تكتنفهما من كل جانب فلم ير روكامبول ما حوله ولكنه سمع ميلون بصوت متهدج : أين أنت أيها الرئيس ؟

– هنا بقربك .

– الملك جريح ؟

– كلا وأنت ؟

– وأنا أيضاً لم أصب بشيء .

فقال له روكامبول : إذاً لا تبرح مكانك ، ولنصبر الى ان ينتهي تساقط الصخور .

وبعد حين سكت الدوي وانقطع تساقط الصخور وبطل الاهتزاز فنهض روكامبول وكان مشعله لا يزال معه ولكنه انطفأ فأناره .

وعند ذلك قال له ميلون : أأنهض أنا ؟

– نعم ولكن لا تبرح مكانك .

فقال له ميلون ، وقد سر انه والرئيس لم يصابا بأذى : لقد بلغنا خير مبلغ من التوفيق .

– هو ذاك ، فإن هذه الصخور لم تسحقنا ، ولكن توفيقنا ليس على قدر ما ظننت .

ثم جعل يفحص على نور مشعله ذلك الدهليز وما صار اليه بعد تساقط القبة فرأى منفذ الدهليز قد سد أيضاً بصخر عظيم .

فقال لميلون : أرأيت هذا السد الجديد ، فقد بات موقفنا كما كان منذ ساعة .

– إذاً لنعد الى الرفاق .

– كيف نعود اليهم وقد حيل بيننا وبينهم بمثل هذا السد .

فارتعد ميلون وقال : أنحن أسرى الآن ؟
– بل قضي علينا ان ندفن في قيد الحياة .

فأوشك ميلون ان يجن من يأسه ، وكان روكامبول أصفر الوجه ولكنه لم يفقد شيئاً من سكينته العادية ، فقال لميلون ببرود : لا يجب أيها الصديق أن يضيع اليأس من رشدنا بل يجب ان نفتكر ونتمعن فان مركزنا شديد الحرج ولكنه لا يحمل على اليأس التام .

فنظر اليه ميلون نظرة ملؤها الأمل ، وقال له : أي رجاء لك بخروجنا ؟

– هو اني أرجح سلامة مرميس ورفاقه من الصخور .
– ولكنهم إذا سلموا فهم أسرى مثلنا .
– ولكن رجاءهم بالخلاص وطيد .
– من ينقذهم ؟
– البوليس الذي يطاردهم .
– إنهم يذهبون بهم إلى السجن .
– ولكن إقامتهم فيه لا تطول فاني أعرف الشرائع الانكليزية .
– وبعد ذلك ؟
– إنك تعرف مرميس فهو سديد الذكاء ، وتعرف فاندا فانها تسفك دمها من أجلي ، ولا بد لمرميس وفاندا بعد إطلاق سراحها ، أن يجدا طريقة لإنقاذنا .
– لقد يصح جميع ما اقترحته ، ولكن لا بد أن يمر عهد طويل لبلوغهم الينا .
– لا أنكر ذلك فقد يطول يومين أو ثلاثة .
– ألا تجد هذا الوقت كافياً لأن نموت جوعاً ؟
– ان الرجل يستطيع الصبر على الجوع أربعة أيام .

ثم جلس وهو بأتم السكينة على صخر .

أما ميلون فانه كان هائجاً مضطرباً فجعل يجول في سجنه الضيق كما يجول الأسد في قفصه .

فقال له روكامبول : قلت لك لا تقنط من رحمة الله يا ميلون ، فانك لم تجع كما أظن .

- كلا ولكني شديد العطش .

- إنك ستروي ظمأك بعد أربع او خمس ساعات .

- كيف ذلك ؟

- حين يجيء زمن المد فتنساب ميـــاه النهر في هذا الدهليز حتى تبلغ قدميك ، فتعال واجلس بجانبي .

فجلس ميلون بجانبه وقد خف بعض ما عنده من اليأس لالتصاقه بالرئيس فقال له روكامبول : ان الكلام لا لون له فلا حاجة لنا بنور هذا المشعل فقد نحتاج اليه .

ثم أطفأ مشعله وقال له : أتعلم يا ميلون لماذا لم يتمكن مني القنوط ؟

- لأنك خلقت غير هياب من الموت ، فلم أرك اضطربت مرة في حياتي .

- ليس هذا هو السبب الذي يدعوني الى الرجاء .

- ما هو ؟

- هو اعتقادي أن الله يقيني الموت الى ان أقضي ما علي من المهام .

- إن مهامك لا تنقضي فانك لا تقضي مهمة حتى تعرض لك أخرى ، ألا تريد أن ترتاح ؟

- كلا ان الراحة لا تكفر عن الذنوب .

- ولكنك قد جاهدت فوق الكفاية ، وكل عمـل من أعمالك يكفر عن أعظم ذنوبك التي ارتكبتها . وعندي انـــه قد آن لك ان تعود الى باريس وترتاح .

– كلا لم يحن الوقت بعد فلا يزال لدي مهمة في لندرا .
– أية مهمة تعني العلها مهمة الارلنديين ؟
– كلا .
– ولكن الاقامة في لندرا لم تعد محمودة .
– ألم أقل لك ان لدي مهمة فيها يجب قضائها ؟
– بشرط ان لا تكون خاصة بأولئك الارلنديين .
– لا علاقة لها بهم في شيء .
فلم يجب ميلون وجعل ينتظر ان يوضح له هذه المهمة .

أما روكامبول فانه صمت هنيهة ثم قال: أتعتقد يا ميلون ان حبل المشنوق يجلب التوفيق ؟
– هذا ما يقوله الناس أما أنا فاني لا أشاركهم بهذا الاعتقاد .
– سوف نرى إذا كانوا مصيبين أم مخطئين .
– كيف ذلك ألديك حبل مشنوق ؟
– نعم .
– أهو في جيبك ؟
– بل معقود على وسطي .
– إذاً سوف نرى .
– إن الوقت فسيح لدينا وسأقص عليك حكاية تشغلك عما أنت فيه من اليأس وتقصر علينا هذا الوقت الطويل .
– أهي حكاية الحبل ؟
– نعم حبل مشنوق جعلني منفذ وصيته .
– تكلم يا سيدي فاني مصغ اليك كل الاصغاء .

وبدأ روكامبول حديثه فقال : إنك تذكر يا ميلون ، كيف كانت بداية صداقتنا .

— إنها بدأت يا سيدي في سجن طولون ، حين كنا مقيدين بقيد واحد .

— هو ذاك وقد حدثتني يوماً بحديث تينك الأختين اليتيمتين اللتين سجنت في سبيل إخلاصك لها .

— نعم يا سيدي فانك بعد ان أنقذتها أصبحت لك من أوفى المخلصين وبت لك أوفى من الكلب الأمين .

— ولقد حدث لي حادثة تشبه تلك الحادثة ، ولم تكن في سجن طولون بل في سجن توايت ، ولم يبق الرجل الذي رواها في قيد الحياة بل هو من الأموات .

— العله مات شنقاً ؟

فتأوه روكامبول وقال : نعم واأسفاه ، فاصغ الى الحكاية فسأقصها عليك فكما توقعت اني لم أقاوم رجال الشرطة حين قبضوا علي في منزل مس الن ، فاني كنت أستطيع النجاة قبل ان يدخلوا بي سجن توايت لأنهم لم يذهبوا بي الى هذا السجن تواً ، بل أوقفوني في البدء في سجن البوليس فتولى قاضي التحقيق استنطاقي ، وسجنني مؤقتاً في سجن القسم ، فأقمت في ذلك السجن ست ساعات .

وقد لقيت في ذلك السجن امرأة رثة الثياب تجاوزت عهد الشباب ، ولكن آثار الجمال لم تزل تدل عليها ، فلما رأتني دخلت نظرت إلي في البدء بحذر ، ثم جعلت تطيل النظر إلي حتى التقى نظرها بنظري ، فأحدقت بي .

وكأنما نظري قد أثر عليها فقالت لي : أظن انك الرجل الذي أبحث عنه .

فنظرت اليها منذهلا وقالت : ألعلك جنيت جناية كبرى ؟
– كلا ، ولكني من الأرلنديين وهي عندهم جناية لا تغتفر .
فاختلجت قليلاً وبرقت عيناها باشعة الفرح ثم قالت : إذاً سيذهبون بك إلى سجن نوايت ؟
– دون شك .

– لقد أصبت حين قلت لك انك الرجل الذي أبحث عنه منذ عهد طويل فاعلم يا سيدي اني ادعى بياتري واني ايكوسية وحكايتي اني في كل ليلة أتظاهر بالسكر والعربدة كي يقبضوا علي وما أنا بسكرى كما ترى .
فدهشت لأمرها وقلت : وبعد ذلك ؟

– اني أتكلف السكر تكلفاً فيقبضون علي ويودعونني السجن إلى صباح اليوم التالي وفي الصباح يحكمون علي بغرامة شلنين ويطلقون سراحي .
– وأي غرض لك من المظاهرة بالسكر ؟
– كي يقبضوا علي كما قلت وأنا ناهجة هذا المنهج منذ شهر وفي كل ليلة يقبضون علي في الشارع .
– ولكن لماذا ؟
– لأني أبحث عن رجل محكوم عليه بالسجن في نوايت ويكون لي ثقة به .
– وماذا تتوقعين من هذا الرجل ؟

فنظرت إلي أيضاً نظر الفاحص وقالت : اني متوسمة فيك مخائل النبل والشرف ، فقل لي ماذا تدعى !
– الرجل العبوس .

فدهشت لقولي وقالت : أنت هو الرجل العبوس ، وقد أذنت أن يقبض عليك ؟
– نعم .
ولكنك تخرج من السجن متى شئت ؟

– ربما .

– بل ذلك أكيد فقد سمعت الناس يتحدثون بك ويقولون عنك انك تصنع ما تشاء وما زلت الرجل العبوس فانا أخبرك بكل شيء .

– تكلمي يا سيدتي .

– أن زوجي في السجن .

– في سجن نوايت ؟

– نعم ، وقد صدر الحكم عليه بالاعدام فهو سيشنق في اليوم السابع عشر من الشهر القادم .

– أي ذنب جناه ؟

– قتل لورداً .

– لماذا ؟

– ان الحكاية طويلة لا أستطيع أن أقصها عليك الآن لضيق المقام ولكنك ذاهب إلى نوايت وسيقصها عليك زوجي .

– ليكن ما تشائين ، فهل تريدين أن تبلغيه أمراً ؟

– نعم .

– هاتي . وأنا أحسب انها تريد ان ترسل اليه رسالة فقالت : اني لا أريد ان ارسل اليه كتاباً بل اكلفك ان تحمل اليه كلامي .

– ماذا تريدين أن أقول له ؟

– قل له اني رأيت امرأتك بيتزي والأوراق عندها ، فمت مطمئن البال .

– هذا كل ما تريدين ؟

فمسحت دمعها وقالت : نعم هذا كل ما أريد .

وقد بذلت جهدي انأقف منها على سر هذه الأوراق فأبت ان تجيبنيبشيء

وفي صباح اليوم التـالي ادخلوني إلى سجن نوايت فبت ثلاث ليال في غرفة ضيقة مغلقة بحيث تعذر علي مقابلة زوج المرأة المحكوم عليه بالاعدام .

ثم قرروا في السجن أن يحسنوا معاملتي لطمعهم بحملي على الاعتراف بامرار الارلنديين ، لأني بالغت في الحيلة حتى أوهمتهم أن حسن معاملتي تدعوني إلى الإقرار .

فأخذوا يحاملونني منذ ذلك الحين فأفرجوا عني بعض الإفراج وأذنوا لي بالخروج إلى ساحة السجن مع بقية المسجونين مرتين في اليوم .

ولم أحدث الرجل بشيء في اليوم الأول، لكني كنت أراقبه فأجده منقبض الصدر مستسلما إلى القضاء وهو قصير القامة ، عريض المنكبين ، قوي البنية يناهز الستين من العمر وقد وخط الشيب رأسه .

فمررت به وهو جالس في إحدى الزوايا ونظرت اليه ونظر الي ،فاستدللت من نظراته الإخلاص وحسن الوفاء .

فقلت في نفسي ان هذا الرجل قد قتل ولكنه لم يرتكب هذه الجريمة إلا لغرض نبيل .

* * *

وفي اليوم الثاني خرجت إلى تلك الساحة في الساعة نفسها ووجدت الرجل في موضعه فذهبت اليه تواً وقلت له :

— أأنت هو الذي قتل اللورد ؟

— نعم ..

وقد لفظ هذه اللفظة بسكينة وارتياح دلالة على انه غير نادم على ما فعل وانه لم يرتكب هذه الجريمة إلا قياماً بواجب شريف .

فقلت له : ألست زوج المرأة التي تدعى بياتزي ؟

فاختلج وقال : العلك رأيتها .

— يظهر انك لم تعرفني ..

— كلا ، فمن أنت ؟

– الرجل العبوس .

فرجع خطوة إلى الوراء وحملق بعينه وقال :

– أنت هو الرجل العبوس !

– نعم أنا هو وقد لقيت زوجتك فعهدت إلي أن أخبرك بأنها عثرت بالأوراق وهي عندها .

فصاح الرجل صيحة فرح كأنما قد أخبرته بصدور العفو عنه ثم قال : واطرباه اني أموت الآن مطمئن النفس ناعم البال .

وعاد فنظر إلي وقال : إنك دخلت السجن بملء إرادتك .

– ربما ..

– ستخرج منه دون شك عندما تريد .

– إني أرجح ذلك ..

فتردد هنيهة ثم قال : يجب أن أقول لك كل شيء يا سيدي ، وأنا واثق من فوزك في المهمة التي أعهد بها اليك ، فإن من كان مثلك لا يعجزه أمر ، وسأمنحك مقابل ذلك الحبل الذي سأشنق به فإنه يجلب لك السعادة .

ولما وصل روكامبول بحكايته إلى هنا توقف فقال له ميلون :

– بالله أتم حكايتك فقد انستني أننا سجينان بين صخرين وأنه مقضى علينا بالموت جوعاً .

- ٥ -

وعاد روكامبول إلى تتمة حديثه فقال : إن زوج بيتزي لم يزد في ذلك اليوم شيئاً على ما قاله إذ قال إن الحديث طويل وقد حان موعد الرجوع إلى السجن ولكني سأخبرك غداً بكل أمري .

وفي اليوم التالي اجتمعت به فقلت له : لقد وجدت طريقة للاجتماع بك عدة ساعات .

فنظر إلي منذهلاً وقال : إن ذلك مستحيل في هذا السجن إلا عليك ما زلت الرجـل العبوس .

أما الطريقة التي وجدتها فهي إني حين عدت إلى غرفتي قلت للحارس : إني أحب أن أكلم حاكم السجن .

فذهب الحارس وبعد ربع ساعة جاء الحاكم وهو يبتسم لاعتقـاده إني دعوته لأبوح له بأسرار الارلنديين .

فلما دخل علي قلت له : إني أحب أن أحدثك في بعض الشؤون يا سيدي الميلورد .

فبدت عليه علائم السرور وقال : لقد كنت أتوقع منك هـذا الرشاد وهذه النهاية .

– لم أكن إلا من الراشدين .

فجلس بجانبي وقال لي : يا بني ماذا تريد ؟

– إن حكم علي بالإعدام أيكون إعدامي شنقاً ؟

– نعم فإننا لا نعدم إلا بالشنق .

– أتظن انهم يحكمون علي بالاعدام ؟

ـ هذا ما أراه إلا إذا اعترفت بما تعلمه فانهم يرحمونك دون شك .
ـ هذا الذي افتكر به الآن .
ـ وهذا ما كنت أتوقعه منك .

ـ ولكني أقول لك ، قبل كل شيء ، إني لا أخشى الموت ، ولا سيما الشنق .

ـ ولكنك مخطىء في توهمك ، فلو رأيت المشنوق حين يعدمونه لرأيت ما تقشعر له الأبدان فـــاعمل بنصائحي يا بني واعترف بكل شيء ، فذلك خير لك وأبقى .

ـ اني اعمل ذلك ، ولكني كما قلت لا أخاف الموت شنقاً .
ـ وأنا أعيد عليك ما قلته فإن ميتة الشنق أفظع ميتة .
ـ كلا فإن الإعدام في فرنسا يجري بالمقصلة ورؤية هذه الآلة الهائلة تحمل على الرعب ، فلو كنتم تعدمونني لما توقفت عن الإقرار .

ـ إننا لا نستطيع تغيير طريقة الإعدام من أجلك ، ولكني أعيد عليك ما قلته ودليلي على ذلك انه يوجد لدينا محكوم عليه بالإعدام ، واني أخاف أن يقضي الرعب عليه قبل قضاء الاعدام .

ـ ولكني لقيته أمس بين المسجونين فما وجدت عليه غير علائم السكينة والارتياح .

ـ ذلك لأنه يتكلف الجلد تكلفاً بين رفاقه ولكنك لو أقمت معه يومين لأدركت حقيقة رعبه .

ـ أتظن ان رعبه يؤثر بي ؟

ـ دون شك ، وقد خطر لي أن تبيت هذه الليلة معه في غرفة واحدة ، وإني أفعل ذلك لخيرك فانك إذا أقمت معه خشيت الموت ، ومتى خشيته نجوت منه لاضطرارك إلى الإقرار فاني واثق من رحمة القضاة .

ـ أشكرك يا سيدي فدعني أبيت الليلة معه وادعني في الغد اليك .

ـ لماذا ؟
ـ لأعترف بكل ما أعلمه إذا وجد الخوف سبيلاً إلى قلبي .
ـ سأصدر أوامري بهذا الشأن .
ثم تركني وانصرف فرحاً مسروراً .

وبعد حين جاءني أحد الحراس وذهب بي إلى غرفة زوج بيـتري فأقامني معه ، وأقفل الباب وانصرف .

ولما خلوت معه قلت : أرأيت اني وفيت بوعدي وتمكنت من زيارتك ؟
فقال لي بلهجة الإعجاب : إنك يا سيدي تفعل ما تريد .
ـ حدثني الآن بقصتك .
فامتثل الرجل ولم ينم تلك الليلة طرفة عين .

وفي صباح اليوم التالي أقبل الحارس وذهب بي إلى الحاكم .
فاعترض ميلون عند ذلك روكامبول وقال له : ألا تحكي لي هذه القصة .
فأجابه روكامبول : سأقصها عليك فاسمع الآن ما جرى مع الحاكم فقد ذهبوا بي اليه وكنت مصفر الوجه دون شك لأني لم أنم .

فحمل الحاكم اصفراري على محمل الخوف وقـال : كيف رأيت ألا تزال تحتقر الموت شنقاً ؟
ـ الحق يا سيدي الميلورد اني لم أخف بعد .
ـ إذاً لا تريد أن تقر .
ـ لا أقر إلا حين أخاف .
فعض الحاكم شفته ولكنه كظم غيظه وقـال : لا بد لي أن أقنعك وسوف ترى .

ـ الملك تريد إقامتي مع هذا الرجل ؟
ـ بل سأفعل خيراً من ذلك .
ـ ماذا عزمت ان تفعل ؟

- عزمت على أن أدعك تحضر الشنق فقد كان ذلك متعذراً منذ شهر ، أما الآن فقد أذنت الحكومة بأن يحضر المسجونون وقت الإعدام ، لأن الإعدام بات في داخل السجون .

وبينما كان روكامبول يحادث ميلون ، قال ميلون بلهجة الرعب ، انظر يا سيدي انظر .

فقال له روكامبول : ماذا ؟

– انظر إلى يسارك .

فنظر روكامبول فرأى نقطتين تتقدان في تلك الظلمات المحيطة بها .

- ٦ -

كان ميلون شجاعاً كما عرفه القراء في كثير من مواقف هذه الرواية، غير انه لم يكن بشجاع إلا في الأخطار التي يعلمها ، فإذا عرض له خطر مجهول ضعف وجبن شأن ضعفاء العقول .

أما روكامبول فإنه نهض عن الصخر الذي كان جالساً عليه ومشى خطوتين إلى جهة ذلك النور فرأى أن النقطتين قد تغير موضعها .

فصفق روكامبول بيديه فتوارى النور .

والتفت عند ذلك إلى ميلون وقال له أما عرفت أيها الأبله مـــا هذا النور ؟

كلا .

هو نور منبعث من عين هرة ، وما زالت الهرة قد وصلت الينا فلا بد من وجود منفذ خرجت منه .

– أتظن .

— دون شك ، ولكني أخشى أن يكون منفـذاً ضيقاً لا نستطيع نحن الخروج منه .

— وقد تكون هذه الهرة سجينة معنا .

— ذلك محال ؟

— لماذا ؟

— إنها لو كانت سجينة مثلنا كما توهمت لكنا رأيناها من قبل ، ولما كانت توارت حين صفقت ، وبعد فكيف يتفق لهذه الهرة أن تكون سجينة في هذا الدهليز .

- كما اتفق لنا

أما نحن فإننا دخلنا في هذا الدهليز من بئر السجن ، بعد أن هدمنا الجدار الذي كان يسده ، والحقيقة ان هذه الهوة كانت في قبو لا بد أن يكون فوقنا ولا بد أن يكون الانفجار قد فتح منافذ في ذلك القبو للهرة .

— ذلك ممكن ؟

— إذاً فلنبحث علنا نستطيع الخروج من المنفذ الذي خرجت منه .

ثم أثار المشعل وقال : هلم نبحث الآن .

وجعل يتفقد مع ميلون سجنه الضيق باحثاً عن ذلك المنفذ .

وقد عرف القراء انالصخور قد تهدمت في الدهليزأمام روكامبول وميلون بحيث سدت الطريقين .

فرجع روكامبول إلى الصخور التي سقطت خلفه في الجهة التي برقت فيهـا عينا الهرة .

وكانت هذه الصخور طبقات بعضها فوق بعضه فتسلقها روكامبول ونظر إلى القبة فرأى فيها منفذاً وأمر ميلون أن يصعد على تلك الصخور .

فلما وصل ميلون اليه أعطاه المشعل ووثب على ظهره ووقف بـين كتفي ميلون ، فأدخل نصف جسمه في ذلك الثقب الذي رآه في القبة .

ثم قال له : هات المشعل الآن .

وأخذه من يده وجعل ينظر بنوره من ذلك الثقب فرأى رواقاً طويلاً يشبه الدهليز الذي هو فيه .

فوضع المشعل على الأرض وصعد في ذاك الرواق فقال لميلون : انتظرني هنا إلى أن أتفقد هذا الرواق .

ولم يطل بحثه حتى علم انه في أحد تلك الأقبية الطويلة التي يستعملها تجار المشروبات عند ضفاف النهر .

وقد تهدم بعض أرض ذلك القبو حين الانفجار ففتح فيها ذلك المنفذ الذي لم يكن من قبل حتى ان صاحب هذا القبو نفسه قد يكون جاهلاً ان قبوه فوق دهليز .

وعند ذلك رجع روكامبول إلى المنفذ فجلس على حافته ومد ساقيه قائلا لميلون : تعلق بساقي واصعد إلى حيث أنا .

فصعد وبات الاثنين في القبو .

عند ذلك حمل روكامبول المشعل وقال لميلون : اتبعني فلا بد أن ننتهي في هذا القبو إلى باب .

وسارا بضع خطوات فرأيا براميل مرصوفة في جانبي ذلك القبو الطويل الضيق ، وهنا سمعا دوياً فقال ميلون : ما عسى أن يكون هذا الدوي ؟

فاصغى روكامبول هنيهة وقال : إنه صوت أمواج النهر .

ثم واصلا سيرهما فرأى روكامبول بعد حين نوراً بعيداً .

وأطفأ روكامبول المصباح فسأله ميلون : لماذا أطفأت المصباح ؟

ـ لأن هذا النور الذي رأيناه هو نور السماء لا بد أن يكون نافذاً من طاقة مفتوحة ، أو باب مفتوح ، فان أبقيت المشعل مضاء فقد يراه أحد من الخارج .

وبعد هنيهة وصلا إلى مصدر ذلك النور ورأيا نافذة مفتوحة وسمعا من تحتها

هدير أمواج التيمس .

وكانت النافذة عالية فقال له ميلون ماذا تصنع ؟

– إذا أردت أن تدق عنقك فألق بنفسك من هذه النافذة إلى النهر .

– ولكننا إن بحثنا في هذا القبو فقد نجد حبلاً .

– لا فائدة لنا بالحبل فقل لي كم الساعة الان ؟

– نحن في الساعة الرابعة .

– إذاً فستعلو المياه بعد نصف ساعة ، أي حين يجيء زمن المـــد فتلقي انفسنا من تلك النافذة فنسقط في المياه وننجو سباحة ، أما إن سقطنا الان فلا تسقط إلا على الأرض لانحسار المياه .

فتنهد ميلون وقد رأى هذا الزمن الوجيز الذي يحول بينـــه وبين الحرية اطول من دهر .

أما روكامبول فإنه ابتسم وقال له اننا منذ هنيهة كنا سجينين بين صخرين نتوقع الموت جوعاً ففتح الله لك باباً للنجاة فكيف تتنهد وتتضجر ؟

– لقد أصبت يا سيدي فاني لجوج ضجور .

– ولكني سأخفف عنك وطأة الضجر بالعود إلى تلك الحكاية التي كنت أقصها عليك .

– أتطلعني على سر زوج بياتزي .

– كلا لم يحن الوقت بعد ولكني أخبرك بأمر إعدامه .

– العلك حضرت شنقه ؟

– دون شك .

ثم جلس على تلك النافذة وأدلى رجليه منها إلى الخلاء ، وأخذ يحـدث ميلون بينما كانت مياه النهر آخذة بالتصاعد تباعاً لقرب زمن المد .

- ٧ -

قال روكامبول ، وكان الحـاكم لا يزال يرجو ان يحملني على الاقرار فـكان يحسن معاملتي ، وقد أذن لي بالاجتماع مع زوج بيتزي حـين أريد ، فكنت أعزيه خير تعزية .

أما الحاكم فـكان يسألني كل مرة أجتمع فيها مع هذا الرجل إذا كنت لا أزال غير وجل من الموت فأجيبه سلباً .

وتوالت الأيام على ذلك إلى أن جاءني الحاكم ليلة قائلاً : إن غداً موعد اعدام قاتل اللورد ألا تزال راغباً بشاهدة هذا المشهد الهائل ؟

– نعم ..

– اذاً يجب أن أنقلك من غرفتك هذه إلا إن أحببت ان تبيت الليلة مع الرجـل المحكوم عليه .

– إني أوثر أن أبيت مع هذا المنكود وعسى ان أعزيه .

– وأنا أرجو ان يؤثر عليك شقاؤه وبأسه فان هذا التعس لم يبق له غير ساعات معدودة .

- وأنا أرجو رجاءك فاني اذ كنت لا أخشى الموت فلا احب الحياة .

– وهنا مسألة أحب أن أطلعك عليها لأنك تجهلها دون شك .

- ما هي ؟

– ان جسم المقتول شنقاً يعطى للجلاد فيبيعه للأطباء كي يعلموا فيـه التلامذة التشريح ، ولكن الحبل الذي به يكون ملك المشنوق ، وله أن يورثه من يشاء وهذا الحبل يجلب السعادة .

– انه زعم سائد على الأكثرين ، وان وهبتني هذا الحبل فإني أرجو النجاة

من الشنق .

ـ ولاسيا إذا أقررت فان اقرارك يفيدك أكثر مما يفيدك الحبل .

ثم تنهد وتركني وبعد ذلك بساعة ذهبوا بي إلى غرفة زوج بياتري وكان لديه فتاتان من اخوات السجون فابتسم الرجل حين رآني وقال ، ان غداً يومي الأخير .

ـ ألم تخشى الموت ؟

ـ كلا ..

ثم رفع يديه الى السماء وقال ، انه حين يموت المرء في سبيل الواجب يموت مستريح البال .

ـ ألم يبقى لديكما تقول ؟

ـ كلا ، فقد عرفت كل شيء ولكني أهبك الحبل الذي سأشنق به إذ يحق لي أن أهبك هذا الحبل .

ـ لقد رجا الحاكم أن تهبني هذه الهبة .

فابتسم الرجل وقال : مسكين أنه ليس من اكفائك .

وقد أمضى الليل والفتاتان تصليان وأنا أتحدث معه بصوت منخفض .

فلما بلغت الساعة الخامسة صباحاً ، فتح باب الغرفة ودخل الجنود فانصرفت الفتاتان وعانقت الرجل مودعاً فكان آخر ما قاله لي تذكر ما وعدتني به .

فقلت له مت بسلام ، وذهب الجنود به إلى ساحة الأعدام .

أما انا فقد قال لي الحارس . اني مأمور ان اذهب بك إلى غرفة فيها نافذة تشرف على الأعدام ثم ذهب بي إلى تلك الغرفة وكانت نافذتها مرتفعة فوقفت على كرسي وأطللت من النافذة فرأيت الحاكم بملابسه الرسمية واقفاً في طليعة الجنود ورآني فابتسم لي وحياني بيده .

ثم ترك الجنود وجاء إلي فوقف تحت النافذة وقال لي : أترى كل شيء من

المكان الذي أنت فيه ؟

– نعم ، ولكن من هؤلاء الرجال المرتدون بالملابس السوداء ؟

– هم القضاة الذين حكموا على الرجـــل ، والشرع يقضي عليهم بحضور تنفيذ الأعدام .

فقلت في نفسي: انها حكمة بالغة فان القاضي متى وقف هذا الموقف الهائل ورأى ذلك المنظر المفجع لا يتسرع في أحكامه .

ثم تركني الحاكم وذهب إلى الجلاد فوقفت في مكاني أنتظر بقلق شديد نفوذ القضاء في هذا الرجل الذي ما عرفته إلا بعد أن وقفت على سره فاحتلته محلا عظيماً من قلبي وكدت أذوب لهفاً عليه .

وفي الساعة السادسة جاؤوا به إلى هذا الموقف الرهيف فصعدوا به إلى المشنقة وهو أصفر الوجه غير أنه كان ثابت الجأش فاجال بين الحاضرين نظراً تائهاً حتى رآني فقال لي بعينيه ما يفيد معنى « تذكر » .

ثم وضع الحبل في عنقه وفتحت الهاوية فزج إلى الأبدية .

ولما تفرق الحضور أسرع الحاكم إلي وقال : ماذا رأيت ؟

– رأيت كل شيء .

– وماذا كان تأثير هذه الفاجعة عليك ؟

فضحكت وقلت : لم تؤثر بي أدنى تأثير .

فقال لي بلهجة دلت على اضطرابه : إذاً لا تريد أن تبوح باسرارك ؟

– سأرى فيما بعد .

وعندما وصل روكامبول بحكايته إلى هذا الحد نظر إلى ميـــاه النهر فقال لميلون : أن الماء قد بلغ حده فهل تريد أن تنزل اليها ؟

– ولكنك لم تقل لي سر الرجل المشنوق .

– سأرويه لك في غير هذا المقام ، إذ يجب علينا أن نفر قبل المباغتة ، فاتبعني .

ثم وثب إلى المياه وتبعه ميلون فتواريا في الأمواج ثم ظهرا وجعلا يسبحان الى جسر لندرا .

- ٨ -

ولنعد الآن الى مرميس فقد تركناه مع شوكنج وفاندا عند منزل زعيم الأرلنديين وقد ذكر لهما اسمه فلما رأى انهما لم يدركا قصده قال لهما : أن هذا المنزل ينبغي أن يكون فوق المكان الذي تهدمت فيه قبـــة الدهليز وسجن روكامبول وميلون وهو لأحد زعماء الأرلنديين كما تقدم لي القول .

ولهذا المنزل قبو لو نزلنا اليه لجد به منفذاً الى مكان السجن وإن لم نجد منفذاً ثقبنا الأرض .

فقالت فاندا : ان كل ما ترويه معقول ولكن هل أنت واثق ان هذا المنزل كائن فوق المكان الذي سمعنا فيه صوت روكامبول ؟

– كل الوثوق .

ولكن كيف عرفت ذلك ؟

– أتعلمين ان من بعض افضال الرئيس علي انه أمرني بدرس الهندسة ، درست هذا الفن درساً دقيقاً وقد قست بفضل قواعدها المسافـــة بينه وبين الدهليز قياساً نظرياً وأرجو ان لا اكون مخطئاً في حسابي والذي أراه انه يجب أن يثقب القبو ثقباً لا يقل عمقه عن عشرة أقدام .

فقال شوكنج : إذاً بقي علينـــا أن ندخل الى هذا المنزل ، ونخبر صاحبه بمرادنا .

– لا حاجة الى ذلك .

فقالت فاندا : لماذا ؟

ـ لأن هذا الزعيم الأرلندي لا يعرفنا وما نحن من الأرلنديين ولا نعرف رموزهم السرية فنتعارف بها .

ـ إذاً ما العمل ؟

نرسل شوكنج الى الحمارة فيأتينا بالأرلنـدي الذي كان يصحبه وهو يكون واسطة التعارف بيننا وبين صاحب المنزل .

ثم أمر شوكنج أن يذهب فانطلق مسرعاً وبقي مرميس وفاندا ينتظران في الشارع .

ولم يطل انتظارهما حيث عاد شوكنج بالأرلندي بعد ربع ساعة .

وكان شوكنج قد أخبره بالأمر ، وأتيـا يحملان الآلات اللازمة لثقب أرض القبو .

فلما وصل الأرلندي ذهب تواً الى المنزل ونقر عليـه بأصابعه نقرات اصطلاحية فلم يفتح الباب وكان مظلماً لا نور فيه .

فقال مرميس : ان سكانه نياماً دون شك .

قال له الأرلندي: صبراً ، ثم جعل ينقر على الباب بطريقة مخالفة للطريقة الأولى ، فلم يفتح ولم يظهر أثر للنور .

قالت فاندا : ألعل البيت مهجور ؟

ـ كلا يا سيدتي ، ثم عاد الى طرق الباب بطريقة ثانية فظهر النور فجأة وفتح الباب وبرز منه رجل كهل يحمل بيده مصباحاً وهو بملابس النوم .

فأشار له الأرلندي إشارة سرية بسرعة فأجابه بمثلها ونظر إلى مرميس وفاندا نظرة تدل على الاطمئنان ثم دخلوا جميعهم الى المنزل .

وكان الارلنديون من الزعماء، فقال صاحب المنزل لرصيفه باللغة الارلندية: ألم يحدث الانفجار النتيجة المطلوبة ؟

ـ كلا .

ـ ولكني سمعت دوياً خلت بعده أن نصف لندرا قد تهدم .

– أشعرت باهتزاز في المنزل ؟

– انه اهتز كما تهز الأرض الزلزال ، ولا بد أن يكون قبو منزلي قد تصدع .. ·

فقال الارلندي لمرميس ورفاقه : إننا سنوضح لكم ما لم تفهموه من حديثنا والآن فلننزل إلى القبو .

فقال صاحب المنزل : ماذا تريد أن تفعل بهذه الآلات ؟

– سوف ترى .

– وسار بهم صاحب المنزل إلى باب ففتحه ونزلوا جميعهم سلماً انتهوا منه إلى رواق ضيق طويل كانت البراميل مرصوفة فيه على الجانبين .

وعند ذلك دنا الارلندي من مرميس وقال له : إفحص الآن هذا المكان وانظر إن كنت غير مخطىء في حسابك .

فأخذ مرميس المصباح وسار في ذلك الرواق حتى انتهى إلى انرأى منها نور الفجر وأطل فوجد أنها مشرفة على نهر التيمس فقال في نفسه : هذا الذي كنت أتوقعه .

ثم عاد إلى رفاقه وقال لهم : إني لم أخطىء بحسابي فهلموا بنا أدلكم على المكان الذي تهدم في الدهليز الكائن تحت هذا القبو .

فاذعنوا له وسار أمامهم في الرواق حتى لنتهوا إلى المكان الذي خسفت أرضه فقال الارلندي : لم يكن لدي ريب أن أرض القبو قد انشقت من الانفجار .

أما مرميس فانه نزل من ذلك الثقب فصادفت رجلاه صخوراً فأخذ المصباح من شوكنج وتوارى عن الانظار .

وبعد خمس دقائق عاد إلى رفاقه فقال : ان الرئيس قد نجا دون شك .

وصاحت فاندا صيحة فرح قائلة : أانت واثق يا مرميس ؟

– دون شك فاتبعوني وسوف ترون .

ثم سار بهم إلى جهة النافذة .

وكانت أرض القبو رطبة فجعل مرميس يدلهم على آثار الأقدام فيها حتى وصلوا إلى النافذة فاختفت تلك الآثار .

فقال لهم مرميس : أعلمتم الآن كيف نجا الرئيس وميلون ؟

ثم أشار بيده إلى النهر وقال لهم : انهما من أمهر الناس في السباحة وقد وثبا من هذه النافذة إلى النهر على أمواجه إلى جسر لندرا .

فركعت فاندا عند تلك النافذة وجعلت تشكر الله .

- ٩ -

بعد ثمانية أيام من هذه الحوادث كان مرميس وفاندا في الدور الأول من منزل في زقاق سانت جورج في شارع وينغ وقد أوشك الليل أن يقبل وأنيرت مصابيح الغاز .

وكان الاثنان جالسين عند نافذة يتحدثان بصوت منخفض وينظران إلى الطريق من حين إلى حين كأنهما ينتظران قدوم زائر .

أما فاندا فقد كانت مقطبة الجبين تقول لمرميس . قد ذهبت مساعينا أدراج الرياح فإننا نبحث منذ ثمانية أيام عن روكامبول ولا نجده ، رباه العله مات ؟

وأجابها مرميس : ان ذلك محال لأنه لو كان قضي عليه وعلى ميلون غرقاً لوجدوا جثتيهما .

- من يعلم واأسفاه .

- إني رأيت جميع الغرقى الذين أخرجوهم من النهر ، ثم انك تعلمين مهارتهما في السباحة ..

– إذاً ما جرى لهما ؟

- إنه سر لا بد أن نهتدي اليه .

– ولكن الارلنديين قد بحثوا عنه في كل مكان وأخبرتنا اليوم مس الن ان البوليس الانكليزي لم يقبض عليه فهل هي واثقة من ذلك ؟

- دون شك .

– كيف تجزم بهذه الثقة .

– ذلك لأن اللورد باليو بات يحب الارلنديين الآن بقدر ما كان يكرههم فان ابنته قد حملته اليهم وهو لورد وعضو في المجلس الأعلى ، اي انه يحق له تفقد السجون ومعرفة ما لا يعرفه سواه .

– إن ما تقوله يا مرميس يدعو إلى الاطمئنان غير اني لا أزال مضطربة البال على الرئيس .

– ممن تخافين عليه ؟

– من الد أعدائه وهو الأسقف بترس تومن .

فهز مرميس كتفيه وقال : أما أنا فلا أخاف هذا الأسقف فليس هو من أكفائه .

- ولكننا إن كنا لم نهتد إلى روكامبول فكيف هو لم يهتد الينا ، العله لم يبحث عنا لاعتقاده أن الصخور سحقتنا في الدهليز ؟

فلم يجبها في البدء بل أطرق مفكراً ثم قال : إن الرئيس قد يكون برح لندرا ، ولكننا أسأنا اليه إساءة لا تغتفر .

فدهشت فاندا وقالت : نحن أسأنا اليه ؟

– دون شك ، ألا تذكرين حين كان يهم بوضع النار في الفتيل ما قاله لنا وهو أنه قد يموت بالانفجار وانه يجب علينا أن نتم أعماله .

– نعم ، أذكر ذلك ، وقد أمرنا أن نذهب إلى إمرأة تدعى بيستزي وأعطاني نوطاً إذا أريتها إياه أعطتني ما لديها من الأوراق .

- هو ذاك فهل فعلنا شيئاً من هذا .

- كلا ، ولكننا كنا نرجو لقاءه بعد وثوقنا من نجاته ؟

- وهنا أصل الخطأ ، لقد كان يجب أن نبدأ أبحاثنا عن بيت هذه المرأة لأن الرئيس لا بد أن يكون ذهب اليها .

- لقد أصبت يا مرميس وقد كان يجب أن يخطر لنا هذا الخاطر من قبل ، فهلم بنا اليها .

- كلا ، إذ يجب أن ننتظر الآن .

- ننتظر من ؟

- الزعيم الارلندي ، سيزورنا ليخبرنا بنتائج أبحاث الارلنديين عن رئيسنا .

ولم يكد يتم حديثه ، حتى رأى من النافذة ، ذاك الزعيم قادماً مع شوكنج .

وبعد حين دخل الزعيم وشوكنج وعليهما علائم الكآبة .

فقال مرميس مخاطباً الزعيم : ماذا فعلتم ؟

-بحثنا بحثاً مستفيضاً فلم نظفر بشيء .

وتابع مخاطباً شوكنج : إننا قد انتهينا حيث يجب أن نبدأ .

- ما تعني ؟

- أتعرف شارع أدم ستريت ؟

- دون شك ..

إذهب وائتنا بمركبة .

فخرج شوكنج وقال مرميس للزعيم الارلندي : أرجو أن تصبر إلى الغد فتجمع رجالك .

- لماذا ؟

- لأني أتوقع شيئاً جديداً .

- كما تريد .

وبعد هنيهة عاد شوكنج وقال : إن المركبة عند الباب .

وودع الزعيم مرميس على أن يجتمعا في الغد وانصرف .

أما مرميس فانه قال لفاندا : هلم بنا ولنسرع جهد الامكان .

وسأله شوكنج : ألا تأذن لي بالذهاب معكما ؟

- تعال معنا إن أحببت .

ثم ذهب الثلاثة بالمركبة إلى شارع وينغ ووقفت المركبة عند مدخل زقاق أدم ستريت لتعذر دخولها في الزقاق .

ونزلوا من المركبة وساروا في ذاك الزقاق حتى وصلوا إلى بيت بيتزي ، لأن الرئيس أخبرهم بنمرته ، فاهتدوا اليه .

وكان المنزل حقيراً تدل ظواهره على فقر ساكنيه ، وهو مؤلف من ثلاثة أدوار يدخل اليه من رواق ضيق مظلم .

وكان يوجد عند الباب خمارة فسأله مرميس صاحبها عن بيت بيتزي فقال له : إنها تقيم في الدور الأعلى ..

- أتعلم إن كانت في البيت ؟

- نعم ، فإنها لم تخرج منه منذ عدة أيام لأنها مريضة .

* * *

وصعد الثلاثة إلى ذلك البيت وقرع مرميس الباب فسمع صوتاً ضعيفاً يقول له : أدخل .

فدخل مرميس مع رفيقيه ووجد تلك المرأة نائمة على مقعد وهي شديدة الهزال .

ولما رأتهم بيتزي قالت لهم : العلكم آتون للذهاب بي إلى السجن كما فعلتم

بزوجي المنكود ثم تشنقونني كما شنقتموه ؟

وأجابها مرميس : كلا أيتها العزيزة فما نحن من رجال الشرطة ، بل من الأصدقاء .

وتأوهت قائلة : أحق ما تقولون أم أنتم تخدعونني ؟

- بل انا نقول الحق ، يا سيدتي ، فنحن أصدقاء الرجل العبوس .

وارتعدت بيتزي وقالت بلهجة سرور : الرجل العبوس ، ألعله خرج من السجن ؟

– نعم ، يا سيدتي .

ثم نظر إلى فاندا نظرة يأس ، لأنه أيقن من سؤال بيتزي عن روكامبول انه لم يأت اليها فانقطع آخر رجاء كان باقياً لديه من البحث عنه .

أما فاندا فقد تمكن اليأس منها وقالت بصوت خنقته العبرات : ويلاه انه مات يا مرميس .

وجلست بيتزي في سريرها وقد اضطربت اضطراباً شديداً وقالت من الذي مات ؟

ثم جعلت تنظر إلى الثلاثة نظرات القلق والجزع .

- ١٠ -

وساد السكوت هنيهة إلى أن بدأت بيتزي الحديث وقالت : إنكم مخدوعون .. إن ذلك لا يمكن أن يكون .. إن الرجل العبوس لم يمت .

وقال مرميس عسى الله أن يحقق رجاءنا .

- إن الرجل العبوس وعد زوجي توما أنه سيعاقب المجرمين ، وينتصر للمظلومين ، فلا يأذن الله بموته قبل أن يقضي هذه المهمة الشريفة وهذا

الواجب المقدس .

فقال شوكنج وأنا أرى رأيك يا سيدتي فإن الله ارأف من أن يقضى عليه هذا القضاء .

ونظرت بيتزي إلى مرميس وقالت له : ماذا أتيتم تعملون عندي .

– أتينا لنبحث عن الرجل العبوس .

– وأنتم أصحابه كما تقولون !

– بل نحن تلاميذه بل أبناءه .

ورأى مرميس انها مرتابة بهم فقال لها : إننا حين فارقنا الرجل العبوس قال لنا ، قد يتفق أن لا يكون لقاء بعد هذا ، ثم أمرنا أن نحضر اليك .

– عندي أنا ؟

– نعم ، وأن نسألك باسمه إعطاءنا الأوراق .

وازداد إرتيابها عندما سمعت ذكر الأوراق وأجابت : كلا لا يمكن أن تكونوا قادمين من قبله .

فقال لها شوكنج : أقسم لك يا سيدتي ان قاله لك أكيد لا ريب فيه .

– ولكني لا أستطيع التصديق .

وأخذ مرميس يدها بين يديه وقال لها : أنظري إلي يا سيدتي أتجدين بين ملامحي ما يدل على اني من الكاذبين ؟

فتلجلج لسانها وقالت: لا أعلم

– ثقي يا سيدتي ، واعلمي انه إذا كان الرجل العبوس قد مات ، فانك تخطئين خطاء شديداً لعدم ثقتك بنا .

– اني لا أستطيع التفكير إلا بأمر واحد .

– ما هو يا سيدتي ؟

– هو أنه حين ذهبوا بزوجي المنكود إلى السجن قال لي إحذري أن

تسلمي الأوراق لأحد .

– أحق للرجل العبوس ؟

– كلا ، فإني أسلمه كل شيء .

– ولكن الرجـل العبوس هو الذي أرسلنا اليك .

– هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين .

فسألها شوكنج : ألا تعرفينني يا سيدتي ؟

– كلا ، لكن يخال اني رأيتك مرة ولا أذكر أين .

– اني أدعى شوكنج .

وكأنما هذا الاسم قد نبه حواس بيتزي فقالت :

– الملك شوكنج المتسول ؟

– هو بعينه .

– قد عرفتك ، ولكن ذلك لا يبرهن لي على أنكم قادمون من قبـل الرجل العبوس .

– ولكني صديقه .

– كيف تثبت ذلك ؟

– أتعرفين يا سيدتي الأب صموئيل ؟

– أعرفه وأجله غاية الإجلال .

– إن جئت به وقال لك أننا قـادمون من قبـل الرجل العبوس ، أتعطينا الأوراق ؟

– دون شك .

ونظر شوكنج إلى مرميس كأنه يستشيره .

فأجابه : إن الرئيس قد أصدر الينا أوامره ولا بد من إنفاذها ، غير اني أعتقد أنه لا يزال في قيد الحياة .

– وأنا أعتقد إعتقادك .

- ولكن يجب علينا تنفيذ أوامره كأنه قد مات .
- وأنا أرى رأيك أيضاً .
- لكن أين نجد الأب صموئيل الآن ؟
- أنا أتعهد باحضاره ان كنتم تنتظرونني في هذا المنزل .
- ننتظرك فاركب مركبة وسر بها على عجل .
فقالت بيتزي : ليقل لي الكاهن أن الرجل العبوس أرسلكم ، أسلمكم الأوراق .
وجعل مرميس ينظر إلى الغرفة متفقداً باحثاً فقالت له : لو بحثت طول العمر عن هذه الأوراق لما وجدتها .
أما شوكنج فانه انصرف وجلس مرميس وفاندا عند سرير بيتزي

* * *

كان شوكنج يعلم أن الكاهن يقيم في قبة الكنيسة فركب عربة بغية الإسراع وذهب تواً اليها وطرق الباب ففتح له حارس الكنيسة ، وهو ذلك الشيخ الذي تقدم لنا وصفه في الأجزاء السابقة .

وكان الشيخ يعرف شوكنج حق العرفان لكثرة مـــا كان من تردده مع روكامبول إلى زيارة الكاهن فقال له لقد مضى عهـد طويل لم أرك فيــه فأين كنت ؟

- كنت في فرنسا وانا قادم الآن لمقابلة الكاهن في شأن خطير فهل هو في القبة ؟
- نعم فاصعد اليه
فصعد شوكنج وكان الكاهن يصلي فانتظر إلى أن فرغ من صلاته فقال له : انك تعلم يا سيدي اني صديق الرجل العبوس ، بل خادمه المطيع .
- دون شك .

– أتؤيد ذلك بشهادتك ان دعيت اليها ؟
– دون ريب .
– إذاً أتوسل اليك يا سيدي أن تذهب معي .
– إلى أين ؟
– الى بيت في أدم ستريت .
– إني أعلم إلى أين تريد الذهاب بي ، اليست صاحبة هذا البيت تدعى بياتزي ؟
– نعم .
– وهي لم تصدق انكم جئتم اليها من قبل الرجل العبوس ؟
– هو ذاك يا سيدي إلا إن شهدت أمامها على صدق كلامنا .
– هلم بنا فاني ذاهب معك .
ونظر شوكنج اليه نظر الفاحص وقال له : الملك تعلم ، يا سيدي حديث الأوراق ؟
– نعم .
– من الذي حدثك به ؟
– الرجل العبوس نفسه .
فصاح شوكنج صيحة الفرح قائلاً : اذا كان ذلك فلا شك ان الرجل العبوس حي يرزق .
أما الكاهن فانه لم يجب .

ولما خرجا من القبة الى ساحة الكنيسة أخذ شوكنج يد الكاهن وقال له بلهجة تدل على القلق : ألم تقل يا سيدي انك رأيته ؟

ـ من ؟

- الرجل العبوس .

- رأيته دون شك .

ـ متى اليوم أو البارحة ؟

ـ لا اليوم ولا البارحة ، بل رأيته منذ أسبوعين في سجن توايت .

فصاح شوكنج صيحة يأس وقال ان كان ذلك فانك لا تعلم شيئاً عنه .

فنظر اليه الكاهن نظرة المنذهل وقال : كيف ذلك ؟

ـ يظهر يا سيدي أنك لا تعلم بما حدث ، وان الرجل العبوس قد أفلت من سجن توايت .

ـ بل أعلم .

ـ اذاً أنت تعلم أين هو الآن ؟

ـ كلا .

ـ أما نحن فنحسبه من الأموات .

فلم يجبه الكاهن بشيء ولم يظهر عليه شيء من دلائل الأسف كأنما هذا الخبر لم يؤثر عليه .

فقال له شوكنج : انك تعلم يا سيدي ، دون شك ، من أموره أكثر ما نعلم .

ـ ربما ..

فانقطع شوكنج عن السؤال ولكنه رسخ في ذهنه أن روكامبول لم يمت وانه يؤثر الاحتجاب لأغراض خفية الا عن الكاهن .

ثم خرجا من ساحة الكنيسة الى الشارع حيث كانت تنتظرهما المركبة ، فسارت بهما الى بيت بياتزي ، وكان مرميس واقفاً ينتظر عند الباب فلما رأى الكاهن قال له : أسرع ، أسرع.

فقال شوكنج : ماذا حدث ؟

– ان المرأة مشرفة من الموت وقد أريتها النوط الذي أعطانا اياه الرجل العبوس فأصرت على عدم الثقة بنا .

- ولكن ما أصابها ؟

– انها أصيبت بعد انصرافك بنوبة عصبية عقبها ضعف شديد وهي تكاد لا تستطيع التنفس الآن .

ثم دخلوا جميعهم الى غرفة بياتزي ، فرأوها ممددة على سريرها ، وهي تشبه الموتى .

غير أنها حين رأت الكاهن مقبلاً تجددت قواها فجأة واتقدت عيناها ببارق من السرور فقالت لقد كنت اخشى ان اموت قبل وصولك .

فأخذ الكاهن يدها وقال : تشجعي يا ابنتي .

– انك تعرف مبلغ صبري يا سيدي حق العرفان، لكني خشيت ان يذهب دم زوجي هدراً ..

ثم أشارت بيدها الى شوكنج وقالت : اتعرف هذا الرجل ؟

– نعم .

– أهو من اصدقاء الرجل العبوس ؟

– نعم ..

– اهو آت من قبله !

– نعم ..

– اذاً ، لا بأس من ان ارشده الى مكان الأوراق .

– دون شك ..

فجلست عند ذلك بيتزي في سريرها وقالت بصوت خافت . اذاً اصغوا الي اتعرفون كنيسة روتهتيت !

فأجابها الكاهن : نعم .

— انها محاطة بمقبرة كسائر كنائس لندرا فاعلموا انه يوجد في هـــذه المقبرة ضريح مكتوب عليه اسم (روبرت) ، وعلى هذا القـبر صليب من الحديد ، لا يوجد سواه على شكله في تلك المقبرة الصغـيرة بحيث لا يصعب عليكم ايجاده .

فقال لها مرميس الملك خبأت الأوراق في ذلك القبر .

— نعم .

— حسناً فسننبشه ونخرج منه الأوراق .

— ولكنكم لا تستطيعون ذلك ، لأن الأبواب مقفلة في الليل .

— اطمئني يا سيدتي فاننا نكسر الأبواب ..

فقال شوكنج : لا حاجة الى ذلك فاني أعرف طريقة تمكننا من الدخول الى المقبرة دون أن نكسر ابوابها .

وقال الكاهن : وانا أعرف ايضاً الطريقة السرية .

فقال مرميس ، اذاً لنذهب .

وقالت فاندا ، أما أنا ، فيجب ان ابقى لدى هذه المرأة ، الى ان تنفرج ازمتها .

فأجابتها بيتزي بصوت ضعيف ، انك لا تقيمين كثيراً يا سيدتي ، فاني اشعر بدنو الأجل ، ولكني لا أموت مطمئنة الا اذا أيقنت انكم استوليتم على الأوراق .

فأجابها الكاهن قائلا ، اننا نعود حين نخرجها .

ثم تقدم مرميس وشوكنج فتبعاه ، حتى اذا وصلا الى الشـارع قال لهما الكاهن ، ان هذه المقبرة احدى الأماكن التي يجتمع بها الارلنديون ، وسندخل

اليها من الطريق الذي يسلكه الارلنديون ، وهو طريق لا تعلمونـــه ولكن الرجل المبوس يعلمه .

فقال له مرميس ، اراك تحدثنا عن الرجل العبوس أتعلم ما جرى له !

-- انه نجا من السجن .

-- وبعد ذلك !

فاضطرب الكاهن ولم يجب .

فقال له مرميس ، اننا نخشى ان يكون قد مات .

-- كلا

-- أأنت واثق انه لا يزال في قيد الحياة ؟

-- ربما ..

-- الملك رأيته ؟

-- كلا ، ولكني أؤكد لك انه لم يمت .

. فخفق قلب مرميس خفوقاً شديداً وقال ، اسألك يا سيدي بالله ان تخبرنا بمـــا تعلمه عن الرجل الذي تدعونه انتم ، الرجل العبوس ، وندعوه نحن الرئيس ..

-- اني لا أستطيع ان اقول شيئاً ، ولكني أقتصر على القول انه حي معافى وانكم سترونه يوماً .

فانقطع مرميس عن الإلحاح وذكر ان روكامبول قد غـاب عنهم مدة طويلة منذ أربعة أعوام ، ثم عاد اليهم فجأة دون انتظار .

وما زال الثلاثة سائرين الى المقبرة حتى وصلوا الى خمارة مجاورة لهـــا فطرق شوكنج بابها فلم يفتح فعاد الى الكاهن وقال ، اني لا أعرف كلمة المرور يا سيدي .

-- أنا أعرفها ثم دنا من الباب فوضع فمه عند ثقب القفل وقـال بضع كلمات باللغة الارلندية الاصطلاحية ففتح الباب .

وقد ذهب صاحب تلك الخمارة حين رأى الأب صموئيل وقال : ليس اليوم موعد اجتماع .

ـ هو ذاك ولكننا قادمون إلى المقبرة .

وكان صاحب الخمارة يعرف شوكنج ، ولكنه لا يعرف مرميس . فلما رآه الأب صموئيل ينظر اليه نظرة إنكار ، قال له : إنه صديق الرجل المبوس .

فحياه الرجل باحترام ثم أوقد مصباحه وقال لهم : إتبعوني .

- ١٢ -

وقد تقدمهم بعد أن أقفل باب الخمارة إلى باب سري فيها ، فانجلى عن قبو . فلما دخلوا إلى ذلك القبو قال الكاهن لصاحب الخمارة : لم يعد لنا بك حاجة فعد إلى خمارتك .

ـ ألا تنتظر قدوم أحد بعد ؟

ـ كلا .

فعاد الرجل الى الخمارة ومشى الكاهن أمام مرميس وشوكنج حتى وصل بهما الى دهليز فساروا منه الى المقبرة .

وكان الظلام حالكاً ، غير أن الكاهن كان يعرف موضع القبر فسار بهما اليه .

فقال له مرميس : العلك كنت عارفاً بوجود الأوراق في الضريح ؟

ـ كلا ولكني أعرف شيئاً مما تحويه ، فقد جاءني رجل منذ ثلاثة أشهر ، وقال لي أنه يريد أن يحدثني بأمره ، وكان هذا الرجل توما زوج بياتزي .

ـ ألم يكن قبض عليه في ذلك العهد ؟

ـ كلا وأخبرني بأمره وتوسل إلي ان أساعده لاعتقاده إني قادر على إنجاح مسعاه

غير انه كان لنكد طالعه إيكوسياً اي بروتستانتياً ولا يقدم الارلنديون على مساعدة أعدائهم .

فلما أخبرته بذلك ودعني وداع القانط وانصرف ، فكان هذا آخر عهدي به .

وبعد ذلك بيومين قتل توما اللورد أفندال ؟

ـ ألم تقل له شيئاً عن الرجل المحبوس .

ـ كلا .

ـ كيف عرف الرجل المحبوس حكايته .

ـ إنه اجتمع به في سجن نوايت .

ـ إذاً ، لا شك ان الرجل مظلوم ، فإن الرئيس لا يعمل إلا لنصرة المظلومين .

وعند ذلك وصلوا الى القبو ، وكان الظلام حالكاً ، فحاول شوكنج أن ينير المكان كي يقرأ الاسم فمنعه الأب صموئيل وقال له · لا حاجة إلى النور فإني أعرف هذا الضريح .

فقال مرميس · ولكننا لم نحضر الآلات لنبش القبر .

ـ لا حاجة الى ذلك فان الضريح مسدود بحجر يزاح دون عناء فينكشف عن حفرة وضع فيها التابوت .

فظهرت علائم الرعب على شوكنج فقال له مرميس : العلك خفت ؟

ـ بعض الخوف .

ـ لماذا ؟

ـ لأنه ينبغي أن تكون الأوراق في التابوت ، ولا أطيق النظر إلى

الجثث البالية

- إذاً إبق مكانك فأنا أتولى الأمر عنك .

ثم أزال الحجر ونزل الى الحفرة ، وجعل يبحث بيـــديه عن التابوت لاشتداد الظلام ، فعثر بأربعة توابيت لأن هذا القبر كان من القبور العمومية ، ففتحها وجعل يبحث فيها حتى عثر بلفافة ضخمة من الورق ملفوفة بقطعة من القماش المشمع الأسود .

فأخذها وصعد من الحفرة ووجد شوكنج واقفاً بعيداً لفرط ما ألم به من الرعب .

فناداه مرميس قائلاً لا تخف فقد قضي الأمر .

ثم رد الحجر إلى موضعه وخرجوا جميعهم من المقبرة الى الحمارة ثم انصرفوا منها إلى بيتزي فوجدوا تلك المنكودة في حالة الاحتضار .

فأخذ الكاهن الأوراق وأراهـــا إياها . فلما رأتها قالت : هي هي بعينها فلأمت الآن مطمئنة البال .

وكان ذلك آخر ما قالته وما زالت الروح تحشرج في صدرها وجميعهم راكعون يصلون حتى أخرجت النفس الأخير .

فأقام الثلاثة مع فاندا كل تلك الليلة عند سريرها ، وقد فتح مرميس تلك الأوراق فوجدها دفتراً ضخماً مكتوباً عليه هذا العنوان الغريب :

« مذكرة مجنون »

ففتحه وجعل يقرأ بصوت مرتفع ما يأتي :

إن جبال شفيوت تفصل بين إيكوسيا وانكلترا وهي جبال شامخة تناطح السحاب وقد لبست عمامة من الثلوج لم تخلعها منذ الأزل .

ويحيط بهذه الجبال غابات كثيفة ووديان فرشت ببسط الخضرة ، فكانت خير مرعى للماشية .

وكان على بعد ثلاثة مراحل من هذه الجبـال قصراً شاهقاً ، يدعى قصر باميلتون ، بني قبل ان تأخذ انكلترا الممالك الثلاث ، في ذلك العهد الذي كان لكل نبيل فيه جيش يحارب فيه أعداءه النبلاء ، فكان أشبه بالحصن المنيع .

فلما توحدت تلك الممالك تحت ظل العلم الانكليزي ، وبطلت سيادة الأفراد ، بني أصحاب هذا الحصن قصراً جميلاً بجانبه ، وكانوا يصطافون فيه .

وكان صاحب هذا القصر يدعى اللورد باميلتون ، وهو من أعضاء المجلس الأعلى في لندرا .

وقد احتفظ بلقب البارون الايكوسي على كونه من اللوردية لفرط إعجابه بهذا اللقب القديم الذي ورثه من آبائه .

وقد قضى هذا اللورد نحبه في معركة نافارين . وهي المعركة التي اتحدت فيها فرنسا وانكلترا على تركيا فأخرجا أسطولها من المياه اليونانية .

وقد مات عن زوجته وولدين ، يدعى أكبرهما اللورد أفاندال باميلتون ، وكان عمره حين موت أبيه ثلاثة أعوام ، وعمر أخيه الأصغر ثمانية عشر شهراً .

فلما علمت اللادي باميلتون خبر قتل زوجها في تلك المعركة برحت لندرا فجأة وجاءت بولديها ولكنها لم تقم في ذلك القصر الذي كانت تقيم فيه كل صيف

بل أقامت في ذلك الحصن القديم .

وقد حدثت أمور غريبة اتسع بعدها للناس مجال الظنون ، فانها أمرت بزيادة تحصين الحصن ودعت اليها جميع الفـــلاحين الذين في أراضيها ، وهم يشبهون الجيش .

فاختارت أشدهم وأقامتهم في القصر ، ثم عرضت عليهم ولديها واستحلفتهم بخالق السموات والأرض ان يحرصوا على الولدين فأقسموا وأردفوا القسم بالهتاف العظيم لها وللولدين .

غير ان نفوسهم شغلت بهذا التحفظ الشديد وبسكنى ذلك الحصن الذي لم تكن تقيم فيه تلك الأسرة إلا في القرون الوسطى

وقد أشكل فهم هذا الأمر إلا على رجل ايكومي يدعى توما كان شقيق امرأة اللورد بالرضاع .

فإنها حين تقدمت الى ذلك الحصن جعل ينام على كرسي عند باب غرفـة الولدين كل ليلة وبيده المسدس بينما كان الحراس يرودون عند أبواب القصر في الليل والنهار .

وكانت هي تسير بينهم متفقدة أعمالهم ولا تغفل عنهم طرفة عين .

وقد استمرت على ذلك ثلاثة أشهر ، فكاثرت فيها الأقاويل وأجمع الناس على أنها فقدت صوابها أثر نكبتها بموت زوجها ، ما خلا ذلك الايكومي توما أي شقيقها بالرضاع .

فانه كان ينفي هذه الظنون ويثبت انها على أتم حالة من العقل وانها مضطرة الى ما تبديه من الحذر .

غير انه لم يكن يزيد على هذه الأقوال شيئاً فاختلف النـاس بين مصدق ومكذب لأقواله .

وبعد ان تمت الأشهر الثلاثة أرجعت الفلاحين الى حقولهم وغادرت ذلك الحصن مع ولديها الى القصر ، فعاد الناس إلى التحـــدث وجعلوا يقولون أنها

شفيت من الجنون .

أما السبب في رجوعها عن ذلك الحذر وعودتها إلى سكنى القصر فهو انه وردت اليها رسالة برقية من لندرا كما يأتي :

« سافر السير أرثر صباح اليوم الى الهند » .

والسير أرثر هذا شقيق زوجها الأصغر فكأنها كانت متحذرة منه حتى إذا أيقنت من سفره اطمأن بالها ولم تعد في حاجة الى الحذر .

وفي اليوم التالي لوصول هذه الرسالة زارها في قصرها رجلان أحدهما يدعى اللورد اسكولت والثاني البارون جمس .

أما الأول فهو أبوها ، والثاني فهو أخوها . وكان كلاهما في لندرا ، وإنما قدما لزيارة اللادي ، لما اتصل بهما من أنباء مناهجها ، ولخوفهما ان تكون أصيبت بالجنون .

فلما رأتهما استقبلتهما بالبكاء ، ولم يريا من حديثها وتصرفها ما يدل على الجنون .

ولكنهما لم يجدا بدأ من سؤالها عما اتخذته من أسباب الاحتياط ، خلال الشهور الثلاثة .

فأبت اللادي ان توضح لهما الأسباب ، فاستعان اللورد بسلطته الأبوية ، فلم تجب ، فألح عليها فلم يفلح حتى غضب وأنذرها بتجريدها من حق الوصية على ولديها .

فاسترسلت عند ذلك الى البكاء ، وركعت أمام أبيها وقالت له : إني أعلم يا أبي انه لا يحق لي عصيانك ، ولكني أعلم أيضاً إني إذا بحت لك بالأسباب التي دعتني الى الاحتياط فطر الحزن قلبك فأتوسل اليك أن تأذن لي بالكتمان .

ولكن اللورد أبى أن يجيبها الى التماسها ، فدخلت به عند ذلك الى غرفتها ففتحت خزانة وأخرجت منها دفتراً مكتوباً بخط كادت تمحو

سطوره الدموع فدفعته اليه وقالت : إني كتبت حكاية نكبتي يا أبي في هذا الدفتر فاقرأ .

ثم غادرت أباها في الغرفة وانصرفت .

أما اللورد أسكولت فانه أقام في الغرفة يقرأ نحو ساعة ، ثم عاد الى ابنته وقد امتقع لونه واصفر وجهه ، حتى بات كالأموات . فضم ابنته إلى صدره ومزج دمعه بدمعها ، ثم قـــال لها : إني بلغت من الكبر عتياً فلا أستطيع الانتقام لك ، ولكن أخاك لا يزال في عنفوان الشباب وهو سيكون ساعدي في الانتقام .

أما هذا السر الهائل ، الذي وقف عليه اللورد ، فلا بد لنا لإيضاحه من نقل جميع ما حواه ذلك الدفـتر ، الذي أعطته إياه اللادي وهـذا بيان ما قرأ .

- ١٤ -

إن أسرة دندري ، التي كان اللورد اسكولت رئيسها ، كانت من أهل نورماندیا .

وهي قديمة تتصل بعهد الدوق غليوم اللقيط الذي سئمت به نفسه الكبيرة وبات يدعى الملك غليوم الفاتح ،فاتصلت هذه الأسرة بالأسرات النبيلة الانكليزية منذ ذلك العهد .

وقد أخذ اللورد اسكولت يهتم بتزويج ابنته مس افلين حين بلغت السادسة عشرة من عمرها .

ومثل هذه الغنية النبيلة الحسناء لم يكن يعوزها الخطاب ، فقد رغب بها معظم النبلاء غير أنها كانت مخطوبة منذ عهد بعيد حسب الطريقة الانكليزية

الى اللورد باميلتون .

وكان للفتاتين قصران متجاوران ، فكان الخطيبان متصلين منذ عهد الحداثة .

ولما بلغت الفتاة العاشرة من عمرها والفتى ثمانية عشر عاماً ، عقدت بينهما الخطبة وسافر اللورد أفندال الى الهند في إحدى الدوارع لانتظامه في الخدمة البحرية .

وكان لهذا اللورد شقيق أصغر منه يدعى جورج ، كان يزور خطيبة أخيه كل يوم مدة خمسة أعوام ، حتى ارتفع حجاب الكلفة بينهما ، ثم حل في قلبيهما الحب .

وكانت الفتاة لا يطيب لها عيش بغير لقائه ، وكان السير جورج يتمنى أن تهب عاصفة فتغرق الدارعة التي يخدم أخوه فيها .

وبقيا على ذلك إلى ان تغلب الحب فباح به السير جورج لخطيبة أخيه . فأجفلت افلين وقالت : أيها التعس ألا تعلم اني خطيبة أخيك ؟

– نعم أعلم وا أسفاه ، ولذلك عزمت عزماً أكيداً لا يثنيني عنه شيء ، فاني إذا فرضت ان أخي يتخلى لي عن حقه بخطبتك فان عائلتنا لا توافق على زواجي بك لأني الأخ الأصغر ، أي ان كل ثروتنا والقابنا لأخي الأكبر بفضل شرائعنا الجائرة .

ثم تنهد تنهداً طويلاً وقال : إني عولت على الرحيل وسأسافر اليوم .

وسالت دمعة من عين الفتاة وقالت : إلى اين تسافر ؟

– إلى لندرا في البدء .

– وبعد ذلك ؟

– أرحل الى الهند حيث يقيم أخي وأخدم في الجيش .

وتنازع قلب الفتاة عاملان عامل الحب وعامل الشرف والواجب ، الى أن تغلب الواجب .

ثم مدت يدها الى السير جورج وقالت له : الوداع

– إنه وداع الأبد .

وفي اليوم نفسه سافر الى لندرا ثم برحها الى الهند .

وكان أبوه لا يزال في قيد الحياة حين سفره ثم مات بعد ستة أشهر فورث أخوه الأكبر خطيب حبيبته جميع ثروته ولقب اللوردية والمنصب في البرلمان، فاضطر الى الرجوع الى لندرا .

وبعد ذلك بعام تزوج مس افلين ، فخفف توالي الزمن تأثير وجـــدها ، وكانت تفتكر من حين الى حين بذلك الفتى المنكود ، الذي هرب من أجلها الى الهند .

ولكن زوجها كان يحبها حباً صادقاً وباتت أماً فأنساها الواجب ومرور الأيام والأمومة وحب زوجها ذلك الحب القديم .

غير ان القدر أبى إلا أن يتداخل ، لأن زوجها على كونه بات من أعضـاء البرلمان أحب ان يحتفظ بمنصبه في البحرية .

وكانت الحرب قـد نشبت في ذلك العهد بين تركيا وفرنسا وانكلترا ، وكثرت غزوات قرصان البحار وسافر زوجها مع الأسطول وعادت هي الى لندرا مع ولديها .

وكان قد صدر الأمر الى الأسطول بالسفر بأوامر مختومة لا تفتح إلا في جزيرة مادير .

ولم تكن اللادي افلين تعلم الجهة التي سافر اليها زوجها ولا تدري من أموره سوى انه سافر في دارعة تدعى مينوتور .

وطال غياب زوجها وأقامت وحدها تنتظر قدوم الغائب وتتنهد .

وإن العزلة مستشار سيء كما يقولون فإن تذكار السير جورج عاد اليها بعد أن محته الأيام من صفحات قلبها .

فبينما كانت جالسة ذات ليلة عند نافذة مشرفة على الحديقة رأت رجلاً فتح

باب الحديقة بمفتاح ودخل اليها ، فصاحت صيحة رعب دون ان تتبين وجه هذا الرجل .

وأخذت الحبل المعلق به جرس الخدم وجذبتـه استدعاء لهم ، فلم يحضر لنجدتها أحد من الخدم

فأوشكت ان تجن من رعبها ، وأسرعت إلى الباب قبل أن ترى وجه الرجل .

ولكن هذا الرجل أسرع اليها فقبض عليها وقال لها بصوت يتهدج :ما هذا الرعب يا افلين ألم تعرفيني ؟

فذهلت ذهولاً قوياً وقالت . ماذا أرى ؟ . السير جورج !.

فركع جورج عند قدميها وقال لها : نعم ، أنا هو ذلك المنكود شقيق اللورد افندال .

- ١٥

فأنكرت اللادي افلين دخوله عليها دخول اللصوص وقالت له كيف أتيت إلى هنا ؟

فأجابها بلهجة حنو خففت من رعبها وقال لها. لا تحكمي علي يا افلين حكماً جائراً قبل ان تسمعي كلامي .

– ولكن من أين أنت قادم ؟

– من الهند .

– العلك اعتزلت الخدمة ؟

- كلا بل جئت بالاجازة وربما أتيت من أجلك .

فعاودها الرعب وقالت ، كيف تجسر ان تجيء من أجلي ؟

ما أوحى إلي هذه الجرأة غير الحب يا افلين .
أيها التعس أنسيت أني امرأة أخيك ؟
- ولكن أخي بعيد .

فذعرت ذعراً هائلاً وقالت : أعرفت أنه مسافر ؟
- نعم ومن أجل هذا أتيت .
وقد تبينت صدق العزيمة من عينيه وأدركت مقاصده السافلة فقالت له: إنك يا جورج شقيق افندال وهو زوجي .
- إني أكرهه .
- ولكن ألا تزال تحبني ؟
- إن نيران الجحيم تتقد بين ضلوعي .

- إذا كنت تحبني كما تدعي ، فقد وجب عليك ان تحترمني . فاخرج الآن وعد إلي غداً في رابعة النهار ، وادخل من باب هذا القصر الكبير الذي يقيم فيه أخوك .
فقهقه ضاحكاً وقال · اني لا أحب ان يطردني الخدم .
ثم أخذ يدها بين يديه وهم ان يعانقها .

وأفلتت منه إلى آخر الغرفة وقالت له : إذهب من حيث أتيت ... إني لا أريد ان تبقى هنا .
فضحك ضحكاً عالياً دون ان يجيب .
وهاج غضبها وقالت له : إذهب .
- كلا إني أهواك
- قلت لك إذهب أو أدعو الخدم .

وعاد الى الضحك ودنا منها .
وعند ذلك مدت يدها إلى حبل الجرس وقرعته قرعاً عنيفاً دون ان تسمع له صوتاً .

فقـال لها : إقرعي قدر ما تشـائين ، فلا يجيبك أحـد ، لأن الجرس مقطوع .

فذعرت ذعراً شديداً وجعلت تستغيث بملء صوتها .

ـ لا فائدة من الصياح فان جميع الخدم غائبون .

فركضت إلى الباب وحاولت ان تفتحه وتفر منه فوجدته محكم الإقفال ، فخطر لها عند ذلك ان تثب من النافذة الى الحديقة .

غير ان السير جورج تعدى عليها وقال : كلا إنك لا تخرجين

ثم هجم عليها وضمها الى صدره ضماً عنيفاً ، فأغمي عليها وهي بين يدي ذلك الفاجر الأثيم .

- ١٦ -

كانت دارعة اللورد افندال تمخر في عباب الأوقيانوس ذاهبة في طريق ملبورن إحدى عواصم اوستراليا .

وكان كلما وقفت الدارعة في ميناء يكتب الى امرأته كتاباً ملؤه الحنـو والشـوق ، حتى أنه أوشـك ان يستقيـل ويعود الى امرأتـه وولده ، ولكنـه رأى ان بـلاده في حرب ، فإذا استقـال عدت استقالتـه جبناً ونذالة .

وقد أقامت دارعته عامين في اوستراليا تطارد القرصان . ثم استدعتـه نظارة البحرية الى لندرا .

فلما قدم ذهبت إمرأته لاستقباله ومعها ولدان ، لأن الولد الثاني خلق بعد سفر زوجها .

وكانت صفراء الوجه منقبضة الصدر تبدو الكآبة عليها ، فراعت هذه

الكآبة زوجها ، ولم يعلم سبب هذا الانقلاب .

فإنها بعد تلك الليلة الهائلة ، التي قضتها مع السير جورج ، كرهت معاشرة الناس وبرحت لندرا الى قصر باميلتون واعتزلت فيه ، وهناك ولدت ابنها الثاني

أما زوجها فقد راعه هذا التحول ، ودعا لها أشهر أطباء لندرا ، فأجمع أولئك الأطباء على انها محتاجة الى تبديل الهواء . وسافرت مع زوجها إلى ايطاليا وأقامت شهرين في نابولي ورومة ، ولكنها لم تزد في خلالها إلا نحولاً وقنوطاً من الحياة

ولم تكن تبتسم إلا لإثنين ، وهما توما شقيقها بالرضاع ، وولدها الأكبر . أما ولدها الثاني فانها لم تكن تنظر اليه حتى تسيل من عينيها دموع الخجل .

ثم عادت مع زوجها إلى لندرا ، وكانت فرنسا قد اتفقت مع انكلترا على الانتصار لليونان .

واضطر زوجها أن يسافر بدارعته الى ساحة الحرب لمقاتلة الاتراك،وعادت إمرأته الى الإقامة وحدها .

فبينا كانت يوماً تتنزه في هايدبارك ومعها ولدها الأكبر وقد قرب الظلام، سارت في منعطف ولم يكن فيه أحد من المتنزهين ووراءها خادمان .

وقد توغلت في هذا المنعطف وهي تائهة في مهامه التفكير ، وبينما هي على ذلك رأت ان رجلين من عامة الشعب يقتربان منها فخافت والتفتت وراءها كي تنادي خادميها فلم تجدهما .

وعند ذلك أطبق أحد الرجلين وسد فمها كي لا تستطيع الاستغاثة ، واختطف الرجل الآخر الغلام وأركن الى الفرار .

وبعد ذلك بساعة عثروا بالليدي مغمياً عليها وذهبوا بها الى قصرها . أما الغلام فلم يقف له أحد على أثر .

غير انه لحسن حظ تلك اللادي كان توما أخوها بالرضاع مقيماً معها وقد علم لفوره الغاية من سرقة الغلام .

فإن اختطاف الغلمان كثير الشيوع في لندرا ، وهم يسرقونهم كما يسرقون الأمتعة .

ومنهم من يسرق الصغار للارتزاق بهم . مثال ذلك ، ان امرأة متسولة لا تكسب رزقها بسمة ، إذ لا تجد وسيلة لاستدرار الرحمة والاشفاق ، ولكنها إذ كانت تحمل بين ذراعيها طفلاً أشفق عليها الناس ، ودرت عليها الرزق .

ثم أنه يوجد كثير من المربيات يعهد اليهن بتربية الأطفال فيقتلنهم طمعاً بمالهم ثم إذا جاء وقت تسليم الطفل الى ذويه سرقت تلك المربية طفلاً في عمره وسلمته لذويه فظفرت بالمال .

غير ان توما لم يخطر له المربيات والمتسولات بل قال في نفسه لأول وهلة أن السارق هو السير جورج دون سواه .

أما اللادي أفلين فإنها لم تكن رأته منذ تلك الليلة الهائلة ، ولكن توما رأى ليلة رجلاً يرود في الحدائق العمومية ، فعرفه بالرغم عن تنكره أنه السير جورج .

ولم يعد لديه شك انه هو سارق الغلام ، وجعل يبحث عنه في تلك العاصمة المتسعة .

وكان توما إيكوسياً ، ولكنه ربي في لندرا وعرف كل خفاياها ، ولم يطل بحثه عن السير جورج ، وعلم انه يقيم في زقاق مظلم في شارع وينغ ، فذهب اليه وانقض على عنقه انقضاض الصاعقة ، وهو لا يزال في سريره ، فأشهر عليه المسدس وقال له : إذا لم ترجع إلي الغلام فأنت من الهالكين .

أما السير جورج فانه تظاهر بالانذهال المظيم وقال له : أي غلام تعني

أيها الشقي ومتى كنت من خطفة الغلمان ؟

- أعني به ابن اللادي افلين البكر أي ابن أخيك اللورد باميلتون .

فأنكر السير جورج كل الانكار وجعل يحتج على هذه التهمة الشائنة .

غير ان توما لم يكترث لأقواله وقال له ببرود : إني أمهلك خمس دقائق فاذا لم ترجع إلي الغلام قتلتك دون إشفاق .

ورأى السير جورج دلائل العزم الأكيد بادية بين عيني توما فخشي فوات الأوان وأقر بجميع ما فعل .

وهو ان السير جورج قد دفع ابن أخيه الى عصابة من اللصوص ، وطلب اليهم ان يربوه ويدربوه على مهنتهم ، وقد دل توما الى مكان تلك اللصوص .

فقال توما : إني أصدق أقوالك ولكني اود أن تذهب معي الى اللصوص ، وإذا حاولت الفرار أقتلك في قارعة الطريق .

فارتدى السير جورج ملابسه مكرهاً مضطراً مع توما الى اللصوص واسترد منهم الغلام ودفعه لتوما وعاد به الى أمه .

وفي ذلك اليوم اختفى السير جورج ، ومرت شهور طويلة دون أن يراه أحد .

أما غرض السير جورج من هذا الاختطاف فانه كان يكره أخاه اللورد باميلتون ويكره إمرأته التي طالما أحبها وتدله بهواها . ولكنه كان يحب ولده منها وهو ابن اللادي الثاني اي ابن الجريمة .

ولذلك رأى أنه إذا اختطف ابن أخيه ، عادت ثروة أخيه كلها الى ابنه ، أي ابن السير جورج ، لأنه معروف لدى الشرع والناس انه ابن اللورد باميلتون .

ومن ذلك الحين تولى توما مراقبة الغلام ، وكان لا يفارقه في الليل والنهار .

وكذلك اللادي أفلين فانها كانت لا تسير خطوة خارج المنزل إلا إذا كان يصحبها توما ، فلما ورد اليها ذلك النبأ الهائل ، نبأ مقتل زوجها في الحرب ، برحت لندرا مع توما وولدها وسارت بهم إلى ذلك الحصن كما تقدم ، فلبثت فيه حتى علمت أن السير جورج سافر إلى الهند ، برحت الحصن إلى القصر الذي يجاوره .

- ١٧ -

هذا هو سر اللادي افلين الذي كتبته في الدفتر وعرضته على ابيها اللورد سكولت فضمها الى صدره وقال لها : اني شيخ عجوز ، ولكن أخاك ينوب عني في الانتقام .

وبعد ثلاثة أشهر كان السير جمس أي أخو اللادي في الهند .

وكان السير جورج في كلكوتا حين قدم السير جمس ، فلقيه في حفلة راقصة اعدها الحاكم في منزله ، فدنا منه وحياه ثم قال له : اني قادم من لندرا بمهمة من اجلك ، فارجوك حين ينتهي الرقص ان توافيني الى الفناء المشرف على البحر .

- ساوافيك ، ثم تركه وعاد الى الرقص مع ابنة رجاه وافرة المال والجمال.

وبعد ربع ساعة وافاه الى المكان المعين فنظر اليه السير جمس نظرة منكرة وقال له : اني أعرف كل شيء .

فاضطرب السير جورج وقال له : ماذا تعرف ؟

- أعرف انك خنت أخاك .

- وماذا يعنيك أمري ؟

- يعنيني منه انك دنست شرف اختي ، وان جميع دمائك لا تكفيني

لغسل هذا العار .

ـ اني طوع لك فيما تريد .

ـ ولكنك تعلم اننا متصلان بصلة قربى .

ـ تريد انك لا تود استلفات الأنظار الى اختك .

ـ هو ذاك .

ـ إذاً نتبارز دون شهود .

ـ أين ؟

ـ في غابة على ابواب المدينة .

ـ ليكن .

ـ ولكن هذه الغابة لا يأوى اليها غير النور ، وغيرها من الوحوش الكاسرة .

ـ انها كسائر غابات الهند ، فمتى تريد أن نذهب اليها ؟

ـ غداً عند غروب الشمس فتأكل الوحوش جثة من يقتل منا ولا يدري بسرنا أحد .

ـ قد رضيت بهذا الاقتراح وساوافيك غداً الى الغابة .

وفي مساء اليوم التالي التقى الاثنان في الغابة فلم يدر أحد ما جرى بينهما ، ولكن السير جمس عاد وحده الى كلكوتا وقد بدأت النجوم تشرق في السماء، فكتب الى أبيه سكولت هذا التلغراف :

« ان شرفنا سليم وقد انتقمت لها »

وفي اليوم التالي رأى الصيادون في الغابة قطعاً من ملابس الجنود الرسمية، وكان قد شاع خبر احتجاب السير جورج فحسب الناس أن الوحوش قد افترسته في الغابة لاشتهاره بحب الصيد .

أما توما واللادي افلين فقد حسبا نفسيهما مطمئنين بعد ورود ذلك التلغراف .

بعد هذا العهد بخمسة أعوام ، وذلك في شهر إبريل سنة ١٨٣٤ كان اثنان يتحدثان بصوت منخفض في إحدى قاعات قصر باميلتون .

وكان المتحدثان توما وزوجته بيتزي ، وهذا بيان الحديث الذي كانا يتحدثان به .

قالت بيتزي : أعيد عليك ما قلته ، ان اللادي افلين مخطئة بعودتها إلى هذا القصر .

— إني لا أوافق ولا أعترض على ما تقولين .

— ولما هذا التردد في الحكم ؟

— لأن اعتقادي قد يكون مخالفاً للحقيقة .

— أما أنا فاني على غير رأيك .

— على أي شيء تعتمدين في تخطئتها ؟

— على ما أجده من الضعف المتوالي بجسمها ، فانها آخذة بالانحطاط في كل يوم ، وهي مصدورة ، دون شك ، ومناخ هذه الأرض لا يوافق المصدورين .

— ربما كنت مصيبة من هذا القبيل ، غير أني أصبحت الآن أرى غير رأيك ، فان اللادي افلين دعتني اليها يوماً منذ ثلاثة أعوام وقالت لي : إني أحب أن استشيرك في أمر ، لأنك من أصحاب الآراء الصائبة .

— تكلمي يا سيدتي .

— إني منذ أشهر وأنا أحلم أحلاماً هائلة ، بل هي حلم واحد ، ولكنه حلم يلقي الرعب في القلوب .

- إشرحي لي هذا الحلم علي أستطيع تفسيره .
- إن حلمي مقسم ثلاثة أقسام ، أما القسم الأول ، فاني أرى نفسي فيه مقيمة في قصر باميلتون الجديد ، أتنزه في الحديقة ، يصحبني ولدي البكر ويليم

فقاطعته بياتزي وقالت له : أعجب لتسمية ولدها البكر وليم ، ألم يكن زوجها يدعى أفندال ؟
- نعم ...
- اليس العادة في بلاد الانكليز عند اللوردية ، أن يرث الابن البكر إسم أبيه أيضاً فيما يرث ؟
- هو ذاك .
- إذاً كيف دعوه وليم لا أفندال ؟

- ذلك أن أباه اللورد أفندال كان له صديق صدوق ، ولما ولد غلامه البكر ، أحب ذلك الصديق أن يكون عرابه فسمي الغلام باسمه وهو وليم ، وسمي الولد الثاني باسم أفندال ..
- لقد فهمت الآن فعد إلى حديث الحلم .

- ان اللادي قالت لي إن القسم الأول من حلمي أجد نفسي أتنزه في حديقة القصر الجديد ، ويد ولدي وليم بيدي ، ثم أرى فجأة أن وجه ولدي قد امتقع واصفر واستحال إلى خيال ، ثم احتجب بغتة بضباب كثيف ، ثم أخذ الضباب يتبدد تباعاً ، فأرى ولدي ، إذ لا تزال يده بيدي ، ولكني أرى وجهه تغير فيصير أفندال ، وليس وليم .

فقلت لها : انه حادث هائل ، ولكنه حلم لحسن الحظ .
- اصبر واصغ إلى النهاية ، فإني حين أحلم هذا الحلم أستيقظ مرعوبة كمن يصاب بالكابوس ، ثم انهض مذعورة واجفة القلب إلى غرفة ابني أتفقده وأعود إلى غرفتي فأنام .

– أتحلمين أيضاً ؟

– نعم . اني أحلم القسم الثاني من هذا الحلم الهائل ، وهو أني أرى نفسي قد فارقت الحياة ، ولم يبق من أثري غير رسم لي معلق في قاعة المنزل ، وقد لبست ملابس الحداد ، ولكنني وأنا ارسم كنت أشعر وأفتكر كالأحياء .

وقد وضعوني في القاعة الموجودة فيها رسوم أجداد أسرة باميلتون وبازائي رسم زوجي الفقيد ، وكان رسمه مثلي يشعر ويتكلم فكنا نتحدث بصوت منخفض .

وكانت نوافذ القاعة مفتوحة وأشعة القمر تنبعث الينا فكنا نرى منها أشجار الحديقة .

وقد رأينا رجلاً يتنزه لم نكن نعرفه تصحبه امرأة متأبطة ذراعه ومعها كثيرون من الأشراف ، فكانوا يدعونه ميلورد ويدعون المرأة اللادي .

– إن هذا اللورد كان وليم دون شك .

– بل كان أفندال .

– وبعد ذلك ؟

– وبعد ذلك جعلت أنظر إلى زوجي وهو ينظر الي وكلانا رسمان فنذرف الدمع السخين .

فقلت : كيف صار أفندال لورد ، وهو حق أخيه العله .. ولم أجسر أتمم حديثي ..

– إنه لم يمت يا توما فان وليم كان لا يزال حياً .

وعند ذلك احتجب ضوء القمر ، واكتنفتنا الظلمات وسمعت زوجي الفقيد يشهق بالبكاء ثم تلا ذلك دوي عظيم كدوي الصاعقة تلاه برق يخطف الأبصار ..

إلى هنا ينتهي القسم الثاني من حلمي ، ويبدأ القسم الثالث . وهو

تتمة هذا الحلم ، وجعلت تبكي ، فأخذت أنظر اليها نظر المنذهل ، وأتمت حديثها وقالت .

- ١٩ -

- بصرت فرأيت أن قمم جبال شفيوت قد توارت ، وتلك الثلوج قد احتجبت ، وهذه المروج الخضراء القائم في وسطها قصرنا قد توارت عن الأنظار .

ومع ذلك فإني أنا وزوجي كنا لا نزال رسمين معلقين في الجدار ، ولكننا نستطيع أن نرى إلى مسافات بعيدة .

وكنا في رابعة النهار ، وأشعة الشمس تملأ الفضاء ، وكنا نرى عن بعد عمالاً يشتغلون فيها نبتاً ، فلا ينالونه لأن أولئك العمال كانوا من المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة .

وقد نفتهم الحكومة الانكليزية إلى البلاد الاوسترالية إلى أن تنقضي المدة المحكوم بها عليهم ، وكان بصرنا يمتد حتى يصل إلى تلك القارة .

وان بين هؤلاء المجرمين رجلاً بريئاً كان يشتغل مكرهاً ، حتى إذا أضنكه التعب رفع عينيه إلى السماء كأنه يستشهد الله على ما يعانيه .

وهنا توقفت اللادي عن الحديث ومسحت دموعها ثم قالت : أتعلم يا توما من هو هذا الرجل البريء المنكود أنه ولدي : اللورد وليم !

فدهشت لحلمها وراعني تأثرها منه فقلت لها : أنها أضغاث أحلام أيتها العزيزة ، فكيف يمكن أن يتفق مثل هذا ، وليس لنا غير عدو واحد ، وهو السير جورج ، ولكن أخاك قتله كما تعلمين .

— كلا .. ان الأمر لم يجر كما ظننت ، فان أخي وذلك الشقي قد تبارزا

في غابة في ضواحي كلكوتا ، لكن أخي لم يقتله ، بل أصابه بجرح بالغ في فخـذه .

– هو ذاك ولكن السير جورج سقط ولم يستطع النهوض ، فافترسته الوحوش الكاسرة ، ألا تذكرين ان جميع الجرائد نشرت هذا الخبر ؟

– نعم ، فإنهم وجدوا بقية من ملابس جندي ، ولكن من يعلم إن كان هذا الجندي هو السير جورج .

– إنك قد جريت شوطاً بعيداً في هواجسك ، وان موت السير جورج حقيقة راهنة لا ريب فيها .

فهزت رأسها وقالت : ولكني أريد أن أبرح هذا القصر في الحال .

– إلى أين تريدين الذهاب ؟

– إلى الحصن . .

– كما تشائين إذ لم أستطع أن أعترضها .

وهـذا هو السبب يا إمرأتي العزيزة في قدومنا إلى هنا .

وقالت بيتزي : ولكن صحة اللادي آخذة بالانحطاط كل يوم ويقـول الأطباء أن لا رجاء لهم بنجاتها .

– من يعلم فقد يخطىء الأطباء .

– ولكن الطبيب جوهان ممبروك ، لا يخطىء ، فهو يرى ان حياتهـا لا تطول ، وهو حاضر قريباً لعيادتها فسله إن شئت .

– ولكنه طبيب غريب الأخلاق والصفات .

– هو ذاك فانه غني لا يعالج للارتزاق ، ولكن ندر أنه عالج مريضاً دون أن يشفيه .

وفيما هما يتحدثان سمع قرع الجرس ، من الباب الخارجي الكبير ، فنهض توما وأسرع إلى الباب ليرى من الطارق ، فقد كانت معهودة اليـه حراسة الحصن العامة .

ولقي كبير الحراس وقال له : من يطرق الباب ؟
– إثنان أحدهما فارس والآخر راجل .
– ماذا يريدان ؟
– يريدان الدخول .
– ماذا يدعيان ؟
– إن الفارس يقول انه قادم من بيرت .
– والرجل ؟
– انه لا يقول شيء .

فذهب توما إلى الباب الكبير وكان البرد قارصاً والهواء زمهريراً والمطر يهطل كأفواه القرب ، ففتح نافذة صغيرة من الباب ونظر إلى الفارس فعرف انه الطبيب مبروك .

ثم نظر إلى الثاني وسأل الطبيب : من هو هذا الرجل القادم معك ؟

– انه فقير هندي لقيني في الطريق وسألني صدقة فوعدته بالضيافة .

فقطب توما حاجبيه وقال :

– انه يوجد كثير من الهنود في لندرا ، ولكني لم أر أحداً منهم في جبالنا وما تعودت اللادي أن تأذن لمن لا تعرفهم بالدخول إلى حصنها فسأعطيه صدقة وليذهب إلى القرية فيبيت فيها .

– كلا ، هذا لن يكن ..
– لما يا سيدي الطبيب ؟

فأجاب : لأن هذا الرجل قد أضنكه التعب ، ووهت رجلاه ، فلا يستطيع المسير .

– انه يجدد قواه في القرية وسأمنحه ما يكفيه .
إني أرجوك أن ترفق به فان الانسانية تقضي عليك بايوائه .
– ولكن الواجب يقضي علي بعدم قبوله ، لقد أقسمت يميناً للادي أن لا

أدخل إلى قصرها من لا أعرفه .

– إذاً أنت مصمم على عدم قبوله ؟

– كل التصميم ، لأني لا أستطيع أن أنهج هذا النهج .

ثم أخرج من جيبه جنيهين ورمى بهما إلى ذلك المتسول الهندي .

ولكن الطبيب منعه أن يأخذهما ، ثم جذب الفقير إلى جواده فأردفه وراءه وذهب وهو ينظر إلى توما النظر الشذر .

ففتح توما الباب وجعل ينادي الطبيب ، فلم يجبه الطبيب وسار ينهب الأرض بجواده إلى القرية .

وعاد توما إلى الحصن فركب جواداً وذهب إلى تلك القرية، فرأى الهندي مقيماً في فندقها قرب النار ولم يجد الطبيب .

وقد كان هذا الطبيب قال لصاحب الفندق إذا جاء توما وسأل عني فقل له اني لا أحب من خلت قلوبهم من الرفق الانساني ، فلا يدعونني لزيارتهم بعد الآن .

وعاد توما إلى الحصن منقبض الصدر كثير الهواجس ، وصعد إلى غرفة اللادي ، فوجدها ملقاة على سريرها كأنها نائمة .

وناداها بصوت لطيف فلم تجب ، فرفع صوته بالنداء ، فلم تستيقظ ، فدنا منها ولمسها ، ثم صاح صيحة رعب ، لأن اللادي لم تكن نائمة بل كانت قد فارقت الحياة .

بعد ذلك بعشرة أيام كان فارسان في نضارة الصبى يسيران فوق جواديهما جنباً إلى جنب في ضواحي قصر باميلتون ، وكان هذان الفارسان ولدي اللآدي باميلتون .

وكان اللورد وليم باميلتون ، الذي حرصت عليه أمه وتوما كل هذا الحرص قد بلغ مبلغ الشباب ، وبات جميلاً قوي البنية خلافاً لأخيه الأصغر فقد كان نحيف الجسم .

وكان اللورد وليم طلق المحيا كثير الابتسام متوقد العينين ، تدل مخائله على النجابة والسلام ، وأما أخوه السير أفندال ، فقد كان مقطب الجبين رقيق الشفتين .

وكانت علائم الاخلاص بادية في وجه الأول خلافاً للثاني ، فقد كانت دلائل الحسد بادية فيه .

وكانا يمتطيان جوادين من خير الخيول الإيكوسية ، وهما لابسان ملابس الصيد ، وذاهبان إلى الغابة للانضمام إلى رفاقهم الصيادين .

ولما أوشكا ان يصلا إلى الغابة اعترضهما ذلك المتسول الهندي ، وهو شيخ ابيضت شعوره وطالت لحيته حتى بلغت إلى صدره فقال لهما : أرجو يا سيدي أن لا تنسيا الفقير الهندي المسكين .

فألقى اللورد وليم جنيهاً اليه وقال له : أمض في سبيلك .

فالتقط الهندي الجنيه واختفى وراء الادغال .

وعندها قال السير أفندال لأخيه : انك نغصت عليه لذته باحسانك اليه فلماذا طردته يا أخي بعد احسانك اليه ؟

— لأنه كان السبب في موت أمنا فلا أطيق النظر اليه .

. كيف ذلك ؟

– ألم يخبرك توما شيئاً عن هذا ؟
– كلا .
فتنهد اللورد وليم وقال :

– إن أمنا كانت يوماً في أشد حالات المرض فدعا لهـا توما الطبيب مبروك ، فأقبل إلى الحصن ، ولكنه لم يجيء وحده ، بل جاء معه هـذا الفقير الهندي فأبى توما ادخال الهندي لأنه لا يعرفه فأفضى الأمر إلى استياء الطبيب ، وانصرف دون أن يعودها فماتت في تلك الليلة .

وأجابه افندال : ان كان كذلك كان الذنب ذنب الطبيب لا ذنب هذا الفقير المنكود .

– هو ما تقول ولكنه كان السبب في استياء الطبيب وانصرافه ، ومهما يكن من أمره فإني أشعر بانقباض حين أراه .
– أتراه دائماً ؟
– إني ما مررت بطريق الا تعرض لي .
– ولكن كيف ان هذا الرجل ولد في بلاد الهند وطابت له الاقامـة في جبالنا ؟
– هذا ما أجهله .

– ولكن توما قد يعلم شيئاً من أمره .
– لا .. فلم يقف احد من إهل القرية على شيء من سره ، وغاية ما عرفوا عنه هو أنه يدعى نظام وانه يقضي كل ليله في الغابات ونهـاره عنـد أبواب القرية او القصور ولم يعرفوا له مهنة غير التسول .

فقال له افندال : انه شيخ عجوز .
– ان هذا لا يمنعه عن العمل فإنه قوي نشيط ..
- ولكني رأيت منه ما راعني حين أحسنت عليه بالدينار ، فانه نظر اليك نظرة تشف عن البغض الشديد ، في حـين انه كان ينظر الي نظرات

الحنو والانعطاف .

فضحك اللورد وليم وقال : هذا يدل على انه راض عنك واني لم اتشرف بارضائه .

– ولكن عزاءك ان هذا الفقير إن رضي عني دونك فانه يوجد كثيرون يسفكون دماءهم عند قدميك ويفضلونك علي كل التفضيل .

فهز اللورد كتفيه وقال : أظنك تعني توما .

– توما وامرأته بياتري .

– اتظن انهما لا يحبانك ؟

– دون شك ، ولو كنت مثلك لورداً لطردت هذا الرجل وامرأته .

فأجابه اللورد وليم بجفاء : اذاً تكون ارتكبت خطأ عظيماً فان توما اخو امنا بالرضاع وارجو ان لا تنسى هذا يا أخي .

فسكت افندال وسار الاثنان دون ان يتكلما حتى دخلا الى الغابة .

* * *

ولم يسيرا بضع خطوات حتى رأيا على مسافة بعيدة جمهوراً كبيراً من الفرسان ، جميعهم بملابس الصيد الحمراء ، وامامهم فتاة ممتطية جواداً اسود ، وهي مرتدية بملابس بيضاء .

فخفق قلب اللورد وليم حين رآها ، أما السير افندال فانه نظر الى اخيه نظرة ملؤها البغض والحسد .

غير ان وليم لم يره ولكز جواده وهو يقول : ان هذه هي مس اينا .

- ٢١

كانت مس اينا في الثامنة عشرة من عمرها ، وهي فتنة للناظرين ، لما وهبها الله من الجمال .

وهي ابنة السير ارشيبالد كيرتون ، كان ابوها قد سافر الى بلاد الهند ، واشتغل بالتجارة على كونه كان من النبلاء الأغنياء ، فجمع ثروة طائلة ، وتزوج ابنة رجاه هندي فازدادت ثروته اضعافاً ولم يرزق منها غير هذه الفتاة .

وكان قصره يبعد عن قصر اللورد وليم مسافة ثلاثة أميال فكانا يتزاوران وكانت مس اينا يحمر وجهها حين ترى اللورد وليم .

ولما تمكن الحب منها ذهب اللورد وليم إلى السير أرشيبالد وقال له : اني أحب ابنتك وأسألك أن تنعم علي بزواجها .

فأجابه : وأنا رأيت ان ابنتي تحبك ايضاً ويسرني عقد هذا الزواج بينكما ولكن امرأتي قد توفيت ، وهي ابنة رجاه هندي واسم الثروة ، ولا وارث له غير ابنتي ، فلذلك لا استطيع تزويجها دون مصادقته .

ورأى السير أرشيبالد ان اللورد وليم قطب جبينه فقال : ولكني أخبرك مقدماً أن الرجاه يصادق لفوره فإنه يريد ما تريده ابنتي .

وكانت هذه المفاوضة سرية بينهما وكتب السير أرشيبالد إلى الرجاه ، غير أن الطامعين بزواج الفتاة كانوا لا يزالون يختلفون إلى منزلها ، فكانت تلاطفهم ، وتحضر معهم حفلات الصيد ، لشدة ولوعها بتلك الحفلات .

ولذلك كانت في طليعة أولئك الصيادين الذين توافدوا في ذلك اليوم إلى

الغابة ووافاهم اليها اللورد وليم وأخيه .

ولقد تقدم لنا القول ان اللورد وليم ، حين رأى مس إينا دفع جواده في تلك الغابة ، ولبث أخوه السير أفندال يسير وراءه الهوينا ، وهو ينظر اليه بعينين تتقدان ببارق الحسد والحقد .

أما اللورد وليم فانه التقى بمس إينافمدت اليه يدها وصافحته قائلة له وهي تبتسم : ان لدى أبي نبأ سار سيوحيه اليك .

فاحمر وجهه وقد أدرك القصد ، وعند ذلك دنا منه السير أرشيبالد وقال له : إن الكتاب الذي ننتظره من الهند قد وصل يا بني ، وان الرجاء يوافق على الزواج .

ثم التفت إلى اولئك النبلاء المحيطين بهم وقال لهم

-- أتشرف أيها السادة باخباركم ان ابنتي مس إينا ستزف قريباً إلى اللورد باميلتون .

فوقع هذا النبأ وقوع الصواعق على كثيرين من الذين كانوا طامعين بزواج الفتاة ، ولكنهم كظموا الغيظ وأقبلوا يهنئون الخطيبين .

وعند ذلك رأى السير أرشيبالد السير أفندال فقال له : وأنت أيها العزيز لدي نبأ سار أيضاً أخبرك به ، ألم تطلب الخدمة في جيش الهند ؟

— نعم ..

- إذاً أبشرك الآن انك قد عينت قائد فرقة ، وقد صدر الأمر بتعينك في هذا الصباح .

فاضطرب السير افندال اضطراباً شديداً خاله أخاه اللورد وليم اضطراب فرح وقال له : يجب عليك أن تشكر يا اخي السير أرشيبالد فقد ساعدك بملء الإخلاص ، ولكني أرجو أن لا تسافر على الأثر اليس كذلك ؟

— انك رئيس اسرتنا فعليك أن تأمر وعلينا ان نطيع .

— إذاً أرجو ان تبقى إلى أن تحضر زواجي .

- سأمتثل

والتفت السير أرشيبالد إلى رفاقه وقال لهم : هلموا إلى الصيد ، أيها السادة .

ونفخ في بوق الصيد ، وأنطلق الصيادون يطاردون الأرانب بجيادهم الصافنة ، ما خلا واحداً منهم ، وهو السير أفندال ، فانه تخلف عنهم ، وترجل عن جواده فربطه الى شجرة ، وجلس على العشب وقد عض قلبه الحسد ، وخرج الحقد لهباً من عينيه ، وجعل يحدث نفسه بصوت مرتفع ويقول :

- ما هذا القدر الجائر ، وما هذا الظلم الشائن ، ألم أكن أخاه ، ألم أولد مثله من أب واحد وام واحدة ، ألا يجول في عروقنا دم واحد ، فما باله اختص بالثروة والشرف ، واللقب ، ومس إينا في حين اني لم أنل غير رتبة قائد في الجيش الهندي ، إنها قسمة جائرة فيا ويل هذا الأخ اني اكرهه أشد كره .

وكان يتكلم بصوت مرتفع وهو يحسب انه وحده في تلك الغابة .

ولكنه لم يكد يتم حديثه حتى فتحت الأدغال وخرج منها شيخ أبيض الشعور .

ولما رآه افندال قال : انت الفقير الهندي .

فأجابه بلهجة التهكم .

- انا هو صديقك الهندي الذي لا يريد إلا خيرك من هذا الوجود وهو يكره اللورد وليم كما تكرهه .

وجعل افندال ينظر إلى هذا الرجل منذهلاً ، فانه كان عجوزاً كما تدل شعوره البيضاء ، غير ان من تمعن في ملامحه يجد بينها دلائل القوة والنشاط .

والغريب في أمره ان لون وجهه كان يدل على انه من الارلنديين إذ لم يكن له من علائم الهنود غير اللون الأصفر .

وكان هذا الرجل حين يسير في الأزقة متسولاً يرفع أكام ثوبه ويكشف صدره فيذعر من يراه لأن جسمه كان مصاباً بجراح مغطاة بقشرة رقيقة شفافة كورق البصل .

وكان منظرها مما تقشعر له الأبدان ، وهو يدعى نظام كما قدمناه ، فكان إذا أراد حمل الناس على الاشفاق عليه يقص عليهم قصته الغريبة ، وهو أنه سقط بين براثن النمور في إحدى غابات الهند . فبينما النمور تمزقه بأنيابها وهو مستسلم للقضاء كسائر الهنود ، سمع دوي قاصف كدوي الرعود ، فتوقفت النمور عن نهشه وجعلت تتشاور بالأنظار ، وقد قلقت لهذا الدوي .

وكان الدوي يدنو منها فتهتز له الأرض ، وبات منتظماً يشبه صوت أقدام جيش كثيف يسير بخطوات موزونة .

فلما اقترب الصوت هربت النمور وتركت نظام لا يزال في قيد الحياة ، أما هذا الجيش الكثيف فقد كان من الأفيال .

فقال نظام في نفسه : إن النمور قد تخلت عني ، فهل تصفح عني الأفيال ؟

وكان عدد الأفيال يبلغ نحو مائتين وفي طليعتها فيل وهو ذلك الفيل المقدس عند الهنود .

فلما وصلت تلك الأفيال الى نظام وقف الفيل الأبيض فوقفت الأفيال كلها ثم لف الفيل الأبيض خرطومه على نظام ورفعه برفق إلى فوق ظهره ومشى فتبعته الأفيال .

وما زال سائراً به والأفيال تتبعه حتى وصل إلى حقل أرز فألقاه فيه وانصرف برفاقه بعد ان جعله في مأمن من النمور .

وهكذا كانت نجاة نظام فإن جراحه شفيت ، ولكن الجلد لم ينم فوقها بل نمت بشرة رقيقة كانت تشف عن تلك الجراح الهائلة فتبدو للأنظار بما يحمل على الذعر .

وقد بقي من مشكلات أسراره سفره من الهند وإقامته في تلك الجبال فإنه لم يبح بسرها لأحد

أما هذا الفقير فانه حين لقي السير افندال ، جلس بجانبه دون كلفة وقال له : لا تخف مني شيئاً ، فإني متصل بك أكثر من اتصال الشجر بقشرها ، فإني أحبك حباً لا أصفه ، إذ لا أفيه ، وقد أوقفت دمائي لك .

- أحق ما تقول ؟

- كل الحق لأني أحبك وأحب ان أجملك لوُرداً .

فتنهد السير افندال وقال . إن هذا مستحيل لسوء الحظ .

- لا شيء مستحيل في هذا الوجود ، إصغ الآن ألا تستطيع التخلي عن هذا الصيد ؟

- نعم ..

- أيروق لك ان تسمعني ؟

- قل ما تشاء .

- إنك يا سير افندال تحب مس إينا .

فارتعد الفتى وقال : كيف عرفت ذلك ؟

– إنك حين ترفع عينيك إلى هذه الجبـال ، ترى فوقها أبراج حصن باميلتون .

– وبعد ذلك ؟

– وبعد ذلك ترى تلك الحقول المتسعة التي تكتنف القصرين على مسافة عشر مراحل .

فتنهد افندال وقال : هو ما تقول !

– وإنهم ينادونك بلقب الأشراف البسيط في حين أنهم ينادون أخاك بلقب ميلورد .

– هو ذاك ولكن ما تريد ان أفعل ؟

– يجب ان تصير لورداً وإذا أردت أنا أبلغك هذا المقام .

فنظر اليه وقال : أنت ؟!

فاتقدت عينا نظام وقال: لا تهزأ بي فان الناس يستخفون بي هنا حين يرونني ولكني إذا أردت جعلتك لورد باميلتون .

– كيف ذلك ؟

– إصغ إلي .

– ٢٣ –

ثم أخذ يده بين يديه ، وقال له : كم كان عمرك يا بني ، حين ماتت والدتك ؟

– سبعة أعوام .

– أي كنت صغيراً لا يمكن الإباحة لك بالأسرار .

فارتعش افندال وقال : أي سر تعني ؟

— سر يتعلق بمولدك .

فشمخ السير افنذال بأنفة وقال له بلهجة ملؤها العظمة والكبرياء : ان مولدي لا أسرار فيه .

— سوف تعلم لأني سأخبرك بكل شيء . والآن قل لي ألم تسمعهم يتحدثون بعمك السير جورج باميلتون ؟

— بالقليل النادر .

— ولكنهم ذكروا اسمه أمامك بعض الأحيان .

— نعم ..

— من كان يحدثك عنه ؟

— خدم المنزل .

— وأمك ؟

— لم أسمعها ذكرته مرة أمامي .

فابتسم الهندي إبتسام الأبالسة وقال : ألم تذكر اسمه على الاطلاق ؟

— بل أذكر أن أحد الخدم ذكر اسمه مرة أمامها ، فأوشكت أن يغمى عليها .

فقال الهندي بلهجة المتهكم : ولكنها لم يكن يغمى عليها من قبل .

فاستاء أفندال من تهكمه وقال : ماذا تعني أيها المتسول ؟

أما الهندي فانه لبث يبتسم وقال له : لا تحتقرني يا سير أفنـــدال ، فاني أنا المتســول أستطيع ان أفعل مــا لا تستطيعه وأنت من النبــلاء ، وقد قلت لك إني قادر ان أجعلك لورداً ، وأزوجك مس اينا ، تلك الغنية الحسناء .

فاهتز الســير افندال اهتزاز الأجســام الكهربائية وقال له : إمض في حديثك .

— انه يوجد رجل ايضاً في باميلتون لا يذكر السير جورج بلسان وهو توما

شقيق أمك بالرضاع .

نعم وإني أكره هذا الرجل أشد الكره .

– لقد أصبت في كرهك إياه ولكن لماذا تكرهه ؟

– لأنه يحب أخي ويؤثره علي بكل أمر .

بل يوجد سبب آخر لو عرفته لتضاعف حقدك .

– ما هو ؟

سأكشفه لك . ولكني لا أريد البحث الآن في توما ، بل في السير جورج .

– تكلم .

– إن السير جورج كان منذ عشرين عاماً مثلك ، ثاني أبناء اللورد باميلتون ، بل كان مثلك في كل أمره . فان أخاه تزوج إبنة اللورد اسكولت وتمتع بتلك الثروة الواسعة ، في حين أن أخاه كان قائداً بسيطاً في الجيش الهندي .

فتنهد افندال وقال : وأنا أيضاً سأخدم في جيش الهند .

– غير ان السير جورج كان يهوى مس افلين .

فاضطرب السير افندال وقال : وهل كانت مس افلين تهواه ؟

– نعم ..

– إنك كاذب نمام

فأجابه الهندي ببرود : إني لم أكذب في حياتي .

ثم نظر اليه نظرة تسلط بها على حواسه وقص عليه بالتفصيل جميع ما مر من الحوادث بين السير جورج وأمه تلك الليلة الهائلة التي اضطرت فيها اللادي باميلتون الى خيانة زوجها مكرهة .

فكان السير افندال يسمع حديثه ، والعرق ينصب من جبينه ، إلى أن أتم حديثه .

ثم قال له : إذاً ان السير جورج كان ...

فقاطعه الهندي ببرود : نعم ، انه أبوك .. وقد خطر له أيضاً أن يحملك لورداً .

– ولكن السير جورج قد مات .

– لقد مات في عرف جميع الناس .

– وفي عرفك ؟

– إنه لا يزال حياً يرزق ، وسأبرهن لك على صدقي فيما أقول .

ثم نهض وقال لأفندال : إنتظرني هنا فسأعود اليك قريباً .

وتركه وانصرف فدخل بين أشجار الغابة .

وهنا ذهب إلى ساقية وغسل وجهه بمياهها عدة مرات ، وعاد إلى السير أفندال .

فلما رآه دهش دهشة عظيمة لأن ذلك اللون الأصفر قد امحى ، وحل محله لون الأوروبيين الأبيض .

وبينما كان السير افندال ينظر اليه منذهلاً قال له الفقير : إني لست من الهنود وان السير جورج هو أنا يا بني .

وكاد السير أفندال يجن لدهشته ، وجعل يكرر قوله : أنت ، أنت .. أنت أبي ...

– نعم أنا هو أبوك ..

ثم ضمه الى صدره وجعل يعانقه بلهف شديد ، فإن هذا الرجل الذي كانوا يدعونه في تلك الجبال باسم نظام ويحسبونه من الهنود ، كان السير جورج بعينه .

وكانت الحكاية التي يرويها عادة للناس عن أسباب جراحه صادقة ، فقصها على ولده افندال ، وأخبره في الختام ان الجيش الانكليزي يعتقد أنه قد مات ، وان الجرائد نشرت خبر وفاته ، فتنكر بلباس الهنود وجاء

الى هذه الجبال .

فقال له السير افندال : وأي غرض لك من أن يحسبك الناس ميتاً ؟

سأقول لك كل شيء يا بني فاصغ إلي .

- ٢٤ -

إن شفاء جراحي طال شهرين ، كنت مختبئاً في خلالها في منزل أحد البراهمة .

وكانت النمور قد شوهتني تشويهاً عظيماً ، حتى إني لو ذهبت الى الجيش الانكليزي واختلطت برفاقي الجنود لما عرفني منهم أحد .

ولكن لم يكن نصب عيني غير غرض واحد وهو الرجوع الى انكلترا ليس لأرى اللادي أفلين بل لأرى ابن غرامنا وهو انت .

وكان الهندي يتكلم وعلائم التأثر بادية من حديثه ، بحيث لم يشكك السير افندال ان نظام والسير جورج واحد ، وان السير جورج هو أبوه دون شك .

قال السير جورج : وقد أقمت عند الرجل الهندي ثلاثة أشهر بحت له في خلالها بسري وأطلعته على بعض مقاصدي ، فأعطاني صباغاً جعل لون وجهي كلون الهنود .

ومررت الى كلكوتا وامتزجت مع الناس فلم يعرفني أحد .

وقد أقمت في المدينة السوداء ، وهي مدينة الوطنين ولم يكن لدي شيء من المال وأنا في حاجة اليه لنفقات السفر ، فلفقت حكاية عن سبب تشويهي .

وكان تشويهي يستلفت الأنتباه ، فجعلت أقصها على الوطنيين والانكليز

وأتخذها وسيلة للكسب ، فما مر بي ستة أشهر حتى جمعت النفقات اللازمة لسفري إلى أوروبا .

فجئت الى لندرا وقد أقمت فيها عـدة أشهر فكنت أرود بين قصر باميلتـون وأتردد إلى الحدائق العموميـة ، فكنت أراك في بعض الأحيـان .

فقاطعه السير افنـدال قائلاً : لقد ذكرت ذكرى بعيـدة ، وهي اني عندما كنت في الرابعة من عمري أذكر أنهم ذهبوا بي إلى الحدائق ، وبينما أنا العب مع الغلمان رأيت رجلاً هندياً ينظر إلي ويبتسم . فلم يغب رسمه عن ذهني .

— هذا الرجل هو أنا يا بني فقل ألا تذكر شيئاً ايضاً ؟

— نعم فإننا كنا نلعب فوق الجليد ، ثم فتح الجليد فجأة وسقط أحد الغلمان في النهر ، فأسرع الرجل اليه وانتشله ورده الى أهـله دون ان يصاب بأذى .

— ألا تذكر انك رأيتني بعد ذلك ؟

— نعم ..

— إذاً إصغ إلى تتمة حديثي

إن اللادي باميلتون برحت لندرا وجاءت بك وبأخيك وبتومـا إلى هذا الحصن فأقامت فيه .

ولم أجد بداً من القدوم أيضاً لأراك ، ولكن لم يكن لدي نفقات السفر . فقطعت تلك المسافة الشاسعة مشياً على الأقدام ، وكنت استدل على الطريق حتى وصلت .

غير اني لم أكن أراك إلا في النادر لأن امك وذلك الشرير توما قد جعـلا القصر حصناً منيعاً ولم يأذنا لأحد بالدخول اليه .

وقد بالغت في الحيل توصلاً الى الدخول الى القصر فما استطعت .

وبينما كنت أرود ليلة حول الحصن، وكانت ليلة باردة ممطرة، رأيت فارساً قادماً اليه فاستوقفته وسألته الاحسان ، فنظر إلى مشفقاً وقال : إن البرد يؤثر بك كما أرى .

– إن البرد ينخر عظامي ، والجوع يعض قلبي ، ولا أجد سبيلاً للقوت والمبيت .

– تعال معي فتأكل وتدفأ .

– إلى أين ؟

– الى هذا الحصن .

– لقد أخطأت يا سيدي فان أبوابه لا تفتح للبائسين أمثالي .

– إتبعني فاني طبيب العائلة المقيمة فيه ولا يقفلون دوني الأبواب .

فامتثلت له ، ولكن توما أبى أن يأذن لي بالدخول ، بالرغم عن إلحاح الطبيب ورجائه .

وعاد الطبيب مغضباً دون ان يدخل الى المنزل وهو يقول : إن الرفق قد انتزع من قلوب هؤلاء الناس فلتقع التبعة عليهم .

ولقد أصاب فيما كان يتوقعه لأن أمك ماتت في اليوم التالي ، ولو أدركها الطبيب لأنقذها ، فكان توما الجاني عليها باغضابه الطبيب .

فقال له أفندال : ألا تزال منذ ذلك العهد في هذه الجبال ؟

– نعم .

– ماذا تصنع ؟

– أستعطي وأحاول أن أراك ، فأنسى الكدية وما أنا فيه حين أمتع عيني بوجهك .

– إذاً أنت السير جورج . أنت أبي ؟

فأدمعت عيناه وقال : نعم يا بني .

– إذاً إني مسافر إلى الهند وستسافر معي ، فلا يعلم أحد بأمرنا وتعيش

معي سعيداً .

فضمه السير جورج الى صـدره وقال له : كلا يا ولدي إنك لا تسافر إلى الهند .

– إلى أين إذاً تريد ان أذهب ؟

– تبقى هنا .

– لماذا الكي يقتلني حقدي على أخي ؟

– كلا بل لكي تحل محله وتصير لورداً .

– أنا أصير لورداً ؟

– وتتزوج أيضاً مس اينا خطيبة أخيك .

فاضطرب السير افندال وقال : إذاً يجب ان يموت أخي وليم .

– ربما .

– ولكن كيف يموت وهو في ريعان الشباب ؟

– إن الموت لا يروعه الصبا .

– العلك تريد قتله ؟

– ماذا يهمك ؟

– كلا كلا ، اني لا أريد سفك دمه .

فأطرق السير جورج هنيهة ، ثم قال : إذاً ، لنفترض أن جميع الناس باتوا يعتقدون ان اللورد وليم ميت ، وهو مع ذلك لا يزال في قيد الحياة .

- ولكن ذلك مستحيل .

– ليس من مستحيل علي وكل شيء ممكن في هذا الوجود .

– إذاً يبقى أخي حياً ويعتقد الناس انه مات .

– نعم .

– وأتزوج مس اينا ؟

– تتزوجها .
– ولكنك تقسم لي ان أخي لا يموت .
– اقسم لك بك اني لا أقتل أخاك .
ثم ضمه الى صدره فقبله واحتجب في الغابة بين الأشجار .

- ٢٥ -

لم ير السير افنـدال أباه في ذلك اليوم ، وفي المساء عاد الى القصر وهـو مفكر مهموم .

وكان اللورد وليم قد وصل إلى القصر عائداً من الصيد فرأى أخاه وقال له: ماذا أصابك وأين كنت ؟

- إني تهت عنكم في الغابة فقضيت يومي متنزهاً بين الحقول .
– لقد شغل بالي عليك حين طلبتك فلم أجدك لاسيا وان لدي أموراً خطيرة أحب ان أطلعك عليها .

فارتعش السير افندال وسأله : ما هي ؟

– هي أولاً إني أحسب نفسي من أسعد الناس لأنه لا يمضي ثلاثة أسابيع حتى تصبح مس اينا اللادي باميلتون .
– إني اهنئك يا أخي وأرجو لك التوفيق .
- ثم انني تحدثت ملياً بشأنك مع والد مس اينا .
– على أي محور دار الحديث ؟

– إعلم يا أخي العزيز إني أنكر الشريعة الانكليزية كل الانكار فيا يتعلق بحقوق البكورية

وابتسم السير افندال ابتسام المتهكم وقال : كيف ذلك ؟

– ذلك إني أخوك البكر ، فلي اللقب والأراضي ولي السعادة وعضوية المجلس الأعلى .

فأجابه أخوه بلهجة الراضخ لأحكام القدر ، أما أنا فلا شيء لي .

– هو ذاك ، ولكني أعد هذه القسمة جائرة ، ولا أرتاح لهذه الشريعة وإني أحب ان أشركك في كل ما لدي ، ولكن الشرع لا يجيز هذا الاشتراك لنكد الطالع .

فأجابه افندال بجفاء : أتراني سألتك شيئاً من ذلك ؟

فابتسم اللورد وليم وقال : إصغ إلي يا أخي العزيز ، فقد خطر لنا خاطر أرجو ان يكون صالحاً .

– ما هو ؟

– إنك تعلم ان خطيبتي حفيدة أحد امراء الهند .

– نعم .

– وان لعميدها الأمير خالا لا تقل ثروته عن ثورة أخيه وله بنت واحدة، فخطر لوالد خطيبتي ان يزودك برسائل توصية الى والد هذه الفتاة ، فلا يبقى عليك إلا ان تريد الزواج بدابي ناتا .

– أتدعى هذه الفتاة دابي ناتا ؟

– نعم يا أخي وهي بارعة في الجمال .

– اني أشكرك خير شكر لحسن عنايتك بي .

وكانت نبرات صوته تدل على شيء من التهكم ، غير أن اللورد وليم لم ينتبه لتهكمه ، فقد كان سليم النية شديد الرفق بأخيه ، فلم يخطر له الشر في بال .

ولما أصبح السير افندال وحده ضم يديه منذراً متوعداً وقال: ليست تلك الفتاة الهندية التي أبتغيها ايها الأبله بل مس اينا ولا أريد العيش بين حقول الأرز وتحت سماء الهند المحرقة ، بل أريد العيش في هذه الحقول البديعة التي

تكتنف قصر باميلتون

ومضى على ذلك يومان ، كان السير افندال يخرج كل يوم فيهما متنزهاً ، ويذهب الى ذلك المكان الذي روى له فيه الفقير الهندي حكايته ، فلا يجده .

وفي مساء اليوم الثالث ، بينما كان عائداً من الغابة ، وقد كاد يقنط من عدم لقاء أبيه ، لقي توما بملابس السفر ، وهو يحادث أخاه اللورد بصوت منخفض .

فدنا منهما وقال لأخيه : الى أين يسافر توما ؟

— الى لندرا .

— لماذا ؟

.. ليحضر لي أموالاً وضعتها في المصارف

وعند ذلك ودعهما توما وذهب ، فتأبط وليم ذراع أخيه وقال له : إن الشرائع الانكليزية تقضي علي ان أحتفظ بثروة العائلة العقارية أما المال النقدي فاني أتصرف فيه كما أشاء .

وإن لدي في المصارف عشرين الف جنيه ، فاسمح لي يا أخي العزيز أن أقدمها لك .

فاضطرب السير افندال وتلعثم لسانه ولم يدر ماذا يجيب .

وافترق الاخوان ، واحد يضمر الشر والكيد لاخيه المحسن اليه ، وآخر لا يريد له إلا الخير فلما حان وقت الرقاد دخل السير افندال الى مضجعه .

* * *

وكانت تلك الليلة من ليالي الصيف الحارة ،ففتح السير افندال النوافذ وصعد الى سريره ولكنه لم يستطع النوم لكثرة همه وتفكيره

وفيما هو يفتكر بأبيه سمع حفيف أوراق تحت النافذة ، ثم رأى رجلاً قد وثب فجأة من تلك النافذة الى الغرفة بخفة القرود .

فذعر افندال ولكنه ما لبث أن رأى الرجل حتى صاح صيحة فرح وقال: أهذا أنت يا أبي وأين كنت فاني لم أرك منذ ثلاثة أيام ؟

– إني كنت في لندرا وقد عدت منها الآن .

– وأي شأن لك في لندرا ؟

– ذهبت اليها للبحث عن أصحاب ، أحتاج اليهم ليساعدوني على جعلك لورداً .

فارتعش السير افندال وقال : إذاً سأصبح لورداً حقيقة ؟

– دون شك .

– متى ؟

– قبل ان يمر شهر .

– ولكنك تبر بقسمك ولا تقتل أخي اللورد وليم .

– لقد أقسمت لك وهو قسم أجله .

فتنهد السير افندال وقال : إذاً يبقى حياً ويحسبه الناس من الاموات ؟

– هو ذاك .

– ماذا عزمت على ان تصنع به ؟

– لا تتسرع يا بني فسأخبرك حين يحين الاوان ، غير إني محتاج إلى شيء من المال .

– لا أعلم مقدار حاجتك ، وهذا مالي بين يديك ، فخذ منه ما تحتاج اليه .

ثم قام الى خزانة ملؤها الاوراق المالية ودفعها الى أبيه ، فأخذ منها مائتي جنيه ورد الباقي فقال : ان هذا القدر يكفيني الآن وإذا احتجت الى المزيد عدت اليك .

عند ذلك ذهب الى النافذة كي يعود منها كما أتى ، ثم عاد فقال لابنه : أسافر توما ؟ .

– نعم .

– متى ؟

– في هذا المساء .

فاتقدت عيناه ببارق السرور وقال : إذاً لقد آن لنا ان نبدأ بالعمل ، فاطمئن يا بني فستغدو لورداً .

ثم تركه وانصرف .

- ٢٦ -

عقب تلك الليلة يوم حر شديد انقطعت فيه الطيور عن التغريد ، واحتجبت بين الاوراق فراراً من أشعة الشمس المحرقة .

وقد كف الناس عن السير في الطرقات ، وأصبحت تلك البلاد الباردة كأنها في خط الاستواء .

ومع ذلك فقد كان فريق من الرجال يسيرون في طريق كثر الغبار فيها ، وقد أنهك التعب والحر أجسامهم ، وهم مقيدون بسلاسل ، كل اثنين منهم بسلسلة .

وكانوا جميعاً حفاة الاقدام حاسري الرؤوس حليقي الشعور ، وهم من المجرمين الايكوسيين المحكوم عليهم بالنفي الى اوستراليا ، فكان الجنود سائرين بهم الى ميناء ليفربول .

وكانوا يسيرون ببطء ، والعرق يسيل من أجسادهم . وكان بعضهم يشكو ويتوجعون ، وآخرون يتضجرون ويشتمون . وإذا أضنى التعب

أحدهم وتوقف عن المسير أدركه كرباج الجندي ، فصاح صيحة ألم وتبع الرفاق حذر السوط

غير أن اولئك الجنود كانوا يعانون نفس ما يعانيه أولئك المجرمون ، فقال أحدهم لرئيسه : لقد أنهكنا السير ، وصهر الحر أجسادنا . ألا ترى أن نستريح ؟

– أراك قد تعبت ؟

-- إن قدمي قد تورما .

-- وأنا أكاد أموت ظمأ .

– بئست هذه الطريق فإننا لا نجد فيها قطرة ماء .

فأجابه الرئيس : ذلك لان هذه الثلوج التي تراكمت فوق هذه القمم ، لم تذب بعد .

– اني أخشى ان لا تذوب .

– وهذا ما أراه غير انه لا بد لنا ان نجد قرية او فندقاً .

إني أعرف هذه البلاد ، فانه يوجد على مسافة مرحلتين أيضاً ، قرية باميلتون .

ولكني لا أستطيع الصبر على العطش الى ان نبلغ القرية .

ولكننا نتوقف عن السير قبل البلوغ اليها .

– أين ؟

– ألا ترى هذه النقطة السوداء الشاسعة ؟

- نعم ...

– إنها غابة كثيفة تبدو في آخر ما يمتد اليه البصر كالنقطة في الكتاب ، غير انه يوجد فيها نهر صغير نقيم على ضفته إلى المساء بدلاً من ان نواصل السير الى قرية باميلون .

– بل أرى أن نروي عطشنا من هذا الجدول، ثم نواصل السير الى القرية.

فأجابه الضابط وكان يدعى برسي : كلا بل نقيم عند النهر ، فاننا نكسب بذلك مائة جنيه .

فنظر اليه الجنـدي نظرة المنذهل وقال له : كيف ذلك العل الشمس قد أثرت بك أم أنت تهزأ بي ؟

لا هذا ولا ذاك فاني أقول الحق .

ــ ولكن كيف نكسب المائة جنيه .

ــ هذا سر من اسراري ويكفيك أن تعلم انك ستنال منها نصفها .

ــ أنا انال النصف ؟

ــ نعم ، انما يجب من أجل ذلك أن تفعل ما أقوله لك .

ــ اني أفعل كل ما تريد فان هذه القيمة لا أنالها في عام . فقل لي ما يجب أن أصنع .

ــ انك تتسرع يا جوهن والتسرع غير محمود ثم سكت ولم يوضح له شيئاً .

وكان المجرمين قد كثر تذمرهم فرق الضابط لهم وقال: صبراً ألا ترون هذه الغابة فاننا سنستريح فيها ونحن في هذا الشقاء سواء .

فارتاح المجرمون لهذا الوعد وكان عددهم ثمانية .

وكان يسير وراء المجرمين بغل يقوده جنـــدي ثالث ، وفوق هذا البغل رجل نائم .

وكان هذا الرجل فتى لا يتجاوز العشرين من العمر وقد أخذوه منمستشفى على الطريق وهو كأنه مصاب بداء البرص وهيأته تحمل على الرعب .

وكانوا يخافونه خوفاً شديداً حذر العدوى ، فاذا توقفوا للاستراحـــة عزلوه عنهم ، ولبس الحارس الذي يقدم له الطعام والشراب قفازاً اتقاء لهذا الداء الوبيل

على أن هذا الفتى المنكود لم يكن مصاباً بالداء وحده بل زاد في نكبته أنه كان معتوهاً ولم يكن ينطق بحرف .

ولم يكن بينهم من يعلم أي ذنب جنـاه هذا الرجل غير أن الذي كانوا يعلمونه من أمره انه كان محكوماً عليه بالنفي .

وبعد أن اذاب الحر أجسادهم وصلوا إلى تلك الغـابة فصدر أمر القائد بالتوقف عن السير ولكن المجرمين بدلاً من ان يتوقفوا اندفعوا إلى النهر وقد كاد الظمأ يقتلهم والقوا انفسهم في الميـاه فكانوا يشربون ويغتسلون في وقت واحد فيروون عطشهم ويتداوون من الحر بشرب المياه .

وبعد أن فرغوا من الشرب والاغتسال رق القائد عليهم قطعاً من الخبز وقال لهم : انكم تستطيعون أن تناموا إذا أحببتم فاننا سنقيم هنا إلى المساء ، فنام اولئك المنكودون فوق العشب وبقي القائد برسي والجندي جوهن قربهم يتحدثان بصوت منخفض .

قال القائد للجندي : اننا سنربح مائة وخمسين جنيه لا مائة كما قلت لك ، ولكنك تقبض خمسين وأقبض مائة

.. لتكن القسمة كما تشاء ولكن أود ان أعلم كيف نكسب هذا المال .

– ألا تذكر حين وصلنا إلى برت وأخذنا من مستشفاها ذلك العليل أن حارس السجن أعطاني علبة من الصفيح .

– نعم ، ولكني لا أعلم ما يوجد في هذه العلبة .

– يوجد فيها حية زرقاء .

– كيف تكون الحية زرقاء ؟

– انها من أفاعي الهند ، وهي صغيرة حتى لا يزيـد طولها عن أصبع ولكن لسمها تأثيراً هائلاً ، فانه يورم الجسم والوجه ورماً عظيماً ويشوه الملسوع تشويهاً غريباً بحيث لا يمكن لأهله أن يعرفوه ، وهذا السجين العليل قد لسعته هذه الحية .

– كيف اتفق ذلك ؟

– ان حارس السجن وضعها في فراشه قبل الليلةالتي كنا عازمين على أخذه

فيها ، وقد كان صحيح الجسم والعقل ، قبل أن تلسعه وأنت ترى الآن كيف استحال .

– ولكني لا أعلم لماذا أساء اليه حارس السجن هذه الاساءة الهائلة .

– ذلك ليربح أيضاً مائة جنيه .

– إني لا أفهم ما تقول .

فابتسم القائد وقال : يوجد رجل غني في إنكلترا يستطيع أن يشتري بماله جميع أمثالنا فيها .

وبينما هو يحدثه حانت منه التفاتة فاضطرب وقال : كفى الآن وسأتم الحديث في فرصة أخرى

ثم نهض ، ذلك انه رأى رجلاً مضطجعاً على العشب على مسافة قريبة ، وقد أشار اليه الرجل إشارة سرية اضطرب منها وأسرع اليه .

أما ذلك الرجل فقد كان نظام الفقير الهنـدي ، أي السير جورج والد السير افندال .

– ٢٧ –

ولما وصل اليه وقف السير جورج وقال له بلهجة الحذر : أأنت هو القائد برمي ؟

– نعم ...

– إذاً ، أنا هو الذي تنتظره فهل أحضرت الأفعى ؟

– هي معي في هذه العلبة .

ثم دفع العلبة اليه ، فأخذها السير جورج وأخرج من جيبه خمسين جنيهاً، فأعطاه إياها وقال : خذ هذه الدفعة من أصل الحساب .

فأخذها القائد فرحاً وقال : إني أنتظر أوامرك يا سيدي .
— يجب أن تبيت الليلة في هذا المكان ، وغداً تكون في قرية باميلتون فتتظاهر أنك مريض لا تستطيع مواصلة السير .
— كم ينبغي أن أقيم في القرية ؟
— لا أعلم الآن فان ذلك موكول إلى الحوادث ، وفوق ذلك فان أولئك المجرمون لا تسوؤهم الاقامة في هذه القرية .
— دون شك فانهم لا يسيرون إلا بعد أن نجلدهم بالسياط لشدة الحر .
— إذاً فاعلم أنه يوجد في هذه القرية فندق قرب قصر باميلتون يجب ان تقيموا فيه فان صاحبه من رجالي ، فهو يسجن المجرمين في قبو ويمين بقية غرف الفندق لك ولرجالك وللرجل الملسوع .
— وبعد ذلك ؟
— تنتظر إلى أن ترد لك تعليماتي فتعمل بموجبها .
ثم وضع العلبة في جيبه وانصرف .
ولم يكن المجرمون قد انتبهوا من رقادهم ، أما الرجل الملسوع ، فقد كان ملقياً على العشب ، قرب البغل وهو يتوجع ويئن أنيناً يقطع القلوب من الاشفاق .

* * *

وأما السير جورج فإنه ذهب تواً إلى ابنه فلقيه قرب القصر ودار بينهما الحديث الآتي :
فقال السير جورج : أظن أننا وحدنا الآن .
— نعم ، فماذا تريد أن تقول لي ؟
— ان كل شيء قد تهيأ .

فارتعش السير أفندال وقال : كيف ذلك ؟

ـ ذلك أن الحية باتت عندي .

ثم أخرج العلبة وأراه إياها .

فاضطرب السير أفندال وقال : أريد أن اعود إلى الاستيثاق منك فاقسم لي أن من تلسعه هذه الأفعى لا يموت .

ـ اني أقسم لك ، وإن كان القسم لا يكفيك فاذهب غداً إلى فندق باميلتون .

ـ ما أفعل في هذا الفندق ؟

ـ سل القائد برمي أن يريك ذلك الرجل الذي لسعته الحية الزرقاء تجد انه لا يزال في قيد الحياة .

ـ لقد صدقتك .

ـ إذاً يجب أن تعمل الآن بما يقوله المثل السائر ، وهو ساعد نفسك يساعدك الله .

ـ بل إن الأبالسة تساعدني في هذه المهمة .

ـ كما تشاء .

ـ ماذا تريد يا أبي ؟

ـ أين هو أخوك الآن ؟

ـ في منزل خطيبته ..

ـ متى يعود ؟

ـ قرب انتصاف الليل .

ـ أتجد وسيلة للدخول إلى غرفة رقاده دون أن يراك أحد ؟

ـ نعم ، فإني أدخل اليها من غرفة المكتبة .

ـ إذاً إنتظرني هذه الليلة في غرفتك .

ـ في أية ساعة ؟

- في الساعة الثامنة من المساء .
- أتدخل من النافذة كما دخلت أمس ؟
- اني سأسلك نفس الطريق .
ثم تركه وانصرف .

* * *

في الليلة نفسها أقام السير أفندال في غرفته وترك النافذة مفتوحة ، فأتاه أبوه في الساعة الثامنة حسب الاتفاق وسأله عن اللورد وليم فقال له : لم يعد بعد .

- إذاً هلم بنا .

وكان السير أفندال أصفر الوجه يتكلم بصوت يتهدج .

ولما رأى ان الوقت حان أجفل من الخيانة وقال لأبيه : كلا .. اني لا أريد ..

فقال له أبوه : ألا تريد أن تكون غنياً أيها الأبله ؟

- كلا .

- إذا كان ذلك فكيف ترجو الحصول على مس إينا ؟

فأثر ذلك على أفندال تأثيراً عظيماً ، وهاج عامل غرامه فأقدم على الجريمة وزال من نفسه ما كان يشعر به من الخوف فقال لأبيه : هلم بنا .

ثم فتح باباً يؤدي إلى غرفة المكتبة ودخل اليها مع أبيه .

وكان في هذه الغرفة باب يؤدي إلى غرفة اللورد وليم ، وولج الشقيان منه إلى غرفة ذلك المنكود .

وعندئذ ، أخذ السير جورج علبة من جيبه ودنا من سرير اللورد وليم ، فكشف الغطاء ، ثم فتح العلبة فوثبت الحية منها إلى السرير ، وأسرع السير

جورج ورد الغطاء إلى ما كان عليه بحيث باتت الحية تحته .

وعند ذلك عاد الاثنان إلى غرفة أفندال فوثب السير جورج من النـافذة وهو يقول إلى الغد .

أما السير أفندال فإنه بقي واقفاً قرب النافذة ينتظر قدوم أخيه ويقول اني سأصبح لورداً وستكون مس إينا لي .

- ٢٨ -

بعد أن ذهب السير جورج بساعتين ، عاد اللورد وليم من بيت خطيبته إلى القصر ، وكان السير أفندال لا يزال ينتظره .

ودخل اللورد وليم وهو مشرق الجبين طلق المحيا وعلائم السرور والارتياح بادية بين ثنايا وجهه ، ولما رأى أخاه لا يزال ساهراً أسرع اليه وعانقه قائلاً :

إني بت يا أخي من اسعد الناس .

فأجابه بلهجة المتهكم إني أهنئك يا اخي العزيز .

— إن مس اينا تحبك حباً اكيداً .

ولم يجبه السير أفندال ، ولو كان لدى اخيه أقل أثر من الريب به لرأى الغضب يتقد في عيني ذلك الشقي .

غير ان اللورد وليم كان يحب أخاه ، ولا يخطر له غـدره في باله ، فأتم حديثه قائلاً :

— إنها تحبني كما قلت لك ، لقد اعترفت لي اليوم بما لم أكن أتوقعه .

- بما اعترفت لك ؟

— إننا كنا في الحديقة ، وكان أبوها معنا فتركنا هنيهة منفردين ، ولما خلا بنا المكان وضعت يدها بيدي وقالت لي : اني أحب ان احدثك بأمر

طالما اخفيته عنك .

فارتعشت وقلت : ماذا عسى أن يكون اينها الحبيبة ؟

ــ اني لا اريد ، ايها الميلورد ان اكون امرأتــك الا متى قرأت سور الغرام في قلبي ، كما تقرأ في كتاب مفتوح ، فاعلم اني أحبك حباً نقيــاً ولكني ما احبك لشرف ابائك ، ولا لأنك من اعضاء المجلس الأعلى ، بــل احب منك انت .

فأخذت يدها وقبلتها قبلات وعادت إلى الحديث فقــالت : اني احبك واردت الزواج بك لغاية هي غير غاية ابي .

فذهلت لقولها وقلت لها : ما كانت غاية أبيك ؟

ــ إن ابي واسع الثروة ، ولكنه غــير عريق في النسب مثلك ، وليس له شيء من الألقاب ، فهو إنما رغب في هــذا الزواج طمعاً بشرف مصاهرتك ، أما انا . .

وهنا توقفت عن الحديث وقد احمر وجهها .

فقلت لها : أتمي حديثك اينها الحبيبة .

ــ اما انا فكنت أود لو كنت دعياً في نسبك فقيراً معدماً لا تملك شروى نقير لأني لا أحب مجدك ونسبك بل احب انت

هذا ما قالته لي يا اخي العزيز ، ولم يبق لزواجنا غير اسبوعين غــير انها سيمران بي سيمران بي كدهرين .

وسكت البير افندال ، وقد كاد الحقد ينفجر في قلبه انفجار البراكين .

وعاد اللورد وليم الى الحديث بعد سكوت قصير فقــال : اسألك العفو يا أخي لأن السرور قد غلب علي فلم اتكلم إلا عن نفسي ولكنك ستغدو سعيداً مثلي ، فان والد خطيبتي يعد لك خير زواج .

واجابه افندال بجفاء : لا تقارن ايها الاخ بيننا ولا تشابه بين حالتينا .

– كيف ذلك ؟

– ذلك انك تحب مس إينا .

– حب عبادة .

– ولكنك تقول ان الفتاة الهندية حسناء ، ولكن قد يمكن ان لا يجد جمالها سبيلاً إلى قلبي .

ثم تنهد تنهد القانطين فشعر اللورد وليم انه اخطأ بمحادثته أخيه عن سعادته وغير الحديث وقال لأخيه :

– اني عازم على النوم فان حديث خطيبتي قد اثر علي ، فبت محتاجاً الى الراحة ، وفي كل حال فاني ارجوك ان تصفح عني .

– انك لم تخطىء الي فاصفح عنك ، وسأوصلك الى غرفتك اذ اذنت .

– حباً وكرامة .

ثم سار الاثنان الى غرفة اللورد وليم .

وكانت النوافذ مفتوحة فقال السير افندال : أتريد ان اقفل هذه النوافذ يا اخي .

– كلا ، لأن الحر شديد .

– ولكن الا تخشى رطوبة الليل ؟

– كلا ، فدعها مفتوحة ، لقد تعودت في الصيف ان افتح النوافذ .

– وانا افعل مثلك ، لأن حر هذا الصيف لا يطاق .

وقد سر افندال من ترك النوافذ مفتوحة ، إذ قد يتبادر للفور إلى الأذهان ان الحية قد تسلقت الشجرة وانسابت إلى أخيه من النافذة ، وفي هذا ما يبعد الظن ويضيق مجال الاتهام

ثم ودع أخاه وخرج من غرفته بعد ان نظر نظرة خفية الى السرير ، ووجد ان الغطاء لا يزال على حاله ، وان الحية لا تزال نائمة تحته ،

دون شك

* * *

بعد ذلك بساعة سمع خادم غرفة اللورد وليم صرخة مزعجـــة في غرفة اللورد المجاورة لغرفته .

وكانت صرخة الم شديد فهب الخادم منذعراً واسرع الى غرفة سيده فوجد ذلك اللورد الشاب واقفاً في وسط الغرفة بملابس النوم ، وهو قابض بيده على تلك الحية .

ولكن الحية كانت قد لسعته في وجهه قبل ان يقبض عليها واسالت بعض نقط من الدماء على خده .

وكانت عينا اللورد قد جحظتا واصفر وجهه فبات كالمجانين .

ثم القى تلك الحية مغضباً على الأرض ، واسرع الخادم وسحقها بقدمه ، ثم خرج من الغرفة وجعل ينادي الخدم مستغيثاً لما رآه من خطورة الحالة .

اما اللورد فانه كان يصيح متألماً . وقد بات في حالة من اليأس لا سبيل فيها الى العزاء .

وبعد هنيهة أقبل الخدم وأسرع واحد منهم الى احضار طبيب ، ففحص المكان الملسوع ، والحية القتيلة ، فقرر ان الحالة شديدة الخطورة ، ولكنها لا تحمل على اليأس .

ثم غسل الجرح وطهره واعاد اللورد وليم الى سريره .

اما السير افندال فقد كان يتظاهر بالحزن الشديد وينسب هذا الحادث إلى اهمال اخيه وتركه النوافذ مفتوحة ، ويقول انه لولا هذا الاهمال لما فوجئنـا بهذه النكبة الهائلة .

وكان يمثل الحزن واليأس خير تمثيل حتى كان الخدم يشفقون عليه

ولكنه إذا خلا بنفسه اشرق وجهه بنور البشر وعلل النفس بادراك مـا

يبتغيه من ثروة اخيه ولقبه وخطيبته .

اما ذلك اللورد المنكود الذي قضي عليه ان يكون ضحية الحسد واللؤم والمطامع السافلة ، فقد اصيب بحمى شديدة لزمته فأضاعت رشاده .

ثم اختلط عقله فصار يهزي ويتكلم كلاماً غير مفهوم .

وكان وجهه قد تورم واسود فبات لونه كلون الفحم .

على انه في هذيانه كان يردد كلمة واحدة تخرج واضحة من فمه دون سواها وهي اسم خطيبته مس اينا .

ورأى السير افندال انه يجب في هذا المقام ابلاغ مس اينا وابيها فأمر احد الخدم ان يدعوهما .

وركب الخادم جواداً ، وانطلق به يسابق الرياح ، الى منزل السير ارشيبالد

وعند الفجر اقبل السير ارشيبالد وابنته فلم تكد تراه الفتاة حتى صاحت صيحة رعب ..

فان وجهه انتفخ انتفاخاً شديداً حتى لم يعد يعرفه احد .

وكان لحم وجنتيه قد تناثر واندلع لسانه وازرقت شفتاه ، وغارت عيناه فلم يعد له شيء من الشبه بالإنسان .

ولما رأى الطبيب تلك الاستحالة هز رأسه اشارة الى القنوط : لم يبق للطب حيلة في هذا المنكود .

اما السير افندال فقد كان خرج من غرفة اخيه وغادر القصر ، فسار دون ان يعرف الى اين يسير .

وكان حاسر الرأس ، ولعله ندم على فعلته الشنعاء . ولم يعد يطيق النظر الى وجه اخيه ، او انه خجل من تكلفه الكآبة ، وهو يضمر السرور والارتياح .

وفيما هو سائر الى حيث تدفعه قدماه رأى اباه خرج من الادغال وتعرض

له وهو يبتسم ابتسام الأبالسة فسأله :

– ما وراءك من الأخبار يا بني ؟

– اخشى ان تكون خدعتني يا ابي .

– كيف ذلك ؟

– ذلك ، ان اللورد وليم ، على فراش الموت ولقد أقسمت لي انه لا يموت .

فابتسم واجابه : ولا ازال اقسم لك انه لا يموت .

– ولكن الطبيب اكد انه مشرف على الموت .

واجابه ببرود : انه طبيب جاهل .. والآن فاحذر من ان يبدو منك ما يفتضح به امرك ، فاني اراك شديد الاضطراب ، وقد تمكن منك الرعب شأن من لا ارادة عنده ولا صبر له على المهام الجسام فهلا تريد ان تغدو لورداً ، وتتزوج مس اينا ؟

فاضطرب فؤاده عند ذكر خطيبة اخيه وعـادت اليه السكينة فقال لأبيه : قل ماذا تريد مني الآن ؟

واخرج السير جورج شمعة من جيبه فدفعها اليه قائلاً :

– خذ هذه الشمعة ..

– ماذا تريد ان اصنع بها ؟

– اريد ان تضعها في شمعدان بدلاً من الشمعة التي تكون فيه .

– وبعد ذلك ؟

– تضعها في غرفة اخيك ، وتسهر مع السير ارشيبالد وابنته في الغرفة ، فـانها سيقضيان الليل في غرفته دون شك ، فتضع هـذه الشمعة فوق المستوقد وتضيئها .

اني لم افهم شيئاً .

ـ لا حاجة الان الى ان تفهم . ثم ضحك وقال سوف تعلم فأودعك الان على امل اللقاء القريب .

- ٢٩ -

كان ذلك اليوم هائلاً في قصر اللورد باميلتون ، فان الحمى اشتدت على اللورد حتى اوشكت ان تفتك به .

ثم تلاها انحطاط شديد فوهنت قواه واطبقت عيناه .

وكانوا قد ارسلوا الرسائل البرقية الى لندرا يستقدمون فيها اعظم اطبائها وابعدهم شهرة ، واوسعهم علماً ، ولكنهم كانوا يخشون ان لا يـدرك الأطباء هذا العليل المنكود ، لما رأوه من انحطاطه وخطورة حاله

وكان السير ارشيبالد وابنته قد اقاما في غرفة اللورد .

امـــا السير ارشيبالد فقد كان حزين النفس منقبض الصدر ، ينظر الى صهره نظر القانط من حياته ، فيتجهم جبينه ، وتنطبع على وجهـه علائم الكآبة والحزن الشديد .

واما مس اينا فانها كانت لا تنظر الى وجه خطيبها حتى تصيح صيحـة ذعر فتحمل رأسها بين يديها وتذرف الدمع السخين ، ثم تنقطع الى الصـلاة وتنذر النذور .

واما السير افندال ، فقد كان يمثل دوره اتقن تمثيل فيتنهد ويشهق بالبكاء ويمتنع عن مناولة الطعام ، كأنما هذه النكبة قد اصابته حقيقة ، وكأنما ليست يده الاثيمة التي دست لأخيه اللورد وليم هذا السم !

ولقد اشفق عليه السير ارشيبالد لما رآه من دلائل يأسه ، فأقبل يعزيه ، وتعزت مس إينا بما رأته من دلائل صدق اخـائه ، فعـانقته وهي تناديه

(يا أخي العزيز) .

وفي المساء تغيرت حالة اللورد بعض التغيير، وزال عنه ذلك الذهول ففتح عينيه وتكلم بضع كلمات ، فعاد الرجاء إلى قلب مس اينـــا وحسبت انه سيستفيق ويعود اليه الرشاد .

اما السير افندال فقد قطب جبينه حين بدت هذه الدلائل من اخيـه ، فقال في نفسه : انه إذا عـــاد اليه صوابه فلا أدري كيف يستطيع ابي ان يوفي بما وعد .

وكأنما هذا التغيير الفجائي قد أحدث ارتياحاً في نفس السـير افندال ، ورضي ان يأ كل ، وخرج مع الفتاة وابيها إلى قاعة الطعام

ولكنه لم تمر به ساعة حتى بدأ يفهم قصد أبيه ذلك أنه شم رائحة غريبة عبقت في تلك الغرفة .

وقد شم السير أرشيبالد وابنته نفس تلك الرائحة ولكنهما حسبا انهـا صادرة من جسم اللورد ، فان لحم وجنتيه كان قد تناثر ولم يخرجا من تلك الغرفة التماساً للراحة ، لتوهمهما ان ذلك دليلاً على دنو ساعة اللورد ، وانه لا يجمل بهما تركه في مثل هذه الساعة .

أما السير أفندال فقد علم انها رائحة الشمعة .

* * *

ولم تطل مدة انبعاث هذه الرائحة فان السير افندال شعر بدوار في رأسه وبحاجة قوية إلى النوم لا تقاوم .

على انه قاوم ما استطاع حين رأى السير ارشيبالد والفتاة قد اغمضا عيونهما وكذلك خادم الغرفة الذي كان واقفاً بجانب سرير العليل يعالجه بدواء الطبيب واطبق هو عينيه بالرغم عنه .

وبعد ذلك بزمن وجيز شعر باهتزاز عنيف ، ثم أحس ببرود في جسمه ، ففتح عينيه واستفاق من ذلك الاغفاء .

ولكنه لم يجد نفسه في غرفة اخيه اللورد وليم ، بل كان في غرفته الخاصة وفي سريره الخاص .

وقد وجد رجلاً بالقرب منه ، أما هذا الرجل فكان أبوه .

وكان بيد السير جورج اسفنجة غمسها بالخل وجعل يدعك بها صدغي ولده حتى استفاق تمام الاستفاقة .

ونظر إلى أبيه وقال له : اين انا وما حدث ؟

– انهض من سريرك .

ونهض السير افندال ووثب من سريره إلى الأرض وقد عاد إلى حـــالته الطبيعية ، ولم يبق مصاباً إلا بدوار خفيف .

وعند ذلك قال له ابوه : اتبعني .

ثم فتح باب الغرفــة المؤدي إلى المكتبــة ، التي تؤدي الى غرفــة اللورد وليم .

وكان السير جورج قد دخل الى تلك الغرفة قبـل ولده ، وهو يبتسم ابتسام الهازيء ، وتبعه ولده وهو يمشي مشية المضطرب الخـــائف ، وهو لا يعلم أيشفق على أخيه فيندم ، أم يسترسل إلى الطمع بنتيجــة فوزه على أخيه .

ولما دخل إلى غرفة أخيه قال له أبوه : انظر .

حتي نظر إلى أخيه ، فرآه مسجى فوق سريره ، وليس عليه شيء من دلائل الحياة

فقال له ابوه هلم بنا نتحدث الآن ، ولا خوف علينا فان دوي المدافع لا يوقظ النائمين ، وان طالت إقامتنا في هذه الغرفة تؤثر بنا رائحة الشمعة وتفعل بنا فعلها بهم .

اری انك خدعتني يا ابي فإن أخي لا حراك به .

– كلا ، بل هو نائم .

– الا تخدعني ؟

– كلا فادن منه وضع يدك فوق قلبه تشعر بدقاته .

فامتثل السير افندال ودنا من أخيه غير هياب فاستوثق مما قاله له ابوه ، وأيقن ان اخاه لا يزال في قيد الحياة ، ولكن يده كانت تضطرب اضطراباً قوياً ، فإن الجريمة تمثلت له حين لمس اخاه فأثرت به أسوأ تأثير .

ثم نظر الى ابيه بعد ان ادار ظهره كي لا يرى اخاه وسأله :

– وبعد ذلك ؟

– انظر .

واشار الى زاوية في الغرفة ودله على جسم انساني كان ممـــدداً في تلك الزاوية ومغطى بقطعة كبيرة من القماش .

فذعر السير افندال وسأل : ما هذا ؟

فمشى السير جورج الى ذلك الجسم وازاح عنه الغطاء .

غير ان السير افندال لم يلبث ان رأى ذاك الجسم حتى صاح صيحة رعب منكرة فانه رأى جثة باردة .

وكانت جثة متورمة وقد كثر تشويه الوجه بحيث لم يعد يعرف كوجه اللورد وليم .

أما السير جورج فانه قابل ذعر ولده بابتسام وقال له : اذا وضعت الآن هذه الجثة مكان اخيك أيمكن التمييز بينهما ؟

– كلا ، فان التشويه واحد والتورم متشابه .

– اذاً انت ترى التشابه بين الاثنين ؟

– هذا اكيد ، غير ان احدهما ميت والاخر حي .

-- ان هـــذا الرجل الذي تراه في الزاوية هو ذاك الملسوع الذي كانوا يحملونه على البغل .

-- ولكنه مات ؟

-- نعم ..

-- ارأيت اذاً ان سم تلك الحية قاتل ؟

-- انك منخدع يا بني .

-- كيف اكون منخدعاً وانت تقول انه مات ؟

- لم يمت حتف انفه ولكننا قتلناه .

-- كيف ذلك ؟

-- اننا سقيناه سماً فمات ، والطبيب يحسب انه مات بسم الأفعى .

وجعل السير افندال ينظر نظراً مضطرباً إلى الجثة والى اخيه .

فقال له أبوه :

-- كفاك تضطرب اضطراب الاطفال وهلم الى مساعدتي .

ثم دنا من سرير اللورد وليم فحمله من سريره ووضعه فوق مقعد ، وعاد مع ولده إلى الجثة فحملاها ووضعاها فوق سرير اللورد وليم .

وبعد ان وضع فوقهـــا الغطاء قال لولده : يجب الآن ان تساعدني على اخراج اخيك من القصر .

-- كيف ذلك ؟

-- اننا سنحمله في البدء إلى غرفتك .

-- إلى غرفتي ؟

-- نعم .. فان رجلين ينتظرانني تحت نافذة غرفتك ، وقد وضعا سلماً تصل اليها .

-- من هما هذان الرجلان ؟

-- القائد برسي والجندي جوهن .

- ولكن اخي نائم نوم تخدير ، فاذا نقل الى حيث تريد نقله فلا بد له ان يستفيق بعد ذلك .

- انه يستفيق دون شك .

- إذاً ماذا تصنع ؟

- الم اقل لك انه سيغدو مجنوناً عدة اسابيع من تأثير سم الأفعى .

- نعم ..

وضحك السير جورج وقال :

- انه في مدة هذه الأسابيع يصبح بعيداً بعداً شاسعاً عن انكلترا فمتى عاد اليه صوابه يجد نفسه في اوستراليا .

- وانا ما يكون من امري ؟

- انك تصبح لورداً ، اذ لا وارث لأخيك الاك ، وهو ميت في عرف الناس .

ثم حمل ذلك اللورد المنكود على كتفه الى غرفة السير افندال وتبعه ولده اليها .

* * *

أما الشمعة المخدرة في غرفة اللورد وليم فقد ذاب ثلاثة ارباعها ، ولكنها كانت لا تزال مضاءة .

ولما وصلا باللورد وليم الى غرفة افندال أطل السير جورج من النافذة ورأى الخائنين لا يزالان في موقفهما .

فأشار الى أحدهما أن يصعد على السلم فصعد والقى اليه اللورد وليم وأعانه حتى بلغ به الى الحديقة .

وعند ذلك التفت الى ولده وقال له : ينبغي الآن ان تعود الى غرفة أخيك وتجلس في المكان الذي كنت جالساً فيه مع السير ارشيبالد وابنته فيؤثر فيك المخدر وتنام نومها

ثم تركه ونزل من النافذة ، فخرج باللورد وليم من الحديقة ، وتوارى عن الأنظار .

أما السير افندال فانه بقي واقفاً عند النافذة حتى احتجبوا عنه وأيقن أنهم ساروا بأخيه فعاد الى أخيه .

وقد رأى ان الشمعة لا تزال منيرة فجلس على الكرسي الذي كان جالساً عليه قبل ان يتخدر منذ بضع ساعات ، وهو يقول في نفسه : لست أبالي الآن بالتخدير بل أود ان يطول زمن تخديري ، فيستفيق السير أرشيبالد وابنته قبلي .

ولبث في موضعه وهو يعلل النفس بالأماني ويبسط فرش المستقبل ورائحة الشمعة تدخل من خياشيمه الى رئتيه وتفعل فعلها فيه .

وما زال يفتكر بأخيه وما عسى ان يكون من أمرهم حين يستفيقون ويجدونه ميتاً .

وبلغ المخدر مبلغه منه فأطبق أجفانه ونام .

وبعد حين انطفأت الشمعة وأخذ هواء الغرفة ينقى تباعاً .

فما مضى على ذلك ساعة حتى استفاق السير ارشيبالد ولكنه كان لا يزال

مشلت الحواس لا يستطيع الوقوف .

وبعد جهد قوي تمكن من الوقوف وجعل يمشي مشية السكارى فلا يخطو خطوة حتى يقف .

ولم يكن يعلم ما أصابه ، غير انه شعر انه يكاد يختنق وانه محتاج الى الهواء النقي .

فجر نفسه الى النافذة ولم يتمكن من فتحها ، فضرب زجاجها بيده فتحطم ، ودخل الهواء النقي الى الغرفة . ووقف يتنشقه هنيهة حتى خف ما به ، فالتفت ورأى ابنته والخادم قد استيقظا ، ولم يبق نائماً غير السير افندال .

وكان الفجر قد انبثق وملأ شعاعه الغرفة فنظرت مس اينا الى ما حولها منذهلة حتى استقر نظرها على يد باردة من تحت غطاء السرير .

فدنت منه وهي تحسب أن اليد يد خطيبها اللورد وليم وأخذتها بين يديها وهي تضطرب لاصفرارها .

ولم تكد تلمسها حتى صاحت صيحة رعب منكرة لما شعرت به من برودتها وقالت : ويلاه انه مات

فأسرع السير ارشيبالد ووضع يديه على قلبه وقال : إنه ميت ، واأسفاه !

أما السير افندال فانه صحا لصوت مس اينا ، فأجال نظراً قلقاً مضطرباً وقال : ماذا جرى ؟

فأخذه السير ارشيبالد ووضع يده بين يديه وقال : صبراً يا بني ان أخاك مات ونحن نيام .



وبعد ذلك وصل الطبيب ، وأثبت وفاة اللورد مسموماً ، وعلل

نوم أخيه والسير ارشيبالد وابنتـه ، بسبب تسمم هواء الغرفة ، وعـدم تجديده .

أما السير افندال فانه أظهر من الحزن ما لا تظهره أم فجعت بولدها فكان يضرب الجدار برأسه ويحاول الانتحار ، حتى انصرف جميع الخدم الى مراقبته لإشفاقهم عليه من الانتحار .

وفي مساء اليوم التالي خرج السير افندال من القصر ماشياً إلى الخلاء ، وهـو مطرق الرأس كئيب النفس ، حتى وصـل إلى قمة مشرفة عـلى الطريق العام

وهنا وقف وقد استلفت نظره منظر غريب ، وهو جماعة من الرجال مقيـدون بسلاسل ، وهم يسيرون مكرهين ، ودلائل اليـأس بادية في وجوههم

وكان يمشي في طليعتهم القائد برمي والجندي جوهن ، ووراء الجماعة بغل عليه رجل مشوه الخلقة مورم الجسم .

فرآه السير افندال وارتعش ارتعاشاً عظيماً ، حتى أوشك ان يسقط على الأرض إذ عرف ان هذا المنكود أخوه .

وعند ذلك دنا منه رجل فقير وكان قرب اولئك المجرمين فقال له : إن هؤلاء المجرمين تعساء يا سيدي الميلورد ولكن أشدهم بؤساً ذلك الرجل المحمول على البغل .

فألقى السير افندال ديناراً الى ذلك الفقير ومشى هائماً على وجهه لا يعلم اين يسير لما أصابه من الاضطراب .

وفيما هـو ينزل عن تلك القمة ، سمـع صوت رجل يناديـه بلقب السـلورد .

والتفت فرأى ان هذا الرجل أباه وقد كان واقفاً عند اسفل القمة يراقب سير المجرمين .

ووقف السير افندال وهو مصفر الوجه منعقد اللسان فقد أثر به منظر أخيه تأثيراً عظيماً حتى أوشك ان يبوح بما جرى

أما السير جورج فانه وثب اليه وقال لقد وفيت بوعدي يا بني فأنت اليوم لورد وستتزوج مس اينا بعد ستة أشهر .

ثم تركه وتوارى عن الأنظار مختفياً بين الأدغال .

ولقد صدق هذا الرجل الجهنمي الأثيم بما تنبأ به . فـــان السير أفندال الذي بات الآن لورداً بعد احتجاب أخيه ، تمكن من الفوز بمراده من زواج مس اينا

وذلك ان والد هذه الفتاة كان كثير الطمع بالجاه شديد التزلف من النبلاء . وقد رأى أن آماله خابت بمصاهرة اللوردية بعد موت اللورد وليم فطمع بأخيه افندال لا سيما وقد علم من ابنته انه يهواها .

غير أنه رأى ان ابنته لا تهواه ، فما زال بها وهو يسهل لهما أسبـــاب الاجتماع والاختلاء ، ويبالغ في مـــدح افندال وإظهار حسنـــاته ، حتى رضيت به بعلاً فخلعا ثياب الحداد وعقـد زواجها فأدرك هـذا الأثيم ما كان يبتغيه .

وفي اليوم الذي دفن فيه ذلك الرجل المجرم الذي كان يعتقد الناس انـه اللورد وليم ، عاد توما من لندرا ولكنه عاد متأخراً ولو عاد قبل يوم لما تمكن السير جورج من فوزه بالدسيسة .

فبكى سيده بكاء شديداً واعتزل الخدمة من قصر باميلتون فانه أنف من أن يخدم ابن الجريمة .

أما السير افندال فانه بعد ان جاء بعروسه الى قصره نزل إلى حديقة القصر لمقابلة أبيه فقد كان السير جورج سأله ان يوافيه اليها .

وكان نور القمر يتألق في السماء ويرسل أشعته الى تلك الحديقة من خلال أوراق الشجر فيلقيها على العشب كالدنانير .

فلما وصل اللورد افندال الى تلك الشجرة التي اتفق مع أبيه على الالتقاء عندها رأى أباه ولكنه رآه مضطجعاً على العشب .

وناداه باسمه .

ولكن السير جورج لم يجب النداء .

ودنا منه ولم يكد يصل اليه حتى صاح صيحة رعب .

ذلك انه رأى أباه صريعاً ورأى خنجراً مشكوكاً في قلبه والدم يسيل من جرحه .

فأسرع اليه وانتزع الخنجر من قلبه ونظر فيه فرأى خنجر الصيد الذي كان يتقلده توما زوج بيتزي .

- ٣١ -

ولنعد الآن إلى توما فانه في اليوم الذي تزوج فيه اللورد افندال مس اينا خطيبة أخيه ، أنف الإقامة في ذلك القصر قصر الاثم والجريمة فاستقال من خدمته .

وقد عرف القراء ان اللورد وليم كان قد أرسله الى لندرا لقبض ما كان لديه من المال النقدي في مصارفها .

فلما عاد وعرف ما أصاب مولاه بكاه وهو يعتقد انه مات حقيقة إذ لم تخطر له هذه الجريمة الهائلة في بال

وكان السير افندال يمثل الكآبة خير تمثيل ، فلم يجد توما أقل سبيل للشك به .

غير انه اتفق له مرة قبل سفره الى لندرا ببضعة أيام انه رأى رجلاً يسير بين أشجار الحديقة .

وكان توما واقفاً عند النافذة والقمر يسطع في السماء فرأى توما الرجل وعرف أنه نظام اي ذالك الفقير الهندي الذي كان قد طرده من القصر حين جاء اليه مع الطبيب يوم وفاة ام اللورد .

وقد كان يكره هذا الرجل كرهاً قوياً لاعتقاده انه كان السبب في وفاة أخته بالرضاع ، ولأنه كان يتبين دلائل الخبث والشر من عينيه .

فلما رآه ينسل بين أشجار الحديقة أنكر وجوده فيها كل الانكار ، وهم بالنزول اليها وطرده أقبح طرد .

ولكنه رأى على نور ضوء القمر رجلاً خرج من باب القصر وعرف ان هذا الرجل هو السير افندال .

فراقبه ورآه قد لحق الهندي وانضم اليه .

وقد ذعر واشمئز حين رأى السير افندال قد تأبط ذراع الفقير الهندي ومشى وإياه دون كلفة على ما بينهما من التباين في المقام .

واتسع مجال الشك لدى توما ، وأيقن ان الاثنين شريكان في الجريمة .

ثم خطر في ذهنه ان هذا الرجل هندي ، وانه هو الذي أحضر الحية الهندية الزرقاء .

واستنتج من ذلك ان السير افندال قد قتل أخاه طمعاً بثروته ولقبه كما حاول أبوه من قبل ان يفعل بأخيه لأن الحية لا تلد الا الحية .

ومن ذالك الحين ، جعل يراقب الهندي مراقبة الجواسيس ، ولازمه لزوم الظل

وقد كان توما واثقاً من ان اللورد وليم قد مات قتيلاً ، وإن الاثنين شريكان بالجريمة .

غير انه كان يعوزه البرهان كي ينتقم للورد وليم انتقاماً هائلاً ، ترتعد له الفرائص .

ولم يكن يخطر له في بال ان هـذا الفقير الهندي والسير جورج واحد ، بل كان يعتقد أنه رجـل أثيم سافل ، وان السير افندال قد استخدمـه لأغراضه الدنيئة .

وما زال يراقب الاثنين مراقبة اليقظ ، حتى رأى السير افندال يسير ليلة لموافاة الهندي فتبعه حتى رآه دخل الى الغابة واختلىفيها بالفقير الهندي الذي كان ينتظر بين الأشجار .

وكان الظلام كثيفاً فاختبأ توما بين الأدغال وراء الشجرة التي كانا جالسين عندها وسمع حديث هذين الأثيمين .

وبعـد انصرافهما ، خرج توما من الأدغـال ، والعرق البـارد ينصب من جبينه .

إذ علمالآن ان هذا الرجل المتنكر بأزياءالهنود لم يكنإلا والد السير افندال أي السير جورج باميلتون .

وقد علم توما ان السير جورج الذي أذاعت الجرائد خبر وفاته ، منذ خمسة عشر عاماً ، لا يزال في قيد الحياة .

وعلم ان السير افندال وأباه قد اشتركا بالجريمة

غير ان الذي بقيمشكلاً عليه منهذه الخفايا مما سمعه من حديثهما ان اللورد وليم لا يزال حياً .

وكان يقول في نفسه : كيف أنه لم يمت ؟ وإذا كان لم يمت ، فكيف دفنوه ؟ وإذا كانوا دفنوا سواه بدلاً منه ، فمن هذا الشخص المدفون ؟ وأين هو اللورد ؟

كل هذه الألغاز كانت تجول في ضميره فلا يهتدي من حلها الى مراد ، ولا يزيده إشكالها إلا حقداً على هذين الأثيمين .

ففي اليوم الذي تزوج فيه السير افندال مس اينا ، إعتزل توما وامرأتـه بياتري خدمة القصر ، وسافرا في رائعة النهـار ، الى المحطة التي تسير منها

القطارات الى لندرا .

ورآهما الخدم وصلا الى المحطة بأمتعتهما ، ووثق السير افندال كل الوثوق من سفرهما .

غير ان توما سافر بالقطار الى اول محطة فنزل فيها وترك امرأته تواصـل السير الى لندرا .

واختبأ في تلك المحطة الى الليل ، ثم عاد الى قرية باميلتون دون ان يعلم بعودته أحد .

وما زال يراقب السير جورج حتى رآه ليلة دخل الى حديقة القصر

فاقتفى أثره على مسافة بعيدة فرآه جلس عند جزع الشجرة التي كان يتسلقها الى غرفة ولده واضطجع فوق العشب .

وكانت الأنوار لا تزال تتألق في القصر ، وكان السير جورج ينظر اليهـا ويتوقع انطفاءها بفارغ الصبر .

وفيما هو على ذلك رأى رجلا وثب اليه وثبة النمر .

وكان هذا الرجل توما .

فانه انقض عليه وقبض على عنقه وكان مشهراً خنجراً ، في حين ان السير جورج لم يكن لديه سلاح .

فذعر السير جورج ذعراً قوياً وحاول ان يصيح مستنجداً . غير ان توما . ضغط على عنقه حتى كاد يخنقه وقال له : إذا فهت بكلمة أغمدت هذا الخنجر في قلبك .

فخاف السير جورج إنفاذ وعيده ، وقـال له بصوت منخفض . ماذا تريد مني ؟

— ان أقول لك إني أعرف كل شيء . فما انت نظام وما أنت من فقراء الهنود بل أنت السير جورج باميلتون .

فأن السير جورج أنين الموجع وقال : أعرفتني ؟

نعم وعرفت انك قتلت الاورد وليم .

ــ كلا .

ــ أيها الشقي أتجسر على إنكار الجريمة ؟

ــ إني لا أنكر فقد قلت الحقيقة ولم أقتل اللورد وليم .

ــ ولكنك أنت الذي جئت بالحية الزرقاء ؟

نعم .

ــ وأنت الذي وضعتها في فراش اللورد ؟

ــ هو ذاك .

ــ إذا كنت تقر هـذا الاقرار ، فكيف تجسر بعـد ذلك على إنكار الجريمـة ؟

ــ قلت لك اني لم أقتل اللورد وليم .

ــ وأنا أقول لك انك نذل خائن سفاك أثيم .

ــ إن اللورد وليم لم يمت ولكنك متى عرفت ما صار اليه تتمنى لو كان في مصاف الأموات .

فوضع توما ركبته فوق صدر السير جورج ووضع رأس خنجره فوق عنقه وقال له أتبوح ايها الأثيم بكل شيء أم تؤثر الموت ؟

ــ أتريد ان تعلم كل شيء ؟

ــ دون شك .

ــ وإذا قلت لك ما جرى للورد وليم أتعفو عني ؟

ــ كلا إنك لا تستحق الحياة .

ــ إذاً أخبرك بما صار اليه وبكون هذا آخر انتقامي .

ثم ظهرت عليه علائم الانتقام الوحشي وخرج الزبد من شدقيه فأخبر توما كيف انه قتل أحد المجرمين المحكوم عليـه بالنفي الى اوستراليا ووضعـه في فراش اللورد وليم .

ثم أتم حكايته وضحك ضحك الأبالسة وقال له: لم يبق لك فائدة من علمك ان اللورد وليم في قيد الحياة لأنك لن تلقاه .

إن اللورد وليم سافر مع المجرمين باسم ذلك المجرم الذي قتلته ووضعته في فراشه فحسب الناس انه مات .

– ما اسم هذا المجرم ؟

– لن تعرفه .

- قل ماذا يدعى أو أقتلك ؟

– كلا .

وكان السير جورج يحاول الإطالة في الحديث راجياً ان يوافيه ولده السير اقندال وينقذه مما هو فيه .

غير ان توما ادرك قصده فقال له : قل او انت من الهالكين .

– كلا كلا لا اريد .

– إذاً مت ايها الفاجر الأثيم .

ثم طعنه بخنجره طعنة نجلاء فأغمده في قلبه ، فمات هذا الشقي دون ان يسمع له صوت .

وعند ذلك نهض توما عنه وهو يقول في نفسه : إني ادري اي اسم دعي به هذا اللورد المنكود .

ولكني لا أبالي ، وان الأرض واسعة ، ولكن الله يعينني على إيجاده

ثم ترك الخنجر مغمداً في قلب السير جورج واركن الى الفرار .

وسار توما منذ ذلك اليوم مستطلعاً باحثاً عن مولاه اللورد وليم بل ربيبه بل ابن اخته بالرضاع

وان الأرض متسعة فلا أصعب من البحث فيها عن رجل لا يعرف اسمه بل ان ايجاده يعد ضرباً من المحال .

غير ان توما كان يحب اللورد وليم حب عبادة فجعل يبحث عنه غير مكترث لهذه الصعاب .

وكان أول ما بدأ به انه سافر إلى امرأته في لندرا ، فأخبرها بما علمه من السير جورج .

وكانت إمرأته بيتزي ذكية الفؤاد بالغة الإخلاص ، فأصغت إلى كلامه بملء الاهتمام ، حتى إذا أتم حكايتــه قالت له : إنه يجب قبــل كل شيء أن تعرف أمرين .

— ما هما ؟

- أولاً معرفة اسم القائد الذي يقود المجرمين .

والثاني ؟

- من أية مدينة ايكوسية جاءوا بذلك المجرم الذي دفن الآن في تربة أسرة باميلتون بدلاً من اللورد وليم ؟

— لقد أصبت وسأسلك هذا السبيل .

وكان توما يعرف كثيرين من لندرا وله صحبة مع بوليس سري شهير كان رئيس بوليس لندرا يعهد اليه بأعظم المهمات الخطيرة .

فذهب اليه وباح له بسر اللورد وليم .

وكان توما يعلم ان البوليس الانكليزي لا يخدم مثل هذه الخدمات مجاناً ، فنفحه ثلاثمائة جنيه

أما البوليس فانه قبض المال شاكراً وسأله ان يمهله ثمانية أيام

وبعد ثمانية أيام ، أرسل هذا البوليس الحاذق الى توما ، هذه المذكرة ، وهي :

« إن ضابطاً يقود المجرمين الى منفاهم مر بهم ، منذ سبعة أشهر ، بقرية باميلتون .

« وهو يدعى برسي ، وقد ذهب بهم إلى ليفربول . والمرجح أنه سافر معهم » .

فسار توما لفوره بالسكة الحديدية الى ليفربول .

وهناك بحث في سجلات البحرية فوجد حقيقة اسم برسي على ما وصفه له البوليس السري .

ثم علم من ذلك السجل ، ان برسي قد سافر مع المجرمين المنفيين إلى زيلندا الجديدة .

فتردد توما في أمره بين ان يسافر في الحال الى زيلندا وبين ان يبحث قبلاً عن اسم المجرم الذي دعي به اللورد وليم

إلى ان استقر رأيه على ضرورة معرفة ذلك الاسم فسار إلى ايكوسيا .

وكان اول مسيره الى ومبورج ثم الى غلاسكو فكان يستقصي في طريقه ويبحث أدق الأبحاث .

الى ان وصل إلى تلك المدينة الصغيرة التي تسمى بيرت واختلط مع أهلها وباحثهم عن الجرائم فقصوا عليه هذه الحكاية الغريبة وهي :

إن رجلاً يدعى ولتر بريس حكم عليه بالنفي خمسة أعوام لكثرة سرقاته .

وقد كان مسجوناً في سجن بيرت وهو على أتم ما يكون من العافية .

وبينما هو نائم في سجنه استيقظ مرعوباً وجعل يصيح صياحاً هائلاً .

فأسرع السجان اليه فلقيه قد جن وان وجهه قد تورم واسود .

فلما سمع توما هذه الحكاية رأى ان تورم هذا المجرم واسوداد بشرته ينطبق

كل الانطباق على ما كان عليه اللورد بعد ان لدغته الأفعى

وخطر له انه نفس المجرم الذي دفن باسم اللورد وليم ، ولكنه أراد أن يستوثق فسأل من كان يحدثه عن مصير هذا الرجل .

فقال له: إنه نقل الى المستشفى وبقي فيه حتى مرت قافلة المجرمين فأخذوه بالرغم عن علته واستفحال دائه .

فسأل عن تاريخ هذه الحادثة فعلم ان القافلة سافرت من بيرت الى قرية باميلتون قبل ان يذاع موت اللورد وليم بخمسة أيام

وهنا أيقن توما ان اللورد وليم يدعى ولتر بريس .

ولكن بقي عليه ان يجد ولتر بريس فلم ير بدأ من العودة الى لندرا .

ولم يكن توما غنياً إذ لم يكن لديه غير بضع مئات من الجنيهات كان اقتصدها طيلة خدمته في قصر باميلتون من رواتبه .

فلما أخبر امرأته بعزمه على السفر الى زيلنـــدا الجديدة ، للبحث عن مولاه اللورد المنكود قالت له : خذ كل ما لدينا من المال فإني أشتغل وأكفي نفسي ، ولا تبقي لي شيئاً فإني أشتغل واعيش ، وأنت احوج مني الى المال في اغترابك .

وبعد ذلك بثمانية ايام سافر توما الى زيلندا الجديدة .

وكان جميع ما أخذ معــه من المال الف ومايتان جنيــه ، جعلها أوراقاً مالية ووضعها في منطقة من جلد ، فتمنطق بها حذراً عليهـــا من السرقة او الضياع .

وكان قد سافر في سفينة شراعية . فوافق الهواء سير السفينـــة في الشهر الأول من سفرها ، واجتازت الجهة الغربية من اميركا ، ودخلت في الأوقيانوس الباسيفيكي .

ولكنها صدمت صخراً بعد ذلك بأسبوع في ليلة مظلمة فغرقت .

وكان الربان والبحارة بذلوا مجهودهم في سبيل إنقاذها فلم يفلحوا . فلما قنط

الربان من إنقاذها صرف همة الى إنقاذ المسافرين فأنزل القوارب الى البحر وازدحم فيها الركاب والنوتية بعضهم فوق بعض .

وقد لقي توما في هذه الرحلة أخطاراً هائلة .

وإنه أقام في ذلك القارب ثمانية عشر يوماً تائهاً في البحر مع رفاقه لايدرون أين يسيرون .

ثم نفد الزاد من عندهم وقاسوا آلاماً هائلة من الجوع .

على انهم رأوا البر بعد اليوم العشرين وبعد ان كاد يفتك بهم الجوع فصاحوا جميعهم صياح الفرح والاستبشار .

وقد حسب اولئك المنكودون انهم نجوا ، غير انهم وقعوا في بلاء لا يذكر معه بلاء الغرق والجوع .

ذلك ان هذا البر الذي رأوه ، وحسبوا أن النجاة فيه ، إنما كان جزيرة يسكنها المتوحشون من أكلة البشر ، ووجدوا اولئك المنكودين طعاماً مريا .

غير ان توما كان أسعدهم حظاً فانه كان هزيل الجسم فرأى اولئك المتوحشون أن يصبروا عليه الى ان يسمن فيأكلوه خلافاً لرفاقه فإنهم لم يبقوا على أحد منهم وأكلوهم أكل الخرفان .

وقد أقام في تلك الجزيرة المتوحشة الهائلة خمسة أعوام ، ينتظر اهلها ان يسمن فيأكلوه ، وهو لا يزيد إلا نحولاً كل يوم أملا ان تمر سفينة بهذه الجزيرة فيفر عليها .

الى ان اتفق يوماً مرور سفينة إنكليزية بمياه تلك الجزيرة فأسرع اليها اولئك المتوحشون لبيع أثمارهم حسب عادتهم .

وهناك اخبروا بحارتها ان لديهم رجلاً من البيض أمثالهم .

فأشفق الربان عليه ، لما كان يعلم من عادات اولئك الهمج بأكل لحوم البشر . فأرسل بعض رجاله لإنقاذه فأنقذوه ، وجاءوا به الى

تلك السفينة .

وكانت السفينة مسافرة الى زيلندا الجديدة . فكان حظ توما مزدوجاً بنجاته من أنياب المتوحشين وباتفاق سفر السفينة الى زيلندا حيث كان يرجو ان يلاقي اللورد وليم .

وكان المتوحشون قد تركوا له أمواله لعدم اهتدائهم اليها في منطقته فتشجع لهذا الاتفاق وشكر الله لسلامته وسلامة امواله وعد ذلك فالاً حسناً فاستبشر بلقاء مولاه .

وبعد ذلك بشهر وصلت السفينة الى زيلندا ، وكان توما قد أصبح لضعفه مثل الخيال .

وكان اول ما فعله انه كتب لامرأته يطمئنها عنه ثم اخذ يبحث عن اللورد وليم بل عن ولتر بريس الذي سموه باسمه .

وطال بحثه عدة ايام وهو لا يظفر بشيء من مراده الى ان علم بعد البحث الطويل ان نحو مائة من المجرمين المنفيين سافروا الى اوستراليا ولكنه لم يعلم إذا كان ولتر بريس بينهم .

غير انه لا بد له من السفر فسافر في اليوم التالي الى ملبورن عاصمة اوستراليا بل إحدى عاصمتيها .

وهناك بدأ ابحاثه فكان يتردد على الحانات ويسأل كل من يجده فيها من البحارة فلم يجد بينهم من يخبره عن ولتر بريس .

غير انه لم يقنط بعد هذا الفشل ، بل برح العاصمة الأولى الى العاصمة الثانية وهي سدني .

فنزل في فندق حقير من فنادقها التماساً للاقتصاد في النفقة وهناك عرف رجلاً المانياً يدعى فونلر هوسر .

وقد كان هذا الرجل فقيراً معدماً ، فسأل توما ان يساعده بشيء من المال . ثم قص عليه حكايته وهي انه قضى عليه ظلماً بالنفي الى زيلندا

الجديدة منذ ثمانية اعوام ، وانه يقاسي اشد العناء لما يلقاه من العسر ، وضيق سبل الارتزاق .

فأعطاه توما شيئاً من النفقة وقال له : أكان لك اختلاط بالمنفيين من الانكليز ؟

– نعم ولي صحبة مع اكثرهم .

– أعرفت رجلا بينهم يدعى ولتر بريس ؟

– نعم ويا طالما ضحكنا منه فقد كنا نلقبه بالميلورد .

فصاح توما صيحة سرور واخذ يد فونتر بين يديه وقال بلهف : بالله إمض في حديثك وقل لي كل ما تعلمه عن هذا الرجل

– ٣٣ –

فنظر اليه فونتر نظرة المنذهل وقال : نعم عرفت رجلا يدعى بهذا الاسم بل انهم دعوه به .

– إنه كان ينكره كل الانكار اليس كذلك ؟

– نعم ولكن الغريب في امره انـه كان يدعى بالنسب الرفيع والثروة الطائلة بل كان يقول انه لورد من اعضاء المجلس الأعلى ولهذا كنا نلقبه بميلورد مجازاة له على ما علمناه بانه من المجرمين

– إنكم لا تعلمون شيئاً وحاشاه ان يكون من أهل الاثم .

ونظر فونتر نظرة السائل المستغرب .

اما توما فانه مضى في حديثه فقال : ان هذا الذي كنتم تدعونه ولتر بريس هو لورد حقيقة فقل لي الآن اين اجتمعت به وكيف عرفته .

– إنهم استعبدونا سوية مدة اربعة أعوام .

ـ أين كان ذلك ؟
ـ في زيلندا الجديدة كما قلت لك
ـ وبعد ذلك ؟
ـ افترقنا فلم أعد أراه .
ـ كيف افترقتم ولماذا ؟
أما أنا فلأن مدة عقابي قد انتهت فاطلقوا سراحي وخيروني بين أن أعود إلى اوروبا وبين ان أحضر إلى هنا .
ـ وولتر بريس ؟
أن مدة عقابه ينبغي أن تكون قد انتهت أيضاً .
إذاً انه عاد إلى اوربا ؟
ـ لا أظن .

فاضطرب توما وقال : كيف ذلك ؟
ـ اني لا أضمن حقـــائق التعليمات التي سألقيها اليك ، ومع ذلك فأصغ إلى ما سأرويه ..

فجعل قلب توما يخفق خفوق أجنحة الطائر وقال : تكلم ..
ـ أن المجرمين الذين يحكم عليهم بالنفي إلى هذه البلاد لا يعود منهم عادة إلى اوربا غير نفر قليل واما معظمهم فانهم يؤثرون البقاء في استراليا

وهم يشتغلون اشغالاً مختلفة فيها بعضهم يرعى المواشي وبعضهم يشتغل في المناجم وقد اتفق لكثير منهم انهم نالوا ثروة عظيمة من هذه البلاد .

أما انا فقد كنت منذ ستة أشهر في ملبورن وكان اليوم خاصاً ببيع البهائم في سوقها الخاص .
فكانت الثيران والخرفان والمـــاعز ترد الوفاً إلى السوق ومعها اصحابها وكثير من الرعاة .
وأذكر اني رأيت في ذلك اليوم رجلاً يشبه ولتر بريس في الغابة مع الرعاة

فأسرعت اليه كي أحدثه ولكن الازدحام كان شديد فلم أعثر به ولم أتمكن بعد ذلك من لقياه .

فقال له توما : هب أن هذا الرجل الذي رأيته كان ولتر بريس بعينه فماذا تستنتج من ذلك ؟

– أستنتج منه انه استخدم راعياً عند أحد اصحاب المواشي .

– في استراليا ؟

– دون شك .

– ولكن استراليا عظيمة تشبه القارة باتساعها ففي أي قسم منها تحسب انه يكون ؟

– هو ذاك غير أن ملبورن لا ترد اليه الماشية إلا من الأقاليم الغربية .

حسناً فسأبحث عنه في هذه الأقاليم فان قلبي يحدثني اني سأجده .

– ألعله كان صديقك ؟

– كلا ، بل كان سيدي ومولاي .

– كيف ذلك أكان هذا الرجل حقيقة من الأسياد ؟

– لقد قلت انه لورد نبيل .

– أيمكن أن يحكم على اللوردية هذه الاحكام ، وان تبدل اسمائهم هذا التبديل ؟

– ان لذلك حديثاً طويلاً لا يمكن ان أرويه لك اليوم .

– متى تقصه علي ؟

– بعد أن اقترح عليك اقتراحاً وأرى رأيك فيه .

– قل ما تريد ؟

– انك فقير معدم ، أليس كذلك ؟

– بل اني أكاد أموت من الجوع .

– ولذلك أظن انك لا تأنف من كسب عشرة جنيهات في الشهر .

فاتقدت عينا فونتر ببارق من السرور وقال : عشرة جنيهات ؟

— نعم .

— وماذا يجب أن اصنع لأكسبها ؟

— تصحبني أين سرت وتشترك معي بالتفتيش عن ولـتر بريس ، أي لورد ولم .

— اني أرضى بذلك كل الرضى فاني احببت هذا الرجـل لصفاء قلبه ، وفوق ذلك فاني محتاج إلى هـذا الكسب .

— اني لا اقتصر على منحك هذا الراتب فان وجدنا اللورد كان لك خير مكافأة تعيش بها سعيداً بقية أيامك .

— إن كان ذلك فاني أسير معك حيث تشاء .

وفي اليوم التالي سافر توما وفونتر إلى سيدني ليذهبا منها إلى ملبورن .

وكان موعد سوق الماشية قريباً ، فقررا أن ينتظراه على رجاء ان يظفرا باللورد بين الرعاة . غير ان توما لم يكتف بالانتظار ، بل جعـل يتفقد جميع الفنادق والحانات ويسير في جميع الشوارع والأزقة باحثاً عن ولتر بريس فلا يعثر به ولا بمن وقف على اثره .

وكان الاثنان يبحثان عنه وكل منهما قد سار في قسم من المدينة ، وكان فونتر أسعد حظاً من توما في أبحاثه ، وذلك انه رأى راعيـاً كان يعرف ولتر بريس .

فأسرع اليه وسأله عنه فقال له : إن السعادة قد تفاجىء المرء من حيث لا يدري .

— ماذا تعني ؟

— اعني ان ولتر بريس أحد هؤلاء السعداء .

وكان توما واقفاً مع فونتر يسمع الحديث ، فكان قلبه يخفق خفوقـاً عظيماً ، ولكنه لم يفه بحرف . أما فونتر فانه قال للراعي : إذاً قـد أصبح

ولتر بريس من السعداء .

-- بل من أسعدهم

— وأين هو الآن ؟

- على بعد مرحلة من هذا المكان في الشمال الغربي .

- أرأيته ؟

- منذ ستة أشهر . .

- ماذا يعمل ؟

— إنه عندما عاد من زيلندا الجديدة ، كان راعياً مثلي ، واما الآن فهو من اعظم تجار المواشي .

— كيف حصلت له هذه الثروة ؟

— إن ابنة تاجر المواشي الذي كان راعيـــاً عنده أحبته فتزوجها وهي وحيدة ، فلم يمض بضعة أشهر على هذا الزواج حتى توفي أبوها فورث ولتر بريس ثروته ومواشيه .

— اتستطيع أن ترشدنا إلى المكان الذي يقيم فيه ولتر بريس بالتدقيق ؟

— بل أفعل خيراً من ذلك فانه قريب منا وسأرافقك اليه .

— متى ؟

— متى شئت فإني الآن قد بعت جميع المواشي التي اتيت بها من قريتي في السوق ، ولم يبق لي ما أعمله في هذه المدينة .

— إذاً نسافرُ غداً ؟

— كما تريد .

أما توما فقد كان سروره لا يوصف فشكر الراعي شكراً عظيماً ، وافترق عنه على أمل اللقاء غداً .

وفي اليوم التالي التقى فرنتر وتوما بالراعي وسافروا .

وقد كان سفرهما شديد البطء لوعورة المسالك في تلك البلاد ، ولأن

المركبات تجرها الثيران .

وكانت المسافة بين المدينة وبين مركز اللورد وليم مـــائة مرحلة ينبغي لاجتيازها ثمانية أيام فوصلوا في اليوم السابع بعد ذاك السير الشاق إلى مركز الراعي وبات عنده تلك الليلة واستراحا من عناء السفر .

وفي صباح اليوم التالي سافروا جميعهم عند الفجر .

وبعد ان ساروا أربع ساعات قال لهم الراعي : ان المسافة لا تزال شاسعة بيننا وبين منزل ولتر بريس ، ولكننا نمشي الآن في مراعي مواشيه فإن جميع هذه الأراضي المتسعة له .

فأجفل توما لهذا الخبر ، وعجب كيف انه لم يعد إلى انكلترا ويعاقب الأثمة لقد كان يحسب في البدء ان الفقر يمنعه عن السفر أو الحكم عليه بالنفي .

أما وقد انتهت مدة عقابه ولم يعد يعوزه المال فلا بد ان يكون هناك مانع عظيم يحول دون سفره إلى مسقط رأسه .

ومن ذلك الحين زاد اضطرابه وهواجسه وطلب إلى رفيقيه ان يسرعا في السير فقد نفذت جعبة صبره واكبر هذه المعميات .

وما زالوا سائرين حتى توسطت الشمس في قبة الفلك ، فرأى توما منزلاً أبيض جميلاً قائماً بين غابة كثيفة من الأشجار الباسقة .

فقال له الراعي : إن هذا المنزل منزل ولتر بريس .

فسالت دموع توما من الحنو وقال في نفسه :

ترى أيعود معي إلى اوروبا ؟

ثم واصل السير إلى ذلك المنزل ورجلاه تصطربان من فرط تأثيره وهو يبكي بكاء الأطفال ، فإنه قد ربى اللورد وليم حتى بات لديه كأبنائه .

وزاده ولعاً به واشفاقاً عليه نفوذ هذه الجريمة فيه وإرساله إلى أقاصي الأرض في عداد المجرمين ، وهو أطهر الناس قلباً ، وأسلمهم نية واشتغاله في حرث الأرض ورعي المواشي ، وهو ربيب النعمة وابن الرخاء ، وسليل النبلاء

بل هو الذي كان إن لمس الحرير يدمي بنانه .

فبات يحمل المعول في تلك اليد بعد أن كان يحمل بها عصا اللوردية وهي أولى بحمل الصولجان .

- ٣٤ -

كان هذا المنزل الأبيض جميل الرونق لطيف المنظر يشبه وهو بين الغابات حمامة بيضاء مستترة بين الأوراق .

وقد وجدوا عند مدخله ، اسطبلات وزرائب محـاطة جميعها بسور ناصع البياض .

أما هذا المنزل فقد كان في وسط حديقة غنـــاء باسقة الأشجار وهي محيطة به كالنطاق .

ودخل توما ورفيقاه إلى الفناء الخـارجي ، واستقبلهم خادم زنجي يدعى بافان . .

وكان الراعي يعرفه معرفة جيدة فقال له بعد التحية والسلام : إن هذين الرجلين من أصدقائي وقد أتينا لزيارة المستر بريس .

فرحب الزنجي بهم وقال لهم : إن المستر بريس ليس في منزله الآن .

فاصفر وجه توما وخشي أن يكون مسافراً .

وقال له الراعي : أين هو العله مسافر ؟

– كلا ، ولكنه ذهب لتفقد بعض قطعانه في مسافة لا تبعد أكثر من ميل .

– العله يعود قريباً ؟

– دون شك .

وسأله توما : أيؤذن لنا بانتظاره في هذا الفناء ؟

– بل في المنزل فان إمرأته فيه فهلموا واتبعوني .

وتردد توما في البدء ولكنه تبعه بعد إلحاحه .

وكان باب المنزل الكبير مفتوحاً فرأى توما حوالي هذا الباب حديقة خاصة بالزهر تتصل الأزهار منها إلى سلم المنزل وتتصاعد عليه حتى تبلغ غرفه.

ولما صعدوا السلم فتح الباب وظهرت منه إمرأة صبية تحمل على صدرها طفلاً صغيراً كانت ترضعه ووراءها فتاة في الرابعة من عمرها نظرت إلى الزائرين نظرة المنذهل إذ لم تكن رأتهم قبل هذه المرة .

أما المرأة فكانت زوجة ولتر بريس أو اللورد وليم .

وانحنى الراعي أمامها وحياها بكل احترام .

وقالت له : ما جاء بك يا طوبيا العلك تريد مقابلة المستر ولتر ؟

وكانت تكلمه وتنظر إلى توما وفونتر ، كأنها تسأله بعينيها عن هذين الرجلين .

وأشار الراعي إلى توما وقال لها . هوذا يا سيدتي رجل نبيل عاشر زوجك منذ عهد بعيد وهو من خير أصدقائه .

فارتعشت المرأة وقالت له · أين عرفه ؟

فأجابها توما : إني عرفته في انكلترا يا سيدتي .

وزاد اضطراب المرأة وقالت : ماذا أفي انكلترا ؟

– نعم يا سيدتي .

– أفي قرية برت ؟

-- كلا ، بل في باميلتون .

وكان توما يكلمها بصوت يتهدج .

وسألته : من أنت يا سيدي ؟

- اني أدعى توما .

واندهلت المرأة اندهالاً شديداً وقالت : انت تدعى توما ؟

- نعم يا سيدتي ولما هذا الاندهال ، اني أدعى توما وقد رأيت أن اسمي قد أثر عليك ، فهل زوجك يحدثك عني !

- بل يحدثني كل يوم .

وفيما هي تكلمه سمعوا وقع حوافر جواد في الفناء الخـــارجي فقالت : هوذا زوجي قد حضر .

وأسرع توما وقد زاد به الاضطراب حتى وهت رجلاه وأوشك أن يقع فجعل الراعي يعينه على المشي .

أما ولتر بريس فقد كان شابـــاً يبلغ السابعة والعشرين من العمر ، وهو أبيض الوجه غير أن الشمس لوحته فبات أميل إلى السمرة

ولم يكن باقياً في وجهه شيء من التشويه وتلك الندوب التي أصيب بهـا بعد أن لسعته الحية الزرقاء .

ولما رأى توما مقبلاً لاستقباله ، والحنو يسيل من عينيه ، نظر اليـــه نظرة إنكار ، ولم يعرفه في البدء ، فإن شعوره قد أبيضت ، واخـترم الهم جسمه ، وغير هيأته .

ثم ترجل عن جواده وقال لامرأته من هذا الرجل ؟

وبكى توما قائلا له : ألم تعرفني إلى الآن يا سيدي ؟

وعرفه من صوته وقال له بلهجة المضطرب : انت توما ؟

- نعم يا سيدي اللورد ، وقد صدق حديث قلبي لأني كنت أعتقـد اني لا بد لي ان اجدك .

وعانقه اللورد ولبم عناقاً طويلاً وكلاهما يذرف الدموع

ثم نظر اللورد الى فرنتر والراعي وابتسم ابتسامـة حزن وقال لهما . ألم أقل لكم اني من اللوردية فهل صدقتم ورأيتم بأعينكم ؟

ثم قال لامرأته : إذهبي ايتها العزيزة بهذين الضيفين إلى قاعة الطعام ، أما انا فاني أحب الاختلاء بتوما وسأوافيكم اليها .

وذهبوا إلى قاعة الطعام وتأبط اللورد ذراع خادمه الشيخ الأمين توما ، وسار به إلى غرفته وكلاهما يتعانقان ويضطربان ويبكيان .

ولما اختليا عانقه اللورد أيضاً وقال له . إذاً أنت تبحث عني ؟

- إني برحت انكلترا باحثاً عنك منذ ستة اعوام ولولا تلك القبائل المتوحشة التي اوقعني نكد الطالع بأيديها للقيتك منذ عهد طويل .

– أية قبائل تعني ؟

- اواه يا سيدي اللورد أن مصائبي وما لقيته من العذاب لا يذكر في جنب مصائبك وعذابك .

- ولكني قبل أن أخبرك بأمري أحب أن أعرف أمرك .

وكان يكلمه بلهجة السيادة فلم يسع توما إلا الامتثال

ثم قص عليه جميع ما اتفق له ، منذ مبارحته انكلترا باحثاً عنه إلى أن لقيه .

وقال له اللورد بعد أن اتم حكايته : لا يزال يشكل علي يا توما أمر لم أجد سبيلاً لفهمه .

- ما هو يا سيدي اللورد ؟

- اني فقدت الذاكرة عاماً كاملاً وقد قالوا لي اني كنت من المجانين .

وكان آخر ما أذكره من أمري اني صعدت إلى سريري بغية الرقاد في قصر باميلتون الجديد ، ولم أكد استقر فيه حتى صحت صيحة ألم شديد وشعرت بجسم بارد يدب على وجهي .

وبعد ذلك ؟

- لم أتذكر شيئاً من حياتي الماضية .

على اني نهضت في صباح يوم من رقادي فشعرت اني صحوت بعد حلم

طويل وقد وجدت سلسلة حــــديدية في وسطي شأن المجرمين ورأيت نفسي أشتغل في منجم من مناجم الفضة .

وكان يحيط بي رفاق مقيدون مثلي ويشتغلون شغلي فدهشت لأمري ، وجعلت أناديك باسمك وأنا أحسب نفسي حالماً واني لا أزال في قصري .

أما رفاقي فانهم جعلوا يضحكون ويهزأون بي .

فأكبرت هزءهم بي وقلت لهم ويحكم الا تعلمون من أنا ؟

فأجابني أحدهم : كيف لا نعلم فانك ولتر بريس .

- إنكم منخدعون فاني أدعى اللورد باميلتون .

فأضحكهم قولي ضحكاً شديداً .

وكان مراقب الأعمال يسمع هذا الحديث فدنا مني وقال : ما هذه الأقوال يا ولتر العلك عدت إلى الجنون ؟

- ومتى كنت مجنوناً أيها الأبله .

فاستعظم شتمي إياه بعد توقفي عن العمل وجلدني بسوطه ست جلدات وبقيت ثمانية ايام في اسوأ حال استغيث فلا أرحم ، وأسأل عدالة ، فـلا أجاب ، وأحدث من حولي بحقيقة أمري فلا القى غير الهزء والسخرية ، فاذا قلت لهم اني لورد ، قالوا ما انت إلا ولتر الايكوسي وانه محكوم عليك في قرية بيرت بالنفي خمسة أعوام .

وهنا توقف اللود هنيهة عن الحديث وقد راعه هذا التذكار .

أما توما فانه كان يبكي بكاء الأطفال .

ثم عاد اللورد إلى الحديث فقال: على اني كنت واثقاً من نفسي اني في تمام العقل واني انا هو وليم باميلتون نفسه واني في يقظة ولست من الحالمين .

وهنا عادت إلي تذكارات حياتي السابقـــة فذكرت أيام حداثتي وايام صباي ولم يفتني حادثة .

وكنت استدرجها في ذاكرتي حادثة حادثة حتى إذا انتهيت بهـا إلى حادثة شعرت ان قلبي قد خفق خفوقاً شديداً حتى أخشى ان ينفجر صدري وتنطق شفتاي هذا الاسم (مس إينا) .

وبعد ان افرغت وسعي في إقناع رفاقي على اني كما وصفت لهم دون ان افلح ، تمكنت بعد الجهد الشديد من الوصول إلى الحاكم العسكري ، الذي كان يحكم البلد والمنفيين اليها وقد توسلت اليه ان يأذن لي بشرح حالي .

وأذن لي الحاكم بعد إشفاقه علي لفرط توسلي وأخبرته اني لا أدعى ولتر بريس ، بل اني اللورد وليم باميلتون .

أما الحاكم فانه اصغى ببرود ثم طلب سجل المنفيين فقرأ ما كتب فيه وقال لي إنك تدعى ولتر بريس ، وانك كنت تبلغ العشرين من العمر حين حكم عليك مجلس بيرت بالنفي .

وقد اصبت حين كنت في سجن تلك المدينة بمرض غريب شوه وجهـك تشويهاً كثيراً حتى لم تعد تعرف .

وبعد ذلك أصبت بالجنون واضطروا ان يحملوك على بغل إلى لفربول لأنك لم تكن تستطيع المشي مع المجرمين

ولما نقلوك من لفربول إلى السفينة كنت لا تزال مشوهاً معتوهاً .

ولم تذهب عنك آثار التشويه إلا بعد وصولك إلى هنـــا ، وقد أصبحت هادئاً ساكناً ورجونا أن يكون ذلك مقدمة لشفائك من الجنون .

فلما سمعت هذه الأقوال من الحاكم كدت أجن حقيقة لغرابتها ، ولكني كظمت اضطرابي ورويت للحـــاكم جميع أمري بلهجة يتبين منها الصدق الأكيد ، فقصصت عليه جميع علائقي السابقة مع أصحـــابي في لندرا ، ومعظمهم من مشاهيرها .

فوقع موقعاً حسناً من فؤاد الحاكم ، وقد داخله الريب في حكايتي الغريبة فقال لي : إني سأكتب إلى انكلترا وأسأل عنك ، وسنرى في أمرك بعـد ورود التفاصيل .

فخرجت من حضرته شاكراً ممتناً وقد تمكن الرجاء من قلبي ، فإن قلبي كان يحدثني انك تبحث عني ، وكنت أقول في نفسي ان أخي لا بد ان يكون تأثيره عظيماً لاحتجابي .

فصبرت عاماً كاملاً وأنا أتقلب فيه بين عوامل اليأس والرجاء ، إذ كنت اعلل النفس بورود التعليمات عني من لندرا فأطمئن ، ثم تتوالى الأيام والشهور دون ورودها فأعود إلى القنوط .

وبعد انقضاء العام دعاني الحاكم العسكري اليه .

ولما مثلت بين يديه بادرني بقوله : أشفيت أم لا تزال على مـا كنت فيه من الهوس ؟

ولم يكن وقع الصواعق أشد علي من وقع هذه الكلمات فقلت له : ماذا حدث يا سيدي ؟

حدث اني كتبت إلى لندرا سائلاً عنك .

- وهل ورد جواب ؟

نعم . وهذا هو !

ثم دفع الي كتاباً موقعاً عليه باسم اللورد أفندال باميلتون .
ففحصت التوقيع وأيقنت أنه خط أخي وقرأت ما يأتي :

« لحضرة حاكم زيلندة الجديدة ..

« لقد كان لي حقيقة أخ يدعى اللورد وليم وهو أخي البكر .
« غير انه توفي منذ عامين في قصره في قرية باميلتون ..
« وقد توفي مسموماً فان حية لسعته في فراشه .
« وانك تجد في طي هذا الكتاب ، سجل وفاته مصدقاً عليه من محافظ المدينة ، التابعة لها القرية التي توفي فيها ، وهو واضح كل الإيضاح ولا سبيل بعده للريب ..
« وقد أشار علي ، عمي السير أرشيبالد ، أن أرفع قضية إلى نظارة الحقانية ، سائلاً فيها معاقبة ذلك المزور الخائن الذي تجاسر على انتحال اسم أخي التعيس »

« اللورد أفندال باميلتون »

ولما فرغت من تلاوة هذا الكتاب ، بل هذه المعميات ، نظر الي الحاكم وقال لي بلهجة المتهكم :
– اي حضرة اللورد كيف رأيت ؟

فأطرقت برأسي إلى الأرض ولم أجب بحرف ، لأني فهمت عند ذلك كل شيء ..
وقال له توما : ماذا فهمت يا سيدي ؟

– فهمت ان أخي قد سلبني لقبي وثروتي وخطيبتي ..

غير اني لا أزال افكر إلى الآن كيف تمكن من البلوغ إلى هذه الغاية دون ان اهتدي إلى حل هذه المشكلة العويصة .
ثم تنهد وقال : واني اخشى ان لا اهتدي إلى حلها مدى العمر .

فقال له توما : بل أنا اكشفها لك .

- أنت تعرف هذا السر ؟

- نعم ..

ثم مسح توما دموعه وقال له : أتذكر ذلك الفقير الهندي الذي كان يدعى باسم نظام ؟

- نعم ..

- إذن فاعلم انه كان شريك أخيك بالجريمة ، بل ان فكره الجهنمي هو الذي دبر هذه المكيدة الهائلة .

- أية إساءة اسأت بها إلى هذا الشقي ؟

فضحك توما ضحك المتألم وقال : اتعرف من هو هو هذا الرجل ؟

كلا .

- انه عمك السير جورج باميلتون الذي خان أخاه النبيل ودنس أمك الظاهرة .

فاصفر وجه اللورد وليم وأطرق برأسه مستحياً من هذه الجريمة كأنه هو الذي ارتكبها .

فقال له توما : وأن اخاك قد حذا حذو أبيه ، والحية لا تلد الا الحية كما يقال .

ثم قص عليه توما كل ما جرى مما عرفه القراء .

فقال له اللورد : لماذا لم تقل شيئاً لأخي عندما قتلت هذا الأثيم ؟

- لأني كنت احب ان أراك قبلاً

- إذاً تزوج مس اينا ؟

- اني غادرت القرية يوم زواجه .

وهنا قص عليه توما ، جميع ما لقيه من الشقاء والأخطار ، بين القبائل المتوحشة .

ولما أتم حديثه قال له اللورد : لقد تبين لي الآن انه عندما كتب الحاكم إلى أخي يسأله عني كنت قد برحت انكلترا

— هو ذاك .

فصمت اللورد هنيهة ثم قال : اني منذ ابلغني الحاكم كتاب السير افندال استسلمت إلى القضاء ولم أعد اكترث بشيء .

وقد استمر رفاقي المجرمون على اعتباري منهم ،ورجعت عن اعتبار نفسي من اللوردية وقلت ليفعل الله ما يشاء .

ثم توالت الأيام والسنون ، الى ان جاء يوم أبلغوني فيه ان مـدة عقابي قد انتهت .

وقد دعاني الحاكم اليه فدفع الي شيئاً من المال جزاء أتعـابي الشاقة في حفر المناجم خمسة اعوام وقال لي : انك اصبحت الآن حراً مطلق السراح ، ولك الخيار بين ان تعود إلى انكلترا ، او بين أن تبقى في زيلندا ، وبـين أن تذهب إلى اوستراليا فتشتغل فيها .

وكانت نفسي قد سئمت الوجود وكرهت العودة إلى بلاد يفتك فيها الأخ بأخيه ، وعولت على الذهاب إلى اوستراليا والارتزاق فيها .

فأرسلني الحاكم الى ملبورن فوصلت اليها في يوم كانوا يعرضون فيـه الماشية للبيع .

ولقيني في تلك السوق رجل من تجار المواشي وعرض علي ان اكون راعياً عنده ، فرضيت الاقتراح وذهبت معه الى منزله .

أما هذا الرجل فقد كان والد لوسي زوجتي .

على ان ما لقيته من الشقاء في شغل المناجم بعشرة اولئك المجرمين الأدنياء أعواماً ، لم يؤثر على ادب نفسي أقـل تأثير ، ولم تغـير تلك العشرة السيئة شيئاً من فطرتي الغريزية .

وهنا حدث لي حادث غرام جدير أن يكون حكاية تكتب ، فيتفكه

بها الناس ، غير اني لا اقصها عليك لطولها ، واكتفي بالقول ان تعــاقب الأيام محا أثر مس إينا من قلبي لاسيا بعد عرفاني انها اصبحت زوجة أخي وحلت محلها لوسي .

– أكانت هي تحبك ؟

. كما كنت أحبها ، وقد مضى على ذلك عامان كسبت فيها ثقــة هذا التاجر ، فخلا بي يوماً وقال لي . ارى انك تحب ابنتي ، وابنتي تحبك ، ولا أنكر تباين الحالة بيني وبينك غير اني ميال الى التساهل ، لاسيا وقد حكيت لي حكايتك فصدقتك ، فاذا شئت جعلتك زوجاً لابنتي .

وبعد شهرين عقد زواجنا ثم توفي ابوها فورثت امرأتي جميع امــواله ، وانا اعد نفسي الآن من السعداء .

فقال له توما ولكنك لا تطيل اقامتك في هذه الديار بعد الآن ؟

بل أبقى .

– كيف ذلك ارجعت عن المطالبة بحقوقك ؟

– اية فائدة بقيت من ذلك فان الذي كان يدعى اللورد وليم بات يدعى ولتر بريس ؟

إن هذا محال ، بل تعود إلى بلادك وتعود اليك ثروتك والقابك .

– كلا ، فاني هنا سعيد .

وعند ذلك دخلت إمرأته ومعها ولداها فــأشار اللورد وليم اليهما وقال لتوما : انظر إلى هذين الملاكين فما يعوزني بعد من اسباب السعادة ؟

وقد أقام توما عدة أشهر في منزل مولاه اللورد وليم وهو يرجوه ويتوسل اليه كل يوم ان يذكر انه يدعى اللورد وليم وان يطالب بحقه المسلوب ويدخل دخول الرئيس الى قصر أجداده .

غير ان اللورد وليم كان يأبى ان يعود الى موطنه وقد تنازل عن ثروتـه والقابه وعول على الاقامة في اوستراليا لما كان يجد فيها بين امرأته وولديه من أسباب السعادة وتوفر دواعي الهناء .

ثم أنه كان أكبر جريمة أخيه كل الاكبـــار ، حتى انه بات يحتقر تلك الثروة وذلك الجـاه اللذين افسدا قلب أخيه ، وحمـلاه على ارتكاب هـذه الجريمة السافلة

وكان إذا الح عليه توما يقول له : إني لا أسـافر إلى انكلترا ، ولا أدعك تذهب اليها فاكتب الى امرأتك كي تحضر الينا فنعيش في هذه البـلاد عيش الهناء والسلام .

غير ان توما لم يقنط ولم يكف عن محاولة إقناع مولاه . الى ان الح عليه توما وقال له : لا بد من عودتك الى انكلترا .

- إصغ إلي ايها الصديق .

- تكلم يا سيدي .

- لنفرض اني امتثلت لرأيك .

- أتعود الى انكلترا ؟

- لنفرض اننا عدنا الى انكلترا وذهبنا إلى أخي .

- يجب ان يعرفك ويعترف بحقوقك .

- لقد أخطأت يا توما فانه لا يقتصر على عدم الاعتراف بحقوقي بل انـه يشكوني ويتهمني بالتزوير .

— ولكننا نبرهن للقضاء عن الحقيقة فلا تخفى عليهم

— كيف أستطيع إبداء هذا البرهان بعد ان ثبت في السجلات الرسمية إني أدعى ولتر بريس وإني مجرم محكوم عليه بالنفي .

فلم يحفل توما باعتراضه وقال له : إنه إذا أبى السير افندال إلا ان ينكرك فان لدينا من لا يستطيع إنكارك .

— من هو ؟

— مس اينا .

فمرت غمامة كثيفة في ذهن اللورد وليم وقال : كلا إن حب هذه المرأة قد انتزع من قلبي وانا أحب امرأتي .

فتظاهر توما بالاقتناع وكف عن البحث في هذا الشأن .

وفي اليوم التالي عاد إلى ما كان عليه فلم يفز بمراده .

وما زال على ذلك الى ان حدثت حادثة أعانت توما على الفوز بما يسعى اليه .

وذلك ان الثروة في البلاد الاوسترالية تتكدس بسرعة ولكنها قد تذهب أيضاً كما أتت وتتبدد بنفس السرعة .

فإن معظم المهاجرين الى تلك البلاد من الأفاقين والمجرمين الذين انتهت مدة عقوباتهم ، فيشتغلون بملء الجد ويقدمون على طلب الثروة بهمة لا تعرف الملل .

وأكثرهم يبدأون برعي المواشي ، ثم يصبحون باقتصادهم من تجارها وتأخذ ثروتهم بالازدياد .

على ان هذه الثروة تكون غالباً معرضة لأشد الأخطار .

ذلك ان صاحب الماشية ينام ليلته غنياً ، وهو يملك مائة الف من الخرفان ترعى في مسافة عشرين مرحلة مربعة ، في أية أرض اختارها ، فامتلكها بحق وضع اليد .

ثم ينهض في اليوم التالي فقيراً معدماً لا يملك شروى نقير كأنما تلك الثروة كانت أضغاث أحلام .

أما سبب هذا الانقلاب السريع فانه يوجد في اوستراليا كثير من العبيد الذين يهربون من المستعمرات الذين كانوا مستعبدين فيها فيعيشون في اوستراليا من السرقة والنهب والحرائق .

وقد عظم شأن اولئك السود حتى ان الحكومة الفت منهم جنداً سمته الجيش الأسود .

أما هؤلاء السود فانهم كانوا يقصرون على سرقة ما يحتاجون اليه من المواشي للقيام بأودهم .

ولكنهم إذا وجدوا سبيلاً للشكوى من أحد التجار ، عقدوا مجالسهم واتفقوا على نهب هذا الرجل والانتقام منه بتجريده من ثروته قوة واغتصاباً .

فيصبح هذا المسكين ويجد منزله مطوقاً محصوراً بجيش من أولئك المنتقمين بعظم ويقل بنسبة عدد حراس هذا التاجر ، فيهاجمونه من كل صوب ويسلبون مواشيه ، فلا يسلم من شرهم إلا إذا أدركته النجدة قبل فوات الأوان .

ومن عاداتهم انهم قد لا يفتكرون بأصحاب المنزل ، ولكنهم يحرقونه ويقتلعون الأشجار ، ويسدون الينابيع ، ويقتلون ما لا يستطيعون حمله من المواشي .

فيصبح المنكود لا يمتلك شروى نقير ويضطر ان يعود إلى جمع الثروة كما بدأ بها اي انه يعود الى مصاف الرعاة .

وكان اللورد وليم مسالماً لهذه الطوائف محبوباً منهم ، فإذا رأى بعضهم يرودون حول منزله أرسل اليهم جميع ما يحتاجون اليه من المأكل والمشرب بسخاء يحملهم على الشكر والاخلاص والامتنان .

فما زال آمناً شرهم وما زالوا راضين عنه حتى حدث حادث غرام أفسد إخلاصهم ومحا أثر الامتنان من قلوبهم .

ذلك ان زعيماً من زعماء هذه الطائفة يدعى كبليرين أحب جارية سوداء كانت تخدم في منزل اللورد .

وقد بلغ حبها من قلبه مبلغاً عظيماً حتى انه تجاسر على ان يسأل اللورد وليم الزواج بها

فقال له ولتر بريس : اخطبها من نفسها فاذا رضيت بالزواج بك فلا أكون من المعارضين .

فذهب الأسود اليها وطلب ان تقترن به ، فأبت وردته رداً قبيحاً كبر وقعه عليه .

فأقسم ان ينتقم منها ومن مولاها على السواء .

وبعد ذلك ببضعة أيام تسلق سور المنزل في ليلة حالكة الأديم ، وولج الى غرفة الفتاة التي يحبها .

غير ان الفتاة لم تحسن استقباله ، بل استقبلته بالصياح وطردته أقبح طرد ففر هارباً لا يلوي على شيء .

وقد انفق ان أحد حراس منزل اللورد وليم رأى هذا العبد يفر فأطلق عليه بندقيته فقتله .

وكان هذا القتيل أحد زعماء السود كما قدمناه ، فأيقن المستر بريس في اليوم التالي ان العبيد لا بد أن ينتقموا منه وأخذ يتأهب . ولكن تأهبه لم يفده في شيء .

وذلك انه في الليلة التالية حاصر منزله نحو الف رجل من اولئك السود كما تحاصر الجنود القلاع .

وقد جمع أعوانه ودافع دفاعاً جميلاً ، ولكن سهام السود المسمومة كانت تفتك بأعوانه وتنكل بهم غاية التنكيل .

ولم يكتفوا بقتل الحراس بل انهم أشعلوا النار في المنزل .

ولما رأى اللورد وليم ما حل به من هذه النكبة الفادحة ، جمع من بقي حياً من خدمه ، ودافع بهم عن امرأته وولديه دفاع المستبسل المستميت .

وما زال على دفاعه وهو يتوقع القتل في كل لحظة حتى جاءته النجدة ، وأقبل الجنود السود . فأركن السود الى الفرار ، وسلم اللورد وامرأته وولداه وتوما من القتل . ولكنه بات فقيراً معدماً لأن اولئك السود قد نهبوه

غير ان توما كان لا يزال لديه نحو سبعماية جنيه ، وهو مبلغ يكفيه للعودة مع عائلة اللورد الى انكلترا .

ولما فرق الجند شمل المعتدين ، خلا توما بسيده اللورد وقال له بلهجة الفائز : لا بد لك بعد هذه النكبة الآن ان توافقني على ما اقترحته عليك وان تعود الى اسمك الكريم .

فتنهد اللورد وليم وقال . إني لو كنت وحدي لفضلت البقاء ، وعدت الى تجديد ثروتي الضائعة . ولكن لي إمرأة وولدين ، لا أطيق أن أراهما يقاسموني الشقاء ، ولهذا السبب وحده رضيت ان أعود معك إلى لندرا

فسالت دموع السرور من عيني توما وشكر الله .

وبعد شهر سافر توما واللورد وليم وعائلته الى ملبورن ، ومنها الى انكلترا .

أما توما فانه كتب الى امرأته قبل السفر بأسبوع يبشرها بقدومه مع اللورد

وسافر ونفسه تفيض بشراً ورجاء .

واما اللورد وليم فإنه كان منقبض الصدر يذكر منزله في اوستراليا بين

تلك الحقول الناضرة ، فتسيل دموعه ويحسب انه خسر كل ما كان يطمع به من أسباب السعادة والهناء .

- ٣٧ -

والنعد الآن الى لندرا ، فندخل اليها باذهان القراء في فصل الصيف وقد تبدد ضباب شتائها الكثيف وملئت شوارعها أشعة وهواء نقياً .

وكانت البساتين والحدائق في ذلك اليوم غاصة بالمتنزهين ، ولا سيما حديقة هايد بارك .

فقد كانت تدهش الأبصار بازدحام المتنزهين ، بين حسان يشرقن من مركباتهم إشراق الأقمار .

وفرسان يتنزهون على صهوات جيادهم ، وخطيب يروي لخطيبته حديث غرامه ويقنعها انه أبدي دائم لا يزول .

وأطفال يلعبون عند السواقي ، والسلامة تخرج من أفواههم ضحكاً عالياً يرتاح اليه المقطبون .

وكان هذا الخليط يذهب ويجيء في تلك الحدائق الغناء ، مستنشقاً نسمات الغروب البليلة بعد ان كان حر النهار يصهر الأجساد

وكانت الساعة الثامنة ، ولا يزال شفق الشمس المتوارية يرسل أشعته الأخيرة لترقد بين اوراق الأشجار الباسقة .

وكان بين هؤلاء المتنزهين إمرأة ماسكة بيد غلام يتبعها خادمان وهي تتنزه عند ضفة النهر .

إن هذه المرأة كانت تدعى من قبل مس اينا وهي تدعى الآن اللادي أفندال باميلتون وكان الغلام الذي يصحبها ولدها .

وكانت تسير الهوينا متنزهة وظواهر القلق بادية عليها ، ذلك لأنها رأت رجلاً يقتفي أثرها منذ مدة على مسافة قريبة .

ولم تكن قد تبينت وجه هذا الرجل فتعرفه ولكنها استدلت من لباسه وملامحه انه ليس من الذين يخشون لا سيما وانه كان مبيض الشعور وفي ذلك ما يدعو الى الاطمئنان .

إن الذي رابها انه كان يقتفي أثرها منذ مدة طويلة ويتبعها إلى حيث سارت فأفضى بها الأمر الى الخوف منه .

ثم ظهر من هذا الرجل فجأة انه أقر على أمر كان يتردد فيه ، فتقدم الخادمين اللذين كانا يسيران وراء اللادي ، ودنا منها وقبعته في يده .

فذعرت اللادي في البدء حين رأته .

غير ان الرجل ابتسم لها وقال : ألم تعرفني سيدتي ؟

فعرفته وقالت له : أأنت توما ؟

— نعم يا سيدتي .

- أنت هو خادم وليم الأمين ؟

- هو بعينه .

— كنت أحسبك فارقت هذه الحياة .

— وأنت ترين يا سيدتي اني لا أزال حياً أرزق ؟

فجعلت اللادي باميلتون تنظر اليه نظرات الانذهال ، ثم قالت له : أين كنت ؟

— إني قادم من اوستراليا يا سيدتي وقد أتيت خصيصاً لأراك

فزاد انذهالها وقالت لتراني أنا !

نعم يا سيدتي .

— إذاً ليست هي الصدفة التي جعلتك تلقاني ؟

كلا يا سيدتي فاني أرود حول قصرك منذ ثمانية أيام .

- ولماذا لم تدخل اليه ؟

– لأني أحب ان أراك دون أن يرانا اهل القصر .

فعاود القلق اللادي وقالت له : كيف هذا ؟

– ولا يجب ان يسمع حديثنا أحد .

– إن هذه اللهجة السرية تريعني منك يا توما .

– ولكني لا أجد بـدأ من مباحثتك ، دقائق معـدودة ، إذا كنت تأذنين .

– لا بأس إمش الى جانبي وحدثني بما تريد فان الخادمين بعيدان ولا يسمع حديثك أحد .

– لدي يا سيدتي سر احب ان استودعك إياه .

– سر ؟

.. نعم سر ، لو القي اليك منذ بضعـــة أعوام لكان لك خير بشرى ، وتلقيته بالسرور العظيم . أما اليوم فانه سيقع منك أسوأ موقع ، ويملأ قلبك الرقيق حزناً وغماً .

– إنك ترعبني بما تقول يا توما .

فمضى توما في حديثه دون ان يحفل بكلامها وقال لقد قلت لك ياسيدتي إني عائد من اوستراليا

- ماذا تعني بذلك ؟

– أعني اني لقيت فيها رجلاً كان يذكرك ، ويحدث نفسه بك كثيراً .

– من هو هذا الرجل الذي يفتكر بي في اوستراليا ؟

- إنه يدعى ولتر بريس يا سيدتي .

– إني لم أسمع هذا الاسم قبل الآن .

– قد يكون ذلك يا سيدتي ولكن هذا الرجل قبل ان يدعى بهذا الاسم كان له اسم آخر .

- ماذا كان يدعى ؟

- اللورد وليم باميلتون .

فصاحت صيحة ذعر وقالت : ماذا أصابك يا توما العلك جننت ؟

- كلا يا سيدتي فاني بتمام العقل بحمد الله .

- ولكنك تعلم ان اللورد وليم قد مات من عهد بعيد ، وأنت بكيته كما بكيناه .

- هو ذاك ، يا سيدتي ، فاني كنت أعتقد أنه مات ، كما كنت تعتقدين .

- أما أنا فاني رأيته ميتاً .

- لم يكن اللورد الذي رأيته على فراش الموت أيتها اللادي .

إذاً من هو ؟

- هو ولتر بريس .

فنظرت اليه عند ذلك نظرة المشفق وقالت إني أرى يا توما ان حزنك على وليم قد برح بك وأضاع رشادك .

- لقد قلت لك يا سيدتي اني لست بمجنون .

- إذا كنت سليم العقل فما هذه الأقوال ؟

- أتوسل اليك يا سيدتي ان تصغي الى تتمة حديثي .

فظهرت على محياها علائم الجزع ، ونظرت الى ما حواليها فرأت أنها بخلوة تامة معه . لأن الخادمين حين رأيا هذا الرجل يحدث مولاتها دون كلفة ابتعدا عنهما .

وخافت ان يكون حقيقة من المجانين ، ولكنها رأت الخادمين على مسافة بعيدة وأنها يريانها ، فاطمأنت بعض الاطمئنان وقالت له : ماذا تريد أن تقول بعد ؟

- أعيد عليك ، يا سيدتي اللادي ، ما قلته . وهو ان اللورد وليم

باميلتون لا يزال في قيد الحياة ، وستصدقين كلامي حين تعلمين حقيقة ما جرى .

ثم قص عليها تفصيلاً كل ما عرفه القراء من قصة هذين الأخوين .

على ان اللادي باميلتون بقيت مرتابة في صحة عقل توما ، ولم تصدق حكايته .

فقال لها توما عند ذلك : إنك لا تزالين مشككة بأقوالي ولكنك حين ترينه يزول منك كل ريب .

كيف أراه ألم تقل انه في اوستراليا ؟

– لقد كان فيها أما الآن فهو في لندرا .

فاصفر وجهها وقالت : أفي لندرا يقيم هذا الرجل ؟

-- ولكن هذا الرجل كنت تحبينه وقد بكيته .

– تقول إني أراه .

– نعم يا سيدتي سوف ترينه .

وكانا يمشيان حتى وصلا الى عطفة .

وهناك مقعد من الخشب ، كان رجل جالساً عليه ، وهو لا يزال في مقتبل الشباب ، غير ان غضون وجهه كانت تدل على أنه لاقى كثيراً من المصائب

فلما رأى هذا الرجل توما واللادي قد اقتربا منه نهض عن مقعده وقال : مس اينا ؟

فارتعشت اللادي باميلتون

أما توما فانه قال لها هذا هو اللورد وليم يا سيدتي

فنظرت اللادي الى اللورد وليم نظرة جامدة ثم التفتت الى توما وقالت له: إني أرى يا توما شبهاً كبيراً بين هذا الرجل وبين اللورد رحمه الله ولكنه ليس هو كما تعتقد لأن اللورد قد مات .

أما اللورد فانه صاح صيحة منكرة وأركن الى الفرار وهو يقول : رباه لماذا أبقيتني حياً فاني كنت واثقاً انها لا تعرفني .

- ٣٨ -

يوجد في لندرا شارع يدعى شارع المكاتب ، ولكن هـذا الشارع لم يكن مقتصراً على أصحاب المكاتب وحدهم ، بل كان يقيم فيه أيضاً عمـال وتجار وموظفون .

وكان في هذا الشارع محام مشهور . والمحامون في لندرا يكسبون مكاسب عظيمة ويتقاضون اجرة فاحشـة ، ثم يطيلون القضايا حتى لا يبقى متسع للتسويف .

فاذا وقع الغني بين براثنهم قضي عليه بالفقر قضاء مبرماً إلا إذا كان من العقلاء وتنازل عن دعواه او تراضى مع خصمه .

على ان هذا المحامي كان يتسابق اليه أصحاب القضايا لاشتهاره بالفوز في كل قضاياه .

وكان هذا المحامي يدعى سيمونس ، وهو على شدة طمعه وحبـه للمال ، محبوب من الناس لبعد صيته ، ولكثرة تضلعـه في القوانين حتى انهم كانوا يعدلون كل كلمة من أقواله بجنيه .

وكان على هذه الشهرة لا يزال في مقتبـل الشباب ، وقد رشحه مريدوه مراراً لعضوية مجلس العموم . ولكنه كان يرفض القبول ويقول : إني لا أزال في حاجة إلى المال ، ولم أروى منه غلي فلا يسعني الانصراف للخدمة العامة .

وكان شديد الفصاحة قوي الحجة ، ولكلامه تأثير عظيم على القضاة فانه

دافع مرة عن ارلندي كان يتوقع الجميع ان يحكم عليه بالاعدام فبرأ ساحته وأطلق سراحه ، وكان إعجاب الناس به عظيماً

غير أن إعجاب الناس به لم يكن قاصراً على فوزه ، بل لأن هذا الارلندي المنكود كان معدماً فقيراً ، فكان دفاعه عنه دفاعاً محضاً عن الانسانية .

ولا ينكر ان بعض حساده أذاعوا أنه إنما أراد بذلك إشهار أمره ، ولكن العقلاء لم يعبأوا بهذه الاشاعات ولم تؤثر هذه الأقوال بحسن صيته فان الاحسان محمود كيفما كانت مقاصد المحسنين .

ففي ذات يوم كان هذا المحامي راكباً في مركبته وخارجاً من منزله ، فاستوقفه رجل على الطريق يريد ان يكلمه .

وكان هذا الرجل متأنقاً بلباسه فلم ترع هيئته ذلك المحامي وأمر بايقاف مركبته كي يرى ما يريد .

وقد نظر اليه وقال في نفسه : أذكر اني أعرف هذا الرجل ولكني لا أذكر أين كنت أراه .

فقال له الرجل باسماً ألم تعرفني يا سيدي سيمونس ؟

— كلا ولكن يخال لي اني رأيتك .

— بل كنت تراني مراراً وذلك منذ عشرة أعوام .

— أنا ؟

- في مكتب أعمالك فاني كنت من زبائنك .

- كيف ذلك ومتى ؟

- ذلك حينما كنت عند اللورد باميلتون ، فاني أدعى توما يا سيدي وانا الذي كنت آتيك باشغال سيدي اللورد النبيل

— لقد ذكرتك الآن وعرفتك حق العرفان

— إذاً ، فاسمح لي يا سيدي أن أخلو بك ، فاني قادم اليك

بمهمة خطيرة .

– إذاً أدخل معي الى مكتبي .

وكان مكتبه ومنزله في بيت واحد ، فنزل المحامي من المركبة وعاد الى المكتب يتبعه توما .

ولم يفه توما بكلمة حتى دخل الى غرفة المحامي الخاصة .

وهناك قال له المحامي : العلك لا تزال في خدمة أسرة باميلتون ؟

فأجابه توما : نعم ولا .

فذهل المحامي لجوابه وقال : كيف ذلك ؟

– ذلك اني اعتزلت خدمة السير افندال ، ولكني لا أزال في خدمة اللورد وليم .

فزاد انذهال المحامي ، فانه كان يعلم كما يعلم معظم أهل لندرا أن اللورد وليم قد مات ، وان السير افندال قد ورثه وخلفه باسمه ومذهبه وخطيبته

وقد حسب في البدء ان توما قد أصابه مس من الجنون ، ولكنه أمعن النظر فيه ، فلم يجد في لهجته وملامحه وعينيه شيئاً من دلائل الجنون فقال له : أرجوك ، أيها الصديق ، ان توضح بجلاء ، فان حديثك قد أشكل علي .

– إني موضح لك كل شيء إذا أحببت الاصغاء إلي .

– إني كلي آذان للسمع فتكلم .

وكان هذا المحامي صبوراً من طبعه ، وقد تدرب دهراً طويلاً في هذه المهنة . فعلمته التجارب انه مهما كانت رواية الزبون مضطربة مشوشة ، فلا بد ان يجد بها باباً يصلح للدفاع .

ولذلك عول على ان يصغي لتوما كل الاصغاء ، بالرغم عمـــا ظهر له في مقدمة حديثه من الغرائب المدهشة .

أما توما فإنه استوى في محله وقال : إني واثق ، يا سيدي ، من مروءتك وشرف طباعك . ولهذا أتيت اليك في مهمة خطيرة لا تخطر لأحد في بال .

وإن رجال الشرع يا سيدي يشبهون رجال الدين من حيث الوثوق بهم فيما يؤتمنون عليه من الأسرار ، فعلي ان أوحي اليك بأسراري وعليك ان تسمع كل ما أقول .

— هو ذاك أيها الصديق ، وأرجو أن لا يكون من وراء ذلك إلا الخير .

وعند ذلك قص عليه توما جميع ما عرفه القراء من حكاية اللورد وليم ، وكيف أسفرت هذه الجريمة الهائلة ، عن تلقيب السير افندال بلقب اللوردية .

وقد فصل له أدق تفصيل حياة اللورد وليم من عهد حداثته إلى تعلقه بمس ايناه الى تلك الجريمة التي حدثت في قصر باميلتون وأسفرت عن استبدال اللورد وليم باسم ولتر بريس .

فلما أتم حديثه الغريب قال له المحامي : إن جميع ما رويته لي أكيد ، دون ريب ، ولكنه بعيد الامكان . غير اني لو حملته على محمل الحقيقة فماذا تريد مني ؟

— أريد ان تؤيد مطالب اللورد وليم .

فابتسم المحامي إبتساماً وجف له قلب توما ، وسأله : وما هي هذه المطالب ؟

-- إن الأمر بسيط يا سيدي ، فان اللورد وليم لم يمت وحقه صريح باسترجاع ثروته ولقبه .

— ولكن هذا مستحيل .

— لماذا ؟

– لأن اللورد وليم قد مات في عيـون الناس ، وأثبت اسمه رسمياً في سجل الأموات .

– ولكننا نبرهن على انه لا يزال في قيد الحياة .

– ما هو برهانك ؟

– هو ان أروي الحكاية كما اتفقت .

– إن حكايتك قد أصدقها انا وأما القضاة فهيهات ان يصدقوك .

– إذاً كيف نعمل ؟

– إن رجلاً واحداً تفيد شهادته وأقواله في هذا المقام .

– من هو ؟

– هو الضابط برمي الذي كان يقود المجرمين وكان شريك السير جورج باميلتون بالجريمة .

– إني أجد هذا الرجل اين كان .

– إنك قد تجده ولكنه لا يشهد هذه الشهادة .

– ولكن لا بد له ان يشهد ويعترف بالحقيقة .

فهز المحامي سيمونس كتفيه ثم قال بعد ان تمعن هنيهة : يجب قبل كل شيء أن نتصرف تصرف المتدربين .

– قل يا سيدي فان ثقتي بك لا حد لها .

– ٣٩ –

فأطرق المحامي هنيهة ثم قال : إن هذا الرجل الذي تدعوه مولاك ، قد يكون حقيقة اللورد وليم ، وقد كان محكوماً عليه بالنفي كما تقول .

– نعم يا سيدي .

ـ وهو برح انكلترا منذ عشرة أعوام اليس كذلك ؟
بالتقريب .
ـ إذاً لا بد ان تكون تغيرت ملامح وجهه في هذه الفترة الطويلة ، فاذا أراد أخوه إنكاره كان المجال متسعاً .
ـ هو ذاك واأسفاه
ـ وعلى ذلك فان مولاك إذا ذهب الى اللورد افندال أنكره كما تنكره إمرأته ايضاً ، دون شك ، إذ لا يطيب له التخلي عن تلك الثروة والمجد وهو يتمتع بهما منذ عشرة أعوام .
ـ سأخبرك بكل شيء يا سيدي فان اللورد وليم قابل إمرأة أخيه .
وماذا كان من هذه المقابلة ؟
ـ إنها أنكرته او لم تعرفه .
ـ إن هذا سبب آخر يدعوك الى قبول ما سأقترحه عليك
ـ ماذا تقول يا سيدي ؟
ـ لا شك انك رجعت مع مولاك من اوستراليا دون مال .
فلم يجبه توما ولكنه أطرق برأسه .
فقال له المحامي : ان اللورد افندال واسع الثروة ولي ملء الثقة من إمكان الوصول الى تسوية بين اللورد وأخيه .
فأجابه توما بعنف أية تسوية تعني ؟
ـ ان التســويات تختلف ، ولكن التسوية التي أعنيهــا هي أن يبقى للورد اسم ولتر بريس ، فيعطيه اللورد افندال مقــابل ذلك أربعين او خمسين الف جنيه .
فأجابه توما ببرود : إنك مجنون .
ـ أتظن ذلك ؟
ـ دون شك لأن اللورد وليم لا يتنازل عن شيء من حقه .

ـ أيريد أن يكون لورداً ؟
ـ نعم .
ـ أيريد ان يستولي على الثروة بجملتها ؟
ـ دون شك .
ـ إذاً أنت مجنون يا توما ومولاك أشد جنوناً منك .

فبهت توما لكلامه وقال : كيف ذلك ؟

ـ سأبرهن لك ، فانه لا ينفع في هذه القضية غير شهادة الضابط برمي كما قلت لك .

ـ اني سأبحث عن هذا الرجل وسأجده دون شك .
ـ ولكني أعيد عليك ما قلته ايضاً وهو أن هذا الرجل لا يبوح بشيء .
ـ لا بد له أن يبوح .

ـ وعلى افتراض انه باح بما يعلمه فان شهادة مثل هذا الرجل الذي يقضي العمر في معاشرة المجرمين لا يكون لها تأثير عظيم على القضاة ولكنها قد تفيد بعض الفائدة .

ـ قلت لك اني سأجده .

ـ على افتراض انك وجدته ورضي أن يبوح أتحسب أن الأمر ينتهي عند هذا الحد بالفوز ؟

ـ هذا ما أراه .

ـ انك مخطيء ، فان وزير الحقانيــة لا يتداخل في هذه القضية ، لأن اللورد اقندال من أعضاء مجلس البرلمان ، ويقتضي للمحاكمة إذن خاص من المجلس الأعلى .

ولا ارجح أن المجلس الأعلى يأذن بمحاكمته في مثل هذه القضية .

بل يأذن ، فان القلوب لم تتجرد من الشفقة .

ـ لنفرض انه أذن أيضاً ، فقد بقيت مشكلة أخرى وهي أن مثل هذه

القضايا الخطيرة تكلف نفقات باهظة وانا لا أتولاها إلا إذا ضمن لي اجرة قدرها عشرة الآف جنيه .

فأجفل توما لجسامة الطلب وقال : عشرة آلآف جنيه ؟

— على الأقل .

— ان العشرة الاف جنيه تساوي مائتي وخمسين الف فرنك .

— ومع ذلك فانها تنفق قبل الشروع في القضية .

— أيحتـــاج المرء إلى مثل هذه النفقات الهائلة للحصول على حقه فما هذه المحاكم وما هذا العدل ؟

— لا انكر عليك انتقادك فهو حق ولكن الحقيقة هي ما قلته لك

— إذاً ماذا نصنع ؟

— تقنع سيدك على التسليم .

— بماذا ؟

— بالتسوية .

— ان هذا محال لا أرضاه ولا يرضاه .

— أنت وشأنك فيما تريد انما اوصيك بالحذر .

فنظر اليه توما نظرة انكار وقال : مما تريد ان أحذر ؟

— من اللورد افندال ، فانه في حالة تدعو إلى الحذر منه .

— ما عساه يصنع ؟

— إذا كان ما تقوله أكيد ، فان هذا الرجل لا يقف عند حد ولا سيما إذا حاولت فضيحته .

— ولكننا في بلاد انكلترا بلاد الحرية والعدل والامان .

فهز المحامي كتفه دون أن يجيب .

أما توما ، فانه نهض مغضباً وقال : يسوءني يا سيدي أن أكون مخطئاً باعتمادي عليك .

وأجابه المحامي ببرود قائلا : اني لا أزال مستعداً لخدمــة اللورد وليم بأتم إخلاص ، ولكني لا أتجاوز الحـد الذي اقترحه عليك ، وهي مسألة التسوية .

فقال له توما : إننا لا نريد تسوية بل نريد حقاً .

ثم خرج من مكتب المحامي مغضباً ، فشيعه إلى الباب وقـال له : إننا سنلتقي .

لا أظن أن يكون بيننا لقاء بعد هذا الفراق .

. أما أنا فاني واثق من اللقاء القريب .

وخرج توما وقد تولاه اليأس فان اعتماده على هذا المحامي كان عظيماً ، حتى انه كان واثقاً من الفوز كل الثقة .

ولكنه لم يلق منه غير الخيبة والخزلان ، فسار هـائماً على وجهه ، من مكان إلى مكان حتى وصل إلى زقاق أدم ستريت ، حيث تقيم إمرأتـه بياتري .

وكان اللورد وليم وإمرأته وولداه يقيمون في المنزل نفسه الذي يقـيم فيه توما .

أما توما فانه دخل إلى إمرأته واليأس باد بين عينيه فأجفلت لمرآه وقالت له : ماذا أصابك ، وما وراءك من الأخبار ؟

فهز توما رأسه وقال : ان هولاء المحامين قد خلت قلوبهم من الرحمة .

ثم قص عليها جميع ما جرى بينه وبين المحامي سيمون .

وكانت بياتري عاقلة ذكية الفؤاد ، فـأطرقت هنيهة ، بعـد أن سمعت حكاية زوجهـا وقالت : أرى ان هذا الرجل مصيب فيما ارتـآه ، ولكن لي رأي آخر .

— ما هو ؟

— إني خرجت منذ هنيهة إلى السوق لشراء أغراضنا فلقيت إمرأة مقنعة

بقناع كثيف ، وهي كأنها تبحث عن شيء .

ومن هي هذه المرأة ؟

- لقد لاح لي أنها مس إينا .

فارتعش توما وقال : اللادي باميلتون ؟

- نعم ، وأظن انها تحاول أن ترى اللورد وليم . ثم اردفت . انظر انها لا تزال في موقفها .

- ٤٠ -

فقام توما إلى النافذة ونظر منها فرأى إمرأة مبرقعة وهي تنظر نظرات تائهة كأنها تبحث عن شيء .

فعرفها للحال وقال : هي ، هي بعينها .

أما المرأة فإنها دخلت فجأة إلى رواق المنزل كأنها اهتدت اليه بعد طول بحثها وتوارت عن الأنظار .

فقال توما لإمرأته : انتظريني فإني ذاهب للقائها .

ثم خرج من الغرفة ونزل السلم

وكانت المرأة تصعد عليه والتقيا عند وسطه وسألها توما بصوت منخفض بماذا تأمر اللادي ؟

فأزاحت المرأة برقعها وقالت : إني أبحث عنك .

وكانت تضطرب ، وملامح الخجل بادية بين عينيها كأنها قد خجلت من الدخول إلى هـذا المنزل الحقير .

وتأبط توما ذراعها وصعد بها .

أما اينا ، أو « اللادي باميلتون » فانها صعدت معه وقالت له : إني أتيت

اليك دون أن يعرف اللورد أفندال، فإني أحب ان أرى مرة ثانية هذا الرجل الذي قلت انه اللورد وليم .

– انه هنا يا سيدتي .

– هنا في هذا المنزل ؟

– نعم ، وهذا باب المنزل الذي يقيم فيه فقد وصلنا اليه .

– أهو وحده ؟

. كلا ، فإنه يقيم مع إمرأته وولده .

فدهشت دهشاً عظيماً وقالت : إمرأته وولده !

ثم سكن اضطرابها وقالت : ولكني أريد أن أراه وحده .

– إذاً ، إصعدي إلى منزلي ، فأخرج أنا وإمرأتي منه ، وادعو اللورد إلى موافاتك .

وظهرت على اللادي علائم التردد ، وكأنها قد ندمت لاندفاعها غير أنها رأت ان الأوان قد فات ، وانه لم يعد سبيل إلى الرجوع .

وصعد بها توما وهي تسير نادمة متثاقلة إلى منزله ، فأقامها فيه وذهب للاتيان باللورد وليم .

ولما علم اللورد وليم بمجيء اللادي اليه تأثر تأثراً عظيماً وقال في نفسه : إنها لم تعرفني حين رأتني المرة الأولى ، ولكن لا بد لها ان تعرفني هذه المرة .

ثم خرج من منزله إلى غرفة توما ورجلاه تضطربان .

أما توما فإنه اشار إلى إمرأته أن تتبعه كي يخلو لهما المكان فامتثلت وخرج الاثنان .

وكانت اللادي باميلتون قد أرخت نقابها ، حتى إذا خرج توما وإمرأته أسفرت عن وجهها ، وجعل كل منهما ينظر إلى الآخر نظرة الخائف الواجم ، دون أن يجسر على الكلام .

إلى أن بدأت اللادي بالحديث وقالت أردت يا سيدي أن أراك مرة ثانية

للتحقق من أمرك .

— وأنا أرى من عينيك يا سيدتي إنك قد عرفتني حق العرفان .

ولم تجبه على كلامه وقالت له : العلنا وحدنا يا سيدي ؟

— دون شك .

— أنت واثق انه لا يسمع حديثنا أحد !

— إني واثق كل الثقة .

— إني أردت الآن أن أراك يا سيدي لكي أخدمك خدمة خـــالصة في كل ما تريد .

وارتعش اللورد وليم وقال : كيف ذلك يا سيدتي !

اجابت : إني رأيت اللورد وليم ميتاً ، ومع ذلك فانك تقول لي انه لا يزال في قيد الحياة .

— هو انا يا سيدتي ..

— ليكن ما تقول ولنعتبر أنك أنت هو اللورد وليم .

— ماذا تريدين بذلك !

— اتوسل اليك ان تصغي إلى تتمة حديثي .

- اني مصغ يا سيدتي كل الاصغاء فقولي ما تشائين

— إني كنت اعتقد كل الاعتقاد انك مت والله يعلم كم بكيتك .

وكانت تقول هذا القول بلهجة المضطرب : ثم عادت إلى الحديث فقالت : نعم اني بكيت عدة شهور ، وابيت كل الاباء أن اتزوج بعدك ، ولكن ابي كان يلح علي والسير افندال يظهر لي حباً اكيداً ، فلم اجد بدأ من الامتثال لأبي واضطررت مكرهة إلى الزواج بالسير افندال .

وقال لها اللورد وليم : وبعد ذلك !

— وبعد ذلك افضت بي الالفة الى حب السير افندال الذي لم اتزوجه إلا من قبل الامتثال لأوامر ابي ، واصبحت اماً بعد حين وكنت من اسعد

النساء . الى ان ظهرت لي ، وانا اعتقد انك ميت ، فوقعت وقوع الصاعقة على رأسي ، ولذلك اتوسل اليك ان لا تفضحنا ، وان لا تنازع اخاك نزاعاً لا فائدة منه .

فقال لها : ولكن كيف ترجين مني ذلك وانت تعلمين ان زوجك قد نهبني ؟

- انا مستعدان لأن نعوض عليك بما تريد .

وأجابها بعظمة : إني لا أريد تعويضاً عن حقي ، بل أريد كل هذا الحق .

- ولكن . يستحيل عليك يا سيدي أن تبرهن إن اللورد وليم لا يزال في قيد الحياة .

- بل أنت واهمة يا سيدتي فإني سأثبت ذلك كل الاثبات .

- إذاً .. ستنهب أخاك كما نهبك ، ولا يكون من ذلك غير فضيحة بيتكم النبيل .

- إذا كنت تقولين مثل هذه الأقوال يا سيدتي ، فلماذا أتيت إلي ؟

- إني أتيت لأقترح عليك تسوية أرجو أن لا يكون بعدها غير الاتفاق .

- اعرضي اقتراحك علي لأرى رأيي فيه .

- اني اقترح أن تبرح هذه البلد وترجع إلى لندرا ، أو استراليا فيبقى لك إسم ولتر بريس ..

فأجابها بلهجة المتهكم : وما تعطونني مقابل هذا التنازل ؟

قدر ما تشاء من المال .

فابتسم اللورد وليم وقال: انك تسألين المحال يا سيدتي فما أنا بطالب مال.

إذاً ما تريد ؟

- إصغي إلي كما أصغيت اليك يا سيدتي ، فاني أشفق على شرف أسرة باميلتون أكثر من إشفاقك عليه .

وقد اقترحت علي اقتراحاً ، وأنا سأقترح عليك اقتراحاً آخر أرجو

ان تسمعيه .

— ما هو هذا الاقتراح الذي تقترحه علي ؟

— إن عمي السير جورج الذي كان متنكراً باسم نظام كان السبب في جميع ما لقيته من المصائب ، فلماذا لا يكون هو المجرم الوحيد ؟

— اني لم افهم شيئاً مما تقول فأوضح لي .

— لماذا لا يعترف أخي ان هذا الرجل قد خدعه ، وليس من يعلم انه كان عمنا ؟

— وبعد ذلك ؟

. وبعد ذلك يعترف اني أخوه فتقسم الثروة بيننا ويبقى له لقب اللوردية فاني احب ان أبقى من اسرة باميلتون .

- إن ما تطلبه محال يا سيدي .

- لماذا ؟

- لأن حق البكورية لا يزال معمولاً به في بلاد الانكليز

فبدرت من اللورد وليم بادرة غضب وقال لها : احذري أيتها اللادي

فأجابته ببرود قائلة تقول انك اللورد وليم اليس كذلك ؟

— انك تعرفين ذلك حق العرفان .

— ولكن يجب ان تبرهن على صدق ما تقول .

— اني سأبرهن على ذلك عند الاقتضاء .

— وفي ذلك اليوم الذي تبرهن فيه انك اللورد وليم يرجع لك اللورد افندال ثروتك وتخرج من هذه المعركة خروج الظافرين .

ثم نهضت تحاول الذهاب وحاول اللورد وليم ان يوقفها ، ولكنها أبت ان تقف ففتحت الباب وهي تقول إنك لو كنت حقيقة وليم الذي كان يحبني لما كلمتني بهذه اللهجة العنيفة فأودعك الان يا سيدي فاننا لا نلتقي بعد ذلك إلا في مواقف القضاء .

ثم خرجت بملء العظمة والكبرياء .
أما اللورد وليم فانه أن أنين الموجع ثم وضع رأسه بين يديه وقال : إن اللادي قد عرفتني حق العرفان .

- ٤١ -

في مساء ذلك اليوم كان ثلاثة مجتمعين في قصر باميلتون يتداولون وكان هؤلاء الثلاثة اللورد افندال وامرأته ووالدها السير ارشيبالد .

وقد عرف القراء شيئاً من حال السير أرشيبالد فانه لم يكن من طبقة النبلاء ، ولكنه كان واسع الثروة ، وقد جمع مالاً عظيماً من الهند ، ولما عاد من تلك البلاد النائية إلى انكلترا لم يكن يخطر في باله غير تزويج بنته بفضل ثروته من أحد كبار النبلاء .

وكان أول من وقع في شركه اللورد وليم .

ولما توارى هذا اللورد طمحت نفسه إلى أخيه اللورد أفندال ، وكانت الرواية التي روتها اللادي باميلتون للورد وليم صادقة في جميع معانيها .

فإنها قاومت أباها مقاومة عنيفة في البدء ولكنها اضطرت في النهاية إلى الاذعان وبات اسمها منذ ذاك الحين اللادي باميلتون .

ثم عقدت الالفة الزوجية الحب بينهما ورزقت منه بنون قدعاها جميع ذلك إلى نسيان اللورد وليم لأنها كانت تعتقد انه من الأموات .

ويذكر القراء انه بعد ذلك بثلاثة أعوام ، اهتم حاكم زيلندة بما عرضه عليه ولتر بريس « اللورد وليم » فكتب إلى انكلترا يسأل عما أشكل عليه من أمره .

وكان اللورد أفندال في ذلك العهد غائباً عن لندرا ففتحت امرأته كتاب

الحاكم وقرأته فوقع عليها وقوع الصاعقة وأخبرت أباها بما قرأته .

وقال لها السير أرشيبالد : إن اللورد وليم قد مات ، وان هذا الذي ينتحل الان اسمه من أهـــل الزور والنفاق ، ولكن لنفرض انه صادق فيما يدعيه ، وإن اللورد وليم لا يزال في قيد الحياة ، فيجب أن تعتـبريه من أهل القبور .

إنك تدعين الآن اللادي أفندال باميلتون ، وليس لزوجك أخ بعد أن كتب اسمه في سجل المائتين .

وبعد حين رجع اللورد أفندال إلى لندرا ، فاطلع على هـذا الكتاب ، وأنكر الجريمة أتم الإنكار وأظهر النفور والاشمئزاز من هـذه العيوب ، لكن إمرأته انتهت بالفوز عليه ، فباح لها بسر الجريمة الهائلة مدعياً انـه لم يقدم عليها لطمعه بمال أخيه والقابه ، بل لحبه إياها ولطمعه بالزواج بها

فغفرت له ذلك الذنب مقابل هذا الحب فكانت كما قال هملت في جنسها :

كذا خلق النساء فكل أنثى تصدق مـا يدعى غراماً

وقد صدقت حديث هذا الحب ، وانستها كلمات غرامه الحلوة تلك الجريمة التي تقشعر لهـا الأبدان ، وذاك اللورد خطيبها الأول المنكود فوافقت زوجها على كل ما فعل .

وقد زاد حرصها على تلك الثروة الشائنة ، التي لم ينلها زوجها إلا منغمسة بدم الجريمة والاثم ، وأشفقت عليها إشفاقاً شديداً ، حتى باتت تكره اللورد وليم بعد ذلك الحب القديم حين علمت أنه في قيد الحيـاة ، وانه قد يعود ويطالبهم بالثروة المسروقة .

وقد كانت اللادي تحدث أباها وزوجها في ذاك الاجتماع بما جرى بينهـا وبين اللورد وليم وهما يسمعان حديثها بملء الجزع .

حتى إذا أتمت حديثها قال لها أبوها أحق ما تقولين أنه قد تغير حتى لم يعد يعرف ؟

اجابت · إنك لو أقمت بقربه طول العمر لما عرفته
فقال لها زوجها : ومع ذلك لم يقبل اقتراحنا .
- بل هو يأباه كل الاباء ..

فابتسم السير أرشيبالد وقال : انها ستكون قضية شائنة ، ولكننـــا سنخرج فائزين منصورين .

فقال اللورد أفندال : وفوق ذلك فإن مثل هذه القضايا الكبرى يقتضي لها المال الكثير ، ومن أين له هذا المال كي ينفق هذا الانفاق ؟

فأجابته زوجته : اني رأيته في أشد درجات الفقر ، فقد رأيته مقيماً في أحقر المنازل .

فقال السير أرشيبالد : ولكن يجب أن يبرح هذا الرجل لندرا .

قالت لا أعلم ، لكن لا بد لنا ان نجد طريقة .

وبينما كان السير ارشيبالد يقول هذا القول دخل الخـادم وهو يحمل على صينية من الفضة رقعة زيارة وقدمها إلى اللود افندال .

فتناولها اللورد ونظر الى توقيعها فرأى إسم الأسقف بترس تون فقال له : ما عسى يريد مني هذا الأسقف الآن ؟

انه يا سيدي يطلب مقابلتكم بالحاح .

— اذن ادخله .

وبعد هنيهة دخل الأسقف الذي عرف القراء فيما تقدم من الأجزاء السابقة انه أعدى عدو للرجل العبوس « روكامبول » ر كهنة الكاثوليك .

وكان السير ارشيبالد قد خرج مع ابنته .

فلما دخل الأسقف وجد اللورد أفندال وحده في انتظاره ، غير انهما كانا لا يزالان عند الباب فناداهما الأسقف وقال لهما : لا حاجة الى انصرافكما ، بل ان بقاءكما لا بد منه .

فقال اللورد بعد ان عادت زوجته وأبوها الى مجلسيهما : تفضل يا سيدي

الأسقف وقل لنا السبب الذي دعاك الى تشريفنا بهذه الزيارة .

– اني يا سيدي اللورد زعيم الرسالة الانجليكانيـــة في جميع انكلترا ، وان أعمالنا الخيرية يقتضي لها كثير من النفقات ، ولذلك تعجز رسالتنا ، على كثرة ايرادها عن القيام بهذه النفقات وتحتاج الى مساعدة اهـــل الخير من أمثالكم الأغنياء .

– إذا كنت آتياً لهذا الغرض فإني أكتتب بخمسمائة جنيه .

فابتسم الأسقف وقال : إن هذا المبلغ كثير على غيرك أما عليك فهو قليل.

– إذاً أزيدك خمسمائة أيضاً فأكتتب بالف .

– انك لو تعلم ، يا سيدي الخدمة التى سأخدمك اياها لما ساومتني هــذه المساومة . .

فارتعش اللورد أفندال وقال : اية خدمة تعني ؟

– ان جمعيتنا ، يا سيدي اللورد كثيرة الفروع ، ولها مرسلون في كل مكان ، حتى في زيلندة الجديدة ، وقد رجع حديثاً أحد هؤلاء المرسلين إلى انكلترا .

– وأية علاقة لي برجوعه ؟

– ان علاقتك به يا سيدي ان هذا المرسل عرف في تلك البلاد حين كان فيها رجلاً منفياً يدعى ولتر بريس .

فاصفر وجه اللورد افندال ، وجعل السير أرشيبالد وابنته ينظر كل منهما إلى الآخر نظرات تشف عن القلق

فقال له افندال · أحق ما تقول ؟

فأجابه الأسقف : بل ازيدك يا سيدي ان هذا الرجل ، ولـتر بريس ، يقيم الآن في لندرا وهو يدعي ان اسمـه الحقيقي اللورد وليم باميلتون ، أي إسم أخيك

ان هذا الرجل مزور محتال .

فأجابه الأسقف ببرود : وهذا رأيي فيه .

ثم نظر اليه محدقاً وابتسم ابتسامة تشف عن معرفته الحقيقة ، وان المباحثة بجلاء خير من التمويه .

فأدرك افندال معنى هذه الابتسامة ولكنه لبث في موقف المتردد .

فقال له الأسقف : ان هذا الرجل سواء كان صادقاً أو كاذباً فيما يدعيه فانه قد يولد لك مشاكل ومصاعب على اني استطيع انا وقايتك منها .

– أحق ما تقول ؟

– ذلك لا ريب فيه بشرط ان نتفق .

– اذاً قل ما تريد .

- ٤٢ -

ولم يدر أحد ما جرى بين هذا الأسقف وبين الثلاثة المتآمرين غير انه في التالي وردت الى توما هذه رسالة دون توقيع وهي « ان رجلاً لا يستطيع التصريح باسمه ولكنه يخلص اخلاصاً شديداً للورد يخبر توما ان الضابط برمي رجع الى مسقط رأسه في مدينة بيرب من أعمال ايكوسيا .

وهو الآن في حالة عسر شديد يعيش من دريهات تنفقها عليه الحكومة وقد ذهب بصره وهو يقيم مع ابنته في تلك المدينة .

انه شديد الفقر اذا أعطيته القليل من المـــال باح لك بما يعلمه من ذاك السر الرهيب » .

فأخذ توما الرسالة الى اللورد وليم فلما اطلع عليها قطب حاجبيه ثم قال: اني أخشى أيها الصديق أن تكون هذه الرسالة شركاً نصب لك وأشير عليك أن لا تذهب الى بيرت .

- أتظنها مكيدة ؟

- نعم فإن مس اينا قد عرفتني وايقنت انها ليست فقط لم تعد تحبني ، بل انها باتت شريكة زوجها الأثيم ، وقد طلبت الي أن أبرح انكلترا ، فأبيت وأخذت تكيد المكائد اذ لم تستطع اقناعي .

- وأية غاية لها من هذه الرسالة ؟

- التفريق بيني وبينك بغية اضعافنا .

- انك قد تكون مصيباً وسأكتب اليه بدلاً من أن اسافر .

وكان توما يعرف كثيرين في مدينة بيرت بينهم رجل من تجار الخيول كان من اصدقائه المخلصين ، فذهب الى ادارة التلغراف وارسل اليه الرسالة البرقية الآتية :

« صديقي العزيز ..

« ان بيرت مدينة صغيرة يعرف كل الناس بعضهم بعضاً فيها ، فأرجو ان تخبرني اذا كان فيها رجل يدعى برمي كان من الضباط الذين يقودون المجرمين الى منفاهم .

« أرسل الجواب بهذا العنوان :

توما

وكيل اللورد باميلتون سابقاً

« غرفة ١٧ شارع آدم سيتملس لندرا »

واقام ينتظر الرد فجاءه في المساء الجواب الآتي :

« صديقي العزيز

« ان الضابط برمي يقيم في بيرت ، ولكنه مريض وحالته شديدة الخطورة . »

* * *

فأخـذ توما الجواب الى الـلورد وليم ، وأطلعه عليه فقـال له : مهما كان المبلغ الذي يحمله على الاقرار زهيـداً ، لا أستطيع دفعه اليك ، إذ لا مال لي

– ولكن بقي لي مائة جنيه .

إن هذا المبلغ لا يكفي .

– ولكني أسافر في كل حال ، فـاذا كان المبلغ غير كاف ، فلا أعدم وسيلة للحصول على الكفاية من المـال في تلك المدينة ، إذ لي فيها كثـير من الأصدقاء .

– إذاً سر على بركات الله .

فخرج توما من عنده كي يعد معدات السفر فلما خرج تصدى له رجل تشير ملابسه على انه من رجال الشرع ، فحياه وقال له . إني أدعى يا سيدي ادوارد كوليرس .

– لقد تشرفت بمعرفتك يا سيدي فهل انت قادم إلي ؟

– نعم إني أشتغل في مكتب المحامي سيمونس .

فبرقت عينا توما ببارق السرور وقال في نفسه : لا شك ان هذا المحامي قد تمعن في الأمر ، ووجد وسيلة صالحة لفوز اللورد وليم وإرجاع ثروتـه والقابه اليه .

وأتم إدوارد كلامه فقـال : إن غرفتي يا سيدي مجاورة لغرفة المحامي سيمون لا يفصل بين الغرفتين غير جدران رقيق من الخشب ، بحيث اذا أصغيت سمعت كل ما يدور من الحديث بينه وبين زبائنه . وقد كنت أنت أمس عنده اليس كذلك ؟

– هو ذاك .

– إني سمعت حديثكما بالتفصيل فلم تفتني كلمة منه .

فنظر اليه توما نظرة ريب وقال : إذاً اليس هو المحامي سيمون الذي

أرسلك إلي ؟

– أرجـو ان تصغي إلى حـديثي حتى اتمه ، يا سيـدي ، ثم سلني ما تشاء .

– تكلم .

– إني أشتغل منذ عشرين عاماً ، وقد جمعت بعض المال مما كنت أقتصده وأنا الآن طامع بشراء مكتب المحامي سيمون، فانه يريد ان يتخلى عن الأعمال بعد ان نال ما ناله من الثروة ولكني لا أزال في حاجة الى ثلاثة آلاف جنيه لتتمة الثمن .

فابتسم تومـا ابتسامة حزن وقال له : إذا كنت معتمداً عـلي ، فقد أخطأت .

– إني لست مخطئاً بقدر ما تتوهم ، فقـد قلت لك إني جمعت بعض المال باقتصادي ، وأزيدك أن ما جمعته يربو على اثني عشر الف جنيـه . أما هذا المال فاني مستعد لوضعه بين يـدي اللورد وليم ، يتصرف بـه كيف يشاء .

فدهش توما لما سمع وقال : أحق ما تقول ؟

– دون شك وفوق ذلك فاني من رجال الشرع المتضلعـين وإني واثق من كسب القضية .

– ألعل ذلك من الممكنات ؟

– إني بالأمس كنت متردداً بالحكم اما اليوم فاني على أتم ثقة من الفوز وأنا هو الذي أرسل اليك الرسالة .

– أنت هو مرسل الرسالة التي لا توقيع فيها ؟

– نعم .

– إذاً ان الضابط برمي هو في بيرت حقيقة ؟

– لا بد ان تكون عرفت ذلك بالبرهان .

ـ هو ذاك فقد سألت عنه تلغرافياً في بيرت فأجابوني بالإيجاب .
ـ وهل عزمت على السفر ؟
ـ إني مسافر الآن .
ـ ولكن كم لديك من المال ؟
ـ مائة جنيه .
ـ إن هذا المبلغ لا يكفي .
ـ ربما ولكن هذا كل ما أملكه .
ـ إذاً خذ هذه الحوالة بألف جنيه ، واسمح لي أن أعرض عليك شروطي . .
ـ ما هي ؟
ـ هي انه حين نكسب القضية يكون لي منها خمسون الف جنيه .

فأخذ توما الحوالة منه وقال : سيكون لك هذا المبلغ .

فقال له ادوارد إذهب إلى بيرت وأحضر برمي ، وأنا الضمين باقناعه على الاقرار .

ـ أأستطيع ان أكتب لك من بيرت ؟
ـ لا فائدة من الكتابة فان كل الفائدة بحضور برمي .

ثم تركه وانصرف .

أما توما فانه عاد الى اللورد وليم وأخبره بجميع ما جرى وقال : إن ساعة الانتصار قد دنت يا سيدي .

فأجابه اللورد بلهجة المرتاب : من يعلم ؟

وبعد هنيهة ركب توما القطار المسافر الى ادمبرج ، وكانت الساعة الثامنة من المساء .

وكان وحده بالمركبة ولم يلق فيها أحداً من الركاب وفي المحطة الثانية دخل مسافر وجلس بالقرب من توما في تلك المركبة .

فتعارفا وبعد حين أخذ المسافر سيكاراً من علبته وقدمه لتوما فأخذه منه وجعل يدخن بها .

ولم يكد يأتي على آخره حتى نام نوماً عميقاً .

- ٤٣ -

كان هذا السيكار الذي قدمه الرجل لتوما يحتوي على مادة مخدرة ، بدليل أن توما نام على أثر تدخينه عدة ساعات .

فلما استفاق وجد نفسه في ظلام دامس ، وحاول ان يتحرك فلم يستطع ، لأنه كان مقيد اليدين والرجلين . فحسب ان القطار واقفاً .

غير ان عينيه تعودتا تباعاً على الظلام فرأى انه لم يكن نائماً في قطار فجعل يصيح مستغيثاً دون ان يجيبه احد .

وعند ذلك حاول ان ينهض فسقط على الأرض وشعر ان الأرض رطبة ، فعلم انه في قبو .

فتمثلت له الحقيقة وأيقن أنهم نصبوا له شركاً بغية التفريق بينـه وبين اللورد وليم .

فانقطع عن الصياح وجعل يفكر فيما صار اليه .

ثم أجال في ذلك المكان المظلم نظراً فاحصاً ، فرأى نوراً ضعيفاً قد ظهر له ثم توارى .

وفحص الأرض التي كان ملقياً عليها ، فلم يجد تراباً بل خضباً رطباً . ثم شم رائحة زفت ، وشعر بعد ذلك باهتزاز عظيم ، فعلم لفوره أنه في عنبر سفينة .

وبعد هنيهة سمع وقع أقدام فوق رأسه وعاد النور الى الظهور ثم تلا ذلك

أصوات بشرية عقبها زيادة الاهتزاز .

وعند ذلك سمع صوت صفير شديد ، فلم يبق لديه شك انه في سفينة بعد أن كان في قطار .

وقد كان المنكود يسأل نفسه الى اين تسير به السفينة وبيد من وقع ، فلا يهتدي الى حل هذا اللغز

وعند ذلك مر بخاطره اسم اللورد افندال فوجف قلبه وعاد الى الاستغاثة والصياح دون ان يجيبه احد .

وكانت السفينة قد رفعت مرساها وأخذ النوتية يهتمون بها في بدء السفر فلم ينتبه اليه أحد .

ولكنه لم ينقطع عن الصياح وما زال يستغيث حتى رأى الباب قد فتح ودخل منه النور

فرأى توما رجلاً دخل اليه فدنا منه وقال له . أأنت هو الذي كان يصيح هذا الصياح ؟

– نعم أنا هو ، فمن الذي قيدني قيد المجرمين ؟ ومن جاء بي الى هذه السفينة ؟

فجعل النوتي يضحك وقال له : إذهب واسأل الربان هذا السؤال ، أما أنا فاني لا أعلم شيئاً من أمرك ، على اني أنذرك انك إذا رجعت الى مثل هذا الصياح المزعج ، جلدتك خمسين جلدة ، وقد أعذر من أنذر .

إني لا أطيق الجلد وسأنقطع عن الصياح كما أردت إنما أرجوك ان تخبرني ايها الصديق اين أنا ؟

- إنك في عنبر سفينة .

وإلى أين مسافرة هذه السفينة ؟

– إلى أميركا .

– ولكن كيف وصلت إلى هنا ومن جاء بي ؟
– لا علم لي بشيء من هذا .
ثم تركه وانصرف .

وبعد ذلك ببضع ساعات رجع اليه بشيء من الطعام والشراب فوضع المائدة أمامه وفك قيود يديه كي يستطيع ان يأكل .
وكان اليأس قد تمكن من قلبه ، والسفينة مجدة في السير . فمضى النهار وعقبه الليل .
ثم تعاقب الليل والنهار وفي كل يوم يأتيه النوتي مرة بالطعام ، ثم يقيد يديه بعد ان يفرغ من الأكل .

وبعد ثلاثة أيام جاءه النوتي وقال له : لدي أوامر جديدة من الربان ، فقد رأى انه لم يبق فائدة من بقائك في العنبر .
– أحق ما تقول ؟
– بلا ريب والبرهان اني سأفك قيودك وأصعد بك إلى ظهر السفينة إذ لم نعد نخاف شيئاً الآن .
– ماذا تعني بما تقول ؟

– إننا أصبحنا على بعد مائة مرحلة من الشواطىء الانكليزية فلم نعد نخشى أن تفر سباحة .
ثم فك قيده وصعد به الى ظهر السفينة .

وبعد ان فحص توما هذه السفينة قال في نفسه : إن هذه الباخرة هي من بواخر الحكومة فان ربانها من الضباط ، ولا شك انه من أهل الظرف والأدب فاني سأكلمه بأمري فيعلم ان سجني في باخرته إنما كان خطأ ومكيدة فيطلق سراحي .
وعند ذلك جعل ينتظر فرصة مناسبة تمكنه من محادثه الربان .
وكان البحارة ينظرون اليه منذهلين ، ولم يكلمه أحد .

ولبث صابراً إلى ان أقبل الظلام ، فرأى الربان قد صعد الى حيث كان واقفاً ينتظره .

فأسرع اليه وحياه بملء الاحترام . ولكنه لم يلبث أن بدأ بشكواه حتى قاطعه الربان بعنف وقال له بجفاء : إني لا أستطيع أن أخبرك بشيء وغاية ما أستطيع قوله اني تلقيت اوامر بشأنك فأنفذتها كما تلقيتها .

ثم تركه وانصرف

فذهب توما واليأس ملء قلبه الى الربان الثاني فلقي منقسوته أشد ما لقي من الأول وقال له إنك إذا عدت إلى التثقيل علينا بمثل هذه الأسئلة وضعتك في أصفاد الحديد

فتركه توما آسفاً حزيناً ، وقد علم انه لا يستطيع الاعتماد الا على نفسه ، فأقام في تلك السفينة ينتظر فرصة تمكنه من الفرار ، وقد طال انتظاره .

ولكن هذه الفرصة قد وافته فاغتنمها ، كما سنبينه للقراء .

- ٤٤ -

إن هذه السفينة التي كان مسافراً عليها توما ، كانت ذاهبة الى بونس أيرس .

وقد وصلت بعد اجتيازها البحار خمسة عشر يوماً الى قرب تناناريف فكانت السماء صافية والبحر ساكناً هادئاً .

فواصلت سيرها ولكنها لم تسر بضعة أميال حتى برد الهواء فجأة ، وظهر بعض الغيوم في تلك السماء الصافية

وكان الربان من المدربين في هذه المهنة الشاقة ، فلما شعر ببرد الهواء فجأة

أخذ منظاره وجعل ينظر إلى تلك الغيوم ، فراقبها حيناً ثم قطب حاجبيه ولم يفه بحرف .

أما توما فقد استسلم الى القضاء . وكانت له الحرية المطلقة بالاقامة أين يريد في السفينة .

وقد أذن له الربان بالتكلم مع البحارة فلم يعد يخطر في باله بعد ان أمعنت في السفر ان يبرحها . ولكنه كان يراقب كل ما يجري فيها وقد رأى الربان حين نظر بمنظاره الى الغيوم ، ورأى تقطيب حاجبيه ، فعلم ان العاصفة تنذر السفينة .

فلما أقبل الليل أمر الربان بايقاف السفينة ، فسر توما سروراً عظيماً وإنما أمر بايقافها لأنه رأى الرياح قد سكنت والأمواج قد ارتفع زبدها فقـــال للبحارة : ها هي العاصفة بدأت مقدماتها .

ثم هجم الليل وهبت العاصفة فكانت هائلة وأخذت السفينة ترقص فوق تلك الأمواج الثائرة .

وكان توما يعلم أن تناناريف لا تبعد غير مرحلتين ، عن موقف السفينة

فبينما كانت السفينة في أشد هياجها ، وبحارة السفينة يخضعون جميعهم للربان كأنهم رجل واحد ويمتثلون لصوته الجهوري الرنان

وبينما الصواري تكاد تنكسر لقوة الرياح ، سمع صوت قائل يقول « رجل في البحر » .

ولم يعلم أحد اذا كان هذا الرجل قد حملته السفينة او أنه القى نفسه الى البحر طائعاً مختاراً .

ثم انهم لم يعلموا اذا كان من البحارة او من المسافرين بل انهم لم يحاولوا ان يبحثوا لانشغالهم بما كانوا فيه من مقاومة العاصفة وإنقاذ السفينة مما كان يحدق بها من الأخطار .

وعند الصباح هدأت العاصفة وسكنت الأمواج ، فعلم الربان ان الرجل الذي سقط في البحر كان توما .

ثم أخذ سجل السفينة وكتب فيه ما يأتي :

« في هذه الليلة حملت الأمواج المدعو توما عن ظهر السفينة فغرق ، وهو الرجل الذي أنقله الى اميركا بأمر الرسالة الانجليكانية في لندرا » .

وواصلت السفينة سيرها غير ان ربانها كان مخطئاً في توهمه ، لأن توما لم يغرق إذ كان من الماهرين في السباحة .

فما زال يسبح في ذلك الظلام الدامس ويقاوم تلك الأمواج الثائرة ، حتى عثر وقد أشرف على الغرق ، بلوح كبير من الخشب كان السبب في نجاته ، فإنه أمسك به واستراح ، وجعلت الأمواج تقذفه وهو ممسك باللوح حتى بلغ البر .

إن هذا الرجل الذي لقيه في القطار وأعطاه السيكار المخدر ، لم يكن غرضه سرقة ماله بل الاحتيال على إقصائه ولذلك أبقى له منطقته وفيها ما كان لديه من المال .

وقد كان اول وصوله إلى شاطىء مهجور ، لا ينتابه غير الصيادين ، فسقط مغمياً عليه فوق تلك الرمال ، لفرط ما عاناه من التعب .

فجاء أحد الصيادين عند الفجر ليتفقد شباكه ، فوجده وعالجه حتى استفاق فذهب به الى عاصمة الجزيرة

وهناك ذهب توما إلى قنصل الانكليز ، وطلب اليه أن يعيده الى بلده .

وقد اضطر ان يصبر ثمانية أيام الى ان سارت باخرة نرويجية في تلك الميناء كانت مسافرة الى اوروبا ، فرجع عليها الى انكلترا . فاستمرت الباخرة في سفرها شهراً كاملاً .

على ان توما كان قد كتب رسالتين من تناناريف ، إحداهما إلى زوجته

والاخرى إلى اللورد وليم فشرح لهما أمره وفصل المكيدة ثم طلب اليهما أن يختبآ في لندرا وأن لا يفعلا شيئاً قبل عودته .

وكان توما قد سافر إلى ايكوسيا وهو قد علم بعض الحقيقة فقد كان واثقاً أن ادوار لم يخدعه وأن الرجل الذي ارسل اليه التلغراف من بيرت كان هو نفس الرجل الذي يعرفه ولذلك كان واثقاً كل الثقة أن الذي نصب له هذه المكيدة انما كان اللورد اقندال دون سواه .

ولذلك سافر تواً إلى ايكوسيا ولم يقف إلا في بيرت .

فذهب حين وصوله الى مركز البريد راجياً أن يجد رسالة من زوجته او من اللورد وليم فلم يظفر بشيء ، فذهب الى منزل ذلك الصديق الذي أرسل اليه الرسالة البرقية فعلم ان هذا الرجل قد برح مدينـة بيرت منذ أعوام بعيدة ، وأيقن انه ليس هو الذي كتب اليه تلك الرسالة .

على انه لم ييأس بعد كل ما اتفق له بل جعل يبحث عن برسي باتم تدقيق فما وجد أحداً رآه في تلك المدينة حتى انه لم يجد من يعرفه فيها .

وعند ذلك عاد المنكود الى لندرا عودة القانط واسرع الى شارع أدم ستريت حيث ترك امرأته واللورد وليم فكاد يجن من قنوطه حين علم ان اللورد قد برح المنزل منذ شهر فلم تحبط هذه المصاعب عزمه وأخذ يبحث عنهم وهو يقول لا بد لي ان اجدهم أينما كانوا .

- ٤٥ -

وقد كان وصول توما الى لندرا في الليل ، فاضطر أن يؤجل ابحاثه الى اليوم التالي .

وفي صباح اليوم التـالي ذهب توما الى مكتب المحامي سيمون وأخبره بما

اتفق له مع ادوار الذي يشتغل في مكتبه

فدهش المحامي دهشاً عظيماً إذ لم يشتغل عنده رجل يدعى بهذا الاسم .

فأخبره توما بجميع ما جرى له وعن احتجاب امرأته واللورد وليم .

فقال له المحامي : اني لم أر احداً منهم على ان تلك الأمور التي اراك تستغربها لا أجد فيها شيئاً من الغرابــة لاني كنت اتوقع حدوث مثلها ، ألا تذكر اني حذرتك من السير افندال ؟

– والآن ماذا نصنع ؟

– خير ما تصنعه هو أن ترضى بما عرضته عليك من قبل بشأن التسوية

– ولكن هذا الشقي قد يكون قتل أخاه .

– اني لا ارى ما تراه ، ألم تقل لي ان امرأتك واللورد وامرأته وولديه قد اختفوا ؟

– نعم .

– إذاً اطمئن فان قتل خمسة اشخاص ليس بالأمر اليسير .

– إذاً ماذا صنعوا بهم ؟

– اصغ إلي ايها الصديق فان ميزتي ان لا اهتم بما يتعلق باعمال غيري اني اصبحت واثقاً الآن ان اللورد وليم لا يزال حقيقــة من الاحياء وقد اشفقت عليك وعليه وعولت على ان اهتم بأمره وبأمرك .

اني لا ازيدك الان شيئاً على ما قلته ، فعد إلي في هذا المساء وسوف ترى ما يكون .

فتركه توما وانصرف هائماً على وجهه في لندرا يبحث عن امرأته وسيده دون جدوى .

ولما أقبل المساء رجع الى المحامي ولم يكن لديه عند ذلك سواه فقال له: ألعلك لقيت احداً من الضائعين ؟

– كلا وأسفاه .

اما انا فقد كنت اسعد حظاً منك .

فصاح توما صيحة فرح وقال : كيف ذلك يا سيدي ؟

ـ لا تتسرع بالسرور ايها الصديق .

ـ رباه ماذا حدث ألعلهم ماتوا ؟

ـ كلا ، ولكنهم كادوا لهم مكيدة فسيحة أتعلم أين هو الآن هذا اللورد المنكود يا توما ؟

ـ أين ؟

ـ انه في بدلام ..

فصاح توما صيحة يأس وقال : أهو مجنون ؟

ـ كلا ، ولكنهم وضعوه في مستشفى المجانين فإني أعرف بوليساً ماهراً يدعى روجرس ، فدعوته إلي بعد انصرافك من عندي ، وعهدت اليه أن يبحث عن اللورد فقال لي أن مسألة هذا اللورد قد عرضت علي فأبيت أن أتولاها ، ولكني أعرف حقيقة ما حدث واليك ما أخبرني به هذا البوليس . أنه في اليوم التالي لسفرك ورد تلغراف منك إلى اللورد وليم .

فقاطعه توما وقاله تلغراف مني ، اني لم أرسل له شيئاً !

ـ انه تلغراف مزور وقد كان مفاده ما يأتي « وجدنا برمي ، إن إدوار سافر ليقابلك فاصنع ما يقوله لك » .

وفي اليوم نفسه زار إدوار اللورد وليم ، فأملى عليه مذكرة طويلة مزجها بعبارات كثيرة غير مفهومة ، فكان إذا اعترض عليها وليم يقول له إدوار . انها اصطلاحات قضائية تشكل عليك لأنك لم تألفها . ثم عهد اليه ان يذهب بنفسه إلى وزير الحقانية ويقدم له هذه المذكرة

وبعد ذلك بيومين ورد إلى اللورد وليم كتاب منك .

فقاطعه توما قائلاً : ولكني لم اكتب اليه .

ـ هو ذاك ، ولكنهم قلدوا خطك .

– وماذا كتبوا بلساني ؟

– إنك كتبت اليه تقول ان برسي مريض ، وانك مضطر إلى ملازمته حتى يبرأ .

وبعد ذلك بثمانية أيام صدر الأمر إلى اللورد وليم باسم ولتر بريس أن يذهب إلى نظارة الحقانية .

فذهب مسرعاً والرجاء ملء قلبه ، ولكنه لم يعد في المساء فقلقت إمرأته وامرأتك إلى أن ورد إلى إمرأته كتاب بتوقيع اللورد وليم ، فانهم زوروا خطه .

وكانت خلاصة هذا الكتاب أن ناظر الحقانية لم يشكك في قول وليم ، وأنه دعا اليه افندال وجمعه به فاعترف بكل ما كان .

غير ان ناظر الحقانية نظر نظرة خوف إلى جسامة هذه القضية وأشفق على أسرة باميلتون من الفضيحة ، فوفق بين الأخوين وعقد تسوية بينهما ، وهي أن يقبض اللورد وليم من أخيه مائتين وخمسين الف جنيه ، ويستولي على قصر أسرة باميلتون الكائن في باريس في شارع أونوريه ، وتكون إقامته في فرنسا .

وقد قال في ختام هذا الكتاب انه مسافر إلى فولكستون ، وانه ينتظر فيها إمرأته وولديه ، ثم دعا بياتري إلى السفر إلى بيرت لتخبر زوجها توما وتأتي به إلى لندرا ، ثم تسافر وإياه إلى فرنسا .

وكان يوجد في طي الكتاب ورقة مالية قيمتها مائة جنيه ، فلم تشكك إمرأته بشيء في هذا الكتاب لأن الخط كان مقلداً أتم تقليد ، والحكاية معقولة لا تحمل على الريب .

وأسرعت إمرأة اللور إلى دفع ما كان عليها من الدين ثم ركبت مركبة مع ولديها وسارت إلى محطة الجنوب ، ولم يرها أحد بعد ذلك العهد .

فقال له توما . وماذا جرى للورد وليم ؟

– إن ناظر الحقانية لم يصدق كلمة من حكايته ، وقد ورد اليه في الوقت نفسه شكوى من اللورد افندال خلاصتها أن أحد المجرمين قد انتحل إسم أخيه الميت وطلب معاقبته .

وبينما كانت امرأة اللورد وليم مسافرة مع ولديها إلى فولكستون ، كان طبيبان من أطباء المجانين يفحصان اللورد وليم ، فما ترددا في الحكم عليه أنه مجنون .

فاضطرب توما وقال : وبعد ذلك ؟

– وبعد ذلك أرسلوه إلى مستشفى المجانين ولا يزال فيه .

- وإمرأتي ؟

– إنها سافرت في اليوم نفسه إلى إيكوسيا في مركبة النساء ، فلما بلغت إلى المحطة الأولى ادعت إحدى السيدات أنها قد سرقت في القطار .

فأقبل البوليس وفتش جميع النساء المسافرات فوجد كيس النقود المسروق في جيب امرأتك بينزي فقبض عليها وذهب بها إلى السجن .

فصاح توما صيحة يأس وقال . رباه لقد قطع كل رجاء .

– لا تقنط يا توما فلا يزال لنا رجاء وطيد .

فجعل توما ينظر اليه حائراً مبهوتاً دون أن يفوه بحرف فقال له المحامي : إنك بحثت عن برسي دون شك .

– اني بحثت عنه في كل مكان فلم أظفر بأثره ولا شك انه قد مات .

– إنك مخطىء يا توما فهو لا يزال في قيد الحياة .

– أأنت واثق مما تقول ؟

– كل الثقة فانك بينما كنت تبحث أنت عنه كنت أنا أبحث ايضاً فعلمت أن برسي في قيد الحياة ، وانه ليس أعمى ، ولا هو مريض بل أنه بأتم صحة .

– أين هو ؟

– في لندرا ..

ثم قرع جرساً فأسرع اليه أحد الموظفين فقال له : اركب مركبة وسر بها إلى ذلك الرجل الذي جاءني أمس واتني به .

وذهب الموظف، وعند ذلك قال المحامي لتوما : انك استرسلت إلى اليأس منذ هنيهة ، فلا تتمادى بالسرور الآن ، فاصغ الي ، فإن برسي مقيم في لندرا وسيبوح بما يعلم مقابل مبلغ اتفقت معه عليه ، بل هو سيفعل أكثر من ذلك فإنه سيقنع الحارسين اللذين شاركاه بالجريمة على الاعتراف أيضاً فيكون لدينا ثلاثة شهود وهـذا فوق الكفاية .

وقد اعتزل هؤلاء الثلاثة خدمة الحكومة ، ولهم الآن رواتب تقاعد فإن علمت الحكومة بما ارتكبوه ربما حكمت عليهم بالإعدام .

وعاد توما إلى الإضطراب وقال له : إذاً كيف ترجو أن يبوحوا ؟

– لقد وجدت طريقة يقرون بها دون أن تنـالهم يد الحكومـة وهي اني

أعطي كل واحداً منهم الفاً وخمسمائة جنيه ، وهو السعر الذي اتفقت عليه معهم لحملهم على الإقرار ، وبعدها يبرحون لندرا الى فرنسا .

فقال له توما : إذاً لا يبوحوا .

– بل يعترفوا ، ذلك أنهم حين وصولهم الى باريس يذهبون الى سفير انكلترا ويعترفون له بجميع ما حدث ، ويخبرونه أيضاً بخيانة ذلك السجان الذي وضع الحية في فراش ولتر بريس الحقيقي فيقبضون عليه فجأة ولا بد له عند ذلك من الإقرار .

فقال توما : إذاً يحكمون على هذا السجان ؟

– هو ذاك ، ولكنه يستحق أشد عقاب إذ كان له أطول يد في الجريمة .

فغلب السرور على توما وقال : إذاً كسبنا القضية .

– لا تتسرع بالحكم فإن اللورد أفندال قوي ولا تأذن الحكومة بافتضاح مثل هذا البيت النبيل .

فأطرق توما برأسه وقال إذاً أية فائدة لنا بشهادة برسي ورفيقيه ؟

– انها تفيدنا بالحصول على التسوية .

– أية تسوية تعني ؟

– التسوية التي اقترحها خصومنا في كتابهم المزور الى اللورد وليم .

– مائتان وخمسين الف جنيه .

– وقصر باميلتون في باريس أيضاً .

– بواسطة تلك الأوراق فأتسلح بها وأذهب الى اللورد افندال فيخاف من الفضيحة بعد أن يرى تلك البراهين الجلية ويرضى بالتسوية على ما نبسطه له ثم يطلق سراح أخيه من مستشفى المجانين بكلمة يكتبها .

– وبعد ذلك ؟

– يبرح اللورد وليم لندرا الى باريس ، وهناك تتم المبادلة .

– أية مبادلة تعني ؟

- يقبض المال الذي اتفقنا عليه ويسلم أوراق ملكية القصر ، وفي مقابل ذلك يرد لهم القرار المسجل بالسفارة .

غير ان توما لم يقتنع وكبر عليه أن يتنازل مولاه عن اسمه وحقه مقابل مال ، فقال له المحامي انك لا تزال على خطئك على انك لو علمت كم تقتضيه مثل هذه القضية من الزمن لرجعت عن هذا العناد ، فقد يمر أعوام طويلة قبل أن يصدر الحكم فيها .

- وماذا يضرنا ان كان النجاح مضموناً ؟

- وجه الضرر فيه ان عائلة اللورد تموت جوعاً ، وان اللورد المحبوس بين المجانين يصبح مثلهم .

ثم اني لا أكتمك ايها الصديق ان هذه القضية يقتضي لها عشرين الف جنيه على الأقل ، ولا أستطيع المخاطرة بهذا المبلغ الجسيم .

فلم يجد توما بدأ من الامتثال بعد هذه البراهين المفحمة وقال . اذاً ليكن ما تريد .

- هذا الذي كنت أرجوهُ منك فقد انصعت للحق بعد ذاك العناد .

وعندها دخل الضابط برسي ، وكان لا يزال شاباً وعليه دلائل القوة والنشاط . فدله المحامي على توما وقال له : اننا متفقون على كل الأمور ولم يبق الا التنفيذ ، فهل تسافر الليلة الى باريس ؟

- أسافر دون شك ..

-- إذاً هذه الخمسمائة جنيه لك ولرفاقك وسندفع لك الباقي بعد التسجيل .

ثم أخذ دفتر الحوالات فكتب له حوالة على أحد مصارف باريس واعطاه اياها.

فأخذ الحوالة ووضعها في جيبه وقد برقت عيناه بأشعة الفرح فقال له المحامي : اذهب الآن وتأهب للسفر في المساء ، وعندما تصل الى باريس ارسل الي تلغرافاً يرشدني الى الفندق الذي نزلت فيه مع رفاقك .

– أيجب ان نذهب الى السفارة حين وصولنا الى باريس ؟

– كلا ، بل تصبرون الى ان يوافيكم هذا الرجل ، وأشار الى توما .

فخرج برسي ممتثلاً وبقي توما مع المحامي فقال له : وماذا تصنع بامرأتي المنكودة وهي في السجن ؟

– انها ستخرج منه .

– كيف ذلك !

– انني أطلق سراحها بضمانة مالية .

– ولكنها ان برحت انكلترا تخسر المال .

– لا بأس فإني أضيفه الى ما ادفعه من نفقات اللورد وليم .

فأطرق توما برأسه الى الأرض وبعد سكوت قصير قال له : الم تقل لي يا سيدي ان امرأة اللورد وولديه قد احتجبوا ؟

– نعم . . .

– العلهم أصيبوا بمكروه !

– هذا ما كنت أخشاه، اما الآن فقد اطمأنيت عليهم بعض الاطمئنان .

– كيف ذلك . .

– ذلك اني ارسلت في أثرهم ذلك البوليس الذي أخبرتك عنه فوردني منه في صباح اليوم تلغراف يقول فيه انه موشك أن يقف على اثرهم .

- اتظن انه سيجدهم !

- هذا لا ريب فيه .

فنهض توما يحاول الانصراف وقال : سأعود اليك في الغد .

كلا ، لا يجب أن يعلموا انك حي الا حين يكتب برسي ورفيقاه اقرارهم ، ويسجلون ما كتبوه في السفارة وتصبح هذه الأوراق في يدنا ، فقل لي أين تقيم الآن !

- اني لم أجد بيتاً بعد .

- يجب ان تقيم في شارع بعيد .

- سأفعل ، ولكن متى يجب أن أسافر !

- حينما يرد الي نبأ من البوليس يدل على التقائه بامرأة اللورد وولديها .

- ألا يجب أن أرى اللورد وليم قبل سفري ..

- ان الدخول الى مستشفى بلدام غير ميسور ..

- ولكنهم قد يرخصون للبعض .

- نعم .. ولكن اعداءنا يراقبوننا كل المراقبة ، وقد قلت لك انه يجب ان يعتقدوا انك ميت الى إن نحصل على الأوراق .

- ولكن اين أجدك غداً .

- اني سأركب مركبة بين الساعة التاسعة والعاشرة قرب الحدائق فكن في ضواحيها .

ثم افترقا وفي اليوم التالي ذهب توما في الموعد المعين لمقابلة المحامي فلقيه وقال له : اوجد البوليس امرأة اللورد !

- نعم .. وهذا كتاب البوليس بشأنها فخذه واقرأه ..

فأخذ توما منه الكتاب وقرأ ما يأتي :

« اني اكتب اليك يا سيدي من المحل الذي تقيم فيه مدام بريس وانما كتبت لك رسالة بدلاً من تلغراف كي لا يطلع على ما اكتبه اليك سواك

« إن مدام بريس الآن في بريتون تقيم في منزل صغير عند شاطىء البحر وهي لا تعلم شيئاً من دخائل المكيدة التي كيدت لزوجها وتعتقد أنه ينتظرها في باريس واليك ما حدث لها بالتفصيل .

« ان الكتاب الذي ارسل اليها بتوقيع زوجها كان الخط فيه مقلداً أتم تقليد بحيث لم يحدث في فؤادها شيئاً من الريب .

« وهي قد برحت لندرا منذ ثلاثة أيام كما تعلم فلما وصلت إلى فولكستون لقيت رجلاً ينتظرها في المحطة .

« ولم يكن هذا الرجل زوجها كما كانت تتوقع ، بل كان رجلاً يدعي انه قادم من قبل زوجها فأعطاها كتاباً منه ، وحسبت تلك المنكودة انه حقيقة من زوجها لإتقان تقليد الخط .

« أما هذا الكتاب فقد كانت خلاصته انه عرض علي شروط الاتفاق بينه وبين أخيه بعض التبديل والتحوير فاضطر اللورد ولم للذهاب وحده إلى باريس وهو يرجوها ان تعتمد كل الاعتماد على الرجل الذي أرسله اليها .

« فوثقت تلك المنكودة بهذا الكتاب ، كما وثقت بالكتاب الذي تقدمه وسافرت مع ذلك الرجل إلى بريتون حيث أقامها في منزل صغير وجدتها فيه صباح اليوم

« وقد وردها غير هذا الكتاب كتاب آخر من زوجها وفي طيه ما تحتاج اليه من النفقة فلم أر من الصواب أن أخبرها بالحقيقة قبل أن ترد الي أوامرك واني أخبرتها إني قادم اليها من قبلك لعلمها انك أنت الذي تتولى عقد التسوية بين اللورد وأخيه ، وفي كل حال فاني أنتظر أوامرك » .

وبعد أن أتم تلاوة الكتاب رده إلى المحامي وقال له : ماذا فعلت ؟

أرسلت تلغرافاً إلى البوليس استحسنت فيه عمله .

وماذا تصنع الآن ؟

— يجب أن تسافر اليوم إلى باريس بهذه حوالة على مصرف سامفري

تقبض بموجبها ما تحتاج اليه من النفقات .

فأخذها توما وقال له أعلم اللورد وليم بشيء .

- كلا .

إذاً لا بد أن يكون يأسه شديداً .

- دون شك ، ولكن ذلك خير من أن يعلم الحقيقة .

- لماذا ؟

- حذراً من أن ننبه اللورد افندال .

- وأين أجد برمي ورفيقه في باريس .

- لقد وردني منه تلغراف مفاده أنه يقيم في فندق شامبانيا في شارع مونتمار

ومتى ذهبت إلى عنده والتقيت به ماذا أصنع ؟

- تذهب به تواً إلى السفارة فمتى سجلت الأوراق تكتب لي .

- بعد ذلك !

- وبعد ذلك أذهب فأقابل السير افندال .

فودعه توما وانصرف وعاد المحامي بمركبته إلى مكتبه .

وقد سافر توما بعد ساعة إلى باريس ، وفي اليوم التالي ورد إلى المحامي هذا التلغراف .

« القرار تم والسفير اقتنع والأوراق سجلت ، وأنا مسافر هذا المساء إلى لندرا »

« توما »

فسر المحامي لهذه الرسالة وقال : انها تسفر عن خير النتائج ، ولا بد للورد أفندال أن يذعن بعد أن يقف على الحقيقة .

ولما عاد توما من باريس كان في استقباله على المحطة امرأته والمحامي ، فان المحامي كان قد أطلق سراحها بضمانة .

وكانت ملامح توما تدل على الفوز فانه كان يحمل إقرار برسي مصدقاً عليه من السفارة .

فأخذ المحامي الأوراق منه وقال له . لقـــد بدأت الآن ساعة العمل فسأكتب إلى اللورد أفندال كي يعين لي موعد الاجتماع .

وفي اليوم التالي ذهب المحامي وتوما إلى منزل اللورد ، ولما وصلا اليه قال المحامي لتوما : إبق أنت في المركبة فاذا احتجت اليك دعوتك لأني أخشى أن تبدر منك بادرة غضب تفسد أمرنا معه .

ثم تركه في المركبة وصعد إلى منزل اللورد فوجده ينتظره.

ولم يكن اللورد افندال يعلم ما يريده منه المحامي ، غير أنه كان يعلم أنه كان يتولى أعمال أسرته في عهد أخيه فقال في نفسه: إنه قادم لمثل تلك الأعمال دون شك .

أما المحامي فانه بقي واقفاً فقال له اللورد : في اي شأن طلبت مقابلتي يا سيدي ؟

- اني قادم بالوكالة عن أخيك يا سيدي اللورد .

— أي أخ تعني !

— أخاك البكر اللورد وليم .

— ولكن اخي البكر قد مات منذ عشرة أعوام .

- هذا ما كان يعتقده الناس

— ولكنها الحقيقة .

فقال له المحامي ببرود . يوجد إثنان أيضاً يا سيدي اللورد يعتقـد الناس

انهما من الأموات .

- من هما ..

ان الأول يدعى توما .

فارتعش اللورد وقال : والثاني ؟.

- هو برسي .

- اني لا أعرف هذا الرجل .

- ربما ولكنه هو نفس الرجل الذي اعان أباك السير جورج على استبدال أخيك الحي بجثة ولتر بريس .

فقال له اللورد إنك ما زلت عارفاً بهذه الأمور فلنتحدث بجلاء .

- إن هذا كل ما أتمناه يا سيدي اللورد .

- اذاً فاعلم أنه يوجد رجل شقي قد انتحل اسم أخي الفقيد بغية النصب علي فعلمت ذلك ولكني طلبت الى الحكومة تأديبه .

- اني عارف يا سيدي بجميع ما صنعت .

- وان الحكومة قد استعملت معه الرأفة فوضعته في مستشفى المجانين .

. ولكن لهذا الرجل امرأة وبنين .

- قد يكون ذلك .

- وان جميع ذلك قد جرى بأمرك .

فأجابه اللورد بعظمة : اني أراك قد وقفت معي موقف قضاة التحقيق .

- أسألك المعذرة يا سيدي اللورد عما بدر مني ، وإنما أردت به أن اظهر لك وقوفي التام على كل خفايا هذه المسألة الخطيرة .

- حسناً تكلم ..

اتفق يا سيدي ذات يوم ان امرأة ولتر بريس «وندعها الآن بهذا الاسم» قد ورد اليها كتاب بخط زوجها ، ولكن الخط مزور ، وقد تضمن هذا الكتاب الاتفاق على التسوية .

ـ مع من هذه التسوية ؟

-. معك يا سيدي ..

وما هي هذه التسوية ؟

ـ هي ان اللورد وليم يتنازل عن اسمه ولقبه ويبرح انكلترا مقابل مائتي وخمسين الف جنيه يقبضها من اخيه اللورد أفندال

ـ وبعد ذلك ؟

ـ وبعد ذلك رأيت أن هذه التسوية موافقة للفريقين فجئت أقترحها عليك يا سيدي اللورد .

ثم أخرج ورقة من جيبه فوضعها على المنضدة أمام افندال وقال : انك حين تقرأ هذه الورقة يا سيدي لا تتوقف لحظة عن قبول ما أقترحه عليك .

فجعل اللورد يقرأها ، وكان المحامي يراقبه فرآه قد اصفر وارتعش ثم بدرت منه بادرة غضب فدعك تلك الورقة بين يديه وكاد يمزقها.

فقال له : هذه صورة الأصل، أما النسخة الأصلية المسجلة في سفارة لندرا في باريس فإنها محفوظة في مكتبي .

فأطرق اللورد عند ذلك هنيهة مفكراً ثم قال لقد رضيت باقتراحك ، فأية ضمانة تكون لي على تنفيذ شروطك ؟

اعدامك النسخة الأصلية المسجلة التي قرأت صورتها الان فانها البرهان الوحيد الخطير في هذه القضية .

ـ حسناً ، غير ان ولتر بريدس في مستشفى المجانين .

-- هو ذاك ، ولكن ان اردتم كان اخراجه منه سهلاً ميسوراً .

ـ أتظن ذلك ؟

ـ بل أؤكد ، فإن كلمة منك الى ناظر الحقانية تكفي لإخراجه

ـ ومتى خرج يبرح لندرا !

ـ لفوره

ـ وإذا دفعت المـــال ، وأعطيته القصر في باريس ، ترجع إلى نسخة الاقرار الأصلية ؟

ـ دون شك فما كنت يا سيدي من الكاذبين .

ـ إذاً ليكن ما تريد ، فسأذهب اليك غداً في مثل هذه الساعة ونبرم الاتفاق النهائي .

فحنى المحامي رأسه للورد وخرج إلى حيث كان ينتظره توما في المركبـة فقال له قضي الأمر وكسبنا القضية .

فقال له توما والسرور باد بين عينيه : أرضي بكل اقتراحك ؟

ـ انه رضي بكل شيء .

ـ واللورد ولم أيخرج من المستشفى ؟

ـ انه يخرج غداً دون شك وفي كل حال عد إلي في الساعة الثانية بعد ظهر غد فاني أرجو أن يكون كل شيء قد انتهى .

وعند ذلك افترقا ، فذهب المحامي إلى مكتبه وانصرف توما إلى امرأته والفرح ملء قلبه .

وكان توما مثل كل الانكليز . فان الانكليزي إذا نال نعمة وأراد شكر الله عليها أصبح يحمده وكأس الشراب بيـــده ، وهكذا توما فانه قضي مع امرأته بقية يومه وبعض ليله وهو يتجول بها من خمارة إلى أخرى ويحمد الله لانفراج ازمة مولاه ويناجيه بما توحيه اليه كؤوس الخمر ، فلم ينم إلا عندما بلغ من الخمر كل مبلغ

على انه صحا في اليوم التالي ونامت السكرة فجعل ينتظر دنو الساعة الثانية بفارغ الصبر .

حتى إذا حان الموعد المعين أسرع مهرولاً الى مكتب المحامي فلما وصل الى قرب ذلك المكتب وجد الناس محتشدين جماهير عند باب منزل المحامي .

وكانت علائم الكآبة بادية في ثنايا الوجوه ، فامتعضت نفس توما وحدثه

قلبه بحدوث سوء ، وحاول أن يخترق الجماهير الى منزل المحـامي فلم يستطع لشدة الزحام .

ولما رأى أن المرور قد تعذر عليه سأل أحد الناس عن سبب هذا الزحام فقال له . لقد حدث مصاب عظيم .

فارتعش توما و اضطرب قلبه وجعل العرق البارد ينصب من جبينه .

فعاد الى سؤال الرجل وقال له بلهجة تشف عن القلق : ولكن ماذا حدث يا سيدي ؟

- مصاب عظيم .

— أي مصاب !

- ان سيمون المحامي مات

ولم يكن وقع الصواعق على توما باشد من وقع هذا النبأ عليه ، فصاح صيحة يأس وكاد يذهب عقله ، وفي ذلك الحين دنا منــه ذلك الموظف الذي كان قد أرسله المحامي لإحضار برسي وقال له : أعرفت هذه الفــاجعة الذي اصابتنا يا سيدي ؟

ـ ولكن هذا مستحيل .

ـ لقد كنت مثلك منذ ساعة لا اريد تصديق هذا النبأ المحزن الأليم ، ولكني رأيته بعيني مسجى على فراش الموت

ثم قص عليه تفصيل وفاته فقــال له انه عاد أمس الى منزله وعلائم السرور بادية بين عينيــه ، فتعشى حسب عادته ونام قبل ان ينتصف الليل ، وفي الساعة الثــامنة من الصباح لم يخرج من غرفته ، فاستبطأته امرأته وقرعت باب غرفته فلم يجبها أحد ، ففتحت الباب ودخلت فرأت زوجها على فراشه ولا حراك فيه

وبعد هنيهة أقبل الطبيب فاثبت انه مات بسكتة دماغيــة نتجت عن عارض مجهول .

فقال توما أمات هنا في منزله ؟

ـ كلا ، بل مات في ضواحي لندرا .

إذاً فما بال الناس محتشدون هنا قرب مكتبه .

ـ لأن الجنود قد دخلت اليه .

فدهش توما وقال : أي شأن للجنود في مكتبه !

ـ ان الحكومة أرسلت مندوبها لوضع الأختام على خزائنه واوراقه .

ففعل هذا الخبر بتوما كما فعل به خبر الوفاة ذلك ان اقرار برسي المسجل كان موجوداً عند المحامي في إحدى خزائن مكتبه وهو البرهان الوحيد الذي حمل اللورد افندال على الرضى بالتسوية ، وانما هاله هذا الخبر لانه كان يعلم بطء الحكومة الانكليزية ، إذا وضعت على منزل اختامها لا تفضها الا بعد عهد طويل .

وبعد أن خرج الجند تفرق النساس ولبث توما واقفاً قرب المكتب فمرت الساعة الثانيـــة والثالثة دون أن يحضر اللورد افندال ، انتظر الى المساء لم يحضر ، عندئذ أيقن أن المحامي المنكود لم يمت حتف انفه ، وأن موته الفجائي لم يكن قضاء وقـدراً ، بل كان من مكائد أهل الشر والمكر ، وانه لم يضربه هذه الضربة القاتلة ، غير تلك اليد الخفية الهائلة التي قلدت خط اللورد وليم

ثم وجد نفسه فرد بازاء اعداءه الأقوياء ، فكبر عليـــه هذا الأمر وكاد أن يحيط به اليأس لولا نفسه الكبيرة ورجاؤه أن يتولى من يخلف المحامي هذه القضية .

وبعد أن أيقن بوفاة المحامي ذهب إلى إمرأته فأخبرها بما اتفق وأخذها فاختبأ وإياها في شارع مقفر خمسة عشر يوماً .

* * *

وفي خلال هذه المدة تولى أحد تلامذة المحامي أشغاله .. فذهب توما اليه وأخبره بمـــا كان فقال له : إني واقف على حقيقة الأمر بالتفصيل . وسأتولى القضية وأقابل اللورد أفندال ، متى رفعت الحكومة الأختام وأملي وطيد بالفوز .

ورجع توما إلى المكان الذي كان مختبئاً فيه ..

وبعد أسبوع أزيلت الأختام ، ولكن حدثت نكبة كانت أشد ما لقيه توما من النكبات ، وهي ان إقرار برمي المسجل لم يكن بين أوراق المحامي الفقيد .. لأن يداً أثيمة قد اختلستها من مكتبه قبل أن يضعوا الأختام .

غير ان المحامي لم ييأس فقال لتوما :

– عد إلى باريس واطلب إلى برمي أن يكتب إقراره مرة أخرى وهو مسجل

فظهرت علائم اليأس على توما وقال :

– ويلاه انه في اليوم الذي كتب فيه إقراره خاف خوفاً شديداً فقبض المال وسافر إلى حيث لا يعلم أحد أين هو .

– إذاً قضي علينا بالفشل فلا سبيل إلى الفوز بغير هذه الأوراق

وخرج توما ، من عند المحامي ، خروج القانطين ، وهو لا يعلم ليأسه أين يسير ..

وقد اتفق ساعة خروجه أن اللورد أفندال خرج من البرلمان وذهب إلى النادي ، فأقام فيه إلى الساعة الثالثة بعد انتصاف الليل .

ثم خرج منه ماشياً على الأقدام إلى منزله لقربه من ذاك النادي ، ولم يكد يسير بضع خطوات ، حتى شعر ان رجلاً يتبعه ، فأسرع في سيره ، فرأى أن الرجل قد اقتدى به ، حتى إذا وصل إلى تمثال نلسن ، قرب ترافلغار ، وقد دنا منه الرجل الذي كان يتبعه وقال له : لي كلمة أقولها لك يا ميلورد .

فارتعش اللورد وقال : ماذا تريد .. تكلم ؟

فدنا الرجل خطوة منه أيضاً وقال له : ألم تعرفني أيها اللورد .

فأجابه بجفاء : كلا .

– إني أدعى توما ..

- ماذا تريد ؟

-- إني جئت أسألك إطلاق سراح أخيك .

فضحك اللورد وقال : لا شك إنك مجنون .

فقال له توما بصوت يضطرب إحذر أيها اللورد .

فانتهره اللورد وقال إرجع إلى الوراء أيها الشقي .

ثم التفت فرأى بوليساً على مسافة قريبة فناداه مستنجداً فقال له توما : إن الجنود لا يدركونك إلا قتيلاً أيها السفاك ..

ثم هجم عليه هجوم الضواري وطعنه بخنجره طعنة نجلاء اخترقت قلبه فسقط صريعاً دون أن يصيح ..

أما توما فإنه صاح صيحة فرح وقال : الآن .. لقد انتقمت منك لأخيك أيها القاتل السفاك ، فمت غير مأسوف عليك .. لقد استراحت الأرض من شرورك وآثامك .

- ٥٠ -

كانت بيتزي واقفة على جميع مشروعات زوجها توما ، إذ كان يطلعها على كل أسراره ونواياه ، وكان قد أخبرها بعزمه على الانتقام من اللورد أفندال إذا لم يحقق طلبه وينصف أخاه ، ولذلك لم تقلق عليه حين لم يعد اليها في المساء .

وفي اليوم التالي ذهبت ترود حول قصر اللورد أفندال ، فوجدت جمهوراً من الناس محتشدين وسمعتهم يقولون ، أن اللورد قتل بطعنة خنجر قرب ترافلغار .

فكان بعضهم يقول أن الذي قتله ارلندي لأن اللورد القى خطاباً منذ يومين في مجلس البرلمان أثار سخط الارلنديين ، وبعضهم يقول أن قاتله كان من اللصوص بغية سلبه ما معه ولم تسمع أحداً منهم ذكر إسم زوجها توما

غير انهم كانوا جميعهم متفقين على ان الجنود قبضوا على القاتل .. فلم يبق شك لدى بيتزي أن القاتل هو زوجها لأنه لم يعد اليها في ليلة أمس . فقالت في نفسها إنه سجن دون شك ، ولكني لا أبالي فإني سأتم ما كان شارعاً به .

لأنها كانت تعتقد ، ان اللادي باميلتون تذكر بعد وفاة زوجها انها أحبت اللورد وليم ، وتوافق على التسوية التي اتفق عليها زوجها ، مع ذلك المحامي .

فصبرت بيتزي اسبوعاً ، وبعد انقضائه ذهبت إلى قصر باميلتون وطلبت مقابلة أرملة اللورد فرضيت بمقابلتها .

ولما مثلت بياتزي بين يديها قالت لها . إن الشقي الذي عبث بضميرك وقلبك أيتها اللادي قد لقي حتفه وجازاه الله بما يستحق فهل ترضين أن تعترفي بحق اللورد وليم حبيبك الأول ؟

ولم تجبها اللادي باميلتون بشيء ، ولكنها قرعت جرساً كان أمامها ، فدخل اليها رجلان ، أحدهما والدها السير أرشيبالد ، والآخر السير بترس تورن .

ذلك الأسقف الشقي الذي دبرت قريحته الجهنمية تلك المكيدة التي أفضت إلى مقتل اللورد أفندال .

فلما رأت اللادي أباها أشارت إلى بياتزي وقالت أرجوك يا والدي أن تطرد هذه المجنونة الشقية من أمام عيني .

فبدت على شفتي بياتزي علائم الاحتقار وقالت بلهجة شفت عن الازدراء : لقد كنت أظن انك آلة بيد ذلك اللئيم اللورد أفندال ، أما الآن ، فقد علمت أنك كنت شريكته بالجريمة ، وأنك مثله من أهل الاثم والفساد فتباً لك من خائنة .

وأسرع السير أرشيبالد إلى مناداة الخدم وأمرهم بطردها .

فأخرجوها فجعلت تصيح خارج القصر ، فجاءها بوليس الناحية وذهب بها إلى المركز .

وهناك حاولت أن تبوح بجميع ما تعلمه .
غير أن مأمور القسم أسكتها وأمر بارسالها إلى السجن .

* * *

وعند ذلك أيقنت بياتزي من ضياع كل رجاء .. غير أنها كانت شديدة الحمية كزوجها ، وقالت في نفسها : إني بت سجينة فلأبذل جهدي في مقابلة

اللورد وليم .

وأخذت منذ ذلك الحين تتظاهر بالجنون ، فما مر بها ثلاثة أيام ، حتى قرر طبيب السجن أنها مجنونة ، فأرسلت إلى مستشفى بدلام ، وهذا الذي كانت تتوقعه ، فإن اللورد كان لا يزال محبوساً في ذاك المستشفى باسم ولتر بريس .

وكان رئيس هذا المستشفى قد تلقى أوامر سرية بشأن اللورد وليم ، فعلم أنه يجب إبقاؤه في المستشفى مدة حياته فكان يراقبه كل المراقبة ، ولكن لا يمنعه عن الاجتماع بالمجانين ولذا فلم يتعذر على بيتزي أن تراه .

ولم يكن هذا اللورد المنكود قد أضاع شيئاً من صوابه ، ولكن الهم كان يقتله قتلاً بطيئاً ، ويأخذ من حياته وصبره فقد يئس من استرجاع ثروته ولقبه ، ولم يعد يتمنى إلا أن يرى إمرأته وولديه ويسافر بهم إلى اوستراليا فيعود إلى رعي المواشي مؤثراً تلك الهمجية الصادقة على هذه المدنية الكاذبة ، وذلك العدوان الصريح على هذه الآثام المزخرفة .

وقد كان كتب مذكرة ذكر فيها جميع ما اتفق له من الحوادث الهائلة المفجعة ودعاها مذكرة مجنون لأنه كتبها في المستشفى وهو محبوس فيه بدعوى الجنون ، فأتم مذكرته بما وقف عليه من بيتزي بعد اجتماعه بها .

* * *

وكأنما الاقدار أرادت أن تساعد اللورد وليم وبيتزي بعد ان ضربتها تلك الضربات الهائلة ، فاتفق أنه بعد دخول بيتزي إلى المستشفى ببضعة أيام ادخلوا اليه رجلاً لم تلبث بيتزي أن رأته ، حتى عرفته فإنه كان إدوار ذلك الرجل الذي خدع توما بقوله انه من عمال المحامي سيمون .

ويذكر القراء أن هذا الرجل كان من اعوان اللورد افندال في المكيدة ، أو من أعوان الأسقف بترس تون ، وهو الذي قلد خط اللورد وليم وأرسل إلى توما ذلك التلغراف من بيرت .

وقد جن هذا الرجل حقيقة ، وكان السبب في جنونه غريباً ، فإنه في اليوم الثاني لقتل اللورد أفندال ذهب إلى هذا اللورد فلما علم بقتله ذهب عقله فجأة .

وذلك ان اللورد أفندال كان عازماً على أن يدفع له ، في ذاك اليوم الفي جنيه جزاء خيانته ونفقاته ، ولما علم انه مات قنط من قبض المال وأصابه اليأس بالجنون

فذهبوا به إلى منزله ، وله فيه امرأة وبنون فحبسوه فيه بضعة أيام إلى ان اشتدت أعراض جنونه فلم يجدوا بداً من نقله إلى المستشفى .

غير أن الغريب في أمره أن عقله لم يذهب إلا أثر انفعال شديد ، وقد أصيب بمثل هذا الانفعال فعاد اليه صوابه فجأة كما ذهب ، وذلك حين رأى بتزي واللورد وليم في ذاك المستشفى .

وعادت اليه ذاكرته وعادت معها الندامة على ما ارتكبه من الآثام فركع أمام اللورد وليم سائلاً منه الغفران .

ثم اعترف له انه كان آلة بأيدي اللورد أفندال ، والأسقف بترس تون ، وانه هو الذي اختطف توما من القطار ، وهو الذي ملأ قلب برسي خوفاً حتى دعاه إلى السفر من باريس .

وهو الذي سرق الأوراق المسجلة من مكتب المحامي قبل ان توضع عليها الأختام غير ان الأوراق المسجلة المتضمنة إقرار برسي لم يردها إلى اللورد أفندال ، بل أبقاها رهينة إلى أن يدفع اللورد أفندال ما وعد به من المال .

فلما أتم اعترافه قال :

– إني إذا تيسر لي الخروج من هنا يا سيدي اللورد أصلحت جميع مـــا أفسدته يدي الأثيمة .

فهز اللورد رأسه وقال :

– إن من يدخل مستشفى بدلام لا يخرج منه .

فقالت له بياتزي : من يعلم يا سيدي ، فقد خطر لي خاطر ربمـا سهل لي سبيل الفرار ..

فنظر اليها اللورد نظرة المشكك وقال لها :

– كيف يتيسر لك الخروج ؟

– لقد وجدت طريقة صالحة ، ولكني أرجو ادوار أن يخبرني أين وضع هذه الأوراق .

– سأرشدك اليها ، دون شك ، ولكن أخـــبرينا كيف تخرجين من هذا المكان !

- بطريقة سهلة ، وهي انه يوجد في لندرا جمعية مؤلفة من السيدات ، يدعونها أخوات السجون .

وهن يتفقدن المرضى في السجون والمستشفيات ، ولا يأتـــين إلا متبرقعات ، بحيث لا يرى الناظر اليهن غير عيونهن ، وقد زارت إحـــداهن أمس مجنونـــاً فنظرت الي ونادتني باسمي ، فذهبت اليها وقلت · العلك تعرفينني يا سيدتي ؟

– نعم ، فإنك امرأة توما وأنا أعلم انك سليمة العقل وان وجودك بين المجانين لا يدل على انك منهم .

– عجباً يا سيدتي كيف عرفت هذا ؟

-- اني زرت زوجك في سجنه ، قبيل إعدامه ، فأخبرني بكل شيء ، ويسوؤني اني لا استطيع ان اخدمك خدمات جليلة ، ولكني مستعدة لفعل

كل ما استطيعه ، حتى ان أردت الخروج من هذا المستشفى أخرجك منه .

ـ كيف ذلك ؟

ـ السن مقيمة وحدك في غرفتك .

ـ نعم ...

ـ إذاً ، لا تخرجي من غرفتك هذه الليلة وادعي انك مريضة ، فأزورك بعد يومين تصحبني إمرأة أخرى من أخوات السجون وعند ذلك ترين كيف أخرجك فلا تهتمي لهذا الأمر واعتمدي علي .

ثم تركتني وانصرفت .

فقال اللورد وليم : ولكني لم أعلم بأية طريقة تريد إخراجك .

ـ أظن أنها تريد أن تلبسني لباسها فأخرج بدلاً منها ، وتبقى هي مكاني .

ـ ولكنها تضطر بعد ذلك إلى إشهار أمرها فتسوء بذلك سمعة هذه الجمعية .

ـ ان هذا من شأنها .

ثم التفتت إلى إدوار وقالت له :

ـ والآن اخبرني أين خبأت الأوراق .

ـ إن منزلي في شارع أولدلين في الطبقة الثانية ونمرته ٧ فخذي هذا الخاتم واظهريه لامرأتي وقولي لها انك آتية من قبلي لأخذ الأوراق ، فلا تعترض ، أما الأوراق فانها موضوعة في جوف تمثال على المستوقد في غرفة النوم ، وهو تمثال الدوق ولنجتون .

فقالت له بياتزي : ولكن امرأتك لا تصدقني الا متى اعتقدت انك غير مجنون .

ـ اذاً اكتب لها كتاباً يدل على صحة عقلي .

وقد اتفقوا على ذلك وذهبت بياتزي الى غرفتها فتظاهرت أنها مريضة ،

وفي التالي أبت أن تذوق الطعام .

وكان اللورد وليم قد أعطاها تلك المذكرات التي كتبها فخبأتها .

* * *

وفي اليوم الثالث لتظاهرها بالمرض زارتها السيدتان فأقفلت إحداهما باب الغرفة من الداخل ، ثم فتحت صرة كانت بها ، فأخرجت منها ثوباً يشبه ثوب أخوات السجون وبرقعاً كثيفاً كبراقعهن ، ثم قالت لبيتزي : أسرعي والبسي هذه الثياب .

فامتثلت وباتت بعد لبس هذه الملابس لا تختلف في شيء عن أخوات السجون .

وبعد أن أتمت لباسها فتحت السيدة الباب وقالت لبيتزي : اتبعيني .

ثم خرجت بها من ذلك المستشفى دون أن ينتبه اليها أحد بفضل ملابسها أما السيدة الثانية فانها خرجت من باب آخر .

ولما باتت مطلقة السراح أعطتها كيساً من النقود وافترقت عنها فشكرتها بيتزي وذهبت تواً إلى ادوار

فأعطتها الرسالة والخاتم ثم أخذت منها الأوراق وعادت الى منزلها فخلعت ملابس أخوات السجون ولبست ملابسها الاعتيادية .

وفي اليوم التالي ذهبت إلى المحامي الذي خلف المحامي سيمون وعرضت عليه المسألة ، وهي تتوقع أن يسر لوجود الأوراق ، غير انها رأت منه عكس ما كانت تتوقعه فانه قال لها : لقد حدث في هذه الأيام أمور خطيرة أرلها أن زوجك قتل اللورد افندال .

– لقد فعل ما يجب لأن قتل هذا الفاجر أقل ما يستحق .

– اني واياك على اتفاق ، ولكن أعداءنا اليوم غير اعدائنا أمس ، اذ هم الرسالة الانجليكانية التي يرأسها الأسقف بترس تون ، ولا قبل لأحد بمقاومة

هذه الطائفة الشديدة .

— لماذا يا سيدي .

— لأنهم يستحقونه سحق الزجاج .

ثم خفض صوته وقال : اني أسديك نصيحة ان عملت بها فربما توسطت لك بالعفو عن زوجك مقابل اتلاف الأوراق .

وخرجت بيتزي تتعثر بأذيالها واليأس يكاد ينفجر في قلبها وهي تقول: اني لن أتلف براهين خيانة اللورد افنــدال ، ولا أجرد أخاه التعس من سلاحه فقد يرسل الله من يعينه على استرداد حقه المهضوم .

ثم رجعت قانطة الى منزلها وهي تفتكر بطريقة تخفي فيها الأوراق في محل لا تهتدي اليه أسرة باميلتون ، الى ان خطر لها ان تدفنها في ضريح ، فجعلت تتنكر وتخرج كل يوم الى التربة بحجــة الصلاة على الموتى ، حتى اغتنمت فرصة ودفنت تلك الأوراق ، وهي مذكرة اللورد وليم ، واقرار برسي ورفيقيه في ذلك الضريح ، فأخرجها مرميس كما وصفنا في مقدمـــة هذه الرواية .

- ٥١ -

الى هنا انتهت مذكرة اللورد وليم ، وكانت الصفحات الأخـيرة من ذلك الدفتر الضخم المكتوبة فيه مكتوبة بخط بيتزي .

وكان مرميس يقرأ هذه المذكرة بصوت مرتفع امام فاندا والأب صموئيل وشوكنج وهم جلوس قرب سرير بيتزي الميتة ، فلما فرغ مرميس من تلاوتهـا جعل مرميس وفاندا ينظر كل منهما الى الآخر .

فقال مرميس : لقد عرفنا اشياء كثيرة وفاتنا اشياء ، فــان اللورد وليم

وعائلته لا يزالون أحياء .

فقال الأب صموئيل : أنا أخبركم بما لم تعرفوه فان بيتزي قد دفنت هـذه الأوراق في الضريح منذ ستة أشهر ، وأنا مخبركم بما جرى في خلال هذه المدة ، وهو ان بيتزي احتجبت عن الأنظار بعد أن خبـأت الأوراق حذراً من البوليس ، لأنه كان يبحث عنها بحثاً دقيقاً لارجاعها الى مستشفى بدلام فدام البحث ثلاثة أشهر حتى يئس منها .

وبعد ذلك جعلت بيتزي تخرج في كل مساء متنكرة فتذهب الى الحانات وتعربد كي تحمل البوليس على القبض عليها باسم غير اسمها فيسجنها بقية الليل ثم يطلق سراحها في الصباح ، وكانت تفعل ذلك كل ليلة في مركز كي تسجن في جميع سجون البوليس .

وغرضها من ذلك انها كانت ترجو ان تجد في تلك السجون لصاً تقرر سجنه في نوايت فتمهد اليه اخبار زوجها توما أنها وجدت الأوراق كي يطمئن ويموت قرير البال .

وما زالت على ذلك حتى لقيت الرجل العبوس في سجن البوليس يوم قبض عليه بمكيدة مس الن وكلفته اخبار زوجها بما كان .

فقاطعته فاندا متأوهة وقالت : لا سبيل لانقاذ توما من سجنه فانه بات سجيناً في القبور .

فأجابها الكاهن : ولكنكم تتمون مشروعه .

ولكنه مشروع صعب .

فقال مرميس : اني لا أرى ما ترينه فان اقرار برسي المسجل بيدنا ولدينا من المال ما يكفي للقضية .

فقال شوكنج : وان المال يعينك على نيل ما تريد في هذه البلاد .

فقال الكاهن أرى انه يجب أن تبدأوا باخراج اللورد وليم باميلتون من المستشفى .

فقالت فاندا : الا ترون ذلك صعباً ؟

فقال مرميس · لا أنكر صعوبته ولكنه ليس مستحيلاً وسأذهب غداً الى المحامي الذي خلف المحامي سيمون ، وأرجو أن أبلغ بما أبذله من المال ما أريد كما قال شوكنج .

وعند ذلك انبعثت أنوار الفجر من نافذة الغرفة التي كانوا فيهـا وسقطت أشعتها على وجه بيلتزي المصفر فركعت فاندا وصلت صلاة الأموات .

انتهت رواية « مذكرة مجنون »

ويليها الجزء السابع عشر من روكامبول « خاتمة روكامبول »



الجزء السابع عشر

خاتمة روكامبول

خاتمة روكامبول

- ١ -

في الساعة العاشرة من الصباح أقبل رجل الى مكتب المحامي سيمون وهو شاب جميل الوجه متأنق في لباسه فسأل البواب قائلاً : اليس هنا مكتب المحامي سيمون ؟

— نعم ، غير ان سيمون قد مات وخلفه في إدارة مكتبه المستر جمس كوكلام .

— إني أحب ان أراه .

— إن هذا محال يا سيدي الآن فإنه يرافع في المجلس .

— لا بأس فسأعود غداً .

فقال له البواب : إنك قادم في قضية يا سيدي دون شك فاذا كان ذلك فان سكرتير المستر جمس كوكلام يقضي لك ما تريد ، لأنه واقف على جميع أشغال المحامي .

فتردد الشاب هنيهة ثم قال في نفسه: لا أجد بأساً من مقابلة السكرتير وسبر غوره فقد أقف منه على ما يفيدني

ثم قال للبواب : ماذا يدعى هذا السكرتير ؟
– سلمون بيردت .
– سر أمامي اليه .
فامتثل البواب وأوصله إلى السكرتير .

فوجده جالساً عند منضدة كبيرة وهو كبير الشاربين كثيف الشعر ، وقد ستر عينيه بنظارتين من الزجاج الأزرق .
فحياه الشاب وقال له : إني كنت أود ، يا سيدي ، ان أرى المستر كوكلام .
فأجابه سلمون : إني وإياه واحد لأني أدير جميع أعماله .

– لا شك عندي بما تقول غير ان القضية التي جئت من أجلها قديمة العهد تتصل بزمن المحامي سيمون .
– هو ما تقول ، بل إنها منذ عدة شهور .

فعجب الفتى لقوله ، وقال له : كيف عرفت هذا يا سيدي ، في حين أني لم أذكر لك إسمي ، ولم أقل لك شيئاً عن القضية التي جئت من أجلها .
– كنت أستطيع أن أجيبك أني من السحرة ، غير اني أؤثر ان أقول لك إني أعرفك ، فإنك تدعى مسيو بيتافن وأنت فرنسي ، وقد رأيتك أمس في جنازة إمرأة فقيرة تدعى بيتزي ، وهي إمرأة رجل يدعى توما ، أعدم شنقاً لأنه قتل اللورد أفندال . وأزيدك على ذلك انك قادم لحادثتي في قضية اللورد باميلتون ، الذي يدعى الآن ولتر بريس .

فدهش الشاب دهشة عظيمة وقال : ولكن كيف عرفت ذلك ، يا سيدي ؟
فلم يجبه السكرتير على سؤاله ، وقال : إن بيتزي ، التي دفنت أمس ،

جاءت منذ ثلاثة أشهر إلى المستر كوكلام ، ومعهـا الأوراق التي تتضمن كسب القضية .

فقال مرميس ، وكان هو بعينه : ولكن هـذا المحامي أبى ان يتولى القضية .

— لقد كان مصيباً في رفضه فان المستر كوكلام لا يزال في مقتبل الشباب وهو فقير لا يستطيع أن يتحمل نفقات هذه القضية الكبرى ، ولم يكن لدى بيتزي شيء من المال .

فقـال مرميس : ولكن ، الذين ينـوبون عنها ، في مقاضـاة أسرة باميلتون أغنياء .

فهز سلمون رأسه وقال : ليس الفقر وحده الذي منعه عن تولي القضية بل ان هناك سبباً آخر وهو أنه عين مصفياً لتركة اللورد افندال .

فأجفل مرميس لهذا النبأ وجعل ينظر اليه بحذر .

فقال له السكرتير . وفـوق ذلك ، فان المستر كوكلام يخـاف مقاومة الجمعية الانجليكانية ، فإن قوتهـا في انكلترا تشبه قوة الجزويت في فرنسا .

فنهض مرميس عند ذلك يحاول الخروج وقال : أسألك العفو يا سيدي فقد أضعت وقتك الثمين فيما لا يفيد .

فأوقفه سلمون وقـال له : إني غير المستر كوكلام ، وبوسعي أن أسديك نصيحة ، وهي انك تخطيء خطأ رهيباً إذا قاضيت هذه الأسرة أمام الحاكم .

ولكني لا أجد غير هذه الطريقة .

— ثم يجب ان تعلم ان القضايا كثيرة الإسهاب في هذه البلاد .

— إني أعرف ذلك حـق العرفان ، ولكني شديد الصـبر ، كثير المال

ـ ثم يجب ان لا تنسى انك تلميذ روكامبول .

فتراجع مرميس منذعراً إلى الوراء وقال : أتعرف هذا أيضاً ؟

ـ بل أعرف انك أبله .

ثم رفع نظارته عن عينيه فذهل مرميس انذهالاً غريباً وقال في نفسه أن العينين عينا روكامبول ولكن الوجه غير وجهه ، ثم قال له بصوت يتهدج: كلا إن هذا محال .. كلا .. إنك لست ..

ـ إني لا أزال أشد منك بدليل إنك لم تعرفني .

وعند ذلك سقط شاربه وشعر رأسه المستعار ، فلم يبق لدى مرميس شيء من الشك إذ رأى ان الرجل الذي يكلمه هو روكامبول نفسه وقد كان يحسبه من الأموات .

وكان تأثر مرميس قوياً حتى انه أكب على روكامبول يعانقه ودموع السرور تنهل من عينيه .

أما روكامبول ، فانه أعاد شاربيــه وشعر رأسه ، ووضع النظارتين على عينيه

ثم قال لمرميس : كفى بلاهة يا بني فقد يتفق دخول احد علينا ونحن في هذه الحال فنفتضح .

وبقي مرميس على تأثره ينظر إلى روكامبول كأنه لايصدق انه يراه ويقول: أنت . أنت روكامبول ؟

ـ نعم أنا هو روكامبول الذي يبدأ فيقول لك ان من كان مثلنا لا يلجأ بأعماله إلى المحاكم

- ٢ -

وقد عاد روكامبول إلى تنكره فكان مرميس ينظر اليه نظرات الانذهال ويرى انه لا يمكن ان يعرفه أحد وهو على هذا التنكر .

أما روكامبول فانه ابتسم وقال له : إنك لم تكن تتوقع يا بني أن تراني هنا .

هذا لا ريب فيه .

– العلكم حسبتوني ميتاً ؟

- أما أنا فلا . وأما فاندا ، فانها جعلت تبكي أثناء الليل وأطراف النهار .

فارتعش روكامبول ارتعاشاً لم يخف على مرميس فانه كان يعلم منزلة فاندا من قلب روكامبول

أما روكامبول فانه حاول ان يخفي اضطرابه ، فضغط على زر كهربائي . وبعد هنيهة دخل اليه أحد الموظفين فقال له : إني أتحدث مع حضرة هذا الزائر ، بشأن خطير ، فلا تدع أحداً يدخل إلي ، مهما اتفق .

فانحنى الموظف وهم بالانصراف ، فأوقفه روكامبول ، او المستر سلمون ، وقال : إلا إذا جاء الأسقف بيترس تورن ، فأدخله إلى قاعة الاستقبال وأخبرني بقدومه .

وبعد انصراف الموظف قال روكامبول لمرميس : لقد خلا بنا المكان الآن فأخبرني كيف كان خروجكم من الدهليز .

- إن شوكنج أنقذنا .

ثم قص عليه جميع ما اتفق لهم ، مما عرفه القراء في رواية (روكامبول في السجن) .

وذكر له كيف أنهم تبعوا أثره وأثر ميلون إلى النافذة المطلة على النهر . وكيف ان فاندا كانت ولا تزال تعتقد أنه غرق ، وانه أي مرميس كان واثقاً في معتقده انه لا يزال في قيد الحياة ، وأنه لم يحتجب عن العصابة إلا لشأن خطير .

فلما أتم حكايته قال روكامبول : لقد أصبت في اعتقادك يا بني ، لأني احتجبت لسبب بالغ الخطورة . ولذلك اريد ان أبقى ميتاً موقتاً في عرف الجميع ما عداك .

– وفاندا ؟

– وفاندا أيضاً .

فتنهد مرميس وأجاب : مسكينة فاندا ... إني أخشى أن يقتلها اليأس .

– إنها قوية فلا أخاف عليها . ولكني أخشى ان تحاول ان تراني إذا علمت بوجودي وفي ذلك خطر هائل .

– ليكن ما تريد أيها الرئيس . ولكن ألا تريد أن تساعدنا في مهمة اللورد وليم ؟

– ما هذه البلاهة يا مرميس ؟.. وما شأني في هذا المكتب إلا لهذا الغرض ؟..

– ولكن ... إذا كنت تريد ان تكون ميتاً ، فكيف تستطيع مساعدتنا ؟..

– إذا كنت أنا ميتاً ، فإنك لا تزال حياً لدى العصابة ، القي اليك الأوامر فتنفذها .

– لقد أصبت فسأعمل حسب ما تريد .

– إذاً إعلم انه لو لم يكن شأننا إلا مع اللادي باميلتون وأبيها السير أرشيبالد لكانت مهمتنا سهلة . ولكن عدونا قوي هائل .

- أتعني به الأسقف بيترس تون ؟

- هو وعصابته السوداء فانها تشبه جيشاً من البوليس وهم لا يغفلون في الليل والنهار من البحث والتنقيب عن الرجل المحبوس المحكوم عليه بالشنق كما تعلمون .

- ولكني أرى إنك تعرض نفسك للخطر بوجودك هنا .

فابتسم روكامبول إبتسامة تدل على استخفافه بالأخطار وقال : إذا كنت أنت لم تعرفني فكيف تخشي ان يعرفوني بهذا التنكر ؟

- إني لا أراك مصيباً في رأيك فان شعر رأسك وشاربيك قد يسقط اتفاقاً في ساعة سوء فيفتضح امرك وينكشف سرك .

- إنه يجدر بك بدلاً من ان تحدثني بهذه البلاهة ان تسألني كيف دخلت إلى هذا المكتب بهذه الصفة .

إني مصغ اليك يا حضرة الرئيس .

- لقد قلت لك ان المستر كوكلام صاحب هـــذا المكتب خلف المحامي سيمون قد عين مصفياً لتركة اللورد افندال .

نعم أذكر ذلك .

- إن هذا الرجل لا يزال في مقتبـل الشباب ، وهو شريف الخلق نقي القلب ولكن الأسقف بيــترس تون ، لا يريد ان تكون له هذه الصفات الحسنة .

- لماذا ؟

لأن اللورد أفندال ، قبل قتله ، وقع على صك بمبـــالغ طائلة لهذا الأسقف ، مقابل إنقاذه من أخيه اللورد وليم ، ومعاونته على سلب حقه . ولا بد للمســتر كوكلام ان ينصر إمرأة اللــورد على الأسقف . فلما أيقن الأسقف من طهارة ذمة هذا المحامي ، أراد ان يعين معه رجلاً يكون من أتباعه

- ومن هو هذا الرجل ؟
فأجابه روكامبول ببرود : هو أنا !
فقال مرميس بلهجة المنذهل : أنت هو ؟!
فضحك روكامبول ضحكاً شديداً وقال : نعم أنا يا بني .

فأعجب مرميس بدهائه وقال : إننا مهما تقدمنا في حلبة الاختبار ، ومهما عاركنا الدهر فانك لا تزال رئيسنا الأعظم الذي نأتمر به .

فابتسم روكامبول وقال أما هذا الأسقف فانه من أهل الذكاء والدهاء والإقدام. ولكن ثقته بي شديدة ، فهو ينصاع لي كل الانصياع ويمتثل لكل ما أريد .

- ولكن ..

فقطع عليه روكامبول الكلام قائلاً . اسكت .

ذلك أنه رأى الموظف قد فتح الباب فدخل اليه وقال : إن الأسقف قد أقبل وهو في قاعة الانتظار .

- حسناً فادخل به إلي .

فخرج الموظف وأسرع روكامبول ففتح باباً في الغرفة التي هو فيها ، يؤدي إلى غرفة أخرى وقال لمرميس : ادخل إلى هذه القاعة واصغ إلى حديثنا فان جدارها رقيق لا يحول دون سماعك ما نقول .

ثم رجع إلى مجلسه بعد ان أقفل الباب برفق فدخل اليه الأسقف بعد هنيهة وقال بعد التحية والسلام ، ماذا ارتأيت ؟

- إني تمعنت ملياً بالأمر منذ أمس فرأيت انه لا يمكن نزع أموال اللادي باميلتون على ما تظنه من السهولة .

- ولكن الأوراق التي بيدي قانونية لا ريب فيها .
- هو ذاك ولكن هذا السلاح الذي نتقلده قد نصاب به نحن .
- ماذا تعني بذلك ؟

إسمح لي يا سيدي في البدء ان أبسط الحالة التي نحن فيها .

ـ تكلم .

.. إنك ساعدت اللورد افندال على أخيه ، وانت تطلب الآن اجرة عملك بعد فوزك .

ـ دون شك .

وأرى انك تطلب مقادير عظيمة ، تـكاد تجرد اللادي باميلتون من ثروتها .

ـ نعم

ـ ألا تخاف انه إذا رأت هـذه اللادي باميلتون الخراب بضياع ثروتها أن تتفق مع اللورد وليم المسجون في مستشفى بدلام ؟ إنك أصبت بسجن هذا اللورد ستة أشهر . وأما الآن ، فان بقـاءه في المستشفى خطر من أشد الأخطار .

ـ إني لا أفهم ما تقول .

ـ إصغ إلي يا سيدي تعلم جميع ما أعنيه ، واني لم أقـل غير الصواب . فانه يوجد في ذلك المستشفى رجل أدخل اليه مجنوناً ، وهو الآن ليس من المجانين .

ـ من هو هذا الرجل ؟

ـ هو ادوار كوكري

نعم .

ـ وهذا الرجل لم يشف فقط من الجنون ، بل هو الآن من أشد الناس إخلاصاً للورد وليم .

ـ ماذا تقول ؟

ـ أقول الحقيقة .

ثم أخذ دفتراً أمامه وأخرج منه مذكرة كتبت بالأرقام فقال : سأقرأ لك

هذه المذكرة وسوف ترى .

فقطب الأسقف حاجبيه . أما مرميس فلم تفته كلمة ، من هذا الحديث .

- ٣ -

وكانت خلاصة هذه المذكرة كما يأتي :

« إن المجنون ولتر بريس والمجنون ادوار كوكري ، يعيشان في أتم ولاء ويختليان خلوات سرية وهما يذكران في بعض الأحيان بصوت منخفض اسم بيتزي .

« وأنتم تعلمون ان بيتزي قد هربت من المستشفى .

« ومن المرجح أنهما لا يعرفان هذه المرأة ، ولكنهما واثقان انها استولت على إقرار برسمي .

« وقد ختمت هذه المذكرة أنهم بحثوا بحثاً دقيقاً في منزل بيتزي بعد موتها عن هذا الإقرار فلم يجدوا له أثر » .

فلما أكمل روكامبول تلاوة هذه المذكرة نظر اليه الأسقف وقال له : ماذا ترى ؟

- أرى انه قد يتفق ان يخطر للادي باميلتون ، أن تتفق مع اللورد وليم ، شقيق زوجها ، على مبلغ معين من المال ، فيتنازل لها تنازلاً قانونياً لا يرد .

وبعد ذلك يخرج اللورد وليم من المستشفى فيكون لنا عدوان بدلاً من واحد

- ألا تجد سبيلاً لاتقاء هذا الخطر ؟

— لدي طريقة صالحة للتفريق بين اللورد وامرأة أخيه ، فلا يجتمعان الى الأبد ؟

كيف يتيسر لك ذلك ؟

— إن حبس اللورد وليم لم يذهب بصوابه ، كما كنت تتوقع ، لأني موقن أن إحدى أخوات السجون تقابله وتطمئنه عن إمرأته وولديه وعندي أنه يجب ان نسهل له أسباب الفرار من المستشفى .

— وبعد ذلك ؟

— نعطيه خمسة آلاف جنيه ، وترسله إلى اوستراليا مع باخرة يجد فيها إمرأته وولديه .

— إن إطلاق سراحه سهل ميسور لدي ، فلماذا تريد أن نسهل له أسباب الفرار ؟

— لأنهم لو أطلقوا سراحه كما تقول ، شكك في نياتنا واتفق مع ادوار على إزعاجنا أما إذا أيقن أنه خرج من المستشفى هارباً فلا يبقى له إلا السعي لإيجاد إمرأته وولديه .

— ومتى بات مطلق السراح أتظن انه يوافق على السفر ؟

— إني أتعهد بتسفيره .

— كيف تصنع ؟

— أحمله على التوقيع على تسوية مزورة بينه وبين اللادي باميلتون .

— وهذه التسوية أيكون لها شأن ؟

— على الإطلاق .

— ويسافر الى اوستراليا ؟

بحوالة مزورة على أحد صيارفة سدني ، لأن مفاد هذه التسوية المزورة أن يقبض في اوستراليا مدى الحياة خمسة آلاف جنيه في كل عام .

— وهذا الايراد السنوي أيدفع له ؟

ـ يدفع مرة واحدة في العام الأول فقط واما في العام الثاني فانك تكون قد نلت من أموال هذه الأسرة ما أردت ومتى بلغت قصدك فليفعل اللورد وليم وامرأة أخيه ما يريدان

ـ الحق انك من كبار الرجال ، فقل لي الآن كيف تمهد وسائل الفرار للورد وليم .

ـ بكلمة بخطك تكتبها الى مدير المستشفى فهل تأذن لي يا سيدي الأسقف أن أملي عليك فتكتب ؟

ـ أفعل .

ثم أخذ معدات الكتابة وأملى عليه روكامبول ما يأتي ·

« رئيس الرسالة الانجليكانية التي أنت أحد أعضائها السريين يدعوك إلى مساعدة حامل هذه السطور في كل ما يريده » .

فلما أتم كتابتها قال ، وقع عليها الآن بتوقيعك الخاص

فكتب الأسقف في ذيل الرسالة الحرف الأول من اسمه ورسم تحته شكل صليب وثلاث نقط فأخذ روكامبول الرسلة ووضعها في جيبه

فقال الأسقف : متى تذهب إلى المستشفى ؟

ـ لا أذهب أنا بل أرسل رجلا أثق به كل الثقة .

ـ ومتى نتقابل وأين ؟

ـ هنا بعد غد .

ـ ألا يكون هنا المحامي كوكلام ؟

ـ كلا بل يكون في المجلس للمرافعة .

فنهض الأسقف وحاول الذهاب فمشى خطوة الى الباب ثم رجع روكامبول فقال ألم يبلغك شيء عن الرجل العبوس ؟

ـ الشائع انه غرق .

ـ أتظن الاشاعة صحيحة ؟

- إني لا أصدق شيئاً من هذه الإشاعات ، ولا أزال أخشى الرجل العبوس ، فان توما لقيه في سجن نوايت ، وأخبره بكل شيء . ولذلك لا هم لي الآن إلا ان أرى قريباً ، اللورد وليم وعائلته مسافرين إلى اوستراليا .

– لقد أصبت يا سلمون ، فان الرجل العبوس هو الرجل الوحيد الذي أخشاه .

– وأنا أيضاً .

– أما عرفت تاريخ هذا الرجل الغامض ؟

فقال روكامبول : إن ملخص ما عرفته عنه ان أمه كانت نورية ، من أخبث أهل الشر والفساد ، وان أباه كان فرنسياً من أهل السلامة والخير فخرج في بدء أمره شريراً فاسد الأخلاق كأمه ، ثم رجع إلى أخلاق أبيه بعد ان ملأ الأرض شروراً ، وتاب توبة صادقة ، فبات من أصدق أهل الصلاح .

– ألا تزال أمه في قيد الحياة ؟

– كلا فقد ماتت في اواخر عهد الثورة أفظع موت ؟

فتنهد الأسقف وقال إذاً أسرع ومهد سبل الفرار للورد .

– كن مطمئناً يا سيدي فما رائدنا إلا النجاح .

فودعه الأسقف وانصرف .

فلما بات خارج المكتب فتح روكامبول باب الغرفة التي كان فيها مرميس ودعاه اليه قائلاً : أسمعت الحديث ؟

– لم تفتني كلمة منه فأعجبت بك كما أعجب بك الأسقف ، غير انه أشكل علي أمر مما قلته للاسقف حين سألك عن الرجل العبوس فهل كانت أمك حقيقة من النور ؟

– نعم فقد كانت من أفظع النساء وجميع ما قلته عنها أكيد ، وسأخبركم

بتاريخ هذه الأم المائلة .

- أما الآن وقد سمعت حديثي مع الأسقف فقد علمت بلا ريب اني سأرسلك أنت بدلاً مني الى مستشفى بدلام .

أنا ؟ ولكني لا أعلم شيئاً عن هذا المستشفى ، ولم أفهم شيئاً من أسرار المهمة التي تعهد بها إلي .

فابتسم روكامبول وقال : سأعطيك التعليمات اللازمة .

ثم أقفل الباب بالرتاج كي لا يدخل اليها أحد .

- ٤ -

كانت الساعة الثامنة من المساء وقد ادلهم الظلام واشتد الضباب وتكاثف بحيث لم تستطع أنوار الغاز النفوذ منه

وكان رجلان يسيران بالقرب من بدلام ، وهما مرميس وشوكنج .

وكان شوكنج يقول لمرميس : إن جميع ما قلته لي غريب نادر .

- كيف ذلك يا شوكنج ؟

- ألا تعلم إذا كان الرجل المحبوس ميتاً فيبكى أم حياً فيرجى ؟

- كلا إني لا أعلم شيئاً من أمره .

- ولكنك ذهبت اليوم الى مكتب المحامي كوكلام ، كي تعهد اليه بالقضيـة .

- هو ذاك .

- إذاً فما بالك رجعت عن هذا القصد ؟

- لأني وجدت طريقة أفضل من طريقة المقاضاة .

- ان جميع ما تقول يحملني على الظن ان الرجل المحبوس حي

– أية علاقة بين الرجل العبوس والمحامي كوكلام ؟

– وجه العلاقة انك رأيت الرجل العبوس وهو الذي حملك على الرجوع عن القضية .

– إصغ إلى أيها الصديق ألم يكن الاتفاق بيننا انه حين غياب الرئيس تكون الزعامة لي ويجب عليكم الامتثال ؟

– هو ذاك .

– إذاً فاصدع بما آمرك به ولا تهتم إلا بما أقول لك .

– سأمتثل لكل ما تريد فقل ما يجب ان أصنع ؟

– يجب ان تذهب الى كنيسة سانت جورج فتقابل بوابها الشيخ وتخبره انك آت من قبل توما .

– ولكن توما قد مات .

– لا بأس فانها كلمة متفقون عليها .

– ماذا أقول له ؟

– لا تقل شيئاً غير تلك الكلمة فمتى قلتها أعطاك حبلاً فتضع الحبل في جيبك وتأتي إلي .

– أين أراك ؟

– إني أنتظرك حيث أنا الآن .

فذهب شوكنج الى الكنيسة وقال لبوابها ما لقنه إياه مرميس فأعطاه الحبل قائلاً : أتدري ما هذا الحبل ؟

- كلا .

– انه الحبل الذي شنق به توما وقد أعطاه للرجل العبوس لأن حبل المشنوق يجلب السعادة فتركه الرجل العبوس عند الأب صموئيل ولو كان لي لكنت الآن من الأغنياء .

– كيف ذلك ؟

– ذلك لأن مدير مستشفى بدلام الثاني ويدعى جوهن بيل دفع خمسة آلاف جنيه فما رضي الكاهن ان يبيعه .

– ماذا يرجو هذا المدير فوق ما له من أسباب الهناء في مركزه ؟

– لا أعلم ولعل له به حاجة ، وانت يا شوكنج فماذا تريد ان تصنع بهذا الحبل ؟

– لا أعلم فاني لم أطلبه لنفسي بل أمرت ان أحضره .

فتنهد البواب وأعطاه الحبل ، فوضعه شوكنج تحت ثوبه ورجع به الى مرميس .

فعلم مرميس شوكنج ما يجب ان يصنع .

وبعد ربع ساعة كانا عند باب مستشفى بدلام فتقدم شوكنج وقرع الباب وقال مرميس : إني في انتظارك .

أما شوكنج فقد كان مرتدياً بتلك الملابس التي كان يلبسها حين كان يدعوه روكامبول اللورد ويلموت كما تقدم في الأجزاء السابقة ، فلما فتح البواب باب المستشفى قال : ماذا تريد ايها المستر ؟

فكبر ذلك على شوكنج وقال : إني لست مستر بل انا لورد ، فناديني بلقب اللوردية .

فاعتذر البواب ورجع الى السؤال عما يريد فأجاب : إني أريد ان أرى مدير المستشفى .

– أي المديرين تريد مقابلته يا حضرة الميلورد ، فان لهذا المستشفى مديران .

– أعلاهما رتبة .

– إنهما متساويان .

– اذا كان ذلك فسر بي الى أيهما شئت .

– اظن ان احدهما ، وهو المستر جوهن بيل ، قد خرج لبعض الشؤون

فسأذهب بك الى المدير الآخر ، وهو المستر بلويت .

- كما تشاء .

ثم تقدمه البواب فسار في أثره حتى وصلا الى غرفة المدير فقال البواب : تفضل يا حضرة المیلورد وقل لي اسمك كي أذكره للمدير .

فأجابه شوكنج بملء العظمة والجلال : اني ادعى اللورد ويلموت .

فدخل البواب الى غرفة المدير ووقف شوكنج يحدث نفسه فيقول : اني سأفعل كل ما أمرني به مرميس ، وأقول كل ما لقنني اياه ، ولكن الحق ان هذا الغلام يعبث بي كما يشاء فإني لم أفهم شيئاً من هذه الألغاز .

وعند ذلك فتح باب الغرفة وخرج المدير نفسه لاستقبال شوكنج فدخل به الى قاعة الاستقبال .

ولما خلا بهما المكان قال المدير : بماذا يأمر سيدي اللورد فاني خادمه المطيع ؟

– اني يا حضرة المدير غني بقدر ما أنا شقي تعس ، فاني ارمل ، ولم تلد لي امرأتي بنيناً غير ان لي ابن اخ كفلته وربيته فكان كولدي وقد عرفت دون شك السبب بقدومي لزيارتك .

فنظر اليه المدير نظر المشفق وقال له : العله مجنون يا سيدي اللورد ؟

– هو ذاك واأسفاه فقد أدبته خير تأديب وعلمته خير علم فهو يتكلم بجميع لغات أوربا وهو من الشعراء المجيدين في لغتنا الانكليزية التي جعلها شكسبير من اللغات الخالدة .

– ولكن كيف جنونه يا سيدي ؟

– ان جنونه بل ذهوله قد بدأ في باريس حين اقامته في تلك العاصمة فقد كنت عينت له راتباً سنوياً قدره عشرة الاف جنيه ، فعاش عيش رخاء ، بل عيش طيش أدى به إلى هذا الجنون و كان السبب في جنونه كثرة

تردده إلى الاوبرا .

– ألعله من أصحاب الأمزجة العصبية فأثرت به الموسيقى هذا التأثير !

– كلا ، ولكنه كان يهوى إحدى المغنيـــات في الأوبرا وقد أنفق عليها الملايين وكان أحد الممثلين يهواها أيضاً ، فاتفق ليلة انه بينما كان جالساً في لوجه فتح الستار فظهر هذا الممثل المنكود مشنوقاً بحبل .

فقال له المدير : ألعل دوره بالتمثيل كان يقضي عليه أن يشنق !

- كلا ، بل شنق نفسه حقيقة ليأسه .

– وهذا الحادث أثر على ابن أخيك إذا كان هو السبب في انتحار ذلك المنكود فجن .

– كلا ، فان الناس يعتقدون أن حبل المشنوق يجلب السعادة فتهافتوا على شراء الحبل ، فأصاب ابن أخي قطعة منه وكان من المولعين بالمقامرة فاتفق انه ربح مراراً حتى يأس منه اللاعبون وتآمروا عليه فسرقوا الحبل منه لاعتقادهم انه السبب في ربحه كما اتفق انه خسر بعد سرقة الحبل .

فتنهد المدير وقال : ان لابن أخيك يا سيدي شبيهاً في جنونه .

ألعله يوجد لديك مصاب بهذا النوع من الجنون ؟

– كلا يا سيـــدي ، ولكن المصاب به زميلي في الادارة وهو المستر جوهن بيل . انك يا سيدي قد تعجب لهذا الأمر ولكن مدير مستشفى المجانين نفسه مجنون .

والغريب انه لا يوجد من يصدق جنونه فاني ذهبت الى اللورد المحافظ وقصصت عليه الأمر سراً ، فقال : لا بد لي من فحصه .

ثم جاء الى المستشفى وباحثه ملياً ، فظهر أمامه بأتم مظاهر العقـــل ، حتى ان اللورد حين انصرافه قال لي : ان كان يوجد بينكـــا مجنون ، فأنت هو ذلك المجنون ، ولا شك انك أتهمته هذه التهمة كي تستقل في ادارة المستشفى .

فقال له شوكنج : إذاً أن جنونه منحصر بحبل المشنوق

هو ذاك ، فإذا حدثته بغير هذا الحديث ، لا تجد منه غير العقل المتزن الرجيح .

– ومن أين أتاه هذا العارض ؟

– انه ارلندي الأصل ولكنه ولد في لندرا وهو يعتقد انه من الأشراف وأن اسرته من أغنى الاسرات ، غير انه بروتستانتي مثلنا ، وهو يقول أن الارلنديين قد اضطهدوا جده فاضطر إلى الفرار من ايرلندا بعد أن دفن ثروة طائلة في اراضيه الواسعة .

وقد رسخ هذا الاعتقاد في ذهن جوهن بيل زميلي في الادارة ، حتى أنه سافر منذ ثلاثة أعوام إلى ارلندا باحثاً عن تلك الثروة المدفونـة في أراضي اسرته فوجد أن الاراضي قد بيعت فالتمس من صاحبها الجديد أن يأذن له بالبحث فيها ، فأذن له وبحث بحثاً دقيقاً فلم يجد شيئاً ، فرجع إلى لندرا وكاد ينسى أمر هذه الثروة .

غير أنه لنكد طالعه اشتهر في تلك الأيام رجل صناعته التنويم ومعرفـة الغيب وقرأ عنه في الجرائد اخباراً غريبة نادرة فذهب اليه وسأله أن ينومه ويسأله عن تلك الثروة .

فقال شوكنج : وماذا أجابه ؟

– أكد له لسوء بخته أن الثروة موجودة ، وانها فوق ما كان يقدرها ، ويوجد مع المال المدفون أوراق تثبت حقه بهذا المال ، وله الحق أيضاً بلقب اللوردية ولكن لا يتيسر له ايجاد هذه الثروة إلا إذا كان لديه حبل مشنوق وقد بدأ جنونه منذ ذلك اليوم .

– ولكني لا أجد الحصول على الحبل صعباً إلى هذا الحد .

– انك منخدع يا سيدي ، فان الشنق في سجن نوايت نادر ، وفوق ذلك فاذا شنق مجرم تسابق الأغنياء إلى شراء الحبل الذي شنق به بالمزايدة .

وليس زميلي من الأغنياء ، ومن ذلك أنهم شنقوا حديثاً رجلاً يدعى توما ، فأفرغ جوهن بيل جهده كي يتحصل على قطعة من هذا الحبل ، فذهبت مساعيه أدراج الرياح ، لأن هذا الحبل كان لدى بواب كنيسة سانت جورج ، وقد طلب ثمنه خمسة آلاف جنيه .

فابتسم شوكنج عند ذلك ابتسامة معنوية .

فقال له المدير لماذا تبتسم يا سيدي ؟

أتم حديثك فسأخبرك بعد فراغك عن السبب

– أما جوهن بل فلم يستكثر الثمن ولكنه فقير ، ليس له غير راتبه غير ان العالم لا يخلو من أهل البلاهة في كل مكان ، فقد وجد من يسلفه هذا المبلغ بشرط أن يرده اليه أربعة أضعاف حين يجد الثروة التي ينشدها .

فقال شوكنج : إذاً تمكن من شراء الحبل ؟

. كلا . يا سيدي ، فإنه حين عاد بالمال إلى بواب الكنيسة أبى أن يبيع الحبل .

– لماذا ؟

– أنت تعلم يا سيدي اللورد تعصب الارلنديين ، ان رئيس هذا البواب أمره أن لا يبيع الحبل إلا لأمثاله من الكاثوليك .

فضحك شوكنج أيضاً ..

أما المدير فإنه قطب حاجبيه وقال له : لماذا تضحك يا سيدي هذا الضحك ؟

– ذلك لأني أعرف قصة هذا الحبل ، وأعرف البواب الذي باعه بسبعة آلاف جنيه بدلاً من خمسة

– لمن ؟

– لي أنا .

ثم أخرج الحبل من جيبه فدهش المدير وقال : أتعتقد أنت يا سيدي ما

يعتقده سائر الناس بحبل المشنوق ؟

ـ إني لا أعتقد بشيء من هذا على الإطلاق .

ـ إذاً كيف اشتريت الحبل يا سيدي بهذا المبلغ الجسيم ؟

ـ لأن لي خطة أحب أن أوقفك عليها ، وأرجو أن تفيدني في شفاء ابن أخي ..

ـ اني مصغ اليك يا سيدي .

ـ إنك عارف بطبع المجانين ، بلا ريب ، فهل تظن انه إن امتلك ابن أخي الحبل ، ووثق انه حبل مشنوق أيشفى من الهوس ؟

ـ لا أظن يا سيدي ..

ـ إذاً قد ذهب المال الذي انفقته ضياعاً .

ـ هذا الذي كنت أخشاه .

ـ ولكني أرجو أن أستفيد من هذا الحبل بعض الاستفادة .

ـ كيف ذلك يا سيدي ؟

ـ اني أجعله وسيلة لادخال ابن أخي إلى المستشفى .

ـ بأية طريقة ؟

ـ انه لا يوافق على الاقامة في مستشفى المجانين لاعتقاده بسلامة عقله ، وإني أشفق من استعمال القوة فاسمع ما خطر لي .

- اني كلي آذان للسمع يا سيدي .

قبل أن يبدأ شوكنج الحديث قال له المدير : العلك واثق ان هذا الحبـل حبل مشنوق ؟

– كل الثقة فانظر ان العقدة التي عقدها كالكراف الجـلاد لا تزال على حالها ، وفوق ذلك ، فإن بواب الكنيسة ليس من المخادعين .

– إذاً ستحضر غداً ابن أخيك إلى هنا ..

– بل أحضره الآن فانه ينتظرني في المركبة عند الباب الخارجي ، فاني لم أتمكن من إحضاره إلا بالحيلة .

– كيف فعلت ؟

– إن ابن أخي كان يعلم ان الحبل في حوزة بواب الكنيسة ، وقد قلت له اني ذهبت إلى البواب كي أشتري الحبل . اني اتيت بعد فوات الأوان فإن مدير مستشفى بدلام قد سبقك واشتراه .

فقال لي ابن اخي : يجب ان تشتري الحبل من المدير وان تدفع له قدر ما يشاء .

فقلت له : سأفعل كل ما تريد ، وجئت به إلى هنا بحجة شراء الحبـل من المدير وهو لا يعلم ان الحبل في جيبي ، ولما كنت أريد أن أخلو بك في البـبدء وأطلعك على الحقيقة فقد أبقيته في مركبتي عند الباب .

– لقد أحسنت ، والآن فكيف رأيت أن تدخله ؟

– سأقول له إنك متردد في بيـع الحبل وأدعوه ليدخل اليك فيساومـك عساك تقبل ..

– إنها طريقة صالحة لإدخاله ، ولكن كيف يبقى في المستشفى .

– لقد وجدت طريقة صالحة أيضاً ، وهي ان زميلك جوهن بيل خارج المستشفى كما قلت لي أليس كذلك ؟

- نعم .

- إذاً تظهر الحبل لابن أخي حين يجتمع بك وتقـول له انك لا تستطيـع الموافقة على البيـع إلا بعد موافقة زميلك ، فمتى علم انه غائب فهو ينتظر دون شك إلى أن يرجع .

- إنها خير طريقة يا سيدي ، فمتى تجيء به ؟

- في الحال ..

ثم خرج شوكنج فشيعه المدير الى الباب وبعد ان انصرف دعـا اثنين من حرس السجن وقال لهما : إنهم سوف يأتوننا بمجنون فاختبئا في هذه الغرفـة المجاورة لغرفتي إذ لا نعلم ما يكون .

أما شوكنج فانه ذهب إلى مرميس ، فقال له مرميس : ماذا حدث ؟

- قضي الأمر .

- أهم ينتظرونني ؟

- دون شك

- مع أي المديرين كان حديثك ؟

- مع المستر بلونت .

- إذاً ان الأمور تجري من نفسها .

- كيف ذلك ؟

فقال له مرميس : اقنع أيها الصديق بتنفيذ ما أقوله لك ولا تهتم بما بقي .

فاعتبر شوكنج انه أهين وقال : ولكني أرى أموراً لا أفهمها .

فأجاب بجفاء : لا يجب أن تفهمها .

وأطرق شوكنج برأسه ودخل الاثنان إلى المستشفى كان مرميس طلـق المحيا باسم الثغر ، فلما لقي المدير قال : اخبرني عمي اللورد ويلموت يا سيدي انك أبيت أن تتخلى لنا عن الحبل الذي لديك .

ففحصه المدير باعتناء وقال : ذلك لأني وزميلي جوهن بيل قد اشترينـاه

بثمن جسيم

– كم هو هذا المبلغ الجسيم ؟

– خمسة آلاف جنيه .

– وأنا أدفع لكم عشرة آلاف فهل يرضيك هذا الثمن ؟

– إنه ثمن موافق ، ولكن ..

ولكن ماذا ، ألا تزال تتردد ؟

– نعم ولا يا سيدي .

– كيف ذلك ؟

– ذلك اني رضيت البيع ولكني لا أعلم مـــا يكون من شريكي إذ لا أستطيع أن أبيعه دون مصادقته .

– لقد عرفت ذلك ولكن شريكك لا يبطء في الرجوع إلى المستشفى .

– دون شك ولا بد ان يكون هنا بعد ساعة .

– حسناً فسأنتظره إن أذنت لي .

ثم نظر إلى شوكنج وقال : موعد فتح البرلمان قد حان يا عمي العزيز ولا أحب عن حضور الجلسة .

– أأبقيك وحدك هنا ؟

– لا بأس يا عماه فاني حين أشتري الحبل أوافيك .

– ليكن ما تريد .

ثم قام فودع المدير وهو يبتسم ابتسامة معنوية وانصرف .

فلما خلا المكان بالمدير وبرميس قال له المدير : أتأذن لي يا سيدي أن أقدم لك الشاي .

– مع الشكر فاني أحب أن أحدثك هنيهة يا سيدي المدير .

– مر بما تشاء ..

فغير مرميس لهجته وقال : ان عمي يا سيدي المديرمن أهل الحماقة والبلاهة

فإنه قد مثل الدور الذي عهدت اليه أن يمثله أمام زميلك .

فاضطرب المدير وقال : ماذا تعني بذلك ؟

انه أحضر لك الحبل .

فدهش المدير وأخرج مرميس عند ذلك من جيبه الكتاب الذي أعطاه إياه روكامبول بخط الأسقف فعرضه عليه وقال: أتعرف هذا الخط والتوقيع ؟

فأخذ المدير الرسالة وقرأ ما يأتي :

« إن الجمعية التي انت أحد أعضائها السريين تأمرك ان تسهل لحامل هذه الرسالة كل ما يريد » .

فلم يكد يقرأهــــا ويرى التوقيع حتى ارتعش ونظر إلى مرميس نظرة الإعجاب فقال : اذاً انت يا سيدي لست بمجنون ؟

فضحك مرميس وقال: كلا فإني سليم العقل بحمد الله ولا إشتري هذا الحبل بثلاثة شلنات ، ولكني كنت في اضطرار إلى الاجتماع بك والاتفاق معك .

– على أي شيء يا سيدي ؟

– أولاً على الطريقة التي نستطيع بها ان نتصرف بزميلك جوهن بيل كما نشاء ، وهذا الحبل خير طريقة .

– وبعد ذلك ؟

– اني أريد تمهيد سبيل الفرار لأحد المسجونين في هذا المستشفى وهــذه الرسالة تأمرك ان تطيعني ، اليس كذلك ؟

– دون شك يا سيدي فسأمتثل لك كل الامتثال .

- ٦ -

ولم يدر أحد ما جرى بين مرميس والمدير ، غير ان المدير أصدر أمره بعد ساعتين إلى حارسين من حراس المستشفى ، فأخذا مرميس إلى احدى غرف المجانين وأمرهما أن يراقباه اتم المراقبة

فلم يبدو من مرميس أقل مقاومة غير انه طلب ان يلف حبل المشنوق حول وسطه .

وكان المستر بلونت امر الحراس ان يخبروه حين قدوم زميله جوهن ،وان بين هذين المديرين تحاسداً غريباً ولده حب الاستقلال ، فإن كلا منهما كان يقول في نفسه : ان انكلترا تحكمها ملكة واحدة فلماذا هذا المستشفى يتولاه مديران ، اليس من الأفضل ان يعزل زميلي وان استقل بالادارة وحدي ؟

ولم يكونا يجتمعان إلا في الشؤون الخطيرة ، فبعد ساعة حضر جوهن فذهب اليه بلونت وقال له إني آسف لخروجك من المستشفى اليوم .

– لماذا ؟

– لأنه دخل اليه مجنون جديد .

– الم تدخله اليه ؟

– نعم .

– اذاً فما وجه الأسف ؟

– هو رجل خطير ، فهو ابن اخ اللورد ويلموت

– اني لم أسمع هذا الاسم بين أسماء اللوردية .

– لا عجب في ذلك فانه يوجد في لندرا ستمائة لورد ولكن هذا اللورد من اعظمهم ثروة فانه دفع عشرة آلاف جنيه ثمن حبل مشنوق .

فوقف جوهن وقد اضطرب لهذا الخبر وسأل : ماذا تقول ؟

الحقيقة .

ــ اللورد ويلموت اشترى الحبل الذي شنق به توما ؟

- ليس هو الذي اشتراه ، بل ابن اخيه .

- العله مجنون ؟

ــ بل في أتم العقل .

ــ إذاً كيف أدخلته الى المستشفى ؟

ــ لأن أسرته أكبرت شراءه قطعة حبل بهذا المبلغ الجسيم .

ــ إذاً هو عمه الذي أدخله إلى المستشفى .

ــ نعم ..

ــ ولكننا لانستطيع ارتكاب هذه الفظاعة زمناً طويلاً فان هذا المستشفى خاص بالمجانين فلا يسجن به العقلاء مراعاة لعائلاتهم .

ــ لا أنكر ذلك ولكن الأطباء يظنون انه مجنون

- إذا كان ذلك فأنا أيضاً من المجانين .

ــ إني لا أقول عنك هذا القول .

ــ ولكنك تعلم شدة ميلي الى شراء هذا الحبل فمن اشتراه ؟

ــ من بواب كنيسة سانت جورج .

- ولكن هــذا المنافق أقسم لي انه لا يبيعه لأحد .

هذا ما اتفق فان الحبل بات الآن في قبضة السير أرثير ، أي ابن أخي اللورد ويلموت .

العل الحبل معه الآن ؟

ــ انه طوق به وسطه لشدة حرصه عليه

فأطرق جوهن هنيهة مفكراً ثم قال :

. اني أحب أن أرى هذا الرجل .

- انه نائم وستراه غداً
كلا فسأوقظه إذا كان نائماً كما تقول ففي أية غرفة وضعته ؟

- في الغرفة التي نمرتها ١٧ .
فخرج عند ذلك ذاهباً اليها لا يلوي على أحد .

أما المستر بلونت فانه ابتسم بعد انصراف زميله وقـــال : انه بات أشد جنوناً من جميع من لدينا من المجانين .

* * *

وذهب المستر جوهن إلى الغرفة التي يقيم فيهـا مرميس فوجـده لا يزال ساهراً وقد جلس يكتب فوق منضدة فقال :

- أأنت الذي يدعى السير أرثير .
فنظر اليه مرميس دون اكتراث وقال : نعم أنا هو .

- وأنا أدعى جوهن بيل إحدى مديري المستشفى .
- ولكن هذا المستشفى خاص بالمجانين وأنا لست بمجنون .
- وأنا أرى ما تراه يا سيدي .

فبرقت عينا مرميس بأشعة الفرح وقال : أحقاً ما تقول ؟
وكان الحراس واقفين فجعلوا يضحكون لتعودهم سماع مثل هذه الأقوال فقال لهم بلهجة الآمر إذهبوا في شؤونكم فليس لي بكم حاجة .

- ٧ -

فلما انصرف الحارس وبقي وحده مع مرميس قال له : اني أرى يا سيدي انك لست بمجنون .

ــ دون شك .

ـ ومع ذلك فان عائلتك ادخلتك إلى هذا المستشفى فلو كنت مكانك لطلبت إطلاق سراحي عن يد القضاء

ــ انه يوجد في انكلترا بين المجانين من يعرف أن يثبت الجنون وأن عائلتي قد اتخذت احتياطها دون شك .

فضرب جوهن الأرض برجليه مغضباً وقال اني لا أطيق أن أكون شريك المجرمين بهذا الاثم .

فتنهد مرميس وقال : واأسفاه يا سيدي اني لا أجد طريقة للخروج من هنا إلا بالفرار .

فاضطرب جوهن وقال : الفرار إن هذا محال يا سيدي .

ــ لماذا ؟

ــ لأني إن أذنت لك بالفرار أكون مخلاً بواجباتي .

فضحك مرميس وقال : ولكنك معتقد كما أرى اني لست بمجنون .

ـ هذا لا ريب فيه عندي .

ــ أما أنا فاني أعتقد ان حبل المشنوق يجلب السعادة فلا بد لي إذاً من النجاة لأني أحمل هذا الحبل .

ـ أحقيقة أن لديك هذا الحبل ؟

ــ هذا هو .

ثم فتح ثوبه وظهر الحبل ملتفاً على وسطه .

أما جوهن فانه حملق بعينيه وقال : حبذا لو كان هذا الحبل لي فقد كنت أغدو به أغنى الأغنياء .

— كيف ذلك ؟

فقص عليه جوهن عند ذلك خبر الثروة المدفونة في ارلندا وما قاله له ذلك الرجل المشتغل في التنويم ، وهو انه لا يتمكن من إيجاد الثروة المدفونة الا إذا كان له حبل مشنوق .

فقال له مرميس : أأنت واثق من فائدة الحبل ؟

— كما أثق باشعة الشمس ، ألا تتفضل علي يا سيدي باعارتي هذا الحبل ؟

— كلا ، انه لن يفارق وسطي ما زلت في قيد الحياة .

— إذاً بعني إياه .

— إنك لو دفعت لي به مائة الف جنيه لما بعته .

فصاح جوهن صيحة يأس وهم بالانصراف ، غير أن مرميس أوقفه وقال : اصغ يا سيدي فقد يمكن لنا ان نتفق .

فعاد الرجاء إلى قلب المدير وقال له : كيف ذلك ؟

كم راتبك في العام ؟

— الف جنيه .

— انه راتب قليل لا يكاد يكفي بنفقاتك .

— هو ذاك ، ولكني سأستقيل حين أجد الثروة الضائعة .

— ولماذا لا تستقيل الآن ؟

— ذلك لأني لم أجد الثروة .

— وإذا أعطيتك الحبل الذي معي ؟

— أجد الثروة دون شك .

— إذاً لنهرب معاً من هذا المستشفى .

ـ وبعد ذلك ؟

ـ نذهب معاً إلى ارلندا ونبحث عن هذه الثروة فان لم نجدها عدت معك إلى المستشفى .

فتمعن جوهن هنيهة ثم قال : إن ما تقترحه علي محال ، ولكن يوجد طريقة صالحة لبلوغ المراد ، وهي ان الأطباء قرروا أن الأسفار تفيد غالباً في شفاء المجانين وقد التمست الاذن مرات كثيرة بالسفر مع بعض الذين كنت أرجو لهم الشفاء من المجانين فكانوا يأذنون لي .

ـ إذاً ستلتمس هذا الاذن الآن للسفر معي .

ـ هو ذاك .

إنما يجب أن لا تعلم عائلتي بشيء من هذا ، ثم أن الوقت غير متسع لدينا فاننا نسافر غداً .

ما تعني بذلك ؟

اعني انه يوجد في هذا المستشفى مجنون لي معه شأن خاص وأحب أن يصحبنا في هذه الرحلة .

ـ أية فائدة ترجوها ؟

ـ اني اصغيت إلى حديثك ورجائي أن تصغي إلى حديثي

فقال له المدير · قل يا سيدي ما تشاء .

وقد كان معولاً على تضحية كل ما يستطيع تضحيته بشرط أن ينال الحبل

فقال له مرميس انك تعلم يا سيدي المدير ان هذا الحبل الذي معي قد شنق به رجل يدعى توما ، وان توما وهب حبله قبل شنقه إلى بواب كنيسة سانت جورج

ـ نعم أعلم ذلك ، وان البواب قد باعك الحبل .

ولكنه لم يبعني إياه إلا بشرط ، وهو أن أخرج من المستشفى رجلاً منكوداً يدعى اللورد باميلتون .

فظهرت علائم الرعب على وجه المدير وقال : ان ما تطلبه مستحيل .

– لماذا . .

– لأن اللورد وليم حقيقة مجنون .

– لا أنكر ذلك .

– وان الذين أدخلوه إلى هنا من أشد الناس هولاً

– تريد انك لا تتحمل هذه التبعة .

– كلا .

– اني أمهلك فتمعن بالأمر .

– لا فائدة بالتمعن فان ذلك لن يكون . .

– يسوؤني أن أرى منك هذا الاباء فاني تعهدت لبواب الكنيسة أن أخرج هذا الرجل المظلوم من محبسه .

– ولكني ، إن وافقتك فيما تريد ، أخللت بواجباتي ، بل كنت من المجانين .

– شأنك وما تريد غير انك ان لم توافقني لا تنال الحبل .

فجعل العرق البارد ينصب من جبين المدير ، وقد ظهرت عليه علائم اليأس .

فقال له مرميس : لقد حان وقت الرقاد يا سيدي فأذن لي أن أنام وتمعن في الأمر كما قلت لك .

وفي اليوم التالي نزل مرميس إلى الساحة التي يجتمع فيها المجانين وكان قد تنكر حين دخوله الى المستشفى بحيث لم يعد يعرفه أحد فأجال نظر الفاحص بين أولئك المجتمعين ، فرأى رجلاً لا يزال في مقتبـــل الشباب قد اعتذلهم وجلس وحده على مقعد ، وقد حمل رأسه بين يديه وتاه في مهامه التفكير .

فقال مرميس في نفسه : أظن انه الرجل الذي ابحث عنه .

ثم رأى رجلاً آخر قد دنا منه ، فلما رآه الرجل الجالس بش اليه وبرقت أسرة وجهه .

وتبودلت التحية بين الاثنين فسمع مرميس احدهما دعا رفيقه باسم إدوار، والآخر حياه بلقب ميلورد فلم يعد لديه شك .

وجلس الرجلان يتحدثان بصوت منخفض .

فدنا منهما مرميس فلما رأياه يدنو منهما اجفلا وحاولا ان يذهبا .

غير ان مرميس اسرع اليهما وقـال لأحدهما : أسألك المعـذرة يا حضرة الميلورد .

فارتعش اللورد وقال : انك مخطىء يا سيدي ، فما انا بلورد ، بل انني ادعى ولتر بريس ليس الا .

ـ انت تدعى الآن ولتر بريس ، كما كنت تدعى من قبل اللورد وليم باميلتون .

وكان مرميس يكلمه بلهجة تشف على الاحترام الشديد فقال له اللورد : من انت ايها الرجل الذي يعرفني .

ـ إنني صديق يا سيدي اللورد .

فأجابه بلهجة القانط : ليس لي اصدقاء .

ـ انك مخطىء يا سيدي اللورد فإن توما قد أرسلني .

ـ ان توما قد مات .

ـ هو ذا ، ولكنه اخبرني بكل شيء قبل موته .

فخفق قلب اللورد حين تذكر اسم توما وقال : اين اجتمعت بتوما ؟

ـ إني لم اره ولكني رأيت إمرأته بيتزي .

ـ اعرفت بيتزي ؟

ـ عرفتها يا سيدي قبيل وفاتها .

فصاح اللورد وادوار صيحة يأس عند مفاجأتها بهـذا الخبر وقال ادوار : هوذا آخر شعاع من اشعة رجائنا قد انطفأ .

فأجابه مرميس إنك مخطيء باسترسالك إلى اليأس فان بيتزي قد تحصلت قبل موتها على الأوراق التي كانت مخبوءة في منزلك .

فنظر ادوار بحذر وقال . كيف عرفت هذا ؟

ـ إن الأوراق عندي ، وقد عرفت منها كل حكاية اللوردوليم .

فقال له اللورد : قل لنا من انت ؟

ـ اني يا سيدي رجل دخل الى هذا المستشفى لاخراجك منه

فدهش اللورد وقال تخرجني انا ؟

ـ نعم يا سيدي .

فأجابه اللورد بصوت مختنق . ان الهزء بالتعساء الى هذا الحد منكر من اشد المنكرات .

فقال مرميس : اني لست من الهازئين ، يا سيدي ، كما انك لست من المجانين . .

ـ دون ريب .

ـ وهذا رفيقك ادوار دخل الى المستشفى مجنوناً ثم شفي من جنونه .

ـ هو ما تقول .

ـ اذاً احدقا بي اتجدان بين ملامحي ما يدل على الجنون ؟

– كلا ولكنك مع ذلك في مستشفى المجانين .
– إني دخلت اليه بملء خاطري خصيصاً لأجلك .
– لأجلي أنا ؟
– نعم إني أتيت لأنقذك .
– ولكن ...
فقطع مرميس حديثه قائلاً : بل لأجمعك بزوجتك وولديك .

فلم يكد هذا اللورد المنكود يسمع ذكر زوجته وولديه حتى هاجت بـه عاطفة الحنان وسالت دموعه .

وتابع حديثه قائلاً : لا تبكي يا سيدي اللورد فان زوجتك وولديك في مأمن من كل طارىء .

– أحق ما تقول ... أتقسم لي ؟
– إني أقسم لك يا سيدي انهم في أتم هناء .
فرفع اللورد عينيه الى السماء وشكر الله .
– وستكون قريباً بينهم .
فاختلج اللورد وقال : أظن أني من الحالمين .
– بل هي الحقيقة يا سيـــدي اللورد ، فأرجوك أن تخفف روعك ، وتصغي إلي .
– ولكن قل لي من أنت ؟
– ألم تسمع يا سيدي باسم الرجل العبوس .
– كلا .

فقال ادوار : أنا أعرفــه ، وأعرف ان الأسقف بـاترس تورن لم يكن يخاف إلاه .

– إذاً فاعلما ان الرجل العبوس لقي توما في السجن ، ووعده ان ينقـذ اللورد وليم

فقال اللورد : رباه أهذا من الممكنات ؟

- إنه لا يريد ان ينقذك فقط ، بل هو يريد ان يرجع اليك ثروتك ولقبك .

فقال له ادوار : أحق ما تقول يا سيدي ، ان الرجل العبوس يتولى أمرنا ؟

-- أقسم لكما اني صادق فيما أقول وانا آت من قبله .

فالتفت ادوار إلى اللورد وقال له : إذاً ، أبشرك يا سيدي بالفوز ، فان هذا الرجل العبوس ، لم يقدم على شيء ، إلا وكان فيه من الفائزين .

- ٩ -

ورجع مرميس الى الحديث فقال : إن الرجل العبوس هو الذي أرسلني .

وكرر اللورد السؤال قائلاً : من أنت ؟

– إن اسمي لا يفيدك شيئاً يا سيدي ، فاكتف ان تعلم إني أخضع كل الخضوع لهذا الرجل الذي يدعوه الانكليز الرجل العبوس ، ونسميه نحن الفرنسيين باسم آخر .

– إذاً هو الرجل العبوس الذي أرسلك ؟

– نعم يا سيدي وإنما أرسلني كي أبلغك ان تكون على استعداد للخروج من هنا .

فهز وليم رأسه وقال : لقد حاول كثيرون الخروج من هذا المستشفى بل بالحري من هذا السجن فما وجدوا لذلك سبيلاً .

ـ ولكننا نحن نخرج منه .

ـ كيف ؟

ـ نخرج من الباب الكبير وفي طالعة النهار .

ـ بأية طريقة تخرج ؟

ـ إني لا أستطيع اليوم ان أزيد حرفاً على الذي قلته ، كي لا أخالف الرجل العبوس .

وكان ادوار لا يزال مشككاً في أقواله فسأل: ولكن من يضمن لنا ياسيدي انك آت من قبل الرجل العبوس ؟

ـ أتريدون برهاناً على ذلك ؟

فقال اللورد : نعم وبعد هذا البرهان نمتثل لك في كل ما تريد .

فمد يده الى جيبه وأخرج خاتماً وأراه لادوار . فلما رآه عرفه وقال : إن هذا خاتمي .

ـ نعم وهو ذلك الخاتم الذي أعطيته الى بيتزي اليس كذلك ؟

ـ نعم وأنا واثق بك الآن كل الثقة .

أما اللورد فانه قال له : ومن الذي يضمن لنا ان بيتزي لم تكن أسيري في يدي أعدائي ؟

ـ إذا صح ما تقول ، فقد وجب ايضاً ان تكون الأوراق بأيدي أعدائك وهي الأوراق التي ترجع لك ثروتك المسلوبة وأية فائدة لهم ان يخرجوك من سجنك ؟

فلم يستطع اللورد ان يدحض هذا البرهان فمد يده اليه قائلاً : إني واثق بك وأنا منذ الآن أفعل كل ما تريد .

وعند ذلك أقبل المدير جوهن بيل ، فقال لهما مرميس : إني ذاهب لأحيي المدير .

ـ إحذر منه فهو شديد العنف والقسوة ، وقد حاولت مرة ان أحكي له

حكايتي فغضب علي وأمر ان يضعوني في السجن .

وقال ادوار : وأنا شرحت له شأني فأمر بجلدي .

فضحك مرميس وقال : أما انا فسوف ترون انه لا يحدث لي شيء من ذلك .

ثم تركهما وسار الى المدير .

كان جوهن يسير مطرق الرأس مفكراً مهموماً ، فلما رأى مرميس يحييه إبتسم له وقال : أهذا انت يا سير أرثر ؟

— نعم يا سيدي المدير فهل تمعنت فيما اقترحته عليك البارحة ؟

فظهرت علائم الغضب عليه وقال: إني سأؤدب بواب الكنيسة شر تأديب فقد مكر بي .

— إنه لم يمكر بك ، ولكنك دفعت خمسة آلاف جنيه ودفعت له أنا عشرة آلاف فباعني إياه ، فأين هو وجه المكر ؟ إن كل إنسان في مكانه يفعل فعله ، وعندي انه خير لك ان تتمعن فيما اقترحتــه، عليك بدلاً من أن تغضب .

فتنهد وقال : واأسفاه ان هذا محال .

— لماذا ؟

فخفض جوهن صوته وقال : أراك رجلاً شريفاً يا سيدي لا تخل بما تتعهد به فهل تتعهد لي ان لا تبوح بما سأقوله لك ؟

— إني اقسم بشرفي على الكتمان .

— إذاً ، إعلم ان هذا الشخص الذي تريد إخراجه من المستشفى ، هو اللورد وليم باميلتون حقيقة ، وما هو بمجنون . ولكنه مقضي عليه ان يموت في هذا السجن .

— من قضي عليه هذا القضاء ؟

— جمعية البعثات الانجليكانية . وأنت تعلم ما لها من النفوذ بلا ريب .

– نعم إنها تشبه الجزويت في فرنسا . الملك تخشى هذه الطائفة ؟
– أخافها كما أخاف الموت .

فضحك مرميس وقال : إذا كان هذا الحائل بينك وبين الحبل ، فهو لك .

– ماذا تعني بذلك ؟

وقد اتقدت عيناه ببارق الأمل ، فقال له مرميس : أعطيني معدات الكتابة .

– وبعد ذلك ؟
– أكتب كتاباً وأعطيك إياه فترسله إلى صاحبه .
– ولكن ...
– هذا كل الذي أستطيع ان أقوله وسوف ترى النتيجة .
– إذاً تعال إلى مكتبي .

ثم تأبط ذراعه دون كلفة وسار وإياه .

– ١٠ –

وقد دهش الجانين دهشاً عظيماً ، حين رأوا مرميس يسير مع المدير متأبطاً ذراعه .

وأما مرميس فانه دخل برفقة المدير الى المكتب . ثم أخذ ورقة وكتب فيها سطور كثيرة ، والمدير واقف وراءه ينظر الى ما يكتب ، ولا يفهم شيئاً

فسأل : ما هذه اللغة الغريبة التي تكتب بها الآن ؟
– إنهم يسمونها اللغة الجافانية .

– ولكن إلى من تكتب ؟
– سوف ترى .
ولما فرغ من الكتابة أخذ غلافاً وكتب فوقه هذا العنوان :
« بتر نوستر ١٧ المسيو بيردث سكرتير المحامي كوكلام » .

ثم وضع الكتاب في طي الغلاف وأعطاه للمدير قائلاً : إذا وصل هذا الكتاب الى صاحبه فرجائي وطيد اننا نسافر غداً .

– أنصحب معنا اللورد وليم أم نبقيه هنا ؟
– بل نأخذه هو وادوار كوركي أيضاً .
– ولكن أية فائدة من إخراج هذا الرجل أيضاً ؟

– هذا الذي أريده ، فإما ان تقبل فتأخذ الحبل ، او ترفض فيبقى الحبل لي .

فاضطرب المدير في أمره وقال : ولكن أية علاقة بين سكرتير المحامي كوكلام وبين شركات البعثات الانجليكانية ؟

– سوف ترى في هذا المساء .
ثم تركه وانصرف .

أما المدير فقد كان عرضة للهياج الشديد ، فكان يسير ذهاباً وإياباً بخطوات غير متزنة ويقول : الحبل .. الحبل .. لا بد لي من نيل الحبل .

وبعد ان مضت ساعة على إرسال الكتاب الذي كتبه مرميس إلى روكامبول ، فتح باب غرفة المدير جوهن بيل فجأة ، ودخل اليه المدير الثاني زميله ، وهو مضطرب فقال إني لدي الآن شأن خطير يجب ان أباحثك فيه .

– ما عسى ان يكون هذا الشأن ؟
– تعلم أنه لدينا سجيناً يجب علينا ان نحرص عليه حرصاً خاصاً .
– لدينا كثيرون من أمثاله .

– أنا أعني ولتر بريس .
– بل تعني اللورد وليم باميلتون .
– سمه كما تشاء ، فان ناظر الحقانية أصدر الينا أمراً مشدداً بأن لا ندع أحداً يراه من الخارج . فإذا أهملنا شيئاً من هذه الأوامر ، قضي علينا بالعزل .
– وبعد ذلك ؟
– أقبلت الآن إمرأة تلح في مقابلة اللورد وليم أتعلم من هي هذه المرأة ؟ إنها اللادي باميلتون امرأة أخي اللورد وليم .
فذهل جوهن بيل وقال : أهذا ممكن وبماذا أجبتها ؟
– اني أبيت ان آذن لها بمقابلته .
– ولكن هذه المرأة وزوجها هما اللذان أدخلا اللورد وليم الى هذا المستشفى فلا أجد مانعاً من إدخالها اليه .
– ولكني أحببت ان لا ابت في شأنها قبل ان استشيرك .
وبينما المديران يفكران دخل اليهما احد الحراس يحمل رقعة زيارة الأسقف بترس تورين .
فاضطرب جوهن وقال : ماذا عسى ان يريد منا ؟
وكان كلاهما يعرفان منزلة هذا الأسقف ، فأسرعا الى استقباله بملء الاحترام
أما الأسقف فانه قال لهما بعد ان جلس بينهما : اني أرسلت اليكما منذ حين امراً مشدداً من ناظر العدلية يقضي بمراقبة ولتر بريس
ثم نظر نظرة خاصة الى جوهن بيل وقال : إن هذا الرجل يدعي انه اللورد وليم باميلتون ، مع ان هذا اللورد مات كما يعلم الجميع . ولكن هذا الشقي يحاول مقاضاة اسرة اللورد افندال . وقد أرسل مذكرة الى اللادي باميلتون ، لا أعلم كيف تمكن من إرسالها . فذعرت اللادي لما رأت فيها

من الانذار . وفوق ذلك ، فقد اثرت عليها هذه المذكرة حتى اوشكت ان تزعزع اعتقادها .

ولا يبعد ان تزور هذا الرجل وتقف منه على حقيقة ما قرأته في مذكرته من المختلقات الغريبة .

فقال بلونت : ولكنها اتت يا سيدي .

فتظاهر الأسقف بالاضطراب وقال : احق ما تقول ؟

– نعم يا سيدي فقد اتت من نصف ساعة .

– وهل اجتمعت به ؟

– كلا فقد حلت دون قصدها لأن الأوامر كانت قد وردت إلي ، ولكنها سوف ترجع غداً .

– إحذر ان تراه .

– بل يصعب علي ان امنعها بعد الآن .

– كيف ذلك ؟

– انها سترجع الي بأمر من ناظر العدلية .

فقطب الأسقف عند ذلك حاجبيه وقال : انها تستطيع الحصول على الأمر ولكن كيف العمل الا يوجد طريقة تمنع اجتماعهما ؟

فقال جوهن عند ذلك : يوجد طريقة صالحة يا سيدي وهي ان آخذ هذا الرجل .

– الى اين ؟

– ان الأسفار تفيد في شفاء المجانين بعض الاحيان ، وقد اعتدت ان اسافر ببعضهم كل عام ، وسيكون هـــذا الشخص بين اللذين اسافر بهم من المجانين .

– وتسافر غداً ؟

– بل اسافر الليلة اذا شئت .

إذاً ليكن سفرك في المساء .

فاتقدت عينا جوهن ببارق السرور وذكر الحبل وانه سيناله دون ان تقع عليه تبعة فرار اللورد وليم .

غير انه حاول التفصيل نهائياً فقال للاسقف : ولكني اجد بعض الخطر في تحقيق ذاك القصد .

– اي خطر تعني ؟

– اني سأسافر بالمجانين الى ارلندا وليس لي هناك سلطة عليهم كما لي في انكلترا .

– ماذا تعني ؟

– ان ولتر بريس هذا رجل شديد العزم قوي البنية ثابت الارادة ، فقد يتمكن هناك من الفرار واكون انا المسؤول عنه .

– لا تخف تبعة فراره وفوق ذلك فاني اؤثر ان يهرب على ان يجتمع باللادي باميلتون فلا تخف وسافر به وبمن شئت في المساء .

وبعد هنيهة خرج الأسقف فأوصله المدير بلونت الى الباب فابتسم الاسقف وقال مسكين رفيقك فلم يطل وقت سقوطه في الفخ .

– ذلك لأن الرجل الذي ارسلته الينا كان من الماهرين النابغين .

· يظهر انه كما تقول .

كيف تقول ذلك ألم تعرفه يا سيدي ؟

– كلا

– إذاً من الذي ارسله الى هنا ؟

– رجل عازم اعتمد عليه في اعمالي .

– . إذاً لم تره ؟

كيف اكون رأيته وقد قلت لك اني لا اعرفه

– اتريد ان تراه ؟

– لا فائدة في ذلك لأن الوقت غير فسيح لدي الآن .
ثم انصرف وهو فرح القلب بما رآه من حسن النتائج .

– ١١ –

وبعد انذهب الاسقف اسرع جوهن بيل الى مرميس والفرح يملأ قلبه فقال: لدي نبأ عظيم سأرويه لك .

– ما هو ؟

– هو انه لم يعد يبقى لدينا حائل دون السفر ولا شيء يمنعني ان اصحب معي ولتر بريس .

– تريد ان تقول اللورد وليم .

– نعم .

– بقي سؤال القيه اليك ، وهو اني احب ان أقف على رأيك بهذا الرجل .

– رأيي اني واثق من صدق حكايته وانه من العار ان تحدث هذه الفظائع الشائنة في بلاد الحرية والعدل والدستور .

– ولكنك كنت آلة في يد تلك الأسرة ، التي ظلمت ذلك اللورد النبيل .

– لست أنا يا سيدي الذي أخدمها في أغراضها السافلة بل هو ناظر العدلية ولا بد لي من الخضوع له مكرهاً وأسفاه .

– إذاً ناظر العدلية الذي أذن لك ان تصحب معك اللورد وليم .

– بل الأسقف بترس تون ولكنهما واحد .

ففتح مرميس سترته بغير اعتناء فرأى جوهن الحبل مشدود في وسطه فزاد

هياجه وقال : أتعلم اننا مسافرون في هذه الليلة بقطار ليفربول ؟
فأجاب ببرود : أحق ما تقول ؟
-- نعم وانما اخترت طريق ليفربول لأنها أقرب الطرق الى ارلندا .
-- وأنا مستعد الآن للسفر وإياكم .

فلما فرغ جوهن من قص النبأ المفرح عاد الى أماني نفسه فقال : إني اثق بما قاله لي المنوم على الحبل كما اثق بأشعة الشمس .

فابتسم مرميس وقال : إبحث عن غير هذه الاستعارة في التعبير عن ثقتك فان اشعة الشمس يندر وجودها في هذه البلاد .

-- لقد أصبت وإنما أردت ان أقول ان ثقتي به شديدة فسأجد كنوز أبائي بفضل ذاك الحبل .
-- وانا أعتقد اعتقادك .
-- بل انني سأجد ايضاً ، دون شك ، مع تلك الكنوز البراءة المثبتة إنني من اللوردية . فيكون لي الحق ، عند ذلك ، بالعضوية في المجلس الأعلى ، وادافع عند ذلك عن ارلندا خير دفاع ، وأحمل على ناظر العدلية حملات منكرة .

-- إذاً لقد عولت على الأخذ بناصر اللورد وليم .
-- دون شك .
فعض مرميس شفتيه كي لا يضحك وقال في نفسه : لقد أخطأ روكامبول بتخوفه من ان لا نستطيع ضم هذا الرجل الينا ، في حين انه يخدمنا أكثر مما نخدم أنفسنا .

وعاد جوهن الى الحديث فقال إذاً ، لقد تم الاتفاق على ان نسافر في هذه الليلة .
-- دون شك .
فحك جوهن اذنه وقال :

ـ لم يعد يشغلني غير شيء واحد .

ـ ما هو ؟

ـ كيف نحتال على اللورد وليم ، فاني أخشى ان لا يوافقنا على السفر .

ـ انا اتعهد به .

ـ وادوار ألا تزال مصراً على إخراجه ايضاً ؟

ـ لست انا الذي أصر على ذلك ، فليس لي به أقل شأن . ولكن هو بواب الكنيسة صاحب الحبل ، فقد جعل ذاك الشرط من أخص شروطه ، حين باعني إياه .

ـ إذاً سنصحبه معنا . بل اني أفعل كل الذي تريده ، من أجل ذاك الحبل .

وقد غلب السرور فجعل يرقص في الغرفة فلم يوقفه عن الرقص غير سماعه خطوات احد الحراس .

فقال مرميس في نفسه :

ـ ما اليق هذا الرجل لادارةمستشفيات الجنون فانه أشد جنوناً من المجانين الذين يتولى شفاءهم .

وعند ذلك طرق الباب ، ففتحه جوهن فرأى احد الحراس يحمل بيده رقعة زيارة اللورد ويلموت اي شوكنج .

فقال لمرميس : إني أخشى ان يخطر لعمك أن يخرجك الآن من المستشفى .

ـ وإذا أخرجني منه ؟

ـ إذا أخرجك منه فكيف تسافر معنا الليلة ؟

ـ بل أسافر ، فانت تجدني في الساعة الثامنة ، أنتظرك في محطة شارع كروس .

ـ أتعدني بذلك ؟
ـ بل أقسم لك فاطمئن

- ١٢ -

وكان شوكنج ينتظر في قاعة الاستقبال ، فلما دخل اليـــه مرميس رأى علائم الاضطراب بادية في وجهـه ، فضحك وقال : لم أكن أتوقـع زيارتك .

ـ وأنا لم يكن في نيتي الحضور .

ثم نظر نظرة الفاحص الى ما حواليه وقال : العلنـا وحدنا ، فلا يسمع حديثنا أحد ؟

ـ نعم فقل ماذا حدث ؟

ـ لا أعلم شيئاً فقد فعلت امس كل ما أمرتني ان افعله . ولكني اقول لك اني أعمل عمل الآلة وانقل ما تلقيه الي . فشأني معك شأن الببغاء ولكني لا افهم شيئاً من كل الذي يحدث

ـ ذلك لأنه لا يجب ان تعلم شيئاً فقل الآن ماذا حدث .

ـ حدث شيء بسيط بالظاهر ، وهو اني كنت اتنزه في ستراند فشعرت بيـد وضعت على كتفي ، فرأيت رجـلا لم أكن رأيته قبل هذه المرة .

ـ اذكر لي ملامح الرجل وشكله .

ـ إنه اشقر يضع على عينيه نظارة زرقاء ويحمل محفظة اوراق ، وهو من رجال القضاء دون شك .

فابتسم مرميس اذ علم ان ذاك الرجل هو روكامبول وقال له : أأنت واثق

انك لم تر الرجل قبل الآن ؟

ـ كل الوثوق فلماذا تسألني هذا السؤال ؟

ـ لأني ظننت انك قد تكون رأيت الرجل ، فاني عرفت من ذكرته لي من شكله .

ـ من هو ؟

ـ هو سكرتير المحامي كوكلام ، فماذا قال لك ؟

ـ قال لي كلمة دهشت لها فانه ناداني بلقب لورد مع اني كنت لابساثيابي العادية فنظرت اليه منذهلاً وقلت له : اتهزأ بي ايها الرجل فاني لست لورداً بل ان اسمي شوكنج !

ـ هو ذاك ولكنك تدعى ايضاً اللورد ويلموت .

ـ كيف عرفت ذلك ؟

ـ بل انك سجنت امس ابن اخيك السير ارثر .

ـ هذا اكيد ولكن كيف عرفت ذلك ؟

ـ ذلك لا يفيدك ولكني احب ان اعهد اليك برسالة .

ـ لمن أللسير ارثر .

ـ للسير ارثر او لمرميس ، فان كليهما واحد . ارأيت كيف اني واقف على الحقيقة .

فقال مرميس : وهل اعطاك الرسالة ؟

ـ نعم وعهد الي ان اسرع في ايصالها اليك وهذه هي .

فأخذها مرميس وكانت مكتوبة باللغة الجافانية فقرأ ما يأتي :

« ارسلت الى السجن امرأة من اتباعي بصفة انها اللادي باميلتون فذعر الاسقف لاعتقاده انها اللادي باميلتون حقيقة ، فأذن لجوهن بيل بالسفر مع اللورد وليم .

« فاذا سافرتم هذا المساء فاشتر من محطة شرنج كروس جريدة البال مال

غازيت من بائع الكتب المقيم في المحطة فانك تجد في الجريدة رسالة وفي الرسالة التعليمات التي يجب ان تجري عليها » .

وكان شوكنج يذوب شوقاً لمعرفة ما تضمنته تلك الرسالة .

ولكن مرميس لم يجد فائدة من ايقافه على مضمونها ، فطواها ووضعها في جيبه .

فقال له شوكنج : اتأذن ان اسألك سؤالاً .

ـ اني اجيبك عنه ان استطعت فسل .

ـ كيف ان ذاك الرجل ، الذي لم أره في حياتي ، عهد إلي بتلك المهمة .

ـ لان هذا الرجل يعرفك كما تعرفه انت ايضاً .

ـ ولكني قلت لك ان هذه اول مرة رأيته فيها .

ـ وانا اقول لك عكس ما تقول فقد عرفته حق العرفان .

فارتعش شوكنج ، اما مرميس فانه ابتسم وقال له : بل انك تعرفه ، وعشت معه زمناً طويلاً .

فاضطرب شوكنج وقال : كلا ، ان هذا محال ... كلا ، لا يمكن ان يكون ...

وقد كاد يذكر اسم روكامبول فأسكته مرميس وقال له : إذهب الآن من حيث اتيت .

ـ متى يجب ان اعود .

ـ لا تعد الي بعد الآن فاني سأخرج من بدلام في المساء .

ـ الى اين تذهب .

ـ الى محطة لفربول مع اللورد وليم وادوار .

فزادت دهشة شوكنج وقال : وبعد ذلك !

ـ نسافر إلى لفربول ومنها الى ارلندا .

ـ وانا وفاندا ماذا يجب ان نصنع .

ـ يجب ان تبقيا في لندرا الى ان اكتب لكما اذا وجبت الكتابة .

فصغرت نفس شوكنج في عينيه وكبرت عليه تلك الاسرار فقال : ارى ان خدمتكم باتت مزعجة بعد التكتم الغريب

فلم تظهر على وجه مرميس علامات الاستياء لهذا التقريع بل قال له : اني إذا كنت اتكتم ايها الصديق ، ذلك لاني اجهل تلك الاسرار كما تجهلها انت ، واني أتلقى الاوامر غامضة كما تتلقاها .

فصاح شوكنج صيحة فرح وقال : لقد عرفت الآن من هو ذاك الرجل الذي أرسلني اليك .

فأسكته مرميس بجفاء ، وأمره ان ينصرف لفوره .

فانصرف شوكنج ورجع مرميس الى اللورد وليم وادوار ، واخبرهما ان السفر سيكون في المساء .

وفي الساعة السابعة والنصف كانت مركبة ضخمة واقفة على باب المستشفى وقد نقلت امتعة جوهن بيل ، ثم خرج ذاك المدير من المستشفى يتبعه اللورد وليم وادوار ومرميس .

وكان المدير الثاني المسيو بلونت خرج لوداع زميله ، فتعانقا وكلاهما يفيض وجهه بشراً ، هذا لانطلاق يده في إدارة المستشفى بعد سفر زميله ، وذاك لاعتقاده انه سيظفر بملايين آبائه بعد ان ظفر بضالته المنشودة وهي حبل المشنوق .

ثم سارت بهم المركبة الى محطة ليفربول ، حتى وصلت اليها .

وبينما كانوا يشتغلون بنقل الامتعة من المركبة الى القطار ، ذهب مرميس الى مكتبة المحطة كي يشتري الجريدة كما اوصاه روكامبول . فرأى صاحبها جالساً حول منضدة ، وعلى عينيه نظارات سوداء ، وقد وضع رأسه بين يديه وهو تائه في مهامه التفكير .

فأيقظه مرميس من هواجسه وقال . العله بقي لديك يا سيدي نسخة من جريدة البال مال غازيت ؟

فارتعش الرجل وازاح النظارة عن عينيه فلما رآه مرميس صاح صيحة دهش وقال : ميلون ؟

فأجابه ذلك الشيخ خادم روكامبول الأمين : نعم انا هو كما ترى اذ لا ازال في قيد الحياة .

ثم اعاد النظارة الى عينيه .

- ١٣ -

وعند ذلك اعطاه ميلون الجريدة ونظر الى الساعة وقال : لا يزال لدينا نصف ساعة لسفر القطار فلنتحدث .

- قل ايها الصديق ..
- لقد علمت دون شك انه لم يكتب رسالة في تلك الجريدة .
- كيف ذلك الا يوجد رسالة فيها ؟
- كلا .
- اذن اين اجد تلك التعليمات ؟
- في الجريدة .
- كيف ذاك .
- انك تبحث في صفحاتها فتجد بين سطورها كلمات متفرقة وضع تحتها خطوط حمراء فان جمعت هذه الكلمات ورتبتها حسب ورودها مبتدئاً من اول الجريدة تألف منها رسالة تجد فيها التعليمات التي يجب ان تسير عليها.
- لقد فهمت .

ـ وقد اتخذ الرئيس هذا الاحتياط وهو يخشى ان تصلوا الى المحطة حين سفر القطار فلا استطيع مباحثتك ، ولكن الوقت لا يزال فسيحاً لدينا فاسمع خلاصة التعليمات .

انك ستبلغ لفربول غداً صباحاً فتجد هناك باخرة ستسافر قبل جميع البواخر الراسية الى دبلين ، واسم الباخرة كريمي وربانها من اصحابنا .

ـ اذاً سنسافر الى ارلندا .

ـ كلا بل تذهبون الى جزيرة مان .

ـ وهناك ما نصنع ؟

ـ اني لا استطيع ان اقول لك كل شيء الآن ، فاني ارى جوهن بيل يدنو منا ، ولكني اخبرك انه يوجد في الجزيرة امرأة تشتغل بالتنويم

ـ ايجب ان تذهب اليها ؟

ـ نعم ، وهي تخبركم اين تجدون الكنوز التي يبحث عنها جوهن بيل.

ـ ولكننا غير ذاهبين إلى ارلندا كما تقول .

ـ كفى فانك تعلم البقية من الجريدة .

وعند ذلك وصل اليهما جوهن بيل ، فدفع مرميس ثمن الجريدة ووضعها في جيبه .

ثم تأبط ذراع جوهن بيل وقال له وهو يسير : انني حادثت صاحب هذه المكتبة فأخبرني بأمر لم نكن نعرفه .

ـ ما هو !

ـ أن الباخرة التي سنسافر عليها لا بد لها أن ترسو في جزيرة مان مثل جميع البواخر المسافرة إلى ارلندا . وانه يوجد في هذه الجزيرة امرأة اشتهرت شهرة غريبة في عجائب التنويم .

ـ أي فائدة بقيت لنا من المنومين بعد أن حصلت على الحبل !

ـ ولكنها تعيننا على أيجاد كنوزك فان شهرتها بعيدة ويقال انها وجدت

كثيراً من الكنوز المدفونة .

ـ أحق ما تقول !

ـ هذا ما قاله لي بائع الكتب .

فاطرق جوهن مفكراً ولم ينتبه من هواجسه إلا حين سمع الجرس المؤذن بسفر القطار اليه مع رفاقه .

وفي الساعة السابعة من صباح اليوم التالي وصلوا إلى ادمبرج فوجدوا أن الباخرة كريمي ترفع مراسيها في الساعة التاسعة وأنها مسافرة قبل جميع البواخر الراسية في الميناء ، فاسرعوا اليها جميعهم .

ولما أقلعت السفينة أخذ مرميس الجريـــدة وفحص ما فيها حتى إذا حل رموزها ذهب يبحث عن ربان السفينة .

أما جوهن بيل فانه كان يحلم بسعادته المقبلة ، وقد اختلى بغرفتـه وجعل يناجي نفسه بتلك الكنوز .

ولنعد الآن الى الأسقف بترس تون فانه بعد أن خرج من مستشفى بدلام ذهب تواً الى مكتب المحامي كوكلام فلم يجده فيه بل وجدسكرتيره بليدت أي روكامبول .

فاستقبله روكامبول مبتسماً وقال له : اني أعلم ما تريد أن تقوله لي .

ـ ما تعلم ..

ـ ان اللادي باميلتون خرجت الى مستشفى بدلام .

فعجب الأسقف وقال : أعرفت هذا ..

ـ بل عرفت كل شيء فانها طلبت مقابلة اللورد وليم ، ولكن المديرين أبيا أن يأذنا لها بمقابلته .

ـ هو ما تقول .

ـ وان اللادي عزمت على العودة غداً ، ولكنها لا تجده ، فان جوهن بل ما فر به هذا المساء .

ـ اننا نجونا منه والحمد لله .

ـ ولكنك تعلم أن هذا اللورد سليم العقل وأن المجنون هو ذلك المدير الذي يصحبه .

ـ أعلم ذلك يقيناً فما تريد به ..

ـ أريد أن جنون المدير يسهل فرار اللورد .

ـ ليفر الى أين شاء بشرط أن لا يعود الى ارلندا .

ـ ولكنه اذا ما تمكن من الفرار ، فلا شك أن أول خاطر يخطر له العودة اليها .

ورأى روكامبول ان الأسقف قد قطب حاجبيه فقال له : ولكني قد اتخذت الاحتياطات وأعطيت التعليمات اللازمة لذلك الرجل الذي يمثل دور السير ارثير .

– الملك رأيته اليوم ؟

– كلا ، بل أرسلت اليه تعليماتي .

فاطمأن بال الأسقف وقال له : لندع الآن اللورد وليم وجوهن بيل، ولنتحدث بأمر آخر ، فإن اللادي باميلتون قد ذهبت إلى بدلام ، وفي ذلك دليل على انها تريد الاتفاق معه وتأبى أن تدفع لي .

– دون شك ، ولكني أستطيع إكراهها على الدفع بالمقاضاة .

– كم ينبغي لذلك من الزمن ؟

– إن المحامي العادي لا يستطيع إنجاز هذه المهمة قبل عامين ، أما أنا فاني أتمها بمدة ثلاثة أشهر .

أتعدني بذلك ؟

فبرقت أسرة وجهه ثم عاد إلى التقطيب فقال : اني إذاً أعتمد عليك كل الاعتماد ، فاني مسافر إلى فرنسا حيث أقيم فيها بضعة أيام .

– اتأذن لي يا سيدي ، بسؤالك عن السبب الذي يدعوك إلى زيارة فرنسا ؟

– إني أحاول الوقوف على أثر رجل لا أخشى سواه في هذا الوجود وهو الرجل العبوس فانه الخصم الوحيد القوي الذي لقيته في حياتي .

– أتظن أنه سافر إلى فرنسا ؟

– نعم ، فقد أكد لي ذلك أحد رجال بوليسي السري ولي به ملء الثقة .

– إذاً سافر يا سيدي ، وأنا أشرع بالحصول على إرث اللورد افندال .

وعند ذلك ودعه وانصرف فابتسم روكامبول وقال : إنك لم تظفر به أيها الأبله وقد ظفر بك .

أما الأسقف فانه ركب مركبته وأمر السائق أن يسير به إلى المنزل
ولما وصلت به المركبة إلى اكسفورد تقابلت مع مركبة أخرى ، فسمع الأسقف صوتاً يناديه ، فعرف أنه السير ارشيبالد والد اللادي باميلتون

أما السير أرشيبالد فانه نزل من مركبته وأسرع إلى الأسقف فقال له بعد التحية : إلى أين أنت ذاهب يا سيدي ؟

ـ إني عائد إلى منزلي .

ـ أرجو أن تأذن لي بمرافقتك ، فان لدي أموراً كثيرة أحب أن أحدثك عنها .

ثم صعد إلى المركبة فجلس بجانبه وأمر السائق ان يسير .

ودار بين الاثنين الحديث الآتي :

قال السير أرشيبالد : إني عائد يا سيدي من إيكوسيا فاني رافقت ابنتي اللادي باميلتون اليها .

فذهل الأسقف وقال : أنت ذهبت بابنتك اللادي إلى إيكوسيا ؟

ـ نعم يا سيدي الأسقف ..

ـ متى سافرتما اليها ؟

ـ منذ خمسة أيام .

ـ ومتى عدت منها ؟

ـ اليوم .

ـ وإبنتك أعادت معك ؟

ـ كلا ، بل بقيت هناك .

فنظر اليه الأسقف نظرة إنكار وقال : أراك تجرؤ على الهزء بي .

فاهتز السير أرشيبالد لكلام الأسقف وقال : كيف خطر لك اني أهزأ بك ولما هذا الهزء ؟

ـ لا أعلم ، ولكني أثبت ما قلته فان اللادي باميلتون ليست في إيكوسيا

كما تقول بل في لندرا .

ــ إنك مخطىء يا سيدي الأسقف .

ــ كلا ، بل اني أثبت لك ذلك بالبرهان .

ــ إذا كان ذلك فأنت الذي تهزأ بي يا سيدي ولست أنا فاني أعيد عليك ما قلته فان اللادي باميلتون بعيدة مائة مرحلة عن ارلندا .

فهز الأسقف كتفيه وقال : ارى يا سيدي انه يجدر بك أن تكلمني بجلاء فان الجلاء اصلح في هذه الشؤون .

ــ قل يا سيدي فاني مصغ اليك .

ــ إنك وابنتك تعلمان يقيناً اني أنا الذي أنقذتكم من ولتر بريس .

ــ نحن شاكرون لك هذا الصنيع .

ــ ثم انك تعلم ان هذه الجمعية العظيمة التي أتولى رئاستها العليا لا تخدم الناس لمجرد حب الله ، وأن اللورد أفندال تعهد لي كتابة بمبلغ من تلك الثروة التي حفظتها له .

ــ نحن مستعدون لدفع ما تعهد به اللورد .

ــ أحق ما تقول ؟

ــ كل الحق يا سيدي فانك تعلم اني من كبار الأغنياء واني لم اطمع بمال اللورد حين صاهرته ، بل بجاهه .

ــ إذاً أنت عازم على أن تدفع لي تلك المبالغ الجسيمة التي تعهد لي اللورد أفندال بدفعها ؟

ــ دون شك .

فانذهل الأسقف لما رآه من التناقض .

ثم أطرق رأسه هنيهة وقال : إذاً قل لي لماذا أرادت اللادي باميلتون مقابلة ولتر بريس ، أي اللورد وليم ؟

ــ لا أعلم أنها خطر لها هذا الخاطر .

ـ إذاً ، قد كان ذلك دون أن تعلم .

ـ دون شك ولذلك أدهشتني بهـــذا الخبر الغريب ، فمتى حاولت مقابلته ؟

ـ اليوم .

ـ ولكن هذا محال يا سيدي ، فقد قلت لك أنها في إيكوسيا منذ خمسة أيام وما أنا من الـكاذبين .

وتبين الأسقف دلائل الصدق الأكيد من لهجته وحار في أمره فقال له :
ولكني أؤكد لك ان إمرأة ذهبت اليوم إلى بدلام فقالت انها اللادي باميلتون وأنها تريد مقابلة ولتر بريس .

ـ اني لا أستطيع حل هذا اللغز ولا ادري أية شقية تجاسرت على انتحال إسم ابنتي .

فلم يجبه الأسقف بشيء ، ولكن مر في باله خـاطر سريع وجفت له أعضاؤه ، فقد تذكر أن حاكم سجن نوايت كان قد وضع الرجل العبوس حين كان سجيناً في غرفة واحدة مع توما قبل إعدامه وقال في نفسه : لا بـد أن يكون أخبر الرجل العبوس بحكاية اللورد وليم ، وان الرجـل العبوس تولى الانتصـــار له ، ودليل ذلك ان امرأة تنكرت باسم اللادي وأرادت مقابلة اللورد فلا بد أنه يوجد من يهتم لهـذا الرجـل ، وقد يكون هـذا من صنع الرجل العبوس .

غير ان الأسقف لم يجاهر بمخاوفه أمام السير ارشيبالد بل قال : اني وثقت بكلامك يا سيدي ، ولكني اؤثر الف مرة ان تكون خدعتني .

ـ لماذا يا سيدي ؟

وكانت المركبة وقفت عندها أمام باب منزل الأسقف فقال له : هلم بنا إلى منزلي فأخبرك بكل شيء .

ولما دخلا أسرع أحد الخدم إلى الأسقف وقال له : ان البوليس سكوتوي قد خرج الآن بعد ان انتظرك مدة طويلة وقد ترك لك رسالة يا سيدي .

ـ أين هي ؟

ـ على المستوقد في غرفتك .

فـذهب الأسقف إلى غرفته وقرأ الرسالة فقرأ ما يأتي :

« لقد وجدت أثر الرجل العبوس فاطمئن .

« انه ، يا سيدي ، يضع فوق عينيه نظارة زرقاء ويلبس شعراً مستعاراً أشقر ، وهو يسمي نفسه ، بليدت سلون ، ويشتغل في مكتب المحـامي كوكلام .

« اني أنتظر أوامرك » .

فسقط الكتاب من يد الأسقف وقد اصفر وجهـه حتى بات كالأموات فقال : لا شك اني لست من رجال هذا الشيطان المريد فانه يهزأ بي منـذ خمسة عشرة يوماً ويلعب بي كما يلعب الصبيان بالكرة .

ثم سقط على كرسيه واهن القوى وقد كاد يغمى عليه .

وجعل كل من الاثنين ينظر إلى الاخر ، اما الأسقف فقـــد كان خائر القوى منخلع القلب، اما السير ارشيبالد فلم يكن قد فهم شيئاً من ذلك الكتاب ولكنه أيقن مما رآه من انقلاب الأسقف انه حدث أمر هائل .

فقال له : ماذا حدث يا سيدي ؟

فانفجر الغضب في قلب الاسقف وقال اتريد أن تعلم ما حدث ؟

— نعم ..

ـ إذاً فاسمع .. انك كنت تعتقد بي إلى الآن اني من أهل الذكاء والمهارة ولكنك منخدع يا سيدى .

ثم ضحك ضحكاً مغضباً وقال : بل اني أبله ضعيف العقل ، فاني منــذ ثلاثة اسابيع اصطفيت رجلا وجعلته موضع ثقتي فكان يعبث بي كما يشاء دون أن أعلم فان هذا الرجل كان الد عدو لي وأنا احسبه خير صديق ، أتريد الآن ان تعلم ما حدث ؟

إن اللادي باميلتون لم تذهب إلى المستشفى كما كنت اعتقد ، واللورد وليم خرج من ذلك المستشفى .

فاضطرب السير ارشيبالد وقال : كيف خرج وإلى أين ذهب ؟

ـ انه الآن في الطريق الى لندرا .

ثم جعل يمشي في الغرفة ذهاباً واياباً بخطوات غير موزونة .

فسأله السير ارشيبالد : ما أصابك فاني أراك كالمجانين ؟

ـ اني لم اجن بعد ولكني سأجن .

ـ ولكن كيف يمكن اللورد مبارحة المستشفى ؟

ـ .. لأني فتحت له بابه

فنظر اليه أرشيبالد بملء الانذهال وقال :

ـ انت اطلقت سراحه بيدك ؟

ـ نعم .. فان هذا الرجل الذي وثقت به قد خدعني شر خداع ثلاثة اسابيع متوالية بحيث وثقت به كل الثقة ، وبت لا احيد عن رأيه ، وهذا الرجل قد آلى على نفسه ان يرد للورد وليم ثروته والقابه .

ـ ان هذا محال .

ـ ولكنه الحقيقة .

ـ وعند ذلك طرق الباب فسكت الأسقف ، وامر الطارق ان يدخل ففتح الباب ودخل منه ذلك البوليس السري وقال : اسألك المعذرة يا سيدي لقدومي اليك الآن ، فقد رأيت مركبة وقفت عند بابك ، فما اخطأ ظني انها تقلك واتيت اخبرك ..

ـ حسناً فعلت بقدومك فاني كنت انتظرك .

ـ اقرأت الكتاب ؟

ـ نعم ، فهل انت واثق ان الرجل العبوس وبرديت واحد ؟

ـ كل الثقة ، وهو يقيم في زقاق ضيق في شارع باترنوستر ، فان دخل إلى منزله في المساء نزع شعره المستعار .

ـ أيقيم وحده في المنزل ؟

ـ كلا ، بل مع رفيق له ضخم الجثة يدعى ميلون ، وهو يبيع الجرائد في محطة شارنج كروس ، وقد كان بوسعي أن اقبض عليه ، غير اني ما اردت ان افعل شيئاً قبل ان اتلقى اوامرك ، فان القبض عليه سهل ميسور سواء في منزله ، او في مكتب المحامي الذي يشتغل فيه .

ـ العلك اتخذت الاحتياطات اللازمة للقبض عليه ؟

ـ اني اعددت كل شيء

ـ كم رجل اعددت ؟
ـ ثمانية .
ـ أأنت واثق انه لا يوجد منفذ في المنزل الذي هو فيه ؟
ـ كل الثقة ..
ـ امن السهل تطويق المنزل ؟
ـ نعم فانه في زقاق .
فاتقدت عينا الأسقف ببارق من نار وقال . ان الساعة الثامنـة الآن من المساء ، ولا يجب ان نصبر الى الغد .
ـ أتريد اذاً يا سيدي القبض عليه في هذه الليلة ؟
ـ بل في هذه الدقيقة ، ان كان هذا من الممكنات .
ـ اذاً اطمئن يا سيدي فسيعود الى نوايت قبل منتصف الليل .
ـ وبعد غد يشنق .
وكان السير ارشيبالد يسمع الحديث فسأل : اي رجل تعنون ..
ـ ان له اسماً غريباً فإنه يدعى الرجل العبوس .
ثم قال في نفسه ان الرجاء لم يفقد بعد ما زال الرجل العبوس سيشنق .

لقد كان البوليس صادقاً في قوله فان روكامبول كان يقيم حقيقة في الزقاق الذي اشار اليه ، وإنما اختار روكامبول هذا المنزل ، لأنــه كان يعرفه فان مس الن كانت مستأجرة غرفة فيه ، فكانت تأتي اليها حين تريد تغيير ملابسها واستبدالها بملابس اخوات السجون .

وكان لديه مفتاح هذه الغرفة ، فلما نجــا من السرداب مع ميلون في تلك الليلة التي بسطنا تفصيل حوادثها في رواية روكامبول في السجن والقى نفسه من النافذة إلى النهر مع ميلون ذهب به توا إلى تلك الغرفة وهو يقول لرفيقــه : إنهم دون شك لا يبحثون عنا في هذا المكان .

ومن أخلاق أهالي لندرا ، بل الانكليز عامة عدم الفضول ، فان المرء لا يهتم إلا بشاغله ، وان العائلة قد تجاور العائلة في منزل واحد اعوامــاً دون ان تتعارفا .

وبعد ثمانية أيام من اقامتها في هـــذه الغرفة ، اشترى ميلون مكتبة في محطة شانج كروس ، فأقام فيها ، ودخل روكامبول إلى مكتب المحامي ، فكان يذهب إلى عمـــله في الساعة السابعة من كل صباح ، وروكامبول في الساعة الثامنة .

وفي الساعة السادسة ينصرف روكامبول من المكتب فيــذهب إلى ميلون ويسير به متنزهاً ، الى زمن العشاء ، فيتمشيان ويعودان إلى الغرفة قبـــل انتصاف الليل .

ففي اليوم الذي عرف فيه البوليس روكامبول وكتب عنه إلى الأسقف بترس تون ، كان روكامبول خارجاً من المطعم مع ميلون في الساعة التاسعة

وقد تأبط ذراعه وسار واياه يتحدثان .

فقال له ميلون : أرأيت هذا الرجل الذي كان يتعشى في الفندق على المائدة المقابلة لمائدتنا ؟

— نعم واظنه أحد المستخدمين .

— نعم ، وأنا اظنه جاسوساً من الفرنسيين ، فقد رأيته في باريس ، وقد رأيت منه ما رابني وأخاف أن يكون جاسوساً علينا .

— اتظن ذلك ؟

— بل أؤكد .

ثم ضغط على يده وقال : انظر .

والتفت روكامبول دون ان يتوقف عن السير وقال : لقد اصبت فانه يقتفي أثرنا فهلم نلهو به قليلاً فليس لنا ما نعمله الآن وأسرع الخطى .

فقال ميلون : اني كنت اؤثر ان نتخلص منه .

— هذا الذي سنفعله وسوف ترى .

وقد كان روكامبول متنكراً أتم التنكر بحيث ان رجال عصابته انفسهم لم يعرفوه .

وكذلك ميلون فقد كانت ملامحه تدل على انهما من الانكليز .

وكانا يسيران وهذا الرجل يتبعهما وميلون مضطرب البال .

فقال روكامبول : اني لا أنكر ان هذا الرجل جاسوس علينا ، ولكني أريد ان اتحقق فان بوليس لندرا يعتقد في اعتقادين مختلفين احدهما اني مت تحت انقاض الدهليز ، والاخر اني غير مقيم في لندرا ، ولذلك لا أخشى غير رجل واحد وهو السير بترس تورن ، وكيف يعتقد هذا الأسقف اني الرجل العبوس وهو يحادثني كل يوم ويمتثل لي في كل ما أرتئيه

— ولكن انظر فانه لا يزال في اثرنا .

— سوف ترى فادخل معي إلى هذا الدكان لشراء سكاير .

فدخلا اليها وعندها رأيا الرجل قد انتقل من رصيف الى آخر وظل واقفاً بازاء الدكان الى ان خرجا منها ، فلم يعد شك لدى روكامبول وذهب تواً إلى الرجل فرفع النظارة عن عينيه ، ونظر اليه تلك النظرات المكهربة وقال له باللغة الفرنسية : ما تفعل انت في لندرا ؟

فاضطرب الرجل لتلك النظرات وقال : اسألك العفو يا سيدي فاني أشتغل بما يقوم باودي .

ـ انك فرنسي مثلنا .

ـ نعم..

ـ اذاً ، لما تتجسس أحوالنا وتقفو اثرنا أيطيب لك ان تخدم الأغراب على مواطنيك ؟

فتلعثم الرجل وقال : انهم يدفعون لي جنيهاً كل يوم لاقفو أثركما وانا معدم فقير .

ـ من الذي يدفع لك بهذا السخاء ؟

ـ هو بوليس سري يدعى سكوتوي .

وكانت نظرات روكامبول ومباغتته لهذا الجاسوس قد أثرت به تأثيراً عظيماً فقال له : أتعرف من انا .

ـ كلا ، ولكن يظهر انك الرجل العبوس الذي فر من سجن نوايت .

ـ هو ذاك .

ثم مد يده الى جيبه فاخرج قبضة من الذهب فدفعها إلى الجاسوس وقال : خذ هذا المال فهو يغنيك الآن عن ايذاء مواطنيك وانصرف .

فاعتذر الجاسوس وأخذ المال وانصرف .

أما روكامبول فانه ضحك وقال لميلون : بورك بهذا الجاسوس الذي يبوح بكلمة عما يعلم .

ثم واصل السير مع ميلون .

فقال له ميلون : أرى انك تريد العودة إلى الغرفة ، وعندي ان المبيت فيها خطر .

— لماذا ؟

— لأن البوليس بات عارفاً بامرنا .

فأجابه روكامبول ببرود : ان البوليس لا يعلم شيئاً عني ، ولا اكترث للبوليس .

فقال له ميلون بلهجة المستسلم : ان هذا سيان عندي فقد تعودت ان اذهب معك حيثما ذهبت .

ثم سار الاثنان حتى وصلا الى الغرفة فنزع روكامبول شعره المستعار وعاد الى هيئته الأصلية .

أما ميلون فانه اشعل سيكارة وذهب الى النافذة فجعل يدخن ، وهو على فرط استسلامه لا يزال مضطرب البال .

وفيما هو يدخن مسترسلاً الى هواجسه حانت منه التفاتة من النافذة فاضطرب وتراجع مذعوراً الى الوراء .

وكان روكامبول قد رآه فقال : ما حدث ؟

— حدث انهم طوقونا ولا اجد مناصاً هذه المرة .

فقام روكامبول الى النافذة فرأى كثيراً من الجنود يطوقون المنزل .

فابتسم ابتسام الاستخفاف ، اما ميلون فانه قال بلهجة القانطين : لقد قطع كل رجاء .

وقد رأى القراء كيف ان الأسقف بترس تونن لم يضع الوقت سدى فانه بعد ان اجتمع ببوليسه على ما تقدم خرج مسرعاً الى ناظر الحقانية واخبره بما ابلغه اياه البوليس .

ثم ذهب الى مدير سجن نوايت وكان هـذا المدير المنكود الذي لم يكن يلقى غير باسم الثغر طلق المحيا قد انقلبت سحنته بعد فرار الرجل المحبوس من سجنه ، فبات شديد السويداء كثير الهم والتفكير .

فلما زاره الأسقف قال له المدير : العلك جئت يا سيدي لتسأنيبي على فرار ذلك الشيطان الرجيم ، فان كان ذلك يا سيدي ، فقد كفاني ما لقيت ، فان الرجل الذي كنت احسبه من الأشراف قد قيدني كما يقيد المجرمون ، وان هؤلاء الارلنديين كادوا ينسفون السجن بي وبعائلتي ، حتى اني ادفع كل مـالي في سبيل القبض على هذا المجرم الأثيم .

فابتسم الأسقف وقال : انه سيعود اليك دون ان تدفع درهمـاً ولكني ارجو ان لا تعامله هذه المرة بمثل تلك المجاملة .

— اضعه في اصفاد الحديد وانزع من قلبي معه كل رحمة واشفاق .

— الا تزال الغرفة التي كان مسجوناً فيها فارغة ؟

فنظر اليه المدير نظرة المنذهل واجاب : نعم

— اذاً تعزى فسيعود الرجل المحبوس اليها في هذه الليلة ويملاء فراغها .

فصاح المدير صيحة فرح وقال : اقبضتم عليه ؟

— لم نظفر به بعد ، ولكننا سنقبض عليه .

فتجهم وجه المدير بعد هذا الاشراق وقـال : وأأسفاه اني اخشى ان لا

تنالوا منه مراداً فليس هذا الرجل من البشر .

– هيىء له السجن ، وما تريد من أسباب التعذيب ، ورجائي ان اعود اليك به في اقرب حين .

ثم تركه وانصرف دون ان يزيد في الايضاح .

وقد ركب مركبته وسار تواً الى كنيسة سانت بول ، وهناك وافاه البوليس سكوتوي فقال له الأسقف بلهف : ما حدث ؟

– ان الرجل العبوس ورفيقه صاحب المكتبة لا يزال البوليس يتعقبهما .

– اين هما الآن ؟

– في الطريق الى المنزل .

– اتظن أنهما يعودان اليه ؟

– دون شك .

– وكيف تعلم بعودتهما ؟

– اني عينت رقباء يخبرونني حين عودتهما. وفيما هو يقول هذا رأى رجلاً قد مر بهما فناداه البوليس وسأله : العلك قادم من هناك .

– نعم .

– اعاد الرجلان الى المنزل

– إنهما عادا اليه الآن فأسرعت لأخبرك .

فاضطرب الأسقف وقال : يجب ان لا نضيع الوقت .

– اني اعددت كل شيء يا سيدي فاطمئن .

– اين وضعت رجالك الذين تحت امرك ؟

– اني أقمت ستة منهم في خمارة في ذلك الزقاق فان صفرت لهم صفيراً اصطلاحياً خرجوا منها في الحال .

– وبقية رجالك !

– انهم في موضع آخر من الزقاق .

-- إذاً هلم بنا .

فهمس البوليس عند ذلك بضع كلمات في اذن الرجل الذي اخبره بعودة روكامبول الى المنزل . فانطلق يعدو كالريح ، لتنفيذ ما أمره به .

وبعد ذلك بربع ساعة ، كان المنزل الذي يقيم فيه روكامبول قد طوقته الجنود وكان ميلون يتراجع مذعراً ويقول لروكامبول : قضي علينا الآن ولم يبق لنا مناص .

أما الأسقف فانه لم يكتف بنجاح البوليس ووثوقه من فوزه في مهمته الى النهاية بل اراد ان يتولى امر القبض عليه بنفسه . ولذلك ذهب مع البوليس حتى اذا وصلا الى المنزل قال الأسقف : أأنت واثق انه لا يوجد منفذ في هذا المنزل ؟

- كل الثقة . وفوق ذلك ، فانه يوجد رجل من رجالنا على السلم .

- ولكن الباب الخارجي مقفل ؟

- إني أعرف طريقة فتحه .

- هل رجالك مسلحون ؟

- إنهم مدججون بالسلاح .

- إذاً هلم بنا .

فسار الاسقف والبوليس سكوتوي في طليعة الجنود ، وبقي قسم من الجند في الزقاق .

ففتح البوليس الباب بمفتاح خاص ، وصعد مع الأسقف السلم والجند وراءه الى الغرفة التي يقيم فيها روكامبول وميلون .

وكان يوجد عند بابها جندي وضعه البوليس للمراقبة ، فقال له بصوت منخفض : ألا يزالان في الغرفة ؟

— نعم ..

فطرق البوليس الباب فلم يجبه احد ، فهلع قلب الاسقف وقال : إنهما لا يجيبان .

— ولكنهما في الغرفة دون شك الا ترى المصباح الذي هو في الداخل تنبعث أشعته من خلال قفل الباب

— إذاً نكسر الباب ؟

— لا حاجة إلى ذلك ان المفتاح فيه .

ثم امر الجند ان يشهروا سلاحهم ، وفتح الباب بعنف وهو يتوقع ان يسمع دوي الرصاص .

ولكنه لم يسمع غير صوت الأسقف قد صاح صيحة ذعر ويأس ، لأن الغرفة كانت خاوية خالية والمصباح لا يزال يضيء على المستوقد ، وروكامبول وميلون قد اختفيا .

ولا يستطيع قلم ان يصف الذي اصاب ذلك الأسقف من تأثير الخذلان ، فانه بعد ان صاح تلك الصيحة المنكرة ، وقف جامداً مبهوتاً كالصنم لا يتحرك .

اما البوليس فانه نادى الرقيب الذي على السلم وقال له : ألم ترهما حين خروجهما من الغرفة ؟

— كيف أراهما يا سيدي وهما لم يخرجا منها اني اقسم لك بشرف الجندية ان باب هذه الغرفة لم يفتح .

فتركه البوليس ونزل الى حيث كان الجنود ، وسألهم عما رأوه . فأكد له بعضهم انهم رأوا رجلاً ضخم الجثة يدخن ، وهو واقف عند النافذة .

ورجع البوليس الى الغرفة ، وبحث فيها بحثاً دقيقاً .

ولم يجد فيها ما يشير الى وجود منفذ غير خزانة مقفلة ، ففتحها فلم يجد

ذلك المنفذ .

فوقف مضطرباً منذهلاً وهو يقول : لا شك ان ذاك الرجل من الأبالسة

أما الأسقف بترس تون فانه أفاق من سباته وقال : يستحيل ان يكون هذان الرجلان خرجا من غير هذا الباب .

فقال البوليس : إذا كان ذلك فلا بد ان يكونا باقيين في المنزل .

ـ يجب ان نفتشه تفتيشاً دقيقاً .

ـ ولكنك تعلم ، يا سيدي ، ان النظام في انكلترا لا يجيز مهاجمة المنازل .

ـ تعال معي ودع المسؤولية علي .

فخرجا من غرفة روكامبول وطرق باب الغرفة المجاورة ، ففتح لهم الذي يقيم فيها .

فقال الأسقف : إننا نبحث عن رجل شرير من اولئك الارلنديين الذين كادوا ينسفون لندرا في هذه الأيام .

فأجاب : ولكن هذا الرجل لا يكون عندي يا سيدي ، فاني من البروتستانت .

ـ لا بأس فأذن لنا بتفتيش منزلك .

ثم أعطاه خمسة جنيهات فكف عن الاعتراض ودخلوا جميعهم ففتشوا المنزل تفتيشاً دقيقاً فلم يقفوا على أثر .

فزاد اضطراب الأسقف ولكنه لم يفقد رشده فقال البوليس : إننا اذا لم نجد هذا الشيطان المريد فلا بد لنا من إيجاد اوراقه .

وقد خطر للاسقف انه لما كان الرجل العبوس والمستر بريدت واحداً فلا بد ان يكون قرار برمي المسجل في سفارة انكلترا في باريس موجوداً لديه في مكتب المحامي كوكلام ، فاذا عثر بهذه الأوراق فلا يعود يخشى

الرجل العبوس .

وعند ذلك برح المنزل بعد ان يأس من وجود روكامبول فيه وذهب مع البوليس تواً الى مكتب المحامي كوكلام .

وكان المكتب مقفلاً في تلك الساعة فنادى الأسقف البواب وسأله ان يفتح الباب بأمر ناظر العدلية .

فأبى ، فبذل جهده في الحيـلة والوعود . ولكن البواب اصر على الإباء وقال : إنه لا يفتح المكتب ولا يأذن لأحـد بالدخول اليه إلا بأمر سيده المحامي .

فأمر الاسقف البوليس ان يحيط المكتب بجنوده وينتظر الى ان يعود . وذهب مسرعاً الى بيت المحامي كوكلام .

وكان المحامي يعرف منزلة الاسقف حق العرفان، فحكى له الاسقف جميع ما اتفق ، وهذا المحامي من انصار اللأدي باميلتون فانه كان مصفياً لتركتها ، كما يذكر القراء .

ولذلك تمكن الاسقف من إقناعه على الذهاب معه الى مكتبه للتفتيش في غرفة الرجل العبوس عن تلك الأوراق ، فان العثور بها يفيد تلك الأسرة التي يتولى أمورها .

وبعد ساعة رجع الاثنان إلى المكتب ، وبحثا بحثاً دقيقاً في غرفـة الرجل العبوس ، او المسيو بريدت . فلم يجدوا بين أوراقـه أثراً لتلك الأوراق ، بل وجدوا أن جميع الأوراق الخاصة بقضية اللورد وليم ، قد اختفت .

فغضب الأسقف عند ذلك غضباً شديداً حتى ان الزبد كان يخرج من شدقيه وخرج من المكتب خروج القانطين .

فلما دخل الى الشارع وهو لا يكاد يبصر ما حوله لفرط غيظه ، جاءه رجل وأعطاه رسالة وقال له : إن رجلاً لقيه في الطريق ، فعهد اليه ان

يسلمه إياها .

فأخذ الاسقف الرسالة ففضها بيد ترتجف وتلا ما يأتي :

« إنك أجهدت نفسك في هذه الليلة ، فلم تظفر بالأوراق ، ولم يتيسر لك القبض علي . فاسمح لي ، على أمل اللقاء القريب ، أن أقدم لك فروض التمازي » .

« الرجل العبوس »

فصاح الأسقف صيحة مؤلمة ، وقد كاد يذهب عقله من القهر . فان الرجل العبوس ، لم يكتف بما ناله من الفوز بالفرار ، بل انه كتب اليه يهزأ به .

- ١٨ -

ولنذكر الآن كيف تمكن الرجل العبوس من الفرار مع ميلون من تلك الغرفة ، بعد ان طوقها الجند ، وأصبح الفرار منها ضرباً من المحال . فانه حين قال له ميلون : لقد طوقنا الجنـــد ، وليس لدينا سلاح ، فلا سبيل للفرار

فابتسم روكامبول وقال له : خذ هذا المسدس كي تطمئن ، ولكن لن تحتاج اليه .

ـ كيف ذلك ؟

ـ إن الوقت يضيق بي الآن عن ان أوضح لك بالتفصيل ولكن لا بد لي من إخبارك ببعض الأمر كي تكون على بينة فلا تهفو . فاعلم اني كنت أتوقع حدوث ما جرى

ـ إذا كان ذلك فكيف عدت الى الغرفة ؟

– كان لي بذلك مأرب لا تعلمه .

– ولكن الجند قد طوقتنا وسوف يقبضون علينا .

– أسكت الآن واصغ ألم تر حين وصولنا الى هذه الغرفة ان رجلاً كان يقتفي أثرنا وقد اختبأ الآن عند السلم ؟

- كلا .

- أما انا فقد رأيته وهو يقيم الآن وراء الباب .

– إذاً سيحول دون خروجنا من الغرفة .

- كلا وسوف ترى الآن فاتبعني .

ثم فتح الباب وخرج فتبعه ميلون . ورآهما الرجل الكامن فهم ان يصيح ، غير ان روكامبول بادره باشارة سرية فوجم فدنا منه روكامبول وقال له : أنا هو الرجل العبوس .

فانحنى الرجل ولم يفه بحرف .

وعند ذلك أقفل روكامبول باب الغرفة التي خرج منها وأبقى المفتاح في قفله ، ثم صعد وتبعه ميلون سلماً انتهى بهما الى غرفة لا أثاث فيها فدخل الاثنان اليها .

وكان في تلك الغرفة نافذة عالية مفتوحـــة تشرف على سطح المنزل فقال روكامبول لميلون : احملني اليها

فحمله ميلون حتى إذا صار فيها مد له ساقه فتعلق ميلون بالساق وصعد ، فخرج الاثنان الى السطح .

وكانت سطوح ذلك الزقاق متلاصقة ، فما زال روكامبول يسير من سطح إلى سطح وميلون يتبعه حتى انتهى الى سطح وقف عنده ونقر بيده فوق مكان معين منه ثلاث مرات ، ففتحت في الحال كوة في ذلك السطح . فنزل الاثنان إلى غرفة مظلمة واقفلت الكوة من نفسها حين نزولهما .

فأجفل ميلون لما رآه من هذه الغرائب وقال : اين نحن الآن ؟

– إننا في بيت صديق لي وانت تعلم ان لي كثيراً من الأصدقاء .
– أهو الذي فتح لك نافذة السطح ؟
– كلا بل أنا .
– ولكنك قرعت السطح ثلاث مرات .
– اني طرقت هذه الطرقات كي أدير لولباً .
– إذاً نحن الآن في أمان من كل خطر ؟
– دون شك ونستطيع ان نتحدث .
– إذاً ستخبرني الآن ماذا فعلت بالرجل الذي كان كامناً لنا عند باب الغرفة حتى أذن لنا بالذهاب دون ان يعترضنا .

– ذلك اني عرفت هذا الرجل حين دخولنا الى الغرفة ، فهو من الارلنديين . ولولا ذلك لخرجت من منفذ سري في الغرفة ، فاني كنت أتوقع كل حين هذه المباغتة ، وتأهبت لها كل التأهيب . فلما ايقنت ان الرجل إرلندي فضلت الفرار من طريق السطح وأشرت الى ذلك الارلندي إشارة الرؤساء السرية .
– لقد فهمت ولكني اعتقد اننا خاطرنا مخاطرة عظيمة .
– هو ذاك ولكني لم أجد بدأ من المخاطرة .
– ولماذا ؟
– لأني أريد ان أبرهن للأسقف اني لا أخافه .
– إذا كان ذلك فأنت مصيب ولكن ماذا فعلت بالأوراق ؟
– أية أوراق ؟
– أوراق اللورد التي كانت في مكتب المحامي .
– إنها ليست فيه فقد أخذتها في المساء وهي الآن في جيبي
فتنهد ميلون تنهد المرتاح ثم قال : لكن الأسقف يعلم من أنت .
– دون شك .

— وهو سيرسل أوامره الى لندرا القبض على مرميس .

فابتسم روكامبول وقال : لا تخف فلا تصاب عصابتي بسوء ، وأنا في قيد الحياة .

— ١٩ —

أما الأسقف فانه بعد ان اضطلع على الرســـالة التي كتبها اليه الرجل العبوس ، مزقها والقى بها مغضباً الى الأرض . ثم لم يلبث ان أخمد نار غيظه وجعل يمعن الفكرة في ما صار اليه ، فقال في نفسه : لم يبق شك ان الرجل العبوس يتولى شأن اللورد وليم ، ولا يجب التهامل لحظة مع مثل هـــذا الخصم الشديد .

وماذا صنع بي هذا الرجل خلال انخداعي باخلاصه وثقتي به

إنه أقنعني بوجوب إخراج اللورد وليم من المستشفى ، فامتثلت له وهو الآن سائر في طريق ارلندا .

وهناك ينجو بسهولة من جوهن بيل ، ويعود بملء السكينة الى لندرا .

إذاً يجب ان اهتم بالقبض على اللورد في القريب العاجل .

ولما أقر على هذا القرار نظر الى البوليس سكوتوي وقال له : يجب عليك ان تسافر الليلة .

— إلى اين ؟

— إلى ارلندا .

— وماذا يجب ان أصنع فيها ؟

— تلقي القبض على ثلاثة ، أحدهما مدير مستشفى بدلام ، والاثنان من المجانين .

ـ إني أعرف شيئاً من أمر هذا المدير أما هو جوهن بيل ؟

- هو بعينه .

ـ ولكن لا يصحبه اثنان كما تتوهم بل أربعة .

ـ كيف عرفت انه يصحبه أربعة ؟

ـ عرفته من أحد رجالي فقد كان في المحطة حين سفرهم وأحد هؤلاء الاربعة السير ارثر وهو صاحب حبل المشنوق .

ـ هو ذاك ، ويجب ان تسافر في الحال إلى ارلندا ، وتقبض عليهم جميعاً .

ـ وماذا أصنع بعدها هل أعود بهم الى لندرا ؟

ـ كلا بل تضعهم في مستشفى دبلين وترجع الي ، فنعود الى البحث عن الرجل العبوس .

ـ ولكني لا أرى حاجة للذهاب الى ارلندا فان البواخر التي تسافر من لفربول الى دبلين لا بد لها من الوقوف في جزيرة مان وجوهن بيل لم يسافر إلا من ساعة بل ربما كان باقياً في الميناء .

ـ إني لم أفهم قصدك .

ـ قصدي هو ان ترسل تلغرافاً الى قومنـــدان ميناء تلك الجزيرة ، فيوقف المركب المقلة جوهن بيل ورفـــاقه عن السفر ، إلى حين صدور أوامر جديدة .

وأية فائدة لنا من ذلك ؟

ـ فائدتنا انه يوجد في جزيرة مان مستشفى للمجانين ، من يدخل اليه لا يخرج منه . ثم اننا قد نجـــد في دبلين من الخطر ما لا نجده في تلك الجزيرة .

ـ كيف ذلك صرح لي .

ـ إني عارف بحقيقة الامر يا سيدي ، فان الذي يهمك القبض عليه من

أولئك الخمسة هو اللورد وليم دون سواه ، وإن لهذا اللورد الآن نصيراً من أشد الانصار .

— بل هو شيطان في صورة إنسان .

— وان هذا الشيطان يا سيدي من زعماء الارلنديين كما تعلم فلا بد انيكون له كثير من الانصار في ارلندا .

— دون شك .

— وان دبلين عاصمة ارلندا ، فلو ســـافر اللورد وليم اليها ، لما عدم الرجل العبوس واسطة ، تمكنه من إنقـــاذ اللورد وليم ، بواسطة الارلنديين .

وان هؤلاء الارلنديين مستخدمون في جميع المصالح وبينهم كثيرون من رجال البوليس .

— ولهذا أرى ان الأفضل ان يقبض عليهم في جزيرة مان .

— وأنا أرى رأيك . غير انه لا بد ، لايقاف الباخرة في المينـاء ، من صدور أمر ناظر البحرية . وكيف يتيسر لنا الحصول على هذا الأمر في مدة ساعة ؟

— بواسطة السير ارشيبالد فانه من كبار رجال البحرية .

فقال له الأسقف : لقد أذكرتني ما كنت ناسيـــاً . وها أنا ذاهب اليه لفوري .

— أما أنا فاني واثق من حصولك على هذا الأمر ولذلك سأذهب لفوري ايضاً الى المحطة وأسافر الى ليفربول .

ثم افترق الاثنان .

وركب الاسقف مركبته وسار بها مسرعاً إلى قصر باميلتون ، حيث كان يقيم السير ارشيبالد .

أما البوليس فقد سار الى المحطة

وكانت الشمس عندئذ قد تعالت ، والباخرة المقبلة لجوهن بيل خارجة من حوض ليفربول .

- ٢٠ -

ولنبرح الآن لنــدرا الى ليفربول ، حين صعــد جوهن بيل ورفاقــه إلى الباخرة .

ويذكر القراء انه بعد ان رفعت الباخرة مرساها ، وبعد ان قرأ مرميس في الجريدة ما كتبه له روكامبول ذهب لمقابلة الربان فحياه وقال له : إني أدعى يا سيدي السير أرثر .

فانحنى الربان دون ان يجيب .

– واني يا سيدي ابن أخ اللورد ويلموت ولا بد ان يكون احد أصدقاء عمي قد كتب اليك يوصيك بي اليس كذلك ؟

– هو ما تقول يا بني .

– وان لهذا الرجل الذي أوصــاك بي اسماً ، لا أجد فائــدة من التصريح به .

– لقد عرف كل منا الآخر وهذا يكفي ، فأذن لي الآن ان أراقب سير الباخرة حين خروجها من الحوض .

ثم تركه وانصرف .

فقال مرميس في نفسه . إنه قليل الكلام ولكن دلائل صدق العزم بادية بين عينيه بحيث اني واثق من إمكان الاعتماد عليه .

وصفرت الباخرة ثم سارت في الحوض ، فــلم تسر هنيهة ، حتى أمر الربان بايقافها .

فشعر مرميس ان السفينة قد وقفت بعد سيرها ، وأسرع إلى الربان وقال: ماذا حدث ؟

فأشار الربان بيده الى المنارة وقال : أنظر .

— ما هذا ؟

- إشارة تأمرنا بإيقاف الباخرة .

— لماذا ؟

— لا أعلم بعد ولعل ذلك نبأ برقي وارد من لندرا .

فاصفر وجه مرميس ، أما الربان فانه ابتسم ابتسامة معنوية وقـال له : لا تخف شيئاً .

— بل إني أخاف كل شيء فقد يمكن ان يكون ذلك النبأ امراً صادراً اليك وهو بارجاعنا إلى البر .

وقد يكون الاسقف بترس تون استصدره ، فاذا كان ذلك فقد ضاع كل رجاء .

فلم يجبه الربان بشيء بل أخذ نظارته وجعل ينظر بها الى الميناء .

وبعد هنيهة خرج قارب من الميناء وسار الى جهة الباخرة . ولم يمر نصف ساعة حتى وصل اليها .

وأخذ الربان التلغراف من الذي جاء بالقارب ، فنظر فيه وقال لمرميس : إن هذا التلغراف ليس لي بل هو لك

فأخذ مرميس التلغراف بلهف وفضه ، فوجده ممضياً بتوقيع بريدت . فان روكامبول كان قد سبق الأسقف كما نرى .

أما التلغراف فقد كان متضمناً ما يأتي :

« إفتضح أمر بريدت وهو في أمان ولكن الأسقف على حذر .. فاحذروا أنتم ايضاً وستردكم تعليماتي » .

« بريدت »

فلما قرأ مرميس الرسالة قال : إنها لا تدل على شيء وتدل على كل شيء في حين واحد .

وبعد مداولة الربان مع مرميس استنتجا ان الاسقف بترس تون عرف الرجل العبوس وانه بات واثقاً من خطئه بتسهيـــل خروج اللورد وليم من مستشفى بدلام ، فهو دون شك قد اتخذ التدابير اللازمة لمنع اللورد وليم من الوصول الى لندرا .

فقال الربان : إني أؤثر ان يكون الأمر كذلك ، فلنسافر الآن إذ لا بد لنا من السفر .

— وما كنت تفعل لو كان هذا النبـــأ وارداً من الأميرالية ، يتضمن إرجاعنا الى البر .

— كنت أعصي الاميرالية .

ثم تركه وانصرف الى مراقبة السفينة .

- ٢١ -

ولنعد الآن الى البوليس سكوتوي ، فقد كان هذا الرجـل من أمهر رجال البوليس السري وأشدهم حذقاً ، ولم يغلبه الى الآن غير روكامبول . ولكنه تعزى لخيبته ، وعلل نفسه بالأخذ بالثأر . فركب القطار من لندرا الى ليفربول .

ولبث تلك المدة الفاصـلة بين المدينتين ، وهي اثنتا عشرة ساعة ، على أحر من النار .

فلما وصل الى لفربول استقصى عن مدير مستشفى بدلام ، فعلم أن الباخرة قد أقلعت به وبرفاقه في الصباح ، وأنها وصلت الى جزيرة مـان ،

ولا تزال راسية فيها .

وذهب الى إدارة التلغراف ، فعلم منها ان الأميرالية البحرية أرسلت الى قومندان ميناء الجزيرة هذا التلغراف الوجيز :

« أوقفوا ، إلى حين صدور أوامر جديدة ، البـــاخرة التي يدعى ربانها روبرت والاس وراقبوا جميع المسافرين فيها » .

فلما أطلع البوليس على التلغراف قال في نفسه : ان الأسقف لم يضع الوقت سدى فلأقتدي به .

وعند ذلك عزم على السفر الى تلك الجزيرة ، ولكنــــه لم يجد باخرة مسافرة اليها .

فاستاء كل الاستياء من هذا التأخير ، لأنه كان واثقاً ان الرجل العبوس يعمل في لندرا على تخليص اللورد وليم ، وانه لا بد ان يكون أرسل تعليماته الى ركاب السفينة .

وكان البحر شديد الاضطراب ، ولولا هياجـــه لكان سافر على قارب صغير غير مكترث للأخطار .

ولكنه لم يجد نوتية يجسرون على السفر الى الجزيرة بالقوارب ، في مثل هذه الأنواء الثائرة . فلم يجد بدأ من الصبر إلى صباح اليوم التالي .

ثم ذهب الى خمارة في الميناء ، كان يتردد اليها البحارة . فأقام فيها إلى أن يحين وقت الرقاد .

وفيما هو جالس يشرب شيئاً من الخمر ، دخل نوتي جثل الشعر ,لوحت وجهه الشمس ، فبات لونه كألوان أهل الشرق ، فطلب زجاجة شراب . فلما شرب الكأس الأول التفت الى الحاضرين وقال : إني مسافر الليلة على سفينتي الى جزيرة مان فهل بينكم من يريد السفر ؟

فارتعش البوليس ولكنه لم يفه بحرف .

وكان أحد النوتية جالساً يشرب مع رفاقه ، فلما سمع صوت الرجل قال :

هذا أنت يا بنيتي ؟

– نعم ، وقد أتيت أشرب كأساً قبل سفري على أجد في الخمارة من يود السفر .

– الى اين انت مسافر ؟

– إنني مسافر الى ارلندا .

– متى ؟

– بعد ساعة

– أتسافر على سفينتك فكتوريا ؟

– نعم إنها صغيرة كما تعلم ولكنها تقاوم الأمواج كالمدرعات .

– ولكن البحر شديد الاضطراب الليلة .

– هو ذاك ، غير ان اضطراب البحار لا تروع أمثالي ، وأنت تعرف مهارة بحارتي . وفوق ذلك فاني مضطر ان أسافر الليلة إلى جزيرة مان لأشغال خطيرة والريح موافقة فانها تهب من الشمال الشرقي .

– إني أرجو لك سفراً سعيداً موفقاً ، ولكني لست من المسافرين .

فأفرغ النوتي بقية الزجاجة في كأسه ، فشرب ما بها ثم حيا الجماعة وهم بالخروج .

فاستوقفه البوليس سكوتوي عند ذلك ، وقال له : أحقيقة أنك مسافر الليلة ؟

- دون شك .

– أتذهب الى جزيرة مان ؟

– نعم يا سيدي .

– كم تأخذ مني أجرة سفري في سفينتك ؟

– جنيهين ونصف .

– إذاً أسافر معك وهذه الأجرة أدفعها لك سلفاً .

فقال النوتي : إذا كان ذلك فهلم معي الآن وهات أمتعة سفرك .
– ليس لدي غير هذه الحقيبة .

ثم أخذ حقيبته وخرج من الخمارة في أثر النوتي وكان النوتيين يعجبون لجرأته النادرة ، فان البحر كان شديد الاضطراب وهو يسافر مسافة شاسعة في فلك صغير .

وبعد ذلك بساعة كانت تلك السفينة تخترق عبـــاب الريح ، وترقص فوق الأمواج .

وكان البوليس ممسكاً بحبال السفينة حذراً من ان تقذفه الرياح الى البحر لشدتها ، والربان وبحارته يراقبون سير الفلك ، دون اكتراث للأخطار .

غير ان هذا البوليس لم يلبث ان ندم ، لشدة ما لقيه من العناء . وفيما هو على ذلك دنا منه رجل كان نائماً في أرض السفينة وقـــال له : ألا ترى يا سيدي ان البحر شديد الاضطراب وأننا في خطر ؟

فارتعش سكوتوي وذكر انه سمع ذلك الصوت .

ولكنه لم يذكر أين ، وحاول ان يرى وجه محدثه ، فحال دون ذلك إربداد الظلام .

ثم دنا الرجل المجهول من البوليس حتى التصق به ووضع يـده فوق كتفه فخيل للبوليس أنها يد من حديد وقال له : ماذا تريد مني ؟

ـ اني مسافر في هذه السفينة مثلك ، وقد رأيت اضطراب البحر فجئت أسألك رأيك .

ـ عن أي شيء !

ـ أتظن أن هذه السفينـة الصغيرة ، تتحمل مواصلة السير وتستطيـع بلوغ الميناء ؟

ـ لا أعلم .

ثم قال في نفسه لا شك اني سمعت هذا الصوت ، ولكن أين !

أما الرجل فعاد إلى الحديث وقال . يظهر لي انك غير خائف .

ـ ومما الخوف فان حياتنا بيد الله !

فضحك الرجل بسخرية وقال : أتعتقد أنت بالله !

ـ ولماذا لا أعتقد به !

ـ لأنك تمتهن مهنة لا تنطبق على ارادته ولا يمتهنها من يعتقد به .

فرجع البوليس خطوة إلى الوراء مذعراً وقال : ماذا تعني بذلك ..

فأجابه بلهجـة الهازىء : أعني أنك من رجال البوليس الذين يشتغلون بالجاسوسية .

ـ وإذا كان ذلك ، ماذا يعنيك أمري .

ـ انك اكتشفت أول أمس اكتشافاً جميلاً في لندرا يدل على توقد ذكائك.

فاستدل البوليس من هذه الكلمات على كل شيء وحاول أن يتخلص من

الرجل وقال له : انظر إلي فلعلك تعرفني الآن .

فلم يكد البوليس يراه ، حتى صاح صيحة ذعر وقال : الرجل العبوس .

ـ نعم ، هو بعينه ، وقد أيقنت الآن يا سيدي انك دون ما بلغته من الشهرة ، فقد قيل عنك انك من أذكياء رجال البوليس ولكنك سقطت في الفخ الذي نصب لك دون احتراس .

فذعر البوليس ذعراً شديداً وجعل يصيح مستغيثاً ..

فأسرع اليه الربان وقال : ما حدث ..

أما روكامبول فأنه أشار إلى الربان وقال للبوليس : لا بد أن تكون عرفت أيضاً هذا الرجل النوتي الذي تستجير بـه ، فانه صاحب المكتبة في المحطة ، أي ميلون .

فاسطكت أسنان البوليس من الرعب وأيقن أنه بات مقضياً عليه .

وعند ذلك جعل روكامبول وميلون يتحدثان بلغة لم يفهمها البوليس حتى إذا فرغا من حديثهما ، التفت روكامبول الى البوليس وقال له : اني مخيرك الان في أمر .

ـ بما تخيرني ..

ـ بالطريقة التي تريد أن تموت فيها ، ثم أخرج مسدساً من جيبه فصوبه اليه وقال : أتريد أن أقتلك بالرصاص ، أم تؤثر أن القيك في البحر ، فتأكلك الأسماك ..

فجثا البوليس على ركبتيه وقد ملأ فؤاده رعباً وقال : التمس منك العفو يا سيدي عن حياتي فلي امرأة وبنون لا معين لهم سواي .

فضحك روكامبول وقال : لنفترض انك تمكنت من القبض على تلك الليلة العلك كنت ترجع عن الذهاب بي الى سجن توليت ، حيث لا يكون

جزائي فيه غير الشنق .

فلبث البوليس راكماً وقال : العفو والرحمة يا سيدي .

ـ انك تعرف المثل القائل أقتل الذئب خيراً من أن يفترسك ولكني أقول اني على فرط اساءتك إلي لم أحمل عليك حقداً ولم أضمر لك شراً ولكني ان أبقيت عليك أخطأت خطأ لا يغتفر وندمت أشد الندم .

ـ أقسم لك يا سيدي انك لا تخطيء ولا تندم .

ـ أيها الغاشم أتحسب اني أغتر باقسام أمثالك ؟

ـ اني أقسم لك يا سيدي حلفة صادقة انك إذا عفوت عني لا أسيء اليك في حياتي ، ولا أكون عليك في شأن من الشؤون .

فعاد روكامبول إلى المحادثة بتلك اللغة السرية مع ميلون كأنما يتشاوران ، وبقي البوليس راكماً ينتظر القضاء عليه .

إلى ان فرغ من المحادثة فقال روكامبول : إنك تدعى جاك ستوكوي ، اليس كذلك ؟

ـ نعم يا سيدي .

ـ وأنت من رجال البوليس السري ؟

ـ نعم .

ـ إذاً ، لا بد أن يكون لديك أوراق تثبت وظيفتك .

ـ نعم .

ـ ولا بد أيضاً ، أن يكون لديك كتـــاب توصية ، من الأسقف بترس تونن .

ـ نعم ..

ـ إذاً هات هذه الأوراق وهذا الكتاب .

ـ وإن أعطيتك إياها يا سيدي ، اتعفو عني ؟

ـ ان العفو عنك منوط بك فاعطني الأوراق الآن .

ففتح البوليس سترته وأخرج من جيبه محفظة ودفعها لروكامبول ، فأخذها روكامبول وقال لميلون · إحرص على هذا الرجل .

ثم اقترب من المصباح ، ففتح المحفظة وجعل يفحص ما فيها من الأوراق .

- ٢٣ -

وكانت هذه المحفظة محتوية على أوراق كثيرة ، كل واحدة كافية لإثبات مهمة البوليس سكوتوي وبينها جواز غريب في بابه ، وهو الذي كان يبحث عنه روكامبول ..

لأنه جواز سري مكتوب على ورق أصفر ، وفي وسطه صليبان رسما بالحبر الأحمر ، وقد كتب تحتهما بحبر بنفسجي هذان الحرفان ر. ب فكان للبوليس سكوتوي بفضل هذا الجواز ، سلطة لا حد لها ، إذ كان يستطيع به أن يذهب إلى حيث شاء ، ويجمع قدر ما يشاء من أولئك الرجال ، ذوي الملابس السوداء المنتمين إلى الجمعية الانجليكانية ، برئاسة الأسقف بترس تون .

فلما فحص روكامبول هذا الجواز ، وضعه في جيبه وعاد إلى سكوتوي ، الذي كان يخفره ميلون ، ولم يكن ميلون ينتظر غير إشارة من روكامبول كي يحمله ويلقيه إلى البحر .

أما روكامبول فانه التفت إلى سكوتوي وقال له : إن الموقف خطير وان سلامتك موقوفة على صدقك في القول .

- سل يا سيدي ما تشاء أجبك
- ابدأ بسؤالك إلى أين كنت مسافراً ؟

– إلى جزيرة مان .

– بأية مهمة ؟

– بمهمة القبض على جوهن بيل ، مدير مستشفى بـدلام ومن معه من المجانـين ..

– وبعد ذلك ؟

– أضعهم في مستشفى المجانين في جزيرة مان وأدعهم فيه .

– ألم تكن متفقاً مع الأسقف على أن تكتب اليه حين تقبض عليهم .

– نعم .

- إذن تعال معي واكتب اليه رسالة أمليها عليك .

فلم يجد البوليس بدأ من الامتثال حذر القتـــل ، وجلس حيث أمره روكامبول فأحضر له ميلون أدوات الكتابة وأعطاه إياها .

فقال البوليس لروكامبول . إني سأكتب كل ما تمليه علي ، ولكن كتابتي ستكون مضطربة لشدة هياج البحر .

فابتسم روكامبول وقال : لا تهتم بذلك واكتب .

فأخذ القلم وكتب باملاء روكامبول ما يأتي :

« سيدي الأسقف ..

« ان جوهن بيل واللورد ولم ، وبقية الرفاق قبض عليهم « ولكني لا أعود الآن إلى لندرا ، فإن جوهن مجنون ، ولا ريب في جنونـه ، غير أن جنونه منحصر في كنوز أجداده وهذه الكنوز موجودة حقيقة فلا أستطيع الإيضاح أكثر من ذلك الآن ..

« اني أكتب اليك هذه الرسالة وأنا في سفينة صغيرة تتقاذفها الأمواج وهي ذاهبة إلى لندرا .

« وقد قضيت المهمة التي انتدبتني اليهـــا فبت حراً ، ولكني أحب أن

اقترح عليك أمراً ، وهو اني واثق من إيجاد تلك الكنوز المدفونة التي يبحث عنها جوهن بيل ، فهل تريد أن نقتسمها بيننا ؟

« فإذا راقت لك القسمة فأركب أول باخرة مزمعة على السفر واحضر بها إلى كورك ، فان حضرت فانك تجد في مينائها فندقاً عنوانه زنبقة الحقل وإني أنتظرك فيه » .

« خادمك المطيع »

« سكوتوي »

ولما فرغ من كتابة الرسالة قال له روكامبول : انك مصطلح دون شك على أن تضيف إلى توقيعك علامة سرية .

– هو ذاك ..

– إذاً ضع هذه العلامة واحذر أن يحول في خاطرك خديعتي فلا يكون جزاؤك غير الموت .

ثم أشار روكامبول إلى عرض البحر وقال للبوليس : انظر الى هذا النور المتألق في البحر ، انه نور سفينة خاصة بالارلنـديين ، وكلهم مخلصون لي ، وستأتي الينا عند الصباح فيأخذك ربانها ويحبسك في عنبرهـــا إلى أن يرد تلغراف يشير إلى أن الأسقف بترس توين برح لفربول إلى ارلندا ، وعلى هذا فان كان توقيعك صحيحاً فلا بد للاسقف أن يحضر ، وان لم يحضر كان التوقيع مزوراً فتصبح طعاماً للأسماك .

فأخذ البوليس القلم دون أن يجيب ورسم تحت توقيعه صليبين .

فقال له روكامبول : لقد أحسنت ، فاكتب الآن العنوان .

فامتثل البوليس ، وعند ذلك ، أخذ روكامبول الكتاب ووضعـــه في جيبه .

وظلت السفينة سائرة ، إلى أن أشرق الصباح ، فرأى روكامبول تلك الباخرة التي أخبر عنها روكامبول البوليس ، وامر أن يشير لها براية بيضاء ،

ولم تكد تمضي ساعة حتى التقتا فنقل البوليس اليها وسجن في عنبرها .

وواصلت سفينة روكامبول سيرها إلى جزيرة مان ، وقال روكامبول لميلون : لقد ظفرنا الآن ، بهذا الأسقف كل الظفر ، ولم يبق له منـــاص هذه المرة .

- ٢٤ -

ولنعد الآن إلى الباخرة التي كانت تقل جوهن بيل ورفاقه ، فانها حـين وصلت إلى ميناء دوغلاس ، في جزيرة مان ، والقت مراسيها ، كان أول من صعد اليها ضابط انكليزي فاجتمع بربانها وقال له : كم عزمت على الإقامة في هذه الميناء ؟

ـ اني أقيم فيها إلى ان يتم نقل الركاب .

ـ ولكني قادم اليك بنبأ من الأميرالية سيغير خطتك .

ثم أعطاه الأمر ففضه الربان وقرأ ما يأتي :

(نأمر الربان روبرت والاس أن يبقى في جزيرة مان بباخرته إلى أن ترد اليه التعليمات) .

فقال الربان بعد أن اطلع على التلغراف : ولكن يوجد في باخرتي كثيرون من المسافرين إلى ارلندا

ـ أعرف ذلك .

وهم لا يطيقون الصبر إلى أن ترد التعليمات .

ـ لقد توقعت الأميرالية ذلك فانه يوجد الآن باخرة في المينـــاء متأهبة للسفر إلى دبلين

ـ العلها تنقل المسافرين في باخرتي ؟

– هو ذاك ، ما عدا خمسة منهم ..

– من هم هؤلاء الخمسة ؟

– المستر جوهن بيل مدير مستشفى بدلام ورجل من المجرمين يدعى ولتر بريس ، وآخر من رجال الشرائع يدعى ادوار كوكري ، ورجـــل آخر من الأعيان يدعى السير ارثير .

– وهؤلاء أيجب ان ابقيهم في باخرتي ؟

– نعم إلى أن ترد أوامر جديدة بشأنهم .

– وإن أرادوا أن يخرجوا منها إلى المدينة للنزهة ؟

– تأذن لهم بشرط أن تكون مسؤولاً عنهم .

– سأمتثل للأمر ، وسأأذن لهؤلاء الذين اخترتهم بالنزهة وأتحمل تبعتهم .

فودعه الضابط وانصرف .

وكان مرميس واقفاً بعيداً عنهما يصغي إلى حديثهما فلما انصرف الضابط دنا من الربان وقال : ماذا حدث ؟

فأطلعة الربان على الأمر الصادر من الأميرالية ، فلما وقف عليه مرميس قال ماذا عولت أن تفعل ؟

– عزمت على الطاعة والامتثال ، فإن الرجـــل العبوس يشتغل بأمرنا دون شك .

– وإن جاء اعوان الأسقف قبل الرئيس ؟

فـــأجابه الربان ببرود : ان اتفق ذلك ننظر حينئذ فيا يجب ان نصنعه ؟ .

أما جوهن بيل ، فكان يسير على ظهر السفينة ذهـاباً وإياباً ، وقد راعه ما رآه من إطفاء نور السفينة ، ووقوفها في الميناء من غير حراك ، فدنا من الربان وقال له بعنف : ما هذا الوقوف ، وما هذا البطء ، أتظن أن الوقت متسع لدي ؟

- اننا ننتظر ، يا سيدي ، تلك الباخرة الراسية في طرف الميناء فإنهـا مسافرة قريباً .

- ولماذا ننتظرها ؟

- لأنها ستجيء الينا .

- لماذا ؟

- لنقل الركاب الذين معنا اليها وتذهب بهم إلى ارلندا .

فاضطرب جوهن بيل وقال :

- ولكن لماذا لا تنزل إلى دوغلاس فانك تعلم يقيناً اني أريد أن استشير فيها تلك المرأة المشهورة بفن التنويم .

- سوف تنزل مع رفاقك .

- ومتى استأنف السفر إلى ارلندا ؟

- متى فرغت من استشارة تلك المرأة .

وعادت السكينة إلى جوهن بيل وقال : ان كان كذلك فلا بـــأس من الانتظار .

وبعد هنيهة دخلت الباخرة ونقل اليها المسافرين .

* * *

ولما تم النقل جاء ربان الباخرة التي نقل اليها المسافرون إلى ربان الباخرة التي نقلوا منها وقال له باللغة الارلندية الاصطلاحية : وأنا أيضاً وردني تلغراف كما وردك .

- ممن ؟

- من لفربول وهو وارد اليك .

ثم أعطاه التلغراف وقرأ ما يأتي :

« وصلت مع ميلون الى ليفربول . خبروا مرميس . سيرد اليكم أمر بالبقاء في جزيرة مان ، فلا تقلقوا لذلك ، إن الأمور جارية خير مجرى . »

« ر ... »

ولما قرأ الربان هذا التلغراف دفعه لمرميس فأشرق وجهه بعد انقباضه وأيقن أن الرئيس ساهر عليهم فقال للربان : أنستطيع النزول إلى البر ؟

— دون شك فقد تحملت تبعتكم .

-- متى ننزل ؟

-- بعد ساعة .

فاطمأن مرميس خلافاً لجوهن بيل فقد غضب لهذا التسويف وقـــال : اني أري في جميع ذلك مكيدة هــائلة ، كادها لي زميلي ، كي يستقل في الادارة ، ولكني سأجـــد كنوزي وأصير لورداً ، وعند ذلك أعزله من منصبه شر عزل .

وما زال مرميس يطيب خاطره وهو لا يزيد إلا هياجاً ، وسوء ظن ، حتى أمر الربان بانزال قارب إلى البحر .

وقال له مرميس : أرأيت يا سيدي ان الربان كان صادقـاً ، وانه لا أثر للمكائد ، فهلم بنا الآن فقد دنا زمن استشارة المنومة التي سترشدنا الى مواضع الكنوز .

ولنرجع الآن خطوة الى الوراء فقد تركنا السير ارشيبالد والد اللادي باميلتون ، منذعراً لما رآه من اضطراب الأسقف ، حين علم بوجود الرجل المبوس في لندرا ، وانه كان يخدمه منذ اسبوعين ، فلم يستطع من اضطرابه أن يتفكر بما دار بينه وبين الأسقف من الحديث .

غير انه لما خلا بنفسه ، وزالت دهشة ذلك النبأ أخذ يتمعن في حديث الأسقف ، ويفحص كل كلمة خرجت من فمه ، فذكر ان الأسقف قد أظهر استياء شديداً ، حين كان يعتقد ان اللادي باميلتون ذهبت إلى مستشفى بدلام .

وانه كان يعتقد أيضاً أن أسرة باميلتون تحاول نقض ما تعهد به اللورد أفندال للجمعية الانجليكانية . فقال في نفسه بعد التفكير والتمعن . ان هذا الأسقف لم يسهل للورد وليم سبيل الخروج من المستشفى إلا لخوفه أن تجتمع به اللادي باميلتون

وإنما خشي هذه المقابلة حذراً من اتفاق الاثنين فيحرم عند ذلك من المال الذي تعهد به له اللورد افندال ، إذاً فلا بد أن تكون هذه المبالغ التي يطمع بها الأسقف ويخاطر من أجلها هذه المخاطرة جسيمة جداً ، وإلا لما باع ذمته وضميره بيع السلع .

ولم يكن السير أرشيبالد يعلم قيمة هذه المبالغ ، ولم يدر بشيء من مفاد تعهد صهره فعول على مقابلة الأسقف ومباحثته بجلاء في هذا الشأن .

فان وجد ان المبالغ جسيمة نقض التعهد واتفق مع اللورد وليم .

وعند ذلك خرج من منزله وذهب إلى منزل الأسقف فلم يجده فيه ، فبحث عنه في كل مكان يذهب عادة اليه فلم يظفر به ، فعاد إلى منزله وهو عازم عزماً أكيداً على المفاوضة بأتم الجلاء مع هذا الأسقف الطامع .

ولم يكد يستقر في منزله حتى دخل اليه الخادم برقعة زيارة مكتوب عليها هذا العنوان .

(الكونتس فاندا)

فقال للخادم : من هذه السيدة فاني لا أعرفها ؟

- إنها سيدة بارعة في الجمال وهي تلح يا سيدي بمقابلتكم .

– إذاً لتدخل .

فخرج الخادم ودخلت فاندا فخف السير أرشيبالد لاستقبالها ، وقد بهر ما رآه من جمال صديقة روكامبول .

وكان السير ارشيبالد في الخامسة والخمسين من عمره ، ولكنه كان كثير التأنق ، فلا يحسب من رآه انه قد تجاوز الحلقة الرابعة من العمر .

أما فاندا فقد تأنقت تأنقاً عظيما بملابسها حتى باتت فتنة للناظرين ، فلما دخلت إلى السير ارشيبالد ورأت من نظراته دلائل الاعجاب بجمالها ابتسمت له الطف ابتسام وقالت : العفو يا سيدي فقد تجاسرت بقدومي على زيارتك دون سابق معرفة لأني جئتك بشأن خطير .

فاضطرب السير أرشيبالد للطفها وقدم لها كرسياً ولبث واقفاً امامها وقال لها : ما هي الظروف السعيدة ، التي جعلتني أحظى بهذه الزيارة ، يا سيدتي ؟

– اني أعرف كثيرين يا سيدي يعبثون الآن بك وبابنتك اللادي باميلتون واولهم الأسقف بترس تون .

فارتعش السير أرشيبالد وقال . كيف ذلك ؟

.. ويوجد رجل أيضاً يهتم بشأنكم وهو الرجل العبوس الذي أقام لندرا وأقعدها منذ شهر ، واني قادمة اليك من قبله يا سيدي ..

فأجفل وقال . أنت قادمة إلي من قبل الرجل العبوس ؟

– نعم .. فانه قد برح لندرا في هذا الصباح وعهد الي أن أراك .

فزاد اضطراب السير أرشيبالد وقال اسمحي لي يا سيدتي ان أقول لك اني لا أعرف الرجل العبوس وما رأيته في حياتي

ـ اني أعرف هذا حق العرفان ، العلك معجب كيف انه يرسلني اليك وانت لا تعرفه ؟

ـ هو ذاك ..

فابتسمت فاندا وقالت : ولكن .. متى أصغيت الي يا سيدي ، يبطل عجبك .

فجلس السير أرشيبالد بقربها وقال : تفضلي إذاً يا سيدتي فاني كلي آذان للسمع .

فتكلفت فاندا هيئة السكينة التامة وقالت : أرجو أن تأذن لي يا سيدي ، بالقول اني عارفة بحقيقة ولتر بريس ، الذي يقول انه يدعى اللورد وليم .

فاهتز السير أرشيبالد في كرسيه اهتزازاً عنيفاً ، فقالت له فاندا : رويدك يا سيدي ، واسمح لي أن أتم حديثي ، فان الرجل العبوس قد أخذ على نفسه الانتصار لهذا اللورد المنكود ، ومتى انتصر الرجل العبوس لمظلوم فلا يكون حليفه غير النصر .

فاصفر وجه السير أرشيبالد اصفراراً شديداً ، ولكن فاندا لم تكترث له فمضت في حديثها وقالت . ولا بد أن تكون عالماً يا سيدي أن المرحوم اللورد أفندال قد عهد بأموره الى الجمعية الانجليكانية .

وقد أمضى دون تمعن تعهداً لا يكون بعد تنفيذه غير دمار أسرة باميلتون وتجريدها من معظم ثروتها .

ـ أحق ما تقولين ؟

ـ كل الحق ، فان الأسقف بترس تون رئيس هذه الجمعية الخطرة وضع هذا التمهد الذى أعطاه إياه اللورد افندال في مكتب المحامي كوكلام ، وكان

لهذا المحامي ، سكرتير يدعى المستر بريدت ، وهو والرجل العبوس واحد يا سيدي .

– لقد عرفت ذلك يا سيدتي .

– بقي أمر لم تعرفه وهو أن الرجل العبوس قد اختفى فاختفت معه تلك الأوراق التي كانت سلاح الأسقف ضدكم بحيث بات هـذا الأسقف دون سلاح .

فاتقدت عينا السير ارشيبالد ببارق من الفرح وقال : أهذا أكيد ؟

فابتسمت فاندا وقالت . هـذا أكيد لا ريب فيه ، ولكن لا تتسرع بالسرور فانك لا تكسب شيئاً من اختفاء هذه الأوراق .

- كيف ذلك ؟

-- إن خصمك قد تغير ، ليس إلا فبدلاً من أن يكون الأسقف ، صار الرجل العبوس .

- ولكن ماذا يريد مني الرجل العبوس ؟

– اني قادمة اليك باقتراحاته .

– تفضلي يا سيدتي بعرضها علي لننظر فيها .

– إن الرجل العبوس يا سيدي تولى رئاسة جمعية أشد بأساً من الجمعية التي يتولاها الأسقف .

– العله زعيم الارلنديين ؟

قالت : ربما ، وقد آلى الرجل العبوس على نفسه أن يبدأ باطلاق سراح اللورد وليم .

– اني لا أعارض في ذلك .

– ثم يرد اليه ثروته .

فلم يجب بحرف .

قالت : ثم يرد اليه اسمه ولقبه .

ــ ولكن هذا مستحيل يا سيدتي .

ــ لماذا ؟

ــ لأن اللورد وليم قد مات في عرف الحكومة والناس .

ــ ولكنه في عرفك لم يمت .

ــ هو ذاك يا سيدتي ، ولكن يستحيل رد اسمه اليه .

ــ بل إن الأمر سهل ميسور .

ــ كيف ذلك ؟

ــ بواسطة إقرار الضابط برمي ، فان أوراق إقراره محفوظة وهي مسجلة في سفارة انكلترا في باريس .

ــ ولكن ، هذه الاوراق قد تكون مفقودة .

ــ كلا ، يا سيدي ، بل هي محفوظة عند الرجل العبوس .

فتجهم وجه السير أرشيبالد وقال : اذاً ، سيؤول الامر الى المرافعات في القضايا .

فابتسمت فاندا وقالت : انك منخدع يا سيدي ، فان الرجل العبوس ما تعود أن ينال حقاً بواسطة القضاء ، وفوق ذلك فهو محكوم عليه بالاعدام في انكلترا ، فكيف يستطيع الظهور أمام القضاء ؟

ــ ان كان كما تقولين ، فما نخاف اذاً أنا وابنتي ؟

ــ تخافان من الطرق التي يستعملها الرجل العبوس لنيل حق اللورد وليم ، وإن طرقه هائلة في بعض الاحيان .

وكانت فاندا تقول هذا القول بلهجة الوعيد حتى ان السير أرشيبالد خاف وعيدها ، فاغتنمت فاندا فرصة خوفه وقالت له : انك تحب ابنتك دون شك يا سيدي فاسمح لي أن أسديك نصيحة .

ــ ما هي يا سيدتي ؟

ــ ان اوراق تعهد اللورد أفندال لو بقيت في يد الاسقف لتمكن من

تجريد إبنتك من معظم أموالها ، ولكنك أنت واسع الثروة فلا تبالي بخسارة هذه الاموال ، ويبقى للادي باميلتون اسمها ، ولاولادها لقب أبيهم . والان فاعلم انك ان رفضت اقتراحات الرجل العبوس فان اللادي باميلتون لا تخسر ثروتها واسمها فقط ، بل قد تفقد حياتها .

فارتعد السير أرشيبالد وقال : ماذا يقترح هذا الرجل ؟

ـ التخلي عن ثروة باميلتون لصاحبها اللورد وليم

ـ ولكن هذا محال

ـ وهو لا يقتصر على استرجاع الثروة وحدها بل يطلب أن تعترفوا بأن اللورد وليم رئيس أسرة باميلتون .

ـ وهذا لا يكون .

فأجابته فاندا ببرود ان الرجل العبوس أمرني أن أمهلك يومين لتتمعن في اقتراحه وسأعود اليك بعد يومين .

ثم نهضت وهي تتبسم له الطف ابتسام ، فاضطرب قلبه لابتسامها على ما هو فيه من الشواغل فودعها الى الباب ، وهو منشغل بجمالها .

ولما أصبح وحده وضع رأسه بين يديه وقال في نفسه : اني أخاف هذه المرأة أكثر مما أخاف الرجل العبوس .

ذلك انه شعر بعاصفة حب وحشي قد هاجت في فؤاده فشغلته عن ابنته وعن أسرة باميلتون .

ان مدينة دوغلاس ، وهي عاصمة جزيرة مان ، ضيقة الشوارع واطئة المنازل يطوفها السائر فيها بنصف ساعة .

وقد تركنا مرميس وجوهن بيل ينزلان من الباخرة الى البر ، فلما رست السفينة ونزلا ، جعل جوهن بيل يسير سير المستعجل ، ومرميس في أثره

فأوقفه مرميس وقال له : أية فائدة من السرعة في السير إذا كنا لا نعلم أين نسير ؟

ـ إننا ذاهبان إلى المنومة .

هو ذاك ولكن أتعلم أين تقيم هذه المنومة ؟

ـ كلا .

ـ إذاً دعني أستعلم عن مكانها .

وإنما قال مرميس هذا القول لأنه رأى حين نزوله من الباخرة رجلاً يتبعه وينظر له نظرات خاصة ، فأيقن ان لهذا الرجل شأناً معه ، فانفصل عن جوهن بيل ، وذهب تواً اليه فقال له : أتأذن لي ، يا سيدي ، ان أسألك سؤالاً ؟

فابتسم الرجل وقال : سل يا سيدي ما تشاء .

ـ ألا يوجد منومة في دوغلاس ؟

ـ نعم .

ـ أين تقيم ؟

ـ إتبعني أدلك عليها .

وكان جوهن بيل قد سمع الحديث فقال له : إني أكافئك بجنيه على أن تسرع الخطى .

أهي بعيدة ؟

– كلا فاتبعاني .

وسار الرجل وجوهن في أثره ومرميس الى جانبه فقال له الرجل : أأنت الذي يدعونه السير ارثر ؟

فابتسم مرميس وقال : إني أدعى في الوقت الحاضر بهذا الاسم .

– إذاً خذ هذه الرسالة فقد عهد إلي ان أطلعك عليها .

– ما هي هذه الرسالة .

– تلغراف .

– من أين ؟

– من ليفربول وقد ورد من ساعة .

ففتح مرميس التلغراف وقرأ ما يأتي :

« إلى جورج بلاك في دوغلاس

« دع المنومة تبقي عندها جوهن بيل ودع السير أرثر ينتظرني » .

الامضاء « ر . »

فنظر مرميس الى الرجل وأشار اليه إشارة إرلندية أجابه بمثلها فقال له مرميس : ان توصية الرئيس لا فائدة منها لأننا أسرى في الجزيرة ولا بد لنا من البقاء فيها .

– إني لا أبالي بأسركم ، فلو لم تكن إرادة الرئيس ان تبقـــوا في الجزيرة لأخرجتكم منها بالرغم عن المستر وجوريم .

وكان مرميس قد سمع هذا الاسم اول مرة ، فقال له : ومن هو هــذا الشخص ؟

– هو وكيل الجمعية الانجيليكانية في جزيرة مان وسأريك إياه .

فقال له مرميس : إن التعليمات ، التي وردت إلي ، تفيد ان المنومة من أشياعنا .

ـ هو ذاك

ـ أهي عارفة حقيقة بفن التنويم ؟

فابتسم الرجل وقال : هي كذلك عند الاقتضاء .

وقد كان جوهن بيل يتقدم رفاقه وهو يود لو كان له أجنحة فيطير بها الى تلك المرأة ومرميس. ومحدثه يسيران جنباً إلى جنب ووراءهما اللورد وليم وادوارد .

وبعد هنيهة وصلوا الى تلك المرأة المنومة ، فصعد بهم الرجل اليها .

وهناك نقده جوهن بيل ما وعده به من المكافأة وأطلق سراحه .

وهمس الرجل ، في اذن مرميس قائلاً : سنلتقي عند الميناء ، في هذا المساء .

ثم انصرف .

ثم دخلوا جميعهم الى تلك المرأة ، وهي عجوز شمطاء .

ووجدوها جالسة على كرسي كبير ، في غرفة تكاد تكون مظلمة لكثافة ستائرها .

فاستقبلتهم العجوز بلطف وقالت لهم .

ـ ما أسعدني بقدومكم .

فرد جوهن بيل : إننا قادمون إليك للاستشارة .

ـ العلكم تريدون معرفة مستقبل مريض ؟

ـ كلا .

ـ أتبحثون إذن عن مفقود ؟

ـ هو ذاك .

ـ إذاً إدفع خمسة جنيهات سلفاً وضعها فوق المائدة .

فامتثل جوهن ووضع المال حيث أمرته .

وقالت : والآن إجلس بجانبي وانتظر إلى ان أنام .

ثم اضطجعت على كرسيها وأطبقت عينيها .
فجعل قلب جوهن ينبض نبضاً عنيفاً حتى خشي ان يخرج من صدره .

- ٢٧ -

إن للتنويم المغناطيسي طريقتين : إحداهما ان المرء القابل للتنويم ينام بضغط منوم خبير ، والثانية ان القابل للتنويم ينام من نفسه بمحض إرادته .

ويظهر ان هذه العجوز كانت من أهل الطريقة الثانية ، فإنها أغمضت عينيها ولبثت بضع دقائق دون حراك .

ثم أحنت رأسها برفق الى جهة كتفها الأيسر ، وتحركت شفتاها فتمتمت قائلة : إني أرى .

فكاد جوهن بيل يجن من سروره وقال : أترين ؟

— نعم فسلني عما يجول بخاطرك .

فقال لها المدير : أتعلمين من أنا ؟

— نعم إنك لورد نبيل .

ونظر جوهن الى رفاقه نظرة انتصار ، وقال لهم : أرأيتم كيف عرفت الحقيقة ، وكيف أنه يوجد مع الكنوز المدفونة ما يثبت أني من اللوردية .

واستمرت العجوز في حديثها فقالت : إنك تبحث عن كنوز .

— نعم ..

— وهي كنوز مدفونة .

— لقد أصبت . ولكن هل أجد تلك الكنوز ؟

ـ ستجدها .

ـ متى ؟

ـ بعد ثمانية أيام .

ـ في أي مكان الملك ترين ؟

ـ نعم ..

فاتقدت عينا جوهن وقال : ما بالك ساكتة تكلمي .

فلم تجبه بحرف .

فهمس مرميس في أذنه قائلاً : إنها تعبت فاصبر عليها .

فصبر جوهن مكرهاً على أحر من نار الجمر ، إلى ان عادت العجوز الى الكلام ، فقالت : إني أرى وراء عرض البحر ارضاً ، وهذه الأرض جزيرة .

ـ العلها ارلندا ؟

ـ ربما . بل نعم .. نعم ارلندا وستسافرون وتنزلون في ميناء صغيرة من هذه الجزيرة واقعة في الجنوب .

ـ العلها ميناء كورك ؟

. ربما

ـ وبعد ذلك ؟

ـ تسير في طريق ممتدة وراء الميناء ، وتصعدون الى قمة ، وتسيرون نحو ساعتين .

ـ وبعد ذلك أنقف ؟

ـ إنكم تصلون إلى غابة واسعة ، زرعت فيها أشجار السنديان منذ قرنين أو اكثر ، وهذه الكنوز التي تبحثون عنها مدفونة عند جذع إحدى تلك الأشجار .

ـ أية شجرة ؟

فسكتت العجوز وجعل العرق البارد ينصب من على جبين جوهن وأخذ يلح عليها بالسؤال وهي لا تجيب .

فصبر عليها جوهن بايماز مرميس إلى ان تستريح .

ثم رآها انتفضت فجأة وعادت الى الكلام فقالت : أرى بينكم رجلا قد شد حبلا على وسطه .

فدهش جوهن وقال : هذا أكيد .

– وان الحبل حبل مشنوق .

فاضطرب جوهن لهذه الحقائق ، وجعل يسير في الغرفة ذهاباً وإياباً بخطوات غير موزونة .

فقالت العجوز : وإني أرى بجانب هذا الشخص الذي عقد الحبل على وسطه شخصاً آخر ، فيجب عليك حين تبحث عن كنوزك ان تصحب معك هذين الشخصين إلى الغابة التي ذكرتها لك .

وكان الرجل الذي أشارت اليه اللورد وليم .

فقال لها : حسناً سأفعل .

– إن حبل المشنوق سيفيدك فائدة كبرى . ولكن هذه الفائدة لا تتم إلا إذا دخل إلى الغابة هذان الشخصان ، وكان كل منهما ممسكاً طرفاً من طرفي الحبل .

– سيفعلان . والآن قولي لي كيف استطيع ان أعرف الشجرة التي دفنت تحتها الكنوز ؟

– لا أستطيع ان أقول لك اليوم .

– لماذا ؟

– لأني لا أرى !

– إذاً سنبحث تحت جميع أشجار الغابة .

– إنك تضيع الوقت سدى ، إذ يوجد في تلك الغابة نحو الفي شجرة

وكلها متشابهة .

فظهرت على محيا جوهن علائم اليأس وقال : إذاً كيف نعمل ؟

ــ أنا أرشدك إلى طريقة ، وهي انه يجب ان تدع احدى المجانين يلمس هذا الحبل .

ــ لماذا اخترت ان يكون مجنوناً دون سواه ؟

ــ لا أستطيع ان أقول لك ولكن ذلك لا بد منه .

ــ وبعد ذلك ؟

ــ تسافر إلى كورك وتسير في الطريق الذي ارشدتك اليه ، ثم تذهب الى غابة السنديان فتدخل اليها مع الرجلين ويكون كل منهما ممسكاً باحدى طرفي الحبل ، ويجب عليهما ان لا ينظرا نظرة الى الأرض بل تكون أبصارهما شاخصة الى السماء .

ــ وبعد ذلك ؟

ــ وبعد ذلك يعثر أحدهما ، فتقف عند المكان الذي عثر فيه ، وتبحث تحت أقرب شجرة من الشخص الذي عثر ، فتجد تحتها ما تبحث عنه .

فصاح جوهن صيحة فرح صحت لها العجوز ، فنظرت الى من حولها نظراً تائهاً ، الى ان استقر على جوهن فقالت له : أأنت الذي كان يسألني حين كنت نائمة ؟

ــ نعم

ــ العلك كنت راضياً ؟

ــ كل الرضى .

ــ لا تؤاخذني بسؤالي ، فاني حين أستفيق لا أذكر شيئاً مما قلته ، حين نومي .

فأعطاها جوهن جنيهين وقال : يجب ان نسافر في الحال .

ثم خرج من الغرفة وتبعه رفاقه .

فلما صاروا في الشارع ، قال له مرميس : لا أرى الأمر سهلاً ، كما تراه يا حضرة المدير .

فحملق جوهن بعينيه وقال : كيف ذلك ؟

- ٢٨ -

ـ ذلك انه يجب قبل كل شيء ان تظفر بمجنون يلمس الحبل بيده ، كما قالت العجوز .

ـ أليس اللورد وليم معنا ؟

ـ نعم ولكنك تعلم يقيناً انه سليم العقل .

ـ وادوارد ؟

ـ إنه مثله لا أثر في عقله للجنون .

ـ ولكنه كان مجنوناً .

ـ إنما المراد ان يمسك الحبل شخص به مس الجنون . فاذا كان ادوارد مجنوناً من قبل فهو الآن سليم العقل .

ـ إذاً ماذا نعمل ؟

ـ يجب ان نبحث عن مجنون .

ـ ذلك سهل ايضاً فانه يوجد في دوغلاس مستشفى للمجانين .

ـ أتعرف مديرها ؟

ـ كلا فاني لم أره ولم يرني ، غير اننا تراسلنا وان العلائق كثيرة بين مستشفانا في لندرا ومستشفاه .

ـ أتعلم أين هو هذا المستشفى ؟

ـ كلا .

وكان ذلك الشخص الذي أرشدهم إلى منزل العجوز المنومة مـــاراً في ذلك الحين فناداه وسأله ان يرشده الى المستشفى .

فامتثل وسار أمامهم وهم في أثره .

فلما قربوا من المستشفى وقف مرميس فجـــأة وقال لجوهن : أتأذن لي يا سيدي بابداء ملاحظة ؟

ـ ما هي ؟

ـ يجب ان ننهج مناهج الحكمة ونتمعن في كل امر .

ـ ماذا تعني ؟

ـ لقد قلت لي ان مدير هذا المستشفى لم يعرفك .

ـ هو ذاك فانه لم يرني ولم أره .

ـ إذاً ، إصغ إلي أيها الصديق . انك تعتقد بحبل المشنوق ، كما أعتقـد أنا به أيضاً . ولكن كثيرين من الناس لا يعتقدون هذا الاعتقاد ، بـــل قد يوجد بينهم من يندهش ، حين يعـــلم اعتقادك ، وأنت من أطبـاء المجانين . وفوق ذلك ، فانك متأثر بهذا الحبل ، تأثراً عجيباً ، يبدو عليك لأول وهلة .

ـ ذلك لأن صـبري كاد ينفـد . وأود لو طرت بأجنحـة ، الى تلك الغاية .

ـ هو ذاك ، ولكن مدير المستشفى يندهش حين يرى منك هذا التسرع ، وعندي انه يجب ان تخبره بزيارتك من قبل .

ـ من يتولى إخباره ؟

ـ أنا فاني أشد سكينة منك .

فتنهد جوهن وقال : ولكن ذلك يدعو إلى التأخير .

ـ إنه يؤخرنا ربع ساعة وهو خير من تأخير ثلاثة أيام .

فارتعش جوهن وقال .

ـ كيف ذلك ؟

ـ ذلك ان المدير قد يندهش مما يراه من اعتقادك بالحبل ، وطلبك ان يمسه مجنون ، ويعجب من تأثرك وحكاية كنزك .

فيتزعزع اعتقاده بعقلك ، فيكتب الى ارلندا بشأنك ويبقيك عنـده حتى يأتيه الجواب .

فاصفر محيا جوهن وقال : إفعل مـــا تشاء ، وادخل وحدك إلى مستشفى المجانين .

ـ أتنتظرني عند الباب .

ـ نعم ..

فواصلوا سيرهم ، وكان الرجل الدليـــل يمشي بجانب مرميس . فقال له مرميس : ليفعل مدير المستشفى به ما يشاء . أما أنا فاني أجري حسب تعليمات الرئيس .

ـ ما هي تعليماته ؟

ـ هي ان القى طريقة أبقي فيها جوهن بجزيرة مان .

ـ العلك لقيت الطريقة ؟

ـ نعم وراقب أنت جوهن بيل لأني داخل وحدي الى المستشفى .

وكانوا قد وصلوا الى المستشفى ، فوقفوا جميعهم بعيداً . وتقدم مرميس الى البواب وقال له :

ـ هل المدير في المستشفى ؟

ـ نعم يا سيدي .

ـ قل له إذاً ، ان زميله جوهن بيل ، مدير مستشفى لنـدرا ، قادم لزيارته .

فانحنى البواب وتقدم أمام مرميس الى غرفة المدير ، وهو يعتقد انـــه جوهن بيل نفسه .

- ٢٩ -

كان هذا المدير يدعى وادامان ، وهو منـــاقض أتم التناقض لزميله جوهن بيل ، من حيث الطباع والأخلاق . إذ كان يشبه أكثر الانكليز بالسكينة والجمود .

وكان يعتقـد أن كل شخص يمشي ، لما يجد من اللذة بالمشي . وكل شخص يتكلم دون ان يسفر حديثه عن نتيجة ، فهو دون شك ، من المجانين .

فلما دخل عليه مرميس كان جالســاً على منضدة ، عليها كثير من الكتب والأوراق .

فلم ينهض لقدومه بل مد اليه يده مسلماً وقال له : لقد آن لنا ان نتعارف بالوجوه يا زميلي العزيز بعد طول تعارفنا بالكتابة .

فأجابه مرميس ، بنفس بروده . لقد أصبت ، فقد تبودلت بيننـــا رسائل كثيرة .

– ما أسعدني بقدومك فاني لم أكن أتوقع زيارتك ؟

– إني جئتك في مهمة التمس قضاءها فاني مسافر الى ارلندا مع ثلاثة مجانين من مستشفى بدلام .

وان بينهم شخصاً يدعى ولتر بريس قد نال الشفاء تقريباً ، وكنت أتمنى أن يتم السفر شفاءه .

– العله انتكس ؟

ـ وأي انتكاس . فانه بعد ان خرجنا من لندرا عاوده الجنون ، ولكن بشكل غريب فانه نسي اسمه الحقيقي ، وبات يعتقد انه يدعى جوهن بيل أي أنا .

فلم يضحك المدير وقال : إنك تحسب هذا النوع من الجنون فريداً في نوعه ، ولكن قد اتفق منذ ستة أعوام ، حادثة تشبه هذه الحادثة تماماً في هذا المستشفى . فهل أتيت ايها الصديق تستشيرني في أمر هذا الشخص ؟

ـ بل أتيت أسألك معاونتي فاني مسافر الى ارلندا ولي فيها مشاغل خاصة فاذا بقي معي هذا المنكود ولتر بريس بعد انتكاسه شغلتني مراقبته عما سافرت من أجله .

ـ إذاً تريد ان أبقيه عندي في المستشفى الى ان تعود ؟

ـ هو ذاك فهل أثقل عليك بهذا الطلب ؟

ـ كلا فأرسله لي .

ـ إني ذاهب لإحضاره .

ـ العله في مكان قريب ؟

ـ إنه واقف على الباب ولا بد لي أن أخبرك بأنواع جنونه قبل إحضاره فانه لا يعتقد فقط انه أنا بل هو يعتقد ان لديه كنوزاً مدفونة وانه سيظفر بهذه الكنوز بواسطة حبل مشنوق .

ـ إن هذا الجنون أيضاً كثير الشيوع ..

وهم ان يروي له حادثة تشبهها .

فقاطعه مرميس وقال له : إني ذاهب لإحضار هذا المنكود ، فهو واقف عند الباب .

ثم خرج مرميس الى جوهن ووجده ينتظره بفارغ الصبر فقال له هلم معي فقد أخبرت المدير بقدومك فهو يستقبلك خير استقبال ، وتختار أي مجنون

شث من مستشفاه ليمس الحبل كما قالت العجوز .

فدخل جوهن مع مرميس الى غرفة المدير ، فلم ينهض المدير لاستقباله ولكن جوهن هجم عليه فجعل يعانقه ويقول : ما أسعدني بلقائك ، أيها الزميل العزيز .

فرد المدير بمثل تحيته وهو يبتسم .

– وإني أحسب نفسي سعيداً باجتماعي بك ، لأني ساعتزل المهنة وأنت في منصب الرئاسة .

– كيف ذلك ؟

– ذلك لأني لورد أيها الصديق وساغدو من كبار الأغنياء

وكان من عادة هذا المدير انه لا يناقض المجانين في شيء من أقوالهم فقال : لقد أخبروني بذلك فأهنئك .

أما جوهن بيل فانه لم يكن يطيب له غير التحدث بثروته ولورديته وحبله ، فقال : إن السير ارثر قد أحضر الحبل الذي طالما بحثت عنه .

– من هو أرثر هذا ؟

فغمز مرميس المدير بعينه وقال : هو أنا يا سيدي .

فقال له المدير : وماذا تريد ان تصنع بهذا الحبل ؟

– أريد ان يلمسه أحد المجانين عندكم .

– سأفعل كل ما تريد .

ثم ضغط على زر كهربائي فجاءه اثنان من الممرضين : فقال لهما : سيرا به الى جوناتهام .

فالتفت جوهن الى مرميس ، وقال له : هات الآن الحبل ، فقد قضي الأمر .

فأعطاه مرميس ذلك الحبل الذي شنق به توما .

فسار به مع الممرضين وبقي مرميس مع المدير .

فقال له المدير : إنهما سيصبان عليه الماء البارد ، فيهدأ ثائر جنونه .

وعض مرميس شفته ، كي لا يضحك ، وقال : إنه محتاج إلى هذا العلاج .

* * *

وكان مرميس باش الوجه . غير ان تلك البشاشة لم تدم ، فقد فتح الباب عند ذلك ، ودخل أحد الخدم وقال : إن المستر وجوربيم بالباب ، يا سيدي .

فارتعش مرميس لسماعه هذا الاسم .

أما المدير فانه أسرع لاستقباله ، فان هذا الزائر كان وكيل الجمعية الانجيليكانية في الجزيرة .

ودخل الوكيل فقال للمدير : ألم يزرك المستر جوهن بيل مدير مستشفى بدلام في لندرا ؟

فدله المدير على مرميس وقال : هذا هو يا سيدي .

فجعل الوكيل ينظر إلى مرميس نظرات الشك حتى انه اضطرب لنظراته على كونه تلميذ روكامبول .

ثم بادره الوكيل بالحديث فقال له :

— أأنت هو المستر جوهن بيل ؟

فتشدد مرميس وقال : نعم أنا هو .

— إنك لم تحضر وحدك الى الجزيرة ، بل أحضرت معك مجنوعاً يدعى ولتر بريس .

فقال المدير : قد أدخلناه الآن الى المستشفى .

وقال مرميس : أما الآخر فانه ينتظرني عند الباب .

فأخرج الوكيل دفتراً من جيبه فنظر فيه وقال : لقد حضر معك أيضاً شخص يدعى السير أرثر فأين هو ؟

ـ إنه ينتظرني مع ادوارد .

ـ اني أحب أن أرى الاثنين .

فنهض مرميس وقال : إني ذاهب لاحضارهما .

ـ حسناً تفعل ، ولكن لا بـد لي من القول لك انه وردني تلغراف من لندرا بشأنك ، وهذا التلغراف وارد من ادارة البوليس يقضي عليك أنت وجوهن بيل بالسجن مع رفاقك في المستشفى .

فتظاهر مرميس بالدهشة وقال : أنا جوهن بيل مدير مستشفى بدلام يحكم علي بالسجن مع المجانين انك مخطيء !.

ـ كلا ، فان الأمر صريح .

فقـال له مدير مستشفى الجزيرة ، وقـد راعه هذا الحكم : افتكر يا سيدي ان هذا الرجل زميلي واني لا أستطيع سجنه عندي إلا إذا كان مصاباً بالجنون .

ـ هو ذاك ، ولكن الأمر الوارد إلي صريح ، كما قلت لكم وهـذا هو التلغراف :

« ان جوهن بيل مدير مستشفى بدلام سافر من لندرا مع مجنونين أحدهما يدعى ولتر بريس ، والآخر كوكري ، ومع رجل عاطل يدعى السير ارثير فاقبضوا على الأربعة واسجنوهم في مستشفى جزيرة مان والقوا تبعة الاحتفاظ بهم على مدير مستشفى مان إلى أن يصل اليكم البوليس سكوتوي فيتصرف بهم كيف شاء ويكون له عليهم مطلق السلطان » .

فقرأ مرميس التلغراف أيضاً ، ثم رده إلى الوكيل وقال : إن الأمر صريح يا سيّدي ، لا سبيل إلى نقضه ، ولكن لا بد لي من أن أوضح لك أمراً تجهله .

فسر مدير المستشفى لقوله وقال : أوضح أيها الزميل العزيز فاني لا أطيق أن اراك متهماً بتهمة الجنون

فابتسم مرميس وقال : انهم لا يتهمونني بالجنون بل بالمؤامرة مع المجانين .

فقال الوكيل : ماذا تعني بذلك ؟

فقال مرميس في نفسه : أرى ان الاثنين يجهلان الحقيقة .

ثم التفت إلى المدير وقال له : انك تعلم أيها الزميل العزيز ان مستشفيات المجانين يتفق لها كثيراً ان تكون شريكة في جرائم سرية ، فان ولتر بريس هذا الذي يسافر معي ليس من المجانين او انه لم يكن مجنوناً حين أدخل إلى مستشفى بدلام .

– إذاً لماذا أدخلوه ؟

– لسبب سيامي ، فان ولتر بريس حين كان متمتعاً بقواه العقلية كان معادياً للشركة الانجليكانيــة التي ينوب عنها المستر رجوريم ، ولم تكن الشركة تعلم ان ولتر بريس قد بات مجنونـــاً حقيقة ، بل كانت تعتقد انه لا يزال سليم العقل .

فلما علمت الشركة اني سافرت به حسبت اني احاول أن أسهل له سبل الفرار فلا بد لي أن ابقى اسيركم إلى أن تتضح الحقيقة فترد اوامر جديدة .

فقال المدير : اني ارجو أن لا يطول زمن انتظار ورودها .

وقال الوكيل : اظنها ترد مع البوليس سكوتوي .

فقال مرميس . متى يحضر البوليس ؟

– غداً وربما حضر اليوم .

– انك عالم دون شك يا سيدي ، انهم حين ارسلوا اليك الأوامر بالقبض علي، ارسلوا مثل هذه الأوامر إلى ادارة البوليس والى ربان الباخرة التي جئت فيها والى قومندان الميناء .

– هو ذاك .

– ولذلك بات فراري مستحيلاً إذا اردته .

- لا أظن انك تحاول الفرار ، فان حقيقة أمرك لا تلبث أن تتضح فيفرج عنك .

– إذاً فاسمح يا سيدي أن التمس قضاء أمر .

– إنه يجاب إن كان في وسعي فعل ما تشاء .

– إني تركت عند الباب السير أرثير وإدوار وهو لا يزال مجنوناً ولكنه أخذ بالشفاء .

أما السير أرثير فهو بأتم العقل وقد سافر معي طائعاً مختاراً ، وهو الآن يقبض عليه ويسجن مع المجانين .

- ما تريد بذلك ؟

– إن هذا الرجل صديق لي وهو من الأشراف ، وإنما سافر معي لمجرد خدمتي في بعض الشؤون ، فهل تأذن لي يا سيدي ، أن أخبره بما اتفق لنـــا فأعزيه عن نكبته !

– لا بأس فأخبره .

– إني مضطر إلى استعمال الحيـلة مع إدوار كي أتمكن من إدخاله إلى المستشفى .

– إفعل ما بدا لك ويقيني انه لا يخطر لك الفرار ببال فاني أحضرت معي ثلة من الجند وهي تطوق المستشفى .

فابتسم مرميس وقال : أرجو أن تطمئن يا سيدي ، فـإن الفرار يضيـم حقي ، وأنا أرجو أن أنال تعويضاً عظيماً من الحكومة عن إساءتها الي .

إذاً فاذهب اليها .

فخرج مرميس من تلك الغرفة إلى الباب الخارجي، حيث كان اللورد وليم وإدوار والدليل الارلندي ينتظرونه فدنا منهم وقال لهم : إن الوقت ضيق

لا يسمح لي بإيضاح فاعلموا أننا أسرى .

فاصفر وجه اللورد وليم فقال له مرميس :

– اطمئن يا سيدي اللورد فان الرجل العبوس لا يلبث أن يحضر فينقذنا فاعلم الآن انك ستدخل وادوار معي إلى هـذا المستشفى واني لا أدعى السير أرثير ، بل جوهن بيل مدير مستشفى بدلام .

فقال له اللورد : ولكن ..

فقطع مرميس عليه الكلام وقال له : سأوضح لك فيما بعد فاعلم الآن إنك تدعى السير ارثير .

وكان الدليل الارلندي يسمع الحديث فقال لمرميس : لا تخف يا سيدي فاني مع اخواني ساهرون عليكم .

وعند ذلك تأبط مرميس ذراع اللورد وليم ، ودخل به إلى الوكيـل مع إدوار فقال له : هذا هو ، يا سيدي السير ارثير الذي أخبرتك عنه .

بعد ذلك بساعة كأن اللورد وليم ومرميس أسيرين في المستشفى أحدهما باسم جوهن بيل ، والآخر باسم السير أرثير ، وكان وكيل الجمعية قد انصرف فجعل مدير المستشفى يعتذر لمرميس ، وهو يحسبه زميله ويطيب خاطره ، فقال له مرميس : أرجو أن لا تستاء أيها الصديق لما أصابك ، فإن البوليس سكوتوي لا يلبث أن يحضر فتتضح الحقيقة .

وكان المدير قد بالغ في إكرامها تلطيفاً لنكبتها ، أما ادوار فقد وضع بين المجانين

وكذلك جوهن بيل فانه كلما صاح صبوا عليه الماء المثلج ، حتى رأى أن لا حيلة له في اثبات صحة عقله فاستسلم للقضاء وكف عن الصياح .

وفي صباح اليوم التالي دخل مدير المستشفى إلى غرفة مرميس وقال له : أبشرك بقدوم سكوتوي .

ولم يكد يتم حديثه حتى دخل سكوتوي ، فلم يكد مرميس يراه حتى اهتز وكاد يفتضح أمره ، فان سكوتوي هذا إنما كان روكامبول بعينه ، ولم يكن قادماً وحده ، بل كان يصحبه وكيل الجمعية الانجليكانية ، فان هذا الوكيل كان واثقاً كل الوثوق أن روكامبول هو سكوتوي البوليس الذي أرسله اليه الأسقف .

* * *

وكان روكامبول قد دخل الى ميناء دوغلاس منذ ساعة ، فكان أول من استقبله الدليل الارلندي .

وكان روكامبول واثقاً أن وكيل الجمعية لا يعرف سكوتوي ، لكنه تزيا بشكله من قبيل الاحتياط .

ولم يعرفه الدليل الارلندي حين رآه ، ولكن روكامبول عرفه بنفسه وقال له : أين رجالي ؟

– انهم في مستشفى المجانين فان وكيل الجمعية قد سجنهم فيه .

– كلهم ؟

– نعم ، غير ان السير ارثير عبث بهم جميعاً .

فظهرت على روكامبول دلائل الاعجاب بتلميذه وقال : كيف ذلك ؟

وأخبره الدليل بجميع ما اتفق .

ولما أتم حكايته قال روكامبول : أتعرف منزل وكيل الجمعية !

– نعم ..

– سر بي اليه ..

فسار به اليه وأخبره الوكيل وهو يحسبه سكوتوي بجميع ما فعله .

فقال روكامبول : لا نية لي بحبس جوهن بيل والسير أرثير ، لأن الأسقف أمر في البدء بالقبض عليهم جميعاً حذراً من فرار ولتر بريس .

– والمجنون الآخر الذي يدعى ادوار !

– ان هذا سأعود به الى بدلام حين عودتي الى لندرا .

– اذاً يجب أن تبقي هنا اللورد وليم .

فأجابه روكامبول بجفاء : لا تذكر أبداً هذا الاسم ، واعلم أنه لا يوجد في الوجود رجل يدعى اللورد وليم ، وان هذا السجين يدعى ولتر بريس ، وهو من المجانين .

– اذاً سندع ولتر بريس .

– نعم الى أن يرد أمر جديد .

– وجوهن بيل أتطلق سراحه ؟

- اني سأعود به الى لندرا وهناك ينال ما يستحقه من التوبيخ .
- اذاً ، انه سيكون أقل جزاؤه العزل .
- هذا لا ريب فيه .

وعندها ذهب الاثنان الى مستشفى المجانين ودخلا الى غرفة مرميس كما تقدم ، وكان مرميس يمثل دور جوهن بيل أتقن تمثيل ، فانه جعل يوبخ روكامبول ويتوعده بالمقاضاة .

وكان روكامبول يمثل دور سكوتوي فيعتذر الى مرميس عما حدث من الخطأ لسجنه .

وذكر له أن الحكومة لا بد أن تعوضه عن هذه الاساءة ، غير انه لامه لوماً لطيفاً وختم لومه بقوله :

- انك تعلم حرص الحكومة على ولتر بريس، وانه شديد الخطر ، ولذلك كان خطأك عظيماً باخراجه من المستشفى ، لأنه لو تمكن من الفرار لما نجوت من العقاب الصارم .

فقال له المدير : العلك عازم يا سيدي على ابقاء هذا المجنون عندي ؟

- نعم فاحذر ان يفر .
- لا تخف فان المجانين لا يستطيعون الفرار من هذا المستشفى . .

* * *

بعد ذلك بساعتين كان روكامبول ومرميس واللورد وليم وادورد كوكري وهيلون على ظهر الباخرة .

وقال مرميس لروكامبول : الى اين نسير ايها الرئيس ؟

- الى ارلندا .
- ماذا نصنع فيها ؟

فضحك روكامبول وقال : نبحث عن كنوز جوهن بيل .
ثم أقلعت بهم الباخرة سائرة الى ارلندا .

- ٣١ -

يذكر القراء ان السير أرشيبالد كان قد ذهب الى الأسقف ، فلم يجده ، لأن هذا الأسقف كان منهمكاً في كثير من المشاغل فلم ينم في منزله ، في ذلك اليوم .

وفي اليوم التالي وردت اليه رسالة سكوتوي ، وهي تلك الرسالة التي أملاها عليه روكامبول في السفينة .

فلما قرأها الأسقف سر سروراً عظيماً للقبض على وليم ، ولما ذكر له سكوتوي من أمر الكنز .

وكان توقيع هذا البوليس صحيحاً وهو توقيع اصطلاحي سري متفق عليه بينه وبين البوليس .

ولم يحل الشك في خاطر الأسقف ، وعقد النية على السفر الى كورك ، وهي تلك الميناء الارلندية التي دعاه اليها سكوتوي بالرسالة كما يذكر القراء .

وفي الحال وضع شيئاً من الثياب في حقيبة فركب مركبة وسار بها الى محطة لفربول ، فركب القطار اليها .

ثم ركب البحر منها الى كورك متخذاً أقرب الطرق اليها .

وكان البحر شديد الهياج فأقام الأسقف في غرفته في الباخرة لا يذوق طعاماً ولبث على ذلك الى ان ظهرت أرض ارلندا ، وكان قد سكن بعض السكون ، فشدد عزيمته وصعد الى ظهر السفينة .

وكانت الشمس قد أشرقت فبينما هو واقف يتنشق نسيم الصباح دنا منه

أحد المسافرين وحياه باحترام .

فقال له المسافر : أرى أن سيدي لم يعرفني .

فحدق به الأسقف وارتعش ثم قال : أظن اني رأيتك ، ولكني لا أذكر أين .

ــ اني أدعى يا سيدي شوكنج .

فوقع هذا الاسم على الأسقف وقوع الصاعقة ، إذ ذكر في الحال ان شوكنج رفيق الرجل العبوس .

أما شوكنج فإنه قال له :

ـ أسأل سيدي المعذرة فاني خلقت كثير الكلام من طبعي ، وقد رأيتك في هذه السفينة .

فقاطعه الأسقف بجفاء وقال : وبعد ..

- إني ذاهب إلى ارلندا كما انك ذاهب أنت .

ولم يجبه الأسقف بشيء بل أدار له ظهره ومشى ، وقد تمكن الرعب من قلبه وجعل يسائل نفسه في السبب في وجود شوكنج معه في السفينة فاستنتج من ذلك أن الرجل العبوس قد جعله جاسوساً عليه كي يقتفي آثاره .

وكانت السفينة أوشكت أن تصل الى الميناء فجعل المستر تون يراقب شوكنج بطرف خفي ، فيرى انه لا يكترث له أقل إكتراث .

وبعد ساعة رست الباخرة في الميناء ، ونزل المسافرون إلى البر وبينهم تون ، وكان يرجو أن يرى البوليس سكوتوي قادماً لاستقباله ، ولكن ساء ظنه فانه لم ير له أثراً .

وفيما هو واقف يبحث عنه دنا منه رجلا بملابس البحارة وقال : ألست ، يا سيدي بحضرة الأسقف بترس تون ؟

- نعم . .

– إن المستر سكوتوي قد ارسلني اليك بهذه الرسالة .

فأخذ الأسقف الرسالة وقرأ ما يأتي :

« ليس جوهن بيل وحده الذي يبحث عن الكنوز ، فقد تألفت هنا شركة من الارلنديين للبحث عنها أيضاً ، ولكنهم لم يهتدوا اليها بعد ، أما أنا فقد اهتديت .

« غير اني وجدت انه لا بد من الاحتياط الشديد في هذا المقام ولم أر من الحكمة أن أنتظرك في كورك كي لا أنبه الينا الأنظار .

« أما الكنوز فإنها مدفونة في مكان يبعد ستة أميال عن مدينة كورك وانا أنتظرك في منتصف الطريق فاتبع الشخص الذي يعطيك رسالتي هذه فانه من رجالي وهو من أهل الثقة » .

« سكوتوي »

ففحص الأسقف الخط والتوقيع فوجد انها خط سكوتوي وتوقيعه ، فنظر إلى الرجل الذي جاءه بالرسالة ، فرآه بمقتبل الشباب ، وهو بملابس البحارة ، غير انه لو دقق النظر في يديه لعلم من نعومتها إن الرجل كان متنكراً بهذه الملابس ، وانه لا يمكن أن يكون من رجال البحار .

وعند ذلك قال له : أأنت من رجال سكوتوي ؟

– نعم ، يا سيدي .

– اني متأهب للسير معك .

ثم نظر إلى ما حواليه نظرة الخائف باحثاً عن شوكنج ، فانه بات واثقاً انه لم يسافر إلى ارلندا إلا للتجسس على أحواله ، فلم يره فاطمئن بعض الاطمئنان ، وسار في أثر الرجل حتى وقف به عند باب فندق فقال له الأسقف . ما عسى أن نصنع في هذا الفندق ؟

- نقضي فيه بقية النهار يا سيدي ، فقد رأى سكوتوي انه ليس من الحكمة أن نخرج من كورك في رائعة النهار .

لقد أصاب وسأصبر إلى الليل

. وقد جئت بك إلى هذا الفندق لبعده عن المدينة وفنادقها غاصة بالغرباء فلا يخطر لأحد أنك مقيم فيه .

فلم يعترض الأسقف ، ودخل إلى ذلك الفندق ، وهو فندق حقير ينتابه البحارة فيأكلون ويسكرون فيه ويتخاصمون ويعربدون ، بحيث لا ينتبه أحد منهم من يدخل اليه من المسافرين أو غيرهم .

وصعد البحار المتنكر ، أمام الأسقف إلى أحد غرف الفندق فأدخله اليها وقال : يجب ان تبقى فيها إلى الليل ، أما أنا فاني منصرف عنك لاعداد معدات السفر .

ثم انصرف، وأقام الأسقف سجيناً في تلك الغرفة إلى أن أقبل الليل فجاءه ذلك البحار وقال له : لقد آن يا سيدي أوان السفر فهلم بنا .

فخرج الأسقف معه خارج الفندق فوجد جوادين قد أعدهما البحار ، فامتطى كل منهما جواداً وسار بهما الجوادان ينهبان الأرض إلى حيث كان يقودهما البحار .

يكاثر المسافرون في مدينة كورك بحيث الف سكانها النظر اليهم فلم يعودوا يكترثون لهم ، ولذلك لم ينتبه أحد لسفر الأسقف ومرشده .

وبعد أن خرجا من المدينة واجتازا بضعة فراسخ وصلا الى قمة عـالية ، وكان الجوادان يصعدان اليها بعناء ، غير ان الأسقف كان ماهراً بركوب الجياد كسائر إخوانه الانكليز .

فلما وصلا الى أعلى القمة وقفا وكان الظلام حالكاً ، والضباب كثيفـاً فكانا يريان من ورائها أنوار الغاز التي في المدينة تظهر صغيرة كالنجوم وأمامها تمتد السهول والغابات والوديان .

فالتفت البحار المتنكر الى الأسقف وقال له : يجب أن ننتظر هنا

— لماذا ؟

— لأني أنتظر إشارة .

— ممن ؟

— من المستر سكوتوي .

— اني لم أفهم شيئاً .

— إنه سيشير الينا إشارة خاصة فإما أن نتقدم بعدها أو نرجع .

— كيف ذلك ؟

— انه إن رأيناه اشار الينا ان نتقدم كان ذلك دليلاً على أن كل شيء قـد تهيأ للتنقيب عن الكنوز .

— وإن لم تكن هذه المعدات قد تمت ؟

— نعود عند ذلك الى كورك .

فارتعش الأسقف وتذكر شوكنج فقـــال له البحار : ولكني أرجو أن تكون الاشارة مؤذنة بالتقدم .

ـ اذاً ، لا بد أن يكون سكوتوي قريباً منا .

ـ بل هو على مسافة ثلاث مراحل من هذا المكان الذي نحن فيه .

ـ ان كان ذلك فكيف يستطيع أن يشير الينا ؟

فمد البحار يده الى ناحية البحر وقال: أنظر ألا ترى نوراً يضيء في الأفق ويخترق الضباب كالنجم ؟

ـ نعم .

ـ إنها نيران أوقدتها يد انسان .

ـ اذاً هي الاشارة فلنتقدم .

كلا ، بل يجب أن ننتظر نيراناً أخرى تضاء بجانب هذه النيران التي نراها الآن .

ـ اذاً لنصبر الى أن نرى هذه الاشارة .

غير أن صبرهما لم يطل فانه لم تمض هنيهة حتى ظهرت نار ثانية بجـانب تلك النار .

فقال له البحار بلهجة المستبشر : هلم بنا الآن يا سيدي الى الأمام .

ثم أطلق العنان لجواده فسار تونِ في أثره .

ولبثا نحو ساعة وهما تارة يصعدان قمة وتارة ينزلان الى وادي ، وطوراً يسيران في سهل .

الى أن أوقف الدليل جواده فجأة فاقتدى به تونِ ونظر الى الأمـام ، فرأى رجلين قادمين اليهما

وكان البحار قد رآهما فقال هوذا المستر سكوتوي ، فانه قادم لمقابلتك .

فتنهد الأسقف تنهد الارتياح .

وبعد هنيهة وصل الرجلان اليهما وقـــال أحدهما : أأنت هو يا سيدي

الأسقف بيترس تون ؟

فعرف الأسقف من صوته أنه سكوتوى .

فدنا منه وصافحه وقد رأى معه رجلاً يصحبه فلم يستطع أن يتبين وجهه لشدة الظلام .

ولكنه لم يكترث له لاطمئنانه بعد أن رأى سكوتوى فقال : ارأيت اني لبيت دعوتك في الحال ؟

– أشكرك ..

وقد قال هذا القول بلهجة تشف عن الكآبة فأنكر الأسقف هذه اللهجة وقال في نفسه :

– لا شك انه لم يهتد إلى موضع الكنز

أما البوليس فقد قال لنتقدم يا سيدي .

ووضع جواده بازاء جواده وسار وإياه وهو لا يفوه بحرف .

غير ان الاسقف أجفل لسكوته فقال :

– ما بالك حزيناً الملك فشلت ؟

– كلا وما أنا بحزين .

– العل المكان الذي نسير اليه بعيداً ؟

– نعم .

وعاد الى السكوت والتفكير .

فاشتد قلق الأسقف لما رآه من سكوت البوليس وارتياحه إلى الايجاز في الحديث ، كما انه قلق أيضاً لسكوت ذلك الرجل الذي كان يصحب البوليس وقال في نفسه : لا بد ان يكون في الأمر سر فاني ما تعودت من البوليس هذا المنهج .

وعند ذلك طرق أذنه خبب جياد كثيرة من محل بعيد فوضع الرجل الذي كان يصحب البوليس اصبعيه في فمه وصفر صفيراً اصطلاحياً .

فوجف قلب الأسقف ، وبـدأ يضطرب دون أن يعلم سبب هـذا الاضطراب .

- ٣٣ -

وبعد هذا الصفير أتى فارسان فانضما إلى الجماعة وواصلوا السير دون ان ينبس أحدهم بكلمة .

فقال بترس تون في نفسه : لا شـك ان هذين الفـارسين من رجـال سكوتوي

ثم ساروا نحو عشر دقـــائق ، فصفر الشخص نفس الصفير الأول ، وأتى على أثر الصفير فارسان . فانضما الى الجماعة دون ان يتكلما . وواصلوا جميعهم السير .

فكبرت تلك المعميات على بترس تون وقال لسكوتوي : أما آن ان توضح لي هذه الألغاز .

فتظاهر سكوتوي انه لم يسمع .

فعاد بترس تون الى السؤال وقال له : من هؤلاء الرفاق فاننا كل ما سرنا بضع خطوات ينضم الينا اثنان . العل ذلك يدوم ؟

كلا يا سيدي فقد انتهينا .

وقد قال له هـذا القول كمن تنبه من ذهـول عظيم ، ثم عـاد إلى ذلك الذهول .

وظلوا سائرين حتى انتهوا إلى قمة ، فعثروا عندها على آثار تلك النيران . فعيل صبر بترس تون لسكوت البوليس وقال له : ما هذا السكوت وما هذا التكتم ، السنا ذاهبين للبحث عن الكنز .

– نعم ...

– وما شأن هؤلاء الفرسان أيذهبون جميعهم معنا للبحث عنه ؟

– نعم ..

وقد حار بترس تورن في أمره ، وحاول ان يحمل البوليس على الكلام ، فلم يستطع .

فعاد الى الدليل الذي أتى به من مدينة كورك وقال له : ألا تقول لي أيها الصديق ماذا أصاب المستر سكوتوي فانه كثير الهم والتفكير ؟

– لم يصب بشيء ولكن هذه الأعراض تحدث له كثيراً .

– الملك تعرفه ؟

– عرفته حق العرفان فقد اشتغلنا معاً في كثير من الشؤون .

– والآن العلنا اقتربنا من المكان الذي نسير اليه ؟

– أظن .

– كيف تظن الست واثقاً ؟

– كلا فان المكان لا يعرفه غير سكوتوي .

– ولكن ما شأن هؤلاء الفرسان معنا ؟

– يظهر ان سكوتوي محتاج اليهم .

– لماذا ؟

– للتأمين على الكنوز ، فانه يخشى الارلنديين كما يظهر .

فكف بترس تورن عن السؤال . وتابع الجميع سيرهم في القمة ، حتى انتهوا إلى أعلاها .

فأمر رفيق سكوتوي الجماعة بالوقوف ، وكانت هذه اول كلمة خرجت من فمه في هذه الرحلة .

فوقف بترس تورن وأخذ ينظر الى المكان الذي هو فيه نظر الفاحص ، فلم ير لاشتداد الظلام ، غير آثار النار التي كانت موقدة في مرتفع القمة فقال

في نفسه : ربما كانت الكنوز مدفونة في هذا المكان .

وعند ذلك امر رفيق سكوتوي الفرسان أن يترجلوا فامتثلوا جميعهم لأمره حتى سكوتوي نفسه فقد كان يظهر انه خاضع لأوامر هذا الرجل .

فلم يخف ذلك على الأسقف واوجس خيفة لا سيما حين رأى على نور تلك النار رجالاً نائمين على الأرض فوق تلك القمة .

فنادى الأسقف سكوتوي وقال له بلهجة تشف عما داخل فؤاده من الرعب : ما الفائدة من هذا الجمع الكثير العلنا في حاجة اليهم ؟

– يظهر ذلك .

وكان الفرسان قد نزعوا الأعنة من الجياد وأطلقوا سراحها .

فانطلقت ترعى ذلك العشب الذي كان يغطي وجه الأرض خلافاً لجواد الأسقف فانه لم يترجل عنه .

إلى أن جاءه الدليل وقال له : ما بالك يا سيدي لا تترجل !

– لماذا العل اقامتنا هنا تطول ؟

اننا نبيت في هذه القمة إلى الصباح .

– لماذا ؟

– لأننا لا نستطيع مواصلة السير في الليل .

- كنت أحسب أن المكان قريب من هنا .

– هو ذاك ، ولكنه في الجانب الآخر من هذه القمة وادي عميق ، كما قال لي سكوتوي .

وهذا الوادي تكتنفه الأدغال من كل جانب بحيث يستحيل الدخول اليه في ظلام الليل .

وبينما كان الدليل يوضح للأسقف ما كان يسأله عنه ، كان رفيق سكوتوي قد القى في النار بضع قطع من الأخشاب ، فعادت إلى الشبوب وأضاءت ما حولها .

فنظر الأسقف إلى ذلك الرجل السري وتبين وجهه على نور الوقود فلم يعرفه ، ولكنه نظر إلى عينيه فذعر ذعراً عظيماً ، والتفت إلى سكوتوي فاطرق سكوتوي برأسه إلى الأرض وبدت علائم اليأس على وجهه فكان كمن حكم عليه بعقاب سري هائل .

- ٣٤ -

بعد أن جدد رفيق سكوتوي ايقاد النار اضطجع بقربها فوق العشب ، فاقتدى به الجميع فالتف كل منهم بردائه وحاول أن ينام .

وكانت مخاوف الأسقف أخذت بالأزدياد ، فان كل ما كان يراه كان يحمل على الظنون .

غير أن ثقته بسكوتوي كانت قوية فاقتدى بالمضطجعين وجعل يفكر بالحالة التي هو فيها فيقول في نفسه : ان سكوتوي قد ائتمن على سر الكنز نحو عشرة رجال ، فهل يحتاج الى مثل هذا العدد الكثير للتنقيب عن هذا الكنز ؟

ثم هل يكون لهؤلاء الجماعة نصيب نسبي من الأموال المدفونة أم أن شأنهم معنا شأن العمال .

إذا كان ذلك فما بال سكوتوي يتكتم عني الى هذا الحد ، بل ما شأن هذا الرجل الذي أقبل معه لاستقباله ، فاني أرى من لهجة سيادته انه الزعيم الأكبر لهذه العصابة وانه الآمر الناهي حتى سكوتوي يمتثل له صاغراً .

وقد جالت جميع هذه الأفكار في خاطر الأسقف فكانت تتمثل له احاجي ومعميات لا يرى من خلالها غير الخطر ، حتى انه ندم لحضوره من لندرا ، وعد عمله تسرعاً وطيشاً .

ثم انه خطر له خاطر زاد في قلقه واضطرابه ، وهو انه إذا كان سكوتوي قد ظفر بهذا الكنز على فقره ، فلماذا أراد أن يقتسمه مع الشركة الانجليكانية .

وبينما كان الأسقف يتصور هذه التصورات ويضرب اخماساً لأسداس في حل هذه المعميات حانت منه التفاتة فرأى اثنين من رجال المصابة واقفين في مواقف الحراس بينما كان الجميع نياماً فقال في نفسه: انهم يتوقعون خطراً دون شك ولولا ذلك لما وضعوا الحراس .

وكان سكوتوي مضطجعاً بجانب الأسقف وهو يحاول الرقاد فلا يستطيع فلما عيل صبر الأسقف هز كتف سكوتوي ففتح عينيه وقال له بصوت منخفض : ماذا تريد ؟

- اني اوشك أن أجن مما اراه وأنت لا توضح لي شيئاً والذي أريده منك الان أن توضح لي الحقيقة بما عهدته بك من الاخلاص ، فقل لي لماذا بتنا هنا بدلاً من أن نواصل السير ؟

ذلك لأنه يظهر لي أن الوادي عميق وان النزول اليه في ظلام الليل شديد الخطر .

- انك تخدعني يا سكوتوي على فرط احساني اليك وثقتي بك وما عهدي بك من المنافقين .

فلم يجبه البوليس بحرف .

فقال الأسقف : انك دفعتني الى السقوط في الفخ الذي نصب لي .

وقد أراد بهذا القول ان يحمله على الكلام وأن ينفي عنه هذه التهمة .

غير أن البوليس جعل يتمتم بكلمات لا تفهم .

فقال الأسقف بلهجة الأمر : اوضح كلامك ، فاني لا أفهم ما تقول ، واجبني على سؤالي .

- لا أستطيع يا سيدي .

ثم زحف اليه ووضع فمه عند اذنه وقال له همساً : احذر أن تصيح او تبدو منك بادرة وإلا هلكنا .

وشعر الأسقف أن العرق البارد ينصب من جسمه .

وكان رفيق سكوتوي ذلك الرجل ذو النظرات النافذة مضطجعاً في مكان بعيد عنهما بحيث لا يستطيع سماع الحديث .

فقال البوليس : كيف ذلك ، وما حدث ؟

– إني أسير يا سيدي ، وقد أكرهت على الكتابة اليك والمسدس مصوب إلى رأسي .

فرعب تون رعباً عظيماً وقال : والكنز ؟

– لا أعلم إن كان يوجد كنزاً ، وإنما كتبت اليك عن هذا الكنز ، ودعوتك إلى الحضور لأني كنت مكرهاً على كتابة ما أملي علي ، ونحن الآن أسيران .

فقال الأسقف بصوت مختنق : ولكن من هو الذي أسرنا وكاد لنا هذه المكيدة ؟

– إننا أسرى لدى هذا الرجل ؟

– من هو هذا الرجل ؟

فسكت البوليس ولم يجب .

وعند ذلك ذعر الأسقف ذعراً شديداً إذ جال في خاطره الرجل العبوس ، وفيما هو يمسح عرق اليأس المنصب من جبينه ، رأى رجلا من النيام قد نهض منذعراً كمن صحا وقد أصابه الكابوس فنظر تون إلى وجهه على نور النيران المشبوبة فرأى أنه شوكنج .

وعند ذلك لم يبق لديه شك أنه في قبضة الرجل العبوس ما زال شوكنج مع العصابة فانه من رجاله .

غير أن هذا الأسقف كان عازماً صبوراً شديد التأني في مواقف الخطر

فلم يسترسل إلى اليأس بل انه دنا من سكوتوي وهمس في أذنه قـائلاً . ألم تجد وسيلة في جزيرة مان للنجاة من قبضتهم ؟

ـ إني لم أذهب إلى الجزيرة ..

ـ أهذا ممكن ؟

هي الحقيقة يا سيدي ..

ـ إذن لقد كاد لنا الرجل العبوس ونحن في قبضته الآن .

ـ هوذاك يا سيدي واأسفاه فان هذا الرجل ليس من البشر بل هو شيطان في صورة إنسان .

ـ أتعلم ما يريد أن يصنع بنا ؟

ـ أما أنا فقد وعدني أن يعفو عني .

ـ وأنا ؟

ـ لا أعلم .

وساد السكوت بين الاثنين ، فكان البوليس يضطرب من خوفه أن يصحو رئيس العصابة . وكان الأسقف يمعن الفكرة فيما صار اليه ويدبر حيلة للخروج من موقفه الحرج .

فقد كان يعلم قوة خصمه ، وجعل يتكهن عن المستقبل ويبحث في الماضي .

وأول ما جال في خاطره التفكر في ما أعده الرجل العبوس من الانتقام وذكر ماضي هذا الرجل وما اشتهر به من صدق التوبة والصلاح ، فأيقن انه يقدم على قتله ،ولا يسفك دماً بشرياً وما زال آمناً الموت فلا سبيل إلى القنوط من النجاة .

وقد التفت فرأى أن جميع العصابة ورئيسها نيام .

فخطر له خاطر الفرار ، ودنا من البوليس وقال له همساً . ألا ترى أننا نستطيع الفرار ؟

فارتعش البوليس ثم هز رأسه قانطاً وقال : إن هذا محال .

— لماذا ؟

— لأن هؤلاء النيام قد يستيقظون ، ولأن الحراس ساهرون .

-- لم يبق من الحارسين غير واحد ، فإن أحدهما قد غلبه النعاس فنام .

— ألا يكفي حارس واحد لإيقاظ النائمين ؟

— ولكنه سوف يقتدي برفيقه فينام

— ولو افترضنا ذلك فان فرارنا غير مضمون .

— لماذا ؟

- لأننا أولاً في بلدة منعزلة .

- وماذا يضيرنا ذلك ؟

- إنهم متى استيقظوا لا يصعب عليهم إدراكنا .

- ولكن خطر لي خاطر ، فلنفرض أن الحارس الثاني قد نام كما نام الحارس الأول ، وإننا نستطيع أن نزحف فوق هذا العشب زحف الأفاعي إلى حيث ترعى الجياد .

- نعم .

- إذاً نمتطي جوادين منها ونعود بهما إلى مدينة كورك .

فابتسم البوليس ابتسام المشكك بالفوز وقال : إني أحب أن أحاول الفرار معك ، لكن رجائي بالفوز ضعيف .

- كم الساعة الآن ؟

- أظنها تبلغ الثانية بعد منتصف الليل .

- يبقى أربع ساعات لطلوع الصباح فلينم الحارس الثاني ، وأنا أضمن الفوز بالفرار .

وكأنما وثوق الأسقف من الفوز قد ولد الأمل في نفس البوليس فقال له : إني أوافقك على الفرار فلنصبر .

وعند ذلك انقطعا عن المحادثة وتظاهرا بالرقاد مع الراقدين .

وكان الحارس يسير ذهاباً وإياباً وكان السير بيترس تومن يراقبه من حين إلى حين .

وظل الحارس على ذلك نحو ساعة ، ثم اضطجع على العشب ونام ، وكان الأسقف يراقبه فهز كتف البوليس وقال له : أرى ان الفرصة قد حانت فإن الحارس قد نام .

- لنصبر هنيهة إلى أن يغفو .

فصبرا نصف ساعة ، ثم جعلا يزحفان على بطنيهما فوق العشب حتى وصلا إلى موقف الجياد . فهم الأسقف أن يمتطي أحدها ، فمنعه البوليس وقال له : إننا إذا ركبناها هنا فقد تعدو بنا فيستيقظ النيام لوقع حوافرها ، فلنقدها باعنتها ولنسر بها برفق إلى حيث لا يسمع لحوافرها صوت فنمتطيها .

– لقد أصبت ..

ثم أخذ كل منهما بعنان جواد وجعلا يسيران سيراً خفيفاً ، وكلما تقدما بضع خطوات التفتا إلى الوراء كي يريا إن كان أحد من رجال العصابة قد صحا .

وما زالا على ذلك حتى بعدا عن العصابة فوثب الأسقف إلى ظهر جواده واقتدى به البوليس .

ثم أطلقا لجواديهما العنان فاندفعا بهما فوق تلك المروج الخضراء اندفاع الرياح .

وكان الأسقف يترنح طرباً فوق جواده ويقول : لقد نجوت اليوم من الرجل العبوس ولكنه لا ينجو مني الغد .

ولم يمر بهما بضع دقائق حتى اجتازا القمة وباتا في سهل متسع فسارا به وهما لا يدريان أين يسيران لاشتداد الظلام .

ولم يسمعا حساً من ورائهما ، فكانا واثقين ان عصابة الرجل العبوس نائمة وإنه لم يفطن احد إلى فرارهما .

وكان الليل حالك الظلام بحيث كان الجوادان يسيران حسب أهوائهما .

غير ان تون لم يكاثرث بشيء من ذلك ، بل كان همه منصرفاً إلى السرعة والابتعاد عن الرجل العبوس ورجاله فقال للبوليس : إننا إذا سرنا هذا السير ربع ساعة أيضاً فقد نجونا دون شك .

– قد تصدق هذه الأمنية ، ولكن إلى أين نحن سائران ؟

ـ إننا عائدان إلى مدينة كورك .

ـ العلك واثق اننا عائدان اليها !

ـ اني لا أشك بأننـــا سائران في نفس الطريق التي جئت فيها من تلك المدينة .

ـ قد تكون مخطئاً فإن الطرق تتشابه في هذه السهول .

ـ وفوق ذلك ، فقد لاحظت اني أمتطي نفس الجواد الذي جئت عليه من كورك .

ـ وما يفيد ذلك ؟

يفيد ان الجواد متى أطلقت له الحرية عاد بالسليقة إلى مربطه ، ولما كان هذا الجواد من كورك فهو عائد اليها دون شك .

ـ ولكن من يضمن ان جوادي أنا مستأجر من كورك ؟

ـ لا بأس في ذلك فان جوادك يقفو أثر جوادي منذ فرارنا إلى الآن .

فسكت البوليس ، ولكنهما لم يسيرا بضع خطوات حتى شعرا ان حوافر الجوادين تقع على حجارة صلبة ، ولم يكن في الطريق من كورك إلى القمة مثل هذه الحجارة .

فتنهد سكوتوي وقال : لقد كنت متوقعاً هذا الخطأ .

ـ أي خطاء تعني ؟

ـ ألا تشعر أن حوافر الجوادين تقع فوق الحجارة .

ماذا يفيد ذلك .

. يفيد أننا ضللنا السبيل ، فإننا لم نجد من كورك إلى القمة التي كنا فيها غير العشب .

ـ وما علينا من ضلالنا فإننا إن لم نصل إلى كورك وصلنا إلى سواها

ـ هو ما تقول ، بشرط أن لا نصل إلى قرية من قرى الارلنديين .

فارتعد الأسقف لذكر الارلنديين ، وكان جوادهما يسيران في منحدر ،

فشعر سكوتوي ان الانحدار قد زاد فحاول الوقوف غير أن تون لكز بطن جواده وقال : الفرار .

وعند ذلك سمع صوتاً يلعلع فوق رأسيهما ، وخيل لهما أنه ضاع بين الغيوم وهو صوت صفير قوي .

فالتفت البوليس إلى وراءه علّه يقف على سر هذا الصفير فرأى ان السماء قد احمرت فوق المنحدر الذي كانوا نزلوا منه ، فذعر وقال : إنها آثار النيران ولا شك انهم شعروا بفرارنا .

— إذاً لنسرع العدو فاننا نتقدمهم بمسافة كبيرة .

ثم دفع جواده في ذلك المنحدر الذي كان يظهر أنه لا نهاية له ، وكان الجوادان ينطلقان إنطلاق السهم ، وسكوتوي يلتفت من حين إلى حين إلى الوراء ثم يرفع عينيه إلى السماء متفقداً الوهج فيراه على ازدياد .

ومما زاد في شقائهما أنهما لم يكونا عالمين إلى أين يسيران ، فكان الشرطي ملء قلبه اليأس خلافاً للاسقف فانه كان يعلل نفسه بالفوز ويقول : لا بد لنا أن نصل إلى مكان نأمن فيه الخطر .

وفيما هما سائران رأيا شعاعاً قد تألق فجأة في أسفل المنحدر يشبه ذلك الوهج الذي رأياه في كبد السماء وراءهما فأوقف بترس تون جواده وقال لسكوتوي : أنظر .

— ماذا تصنع ؟

— أرى أنه يجب أن نتقدم فلا بد أن يكون هذا الشعاع من منزل في أسفل المنحدر أو من حقل .

— إذاً يجب التقدم ؟

— هذا ما أراه

- وإذا كان أصحاب هذا النور من الارلنديين ؟

- يفعل الله ما يشاء .

ـ إذاً لنسر على بركات الله .

وكان النور الذي يبدو لهما من أشمة المنحدر يتعاظم فكانا يريان من حولهما أشباحاً سوداء تمثلها لهما الصخور الضخمة والقمم

ولما رأى ذلك سكوتوى أوقف جواده وقال : أرى أننا ضللنا مرة ثانية أتعلم أين نحن الآن ؟

ـ كلا .

ـ إننا ننزل الى واد عميق

ـ وهذا النور الذى تراه ؟

ـ إنه مضاء في الفضاء وليس في منزل .

ـ لقد أثاره الرعاة دون شك .

ـ أو عصابات الارلنديين .

فذعر الأسقف لخوفه من الارلنديين وقال إذاً لنرجع على أعقابنا

فاستسلم البوليس للقضاء وقال : أية فائدة بقيت من الرجوع

ثم لكز جواده فانطلق في ذلك المنحدر وتبعه جواد بترس تون بالرغم عن فارسه ، فإنه بذل جهده في سبيل إيقافه فلم يستطع .

وعند ذلك سمعا صفيراً شديداً كالصفير الأول وانطفأت في أثره تلك الأنوار التي كانت تضيء في أسفل المنحدر .

وكأنما الجوادين قد أجفلا لهذا الصفير فانطلقا انطلاق السهم وجمحا فلم يستطع الهاربان كبح جماحهما .

ثم رأى الفارسان أن المنحدر قد ضاق بعد إتساعه ، وان على جانبيه هوتين هائلتين فقال سكوتوي · لقد قضي علينا .

وقد أصيب الأسقف بمثل ما أصيب به رفيقه من الرعب ، ولكنه لم يقنط بل أمسك بشعر جواده كي لا يسقط عنه ، وكان المنحدر يضيق كلما نزلا فيه حتى بات عرضه لا يزيد عن ثلاثة أذرع .

ثم سمعا صفيراً آخر فزاد جماح الجوادين وكبا جواد سكوتوي فسقط عنه ولكنه لم يسقط في أرض المنحدر ، بل اندفع إلى الهـــاوية ، وبعد أن صاح صيحة رعب منكرة .

وقد سمع الأسقف صيحته ، ثم لم يعد يسمع بعدها شيئاً ، فأيقن أنه سقط في الهاوية ، وان الهاوية عميقة جداً ، حتى أن صوت سقوطـه لم يصل إلى مسمعه .

ثم رأى جواد سكوتوي يسير بجانب جواده دون فارسه ، فلم يخطر له في تلك الساعة أن ينجو من قبضة الرجل العبوس ، بل كان يحاول أن لا يصاب بما أصيب به سكوتوي .

فبذل جهده كي يوقف جواده ، فلم يستطع ، فأمسك جيداً بشعره وتركه يسير كما يشاء ، بعد أن لم يجد سبيلا لكبح جماحه واستمر الجواد في ركضه ، والظلام محيط به .

ثم رأى أن ذلك النور الذي كان يضيء في أسفل المنحدر قد انطفأ فجأة ،

ثم عاد فجأة أيضاً إلى الاضاءة، ولكنه كان هذه المرة قريباً جداً من الأسقف بحيث لم يبعد عنه أكثر من مائة متر .

وقد فاجأ هذا النور عينيه في الظلام الدامس فاضطر إلى إطباقها ، ثم فتحها ونظر إلى ما حوله فرأى انه لم يكن يسير في منحدر بل في منجم حفرته أيدي العمال تحت الأرض .

وكان الحفر ممتداً من أعلى القمة ، فلما وصل الأسقف إلى أسفل المنحدر رأى على ذلك النور الساطع رفيقه سكوتوي المنكود وهو جثة جامدة لا حراك فيها .

وعند ذلك وقف جواده فخف اضطرابه ، وزال ما كان عنده من اليأس ولم يعد يروعه غير موت رفيقه سكوتوي فانه كان يعتقد أنه بات بعيداً عن الرجل العبوس ، وإن رجال هذا المنجم لا علاقة لهم بعصابات الارلنديين ، فهو سيلجأ اليهم ويهتدي منهم إلى الطريق فيعود آمناً إلى كورك ويسافر إلى لندرا .

غير أن سكينته لم تطل لنكد حظه فانه سمع صفيراً من وراءه ، ثم صفيراً آخر يشبهه من المنجم ، وتلا هذا الصفير صوت وقع حوافر جياد قادمة من المنحدر فعاوده الخوف وأيقن أنهم يطاردونه وانه لم يبق له سبيل الفرار .

وكان جواده يسير الهوينا فوقف عند جثة سكوتوي وهي غارقة بالدماء فنظر اليها نظرة القنوط وقال . يا ليتني مت هذه الميتة فانها خير من الرجوع إلى أسر الرجل العبوس .

وفيما هو على ذلك سمع صفيراً آخر رن صداه في تلك الهاوية التي كان فيها ورأى الأشعة تتمارج منها وتتحرك وهي تدنو منه ، فعلم أن هذا الصفير لم يكن إلا إشارة اصطلاحية ، وان هذه الأنوار المتحركة التي كانت تدنو منه لم تكن إلا مصابيح يعلقها عمال المناجم عادة في رؤوسهم كي يسترشدوا بأنوارها .

وكانت المصابيح تدنو منه من الأمام والجياد تقترب اليه من الوراء وهو سجين بينهما لا يجد منفذاً للخروج .

وقد وصل اليه عمال المناجم قبل وصول الفرسان .

فرأى بترس تورن عشرة رجال عراة الأبدان إلى الوسط وعلى رأس كل منهم مصباح يضيء .

فأحاطوا به جميعهم وأمروه أن ينزل عن جواده ففعل ، وعند ذلك تقدم أعظمهم جثة من تورن وقال له باللغة الانكليزية : من أنت وما أتيت تعمل هنا ؟

- اني مسافر ضللت السبيل .

فضحك الجميع لجوابه ضحكاً عالياً وقال زعيمهم :

- ألست أسيراً هارباً ؟

فأشار له الأسقف إشارة سلبية ، لأن لسانه لم ينطلق بالكلام لما أصابه من الرعب .

ثم سمع وقع حوافر جياد فالتفت فرأى ستة فرسان قادمين اليه من ذلك المنحدر العميق وهم يسيرون اثنين اثنين .

ورأى في طليعتهم ذلك الرجل الذي كان يتولى زعامة العصابة فوق القمة التي كان فيها قبل الفرار .

ثم وصل الفرسان وترجلوا عن جيادهم فحياهم زعماء المناجم بملء الاحترام .

وعند ذلك دنا الزعيم ذو النظرات النافذة من الأسقف فوضع يده فوق كتفه وقال له :

انك من الفرسان الماهرين يا سيدي ، ولكنك قد تكون اخطأت بعدم اختيارك الميتة التي مات بها المستر سكوتوي .

فذعر الأسقف لهذه اللهجة ولهذا الصوت ولكنه لم يجب .

وعاد الرجل إلى الحديث فقال : ان سكوتوي المنكود قد أخطأ لفراره فاني لم أقتصر على العفو عنه ، بل إني وعدته أن أذهب به الى فرنسا حين أتم أشغالي في بلادكم .

وكان تونين ينظر اليه وهو يكلمه ويقول في نفسه :

— انه لا يستطيع أن يقول مثل هذا القول غير الرجل العبوس ، ولكن هذا الوجه ليس وجهه ؟

وكأنما الرجل قد أدرك ما يجول في خاطره فضحك وقال له : ألم تصدقني يا سيدي الأسقف ؟

فتراجع منذعراً وقال : ما هذا الصوت ؟

— إنه صوت المستر بريدت فكيف لم تعرفني يا سيدي وقد تشرفت بعشرتك أسبوعين ؟

وعند ذلك تجلد الأسقف واستسلم الى القضاء فوضع يده فوق صدره وقال له : نعم فقد عرفتك الآن واني لا أنتظر منك عفواً ولا مرحمة فقل ماذا تريد مني ؟

فقال الرجل العبوس وقد كان هو بعينه : لقد أصبت يا سيدي فانك

كدت تنزع الرحمة من قلبي .

فقال له تون بلهجة شفت عن توقعه الموت بملء السكينة : قل ماذا تريد ؟

– إن كلينا يا سيدي يسعى الى غاية وقد التحمت الغايات ونحن في عراك دائم منذ أسبوع وقد انتصرت علي مرة، فلما وضعتني في سجن نوايت حسبت أن الحرب قد وضعت أوزارها .

– وبعد ذلك ؟

– اني لو بقيت بضع ساعات في ذلك السجن لقرت عيناك برؤيا الرجل العبوس معلقاً من عنقه ، وعلى ذلك فإنك تأخرت بضع ساعات .

فقال له الأسقف بكبرياء : ولكن ، قل لي ماذا تريد أن تصنع بي فإني يئست من هذه الحياة .

فضحك الرجل العبوس وقال . انك لا تفتكر بما تقول يا سيدي ، ثم انك تعلم ان الارلنديين ، وأنا أحد زعمائهم ، لا يسفكون الدماء إلا حين لا يجدون بدأ من سفكها ، ولذلك لا أحكم عليك بالموت .

فاطمئن تون لهذا التصريح ، لأنه كان يطمع بالنجاة والافلات من قبضته بعد أن أبقى على حياته ، وكما أن الرجل العبوس تمكن من الفرار من سجن نوايت، وظفر به ، فهو لا يعدم وسيلة للفرار من الرجل العبوس والظفر به أيضاً .

فنظر الى روكامبول وقال بلهجة الملتمس : أسألك بالله أن لا تطيل جزعي وأن تخبرني أي نوع من أنواع الأمر أعددت لي .

– اني حكمت عليك يا سيدي بالسجن المؤبد ولا بأس عليك في ذلك فان كثيرين من أتقياء رجال الدين أمثالك كانوا يحكمون على أنفسهم بمثل هذا السجن المؤبد طائعين مختارين .

– أين تريد سجني ؟

- في قلب هذا المنجم .

فذعر تونن لهذا السجن الرهيب وقال : إحذر من العاقبة فلا شيء يدوم في هذا الوجود .

ــ إن سكنك سيكون مؤبداً يا سيدي إلا إذا أصبت خلال مدة سجنك بحادثة تمنعك عن الضرر أو الإيذاء في مستقبل الأيام وتجعلك في عيون الناس أهلاً للرحمة والاشفاق فبعد ذلك يطلق سراحك .

فجمد الدم في عروق تونن ، وهو لم يعلم حقيقة ما أراد روكامبول ولكنه توقع حوادث هائلة .

وعند ذلك أمر روكامبول رفاقه أن يمتطوا صهوات جيادهم ، وأمر عمال المناجم أن يحملوا السير بترس تونن ويضعوه فوق جواده ففعلوا ، ودخـل روكامبــول ورجاله الى ذلك المنجم العميق .

ان هذا المنجم الذي دخل اليه روكامبول ورفاقه كان مدخله عريضاً وعالياً فدخلوه بجيادهم .

وكانت مركبات النقل مصطفة فيه على الجانبين ، وفي كل مسافة عشرة أمتار مصباح كبير معلق في القبة ، وفي الجملة فانه كان يشبه نفقاً تسير فيه القطر الحديدية تحت الأرض .

وكان الأسقف يسير فوق جواده تحيط به عصابة روكامبول ، أما روكامبول فكان يسير في طليعة رجاله .

وقد حاول تونن مراراً ان يقف ، ولكن العصابة المحيطة به كانت تمنعه عن الوقوف ، فكانوا يسيرون تارة بين المصابيح المضيئة ، وتارة يكتنفهم الظلام الدامس .

وداموا على ذلك نحو ربع ساعة مرت بتونن مرور الادهار الى ان اوقف روكامبول جواده وقال . قفوا . فأوقفوا جيادهم .

وعند ذلك ترجل عن جواده فاقتدى به الجميع وأسرع العمال الى الأسقف فأنزلوه عن جواده .

وقد اصفر وجهه حتى بات كالأموات ، ولكن اصفراره لم يكن عن خوف بل عن تأثر عصبي ، فقد كان شجاع القلب وقد ذهب عنه اليأس حين علم انه لم يحكم عليه بالموت .

فاقترب الرجل العبوس عند ذلك منه وتأبط ذراعه دون كلفة وقال له : تعال معي يا سيدي، فاننا مضطرون الى مواصلة السير على الاقدام وهي فرصة نغتنمها للمحادثة .

وكان يكلمه بلهجة تشف عن السلامة وانه يطوى له خير النيات .

فسار الأسقف معه حتى دخلا في رواق ضيق .

فالتفت قبـل دخوله في الرواق ، فرأى أن رجال العصابة لا يتبعونهما ما خلا اثنين من العمال كانا يتقدمانهما ليرشداهما إلى الطريق إن الرواق كان مظلماً إذ لم يكن فيه مصابيح

بدأ روكامبول الحديث مع الأسقف فقال : لا شك انك مستاء أشد الاستياء يا سيدي مما أصابك ، إنك على فرط ذكائك ودهائك خدعت كما يخدع الأطفال .

فأجابه الأسقف وقد استنكر هذا التهكم : انني في قبضة يدك وحسبك هذا الفوز فلا سبيل إلى الهزء .

ـ اني لا اهزأ بك يا سيدي ولكني أقول الحقيقة ، وسأثبت لك أيضاً اني بعيد عن الهزء لأني مخبرك بما أعددته لك .

ـ اني أنتظر أن أسمع حكمك .

ـ لقد تقدم لي القول اني حكمت عليك بالسجن المؤبد ، إلا اذا أصبت بما يمنعك عن إيذاء الناس فاطلق سراحك .

فأجابه الأسقف وقد تنبهت فيه عاطفة الكبرياء : أو إذا أنقذوني .

ـ ان ذلك صعب ولكني لا أمنعك عن التعلل بهذا الرجاء .

وعند ذلك وقف العاملان المرشدان فجأة ، فرأى الأسقف أن الدهليز الذي يسيرون فيه قد انتهى عند قبـــة ، ووجد تحت هذه القبة شيئاً غريباً استلفت انظاره ، وظهر لعينيه لأول وهلة بشكل صندوق يبلغ ارتفاعه ستة أقدام وعرضه أربعة .

ولكنه عندما اقترب منه ورآه وجد انه قفص مصنوع من قضبان ضخمة من الحديد .

فقال له روكامبول عند ذلك ببرود : هذا هو السجن الذي أعددته لك

يا حضرة الأسقف .

فجمد الدم في عروق الأسقف وحاول أن ينزع يده من يد روكامبول فلم يستطع ، قال له روكامبول : ان مقاومتك لا فائدة منها

فكاد الأسقف يتميز من غيظه وقال له : انك سافل دنيء .

فلم يجبه روكامبول ولكنه أشار إشارة إلى العاملين فاطبقا عليه .

وحاول الأسقف أن يدافع عن نفسه فلم يمهلاه، فحملاه وأدخلوه إلى ذلك القفص وأغلقا بابه الحديدي .

وكان يوجد في القفص كرسي ومائدة فقال روكامبول : انهم سيحضرون لك الطعام كل يوم

وأودعك الآن يا سيدي وعسى أن تذكر انك من الاساقفة فتلقى الله تائباً نادماً عما اقترفته من الآثام .

ثم تركه وانصرف .

فهاج لوين هياج الأسود الضارية وهجم على تلك القضبان الحديدية يريد كسرها ولكنه عاد عنها بالخيبة وهو يصيح صياح المجانين .

ثم وقف ينظر إلى العاملين يسيران بمصباحيهما حتى خرجا من الدهليز ، وساد الظلام .

وبقي وحده في ذلك القفص الضيق المظلم عدة ساعات وهو يستغيث فلا يجيبه غير الصدى .

ثم يهيج ويندفع هاجماً على باب القفص ؛ فيصدمه صدماً عنيفاً ويقع على الأرض من شدة الصدمة حتى أعياه الأمر ورأى أن ما يفعله ضرب من الجنون . فاضطجع في أرض القفص وهو يؤثر الموت على هذا الأسر .

وفيما هو على ذلك والظلام الدامس يكتنفه من كل صوب سطع نور شديد تبلغ قوته عشرات أضعاف قوة الشمس لدى من يحدق بها

فسطع هذا النور الغريب وكشفت ستائر كانت موضوعة على جدران القبة

فظهر ان تلك الجدران قد وضعت فوقها المرائي البراقة وهنـــاك آلة ضخمة تعكس الأنوار الكهربائية .

فشعر تون بألم شديد في عينيه كأنما أصيبتا بحديد محمي بالنار فاطبق عينيه وعلم ما كان يعنيه روكامبول بقوله « سيكون سجنك مؤبداً إلا إذا أصبت بما يمنعك عن إيذاء الناس » .

وذكر ما عن روي دنيس الظـــالم ، الذي كان يعاقب امراه بالعمى ، فيضعهم في الظلمات الدامسة ، ثم يطلق عليهم فجأة الأنوار البـازغة ، فيفقدون البصر .

وعندها ، أيقن انه حكم عليه بالعمى .

ولم يحاول الأسقف أن يبحث عن النور فانه حين سطع فجأة صاح صيحة ألم وأطبق عينيه اتقاء لحرارته المؤلمة .

غير أن هذا الحـــذر لم يفد ، فان النور قد نفذ الى عينيه فأثر تأثيره فيها .

ودام تألمه نحو عشر دقائق ، ثم انطفأ فجأة كما سطع ، فعادت الظلمات الى الدهليز .

وبينما هو يفكر في طريقة يتقي فيها الام هذا النور وأخطاره ، سمع وقع أقدام ، فعلل نفسه بالرجاء .

فان رجال الشر يثقون غالبـــاً برأفة غيرهم من الناس .

فعلق الرجاء بقلب هذا الوحش الضاري الذي لم يعرف الرحمة وقال في نفسه :

— ان الرجل العبوس قد اشتهر شهرة بعيدة بالرفق والاصلاح ومكارم الأخلاق ، فهو لا يرتكب جريمـة اعمائي دون شك ، وانمـا فعل فعله من قبيل الارهاب .

وعند ذلك وقف في قفصه واتكأ على قضبانه الحديدية وأدار رأسه الى الجهة التي سمع فيها وقع الاقدام فرأى نوراً

وكان هذا النور مصباحاً يحمله رجل بيده ويـدنو من القفص فقال تونين في نفسه : لا شك انه الرجل العبوس وانه قـادم ليعفو عني مقابـل إرجاع ثروة أسرة باميلتون للورد وليم .

فلما قرب الرجل منه وتبين وجهه ذهب ذلك الرجاء الذي علل به نفسه

فان هذا الشخص لم يكن روكامبول ، بل كان شوكنج ذلك المتسول القديم الذي احتقره بترس تون حين كلمه في الباخرة وأبى أن يجيبه .

وكان شوكنج يحمل باحدى يديه مصباحاً وبالأخرى سلة فيها طعام .

فدنا من القفص وحيى الاسقف ، ولكن بترس تون جعل ينظر اليه ولم يرد التحية .

فقال له شوكنج بلهجة المسكنة :

– ألا تزال متكبراً علي يا سيدي ؟

– إني لا أتكبر على أحد .

– إن كان كذلك فاننا نستطيع المحادثة .

– ألديك ما تقوله لي ؟

– أولاً اني قادم اليك بالطعام .

ثم أخرج من السلة ما كان فيها من خبز ولحم وخمر وقال له :

– أسألك المعذرة يا سيدي ، فاني لم أحضر لك سكيناً لتقطع اللحم لأن الرجل العبوس لا يريد .

– لماذا لا يريد ؟

– انه يخشى أن يتمكن منك اليأس فيؤدي بك إلى الانتحار .

– لقد أخطأ الرجل العبوس .

– وأنا أرى ما تراه يا سيدي الأسقف من خطئه ، لأن من كان مثلك لا يتناوله هذا الضعف .

فأخذ بترس تون الطعام من شوكنج ووضعه على المائدة دون أن يأكل منه .

فقال له شوكنج : الست جائعاً يا سيدي ؟

لم أجع بعد ؟

– ولكنك إن لم تأكل الآن اضطررت أن تأكل في الظلام لأني أفارقك

وأذهب بالمصباح .

- لا بأس فاني أؤثر الظلمة .

- ولاسيا حين يتلوها مثل ذلك النور الساطع الذي فاجأ عينيك منذ حين .

فنظر الأسقف نظرة غريبة إلى شوكنج وقال له : أتعرف هذا النور أيضاً ؟

- نعم .

- وهذا النور ؟

- سيفاجئك في كل ساعة يا سيدي على التوالي ..

فأجابه بصوت مختنق : ولكن لماذا ؟

- إنك ما زلت اليوم تكلمني برفق ، يا سيدي دون استكبار فاني موضح لك ما أعلمه ، فاعلم إن هذا النور الذي كاد يحرق عينيك ، منذ هنيهة قد اخترعه جوهن أوبريان ، وهو ارلندي عريق بالارلندية ، وأحد كبار زعمائهم .

- ولأية غاية ؟

- لتعذيب من يقع في يد الارلنديين من أعدائهم .

- وماذا يحدث من توالي هذا التعذيب ؟

- لقد جربوه مراراً فاتضح لهم أن من يحكم عليه به ، يفقد بصره بعد ثلاثة أيام ، وان كثيرين أصيبوا بعد ذلك بالجنون .

فارتعدت فرائص بترس تونن وقال : العلهم حكموا علي بهذا العقاب ؟

- نعم يا سيدي ، ولكن نجاتك موكولة اليك .

- كيف ذلك ؟

- ذلك اني لست قادم اليك لاحضار الطعام فقط ، بل لأكون سفيراً لديك .

– أهو الرجـل العبوس الذي أرسلك ؟

– نعم ...

حسناً ، فماذا يريد مني ؟

– صبراً يا سيدي فلا بد لي أن أوضح لك بعض الأمور .

– إني مصغ اليك ..

– إن الرجـل العبوس قد اتفق مع زعماء الارلنديين وهو يرجو إنهـاء ما لديهم من المهمات في مدة شهرين .

– وبعد ذلك ؟

– وهو واثق من رد ثروة اللورد وليم اليه في أقرب حين . وهذه فرصة لك تغتنمهـا للقبول باقتراحـات الرجل العبوس ، أو لرفضها ، فان رضيت باقتراحاته خرجت من هنا بعد شهرين سليم البصر .

– وإن أبيت ؟

– تصبح أعمى قبل ثمانية أيام .

فسكت الأسقف سكوتاً دل على مبلغ عنائه واضطرابه .

أما شوكنج فإنه سكت وصبر عليه إلى أن يجيب من تلقاء نفسه .

وبعد هنيهة عاد تون إلى الحديث فقال : إذاً قد تقرر فقد بصري إن أبيت قبل ثمانية أيام ؟

- نعم ..

- وإن رضيت ؟

- يطلق سراحك حين يفرغ الرجل العبوس من جميع مهماته ولا يعود يخشى ضررك .

- وفي خلال هذه المدة أين أقيم ؟

- تبقى في هذا القفص .

فعاد الأسقف إلى السكوت ثم استأنف الحديث فقال : إن الرجل العبوس قد فوضك تفويضاً مطلقاً كما أظن .

- دون شك .

- إذاً أعرض علي اقتراحاته .

- إنك يا سيدي من أعظم الناس نفوذاً في إنكلترا ، وإنك تقود جيشاً كبيراً من رجال الملابس السوداء يدعونهم بكهنة الانجليكان ، وإن للجمعية الانجليكانية التي تتولى رئاستها سلطة لا حد لها ، حتى انها تستطيع قلب الحكومة إذا خطر لها هذا الخاطر .

- ربما وبعد ذلك ؟

- لقد خطر الرجل العبوس خاطر غريب ، وهو انه يريد أن يستولي على هذه السلطة لمدة معينة .

– إني لا أفهم شيئاً مما تقول .

– تفضل يا سيدي واصغ إلي فاني موضح لك مـا أشكل عليك وافترض انك كولونيل فرقة من الجيش .

– نعم ...

– ثم افترض ان الوزارات قررت إنك لا تحسن إدارة الجنود الذين تتولى رئاستهم فعينت رئيساً عليك جنرال .

– وبعد ذلك ؟

– يصبح الأمر للجنرال وتجب عليك الطاعة .

– لقد بدأت أن أفهم.

– إذاً فاعلم أنه خطر للرجـل العبوس أن تكون له الرئاسة العليـا على الجمعية الانجليكانية إلى أن يقضي مهماته .

– ولكن ... ذلك مستحيل .

– لماذا ؟

– لأنهم لا يخضعون للرجل العبوس

– هو ذاك ، ولكنهم يخضعون لك .

– دون شك .

– وأنت يا سيدي تخضع للرجل العبوس وترسل إلى رجالك الأوامر التي يصدرها اليك .

فاستغرق السير بترس تون بالضحك وقال : أيخطر للرجـل العبوس على ذكائه هذا الخاطر الغريب ؟

– قد يكون غريباً ولكنه يرجو تنفيذه .

فأجابه بلهجة المستكبر المستعظم :

– اني أسير الرجل العبوس فله أن يفعل ما يشاء في جسمي وحياتي ، وأما نفسي وإرادتي فلا تؤسران .

- إذاً ترفض هذا الاقتراح ؟

- كل الرفض .

- أنت وشأنك فافعل ما تشاء .

ثم أخرج شوكنج من جيبه نظارة مطلية الزجاج فوضعها على عينيه ووضع إصبعه في فمه وصفر بعد أن أطفأ مصباحه ووضعه على الأرض .

فساد الظلام في القفص والدهليز وصبر بضع دقائق فبزغت تلك الأنوار الكهربائية المحرقة فجأة .

فصاح الأسقف صيحة شديدة وقد كاد يحرق النور عينيه وانقلب على ظهره إلى الأرض ؟

وقد وضع يديه فوق عينيه وكانت آلامه شديدة حتى انه كاد يخال أن الوفاً من الإبر تخز عينيه .

فصبر شوكنج عليه إلى أن انقطع صياحه فقال له : إني لم يصبني مـــا أصابك يا سيدي الأسقف بفضل النظارة المطلية التي حجبت بها النور عن عيني فان أردت عدنا إلى الحديث

- إنكم لصوص سفاكون بل وحوش ضارية فتباً لكم ولأحاديثكم .

فصفر شوكنج مرة أخرى فانطفأ النور ، وشعر الأسقف بشيء من الراحة فقال له شوكنج :

- هذه هي المرة الثانية التي أطلق فيها على عيناك ، وسترى نتيجتها فانظر ..

ثم أخرج من جيبه علبة من الكبريت الشمعي ، وأثار بهـا مصباحه وقال للأسقف :

- أنظرت ؟

وكان السير بترس تورن قد سمع احتكاك الكبريت ولكنه لم ير النور ، فقال له .

– إن هذا الكبريت لا ينفع .
– أتظن ؟
– بل أؤكد فلو كان مفيد لكنت أنرت به المصباح .
– إن المصباح مضاء يا سيدي .
– لقد كذبت .
– بل أظن انك فقدت بصرك .. ولكن الذنب ذنبك فأنت أردت .

فصاح تون صيحة منكرة خرجت من صدره كزئير الأسود وسقط على الأرض وهو يشتم ويسب أقبح السباب .

غير إن الأسقف لم يكن قد فقد بصره تماماً كما توهم في البدء فانه فتح عينيه بعد هنيهة فرأى مصباح شوكنج يضيء على قرب منه كما يضيء النجم البعيد .

فعلم ان النور الكهربائي قد أثر بعينيه تأثيراً عظيماً فعاد إلى الهياج فلما سكن تأثره بعض السكون قال له شوكنج ، يستحيل يا سيدي أن تكون عميت من مرتين فقط ، على أن بصرك ، وإن يكن قد ضعف ضعفاً شديداً كما تحققت ذلك بنفسك ، فإن شفاءك ميسور .

فأعادت هذه الكلمات الرجاء الى قلبه ووقف قائلاً : نعم اني لا أزال أرى

– أترى مصباحي ؟

– نعم ..

– كيف تراه ؟

– كمصباح غازي خلال ضباب كثيف .

– ان لدى الرجل العبوس مرهماً إذا وضع مدة خمس دقائق على عينيك عاد نظرهما إلى ما كان عليه .

– أحق ما تقول ؟

– نعم ..

– ولكن هذا الرجل لا يريد أن يشفيني فهو شقي أقسم إهلاكي .

فأجابه صوت غير صوت شوكنج قائلاً إنك مخطىء يا سيدي ..

فصاح السير بترس تونِن صيحة دهش لأنه عرف من الصوت أن صاحبه

الرجل العبوس .

فقال له روكامبول . انك ما زلت لم تفقد البصر تماماً فاني أستطيع ان أشفيك .

ـ أتشفيني حقيقة ؟

ـ اني أشفيك في الحال .

فحدق الأسقف فلم ير غير نور المصباح ولكنه لم ير شوكنج ولا الرجل العبوس ، انه لم يكن بينه وبينهما غير مسافة متر .

وعاد الرجل العبوس إلى الحديث وقال له : أغمض عينيك .

فامتثل وعند ذلك شعر ان يداً مبتلة مرت فوق عينيه وأحس بانهما بردتا برداً شديداً كما لو وضع فوقهما قطعة من الثلج .

وقال له . لا تفتح عينيك إلا حين أقول لك إذ يجب أن تصبر بضع دقائق كي ينفذ مفعول الدواء ، وفي خلال ذلك نتحدث .

فأجابه بصوت يضطرب : ماذا تريد مني ؟

ـ إن شوكنج أخبرك قبل قدومي بما أريده وانك ستفتح عينيك بعد هنيهة فتجدهما سليمتين ، كما كانتا قبل أن يفاجئهما النور ، على أن هذه المفاجأة إن تكررت أيضاً ثلاث أو أربع مرات ، فإن دوائي لا يعود يفيد عينيك ، بل لا يعود يفيدهما دواء

ـ العلك عازم على تكرار هذه المفاجآت ؟

ـ ذلك منوط بك ..

ـ ولكن الذي تطلبه مني يستحيل أن أجيبك اليه .

ـ إذاً لا تنكر علي الاستفادة من نوري ، فانك لو فزت علي لما رحمتني .

ـ اني لا أستطيع أن أخون الجمعية التي أتولى رئاستها .

ـ كما تريد فافتح الآن عينيك .

ففتح الأسقف عينيه فرأى النور ، ورأى شوكنج والرجل العبوس وعاد

بصره كما كان .

فقال له روكامبول : إنك قد وجدت بصرك بعد فقده وعلمت حقيقة لذة النظر ، والآن فاعلم يا سيدي انه يوجد في لندرا رجل يدعى المستر سكوت وهو ساعدك الأيمن .

فدهش الأسقف وقال : أتعرف هذا أيضاً ؟

– وأعرف أيضاً أن المستر سكوت يتظـــاهر أنه لا يعرفك لأسباب أعرفها أنا كما تعرفها أنت ، حتى إنكما إذا تقابلتما في مجلس لا تتبادلان التحية ولكنك إذا برحت لندرا فانه يتولى عنك قيادة جيشكم السري .

– وما الذي تريد بما ذكرته لي الآن ؟

– أريد أن تكتب كتاباً إلى المستر سكوت .

– ما معنى هذا الكتاب ؟

– اني أمليه عليك فتعلم القصد .

– أملي ما تريد فانني سأرى بعد ذلك

وقد كان الأسقف منذ هنيهة يؤثر الموت على خيانة الجمعية التي يتولاها .

ولكنه ، ظهر الآن ، انه عازم على الرضوخ لكل ما يريده الرجل العبوس !.

أما الرجل العبوس فقد أشار إشارة إلى شوكنج فأخرج من السلة التي أحضر فيها الطعام ورقاً وأدوات الكتابة وأدخلها إلى الأسقف من خلال قضبان الحديد .

ووضع الأسقف تلك الأدوات فوق المائدة فتنهد تنهداً طويلاً ثم نظر إلى الرجل العبوس وقال له :

- اني في قبضة يدك وأرى انه لا بد لي من الامتثال .

فقال له روكامبول :

- ثق يا سيدي اني لا استخدم سلطتك لأمور دينية بل لمهامي الخاصة ومهام من يهمني أمرهم .

فلم يجبه الأسقف بشيء بل أخذ القلم بيده وتأهب للكتابة .

فقال روكامبول :

- اني عالم يا سيدي بكل عاداتك مع عمالك ، فانك حين تسافر من لندرا لا تخبر أحداً منهم بسفرك حتى ولا المستر سكوت .

- كل هذا أكيد ، ولكن ماذا تريد مني الآن ؟

- تفضل إذاً بكتابة ما أمليه عليك .

- قل !

فأملى عليه روكامبول ما يأتي :

« عزيزي سكوت ..

« اني أكتب لك من إيكوسيا ، فقد برحت لندرا فجأة دون أن أتمكن من اخبارك بالسبب الذي سافرت من أجله فاقصر الآن على اخبارك ان رحلتي ستأتي بخير فائدة للجمعية .

وسأسافر غداً الى جزائر سرقي للبحث عن كنز فيها ، ولا أعلم متى أعود فقد تكون رحلتي قصيرة ، وقد تطول الى عدة أسابيع ، فـاعلم الآن ان حامل هذا الكتاب هو أحد عمالي الثقاة ، وهو يخبرك بسر رحلتي لوقوفه عليه وانما أرسلته الى لندرا لشأن خطير ، وهو نائبي فيها فاخضعوا له خضوعاً مطلقاً في كل شأن كما تخضعون لي » .

وهنا توقف روكامبول عن الاملاء فتوقف بترس تونن عن الكتابة وقال: أهذا كل ما تريد ؟

– نعم .. فلم يبق عليك غير التوقيع .

فتنهد وكتب اسمه تحت السطور

فأخذه روكامبول وتمعن فيه ثم ابتسم وقال : يظهر ان اضطرابك كان شديداً يا سيدي ، حتى انك نسيت أن تضيفه الى توقيعك .

– أية اضافة تعني بكلامك هذا ؟

– أعني اضافة صليبين فان توقيعك اذا لم يكن مذيلاً بهما لا يعتبره نائبك بل يعلم انك أكرهت على الكتابة .

فارتعش الأسقف ولم يجب بشيء .

أما روكامبول فإنه رد اليه الكتاب وقال : تفضل يا سيدي وضع هـذه العلامة .

– كلا .. فان ذلك لن يكون .

– لقد توقعت منك هذا العناد .

ثم التفت الى شوكنج وقال : هلم بنـا فان حضرة الأسقف يؤثر العمى كما

يظهر لنا من اصراره وعناده فاطفىء مصباحك ولنضع النظارات على عيوننا فان الأشعة ستعود الى الظهور .

فذعر الأسقف وصاح بروكامبول قائلاً : قف لا تفعل .

– لماذا لا أفعل العلك خفت ؟

– اني أضيف العلامة الى التوقيع وأفعل ما تريد بشرط أن تعـــدني بقضاء أمر .

– ما هو ؟

– هو أن لا يصاب المستر سكوت بأذى .

– أتعهد لك .

– وأن تخرجني من هذا القفص في أقرب ما يمكن .

– أعدك بذلك أيضاً .

فأخذ عند ذلك الكتاب ووضع العلامة الاصطلاحية تحت توقيعه .

فقال له روكامبول : اكتب الآن العنوان فوق الغلاف .

ففعل ودفعها لروكامبول ، فأخذهما ووضعهما في جيبه ثم قال للأسقف : الى اللقاء يا سيدي .

وانصرف ..

ووضع الأسقف رأسه بين يديه ، وبدت عليه علائم اليأس الشديد فقال له شوكنج : أظننت يا سيدي انك تغلب الرئيس ؟

فلم يجبه الأسقف ، فوضع شوكنج المصباح على الأرض وانصرف فشيعه الأسقف بنظرات تشف عن مبلغ همه حتى توارى عن الأنظار .

ولنعد الآن الى لندرا فقد تركنا السير أرشيبالد مضطرب القلب لخوفه من الرجل العبوس ولافتتانه بجمال فاندا .

وكان اذا ذكر الرجل العبوس تذكر ما رآه من رعب الأسقف بيترس تون ، حين علم أن الرجل العبوس يخدعه ، فيهلع قلبه ، ثم يذكر ما أنذرته به فاندا ، وهو أنه اذا أصر على المكابرة والعناد كان الخطر شديداً على حياة ابنته .

وكان يذكر جميع ذلك بعد أن فارقته فاندا ويخاف خوفاً شديداً .

ثم يرى أن الرجل العبوس ليس لديه برهان غير تلك الأوراق المسجلة في سفارة باريس ، وهي برهان قاطع وسلاح ماض ، لاسيا في يد ذلك الرجل لمقدرته على الانفاق ، ولكنه كان يشكك في وجود هذه الأوراق حقيقة لديه ويظن أن الرجل العبوس كان عارفاً بأمره ، وانه يدعي أنها لديه من قبيل الارهاب والوعيد فيهدأ خاطره ويطمئن بعض الاطمئنان .

ثم يعاوده الخوف مما قالته فاندا ، وهو أن الرجل العبوس لا يقرع أبواب المحاكم ، ويذكر شهرة هذا الداهية وتفننه بالحيلة فيعود الى الاضطراب والجزع .

ولبث هذا دأبه يوماً وليلة ، وهو تارة يتمكن منه الخوف فيعول على الاستسلام ، وتارة يطمئن فيعزم على الاباء .

ويذكر القراء ان فاندا فارقته على أن تعود اليه في اليوم التالي ، وانها أمهلته يوماً للتفكير والامعان ، فلما دنا موعد قدومها كان لا يزال متردداً في أمره ، لا يعلم أين يستقر .

ثم جاءته فاندا وهو على الحالة التي تقدم لنا وصفها ، فنسي كل ما فيه لما تولاه من الدهشة بجمالها .

وخف لاستقبالها وهو يضطرب غراماً ويتلعثم ، فلا يجد للتعبير عن فرحه بلقائها كلاماً .

ثم جلست فاندا ، وهي على أتم التأنق ، فجلس بجانبها .

حتى إذا زالت دهشة اللقاء ، بدأت فاندا الحديث ، فقالت له وهي تبتسم :

– إي حضرة السير أرشيبالد ، هل تمعنت في ما اقترحته عليك باسم الرجل العبوس ؟

فبدت على وجه السير أرشيبالد علائم الانقباض لذكر اسم هذا الشخص الهائل وقال :

– نعم يا سيدتي لقد فكرت ملياً في هذه المشكلة العويصة فما فتحت منها باباً حتى سد بدلاً منه إما وراءه من الأبواب .

– كيف ذلك ؟

– إنك تسألينني التنازل عن جميع ثروة اللورد افندال لأخيه اللورد وليم من نقد وعقار ومقتنيات .

فابتسمت فاندا وقالت : اليس ذلك حقاً ولمن هذه الأموال أما هي أموال اللورد وليم ؟

ورد قائلاً . هو ذلك يا سيدتي ، غير اني أرى تحقيق تلك الأمنية محال . ولو كنت تطلبين المال النقد لسهل الأمر ، وأما عقار القاصرين فلا يمكن بيعه .

– ومال القاصرين كيف يسهل دفعه ؟

– إني أدفعه من مالي ولكن العقار لا يباع .

– إني لا أسألك البيع ، فان اللورد وليم لا يريده ، ولكني أسألك

التنـازل !..

– وكيف يتيسر هذا التنازل إلا إذا أثبتنا حقيقة ان اللورد لا يزال في قيد الحياة .

– الملك نسيت يا سيدي ان الرجل العبوس يريد ان يرد إلى اللورد وليم ثروته ولقبه .

– ولكن هذا محال لن يكن .

– بل يكون إذا تدبرت وأحسنت التمعن في عاقبة الرفض وأشفقت على ابنتك وذكرت ما يتهدد حياتها من الأخطار .

فابتسم السير أرشيبالد ابتسام المشكك وقال لها : أراك تتوعدين كثيراً يا سيدتي .

– إني لا أتوعد من تلقاء نفسي ، بل إني رسول ، وليس على الرسـول إلا البلاغ . وقد نقلت هذه الأقوال كما تلقيتها .

– وهل تظنين ان هذا الوعيد صدق وان الرجل العبوس قادر على إنفاذه في بلاد لا تنام فيها عيون رجال الأمن .

فضحكت فاندا وقالت : لقد غفلت عيون رجال الأمن عن الرجـــل العبوس حين خرج آمناً من سجن نوايت ليلة الحكم عليه بالاعدام .

وغفلت عيون رجـال الأمن عنه ، حين طـوق الأسقف باترس تـوين مــنزله .

وغفلت عيون رجال الأمن عنه حـين عبث بذلك الأسقف ، كما يعبث الهر بالفأر .

وماذا عسى ان يصنع رجال الأمن مع هذا الشخص الهائل الذي أقـام لندرا وأقعدها ؟..

إنك يا سيدي مخطىء بما تظهره من عدم الاكتراث ، مسيء لإبنتك مسيء لولدها مسيء لنفسك ، وإنما أقول لك ذلك من قبيل الإشفاق ، وأنت مخير في

قبول النصيحة .

فأطرق السير أرشيبالد هنيهة مفكراً وقال : إني أشكرك لنصحك ، يا سيدتي ، ولكنك لو كنت في مكاني لهانت عليك الأخطار في جانب تلك المطالب الفادحة . فإن الرجل العبوس ، أي اللورد وليم يريد ان يحرم ابنتي وابلتها من كل شيء .

– إنه لا يحرم أحد يا سيدي بل انه يسترجع حقه .

– ولكن أخاه إذا كان قد أذنب باغواء أبيه فأي ذنب جنته امرأته وبنوه فيعاقبون بهذا الحرمان ؟

– قد تكون مصيباً بعض الإصابة يا سيدي ، ولكن اللورد وليم ليس من أهل الشر والانتقام ، فمتى نال حقه الصريح فهو لا يهمل امرأة أخيه وأولادها .

فكبر هذا القول على السير ارشيبالد ، وعظم عنده ان تكون بنته في موقف المتسولات .

فهاجت كبرياءه وقال لفاندا : لا أدري بأي سلاح يريد ان يحاربنا هذا الرجل العبوس ، ولا أدري كيف يريد اللورد وليم ان ينال ما يطمع به ثم يقف معنا في موقف المتبرعين المحسنين ؟

وقد رأت فاندا ان عينيه قد اتقدتا وانه بات أقرب الى المشاكسة والعناد منه الى المسالمة واللين .

فابتسمت له الطف ابتسام وقالت له . إني ما جئت يا سيدي غير رسول ، ويسوءني ان يكون لكلامي هذا الوقع الأليم منك ، فاني لا أريد لك إلا الخير . غير اني أراك كثير التشبث في رأيك ، قليل الاكتراث بما يتهددك من الأخطار . فهل تريد ان أقنعك بوجود هذه الأخطار ؟

– هذا كل ما أريده يا سيدتي .

وقالت له فاندا : وإذا أقنعتك يا سيدي ، أتوافق الرجل العبوس في ما اقترحته لك ؟

– إنني أنظر عند ذلك في اقتراحاته نظرة أخرى .

– إنك سألتني ، يا سيدي ، عن سلاح الرجل العبوس ، وسلاح اللورد وليم .

– هو ذاك .

– أما سلاح الرجل العبوس ، فهو فوزه على أبناء سيوا في الهند ، وعلى الانجليكان في لندرا ، وكفى بذلك سلاح يحملك على الخوف إذا كنت من المتبصرين . وأما سلاح اللورد وليم فهو إقرار برمي المسجل في السفارة الانكليزية .

وأين هذا الإقرار ؟

– لدى العبوس .

فابتسم السير ارشيبالد ابتسام المشكك وقال : وما يضمن لي صحة هذا القول ؟

– يضمن لك الاطلاع على هذه الأوراق .

وكانت فاندا تقول هذا القول بلهجة الواثق المطمئن وقد تبين السير ارشيبالد الصدق من لهجتها .

فاضطرب وأفحمه البرهان ، ولكنه حاول المراوغة فقال : لنفرض ان هذه الأوراق موجودة حقيقة لدى العبوس ، فكيف يستطيع المجاهرة بها وهو محكوم عليه بالإعدام ؟

– لقد قلت لك يا سيدي ، ان الرجل العبوس لا يلجأ إلى الحاكم في نيل حق .

ولكن لنفرض كما فرضت انه عاجز عن نيل حق اللورد وليم بالدهاء والحيلة فانه يعطي الأوراق للورد وليم .

– إن ذلك يحتاج إلى المقاضاة .

– وما يمنعه عنها ؟

– أولاً المال .

– إن العبوس ينفق عن سعة ولا يعوزه المال .

– ثم البرلمان نفسه فانه لا يؤذن بمثل هذه الفضيحة ، ولا يسمح بمحاكمة هذه الأسرة .

– إن القضاة فوق البرلمان ، والمال في بلادكم فوق القضاء ، وفوق البرلمان .

– ولكن هناك قوة لا تعلمينها وهي فوق جميع ما ذكرناه .

– ما هي ؟

– هي نفوذ الجمعية الانجليكانية .

بمن يقوم نفوذ هذه الجمعية السرية ؟

– بعميدها ورئيسها الأسقف بيترس تورن .

فابتسمت فاندا وقالت له بلهجه المتهكم : إنك تبحث يا سيدي منذ يومين عن هذا الرئيس العلك وجدته ؟

فذعر السير ارشيبالد لما سمعه وقال : هو ذاك فكيف عرفت إني أبحث عنه وأين هو الآن ؟

– أما إني عرفت انك تبحث عنه ، فذلك مما يثبت لك ان عين العبوس غير غافلة عنك .

وأما بترس تورن فلا أدري أين هو ، ولكن لنفرض انه في قبضة الرجل العبوس ، وانه اضطر إلى أسره كي لا يكون عثرة في سبيل ما يريد قضاءه من المهمات .

فأجفل السير ارشيبالد وقال : ماذا أسمع منك يا سيدتي ، أيمكن ذلك أن يكون ؟

– كل شيء يمكن للرجل العبوس . فما أراد أن يكون فهو كائن ، وقد نصحتك ، ولا أزال أكرر عليك النصح ، فان مسالمة هذا الشخص خير من معاداته ، ولأن تنيله ما يريد بالرضى خير من ان يناله منك بالكره والاغتصاب .

– ولكنك لم تخرجي بعد يا سيدتي عن حد الافتراض ، فكيف أستطيع التسليم والرضوخ وأنت تقولين لنفرض ان الاوراق بيد العبوس ولنفرض أن بترس تون في أسره .

– تريد انك لا توافق الآن على اقتراحاتنا إلا عندما ترى تلك الأوراق ويثبت لك أسر بترس تون .

– هو ذاك ومتى ثبت ذلك نظرنا معاً في تعديل تلك الاقتراحات ، فان تحقيقها بجملتها محال .

– إذاً أستمهلك يومين فأثبت لك الأمرين .

– أتريني الأوراق وتثبتين لي أسر بترس تون .

– نعم .

– وعندها ننظر في اقتراحكم .

وردت فاندا قائلة : بل تنظر فيه الآن على افتراض ان البرهان موجود كي لا يطول زمن المخابرات ، فان أشغال الرجل العبوس تقضي عليه بسرعة الذهاب .

– الملك مفوضة عن العبوس بإبرام الاتفاق

– كلا وإنما أعرض عليه ما اقترحته من التعديل بلسان البرق فاذا رضي به فلا توقع على الاتفاق إلا بعد ان تستوثق من تلك البراهين ، فقل الآن ماذا تريد ان تقترح ؟

– إني أبسط اقتراحي يا سيدتي وأنا أرجو ان تكوني لي عوناً في تنفيذه فإني أراك من نساء الخير وخير النساء .

فانحنت فاندا شاكرة وقالت له . ثق يا سيدي ، إنني سأكون عون لك فيما تريد .

– إن أشد مشكلات هذه القضية التنازل عن اللقب فان في ذلك فضيحة لا يخلق ان توصم بها تلك الأسرة العريقة بالنسب .

أما الفضيحة فهي ان اللورد وليم ميت في عيون الحكومة والناس ، فاذا أعدنا اليه اسمه فلا بد من إظهار حقيقة الجناية ، وأية فضيحة أعظم من فضيحة اللورد أفندال إذ ظهرت جنايته على أخيه .

ثم ان هذا العار لا يلحق باللورد افندال الميت وأولاده وامرأته الأحياء فقط ، بل انه يشمل أسرة باميلتون ، ويلطخ هذا البيت بوصمة لا يمحيها كرور الأدهار .

وبعد ، فأية فائدة للورد وليم من المحافظة على اسم أسرة تلطخ بعار الجنايات ؟

إن المرء يحافظ على اسم أسرته ما زال نقياً من العيوب ، سالماً من الشوائب ..

اليس خير للورد وليم ان يبقي على شرف هذه الأسرة ، وينتحـــل لنفسه ما أراد من الاسماء بفضل ما يقبضه من المال الكثير ؟

– ليس من شأني الحكم في هذا الشأن فقد يكون للعبوس واللورد وليم غير هذا الرأي .

– ولكنك وعدتني يا سيدتي بالمساعدة .

– لم أزل على وعدي ، فقل لي بقية ما تريده من التعديلات ، حتى اذا رأيت من التساهل ما يفسح لي مجال المداخلة تداخلت ، وكنت لك خير معين .

– لم يبق غير أمرين وهما إرجاع الثروة وابتعاد اللورد عن لندرا .

أما الثروة فقد تقدم لي القول اني أدفع له منها المال النقد ، فان

عقار القاصرين لا يبـــاع ، والتنازل محال ، ما زال اللورد ميتاً في أعين الناس .

وأما ابتعاده عن ارلندا فذلك لا بد منه تجنباً الفضيحة إذ قد يراه بعض أصحابه القدماء فيعرفونه .

فابتسمت فاندا ابتسام المتهكم وقالت :

– أهذا هو التعديل الذي تريد أن تحمل به اللورد عن التنازل عن لقبه ولديه باثباته أمضى سلاح ؟

- ماذا تريدين ؟

– إني لا أريد شيئاً ، ولكني أشير عليك أن تتنازل عن الثروة بجملتها فان اللورد يأنف من أسرته بعد تلك الجناية الهائلة ، وقد ينفر من الإقامة في لندرا ، بعد ما لقي فيها تلك الآلام . ولكني لا أخـــاله يتنازل عن درهم من ثروته .

– ولكن العقار لا يباع وأصحابه قاصرون .

– ولكن قيمته تعرف .

– ماذا تعنين بذلك ؟

– أعني به ان ثروتك تبلغ أربعة أضعاف ثروة أسرة باميلتون ، وأنت لا وارث لك غير ابنتك وبنيها .

ثم انت من أشد الناس رغبة بالجاه والنفوذ ، فاذا أردت استبقاء الجاه ، واتقاء الفضيحة ، والاحتفـــاظ بذاك اللقب ، لابناء إبنتك ، فلتثمن موجودات أسرة باميلتون بأسرها . فاذا عرفت قيمتها ، دفعتهـــا أنت من نقودك

فذعر السير ارشيبالد وصاح مستنكراً :

– إن هذه الثروة تبلغ عشرين مليوناً ، أتريدين أن أدفع من مالي ذاك المبلغ الجسيم ؟

-- أليس خيراً أن تدفع بالرضى ، بدلاً من أن تدفع بالاكراه ؟ وقد عرفت يا سيدي سلاح العبوس فهل تجمل بك المكابرة بعد ذاك العرفان ؟

– ولكن هذه البراهين لم تثبت لي يا سيدتي ، ولا تزال في حد الافتراض !.

– دون شك ، ولكنك لا تدفع المال إلا بعد ان تستلم الاوراق ، أي بعد ان يصبح ذاك السلاح بيدك . على اني أعيد عليك ما قلته وهو إني لا أضمن رضى العبوس ، ولكني أتوسط لديه ، وأرجو ان أتمكن من حمله على القبول .

فأطرق السير أرشيبالد إطراق المفكر المهموم وقد أيقن من وجود البراهين وهي أمضى سلاح ضد ابنته .

وراعه احتجاب الاسقف ، وهو معينه الوحيد . وخشي ان ينتزع الرجل العبوس لقب اللوردية من أبناء بنته ، وهو يحتقر كل مال في جانب هذا اللقب .

ثم انه كان من أعظم أغنياء الانكليز ، ومن أشدهم احتقاراً للمال . فلما رأى أنه بات كالطير قص جناحاه لم يجد بداً من القول ، فالتفت إلى فاندا وقال لها :

– متى أرى البراهين يا سيدتي ؟

– أية براهين ؟

– براهين الاوراق وبراهين الاسقف .

– بعد يومين .

– وإذا دفعت المال بجملته أستلم الاوراق ؟

– دون ريب .

– ويتعهد اللورد وليم ان لا يقيم في لندرا !

– إذا رضي باسترجاع الثروة دون اللقب فلا بد له من الرضى بالابتعاد وإنما شأني بينكما شأن الوسيط ، فسأعرض على العبوس إقتراحك فاذا رضي به بلغتك رضاه .

– وإذا لم يرض ؟

– يعود إلى العمل لاسترجاع اللقب بالقوة ، ويعود اللورد إلى استرجاعه بالأحكام .

فاصفر محيا السير أرشيبالد لخوفه وقال : إذاً تفضلي بعرض اقتراحي على الرجل العبوس .

– إنه يتضمن إعادة الثروة بجملتها من نقد وعقار ؟

– هو ذاك .

– وأما العقـــار فيثمن ، وتحول قيمته إلى نقد ، وتدفع انت المال على الفور .

– بعد أن أستلم الأوراق .

– هذا لا ريب فيه .

فتنهد السير أرشيبالد وقال : إذاً إفعلي ما تشائين ، فقد القيت عليك اعتمادي .

– وأنا معتمدة في قضاء هذه المهمة على ما لي من الدالة على العبـوس ، ورجائي أن أتمكن من إقناعه .

– متى أراك يا سيدتي ؟

– بعد يومين ، فإما آتيك نذير حرب أو اكون رسول سلام .

– إنك حمـامة وديعة ، يا سيـدتي ، ولم تكن الحمـائم إلا رسـل السـلام .

* * *

وبعد حين ودعته فاندا وانصرفت رأساً إلى مكتب التلغراف وأرسلت إلى روكامبول بحمل اصطلاحية التلغراف الآتي :

« مضى بعد الجهد باعادة الثروة يحملتها من ماله الخاص دون اللقب ... إنه مصيب ، فإن إحياء إسم اللورد وليم يظهر الحقيقة ، ويشين الأسرة .

وهو يشترط إستلام تقرير برمي ، وإثبات أسر الأسقف بترس تون ، وابتعاد اللورد عن لندرا ... وعدته بالجواب بعد يومين .. فبماذا يجب ان أجيب » .

« فاندا »

وبعد ان أرسلت هذا التلغراف إلى روكامبول ، عادت إلى منزلها بعد ان تركت عنوانها وأقامت فيه تنتظر الرد .

فجاءها بعد ساعة هذا التلغراف :

« سأكون أنا الجواب وسنتفق » .

« روكامبول »

لقد تركنا الأسقف سجيناً في قفص الحديد ، وهو يعض البنـان حسرة وندماً لما أصابه من الفشل ، ولوقوعه في قبضة الرجل العبوس ، بعـد أن كاد يظفر بـه في لنـدرا ، ويرده إلى سجـن نوايت ، وينال منـه مراده .

وقد كان أشد ما لقيه من الهم انه اضطر إلى خيانة الجمعية التي يتولى رئاستها بذلك الكتاب الذي أملاه عليه روكامبول .

وقد ندم الندم الشـديد ، وبات يؤثر العمى ، وكل ضروب التعـذيب والتنكيل .

ولكنه ندم بعد فوات الأوان ، فكان يأسه لا يوصف . لا سيا حين كان يجول في خاطره ما يمكن ان يناله الرجل العبوس والارلنديون بواسطة هذا الكتاب . فانه كان يئن أنين المتوجعين ويزأر في ذلك القفص زئير الوحوش .

أما روكامبول فانه بعد ان أخذ الكتاب من الأسقف ذهب إلى عصابته فقال لهم : لقد قضي الأمر وحمله الخوف على التسليم

ثم حدثهم بأمر الكتاب وقال له مرميس : إني لا أرى في الكتاب فائدة لك بل كل الفائدة للارلنديين .

– بل لي ولهم .

– إني أعجب أيها الرئيس كيف تخدم الارلنديين مثل هذه الخدمة الجليلة وهم جحدوا نعمتك وأنكروا فضلك حين كنت في السجن .

– ألم يحاولوا إنقاذي وما عليهم ان يفلحوا فان على المرء ان يسعى وليس

عليه ان تتم المقاصد .

– ولكنهم ما حاولوا إنقاذك من أجلك بل من أجل مس الن .

– قد يكون ذلك ، غير أن غايتهم نبيلة ، لا تضيع فيها جلائل الأعمال .

– ولكن جحودهم نعمتك لوث هذه الغاية ولو كان أمرهم بيدي لتركتهم وشأنهم وما جازيتهم بعد الإساءة بالإحسان .

فابتسم روكامبول ابتسام الحزين وقال : أهذا ما أخذته عني يا مرميس بعد التلمذة ؟

ألا تدري انك تعمل بمبدأ الشر بالشر وأنت لا تدري ... وإذا تخليت عن نصرة المظلوم وانتشاله من براثن أهل الشر حين تستطيع ، ألا تكون شريكاً لهؤلاء الأشرار ؟

ومتى علمتك ان تكون من أهل الشر ؟ ..

إن المرء خلق جحوداً كافراً بالنعمة ، يذكر السيئة ويتغاضى عن الحسنة فاذا تخلقت بأخلاقهم فكيف تمتاز عنهم ؟

وإذا لم تكن لك ميزة عليهم فكيف تفيدهم ، وإذا أحببتم من يحبكم فأي فضل لكم ؟

فأطرق مرميس مستحياً وقال : عفوك أيها الرئيس فقد دفعني حقدي على الارلنديين إلى قول ما قلته فقد أثر بي رفضهم إنقاذك تأثيراً شديداً لا تزال آثاره إلى الآن في داخل صدري .

– وما نطقت به الآن هفوة أخرى أود ان لا تعود فان النفوس الشريفة لا تضمر الأحقاد .

وكأنما قد أشفق على تلميذه من الاستحياء ، فالتفت الى اللورد ولم وقال له : بقيت لهذا الكتاب فائدة أخرى ، قلت لمرميس إنها لي والحقيقة إنها لك .

– كيف ذلك أيها الرئيس ؟

– ذلك لأني أرجو أن أقنع به السير ارشيبالد أن الأسقف في قبضتي كي أحمله على التساهل في أمرك اذ لا نصير له غير الأسقف فمتى عرف انــــه في قبضتي ، لم يبق له نصير ، كما عرف ان اقرار برسي بيـــدي فهو يتساهل كل المساهلة دون شك .

– كيف عرف ان الاقرار بيدك ؟

– اني قد عهدت إلى فاندا بمخابرته ، وربما تكون قد لمحت له عن وقوع الاسقف في قبضتي ، فقد كلفتها بذلك أيضاً .

– إذاً لم يبق لدينا ما نعمله الآن هنا فلنعد إلى لندرا .

– كلا فاني أنتظر تلغراف من فاندا عما أفضت اليه المخابرات ، إذ ربمـا احتجت إلى كتاب آخر أمليه على الأسقف السجين .

* * *

بينما كان روكامبول يحادث اللورد وليم وتلميذه بما تقدم كانت فاندا تخابر السير أرشيبالد بما تقدم لنا بيانه في الفصل السابق .

فلم تمض ساعــة حتى ورد إلى روكامبول ذلك التلغراف المتضمن خلاصة المخابرات .

وعاد روكامبول إلى الاجتماع باللورد وليم والمداولة معه فيما اقترحه الســير أرشيبالد من التعديل ، وهو إرجاع الثروة بجملتها إلى اللورد وإبقــاء اللقب لأبناء أخيه وسفره من لندرا .

وقد كان من رأي روكامبول الاصرار على استرجاع اللقب والثروة معاً .

ومن رأي اللورد ، الاكتفاء بالثروة حذراً من الافتضاح ، وإشفــاقاً على أسرة باميلتون من العار .

وفوق ذلك فانه أنف العودة إلى هذه الأسرة بعد تلطخها بهذه الوصمة الشائنة فرضي بما اقترحه السير أرشيبالد من التعديل .

وكذلك روكامبول فانه علم أنه إذا لم يفز على السير أرشيبالد بالدهاء والحيلة فاز عليه بالمقاضاة .

لكن مثل هذه القضية الكبرى يقتضي لها عدة أعوام ، لا يستطيع في خلالها مفارقة اللورد وليم ، لا سيا وان اللورد رضي بما قسم له فاضطر إلى موافقته .

وعند ذلك أرسل إلى فاندا ذلك التلغراف ويقول فيه : « سأكون أنا الجواب .

ثم جمع عصابته فأمرها أن تتأهب للرحيل ونادى شوكنج وقال له : اننا سنسافر دونك ، وستبقى في هذا المنجم ، وتكون مهمتك حراسة القفص الحديدي ومن يسكنه .

ـ أيطول عهد سجن هذا الأسقف ؟

ـ اني لا أظنه يمتد أكثر من شهر واحد .

ـ وبعد ذلك ماذا أعمل ؟

ـ تطلق سراحه .

ـ بأمر من ؟

ـ بأمري او بأمر من الكاهن صموئيل .

ـ وبعد اطلاق سراحه ؟

ـ تبرح هذه البلاد وتعود توا إلى باريس حيث تلقاني فيها .

ـ ألا خطر علي من الأسقف بعد اطلاق سراحه ؟

ـ كلا ، حيث يصبح عاجزاً عن الإيذاء باحد ، وأحوج منك إلى الخوف واتقاء الأخطار .

ـ سأمتثل يا سيدي لما تريد ، فسر آمناً على السجين .

وبعد ساعة سافر روكامبول وعصابتــه واللورد وليم وادوار عائدين الى لندرا بعد أن كتب الى رئيس مستشفى الجزيرة يأمره بأطلاق سراح جوهن بيل او ولتر بريس إذ لم تبق لهم فائدة من اسره .

ولما وصلوا الى لنـــدرا اجتمع روكامبول وفاندا بالسير ارشيبالد وأيقن السير أرشيبالد من صدق ما قالته له فاندا .

وتم الاتفاق بينه وبين اللورد وليم ان يبرح لندرا فلا يرجع اليها احتفاظاً بالسر ، وان يتخلى عن لقبه ، وان يقبض نقداً قيمـة جميع ثروة اسرة باميلتون .

فقضت هذه المشكلة العويصة رحلة روكامبول ، وكان الخصمان راضيين أتم الرضى ، هذا لاحتفاظه بالجاه والنفوذ ، وذاك لاقتصاره على المال وابتعاده عن أهل الشر والنفاق .

لقد مضى بنا عهد طويل دون أن نذكر شيئاً عن مس الن ابنة اللورد بالمير ولا بد أن يكون القراء تواقين الى معرفة أمرها ، بعد عودتها من باريس الى لندرا فنقول :

ان اباها كان يحبها حباً شديداً فلم يكن يحن إلا لصوتها ولا يرق فؤاده إلا لحديثها ولا يعرف قلبه الضعف إلا حين ينظر اليها .

وقد عادت مس الن الى منزله وهي واثقة كل الوثوق من استرضائه بل انها كانت واثقة أيضاً من حمله على موافقتها في التشيع للارلنديين بعد أن انضمت اليهم بفضل روكامبول .

وقد نالت كل ما ارادت من ذلك القلب الأبوي الضعيف فغفر لها فرارها من منزله

ولم يمض بها بضعة ايام حتى أرجعته الى مذهب ابائه وهو الكثلكة فبات لورداً بروتستانياً بالظاهر وفي الباطن ارلندي كأبنته .

وكان روكامبول يزورها بعد خروجه من السجن متنكراً ، وقد راعه ما رآه من تهورها في غرامة ، فكان يحاول أن يصرف قلبها عن هذا الحب الذي لا رجاء فيه بما اوتيه من الدهاء والحيلة ، ولكنها لم تكن تزداد إلا هياماً به وتعلقاً برجاء زواجه حتى خشي عاقبة هذا التهور ، وعول أن يلجأ معها الى التصريح بدلاً من التلميح .

وكانت مس الن تدرك معاني تلميحه وترى من مناهجه انه يحبها حباً ابوياً طاهراً فيكبر عليها امره ثم يمر بخاطرها اسم فانداً فتكاد تفترسها الغيرة منها ولكنها لا تذكر شيئاً من غيرتها لروكامبول انفة واستكباراً .

فلما فرغ روكامبول من قضاء مهمة اللورد وليم ، لم يبق عليه غير مهمتين وهما توديع الأب صموئيل وتسليحه بكتاب الأسقف بترس تون ، وتوديع مس الن ونزع هذه الأميال من فؤادها بما تفتقه له الحيلة في تضاعف الحديث ، إذ جاهر لسانها بما كانت تجاهر به عيناها من معاني الغرام .

وقد بدأ بزيارة مس الن فسار اليها وقلبه يضطرب لما كان يتوقع أن يلقاه في ساعة التوديع .

فاستقبلته في القاعة الكبرى . ثم نزلت به إلى الحديقة وجلست وإياه على مقعد في ظل شجرة باسقة فأقام معها نحو ساعتين لم يعلم أحد ما دار بينهما من الحديث في خلالها .

غير انهما حين افترقا كانت مس الن مصفرة الوجه متقدة العينين ، وكان روكامبول مضطرب البال تبدو آثار القلق من عينيه .

ولم يذهب بعد افتراقهما إلى مقر العصابة ، بل سار تواً إلى الكنيسة التي يقيم فيها الأب صموئيل ، فلقيه واخبره بجميع ما اتفق له مع الأسقف ، إلى أن أخبره بأمر الكتاب الذي أملاه عليه وكتبه بخطه وتوقيعه ، فكاد يطير فؤاد الكاهن سروراً وقال . إنك خدمت الارلنديين خدمة لا ينسونها أبد الدهر ، فاننا سنبلغ من الجمعية الانجليكانية ما نشاء بفضل هذا الكتاب .

– وإذا كنتم محتاجين إلى المال فان خزائنها الآن بين أيديكم على أن تحسنوا الحيلة .

– ولكن الكتاب يتضمن تفويضاً مطلقاً وطاعة لحامله لا حد لها .

– وماذا عليك من هذا الاطلاق ؟

– إني أخشى أن يريبهم ذلك فلا ندرك كل مقاصدنا .

– ان شعرتم بشيء من الريبة فاعمدوا إلى التخصيص .

– كيف ذاك .

ـ ذلك ان الأسقف لا يزال سجيناً في القفص ، وشوكنج يعرف أسرار الآلة الكهربائية فاملوا عليه ما تشاؤون ، فيكتب لكم ، وإن أبى هددوه بالنور فقد لقي من عنائه وآلامه ما يضطره إلى الاذعان .

ـ وبعد ذلك ما تريد أن نصنع به ؟

ـ اني كنت أود أن أطلق لكم الحرية في أمره ، ولكني وعدته باطلاق سراحه حين نفرغ من مهمتنا ونصبح جميعنا في أمن من كيده ، أما أنا فاني قد قضيت الآن مهمتي فاسرعوا الآن أنتم في قضاء ما تبتغون منه .

ـ ولمن عهدت إطلاق سراحه ؟

ـ لك ، فان شوكنج لا يطلقه إلا إذا ورده أمر منك أو مني ، وأنا مسافر فلا أتداخل في أمره بعد الآن .

ـ وأين أجد شوكنج ؟

فأرشده روكامبول إلى مكانه ، ثم ودع ذلك الكاهن الجليل بعد أن أقام عنده مدة طويلة وانصرف إلى مقر العصابة وهو مشتت البال وعلائم الحزن بادية عليه .

فلما وصل إلى حيث يقيمون كان أول ما نطق به سؤاله عن فاندا لأنه لم يرها بينهم .

فقال له مرميس : إنها خرجت من المنزل منذ ساعتين ولم تعد بعد .

ـ إلى أين ذهبت ؟

ـ إلى مس الن فانها أرسلت تدعوها برسالة قالت فيها انها محتاجة اليها لشأن خطير فلم يسع فاندا إلا الاسراع بالذهاب مع الرسول .

فلم يكد روكامبول يسمع هذا القول حتى امتقع لون وجهه وبدت علائم الرعب بين عينيه فهب منذعراً وخرج من المنزل وهو لا يلوي على أحد .

فأجفل مرميس ورفاقه وحاولوا أن يتبعوا الرئيس ، فعاد اليهم وأمرهم بالبقاء في المنزل ، ثم خرج وهو يقول : قوتلت الغيرة ، فاني أخشى أن

تكون دفعت تلك الفتاة إلى الكيد بفـاندا ، بل قوتلت أنا فقد غفلت عمـا يجره نزق الشباب .

ثم اندفع ينزل درجات السلم أربعاً أربعاً وهو يود لو كان له أجنحة فيطير بها إلى مس الن لفرط إشفاقه على فاندا ورجـال العصابة وقوف في أعلى السلم وهم منذعرون ، فإنهم عاشروا الرئيس دهراً طويلاً ، ومارسوا معـه أفدح الخطوب فما رأوه مرة أصيب بمثل هذا الرعب ولم يتعودوا منـه غير السكينة وثبات الجأش .

أما روكامبول فانه لم يكد يخرج من الباب حتى صاح صيحة فرح وقال : فاندا !

فأجابته فاندا بصيحة مثلها وقالت : روكامبول !

ثم هجمت عليه فعانقته والدموع تذرف من عينيها ، ذلك انه كان خارجاً من الباب ، وكانت داخلة اليه ، وكان خائفاً عليها وكانت خائفة عليه كما سنبسطه للقراء .

كانت مس الن قد علقت بروكامبول وفتنت به أي افتتــان حتى باتت تراه في مقتبل الشباب وهي تعلم انه تجاوز عهده ، ورأته مثيلاً لها في النبل والنسب على عرفانها بأنه وجد لقيطاً ونشأ لصاً وترعرع سفـــاكاً ، ولكن الغرام جعل كهولته شباباً ناضراً ، وحطة مولده نسباً طاهراً .

فكانت إذا ذكرت آثامه شفع فيها انه ندم وتاب . وإذا رأت وخط الشيب في شعره قالت انه استبدل حمامة بغراب . واذا خطرت لهــا حطة نسبه قالت : ان عرش الغرام لا يرقى اليه بسلم الأنساب .

الغرام الغرام انه آفة البصائر والالباب ، فلا يسمع فيه غـير حديث القلوب ، ولا لغة له غير لغة الوجدان ، ولا رأي فيه لعقل وصواب .

ذلك كان حـــال تلك الفتاة ، وهي في ربيع العمر وزهرة الشباب ، قد نفذت إلى قلبها أشعة الغرام ، فملأت وعــاء ذلك القلب ، وعشقت في الثامنة عشرة من عمرها ، وهي عروس الشعر كهلا تجاوز الأربعين فتجاوز عنه الشعراء .

ولقد زادت في اتقاد جذوة غرامها استخفاف روكامبول بذلك الغرام ، ووثوقها انه يحب فاندا ، ولذلك كانت إذا ذكرت ما بينها وبين مزاحمتهــا من التباين في الجمال والصبى والمقام ، ثم رأت ميل روكامبول إلى خصيمتهــا فيه هاجت فيها عوامل الغيرة وأكبرت رغبته بها عنها على وجود ذلك التباين وهي لا تدري ان أعظم مفرق بينها وبينه : انما هو هذا التباين نفسه ، فمــا رأت العقلاء جناية أبلغ من جناية زواج تباينت فيه الأقدار والأعمار إلى حد تباينها بين هذين .

غير ان مس الن على وفرة ذكائها لم تكن تصغي إلا لصوت قلبها ، فلما انصرف روكامبول من منزلها تمثلت لها فاندا وكادت تفترسها الغيرة . وقد أضل الغرام صوابها وخطر لها أن تدعو اليها فاندا وتبوح لها بمكنونات قلبها وتمنحها ما تشاء من أموالها في مقابل التخلي لها عن ذلك العشيق ، كأنما العشق يباع ويشترى .

ولكن الغيرة ذهبت بذكائها ، فقامت الى منضدة وكتبت الى فاندا رسالة تسألها فيها الحضور اليها وبعثت رسالتها مع احدى خدامها ، ثم ذهبت الى غرفة زينتها فتبرجت أحسن تبرج ، ولبست أفضل ما لديها من الملابس والجوهرات فباتت فتنة للناظرين وأقامت تنتظر قدوم فاندا على أحر من النار .

وقد عرف القراء من حب فاندا لروكامبول ، ما لم يبق سبيل معه لوصف ، فهي شريكته في سرائه وضرائه ، وهي التائبة من أجله أصدق توبة ، وهي التي كانت تقتبس نور الحياة من نور عينيه ، وتخاطر بالموت من أجل أن يحيى ، وهي التي امتزجت نفسها بنفسه ، حتى سارتا نفساً واحدة ذات شعور واحد ووجدان واحد .

وهي التي اتفقت واياه في المقام والسيرة والمنزلة والروح ، ومثل هذا الحب لا يوصف وانى لأقلام الكتاب أن تجول فيه .

غير ان فاندا ، على فرط ثقتها بروكامبول ، وعلى توقد ذهنها كان يأخذ الغرام في حالاته من ثقتها وعقلها بقدر ما كان يأخذ من عقل مس الن . فان الحب يضعف الاحلام .

ولذلك كانت اذا علمت بالتقاء روكامبول مع تلك الفتاة خلت في غرفتها وبكت بكاء الاطفال ، ليس لخوفها من أن تنفذ نظرات مس الن الى قلب الرئيس ، فقد كانت تعلم ان هذا القلب العظيم لا موضع فيه للخيانة ، ولكنها كانت تحزن لهذا اللقاء دون أن تعلم السبب في هذا الحزن . ولعل ذلك لشدة

حرصها على غرامه ، ولفرط افتتانها به على اعتقادها بصدق ولائه ، فكان مثلها مثل الطفل اذا دنوت من العوبته صاح وبكى دون أن تمسها .

تلك هي حالة هاتين المتزاحمتين في حب ذلك الرجل الكبير ، وتلك حال روكامبول بينهما

فلما وصل كتاب مس الن الى فاندا وجف قلبها كأنما قد توقعت مصاباً ولكنها لم تجد بداً من الذهاب اليها ، فسارت الى ذلك القصر الفخم مكرهة وهي كأنها تسير الى موقف عقاب .

وكانت مس الن قد أخفت اضطرابها ، حتى اذا أقبلت فاندا استقبلتها بالبشر والترحاب ، وآنستها كل الايناس ، وجعلت تنتقل معها من حديث الى حديث حتى بلغت الى حديث عزم العصابة على السفر .

فأخبرتها بصوت مضطرب ، ان روكامبول جاءها مودعاً ، وانه فارقها منذ حين .

فاصفر وجه فاندا لما رأته من اضطراب مس الن حين ذكرت اسم روكامبول ، ونظرت كلتاهما الى الاخرى نظرة شفت عما يخالج قلبهما من الغيرة .

وكأنما هذا الاصفرار والاضطراب منهما قد فتح بينهما باب التصريح ، وأطلقت الالسنة بمكنونات الفؤاد ، فكانت مس الن البادئة بالحديث فابتسمت ابتسام المتهكم وقالت لفاندا :

— أرى وجهك قد اصفر أيتها الحسناء، فهل راعك أن يزورني روكامبول مودعاً قبل السفر ؟

فأجابتها فاندا بمثل ابتسامها وقالت :

— لم ترعني زيارته لك يا سيدتي فقد طالما زارك ، وانما راعني اضطراب شفتيك حين خرج منها اسم روكامبول .

— وماذا فهمت من هذا الاضطراب ؟

— كما فهمت أنت من ذلك الاصفرار .

-- نعم .. ان قلبي يضطرب حين يجول رسمه في خاطري ، ويتلعثم لساني حين ينطلق باسمه ، نعم اني أهواه ، ولا أخشى في هواه لومة لائم ، فقد جرى حبه في قلبي مجرى دمي في مفاصلي، فعصيت من أجله أبي وفررت من بلدي ، وتركت مذهبي وخنت أمتي ، فكيف أخاف التصريح بهواه وقد برح حبه بي هذا التبريح ؟

فامتقع وجه فاندا لما سمعته من هـذا التصريح الجلي ، ولكنهـا تجلدت وتذرعت بالسكينة والحكمة فابتسمت وقالت لها :

-- يسؤوني يا سيدتي أن أرى منك هـــذا الاندفاع في حب رجل لا فائدة لك من هواه ، وأية فائدة من غرام لا يسفر عن القران انه لا يكون منه غير العذاب .

فاهتزت الفتاة وهاجت بها عوامل الكبرياء فقالت : ولماذا لا يسفر حبي له عن القران العلي لست من أكفائه ؟

— انه ليس من أكفائك يا سيدتي فـان ما بينكما من تبـاين المقام يحول دون هـذا الغرام . انك يا سيدتي في الحلقـة الثانية من العمر ، وهو قـد تجاوز الرابعة ، وانت يدعونك اللادي بنت فلانة وفـلان ، وهـو لقيط لا يعرف اسم أبيه ، ولا يعرف عن أمه الا انها كانت وصيفة نورية في أيام الثورة عند احد النبيلات، وكيف يكون التباين أعظم مما بينكما ، وكيف يخطر لك خاطر الزواج ببال .

تمعني ايتها الحبيبة تجدي ان زواجك به محال ، واذا كنت قـد جريت في حبه هذا الشوط البعيد ، فصبراً انك سوف تتدرجين بسلوانه كما تدرجت بحبه ويكون البعاد خير شفيع للسلوان .

وكانت مس الن تسمع حديث فاندا والدموع تكاد تجول في عينيها لوثوقها ان فاندا لا تحاول اقناعها بهذه البراهين العقلية ، الا لتواله قلبها فيه ولكنها

تكلفت السكينة أيضاً ، كما تكلفتها فاندا ، وأرادت دحض برهانهـــا بالبرهان فقالت :

- تقولين انه تجاوز عهد الصبى ، وان الشيب قد وخط شعره ، ولكنه إذا شاب رأسه فان قلبه لم يشب وكفى باقدامه دليلاً على انه من أهل الشباب وأما انه نشأ بين اللصوص فكفاه نسباً انه ابن نفسه ، وانه أشرف أهـــل الانساب ، وماذا يشين المرء ان يكون لقيطاً ، واي عدل يقضي أن يؤخذ الولد بذنب أبويه .

وأما انه كان من اللصوص الآ ثمة فأنت تعلمين انه تاب توبة صادقـة لا رجعة فيها ، وان بين جنبيه قلباً كبيراً لا متسع فيه لغير النبل والشرف وجلائل الأعمال ، فأي تباين بقي بيني وبينه وماذا يثنيني عن هواه ؟

- ولكنه يا سيدتي محكوم عليه بالإعدام في لندرا ومحكوم عليه بالسجن المؤبد في باريس فهو يعيش ما يحيى وأين وجد متنكراً حذراً لا يأمن في كل ساعة ان ينقض البوليس عليه .

- إن بلاد الله واسعة فاهرب به إلى آخر الأرض اني أحب منه « هو » هو أينما كان وكيف كان .

ورأت فاندا ان اقناعها بالبرهان مستحيل فقالت : إذا كان ذلك كذلك يا سيدتي يبقى الا ان يقنع هو اقتناعك .

- ولهذا دعوتك إلي يا فاندا .

- وأي شأن لي في إقناعه إلا تعلمين انه الرئيس المطلق علينا وانـه ليس بيننا من يجسر على اعتراضه في ما يريد حتى بالفكر والتصور .

فابتسمت الفتاة ابتسامة حزن وكآبة وقالت :

- كفى يا فاندا مواربة فقد تدفعت بالتصريح حتى لم أعد أجد بداً من البلوغ به إلى أبعد غاياته ..

انك ترينني يا فاندا أتمتع بلذات الحياة وترين الجواهر تتألق فوق صدري

ولكني لا أمتع النفس بهذه الملاذ إلا لألطف ذلك الشعاع الذي يملأ قلبي وجميع حواسي فكوني لي أختاً صادقة افتح لك خزائني وأشركك في ثروتي ونعيمي ، بل أمنحك كل ما لدي بشرط أن تتخلي عن روكامبول .

فابتسمت فاندا ابتسام الحزن وقالت :

– ليس الحب يا سيدتي بمتاع ... ومتى كانت قلوب المحبين تشرى وتباع ؟

.. وبعد ، فهل لديك من أسباب السعادة ما يفيض عنك فتفرقي منه على الناس ، ولو اقترحت عليك أن نتبادل بالقلبين وبالحظين مهما بلغت من الفقر وبلغت من النعيم ، ألا ترضين هذا التبادل ؟

– إني أراك شديدة الاغترار بجمالك ، فهل تظنين ان زهرة هذا الجمال تدوم نضرتها ولا يعتريها الذبول ، إنك الآن وجمالك كالحلية تسترها أوراق الذهب فماذا تصنعين متى أسقط العمر تلك الأوراق بيد من تحبين ؟

– أشكر هذا الحب ، الذي لم يشتر الحلية الا لما يحيط بها من أوراق الذهب ..

– إن لكل امرأة مرآتين إحداهما من زجاج ، تنظر فيها الى نضرة جمالها . والثانية من وجه من تحب تنظر فيها إلى أماني الهوى ، فاذا كسرت مرآة الغرام ، فهل تنظرين في المرآة الصحيحة غير آثار تلك النضرة الزائلة ؟

– وانت اذا كسرت تلك المرآة فكيف تنظرين بمرآتك الصحيحة الى هذه اللآلىء المضيئة على صدرك ؟

– ما أحلى ذلك اليوم الذي يأتي فيه روكامبول فيقول ان بريق دموعك في عينيك أشد لمعاناً من بريق اللآلىء على صدرك .. اني ذلك اليوم أطرح تلك الملاذ ، والقي تلك الجواهر ، وأكون عبدة لهذا الحبيب ، فأفر به الى آخر حدود الأرض يوارينا تيهاً الغرام على عيون البشر . نعم ، أحبه ..

الأحبه ولا أخشى عاراً في هذا الاقرار ، ان حبه تعاظم في قلبي حتى ضاق به وخرجت منه تلك الأسرار ، وانه يناجي قلبي فيحرقه ، وما أصدق من وصف الحب بالنار .

وكانت فاندا تسمعها وهي تزيد اصفراراً وتقول في نفسها : ويلاه انها بنت ثمان عشر ، أي في اول دور من ادوار الحياة حين تنفذ إلى القلوب فيه أشعة الغرام ، وترقى النفس فيه الى عرش الحب الأول . ويلاه لا يمكن ان تتلاقى الأشعة من هذين القلبين .

ثم عادت مس الن الى الحديث ومسحت دمعها فقالت : قلت لك يا فاندا اني سأبلغ بالتصريح الى أبعد غاياته ، وقد علمت من اقراري ان هذا الحب قد تمكن من قلبي فلا سبيل الى انتزاعه ، وقد بقي ان تعلمي اني عالمة بما بينك وبين الرئيس وبأنك تهوينه منذ أمد بعيد .

فوجف قلب فاند وعلمت ان ساعة النزاع قد دنت وانه لا سبيل مع هذه الفتاة المتدلهة الى لغة العقل فعولت على التصريح .

قالت: نعم أهواه فوق ما تهوينه وقد طفت معه البلاد وخاطرت من أجله بالحياة وامتزجت نفسه بنفسي فهو عندي بمنزلة الروح فلا يحق لسواي هواه ! فاصغي الي يا سيدتي ، انك طاهرة القلب عظيمة النفس وقد اوقفت ..

فامتعضت نفس مس الن وتغلبت فيها عواطف الشر فقالت : أرى انك لا يدفعك الى هذا القول غير ما تدعينه من الجمال ..

– بل هو صوت أرفع وأشد ، وهذا الصوت يوحي الي أن أقول ان في العالم أموراً يجب الحذر منها فهي لا تورث غير الندم وتقريع الضمير .

– اني لم أفهم ما تريدين .

– أريد أن اقول ايتها السيدة ان ضميرك سيقرعك أشد التقريع حين تحولين بيني وبين من أحب .

اني اذا بليت بالضعف في حبه فلا ارتكب ذنب الخداع في اخفاء هذا

الحب . نعم ، اني أعبده ولا أرى في هذا القول كفراً ولا الحاداً ، فاني قبل أن أراه لم اكن افتكر بغير الله ، ثم رأيته فصرت افتكر به وحده دون الله . الا ترين انه عندما نرى رسماً جميلاً كيف نمدح الرسم ونغفل عن امتداح الراسم ، أفلا نكون بامتداح الرسم قد امتدحنا الراسم ، لأنه مرجع الفضل اليه في ذلك الرسم . وكذلك روكامبول فان الله قد جعله على هذا المثال الجميل ، فاذا غفلت عن ذكر الصانع فلافتتاني بجمال المصنوع ، واذا عبدت روكامبول فأنا اعبد الله ، واذا كان هذا مبلغ حبه من قلبي ألا يكون انتزاعه كجناية على انه لا ينتزع من قلبي الا بانتزاع ذلك القلب .

فعضت مس الن شفتها من القهر وقالت في نفسها · ويلاه انها كلمات مرة ولكنها حق .

وعادت فانـدا الى الحديث فقالت : ان تعرضك لي في هـذا الحب يا سيدتي عدوان محض ، واساءة بينة ، وانا لم أسيء اليك في شيء ، فقد احببته قبل ان يكون في قلبك موضع للغرام ، وبعد فهل تظنين اذا رجعت عن حبه احبك اكثر مني .

– ربما لن اكون سعيدة معه ولكني أمنعه ان يكون سعيداً معك ، ومع سعادة العدو سعادة .

– اتعدين شقاء الناس سعادة ايتها اللادي ؟

فاضطربت مس الن وقالت اني لا ارى سعادة بعد سعادتي فاحذري ان اكون من اعدائك .

– أتحسبين اني اخشى انتقامك يا سيدتي ، كلا فقد بلغ بي الشقاء منتهاه فلم اعد اخشى مزيداً ولا وعيداً ، وانت تريدين ان اترك لك روكامبول فأقول خذيه ، ان الموت والحياة عندي ذلك الرجل الذي تريدين ان تسلخيه من نفسي القانطة ، فان هناء الغرام لا يدوم ايتها اللادي ، وضعي على رأسه بيدك اكليل الزفاف .

ولكن لا تنسي أيتها اللادي ان تنظري إلى خيالي الدموي ، فهو سيكون بينكما عند أول ليلة تتبادلان قبلات الغرام .

ثم خرجت فاندا وعلى وجهها علائم القنوط ، وقد نادتها مس ألن مراراً فلم تجب .

أما مس الن فقد أثر فيها كلام فاندا أشد تأثير ، حتى انها وقفت بعد انصرافها جامدة ساهية .

ثم انتفضت وجعلت تكلم نفسها فتقول : ماذا تقول هذه المنكودة ... أحلم ما رأيت . . كلا فان كلماتها لا تزال ترن في أذني وتقرع في قلبي ... الخيال الدموي . . قبلات الغرام .. أكليل الزفاف خذيه ... ويلاه بأي صوت كانت تقول خذيه وبأي نظر متقد كانت تنظر إلي خذيه .. كلا فغير ابنة بالمير تغتصب القلوب ...

والآن فقف ايها القلب الخفوق الدامي واحرق بوقيد نارك دموع عيني فامنعها او تسيل ، وأنت يا أماني الغرام وأحلام الهناء ارقدي بسلام آمنة ، فما أنت ثائرة بعد هذا الحين .

وعند ذلك جلست على كرسي ووضعت رأسها بين يديها ، وتاهت في مهامه التفكير كأنها حاولت الإقدام على أمر جليل فأخذت تفكر فيه .

ولنعد الآن الى فاندا فانها لم تقل قولها الأخير لمس الن إلا ليصيب غرضاً من غرضين ، وهما . إما ان تتأثر تلك الفتاة من كلامها وظواهر يأسها فتهزها الاريحية وتنثني عن ذلك الغرام .

وإما أن تعتقد انها ، أي فاندا ، قد تخلت لها حقيقة عن روكامبول فلا تقدم على الانتقام .

وإنما خشيت انتقامها ، لأنها كانت تعلم انها واقفة على جميع أسرار روكامبول ، فخشيت أن يحملها نزق الشباب على الانتقـام ، بافشاء تلك الأسرار .

وقد رأت من ملامح مس الن ، حين كانت تكلمها ، ان حيلتهـا قد جازت عليها ، فلم تجب نداءها حين نادتها ، وانصرفت وهي تتظاهر بأشد حالات اليأس .

حتى إذا باتت خارج المنزل ذهبت أعراض اليأس ، ولكن ظواهر التأثر والانفعال كانت لا تزال بادية عليها ، حتى وصلت إلى منزل العصابة ولقيت روكامبول خارجاً من الباب ، فعانقته ودموع الفرح تنهل من عينيها ، كما تقدم في الفصل السابق .

أما روكامبول فقد علم من اضطرابها انه قد جرى بينها وبين مس الن أمور خطيرة فسألها ان تقص عليه بالتفصيل كل ما جرى .

فروت له فاندا عند ذلك كل ما دار بينها من الحديث ، وأخبرته بحيلتها الأخيرة وانها ترجو ان تكون قد جازت على الفتاة .

فأطرق روكامبول هنيهة ثم قال : لم يبق بد من السفر في هذه الليـلة ،

فإن الغيرة ونزق الشباب قد يدفعانها إلى فعل ما لا تريد ان تفعله وخير لنا اتقاء الخطر .

ثم صعد مع فاندا الى المنزل ، وكان اللورد وليم ورجال العصابة ينتظرون عودته بفارغ الصبر ، وقد وجفت قلوبهم خوفاً لما رأوه من اضطرابه حين برحهم .

فلما رأوه عائداً مع فاندا فرحوا واستبشروا .

ثم نادى روكامبول مرميس وقال له : هل استأجرت الباخرة التي تنقلنا الى فرنسا ؟

-- نعم .

-- اين هي الآن ؟

-- في مرساها .

-- كيف اتفقت مع الربان ؟

-- على ان يكون موعد السفر بعد غد كما أمرتني .

-- كلا فاننا مسافرون بعد ساعة فأسرع الى الربان وقل له يتأهب وابق في الباخرة فاننا ذاهبون في أثرك .

فأسرع مرميس الى تنفيذ أوامر الرئيس وأخذ رفاقه يتأهبون للسفر ، فلم تمض ساعة حتى كانوا جميعهم في الباخرة .

فأمر روكامبول الربان ان يسير ، فرفعت المراسي وصفرت السفينة ، فأجابها أصوات رجال العصابة بالهتاف قائلين : ليحيى الوطن ! ليحيى روكامبول !..

ثم سارت الباخرة باللورد وليم ورجال العصابة وهم ينظرون الى روكامبول وفاندا ويبتسمون ابتسام الاستبشار .

أما فاندا فكانت متكئة على روكامبول تنظر اليه نظرات الدلال وتقول له : أما آن لنا ايها الحبيب ان نستريح ؟

وكان روكامبول ينظر اليها نظرات تشف عن الحب الصادق ، والحنان الشديد ، فتكاد تطير سروراً لأنها اول مرة جاهر فيها روكامبول بحبه لفاندا هذه المجاهرة .

- ٤٨ -

وبعد يومين كان اللورد وليم مقيماً في قصر أسرة باميلتون في باريس مع امرأته وأولاده ، ومرميس مقيماً في منزله ، وميلون يتفقد أعمـاله ، وجواني الجزار في حانوته ، وبوليت وامرأته عند أمه وفاندا مع روكامبول .

وقد ارتاحوا جميعهم مما لقوه من العناء ، واعتصبوا جميعهم على روكامبول يحاولون تزويجه بفاندا .

وكان يقطب حاجبيه عندما يذكرون له الزواج ويقول : إني لم أكفر عن ذنوبي بعد ، ولا يحق لي ان أستريح

ولما رأت العصابة ما كان من إصراره ، وما تولى فاندا من اليأس خافت على الرئيس أن يعود الى الأسفار والأخطار ، وخافت على فاندا ان يحملها اليأس على الانتحار .

فخطر لمرميس ان يستعين عليه بباكارا والكونت أرمان دي كركاز فزارهما والتمس منهما مساعدته على إقناع الرئيس .

وفي اليوم التالي جاء رسول الى روكامبول ، يدعوه الى زيارة الكونت أرمان دي كركاز .

فأسرع الى تلبية الدعوة معجباً لها ووجد عنده باكارا .

ولم يعلم أحد مـا دار بينهم من الحديث . غير ان روكامبـول خرج ،

بعد خلوة ساعات ، منخفض الرأس مغلوباً فانها أقنعاه على الزواج ، وعيناه بعد أسبوع .

فلما عاد الى المنزل الذي كان يقيم فيه مع فاندا ، وجد جميع العصابة فأيقن أنهم كانوا عالمين بسر دعوة الكونت ارمان له فنظر اليهم نظر المؤنب وقال لهم : أيكم الذي خان الرئيس ؟

ثم نظر إلى مرميس نظرة خاصة ، فلم يطق مرميس احتمالها وقال له : أنا هو يا سيدي ... فاني خشيت ان تعود الى المخاطرة وانت أحوج إلى الراحة بعد ما لقيته من العناء. أليس في باريس من الأعمال ما يشغلنا عن سواها من البلدان ؟ ألا تحب ان تقر عيون رجالك بولد يرث عنك تلك المبادىء الجليلة ؟..

فابتسم روكامبول ابتساماً ذهب بخوف مرميس وقال له : لقد شفع بهفوتك حسن قصدك فاحذر ان تعود الى مثلها .

ثم نظر الى فاندا وقال لها مبتسماً : لقد حكم علي الكونت وباكارا ورجالي بالزواج فهل أنت راضية بهذا الحكم ؟

فلما سمع رجال العصابة كلامه أيقنوا أنه رضي بالزواج فهتفوا هتافاً: ليحيى روكامبول ! ولتحيى فاندا !.

وفي اليوم الثاني ذهب روكامبول الى المستشفى الذي وضع فيه المركيز دي مورفر ، وهو ذلك المركيز الذي عذبته البستانية الحسناء عذاباً أفضى به الى الجنون ووجده قد شفي من جنونه فأخرجه منه وأعاد اليه ثروته وولده فكان سرور هذا المركيز بمنقذه ومنقذ ولده لا يوصف .

ثم تفقد ابن صديقه الرجاه الهندي فوجده على خير حال .

وذهب الى حنة ، والدة ابن ارلندا ، فأخبرهـــا بانضمام اللورد بالمير ، شقيق زوجها ، إلى الارلنديين ، وبغل يـد الأسقف . وانه ينتظر ورود كتاب من الكاهن صموئيل كي يرسلها مع ولدها إلى ارلندا ، فتقيم فيها آمنة كيد المعتدين .

ومرت أيام ذلك الأسبوع ، ورجال العصابة يهتمون بإعداد معدات الزفاف . وهم كلما خلوا بفاندا اتفقوا على مداعبتها وممازحتها ، حتى إذا أقبل الرئيس كفوا عن المزاح ووقفوا في مجلسه وقد رهبوا رهبة التلامذة بحضور الأستاذ .

إلى ان أنقضى ذلك الأسبوع ، ودنا ذلك اليوم العظيم الذي طالما حنت فاندا اليه . فذهب بها روكامبول الى الكنيسة يحيط بها رجال العصابة ، كما يحاط الأمير بحراسه .

حتى إذا وصلوا اليها وجدوا فيها الكونت ارمان دي كركاز والكونت دي ارتوف وامرأته باكارا والمركيز دي مورفر وابنه واللورد وليم وامرأته وحنة الارلندية وولدها وجميع الذين أحسن اليهم هذا الرجل العظيم صاحب الزفاف ووقاهم كيد الأشرار .

وقبل ان يشرع الكاهن بصلاة الإكليل ، دخل رجل يحمل بيديه علبتين ورسالتين فدفعهما إلى روكامبول .

وظهرت علائم السرور على وجوه رجال العصابة ، فان هـذا الرجل كان شوكنج .

أما روكامبول فانه فض إحدى الرسالتين ووجدها مذيلة بتوقيع الكاهن صموئيل فقرأ فيها ما يأتي :

« إلى ولدي الحبيب روكامبول

« يصل اليك شوكنج في اليـوم الذي تعين لزفافك المبارك ، إن شاء الله ، وقد علمت من مس الن خبر هذا الزفاف الميمـون ، فأسرعت الى تهنئتك ، وإني أهنئك بلسان كل ارلنـدي عرف نبل نفسك ، وشهـامة قلبك . وأسأل الله ان يجعل زفافك سعيداً هنيئاً ، محفوفاً باليمن والخير والبركات .

« ولقد أقر رأي الزعماء في جلسة عقدت خصيصاً ان يغتنموا هذه الفرصة ويرسلوا اليك أجل تذكار مقدس عندهم يحفظ عندك دليلاً على اعتراف ارلندا والارلنديين بما لك عليهم من المنة والفضل .

« وهذا التذكار صليب مرصع ، أهداه الارلنديون لأول أمير منهم بـدأ بالجهاد . فأصبح هذا التذكار وطنيـاً مقدساً ، بعد استشهـاد الأمير . وبقي محفوظاً في مركز الزعامة الكبرى إلى ان قررت اليوم إهداءه اليك فاقبله يا بني ، إنه خير من أوسمة الملوك فإن الوسام يهدى من واحد ، وهذا التذكار قد أهدي اليك من ملايين .

« نعم ، أرسلت اليك هـذا الكتاب مع شوكنج ، لأني قضيت بفضلك كل ما كنا نبتغيه من الجمعية الانجليكانيـة . وأطلقت الأسقف من قفصه الحديدي .

« ولكنه لم يخرج منه إلا بعد ان ذهب عقـله ، وهو الآن في ذلك المستشفى الذي وضع فيه ولتر بريس من قبل ، وقد أمن الناس أذاه .

« فأرسل يا بني ابن ارلندا ، زعيمنا الأكبر ، مع أمه ، فلا خوف عليـه

بيننا بعد الآن

« وفي الختام ، أسأل الله لك ولعروسك كل خير وهناء » .

« الكاهن صموئيل »

فاغتم روكامبول لجنون الأسقف ، إذ لم يكن يريد ان يبلغ به العقاب إلى هذا الحد ، ولكنه تعزى بأن أذاه قد امتنع عن الناس .

ثم فض الكتاب الثاني بيد تضطرب ، إذ علم من خط عنوانه انه من مس الن ، فقرأ ما يأتي :

« إلى أخي روكامبول واختي فاندا

« يصل اليكما كتابي هذا وأنتما في خير ما ترجوانه من نعيم الحياة ، وقد بلغ قلباكما الطاهران ما طالما تمنياه .

« وستقرآنه ونحن جميعاً في أقدس موقف ، فأنتما في الهيكل المقدس يعقد اليكما الكاهن إكليل الزفاف ، وأنا جاثية في غرفة من غرف الدير ، أدعو لكما دعاء مستجاباً باذن الله ، فان دعاء الإخلاص يبلغ الى ذلك العرش العالي .

« نعم لقد أوحى إلي جل جلاله ان أكون من خدامه ، فدخلت الدير لا قنوطاً من السعادة في هذه الدار بل ابتغاء لها في الأخرى .

« فادعوا لي كما أدعو لكم ، فإنكما خير من أحببت في هذا الوجود .

« ولقد أرسلت مع شوكنج علبة تحتوي على جميع ما كنت أتزين به من المجوهرات .

« ورجائي من الحبيبة فاندا ان تتكرم بقبولها هدية زفاف ، بل هدية من التي كانت تدعى من قبل مس الن وهي الآن تدعى الأخت

« ماري »

فأدمعت عينا روكامبول حنواً وسره هذا الانقلاب ، فانه كان يتوقع لها غير هذا المصير .

ثم دفع الجوهرات الى فاندا وسألهـــا ان تتزين بها ، وعلق هو صليب الارلنديين في عنقه . وعندها بدأت صلاة الإكليل .

وانتهت حفلة الإكليل وهنأ الجميع ذلك البطل الخالد وعلائم البشر بادية في ثنايا الوجوه .

فهم روكامبول بالانصراف مع عروسه وعصابتـه إلى منزله ، فحالت باكارا دون قصده ، ودعت الجميع إلى مأدبة أعدتها للعروسين والضيوف فلبوا الدعوة .

غير ان باكارا لم تذهب بهم إلى قصرها ، بل سارت بهم إلى منزل لم يكن روكامبول يعرفه من قبل .

وكان كل ما في هذا المنزل من الأثاث والرياش جديداً من أتقن ما جادت به يد الصناعة .

وهناك بسطت الموائـد فأكل المدعوون مـا لذ وطاب . ثم جـاء دور الأنخاب .

فنهضت باكارا وكأسها بيدها فشربت نخب العروسين وقالت : إن بيني وبين روكامبول اتفاقاً في السيرة من البدء إلى المصير ، وائتلافـاً في الحياة من المبدأ الى الغاية .

ولذلك أسأله بحق هذا الاتفاق ان يقبل مني هذا المنزل وما فيه هدية زفاف أرجو ان يكون سعيداً بإذن الله .

ثم وضعت حجة المنزل أمامه فابتسم ولم يجب .

ووقف بعدها المركيز دي مورفز فشرب نخب العروســين وقال : إنكم تعلمون جميعاً اني مدين لهذا الكريم بثروتي وعقلي وحياتي وحياة ولدي ، فلا أجسر على مكافأته فليس لعمله جزاء يفي حق فضله في هذه الديار ، ولكني أقتسم هذه الثروة التي ردها إلي بيني وبينه وبين ولدي ، وأرجو ان يقبل حظه من القسمة هدية زفاف .

ثم وضع أمامه محفظة محشوة بالأوراق

فابتسم روكامبول ولم يجب .

ووقف بعده اللورد وليم فشرب النخب وقال : إني لا أقل عن حضرة المركيز إمتناناً لمنقذي ، فاني مثله مدين له بالثروة والحياة وإنقاذ العقـــل والبنين . فأنا أقف لك نصف ريع ثروتي الطائلة ولأولادك من بعـدك ، وأرجو من سيدي روكامبول ان يكون حظ هذه القسمة القبول

ثم وضع أمامه حجة الوقف .

وعند ذلك وقف الكونت دي كركاز وهم ان يتكلم ، فسبقـه روكامبول الى الكلام وقال : من الأمثال المأثورة يا سادتي ان الإحسان يطلق اللسان ، ولكن هذه الأمثـال لا تنطبق علي ، لأني لا أجد كلاماً يعرب عما يخالج قلبي من الامتنان .

لقد عرفتم ايها السادة تاريخ حياتي التي سودتها الجرائم والآثام الى ان قدر الله لذاك اللص ان يتوب ولذاك السفاك ان يندم ، ويرجـو ان يلقى الله بوجه لا يسود .

وكيف القاه بهذا الوجه إذا لم أكفر عـن تلك الذنوب ؟ وإذا قبلت من الكونتس ارتوف تلك الهبة ، ورضيت إن أقتسم ثروة اللورد والمركيز فكيف أكون كفرت عن ذنوبي ؟

إني التمس منـكم ان أرفض هذه الهبـات شاكراً ممتناً ، فمـا أنا من طلاب المال والعقار ، ولم يبق لي مأرب في الحياة غير التكفير والاستغفار . على إني أقبل هبة واحدة ، وهي هبة التمسها التماساً من الكونت أرمان دي كركاز .

إن لسيدي الكونت بوليساً سرياً في باريس ، يرشـده إلى كل منكود والى كل ظالم محتال ، والى كل من أناخ به الدهر وجور المعتدين .

وقد كان لهذا البوليس رئيس يخدع الكونت ، وكنت من عصابة ذاك

الرئيس في عهد الشر والغواية .

فأنا التمس من سيدي الكونت ان يجعلني رئيساً لبوليسه الخيري وهذا كل ما أبتغيه .

فأكبر الحضور علو نفسه وأعجبوا بشهامته ، ورأوا من لهجته ان لا سبيل الى اثنائه عن عزمه فاسترجع كل على الكره منه ما وهب .

وتفرقوا ، يلهجون بمواهب هذا الرجل الكبير ، وكلهم منه بين الإعجاب والعجب .

وأرجع روكامبول ابن ارلندا وامه الى الكاهن حموئيل ، واعاد رجال عصابته الى الانضمام تحت لوائه وتقلد رئاسة بوليس الكونت أرمان أعواماً طويلة .

واستعان بأموال مرميس فأنشأ منها محافل للبر والمعروف ، لا تزال آثارها باقية الى الآن .

وقد مضى على عهد زواجه ثلاثون عاماً لم يرزقه الله ولداً ، فكان ولده تلميذه مرميس

إن الشيخ الهزيل هرم وتشنج جلده نحولاً .
قلب عليه الدهر مجنه، فغاضه من نضارة عوده ذبولاً . واعوجت قناته فتوكأ على العصا .
إنه كالنسر من قمة الى قمة يرقى . وأين له همة النسور وقد فصمت منه العرى ؟

* * *

وإن في أثره كهلاً وخطه الشيب ، وهو يسير سير الفتى . وما فتىء مفتول الساعد جزل القوى . وقد ومض الذكاء من عينيه برقاً . إنه يستوقف الشيخ فلا يريد الرجعى .
يقول : قف يا أبتاه حسبك وكفى . إن شدتك قد ولت وان عظمك قد دق وهذا السير يهد منك القوى .

— سر يا بني إنها دقائق معدودة فأستريح أبداً .
— إلى اين تريد البلوغ من هذه القمة العالية ؟

— إلى هوة الأبد القصيا . إن الناس ينزلون إلى قبورهم وأنا أذهب الى القبر صعداً .
— علو في الحياة وفي الممات أيضاً . . إنها معجزة ، ما متع الدهر بها أحداً .

وتأبط الشيخ ذراع الكهل فاستعان به على ارتقاء الذرى .

وهناك شجرة باسقة خرجت أغصانها من سقف قبة ولها فروع تتدلى . وتكاثفت أوراقها فغطت جوانب القبة الناصعة بياضاً .

* * *

أشرف الشيخ من فوق القمة وقال : سلام على الأرض ومن فيها ، إنها آخر نظرة الى الوجود . ثم يأكل لحمي الدود .

سبحانك اللهم اني تماديت في الغي وتهت في الضلالة . وهذا عبدك قد تاب وارعوى .

اللهم أقلني عثرتي وتجاوز عن ذنبي . إنك أرحم من أغضى .

اللهم اني استكملت مدتي ، وبلغت الميقات . فانقلني إلى دار كرامتك ، إن عبدك قد أودى .

* * *

وفتح الشيخ باب القبة وقال : تعال يا بني ، هنا ولدت لأموت ، وهنا أموت لأحيى .

فاجأ أمي المخاض عند جزع هذه الشجرة ، وكانت إمرأة سوء بغياً . هنا ولدتني بالإثم فكفلتني بغي مثلها فخرجت لصاً شقياً .

القني يا بني فوق هذا العشب ، إنه فراش الموت وأنعم به فراشاً وثيراً . ولا تلقيني في قبر ضيق الأرجاء ، بل تحت هذه القبة الزرقاء في فسيح الخلاء أموت قريراً . سعة في الفناء لم تدرك في البقاء ، ولو بت طعم طير السماء ووحش الفلاء .

واعلم يا بني إنك بت بعدي فريداً أوحداً .

فاعمل بما علمتك ، واحي الناس تلق رشداً . واعمل ليومك كأنك تعيش أبداً ، ولغدك كأنك تموت غداً .

هذه وصيتي ، يا بني ، فاركع وادع لي الله يحشرني بين عباده الصالحين تنل ثواباً .

* * *

فبكى الكهل حتى اخضل عارضـــاه ، وجزع الشيخ فقال : علام البكاء ؟ أعلى الحياة وهي من بنـــات الموت ؟.. أم على نفسي وهي من بنات الخلود ؟..

لا تبك يا بني من مات بل إبك من بقي حياً .\ واطبق الآن عيني فقد دنت الساعة وآن لي بهذا الموت ان أحيى ..

وانقطع صوت الشيخ ، وأخـذت الروح تحشرج في صـدره ، فتخرج زفـيراً .

* * *

وكان هذا آخر العهد به ، فخرج الكهل من القبة تكاد تبيض عينيـه من البكاء والحسرات . فأقفل الباب وكتب فوقه :

« هذا الذي مات بالحياة ، وعاش بالممات »

إن هذا الشيخ كان روكامبول وهذا الكهل مرميس ، إذ لم يبق من عصابة

روكامبول في عهد موته غير تلميذ روكامبول .

وإن من زار قرية بوجيال وصعد الى قمتها العالية ، يجد في أعلى تلك القمة قبة جعلها الناس مزاراً ، وقد رسم على بابها روكامبول وعصابته .

فرحم الله تلك الأرواح الطاهرة ، ورحم من ترحم عليها .

طانيوس عبده

تمت رواية « روكامبول » ١٧ جزءاً في ٤ مجلدات

تحت الطبع رواية « ام روكامبول »

وهي ٥ أجزاء في مجلد واحد

ص. ب ٨٧٣٧
تلفون : ٢٦٦١٥٨

تلكس : دارجيل ٢٣٤٣٠
Telex : DARJIL 23430

١٩٨٠

RIWAYAT RUCAMBUL

AL-MAKTABA AL-THAKAFIYAT